

نور الأندلس

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصديدها مشيخنا الأزهري الشريف

تظهر غرفة كل شهر عربي

فهرس

المجلد الثالث

• مطبعة المعاهد الدينية •

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

فهرس الموضوعات

الموضوع	بقلم	صفحة
(١)		
الاجتماع — والعزلة	فضيلة الأستاذ رئيس التحرير	٦٦٣
الاجتهاد — والتقليد	» » الشيخ طه حبيب	٢٨٠
أخبار انتشار الثقافة الاسلامية في الخارج	قلم الترجمة	٢٨٨
الأخوة الاسلامية — ودار الاسلام	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٢٧٢
استدراك	» » محمود أبى دققة	٦٦
استعمار المناطق الشمالية في أمريكا	قلم الترجمة	٢٩٥
أسطورة داروين	» »	٥٨٣، ٤٤٢
الاسلام في المناطق الغربية من أفريقيا الشرقية	» »	٦٨
إسلام أميرة انكليزية	٥٧٠
الاسلام — حاضره ومستقبله	قلم الترجمة	٥٧٤، ٥٠٩
الاسلام في السودان	» »	٧٠٩، ٦٥٢
الاسلام دين البشر	٦٥٧
أسماء الله تعالى — ولفظ « أه »	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٤٩٧
أصل إسلام البوشناق	٤٤٠
اعتراف أجنبي بفضل الاسلام	صاحب العزة مدير المجلة	٢٥٣
الأقاليم الجليدية في القطب الجنوبي	قلم الترجمة	٢٢٠، ١٤٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٣٦٣

الموضوع	بقلم	صفحة
أوراق اليانصيب	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٢٠٢
أين مقر الأرواح بعد الموت	» » يوسف الدجوى	٢٦٣
(ب)		
البغاء الرسمى	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نجيت	٤٣٧
البوصلة فى المملكة النباتية	قلم الترجمة	٧٣
(ت)		
ترتيب القرآن	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٥٥٥
ترجمة مقال حقوق الزوجين	٦٩٣
تطعيم الاشجار	قلم الترجمة	٣٦٥
التفاضل بين آيات القرآن العزيز وسوره	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٤٩٩
تفسير سورة النور	» » ابراهيم الجبالى	١٦٦٠٩٢٠٢١ ٣٨٣-٣١٧-٢٤٥ ٥٢٧٠٤٦٤ ٦٧٠٠٥٩٦
تكذيب مزاعم فى مجلة المنار	٣٦٤
التوبة عن السيئات	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٤٣٠
(ث)		
الثقافة الاسلامية فى الخارج	قلم الترجمة	٣٠٠
(ح)		
الحج	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٦٩٤
حديث « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٥٤٥
حكم الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأذان	» » »	٤٢

الموضوع	يتسلم	صفحة
حكم رؤية الرقص — والدماع	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٤١٦
حكم الغناء	» » »	٤١٧
حكم التداوى بالخمر — وحكم « السبرتو »	» » »	٤٩٠
حكم النظر الى المرأة الأجنبية بواسطة المرأة ...	» » »	٤٩٢
حكم قراءة القرآن والأذكار في تشييع الجنائز ...	» » »	٤٩٣
حكم بيع الصور المصنوعة من الحلوى وشراؤها ...	» » »	٤٩٤
حكم الحفنة داخل الجلد للصائم	» » »	٥٠٢
حكم التلهى ببعض الألعاب	» » »	٥٦٨
حكم الصوم	» » محمد سليمان	٦١٩
حياة الأنبياء وحديث « حياتي خير لكم » ...	» » يوسف الدجوى	١١٦
(٥)		
دفع شبهة عن مقال الزار	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٦٣٥
(٥)		
ذكر قصص الأنبياء في القرآن	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٦٨٥، ١٧٩
الذكريات الاسلامية في الهجرة والمولد النبويين	» » ابراهيم الجبالى	١٨٨
الذهب فى منشوريا	قلم الترجمة	٣٦٩
(ر)		
رؤيا الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية	فضيلة الأستاذ الشيخ محمود يس	٤٣٣، ٢٨٩
الرؤيا ليست طريقا للأحكام الشرعية	» » رئيس التحرير	٢١٣
رابطة الثقافة الاسلامية بفينا	٧٠٨
الربا	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	٤٢٤

الموضوع	بقلم	صفحة
رد فرية قاديانية	قلم التحرير	٦٥١
الرضاع	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٦٢٧
الرفق بالحيوان	» » رئيس التحرير	٨٣
(ز)		
زكاة الورق النقدي	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٢٠٩
زيارة جلالة الملك المعظم للجامعة المصرية	٤٨
(س)		
سد الذرائع	فضيلة الأستاذ رئيس التحرير	٥١٩
(ش)		
شبهة ماخذ	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٤٨١
شد الرحال لزيارة تبر رسول الله صلى الله عليه وسلم	» » » طه حبيب	٥٦١
شرح حديث شريف	» » » ابراهيم الجبالى	٢٥٥، ١٠٨، ٣٦ ٤٧٧-٣٩١، ٣٤١
الشرعية الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ...	» » رئيس التحرير	٦٠٥، ٥٤٠
الشعر	» » رئيس التحرير	٥١٩ ، ١٥٩
شكر عالم غيور	» » رئيس التحرير	٦٣٧
...	٧١٨
(ص)		
صاحب المنار والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاذان	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٣٣٠
صفحة من حياة أبى الحسن الأشعرى	» » رئيس التحرير	٣٠٣
الصلاة فى الطيارة	» » الشيخ طه حبيب	٣٥٦
الصلاة خلف جزار	» » يوسف الدجوى	٦٢٨

الموضوع	بقام	صفحة
صلاة جار المسجد فى بيته مع زوجه	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٦٣٠
الصوم	» » طه حبيب	٦٠٩
(ط)		
طائفة التاديبانية — أو غلام أحمد	فضيلة الأستاذ رئيس التحرير	٤٤٧
طائفة البهائية	قلم التحرير	٥٥٤
الطيرة	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٤٣٠
(ع)		
العالم الذى نوه الدين بذكره	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	١٠٠
عبد الله بن سلام وكعب الأخبار ووهب بن دنبه	» » »	٢٠٥
العدوى	» » طه حبيب	٤٠٨
عذاب القبر	» » »	٦٣١
(ف)		
فضل اللغة العربية ومسايرتها للعلوم والمدنية ...	فضيلة الأستاذ رئيس التحرير	٢٣١
فضل شهر رمضان	» » »	٥٩١
فى كلية أصول الدين — خطبة الافتتاح	» » عبد المجيد اللبان	٥٠٥
فى الكهرياء الجارية	صاحب العزة مدير المجلة	١٥٠
(ق)		
القرآن	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	٥٦٥
(ك)		
كتاب جديد عن الاسلام	قلم الترجمة	٧١٩
كلمة فى ترجمة القرآن الكريم	فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبى دقينة	٢٩

صفحة	بقلم	الموضوع
٥٧	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	الكلام فى ترجمة القرآن
٦٥٨	صاحب العزة مدير المجلة	الكهرباء
٧٢٦	قلم الترجمة	كيف انتشر الاسلام
		(ل)
٥٠١	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	ليلة النصف من شعبان — ودعاؤها
		(م)
٢١٦	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	مبحث الزار
٦٧٩	» » » ابراهيم الجبالى	مثل البخل والمنفق
٣٧٥	» » » رئيس التحرير	محاكاة المسلمين للأجانب
٢٢٥، ١٤٥، ٧٤	قلم الترجمة	المسلمون فى جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة
٣٥٧	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	المسيح الدجال — والمهسدى
١٥٩	» » » رئيس التحرير	المصالح المرسله
٣	» » »	مقدمة
١٣٨	» » »	مولد النبى صلى الله عليه وسلم
		(ن)
٣٥٢	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	النذر
١٢٢	» » » ابراهيم الجبالى	النسخ
٧	» » » رئيس التحرير	نقد آراء الأستاذ فريد وحدى من الناحية الدينية والاجتماعية
١٣٣، ٤٩	» » » الشيخ محمد سليمان	نقد كتاب حديث الأربعاء
		(هـ)
٤٩٥	فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب	هل أطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الغيب؟
٣٩٧	» » » يوسف الدجوى	هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء؟

فهرس الخطأ والصواب

ص	س	خطا	صواب	ص	س	خطا	صواب
		الجزء الأول				قد استمر	قد استمر
٤٠	٢	أثرابه	أثرابه	٥٥٧	٢١	أن يستمر	أن يستمر
٤٥	١٨	أماى	إماى	٥٥٩	١٤	واستمر	واستمر
		الجزء الخامس				الجزء التاسع	
٣١٣	٢١	صدعى	صرعى	٥٩٢	١٥	من تلاوته يظهر	من تلاوته في شهر رمضان يظهر
		الجزء السابع		٥٩٢	١٩	قربة يبعث	قربة تبعث
٤٦٥	١٧	داوعيمهم	دواعيمهم			الجزء العاشر	
		الجزء الثامن				فى وجود	فى وجوده
٥٢٠	٩	أنه يثير	أن النظر يثير	٦٩٩	١١	وجزوع	وجذوع
٥٢٨	٨	المسفاحين	المساخين	٧٢٣	٦	المواهب الادبية	المواهب الحفية
٥٢٨	٢٠	يقوم ذلك	يقوم فيها ذلك	٧٢٣	٧	عام ١٩٢٩	عام ١٩٢٨
٥٣٩	١٠	وحدودها	وحدودها	٧٢٤	٤	خلوا تماما	خلوا تاما

ووقع خطأ في رقم الصفحات : ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٣ من الجزء الأول نرجو من القارئ

الكريم ملاحظته .

ERRATA :

Volume II English Supplement

Page	84	Line	15	hatl	Should read	had
»	90	»	25	Moammad	»	Mohammad
»	92	»	2	of	»	or
»	93	»	32	was	»	be
»	95	»	23	Sufist	»	Sufi
»	95	»	31	Sufists	»	Sufis
»	95	»	22	Mohammad	»	Al - Harith
»	96	»	22	Al - Harith	»	Mohammad
»	96	»	23	repeated	»	said
»	96	»	30	was about to	»	had
»	96	»	30	partake	»	partaken
»	97	»	13	on	»	at
»	97	»	18	is	»	is not
»	101	»	1	uplighting	»	uplifting
»	101	»	21	banal	»	baneful
»	105	»	2	warshipper	»	worshipper
»	105	»	19	men's	»	man's
»	106	»	8	whielded	»	wielded
»	106	»	26	clange	»	change
»	109	»	14	being	»	character
»	110	»	3	smirched	»	bесmirched
»	113	»	2	has	»	have
»	118	»	2	acknowledgnig	»	in recognition of
»	120	»	7	past deeds	»	past
»	5	»	25	far	»	for
»	7	»	27	theartening	»	threatening
»	7	»	32	him	»	them
»	8	»	13	Al - Gouth	»	Al - Gourh
»	12	»	39	threat	»	treat
»	13	»	8	them	»	the treaters
»	14	»	13	to	»	no
»	16	»	20	disbedief	»	disbelief
»	16	»	38	observation	»	observance
»	17	»	10	be	»	he
»	18	»	27	And	»	He
»	19	»	2	debars	»	debars from
»	19	»	4	question	»	questions
»	24	»	21	animals	»	animal
»	24	»	33	forbiden	»	forbidden
»	31	»	6	charitable	»	humane

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ نُورَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

نور الأندلس

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكومية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غمرة كل شهر عربي

مكتبة
طبعة
١٩٤٦
٢٢٢٢٦
عبد
خمس
دور



الجزء الاول	محرم سنة ١٣٥١	المجلد الثالث
مدير إدارة المجلة عبد المحسن بن المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى سابقا	رئيس التحرير السيد محمد الخضر بن من علماء الأزهر	
الإدارة شارع محمد مظلوم باشا رقم ١ تليفون : ٨٤٣٣٢ الرسائل تكون باسم مدير المجلة	الاشتراك داخل القطر المصري ٤٠ للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس ٢٠ خارج القطر المصري ٥٠ طلبة المعاهد والمدارس ٣٠	

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وتمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٣٥١ - ١٩٣٢ م

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك اللهم حمدا يصل جديد النعم بقديتها، ونسألك توفيقا نحتمي به من عثرات الأقدام حقيرها وعظيمها، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الذي أفضت عليه كمالا يقصر البلغاء عن وصفه، وأنزلت عليه كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى آله الذين اتقوا حق تقاوتك، وأصحابه الذين جاهدوا في الحق ابتغاء مرضاتك. أما بعد فقد قضت هذه المحلة سنتها الثانية، تثبت المؤمنين، وتنبيه الغافلين، وتلقن من لم يكونوا يعلمون، وتدفع عن الحقائق من يفسدون فيها وهم يشعرون أو لا يشعرون، وتتقبل من الجديد ما كان رأيا صائبا أو عملا حسنا، وتنذ من القديم ما كان رأيا خاطئا أو فعلا عبثا، فاذا هرع قوم الى جديد لا ينفع، احتفظت برصانتها، واذا جمد قوم على قديم لا يصلح، زهدت في أن يكونوا بجانبها، فلا تمديدها الى جديد زائف، ولا تقبضها على قديم معطل.

ولم يفتها بحمد الله أن نجاح البحث في تجريد النظر من العوامل الخارجية عن قوانين المنطق، وليست مع تثبتها ورعاية آداب البحث جهدها، بمدعية الإصالة في كل ما تقول، وإنما هي أقلام في أيدي بشر ليسوا بمعصومين من الزلل، ومن تصدى للتحرير وادعى لنفسه العصمة الخالدة، فقد ادعى ما لم يظفر به الراسخون في العلم من قبله، وتفاضل الباحثين يرجع الى كثرة ما يصيبون، فالسابق في حلبة التحرير من يكون فله أكثر إنتاجا للحقائق مما سواه.

لاحظت المجلة أن في المضلين من يكشف الغطاء عن سريره، ويركب الصراحة في دعايته، ومنهم من يدس الباطل في عبارات يصيغها بما يشبه لون الحق، فيكون أثرد في نفوس بعض الأحداث أشد من أثر الداعي إلى الضلالة علانية، فلم تقصر المجلة جهادها على دفاع ما يصدع به المبطلون من آرائهم المردية، وعينت بنقد المقالات أو المؤلفات التي تصدر تحت اسم البحث العلمي، أو الدعوة إلى التجديد، وهي تنطوي على روح لا يأتي على نفس غافلة إلا أطفأ نورها، وخالطها من الحيرة أو الجحود ما كان بعيداً منها.

خطة مبيتة تلك التي يريك أصحابها أنهم يذودون عن حوزة الدين، أو أنهم يبتغونه في الحياة سبيلاً، حتى إذا هاجت شهواتهم أو عواطفهم القومية أو الشخصية جروا معها أينما جرت، ووضعوا على أقلامهم أو ألسنتهم طلاء من الرياء، والرياء كالزجاجة لا يخفي سرائر الكتاب أو الخطباء على الناظرين.

والبارعون في نصب المكائد لاحق أصبحوا يتسابقون في هذه الطريقة، ولا يبالون أن يرفعوا من شأن الدين أو المبعوث به، في إحدى الجمل، ثم يكيّدون له في جمل أخرى، وبلغوا في صلابة الجبين أن ترى أحدهم يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشد ما يؤذيه به عدوه الكاشح، ويضع على هذا الإيذاء نقاباً من مثل تسميته بالنبي، وقوله كما يقول المؤمنون: «صلى الله عليه وسلم» ولا يتباطأ قلم أحدهم عن أن يصف الدين بالسماحة والحكمة، ويخفي إلحاده إلى أن يتحدث عن شيء من أصوله أو أحكامه المفصلة، فتراد ساعتئذ ينسكرها متغافلاً عن أنها من الدين، أو متأولاً لنصوصه التي لا تقبل التأويل، وأصحاب هذه الطريقة يعدون أولئك الذين يحاربون الدين جهرة من البله الذين لا يعرفون كيف يهدمون.

وكان هذه الخطة مبيتة بين طوائف من الزائغين وإن كانوا يتفاوتون في صيغة النفاق التي يضعونها على ألسنتهم أو أقلامهم، فمنهم نفر يشعر بعدائهم للدين كل من

فيه شيء من سلامة الفطرة ، ومنهم من تخفى سرائرهم تحت غشاء من المداجاة ، فلا يظن لما يعمرون به إلا من تتبع حركة الإلحاد في جماعات مختلفة ، فعرف الروح الذي تشترك فيه دعايتهم ، واللهجة التي تواطأت عليها ألسنتهم ، ولم استدرجت هذه الخطة المبيتة من نفوس كانت على هدى ، فأصبحت في عماية ، وأمكنها أن تفعل فعلتها ، لقلة تصدى أهل العلم لنقدها ، واختراقهم غشاوة النفاق الى ما وراءها ، وقد تصدت المجلة وستتصدى بتوفيق الله تعالى لنقد المقالات والكتيب التي تحس فيها نزوعا الى إباحية أو إلحاد ، ولا سيما مقالات أو كتب يسبق الى ظنون كثير من قرائها أنها صادرة من باحث أمين .

كنت اطلعت على مقال صنعه على هذه الطريقة الخطرة كاتب كان الناس يظنون به خيراً ، وحدثت أستاذاً كبيراً متخرجاً في الحقوق عما انطوى عليه المقال من هزات يمس بها الدين وبعض رجال الاسلام ، فلم يكذب بشيء مما حدثته حتى ناولته المقال ، فأثنى على آخره ، وطوى الصحيفة وهو يقول : « ليس هذا المقال بإنشاء مسلم » وبعبارة الأسف على أن يوجه لصاحب المقال خطاباً يتكشف به مقصده من ذلك المقال ، فكان جوابه السكوت عن الجواب . والمجلة ترى أن التصدي لنقد أمثال هذا المقال ، وتنبيه المسلمين لهذه الحبال التي ينصبها دعاة السوء ، مما يقيم الحاجز بين المؤمنين والمنافقين ، وألف من المسلمين بحق ، أفضل وأقدر على العمل للعزة والكرامة من ملايين يقولون آمنا وهم لم يؤمنوا .

وقعت هذه المجلة بحمد الله تعالى موقع ما يسد أبواباً من الشر كانت مفتحة ، بل موقع المنهل العذب يرده الظمان فيبيل منه كبده ، ويشفي غلته . ويؤكد ما نقوله شدة إقبال الطبقات المستنيرة على قراءتها ، وحرصهم على اقتنائها ، وإعراهم في مراسلاتهم عن الاغتياب بها ، واذا سامتها بعض الألسنة سوءاً ، فإن الأذواق المعتلة تنكر طعم الماء وهو العذب القراح .

وفي الناس من لا يرضى عنك حتى تصدر عن رأيه ، وتنطق بلسانه ، وأنى لك بأن تتفق في العلم آراءهم ، وتتواطأ على قول الحق ألسنتهم ، فتطمع أن تحرز مرضاتهم . وفيهم من لا يرضى عنك حتى يراك صامتا ، وعن عمل الخير منقطعا ، وهل في استطاعتك أن تنتزع هذا الخلق من كل صدر ، فلا يبقى له أثر على وجه الأرض ؟ .

نعم لا يتفقون في العلم ، ولا يتواطئون على قول الحق ، ولم يخلقوا خلق الملائكة فيتظاهروا على حب الخير ، فما على المجلة إلا أن تخلص لله عملها ، ومن ناقشها في أدب الباحث عن الحق ، قابله بالارتياح والشكر ، ومن تخطى هذا الأدب ، أخذت بالتي هي أحسن من إجابته أو السكوت عنه .

أرادت المجلة أن يتعدى نفعها الى من لا يفهمون اللغة العربية فاختصت بعض صفحاتها بنقل مقالات أو مؤلفات دينية من العربية الى اللسان الانجليزي ، وكانت هذه الصفحات صلة تعارف بين المجلة وكثير من المسلمين في الصين والهند وأميركا وأوربا وغيرها ، وقد ضمت المجلة هذا العمل الى ما ينقله حضرات مترجميها من الصحف أو المؤلفات الأجنبية الى العربية ، فكانت تجمع هداية اسلامية وثقافة عامية . وقبل أن تنتهي من هذه المقدمة نبدي خالص الشكر لحضرات السادة الذين زودوا المجلة بمقالات قيمة ، أوصاغوا في تقريرها كلمات طيبة ، أودعوا الى اقتنائها ، ابتغاء علو الحق على الباطل ، وظهور السنة على البدعة (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) م

محمد الخضير



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نقد آراء

للاستاذ فريد وجدي

منه النامية الرفيعة والاجتماعية^(١)

كنا نقرأ للأستاذ فريد وجدي بعض مؤلفات ، فنرى فيها جملاً يحيد بها عن السبيل ، ولكننا نزنها بما كان يكتبه في تأييد الاسلام ، فيبدو لنا أن صوابه أكثر من خطئه ، ونحمل ذلك الخطأ على أنه وليد نظرة متسريعة ، أو نلتمس له العذر من ناحية أنه لم يدرس علوم الدين وتاريخ الاسلام دراسة تحميه من أن يشذ عن الجادة الى مكان بعيد . وللأستاذ المرحوم أحمد تيمور باشا تأليف في بيان ما اشتملت عليه دائرة معارف الأستاذ فريد وجدي من الخطأ الفاحش في التاريخ .

ما زلنا نعتقد أن الأستاذ في صفوف الدعاة الى الحق والإصلاح على الرغم مما كان يظهر في بعض منشآته من شذوذ ، حتى قرأنا له منذ ثلاث سنين مقالا في مجلة تصدر في حلب يقال لها « الحديث » فأحسستنا في هذا المقال روحا تخذل الروح الذي كان يتردد فيما ألفه من قبل ، ولبثنا غير بعيد ، فاذا نحن نقرأ للأستاذ ثلاث مقالات نشرها في جريدة « الاهرام » تحت عنوان « الدعوة الى التجديد » فتزحزح فيها عن

(١) المحاضرة الاولى من المحاضرات التي ألقاها صاحب التوقيع بدار جمعية الهداية الاسلامية بالقاهرة

سيرته الأولى أكثر مما ترحزح ، وجعل ناقدى مقالاته يحسبون قلمه فى الأعلام التى تستخف بأمر الدين فى غير رصانة ، وأتبع هذه المقالات بمقالة جعل عنوانها « سطوة الإلحاد على الأديان » وأكبر فى هذا المقال حركة الإلحاد ، وادعى أن رجال الدين ليس بيدى سلاح يقاوم سلاح الملحدين .

كنا نقرأ هذه المقالات ، ونصرف عنها النظر رجاء أن يجد الأستاذ من نفسه واعظاً ، أو من كتاب الله الذى اقتحم تفسيره منها ، حتى نشر الأستاذ الشيخ محمد النفترانى فى جريدة الاهرام مقالا نقده فيه ما وقع فى بعض بلاد الاسلام من ترجمة القرآن الى غير العربية لتقوم الترجمة مقام الأصل ، فكان من الأستاذ فريد وجدي أن جرد قلمه ، وانهاه ليجد ذلك العمل ويطرى من ارتكبه فى إغراق ، واستبان من لهجته أنه انقلب الى دعاية لو أساغتها العتول ، وأسامت اليها النفوس ، لقوضت باسم التجديد ما تعبت يد الإصلاح فى بنائه .

ذلك ما دعانى الى أن أنقل من تلك المقالات قطعاً متجافية عن الحقيقة ، حتى اذا شئت أيها الناشئ أن تقرأ شيئاً مما يخطه قلمه ، قرأته وأنت على بينة من أنه لا يملك لعواطفه مردداً .

نقد مقال المدرج بمجلة الحديث^(١)

اندفع الأستاذ فى هذا المقال اندفاع من تسحرهم المدنية الأوروبية ، فينظرون الى كل ما تقع عليه أبصارهم من شئون أوربا وعاداتها باستحيان بالغ وإعجاب ، فأسرف فى إطارها ، وطاش قلمه فى تفضيلها ، ولو أراد الأستاذ أن يصف روح العصر الحاضر كما يصفه الناقد الرصين لما أحس فى نفسه الحاجة الى أن يمهد لمديحه بامز العصور الاسلامية حتى عهد الخلفاء الراشدين ، ولكنه استعجب أن يرسل قلمه

(١) فى شهر كانون سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « روح العصر الحاضر نعمة إلهية » .

فى المديح مخلوع العذار ، وأن يخيّل الى الناس صحة ما يدعيه من أن « روح العصر الحاضر نفحة إلهية » فذهب يفتش فى تاريخ صدر الاسلام ويلتقط ما حدث فيه من فتن ومنازعات ، ولم يجد فى صدره حرجاً أن يتعرض لعهد الخلفاء الراشدين وهو يخاطب شبانا يحتاجون الى ما يذكرهم بعظمة أسلافهم ، ولا خير لهم فى أن يرسم لماضى أمتهم صورة مشوهة ، ثم يضع لحاضر أوربا صورة يدعى لها من السكّال ما لا تعرفه أوربا نفسها . ولو سلك الأستاذ فى إنغمازه ، وإطرائه طريق الإنصاف لوجد من لدنا عذراء ، ولكنه يعتسف الحديث اعتسافاً .

نبش الأستاذ تاريخ صدر الاسلام منقباً عما حدث فيه من فتن ، ثم قال : « فإن العناصر الأدبية التى تتألف منها الروح العصرية أرقى بما لا يقدر من كل ما سبقه من العصور الخالية » .

ذكر الأستاذ فى جملة ما أنغمز فيه من العصور الخالية عصر الخلفاء الراشدين ثم حكم بأن العصر الحاضر أرقى أدباً من كل ما سبقه من العصور الماضية ، فهو لا يبالي أن يجعل العصر الحاضر أفضل من ذلك العصر الذهبي وأرجح وزناً . ولو كان الأستاذ يتحدث عن العلوم الكونية والفنون والصنائع والبراعة فى الاختراع لما وجد منازعاً فى أن نصيب العصر الحاضر من هذه العلوم والفنون أوفر من انصباها ما سبقه من العصور الخالية ، ولكنه يتحدث عن أدب النفس ، وكل إنسان يدرس علم أحوال النفس بالمعية ناقبة ونظر مطمئن ، ثم يقيس حال الناس اليوم بحال الناس فى صدر الاسلام ينكر على الأستاذ هذا التفضيل ويراه مرتكباً فى حكمه شططاً .

واذا أخذ علم الأخلاق فى هذا العصر بحثاً أوسع ، وظهر فى أسلوب أبداع ، فإن كفة عصر الخلفاء الراشدين من جهة العمل بما تقتضيه أصول الأخلاق الكريمة لا تزال راجحة .

وقال الأستاذ فى ذلك المقال : « كان الناس فى الأزمان السالفة يعتبرون الحق للقوة ، فكان القوى يتحكم فى الضعيف ، فيسخره لمنفعته أو يبيده لا ينازعه فى ذلك منازع ، وكانت الشعوب الضعيفة تفنى فى الشعوب القوية تحت تأثير الأثر المكتسب بحق الفتح ، وليس فى العالم من يقول بهذا المذهب وأشد الناس إنكارا له الأقوياء أنفسهم » .

إن كان الأستاذ يتحدث عن قوانين يشرعها بعض الدول ، فالاسلام قد سبق الى قاعدة المساواة فى الحقوق ، وحارب ما عساه أن يخالط النفوس العاتية من أن الحق للقوة ، وإن كان يتحدث عن آراء يقررها بعض الكتاب أو الخطباء ، فلحكيم الصدر الأول أقوال بالغة غاية العدل والعطف على الانسانية ؛ وإن قصد من ذلك الإطراء السيرة العملية ، فدولة الخلفاء الراشدين ومن نحا نحوها كدولة عمر بن عبد العزيز إنما قامت على قاعدة العدل والمساواة وغل أيدى الأقوياء أن تمس الضعفاء بسوء . وإذا كان فى دول الاسلام أفراد من الأقوياء يسخرون بعض الضعفاء فى منافعهم ، فلهم فى هذا العصر الذى سماه « نعمة إلهية » أشباه ليسوا بأقل منهم عددا ، ولا أخف على الأعناق وطأة . ولو ضرب الأستاذ فى الأرض ، أو صرف شيئا من وقته فى استكشاف أحوال الجماعات لا بصر كيف يعيش الضعفاء تحت سلطان الاستعمار الغاشم ، ولا حجم عن أن يقول ليس فى العالم من يقول بمذهب تحكم القوى فى الضعيف وتسخره لمنفعته وإبادته ، وأشد الناس اتقاء له الأقوياء أنفسهم .

وهل عرف الأستاذ كما عرفنا حق اليقين أن القوى فى كثير من البلاد (وهو الأوربي) يقتل الضعيف — أعنى المسلم — رميا بالرصاص ، ولم نسمع قط أن محكمة حكمت على هذا الصنف من الأقوياء بالسجن فضلا عن القصاص . ولو كانت محاضرتنا هذه سياسية لالأنا نادى شواهد على أن الأقوياء فى هذا العصر لا يأبلون جهدا

فى إبادة الضعفاء وتسخيرهم لمنافعهم ما لم يجدوا نارا أحر من نارهم، أو حديدا أصلب من حديدهم، وإن فى قضية تنصير البربر وحوادث طرابلس الغرب لعبرة لأولى الأبصار.

قال الأستاذ : « كان الناس لا يأتون الفضائل ولا يتجنبون الرذائل إلا خوفا من عقاب أو طمعا فى ثواب ، واليوم يطلبون الفضيلة باعتبار أنها أجدر بكرامة الانسانية ، ويكرهون الرذيلة باعتبار أنها من الصفات البهيمية » .

أدرك الناس فى صدر الاسلام الفضيلة فالزموها ، وعرفوا الرذيلة فتجنبوها ، ومن درس التاريخ مجردا من كل عاطفة يشهد أن الفضيلة كانت سائدة فى ذلك العهد أكثر مما هى سائدة اليوم ، ومن أين أتى للأستاذ أن أهل ذلك العهد لا يأتون الفضيلة باعتبار أنها أجدر بكرامة الانسانية ، ولا يتجنبون الرذيلة باعتبار أنها من الصفات البهيمية ؟ فإن قال انهم يعتقدون أنهم يثابون على الفضيلة ، ويعاقبون على الرذيلة قلنا له : هذا الاعتقاد لا يمنع من أن يدخل فى قصدكم الى الفضيلة التحلى بما هو كمال إنسانى ، ويدخل فى قصدكم الى تجنب الرذيلة الترفع عما هو من صفات البهيمية ؟

واذا وجد فى هذا العصر طلب الفضيلة لمجرد أنها أجدر بالكرامة الانسانية فانه لا يزيد عن أن يكون فى أفراد أُنبتت العصور السالفة أمثالهم ، فن المبالغة غير المقبولة أن يذكر هذا على أنه عنصر من العناصر التى امتاز به العصر الحاضر عن كل ما تقدمه من العصور .

قال الأستاذ : « كان الناس فى الأيام الخالية يعتبرون عبيدا لحكوماتهم واليوم تعتبر الحكومات خادمة للناس » .

ما كان للأستاذ أن يطلق فى دعوى أن الناس فى الأيام الخالية يعتبرون عبيدا لحكوماتهم ، فان دولة الخلفاء الراشدين إنما قامت على أساس أن تكون خادمة للناس ، وأن يبقى الناس كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وقد كان هذا المعنى متمثلا فى ذلك العهد

بأجلى مظهر وأكمل صورة ، ولو ضرب الأستاذ فى الأرض جنوباً أو شرقاً وغرباً لترفق فى هذا الحكم المطلق ، وصاغ عبارته فى غير هذا الأسلوب .

قال الأستاذ : « لا يزال للضعفاء وللشعوب المقهورة ما يشكون منه ، ولكنهم فيما يشكون يعتبرون مطالبين بحقوق طبيعية ، وتعطى لهم الحرية العامة للدفاع عنها بكل وسيلة مشروعة ، ولهم أن يعمدوا الى التحكيم ، وأن يرفعوا ظلاماتهم للمحاكم الدولية ضد غرمائهم الأقوياء ، وأن يعمدوا المؤتمرات للبحث فى شئونهم العامة ، وبون يعيد بين هذه الحالات والحالات التى سبقتها فى القرون الماضية » .

كان المظلومون فى عهد الخلفاء الراشدين ومن نجاحهم فى العدل يعتبرون مطالبين بحقوق طبيعية ، وتعطى لهم الحرية التامة للدفاع عنها بكل وسيلة مشروعة ، ويجدون من اليد المستأصلة للظلم ما لا يجده كثير من المظلومين فى هذا العصر ، ولو درس الأستاذ أحوال شعوب كثيرة أصلى نار الاحتلال الأجنبي بكرة وعشياً ، لما قال : « ولهم أن يعمدوا الى التحكيم ، وأن يرفعوا ظلاماتهم للمحاكم الدولية ضد غرمائهم » . وها هى تلك الحكومات الفاسية لا تسمح لشعب وضعت عليه يدها أن يحاكمها فى شئ ، ومن يحرك لسانه بطاب محامتها سامته الخسف وعذاب الهوان ، ولو انفلت طائفة من يدها ، وتصدوا الى محامتها ، لما وجدوا محاكم دولية تسمع نداءهم أو تحفف شيئاً من ويلاتهم ، والحكومة التى ترى من يتحدث بمحامتها فتكتم غيظها ، إنما تعتمد على أن ليس هناك محاكم دولية تقصد أو تستطيع أن تخلص المظلوم من أسرها .

يبالغ الأستاذ فى تفضيل العصر الحاضر على كل ما سبقه من العصور ، حتى نسب اليه ما ليس من روحه فى شئ . وإن تعجب فعجب قوله « كان الناس لا ينفقون أموالهم لتخفيف الولايات إلا طمعاً فى أن تضاعف لهم فى الدنيا وفى الآخرة ، واليوم يبذلونها باعتبار أن الإنفاق فى هذا السبيل واجب لا يصح التخلف عنه ، غير منتظرين من ورائه جزاء ولا شكورا » .

فى المنفقين من يبذل المال للسمعة ، وفيهم من يبذل المال ابتغاء رضوان الله ،
 أو رجاء ثوابه فى الآخرة ، أو ازدياد نعمه عليه فى الدنيا ، وعلى هذا تدور مقاصد الإلهيين
 من الإنفاق فى القديم والحديث ، وإذا استطعت أن تصدق أن ما جذا ينفق شيئاً
 من ماله خفية ، فإنما هو منقاد بالعاطفة الى ناحية يشعر بأن فى الإنفاق فيها ما يعود
 عليه بمنفعة ، فعلى فرض أن يوجد فى الملاحدة من يبذل المال لإصلاح عشيرته أو أمته
 لا يراعى جزاء منها ولا شكورا ، نقول : إنه مدفوع الى الإنفاق بعاطفته نحوها مراعىا
 أن سلامتها وصالح شأنها يعود عليه بخير ، وأن ضعفها وانحطاطها قد يمس به سوء .
 ماذا يريد الأستاذ بقوله : « واليوم يبذلونها باعتبار أن الإنفاق فى هذا السبيل
 واجب » ؟

إن أراد أنهم يبذلونها ابتغاء مرضاة الله ، فليس هذا القصد من خصائص العصر
 الحاضر ، بل كان الناس فى صدر الاسلام يبتغون وجه الله أكثر مما يبتغيه الناس
 اليوم ؛ وإن أراد الإنفاق لجرد العاطفة ، فقد أريناه أنها لا تخلو من القصد الى منفعة ،
 وليس الباذل إجابة للعاطفة وحدها بأفضل من الباذل رجاء ثواب الله فى الآخرة ،
 على أن الإنفاق بدون قصد ثواب الله ولا ابتغاء وجه الناس متى وجد لا يكون إلا من
 النادر الذى لا يستقيم للأستاذ أن يذكره فى الحديث عن روح العصر الحاضر أكثر به
 سواد أدلته على أنه نفحة إلهية .

وهذه بدعة « يا نصيب » التى يرتكب موبقتها الناس حتى بعض الجمعيات الخيرية ليست
 إلا نداء على فساد الأخلاق فى هذا العصر ، ولو شاء أحد أن يقيمها حجة على أن أهل هذا
 العصر لا يبذلون درهما إلا طمعا فى أن ينالوا بدله فى الدنيا أضعا فاضاعة ، لم يعدم سامعا .
 وخشى الأستاذ أن يملأ الناس سمعه بتعداد الرذائل التى فشت فى هذا العصر
 أكثر من فشوها فى العصور الماضية ، كتهتك النساء وإباحة الخمر والميسر ، وتحليل

الربا، فحاول الدفاع عن أن تكون هذه الرذائل من روح العصر الحاضر، فما استطاع أن يعتذر عنها بأكثر من أن القوم ينكرونها أو يقبحون أمرها، وأعقب هذا بأنها من بقايا ضعف الطبيعة البشرية.

وهل وجود رجال ينكرون الرذائل الطاغية في عصر يكفي عذرا لعدم عدوها من روح هذا العصر ! وهل ادعاء أنها من بقايا ضعف الطبيعة البشرية يقال من قذارتها الملائنة وجه الأرض، ولا سيما رذائل وجدت ما لم تجده في العصور الماضية من أقلام تلقبها باللقاب لم توضع لها، وتسول للنفوس العمل على شاكلتها.

نقد مقالات الدعوة إلى التجديد :

تحدث الأستاذ فيما كتبه في جريدة الاهرام^(١) تحت عنوان «الدعوة إلى التجديد» عن الثورات العامة وما تفعله في الأمم ثم قال : « وينهار كل ما ورثته من صروح العقائد والتقاليد وما أقامته على أصولها من النظم والعادات ، ولكنها وهي تحت تأثير هذه الحالة الشاذة تندفع في الوقت عينه بمثل هذه الروح الثورية إلى البناء والتشييد مدفوعة بحب البقاء ، فلا تهدم حجرا حتى تضع حجرا ، ولا تحطم ركنا حتى تقيم بدله ركنا ، وتتيقظ فيها أعلى فضائل الاجتماع من التعاون والإيثار ونكران الذات ، فتعمل في سنين معدودة ما لا يمكن عمله إلا في أجيال » ثم ضرب المثل بثورة وقعت في بعض البلاد الإسلامية .

يعترف الأستاذ بأن تلك الثورة انهارت فيها صروح العقائد والتقاليد، ويريد أن يدفع عنها لومة اللاتئين، بدعوى أنهم لم يهدموا حجرا إلا وضعوا مكانه حجرا، ولم يحطموا ركنا إلا أقاموا مكانه ركنا، ولم ينه الأستاذ قلمه عن الهوى فيمنعه من أن يسمى انهيار صروح العقائد بين قوم مسلمين ووضع أشياء أخرى موضعها، تيقظا لأعلى فضائل الاجتماع .

ليس فى عقائد الاسلام ولا فى التقاليد القائمة على هذه العقائد ما يعدّ هدمه إصلاحا ، وتعاليم الاسلام هى التى توقظ أعلى فضائل الاجتماع ، ولسكن القلم الذى يستحب الوقوف فى جانب الثورة على الهدى ، لا يستطيع أن يخطو خطوة إلا بعد أن يضرب بقانون المنطق إلى وراء .

وقال الأستاذ : « ولسكننا فى ثورتنا العامة التى نتخط فيها اليوم ، نعمل على تحطيم كل ما كان لا بائنا من عقائد وتقاليد دون أن نسارع الى إقامة سواها » .

لا ينكر الأستاذ من دعاة التجديد فى مصر أن يحاربوا عقائد الدين وما يقوم عليها من تقاليد ، وإنما ينكر عليهم أنهم لم يسارعوا إلى إقامة غيرها بمكانها كما وقع فى بعض البلاد الشرقية ، فهو يدلنا فيما يكتب على أنه راض عن نزعة من يحطمون العقائد والتقاليد ثم يتبعون التحطيم بالبناء . ونحن نذكره بأن هادم العقائد والآداب الإسلامية ناكث يده من عروة الدين ، فلا يرتاح لصنيعه من يستيقن أن الدين هداية خالصة وشرعية عامة باقية .

تحدث الأستاذ عن دعاة التجديد فى مصر ، وذكر أن لهم عاملين فى الهدم ، وهما التشكيك ، وتحقير كل ما له بقية من الاحترام فى النفوس ، ثم قال : « وهم يعذرون لأنهم مخلصون فى محاولاتهم ، ولسكنهم من طبقة الذين يصلحون للهدم ولا يصلحون للبناء والتجديد » ثم أشار عليهم مفسر القرآن بأن يقتدوا بالطبيعة فى إتباع الهدم بالبناء ، فهو لا يلوم دعاة التجديد فى إثارة الشكوك وتحقير كل ما له احترام فى النفوس ، فقد وصفهم بالإخلاص والصلاح للهدم ، وإنما يلومهم فى عدم وضعهم بدل ما يهدمون بالتشكيك أو التحقير شيئا جديدا .

قال الأستاذ فى مقاله الثانى ^(١) « وبما أننا نتكلم عن مصر فإن حركة التجديد فيها وقفت منذ فقد المصريون الملكية الحربية بعد عهد رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر

قبل الميلاد ، ومنذ أصيب كهنتهم بحب المال والسلطة ، وطمع الجنود المسترزقة فيها أيضا ، وتوالت غارات الأمم على البلاد ، وما تلا هذا كله من الأحداث التى كانت نتائجها ضروريا شتى من الأحوال الى عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على باشا رحمه الله .

تحدث الأستاذ فى هذه الجمل بلسان يضاهاى لسان من يجد فضل الاسلام والعرب ، فجعل الفتح الاسلامى غارة من غارات الأمم التى لم تبت فى مصر شيئا من الحياة ، ولم تحدث فيها شيئا من التجدد ، وأشعة العلم والأدب والقوة التى ضربت فى مصر بعد الفتح الاسلامى لا تعد فى نظر الأستاذ من أثر الحياة ولا التجدد النافع فى شئ .

فاذا كانت تلك الحياة السامية التى أفاضها الاسلام وأولياؤه على مصر قد يدرکها فى بعض الأحيان ضعف ، فليس للأستاذ أن يطرحها من الحساب ، ولا يزيد على أن يسميها غارة من غارات الأمم ، أفلا يعلم أن للتاريخ عينا باصرة ، وأن حسابه على من يباهته غير يسير !

ذكر الأستاذ أن الجامعة المصرية لما تأسست لأول عهدها وتخرج فيها بعض الشبان تمثلت لهم الحاجة الى التجديد بكل شدتها فنادوا بوجوبه وكتبوا فى ذلك مقالات تفيض بالملاحظات الحقة والنظرات الصادقة ، وكان من رأيهم الإسراع الى تقمص العقلية الأوروبية والتأدى الى ما أدت أهلها اليه فى جميع ضروب المحاولات الأدبية والمادية . ثم ذكر ثورة بعض الشعوب الشرقية وقال : « فكانت مثالا حيا ماضيا فى قطع أمة برمتها صلاتها بالتقاليد والموروثات القديمة ، وفى اقتباس أصول المدنية الغربية على ما هى عليه بدون قيد ولا شرط » .

فى مصر رجال لم يتخرجوا فى الجامعة ، وقد تمثلت لهم الحاجة الى التجديد بكل شدتها ، ولكنهم ملكوا رشدهم ، فلم ينادوا بتقليد أوربا فى كل شئ ، بل أخذوا

يتأملون مظاهر أوروبا الأدبية ووسائل رقيها المادية، ويعرضونها على أصول الاجتماع ومقتضيات الحياة الماجدة، ويستعينون في نقدها بالتاريخ الذي دل على أن الأمم لا تخلو من نقائص ولو بلغت من السطوة والغلبة غاية قصوى، فكانوا موفقين في دعايتهم الى التجديد النافع، مؤيدين في تقويم أولئك الذين يحاولون قطع الأمة عن كل ماله احترام في نفوسها.

ولست الثورة التي وصفها بمثال حي أو ميت في قطع أمة برمتها صلاتها بالتقاليد والموروثات القديمة، فإن الأمة التي يتحدث عنها ماسامة، ولها حرص على التمسك بتقاليد دينها، وفيها زعماء يدعون الى التجديد النافع الذي نسميه بالإصلاح، أما قطع صلاتها بالتقاليد جملة وإجراء أصول المدنية الغربية عليها بدون قيد ولا شرط، فإنما ينزع اليه أفراد منها، ومن الإساءة للتاريخ أن يعمد الكاتب الى ما يأتيه بعض الأفراد من محذور فينسبه الى الأمة بأسرها.

تحدث الأستاذ بقوله الثالث^(١) عن حال حكومة نزعته الى الانقطاع عن الشرق جملة، حتى قال: « فلما دخلت في دور الثورة التي لا تزال فيه اليوم، ونادت تحت تأثيره الى تحطيم كل قديم، وأخذت الجرائد تنقل آراء الغلاة منهم والمعتدلين في وجوب إزالة كل حائل بين الأمة والترقي مهما كانت درجة قدسيته في نظر الجماهير صادف ذلك عندنا هوى في أفئدة الذين أساءوا منهم التجديد فتوههوه إباحة، فاندفعوا تحت قيادة فئام من المسترزقة الذين ذكرناهم يطالبون استكمال لذاتهم وشهواتهم متوهمين أن الحياة الجديدة تقتضى ذلك » ثم قال: ومتخيلين أنهم على الطريق التي عليها ذلك الشعب الشرقي، بل التي عليها العالم أجمع اليوم.

يريد الأستاذ أن يقيم فارقا بين دعاة التجديد في تلك البلاد، ودعاة التجديد في مصر، فيبرئ الدعاة الأولين ويوجد خطتهم، ويعيب الدعاة الآخرين ويسفه أحلامهم. ونحن

(١) الاهرام ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٨ (٢١ فبراير سنة ١٩٣٠).

نلقن الأستاذ أن في مصر دعاة تجديد يسرون في دعايتهم على نور من الحكمة، وفيها دعاية الى تقليد الغربيين ولو فيما يجرمه الدين تحريما مغلظا، وهذه الدعاية هي التي يقوم بها الإباحيون والملاحدة في كل قطر، ولا نظن الإباحة والتهتك في دعاية تلك البلاد أضيق دائرة منها في دعاية مصر، فلم يتجر الأستاذ طريق الإيصال حين سمي الدعاية هنالك دعاية الى أعلى فضائل الاجتماع، والدعاية في مصر دعاية لاستكمال اللذات والشهوات.

ذكر الأستاذ في ذلك المقال أن قادة الانقلاب في تلك البلاد بيدم زمام الحكم، وقال: «فهم يوجهون التيار الى حيث يريدون، بالإقناع أولا، فإن لم يفد بالقوة، وهم يتعهدون ثمرات أعمالهم بكل دقة، ويستطيعون إصلاح ما فسد منها، مثال ذلك أنهم أباحوا السفور للنساء والرقص مع الرجال على النحو الذي عليه الأوربيون، ولكنهم لما أنسوا أن هذه الإباحة دفعت الصغار الى غشيان دور الرقص، وأدركوا أن في ذلك مضیعة لأوقاتهم، سنوا قانونا ألزموا فيه أصحاب تلك الدور بعدم قبول الفتيان قبل أن يستكملوا الثامنة عشرة من أعمارهم».

يفرق الأستاذ بين المجددين في البلاد التي امتلكت عاطفته والمجددين في مصر بأن في يد طائفة المجددين هنالك قوة على التنفيذ، وليس في يد طائفة المجددين في مصر قوة منفذة. ومعنى هذا أن من بيدم القوة في مصر ليسوا من المجددين أو ليسوا من أولى العزم على تنفيذ ما يرونه من التجديد.

نعم في تلك البلاد جراءة متناهية على تنفيذ ما يراه المجددون تخلصا من العقائد والتقاليد، وجراءة متناهية في الأخذ بتقاليد أوربا وإن كانت منكرة في نظر الدين قبيحة في رأى العقل السليم.

فإن أراد الأستاذ أن يجعل هذه الجراءة المتناهية مما يرجح بها وزن دعاة التجديد هنالك ، فقد أخطأ فيما أراد ، فإن استخفاف ذى القوة بدين الأمة وتقاليدھا القائمة على أصوله ، غير محمود الأثر ، ولا مأمون العاقبة ، وبالأحرى اذا غلا في الثورة عليه . وإن أراد إغراء أولى القوة في مصر على أن يسلكوا في الجراءة على نبذ التقاليد وماله احترام في النفوس مسلك المتجبرين ، فقد اكتسب إثمًا حيث وضع أصبعه في العمل للثورة على دين الله . واذا لم يجرؤ أولو القوة في مصر على ما جرؤ عليه غيرهم من محاربة العقائد والتقاليد بدون قيد ولا شرط ، فلأن في مصر قوة علمية دينية ، ولأن الجالس على عرش مصر يقدر الدين الحنيف قدره ، ويشق بأن الفلاح وحسن العاقبة في المحافظة على آدابه السامية ، واذا اجتمع في الرئيس الأعلى بصيرة نافذة وعزم فاضل ، لم يستطع الملحدون والاباحيون الى القضاء على العقائد الصحيحة والتقاليد القائمة عليها سبيلًا .

وقد رأيتم الأستاذ كيف اعترف بأن أولئك القوم أباحوا رقص النساء مع الرجال ثم ذكر أنهم أصبحوا ما جاء فاسدا من هذه الإباحة فقصرُوا الإباحة على من استكملوا ثمانى عشرة سنة ، وحجروها على من لم يبلغوا هذه السن .

فرقص الفتى مع الفتاة وقد بلغا ثمانى عشرة سنة ، على النحو الذى عليه الأوربيون يعد في نظر الأستاذ من التجديد المقبول ، وليس هو من الإباحة التى يطلب بها استكمال اللذات والشهوات ، فعلى الأستاذ أن يسوق لنا مثلا من التجديد الذى أنكره على المجددين في مصر ، وقال إنهم يطلبون به استكمال لذاتهم وشهواتهم ، ويكون هذا المثل أدخل في التهلك وأجمع للذة والشهوة من رقص الفتیان مع الفتيات على النحو الذى عليه الأوربيون اليوم .

وقد ذكرت بهذا أن أحد القائلين بمثل الدعاية التي يقوم بها الأستاذ كتب مذكرة يصف بها حال المسامين في فنلندا ، ومما جاء في هذه المذكرة « أن الرجال والنساء يدخلون الحمامات عارين وعاريات ، والأبصار مغضوذة والفروج محفوظة » فلعل الأستاذ يدعى للراقصين مع الفتيات هذا العفاف الذى ادعاه صاحب المذكرة للعارين والعاريات من الفنلنديين ، فإن ادعى هذا قلنا له ولصاحب المذكرة : لأن تقولوا : إن العفاف ليس بفضيلة ، أيسر عليكم من أن تلبسوا على الناس معنى العفاف وتعددا الخلاعة عملا سائغا !

محمد الخضر مسبين

الطرف والمالح

قال عبد الملك بن مَرْوَانَ للعُرْيَان بن الهَيْثَم : كيف تجدك ؟ قال : أَجِدُنِي قَدْ ابيضَّ منى ما كنتُ أُحِبُّ أَنْ يَسُودَ ، واسودَّ منى ما كنتُ أُحِبُّ أَنْ يَبْيَضَّ ، واشتدَّ منى ما أُحِبُّ أَنْ يَلِينَا ، وقال :

سَأْنِي أَنْ تَبْنُوكَ بِآيَاتِ الْكِبَرِ نَوْمُ الْعِشَاءِ وَسُعَالُهُ بِالسَّحَرِ
وَقَلَّةُ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرَ وَقَلَّةُ الطَّعْمِ ^(١) إِذَا الزَّادُ حَضَرَ
وَسُرْعَةُ ^(٢) الطَّرْفِ وَتَحْمِيحُ ^(٣) النَّظَرِ وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا تَبْلَى الشَّجَرُ

(١) تناول الطعام أى قلة الاكل . (٢) سرعة إغماض الجفون وفتحها . (٣) تصغير

العين لتمكينها من النظر . وكل منهما من ضعف الكبر .

النفسي

سورة النور

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْحَابُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

الرمي الإلقاء والقذف بحجر أو سهم أو نحوه مما يضر ويؤذي ، استعير للسب وتوجيه العيوب لما في كل من الأذى والإضرار ، جرح اللسان كجرح اليد ، بل :

جراحات السهام لها الثَّام ولا يلتام ما جرح اللسان

واختير هذا التعبير في التعمير لأن الكلمة متى أفلتت من لسان قائلها لم يتألك زمامها وانطلقت لا تلوى على شيء حتى تصيب من وجهته اليه بالضرر والأذى . والمحصنات المصونات ، أصله من الحصن وهو الموضع الحصين المنيع الذي لا يوصل إلى جوفه ، عبر به عن العفيفات إشارة إلى أنهن مع عدم قربانهن الفحش فهن منيعات عن أن ينلن به ، وسيأتي معنى الحصانة في الشرع واختلافه بحسب المواضع . والشهداء

جمع شهيد بمعنى الشاهد ، وفيه معنى أنه يخبر عن شهود وعلم يقيني ، وأنه أمين على ما يؤديه ، ويفسر الشهيد بالأمين الذي لا يغيب عن علمه شيء مما عينه . والجلد تقدم تفسيره ، وهو إصابة الجلد بالضرب المؤلم ، ولا يشترط أن يكون مباشرا للجلد على العرى كما سبق في الآية المتقدمة . وأبدا ظرف لاستغراق الزمن المستقبل . والفسق والفسوق أصله الخروج والانسلاخ ، يقال فسقت الرطبة عن قشرتها إذا خرجت وانسلخت عنها ، سمي به في لسان الشرع العصيان ، لما فيه من الخروج والانسلاخ عن أمر الله ، كأنه ينبغي أن يكون المؤمن محاطا بأمر الله وملتفا بأحكامه لا يغادره ولا يخرج عنه . وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة متصل بالأحكام التي قبله ، متمم لما يتعلق بموضوعها .

لما بين جل شأنه ما في جريمة الزنى من عظيم الفحش وكبير الشناعة مما لم يجتمع في جريمة أخرى من كبير الإجرام وشنيع الفعل ، وأمر هذا شأنه ياحق العرض من الرمي به ما ينكس الرأس ويهدم الشرف ، وكان من مقاصد الشرع الحكيم حفظ الأعراض وصون الشرف لصاحبه ، والاحتفاظ بالكرامة وعزة النفس ، كان من مقتضى حكمته جل شأنه هذا التشريع الزاجر للنفوس الجالحة التي قد يدفعها الغضب إلى أن تصيب الناس في كرامتهم ، وتخدش شرفهم وهو أعز عزيز لديهم ، مستهينة بما اقترفت ، ففرض لنا فيما فرض من أحكام هذه السورة الشريفة حد القذف الزاجر الرادع ، الكفيل بصيانة الأعراض وحفظ الكرامة والشرف .

وإنما خص حد القذف بالقذف بالزنى ، لأن فيه من العار بدناءة النفس وهتك الستر واقتضاح السوءات وانتهاك الحرمات والدلالة على عدم الغيرة الذي هو من سمات أخس الحيوانات ما فارق به كل الموبقات ، فإن كان للرمي به امرأة كان فيه من جلب العار على قومها ما يؤدي إلى سفك الدماء ، وقاما تغسل ذلك العار ؛ وإن كان للرمي به رجلا كان فيه الدلالة على أنه ليس للعرض في نظره كرامة ولا للغيرة على نفسه سلطان

وكان أمانة على أنه لو أصيب بما أصاب به الناس لا اعتبره أمراً عادياً لا تشور له نفسه ولا يغفل له دمه ، ولذلك قيل : لا يزنى الفيور . وكفى بهذا عاراً وعاباً يباحق الأبناء والأحفاد ، وتبقى سيرته طوال الأحقاب .

وقد عبر في جانب الرامين بصيغة المذكر (الذين) وفي جانب المرمى بصيغة المؤنث (المحصنات) ولا فرق بين الذكور والإناث في الرامى والمرمى ، فمن رمى غيره بالزنى واستوفى شروط الحد وجب حده ، سواء أكان كل من الرامى والمرمى رجلاً أم امرأة وإنما اختير هذا التعبير — أما في الأول فمن باب تغليب الذكور على الإناث ، فإنهما متى اجتماعاً في حكم عبر بصيغة الذكور تغليباً لهم عليهن ، وأيضاً فإن الناب أو المفروض أنه الناب هو أن الرمى بهذه الفاحشة بعيد عن السنة النساء اللاتي ينبغي أن يحوطن الحياء فلا يكاد يقع منهن هذا البذاء .

وأما الثاني وهو اختيار صيغة المؤنث في جانب المرمى ، فلأن أكثر ما توجه هذه التهمة الشنيعة للنساء ، فهي لهن آلم وأوجع ، ولا يرى بها الرامى إلا للنيل من المرمى بآلم ما يستطيع . وهذا لا ينافي مساواة الرجال لهن في حقوق العار وإصابة الشرف وتشكيس العزة ، وعلى ذلك يكون قيد التأنيث المستفاد من صيغة الجمع بالألف والتاء لا مفهوم له ، بل مثلهن في ذلك الذكور ، وليس هذا من باب قياس الرجال على النساء بل من باب إلغاء الفارق بين الفريقين ، ويسمى في لسان الأصوليين بدلالة الفحوى للقطع بإلغاء الفارق وهو الأنوثة والذكورة في الرامى والمرمى . على أن الآية وردت في واقعة هي رمى رجل امرأة بالزنى ، فجاء التقييد على وفق سبب النزول ، فإنها نزلت في هلال بن أمية لما رمى امرأته فقال عليه السلام : « البينة أو حد في ظهرك » وإن كانت آية اللعان جاءت تخصصتها كما سيأتى .

وقد أجمع الفقهاء على أن المراد بالرمى هنا الرمى بالزنى لمدة قرائن — منها مجيء الآية بعد آية الزنى ، ومنها التعبير بالمحصنات وهن العفائف ؛ ومنها قوله : (بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

ومعلوم أن كون نصاب الشهادة أربعة إنما هو في الزنى خاصة ، وقد عرفت حكمة تخصيص القذف بالزنى بذلك من بين الرمي بالجرائم الأخرى . والمحصنات معناد العفيفات اللاتي أحصن فروجهن ، وقد يأتي الإحصان بمعنى الزوج كما في قوله تعالى : (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ) فإنه بمعنى المتزوجات ؛ وبمعنى الوطاء في زواج كالأحصان المعتبر في الرجم ، فإن معناه ذلك ؛ وليس هذا الإحصان شرطاً في حد القذف ، بل من قذف عفيفة سواء أكانت متزوجة أم لا استوجب الحد ؛ وإنما اشترط الفقهاء في الإحصان هنا مع العفة الحرية والاسلام والبلوغ والعقل . واستيفاء تفصيل الأحكام والشروط والخلاف فيها يطلب من كتب الفقه .

هذا وقد رتب الشارع على قذف المحصن أو المحصنة ثلاثة أشياء : الجلد ثمانين جلدة ، ورد الشهادة أبداً ، والحكم عليه بالفسق . فأما الجلد فلزجر ، ولمقابلة الإيذاء بالإيذاء ؛ وأما رد الشهادة فهي عقوبة لسانية تشبه قطع يد السارق ، فكأنه روعى أن جزاء هذا اللسان الذي اقترف ذلك الإثم العظيم أن يهدر ويقطع أثره فلا يعتد بما يقوله ويشهد به فيما بين الناس فهو والعدم سواء ؛ وأما تفسيقه فهو مبالغة في الزجر وإشارة إلى أن ما لقي من جزاء في الدنيا من الحد ورد الشهادة لم يعفه من اعتباره فاسقاً خارجاً عن أمر ربه وطاعة بارئه . وناهيك بهذه الجزاءات دلالة على عظم الخطب وشدة الخطر . وإذا كان هذا في الرمي بالزنى والاتهام به ، فكيف يكون حال مقترف هذا الجرم الفاحش الشنيع ؟ فهذا الحكم مع دلالاته على ما سبق له يدل دلالة بالغة على تفضيع جرم تلك الفاحشة وتشنيع أمرها ، وعناية الشارع بالتنزيه عنها والتنفير منها . وقد أردف جل شأنه ذلك الجزء باستثناء التائبين فقال : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) والتوبة الرجوع إلى الله بعد الإعراض عنه ، والإقبال عليه بعد الإدبار ؛ وكفى بالمعصية إغراء وإدباراً ، بل فراراً من حظيرة قدسه وساحة رحمته .

والتوبة في نظر علماء الأخلاق تنتظم من معان ثلاثة تؤدي الى تطهير القلب ، بل الجوارح أيضا من أدران الذنوب ، وهذه المعاني الثلاثة هي أولا - علم ما في الذنب من الإضرار بالنفس بالإبعاد عن ساحة الرحمة ومنزلة الرضوان ، وإنه للإبعاد لا يقدم عليه إلا عدو نفسه ، فلا تحصل التوبة دون أن يتحقق هذا المعنى الأول تحققا يقينيا وعاما حضوريا يملك عليه نفسه فلا تصدر عنه الأفعال إلا وفقه ، عاما يشبه علمك أن في هذا الطعام الذي اشتهيته سما مهلكا يخبرك به الطبيب الثقة ، وأن في هذا الطريق الذي سلكته سبعا ضاريا ووحشا مفترسا وقطاع طريق ينبئك بذلك الدليل الصادق الذي خبر هذه الجهة وعرف ما تحتويه ولا تشك في خبره ، فإذا يكون حالك وقد تورطت فأكلت الطعام اشتاء ، أو سلكت ذلك الطريق تهورا ؟ أليس يذكرك من الندم ما ترتبك معه وتخور له قواك ، وتجزع على هذا الاندفاع البعيد عن الاستبصار ؟ ألسنت تشعر حينئذ بحالة اكتئاب وجزع وحسرة على ما فرط منك تقاب عليك لذتك ابتئاسا ، وغبطتك بالطريق الذي تورطت فيه استيحاشا ؟ ألسنت تذهل عن كل ما يحيط بك ، وينحصر فكرك فيما يخصك من هذه الداهية والمصيبة التي تورطت فيها ؟ فهذا هو المعنى الثاني وهو الندم على ما فرط ، وليس مجرد الندم والحسرة ويقف الشخص مبهورا غير مفكر إذا كان من أهل البصيرة - كلا ، بل لا يسمى ندما حقيقة ويصدق في دعواه أنه ندم حتى يترتب على ندمه أثره الصحيح ، وذلك فعل يتعاقب بما مضى ، وبما هو حاصل ، وبما يستقبل من الزمان ، فيقلع عن الاستمرار في تناول ذلك الطعام الشهى حالا ، ويعزم على ألا يعود إليه في المستقبل ، ويعمل على تحليل معدته مما سبق منه إليها في الماضي ، وكذلك يقطع السير في هذا الطريق ويعزم على ألا يحترقه ما دام كذلك ويكر راجعا من حيث أتى ، فيلغى سيره في المسافة التي قطعها .

هكذا شأن التوبة من الذنوب ، فهي الاستيقان بأنه قد جاب على نفسه الضرر المهلك متابعة لشیطان هو الذي يريده في الهاوية ، فيحيط به الندم والجزع الصحيح

فرارا بنفسه مما لا قبل له به ؛ وأين الوحوش الكاسرة وقطاع الطريق من الخلود في النار والتعرض لغضب الجبار ومحاربة القهار ؟ بل أين السموم في الأحشاء من التردى في الموبقات المهلكات عند من عرف مقدار الحياتين ووازن بين السعادتين ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ؛ ومقياس الندم الحقيقى الذى يميزه من دعوى الندم مغالطة وخداعا — ولا تخدع النفس إلا نفسها — مقياس ذلك أن يؤتى هذه الثمار الثلاث : الإقلاع فورا عن الاستمرار فى الذنب الحالى ، والعزم على ألا يعود فى المستقبل أبدا ، والمبادرة إلى التخاصص مما فرط منه فى الماضى ، ومن ذلك أن ترد الحقوق لأصحابها . هذه هى التوبة الصحيحة المطهرة ، ومتى حصلت على هذا الوجه ظهرت حقيقة ، وكانت مقبولة حتما كما وعد جل شأنه ، ووعدده لا يخلف . وهذا معنى قولهم : التوبة تنتظم من علم وحال وعمل ، والعمل يتعاقب بالحال والاستقبال والماضى . تأمل هذا وقارنه بقول بعض الجهلة ياتمن العاصى التوبة فيقول له : قل كما أقول — تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود أبدا . فمثل هذا مثل أن تأمر خادمك أن ينظف ثوبك فيقول : أحضرت الماء والصابون وغسلته وكررت غسله حتى نظف ، ويكرر ذلك القول سبع مرات كل يوم وليسلة والثوب على حاله ، فهل يغنى هذا القول عن نظافة الثوب شيئا ؟ اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ؛ وقد ورد فى الحديث « الندم توبة » وهو من باب « الحج عرفة » فإن الندم هو جماع هذه المعانى .

والإصلاح إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشئ . والمراد هنا إصلاح ذات البين التى أفسدها بينه وبين من قذفه ، وذلك بأن يستحله مما فرط منه فى حقه حتى يسامحه ، وذلك شأن التوبة والتخلص من حقوق العباد ، وهو غير ما تضمنته التوبة من الندم على ما فرط ، وإزالة ما حصل بتكذيب نفسه فى مسألة القذف ، إذ لا يلزم من اعترافه على نفسه بأنه كان كاذبا فى القذف أن تصفو نفس المقذوف من جهته ،

فقد آذاه بلاوجه حق ، وقد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا ، فيجب أن يصاح ما أفسدته
كلمته من صلوات الأخوة الإسلامية ، بأن يستسمحه حتى يسامحه ، وهذا سر قوله :
(وأصلحوا) بعد قوله : (تابوا) .

وأما قوله : (من بعد ذلك) والتوبة لا تكون إلا بعد الذنب ، فإن سره التهويل
وتفطيع ما وقع فيه وتكبيره ، وذلك كما تقول وأنت تروى قصة فتصل الى جزء منها له
أهمية خاصة في القصة — تقول : « وبعد ذلك كله يحى ويقول لى كيت وكيت »
تستعمل هذه العبارة فى السنة الناس كثيرا لإفادة هذا الغرض ، ولعلماء البلاغة فى توجيه
اسم الإشارة الذى يحضر المشار اليه بذاته كأنه يشاهد ، ويلفت اليه النظر ، ما يعرفه
من أخذ منها بطرف ، وكذلك فى ذكر كلمة (من) فى قوله : (من بعد ذلك) زيادة
فى تهويل شأن الأمر الذى حصل ، كما فى قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) جاءت فى آيات تحويل القبلة
بعد ما بسط على أتم تفصيل حكمة القبلة القديمة ثم حكمة التحويل وأياسه من متابعتهم
ماتنه ، وغير ذلك من تنويع الهدى فى المسألة ، قال بعد ما أتم الكلام فيها : (مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) وأما فى الآية السابقة عليها وهى قوله : (وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) التى جاءت عقب قوله جل شأنه : (وَأَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ
وَالنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى) فلم تأت بعد سوق
أدلة فى الكلام السابق تكون موجبة لاستبعاد أن ينشأ من بعدها هذا المحذر منه ،
بل كانت إشارة إلى ما جاءه من العلم والهدى واستقر فى نفسه حتى أصبح أمرا راسخا ،
وهذا شئ ، وذكره فى مقام التحذير ثنى آخر ، فالعظمة فى آية « بعد الذى » راجعة
إلى المعلوم المستقر فى النفس ، وفى آية تحويل القبلة راجعة الى البيان وبسط الأدلة .

بقيت مسألة نريد أن نلم منها بطرف وجيز حرصا على فائدتها، ونترك البسط فيها لمن شاء التوسع ، فأمامه كتب الأصول تشفي غلته ، وهي : ما هو مرجع الاستثناء في قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) ؟

قد اختلف الشافعية والحنفية في ذلك ، فيقول الحنفية : الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة ، وهي قوله : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وعلى هذا فن حد في القذف لا تقبل شهادته أبدا ولو تاب . وقال الشافعية : بل هو راجع إليها وإلى ما قبلها ، فن تاب بعد ما أقيم عليه الحد قبلت شهادته . وأصل الخلاف فيما إذا وقع قيد أو استثناء بعد جمل متعاطفة ، هل يرجع للأخيرة ؟ بذلك يقول الحنفية ، أو يرجع للكل ؟ بذلك يقول الشافعية — إلا أنه منع من رجوعها لإيجاب الحد أنه حق لا أدى لا تسقطه التوبة ، ولكل من الطرفين أدلة على ما يقول وتفريعات لا يسع هذا المقام ذكرها ، والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالي

الظرف والمحل

قال شاعر حكيم :

لك الخير ^(١) لم نفسا عليك ذنوبها ودع لوم نفس ما عليك ^(٢) تليم
وكيف ترى في عين صاحبك القذى ويخفى قذى عينيك وهو عظيم

(١) جملة دعائية . (٢) لا تجر عليك لوما ولا ذنبا .

كلمة

في ترجمة القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

أما بعد فقد طرق الكتاب في هذه الأيام باب ترجمة القرآن من اللغة العربية الى غيرها من اللغات ، واتسعت دائرة البحث والأخذ والرد بين حضراتهم على صفحات الجرائد في هذا الموضوع ، حتى خيل للناظر فيما كتبوا أن مسألة ترجمة القرآن من المسائل المعضلة التي خفي حكمها ، وأنه لم يتكلم فيها أحد من الأئمة المجتهدين أو أتباعهم بما يشقى الغليل ويريح طالب الحق .

وحيث إن المتبع في تعرف الأحكام الشرعية هو استنباط الحكم بواسطة القرآن أو السنة أو الإجماع أو القياس إن كان طالبه مجتهدا ، والرجوع الى أقوال الأئمة المجتهدين وتخرج أصحابهم إن كان طالب الحكم مقلدا ، ولم يدع واحد من حضرات الكاتبين الاجتهاد ، فكان الأجدر بحضراتهم أن يعولوا في بحثهم على ما نقل عن الأئمة المجتهدين وأصحابهم ودون في الكتب التي وضعها مؤلفوها لنقل مذاهبهم وأقوالهم التي استقر الرأي عليها ، ولا يقصروا ببحثهم وموضع جدلهم على الركون الى قول الامام أبي حنيفة مرجوع عنه ، وإغفال أقوال باقي الأئمة وما رجحه أتباع أبي حنيفة . وقياماً بما يتطلبه

الدين (وقد اطلعت على أقوال الأئمة الأربعة في هذه المسألة) أتقدم لاخواني المسامين بكلمة موجزة أبين فيها حكم ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة العربية ، وحكم قراءته بغير العربية في الصلاة وخارجها كما هو منصوص في الكتب الموضوعة لنقل مذاهب الأئمة الأربعة .

وقبل بيان الحكم أذكر مقدمة يتبين منها مدرك الأئمة في هذه المسألة فأقول : أجمع الأئمة على أن القرآن اسم للفظ العربي المخصوص الدال على المعنى . ونقل ذلك الإجماع شارح مسلم الثبوت ، وقال علماء الأصول في تعريف القرآن : هو اللفظ العربي المنزل للإعجاز المنقول الينا تواترا .

وأجمع الأئمة الأربعة أيضا على أن قراءة القرآن في الصلاة فرض على القادر عليها بحيث لو تركت لا تصح الصلاة ، قال تعالى : (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) قالوا : الأمر بالقراءة في الصلاة .

ومن ذلك الإجماع والتعريف المذكور للقرآن يتضح أن اللفظ العربي الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم للإعجاز لا بد منه في تحقق القرآنية ، وأن مجرد المعنى لا يسمى قرآنا ، ولا كلام الله . وأيضا فغير خاف أن الكلام إنما ينسب الى الشخص ويعتبر كلامه اذا كان هو الذي رتبه ونظمه على الوجه الذي تحقق به في الخارج ، ألا ترى أن شعرا مرئ القيس إنما نسب اليه لأنه هو الذي أنشأه ورتبه ونظمه على ذلك الوجه الذي وصل الينا ، أما اذا حكى مضمونه ومعناه بعبارة أخرى فلا يقال شعرا مرئ القيس ولا كلامه ؟ كذلك اذا عبر عن معنى كلام الله تعالى بعبارة أخرى من أى لغة ولو من لغات العرب ، فإنه لا يكون كلام الله ولا يسمى قرآنا . على أننا نقول : إن الترجمة لا تتأتى في القرآن أصلا ، لأن آيات القرآن لها معان أولية يشترك في تأديتها أهل كل لسان ، فيمكن لكل إنسان عالم بذلك المعنى أن يؤديه بأى عبارة كانت ؛ ولها معان

ثانوية مدارها على أمور وأحوال اقتضت أن يكون الكلام المؤدى به المعنى الأولى مشتملاً على خصوصيات كإيجاز أو إطناب أو كناية أو مجاز أو تقديم أو تأخير إلى غير ذلك .

هذه المعاني الثانوية حيث اقتضتها أحوال جعلت المتكلم يأتي في كلامه بما يفيدها فهو الذى يلاحظها ويأتى بحمل مركبة من كلمات مخصوصة مرتبة ترتيباً خاصاً بحيث تفيد هذه المعاني الثانوية ، فلا يمكن لغير المتكلم أن يساويه في الإتيان بما تقتضيه هذه الأحوال إلا إذا اتفقت الاصطلاحات وطريقة التخاطب ومساواة الخلق للخالق في الإحاطة بجميع الأحوال المقتضية للخصوصيات ، والإتيان بتلك الخصوصيات على الوجه الأكل مجزوم بنفيه .

بل لو أمكن لأى واحد من البشر ترجمة القرآن ترجمة حرفية لخرج القرآن عن كونه معجزاً ، وكان في إمكان البشر أن يأتي بمثله . وكيف هذا وقد تحدى الله الإنسان والجن فقال : (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) ، وحينئذ لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة تؤدى المعانى التى بها الإعجاز ، وإذا اتفنى الإعجاز عنه بالترجمة انتفت قرآنيته ، فلا يسمى فى تلك الحالة قرآناً ، ولا تقوم الترجمة مقام الأصل فى أحكامه .

إذا علمت ذلك الأصل وأنه لا يسمى قرآناً إلا ذلك اللفظ العربى الذى أنزل للإعجاز ، وأن قراءة القرآن فرض فى الصلاة على القادر عليها بإجماع الأئمة ، فاسمع أقوالهم فى كتابة القرآن بغير العربية ، وفى قراءته بغير العربية فى الصلاة وخارجها : أجمع الأئمة الأربعة على أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير اللغة العربية ، لأن كتابته بغيرها تخرجه عن الرسم الوارد الذى قام الإجماع على أنه يجب التزامه ، بل قد تؤدى

كتأنيبه بغير العربية إلى التغيير في اللفظ، لأن بعض الحروف العربية لا نظير له في بعض اللغات الأخرى، والتغيير في اللفظ يؤدي إلى التغيير في المعنى، وحيث كانت الكتابة بغير العربية تؤدي إلى هذا، فلا تجوز. وقال بعض علماء الحنفية: إن من تعمد كتابة القرآن بغير العربية يكون مجنوناً أو زنديقاً، فالحنون يداوى والزنديق يقتل. أما ما نقله صاحب فتح القدير عن الكافي من أنه إذا كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز، فهو في خصوص ترجمة التفسير. ونحن نسلم جواز ترجمة التفسير ليمكن العاجز عن العربية من استفادة المعاني. وأجمع الأئمة أيضاً على أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة، ويمنع فاعل ذلك أشد المنع، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن بما يخرجها عن إجازة، بل بما يوجب الركاكزة، لأن الكلام المترجم من اللغة العربية إلى غيرها قد يحصل فيه تقديم المضاف إليه على المضاف، والصفة على الموصوف، ونحو ذلك مما يخل بالنظم. وقد صرحوا بأن ترتيب كلمات القرآن على ذلك الوجه الوارد، من مناط الإعجاز.

وأما القراءة في الصلاة بغير العربية فتحرم عليه إجماعاً المعنى المتقدم، لكن لو فرض وقرأ المصلي بغير العربية هل تصح صلاته أو تفسد؟

قال مالك والشافعي وأحمد: إذا قرأ المصلي بغير العربية سواء كان قادراً على القراءة بالعربية أو غير قادر، فسدت صلاته، لأن المقروء ليس بقرآن لعدم اللفظ العربي، فيصير آتياً في صلاته بما ينافيها، وهو من جنس كلام الناس فتنفسد صلاته.

بقي الكلام في مذهب أبي حنيفة، واليك البيان:

ذكر الحنفية في كتبهم أن الإمام أبا حنيفة كان يقول أولاً: إذا قرأ المصلي بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة، ثم رجع عن ذلك وقال: متى كان قادراً على العربية ففرضه قراءة النظم العربي، ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها عن القراءة

مع قدرته عليها والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآنا .
هذا هو الذي ذكره المحققون من علماء الحنفية .

وغير خاف أن المجتهد إذا رجع عن قوله لا يعد ذلك الرجوع عنه قولاً له ، لأنه لم يرجع عنه إلا بعد أن ظهر له أنه ليس بصواب ، وحينئذ لا يكون في مذهب الحنفية قول بكفاية القراءة بغير العربية في الصلاة للقادر عليها ، فلا يصح التمسك به ولا النظر إليه ، خصوصاً وأن إجماع الأئمة ومنهم أبو حنيفة صريح في أن القرآن اسم للفظ المخصوص الدال على المعنى لا المعنى فقط .

أما العاجز عن العربية ويمكنه أن يقرأ بغيرها ، فقد ذكر صاحب الهداية أنه إذا قرأ بغير العربية لا تفسد صلاته ، وذكر قاضيخان في فتاويه أن صلاته تفسد ، ووقف صاحب البحر بين هاتين الروايتين بحمل القول بعدم الفساد على ما إذا كان المقروء ذكراً أو تنزيهاً ، والقول بالفساد على ما إذا كان المقروء قصة أو أمراً أو نهياً . وقال صاحب النهر : إن هذا التوفيق هو الذي اختاره السكال بن الهمام .

وبناء على هذا التوفيق يكون الحكم عند الحنفية بالنسبة للعاجز عن العربية أنه كالأعمى لا تجب عليه قراءة ، ولكن إذا فرض وقرأ بغير اللغة العربية تفسد صلاته إن كان المقروء قصة أو أمراً أو نهياً ، لأن المقروء ليس بقرآن قطعاً لانعدام اللفظ العربي ، وليس ذكراً ، فيكون من جنس كلام الناس وهو مفسد للصلاة ؛ وإن كان المقروء ذكراً أو تنزيهاً لا تفسد صلاته ، لأن الذكر بأي لسان لا يفسد الصلاة ، وفي كلتا الحالتين لا يكون تالياً لقرآن لانعدام اللفظ العربي .

يبقى الكلام بعد ذلك في الأثر المنقول عن سلمان الفارسي ، ومجمل ما يقال فيه :
هذا الأثر نقله صاحب النهاية والدراية بلفظ هذا نصه :

«إن أهل فارس كتبوا الى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب فكانوا يقرءون ما كتب في الصلاة حتى لانت ألسنتهم ، وقد عرض ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه . » ونقل هذا الأثر الإمام النووي في المجموع بلفظ هذا نصه : « إن قوما من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئا من القرآن فكتب لهم الفاتحة بالفارسية » واقتصر على هذا في الرواية ، ولم ينقل أنهم كانوا يقرءون بها في الصلاة ، وأن سلمان عرض ذلك على النبي ولم ينكر عليه .

هذا الأثر لا يصح التمسك به ولا الاحتجاج به على جواز ترجمة القرآن لأُمور :
أولا — أن رواية الحديث الذين احتاطوا في تمييز الحديث الصحيح من الضعيف من الموضوع مثل البخاري ومسلم والإمام مالك والإمام أحمد لم يذكروا ذلك الحديث في كتبهم مع وجود الداعي الى نقله لو كان صحيحا ، وهو تعلق حكم شرعي به — من جواز الصلاة بغير العربية ، وجواز ترجمة القرآن ، ومس ذلك المترجم ، وغير ذلك من الأحكام .
ثانيا — أنه حصل اختلاف في لفظه بالزيادة والنقص كما سمعته ، وهذا بوجب الاضطراب .

ثالثا — أنه مخالف للمجمع عليه من عدم جواز الترجمة الوجه الذي سمعته في صدر الكلام ، وحينئذ فلا يصح التمسك بهذا الأثر ولا النظر اليه .

ومن هذا الذي تقدم يظهر لك جليا أن الأئمة الأربعة أجمعوا على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية ، وعلى عدم جواز الترجمة ، وعلى أن ما كان بغير العربية لا يسمى قرآنا لانعدام اللفظ العربي المخصوص ، وعلى أن القادر على العربية اذا قرأ بغيرها في الصلاة فسدت صلاته ، وعلى أن العاجز عنها اذا قرأ بغيرها ما كان قصة أو أمرا أو نهيا فسدت صلاته ، لأن ما أتى به ليس قرآنا وهو من كلام الناس فيفسد

الصلاة ، ولم يختلفوا إلا فيما إذا كان المقروء ذكراً أو تنزيهاً ، فالأئمة الثلاثة قلوا بفساد الصلاة ، وأبو حنيفة وأصحابه قالوا يجوز الصلاة ، لأن العاجز عن العربية حكمه حكم الأعمى فلا قراءة عليه ، وإذا أتى بذكر بأى لغة لا تفسد صلاته ، فكذلك من كان فى حكمه ، ومع ذلك فليس نالياً لقرآن لعدم اللفظ العربى . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

محمود أبو رقيقة

الظرف والمحل

قال حمزة بن بيبض^(١) لخالد بن يزيد بن المهلب :

بليتَ لعشرٍ مضتْ من سنينِ لك ما يبلغ السيد الأشيب
فهْمُك فيها جِسَامُ الأمور وهمُ لِدَاتِكَ^(٢) أنْ يلعبوا

قال مجتئشوع للمأمون : لا تجالس الثملاء فإننا نجد فى الطب : مجالسة الثقيل

حمى الروح .

(١) ضبط الباء بعضهم بالكسر وبعضهم بالفتح . (٢) أمثالك فى العبر .

السنة

سنة النبي محمد ﷺ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله :
الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا
في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال : إني
أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا
ففاضت عيناه) رواه الشيخان ، واللفظ للبخاري .

تمتاز السنة النبوية بخاصية لا تكاد تجدها في كلام سائر البشر - إلا في النزر اليسير
جدا من أعظم الحكماء يتاح لأحدهم الفينة بعد الفينة ، ولكنها في كلام المصطفى عليه
الصلاة والسلام روح سارية لا يعثر بها ضعف ولا وهن . تلك الخاصية هي جمع المعاني
المنفرقة التي تربطها روح واحدة تكون هي المقصد الأساسي فيها ، ولذلك كان عليه
الصلاة والسلام مختصا بمجموع الكلام ، فقاما تظفر بمحدث من الأحاديث الصحيحة
إلا وتجد فيه من الروعة والجلال واستيفاء المعنى المسوق له ما يملأ نفسك إكباراً
وإعظاماً . وإن من الكاملين وذوى البصائر من أوتى قوة التمييز بين الأحاديث
الصحيحة والموضوعة بمجرد سماع لفظها قبل البحث في صحة إسنادها واستيفاء شرائطه

فيقول لك : هذا لا يمكن أن يكون حديثاً ، فليس فيه النور الذي تعودنا سطوعه من تلك الشمس المشرقة . فإذا ما رجع الى سنده وجد فيه من لا يصح التعويل عليه ، إما لضعف حفظ ، أو تجرية كذب ، أو رقة دين ، أو غلبة رياء .

ومن الشواهد التي تثبت لك صحة هذا وتجلوه واضحا نيرا ما تراه في هذا الحديث الشريف الذي توجنا به هذه الكلمة وخصصناها لخدمته بالشرح واستنباط الحكم والأحكام ، فقد رواه الشيخان وكرره البخاري في عدة مواضع تبعا لأبوابه التي دخل فيها على ما هي عادته ، وصحاحه من جملة طرق على شرائطهما ، ورواه غيرهما من كبار رجال الحديث .

ويدور ما ذكر فيه من خصال متعددة على محور واحد هو الإخلاص لله في العبادة فما من واحد من السبعة إلا وتراه داخلا في زمرة الذين يعبدون الله مخلصين له الدين حنفاء ، وذلك دين القيمة .

فلا غرو أن يمنحوا هذه الميزة الكبرى التي تتلف لها النفوس شوقا إليها ، تلك هي أن يظلمهم الله بظلمة يوم لا ظل إلا ظله . وإظلالهم بظلمة : إما بمعنى إيوأهم الى ظل عرشه يوم تذنو الشمس من الشمس ، ويسيل العرق من الناس حتى يغمرهم ، ويتفاوتون في ذلك حسب تفاوتهم فيما اقترفوا من آثام يوم يشتد الهول والفرع الأكبر ويود أهل الموقف الانصراف ولو الى النار ؛ وإما بمعنى أن يحميمهم بحمايته ويؤمنهم مما يخافون ، كما يقال : فلان يستظل بظل فلان ، أي يحتوى بعزته ويأجأ الى جواره . وأصله أنه كان من عادة العرب أن المستجير يستظل بظل خباء من أجاره . (يوم لا ظل إلا ظله) على الأول : معناه يوم يعجز الناس عن إيجاد ما يؤويهم ويقيهم حر تلك الشمس ، فتذهب عنهم هذه القدر التي وهبهم الله إياها في الدنيا ، فلا ملجأ من حرارة ذلك الموقف إلا لمن أظله الله ووقاه بلا مدخل لعمله وقدرته ، ومعناه على الثاني : يوم يحير ولا يجار عليه ،

يوم تقطع الأسباب بالناس، وتنكشف الحقائق، وتضيع تلك الخيالات، يوم يقال: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)؟ فيكون الجواب: (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

ولا يخفى ما في اختيار هذا التعبير الذي يفيد عظمة ذلك اليوم وشدة هوله، إما شدة حره وعزة ما يبق منه، وإما لشدة الجبروت وتجلي العظمة والقهر الإلهيين، وبدو العجز لا يستر حجاب، وانكشاف الأستار الوهمية وتجلي العزة والجبروت، فإن تصوير هذا الموقف بتلك الصورة الهائلة في ذلك الأسلوب الوجيز (يوم لا ظل إلا ظله) مدعاة الى التماس الفرار، والعمل على النجاة من ذلك الهول الأكبر.

(١) الإمام العادل — وهو من نصب لإقامة المصالح العامة للمسلمين والهيمنة على شئونهم الدينية والدنيوية. ومثله عادة يكون له من الساطة والمهابة ما يجعله رقيقاً على غيره، حيث لا هيمنة عايه إلا من دينه، ولا رقيب عليه إلا الله وحده، فهو من جهة الخلاق متمكن من أن يفعل ما يشاء، تشايعة القوة ويحيط به النفوذ وتكتنفه المهابة، والجميع مدعن اطاعته فيما يأتي وفيما يدع، فاذا نرعت به نفسه الى الجور ودعاه هواه الى الليل (ودواعي الهوى كثيرة لا يضبطها الحصر، ومسالك الشيطان الى الانسان واسعة، اذا سد منها مسلك بدت مسالك) كان ذلك له ميسوراً غير معسور. فاذا ما عدل فإنما يعدل طاعة لربه، لا خوفاً من - طوة رقيب أو مهيمن، فذلك دليل إخلاصه لربه في حكمه، بل في سائر أعماله، إذ ليس أشق على النفس من التزام طريق العدالة بين متنازع الأهواء، فمن سلم من الزلل في هذا الأمر الجلل، فهو فيما سواه أسلم، واذا يكون عدله في حكمه ولا رقيب عليه إلا ربه دليل خضوعه لحكم مولاه القاهر في سره وعلمه، وكفى بهذا أمانة إخلاص.

وبعد فإنه اذا اتبع العدل في أحكامه فقد تبعه الكثير من رعيته اقتداء به وسيراً على سنته، فنفس الناس مولعة باقتفاء آثار كبرائهم، فيكون له من ذلك ما ضمن لمن

سن سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً . وكفى بتفشى الصلاح في الأمة فائدة عظيمة وخيراً عميماً ، ولذلك ورد في مسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) فتأمل في اختيار هذا الوصف لهم في دار الجزاء .

(على منابر) : وإنما يعالو المنابر عادة من يهتدى إلى الرشيد ، ومن جعل ليقنتدى بقوله وفعله ، ومن له الزعامة والقيادة . (من نور) : وذلك جزاء لهم على ما أناروا للناس من طرق الخير ، وهدوهم إلى ما فيه سعادتهم ، وهو العدل في الأحكام الذي يستل سخائم النفوس بين الناس ، ويقرعون ذوى الحقوق ، وينصر المظلوم الضعيف ، ويردع الظالم فينتقذه من مهاوى ظلمه ، وعلى الجملة فهو يريح النفوس حتى المنتصف منها . ولقد أحسن من قال : لو أنصف القاضي استراح الناس ، بدل لو أنصف الناس استراح القاضي . فالثانية غاية بعيدة المنال ، وثمرتها وهي استراحة القاضي أمرهين ؛ وأما إنصاف القاضي فأمر منضبط ميسور ، وثمرته أجل من أن تحصى . (عن يمين الرحمن) : وما أشر فيها منزلة يتنافس في إحرازها المتنافسون ، وأمثلها فليعمل العاملون . وأما تمة هذا الحديث وهو قوله : (الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) : فما يفتح باب الرحمة واسعا ، ويعود على ما معنا بأصح تفسير ، وهو أن الامام وإن كان يتبادر منه الامام العام وخليفة المسلمين ، فإنه قابل لأن يتناول كل من ولى أمراً من أمور الأمة وعدل فيه . وقد جاء في الحديث الشريف : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها) وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ما نكث قوم إلا سلط الله عليهم العذاب ، إلى أن قال : وما حكم قوم بغير حق إلا سلط عليهم إمام جائر . ففضيلة العدل في الحكم وإن كانت في الأصل معروفة في الامام العام ، ولكنها شاملة في منطوقها لكل من ولى شيئاً من الأحكام .

(٢) وشاب نشأ في عبادة ربه — وما أجدره بهذه المنزلة : فهو تحت سلطان الشباب القاهر ، وله عادة من أثرابه وقرنائه ومن يأنس به من لا يفتأ يدعو إلى هاوية الفجور ، ويضم إلى ذلك نفس نزاعة للهوى ، واشتعال نار الشباب ، وقد قام له العذر أو شبه العذر من شبابه وما اعتيد فيه ، فاللوم في جانبه أخف ، وتتبع حركاته أهون ، واستنكار السيئة منه ألين ، فقد اجتمعت دواعيه ، وتقلصت نواحيه ، فتغلَّب دينه في هذه الحالة على مقتضيات الفساد دليل على نأصل ملكة الرشاد ، وقد قيل : الناس أربعة : اثنان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، فبر بن خبار ، وفاجر بين أبرار ، فلو كان للفجور إلى نفس الأول سبيل ، أو للهدى إلى نفس الثاني مسلك ، لكان في بيئته ما يساعد عليه بل ياجئه إليه . وأما اللذان أنت منهما على تجربة ، فبر بين بررة ، وفاجر بين فجرة ، فلعل أحدهما لو تغيرت بيئته لكان غير ما تراد . فتعرف من هذا أن شابا نشأ في عبادة ربه وقد أحاط به من الأتراب وعصف به من نار الشباب ما يزلزل الجبال ويقلقل عزائم الرجال — لهو أمرؤ تمسكن الهدى من قلبه ، وهو حقا مخلص لربه . وقد ورد : تعجب ربك من شاب ليست له صبوة .

(٣) ورجل قلبه معاق في المساجد — قال تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وورد : « الصلاة عماد الدين » وإن من علق قلبه في المساجد بمعنى تعلق بها تعلق ارتباط كما جاء في رواية « متعلق بالمساجد » أو لازمها ، لا يكاد ينصرف عنها إلا على نية الرجوع إليها ، فكأنه كقنديل معاق في المسجد — إن من كان بهذه المنابة يكون قد أخذ قسطا عظيما من مظهر (جعل قرعة عينه في الصلاة) .

وماذا تظن في رجل شغف بمناجاة ربه والوقوف بين يديه وقوف الخضوع والذلة واستحضار المجد والجلال واستدرار رحمته وطاب هدايته ؟ هل هذا إلا رجل أقبل

على ربه بقلبه وقالبه يبتغي الزلفى لديه والتتقرب منه؟ وما ظنك بجزء من لا ينفك يتقرب الى الله كلما أمكنته الفرصة، وقد ورد: « اذا تقرب منى عبدى شهرا تقربت منه ذراعا، واذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » وقد عرف أن من لازم بيت كريم حق له الاكرام، فكيف بمن لازم بيت أكرم الاكرمين، عاكفا على طاعته، راغبيا فى عبادته؟ ناهيك بما يتبع ذلك من المواظبة على صلاة الجماعة واغتنام سنة الاعتكاف وما يتصل بذلك من صنوف الطاعات، وقد قال تعالى: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

فانظر كيف حصر عمارة المسجد فيمن حاز هذه الصفات العظمى، وإن أ كبر مظاهر عمارة المساجد عمارتها بالتقوى والعبادة ودراسة العلم، فذلك هو المقصود منها، وما قيمة التطاول فى تشييدها ورفع عمدتها بالقياس الى تتميم المقصود منها من جعلها أما كن عبادة ورجوع الى الله؟ وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يقول الله تعالى: إن بيوتى فى الأرض المساجد، وإن زوارى فيها عمارها، فطوبى لعبدا تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى، فحق على المزور أن يكرم زائره)

ابراهيم الجبالي

بنبع

الفتاوى والأحكام

حكم الصلاة

على الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد الأذان

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة المرشد الأكبر سيدى الشيخ يوسف الدجوى المحترم .
بعد الاحترام والتحية لنا سؤال نرجو من فضل سيادتكم التكرم بإجابتنا عنه
فإننا لا نثق إلا بكم ، أما أولئك المتشدقون فلا نثق بهم ولا نأخذ ديننا عنهم ، ذلك
أن لنا جامعا منسوباً اليها ، ولنا مؤذن يؤذن الأذان الشرعى على المأذنة ، ويمقبه الصلاة
على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه آخر قائله : لا بد أن تستغفر الله لأنك أتيت
جرماً بصلاتك على النبي بعد الأذان الشرعى . ونحن متعطشون لفتواكم ففى لنا بمثابة
نور يسطع وسط الظلمات فيبدها ، حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة بمعرفة أننا على
الحق ، وحاشا أن نكون فى ليل دامس مادام فىنا الشيخ الدجوى وأمثاله . ونحن لجوا بكم
منتظرون ولفتواكم سامعون ، أدامكم الله قوة للدين ونبراساً للحائرين .

يوسف محمد صفر

صاحب مخبز بالاسماعيلية

الجواب

الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لا بأس بها ، وحاشا أن تكون جرماً ، فقد نص العلماء على أنها بدعة حسنة حدثت زمن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٧٨١ وقد استحسناها العلماء على اختلاف مذاهبهم ولم ينعوا منها ، فقول القائل للمؤذن إنك أتيت جرماً بصلاتك بعد الأذان كذب وجهل ، وما أتى بالجرم غيره . وقبل أن نتكلم في المسألة من الوجهة العلمية بما يناسب الخاصة ننصح للعامة قبل ذلك ألا يجادلوا تلك الطائفة ولا يخوضوا معهم في البحث ، فإنهم يلبسون عليهم بما يذكرونه من كلمات مموهة أو أحاديث لم يدروا لها معنى ولم يعرفوا لها مغزى ، وأن هم من الاستنباط والأخذ من السنة والقرآن ؟ فذلك بحر لا ساحل له اضطرب فيه العلماء الأعلام والأئمة العظام .

وليعلم القارئ الكريم أن المجتهد الذي يأخذ من الكتاب والسنة لا بد أن يكون عارفاً بمواقع العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، مقدماً الخالص على العام والمقيد على المطلق ، عالماً بتاريخ النصوص حتى يعلم الناسخ والمنسوخ ، محيطاً بمواردها ، عارفاً درجة كل حديث ، باحثاً عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا حذاق الحفاظ ، عالماً بطرق الترجيح حتى يقدم بعضها على بعض عند التعارض ، غير خاف عليه مواقع الإجماع والاختلاف . وليعلم أن العلماء اختلافاً كثيراً فيما بنوا عليه مذاهبهم وفيما يقدم من الأدلة وما لا يقدم منها كعمل أهل المدينة عند مالك مثلاً الخ . ولا بد بعد ذلك أن يكون فيه استعداد للاستنباط من الكتاب والسنة ، محيطاً بكل ما يتوقف عليه ذلك مما بينه علماء الأصول . وليعلم أن العلم وحده غير كاف في الاجتهاد ما لم يصحبه الاستعداد الرفيع وذلك النور الذي يسطع في قلب من شاء الله من خاصة عباده ، ولذلك كان كبار المحدثين وعظماء الحفاظ مقلدين لا مجتهدين ، علما منهم أن سعة الاطلاع

لا تكفى وحدها فى الاجتهاد، وربما كان بعض الحفاظ المقلدين أكثر حديثاً من بعض الأئمة المجتهدين، ولكن هؤلاء الحفاظ كانوا يقلدون أولئك الأئمة اتهاماً لنفوسهم واستقصاراً لمداركهم، واحتياطاً لدينهم، ومعرفة بأقدار أولئك الأئمة المتبوعين، علماً منهم أن لهم من معرفة روح الشريعة ومن الذوق الخاص فى أمرارها والحسد الذى يعرفون به ما لا يعرفه غيرهم من خفايا الدقائق ما ليس لأولئك المقلدين وإن كانوا حفاظاً متقنين. وقد قالوا: إن الحديث كالصيدلى والمجتهد كالطبيب. ولا شك أن الصيدلى إذا جعل نفسه طبيباً قتل من المرضى أكثر ممن صادف دواؤه الداء فيهم، فكأن هؤلاء الحفاظ هم المشار إليهم فى حديث البخارى بذكر الأجادب من الأرض التى أمسكت الماء فانتفع الناس وسقوا وزرعوا. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «رب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه ليس بفقيه».

ثم نقول بعد هذا: إنه قد وصل بعض المتمسكين بظواهر الأحاديث إلى حد التشبيه والتجسيم فى حقه تعالى اغتراراً بآيات الصفات وأحاديث الصفات، ولو قلده غيره من أئمة الدين لنجا من ورطة التشبيه والتجسيم، ولكنهم أرادوا أن يستقل وهو غير أهل للاستقلال فضل من حيث لا يشعر، فالذى نريده من العامة وننصح لهم به ألا يصغوا لأولئك المهوشين الذين يلبسون عليهم بذكر الآيات والأحاديث، ولكن يقولون لهم: إنهم مقلدون والمقلد يلزمه أن يتبع الجمهور لا من شذ عنهم. وقد اجتمعت ببعض من يجهد آراء ابن تيمية ويدعو إلى اتباعه فقالت له: «أنا لا أتبع ابن تيمية مطلقاً لأننى إن كنت قد بلغت درجة الاجتهاد فلا أتبع غيرى، وإن لم أبلغ درجة الاجتهاد كنت مع الجمهور لأمع من شذ عنهم، فذلك أحوط فى الدين وأقرب إلى العقل والنقل» بل نقول: إننا إذا وازنا بين أولئك المتشدين وبين إمام واحد من أولئك الأئمة كالشافعى أو مالك مثلاً — لم نجد نسبة بينهما، وما لنا نذكر مالكا والشافعى ونحن إذا وازنا بينهم

وبين أتباع أئمة الهدى بل كبار علماء العصر وجدنا اليون شاسعا والفرق عظيما ، فكيف يحل للمقلد أن يترك أولئك العظماء المشهود لهم بالدين والفضل ويتبع أولئك المتشدين الذين شذوا عن السواد الأعظم ، وأوقعوا الفرقة بين المسلمين ، وتحكموا في دين الله فأرادوا أن يلزموا الناس بمذهبهم الخاص مع أننا لا نعترف لهم بإمامة ولا اجتهاد ، بل لا نعترف لهم بنظر دقيق ولا فهم صحيح ؟ فأين هم من درجة الاجتهاد ودينهم وبينها أبعد مما بين السماء والأرض (ومن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى) ؟ :

على أنهم لو كانوا مجتهدين حقاً ما صح أن يلزموا الناس بمذهبهم ، فإن مسائل الفروع يكفي فيها الظن ، وقد جاء في الحديث أن من اجتهد فأخطأ كان له أجر ، ومن اجتهد فأصاب كان له أجران . فالمدار على أن يكون الحامل له على العمل امتثال أمر الشارع حتى لا يكون خارجا على الله ورسوله ، وقد كان أئمة الهدى يقلد بعضهم بعضا ويثنى بعضهم على بعض ولا يرون بأسا باتباع غيرهم ، وهما هو ذا الامام مالك لم يرض من الخليفة العباسي أن يحمل الناس قسرا على موطنه - وهو هو عند مالك - احتراماً لرأى غيره من العلماء ، واتهاما لنفسه التي يجوز عليها الخطأ ، وعلمنا بأن مسائل الفقه ظنية يكفي فيها الظن ، بل بعض أئمة الهدى قلده غيره في بعض المسائل كأبي يوسف الذي قال : « نقلد إخواننا الحجازيين » عند ما أخبروه بأن البئر التي توضع منها وقعت فيها فأرة ، الى آخر ما لا يسهه هذا المقال .

فالخلاصة أن المقلد لبعض الأئمة كالشافعي مثلاً - يلزمه ألا يخوض مع أولئك المتحذقين في الأدلة ، وإنما يقول لهم : إن أماني أعظم في نفسي منكم ، ولا يحل لى أن أترك الفاضل وأتبع المفضول ، ولا أدع العالم وأتبع الجاهل . هذه هي النصيحة التي أردنا أن نسديها للعامة .

ونقل كلمة في الموضوع تناسب الخاصة :

لا شك أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم القرب ، وقد طلبها منا

القرآن العزيز والسنة الشريفة، ولاداعي للإطالة في هذا، وقد جاء في خصوص الصلاة بعد الأذان أحاديث صحيحة — منها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» رواه مسلم في صحيحه.

ونقول: على فرض أن ذلك الحديث لم يرد وصلينا عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لم يكن هناك بأس، وحصل لنا الثواب العظيم بذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بالصلاة عليه ولم يلزمنا بوقت مخصوص ولا كيفية مخصوصة، فلنا أن نصلي عليه في أي وقت شئنا وبأي كيفية أردنا حيث إنه لم يرد نهى عن شيء خاص ولا أمر بشيء خاص بل وكل ذلك إلى اختيارنا، وليس هذا إلا استعمالا للمطلق في بعض جزئياته (وهو بالضرورة لا بد أن يستعمل في بعض جزئياته) وهي كلها فيه على السواء، وقد قال البيانيون: إن استعمال الكل في بعض جزئياته من حيث تحققه فيه ليس مجازا بل حقيقة. فإذا صلينا على الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الأذان بمقتضى ذلك الإطلاق بأي كيفية من الكيفيات، كان طاعة يثاب عليها فاعلها الذي أتى بها على أنها من أفراد ذلك المطلق غير معتقد سنية تخصيصها بذلك الحال أو تلك الكيفية خلافا للمشددين أو المتشدقين. وليس يخفى عليك الفرق بين من يأتي بها بمقتضى الأمر العام ومن يأتي بها لأجل كون تلك الكيفية الخاصة سنة أو لكون ذلك الوقت مطلوباً من حيث خصوصه، فكيف وقد ورد الحديث الصحيح بالصلاة عقب الأذان؟ وقد ترك تلك الكيفيات الخاصة الينا صلى الله عليه وسلم نختار منها ما شئنا، فيجوز لسامع الأذان المطلوب منه ذلك أن يصلي سرا أو جهرا كما يشاء، فأصل الصلاة المطلوبة وكيفية مباحة

فكذلك المؤذن يطلب منه الصلاة بعد الأذان ويباح له أن يصلي سرا أو جها كما يشاء، لأننا لم نلزم فيها بكيفية خاصة، ولا نعتقد أن الكيفية المخصوصة سنة من حيث خصوصها، بل نقول إنها من تلك الحثية مباحة، ولهذا كله قال العلماء المحققون غير الجامدين: إنها بدعة مستحسنة، ولم يروا بأسا برفع الصوت بها بعد الأذان. على أن في الجهر بها فائدة جلية وهي تذكير السامعين بها، فيكون وسيلة لا تيانهم بما ورد في ذلك الحديث المتقدم متى سمعوا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبدون ذلك قلما يأتون بها، بل كثير منهم لا يعرف ذلك الحديث الذي طلبها منا بعد الأذان.

وليت شعري هل يقول أولئك الجامدون: إنه لا بد من تحرى الكيفية التي كان عليها الناس زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما كانوا يصلون عقب الأذان، فلا يجوز أن نرفع صوتنا أكثر مما كانوا يرفعون، أو نخفضه أكثر مما كانوا يخفضون، وإذا كانوا قد أتوا بها في «ثانية» مثلا أو ثابنتين لا يجوز أن نخالفهم في ذلك فنجعلها في ثلاث أو أربع مثلا، وإذا أتوا بها قائمين لم نأت بها قاعدين الى غير ذلك، أم هو الجود الذي يبرأ منه الاسلام خصوصا اذا أحدث فتنة قد توقع في الكبار من أجل مسألة غاية أمرها أن تكون خلاف الأولى لو تنزلنا وسلمنا لهم وجهة نظرهم، مع أن الأمر فيها على خلاف ما ظنوا؟

وليعلم أن البدعة المنهى عنها هي التي لا ترجع الى دليل من أدلة الشرع، فلا يقبلها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، أما ما يكون داخلا في عمومات الكتاب أو السنة أو يمكن استنباطه بوجه من الوجود، فليس من البدعة المنهى عنها وإن لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم ولا زمن أصحابه. ويكفي هذا الإيجاز، والمنصف يكفيه القليل، والمتعسف لا ينفعه الكثير.

برسف الدمري

من هيئة كبار العلماء

زيارة جلالة الملك المعظم فؤاد الاول

للجامعة المصرية

كان يوم ٢٠ شوال سنة ١٣٥٠ الموافق يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ فى الجامعة المصرية يوما مشهودا ، وعيدا تاريخيا معدودا ، صحت سماءه ، وطاب جوده ، ونشرت بنوده ، واصطفت جنوده ، واحتشد فيه أعظم رجال الدولة وأكابر أعيان مصر من وطنيين وأجانب لاستقبال حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم لما توجهت رغبته السامية إلى تشريف الجامعة — التى هى غرس فضله وفيض إحسانه — بالزيارة وتسليم بعض درجاتها لمن استحقوها .

وبعد أن شرف جلالته كليتى الحقوق والآداب بالزيارة طبقا للبرنامج الذى وضعته وزارة المعارف تفضل حفظه الله بتشريف السراى الذى أقيم فى باحة الجامعة لاستقبال جلالته ، فقبل بالهتاف الشديد ، وبالدعاء المنبعث عن الاخلاص لعرشه المفدى ، وألقى بين يدى جلالته حضرة صاحب المعالى وزير المعارف خطبة ضافية بين فيها ما كانت عليه معاهد العلم فى عهدا الأول وما صارت اليه فى عهد جلالته بفضل تعاهاها بعنايته وشغفه بنشر العلوم والمعارف بين رعيته ، وعدد ما لجلالته من الأيادى البيضاء والعوارف الكثيرة على الجامعة وغيرها من دور العلم .

ثم نليت قصيدة عصماء لأمير الشعراء أحمد شوقى بك فى مآثر المليك المعظم ، وفى فضل العلم وحسن أثره فى تحرير الأمم ، ثم تفضل جلالته بتسليم الدرجات العلمية لمستحقها ، فتقبلوها بالشكر والدعاء لذاته الكريمة . وبعد ذلك غادر السراى ركابه العالى مشيعا من القلوب بأصدق الإخلاص ، ومن الألسنة بأطيب الحمد والثناء .

نقد كتاب حديث الاربعاء

اطلعنا في جريدة الدستور على مقال لحفصة صاحب الفضيحة الاستاذ الشيخ محمد سليمان العضو بالمحكمة الشرعية العليا ، كتبه أيام كان القاضى الشرعى بالعريش نقدا وتنقيدا لكتاب « حديث الاربعاء » الذى ألفه الدكتور طه حسين وكان ينشره في جريدة السياسة ، فأثرنا نشر ذلك المقال القيم لنضع أمام القراء أمثلة متعددة من جهالة الدكتور طه حسين على الدين الحنيف ، وليعلموا أن هذا الكتاب قد تلقاه العلماء من بدء ظهوره بالنقد والتفنيد ، ومع ذلك أصر صاحبه عليه وأبقاه منشورا بين الناشئين ، قال الاستاذ :

(١) أنكرنا على الشيخ طه حسين حكمه على قرن الهجرة الثانى بأنه « عصر الشك والمجون » وطالبناه بالدليل فجاءنا به يقول : « كان هذا العصر عصر شك وعصر مجون ، وكان عصر رياء ونفاق » فزاد فى دعواه تلك وصفين آخرين ألصقهما بذلك العصر ، فأظن لو طالبناه بالدليل مرة أخرى لزاد فى دعواه هذه زيادة أخرى . . . ولعل ذلك طريقة حديثة فى التدليل على الدعاوى اكتشفها عالمنا الأديب ، فتسكتفى الآن فى نقد « حديث الأربعاء » بتعقيب كل سقطة من الأستاذ بما يبينها ويحلها ، مستعينين بالله ثلاثا من مداواة الداء بالداء ، وتدليل الدعوى بالدعوى :

إن للحق صرعة يذل لها الحق ويتململ منها المبطل ، وقد أبى الحق إلا أن يلغى قلم الأستاذ ويلاويه ، ثم يخطئه يمينه ما يدحض حجته ويكشف سقطته ، فبعد أن أصدر حكمه جازما على ذلك العصر بأنه « عصر الشك والمجون » بهذا التعريف والتحديد ، وحكمه على الجسة الشعراء الفساق الذين ذكرهم أنهم « يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا » عاد

فتذبذب ذبذبة المتهجم على الشيء لا يعرفه ، وعلى الحكم يصدره لم يتكون لديه أسبابه فقال : « كان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء يلقون طبقات أخرى لا تشك ولا تعبت ولا تمنع على المجنون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والرواة وعلماء اللغة فكانت أحاديثهم في هذه المجالس — أو الأندية الغربية — متأثرة بمجد هؤلاء العلماء وبمهاجة الأمراء والوزراء الخ » .

فتراه أثبت في ذلك العصر طبقات أخرى تبذ طبقة الشعراء ، تجدهم وتهاب ولا تشك ولا تعبت ولا تمنع ، ثم زاد الحق محق باطله فقال : « نعرف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد ، كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكون ويعبتون ، والمتكلمون والرواة مستيقنين يؤثرون الجدل ويفلحون فيه » فتراه كر على حكمه بالنقض في إثبات الجدل بجانب الهزل ، واليقين بجانب الشك ، ثم أتم نقض حكمه أصلاً إذ قال : « كان لكثير من الناس مظهران مختلفان أحدهما للعامة والجمهور وهو مظهر الجدل والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم وهو مظهر اللهو والمجون » .

فانظر يارعاك الله إلى أستاذ الجامعة المنطيق يحكم بأن العامة والجمهور في ذلك العصر كانت للجد والتقوى ، حتى لا يستطيع اللاهون أن يظهروا أمامها إلا بمظهرها وهو مظهر الجدل والتقوى ، وانظر إلى أن الخاصة الذين ذكروهم طبقات لا يؤثر الشك والمجون منهم بوجه عام إلا طبقة الأدباء ، وبقيةهم يؤثرون الجدل ويغالون فيه ولا يشكون ولا يعبتون ولا تمنعون ، فلم يبق على قول الشيخ طه في ذلك العصر كله إلا طبقة الأدباء وحدها تمنع وتشك ، ومع ذلك يكرر ويعود إلى حكمه قاطعاً جازماً بأن ذلك العصر كان « عصر الشك والمجون » ويبقى عليه ، وينضى فيه إلى درجة أنه جعل أبانواس وحده من طبقة الشعراء وحدهم « لسان طبقات الناس المختلفة ومرآتهم الصافية

ومثل عصرهم ومشخصه » : فأى عقل هذا العقل الناضج من الأستاذ وقد أقر على نفسه أن الجمهور وبقية طبقات الخاصة لا تشك ولا تعبت بل تجد وتتقن ؟ ! فمن يكون المظهر في ذلك العصر ؟ وبم يكون الحكم عليه ؟ أم الحكم الجمهور وطبقات الخاصة ؟ أم بحكم أبي نواس وخمسة من الشعراء الفساق معه ؟ لا جرم أن هذا علم جديد بعقل جديد وسبحان واهب العقول .

(٣) وجرى في شوطه هذا الشاذ ، ولا يكفي في وصفه الشذوذ ، بل الخارج عن المعقول ، فقد أنكرنا عليه أن يجعل حياة خمسة رجال ميزانا لحياة العصر كله ، ويأخذ منهم حكما عاما على جميع الطبقات يشملهم به ، فأقدم أكثر مما أقدم متجها على التاريخ والحقيقة ، وجعل شاعرا واحدا هو ميزانه العام لحياة ذلك العصر فقال : « وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس الذي سنتخذ درسه الماضي سبيلا الى درس هذا العصر كله منذ الأسبوع الآتي » وأبى على الفقهاء والمتكلمين ورواة الحديث والأخبار والخلفاء والوزراء ، وبقية أهل الدولة والملة ، وقوام تلك الأمة وأرباب الحرف والصنائع ومن كان في ذلك العصر أجمع ، أبى عليهم الشيخ طه أن يمثلوا عصرهم أو يشخصوه ، أو يكونوا دليلا عليه وعنوانا له فقال : « بينما كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا في هذا كله لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد » .

كذلك قال صاحب حديث الأربعاء ولم يسبق له غير سطور ذكر فيها أن أولئك الأدباء الذين يمثلون العصر في نظر الشيخ كانوا يتأثرون بحده هؤلاء ومهاتهم . وذكر في موضوع آخر « حينما تريد أن تحكم على ذلك العصر حكما صادقا أن ترجع الى الشعراء والكتاب أكثر من رجوعك الى الفقهاء والمتكلمين والرواة » فجعل لهم مرجعا

في الحكم على عصرهم بأخذ أحوالهم في عناصر الحكم الصادق . مع هذا وذلك فمن يهدي الأستاذ الى الأخبار التي يلتقطها الرواة ويذيعونها كيف لا تنطق بلسان أحد ولو أربابها أو أبطالها على لغة الروائيين اليوم ؟ ! والى حوادث الناس التي تجدد كل يوم وفي كل معاملة ويستنيط الفقهاء أحكامها لهم ، كيف لا تعبر عن رأى أحد ؟ والى العلماء والأمرء والخلفاء ورجال الدولة والأمة كيف لا يكون ما يجري فيهم ويحدث عنهم عنوانا عليهم ومثالا يحتذى للحكم في أشباههم فلا ينطقون بلسان ولا يعبرون عن رأى — إلا خمسة شعراء يقول الشيخ عنهم : إنهم « يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا فلنا أن نتخذهم مقياسا للحكم على هذا العصر » ثم يصطفي منهم أبانواس فيجعله مختصر عصره ومشخصه ، وسبيل درسه ذلك العصر كله بدرسه هو وببحث حياته خاصة ؟ ! .

(٣) نعم أبو نواس صاحب صديقنا هو وحده من دون أهل عصره ، مثالهم وعنوانهم والناطق عنهم ، وإن كان في زمنه (أبو العتاهية) الذي يقول فيه أبو نواس نفسه : « والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء وأنا أرض » وكان يقال عن أبي نواس : « شاعر العراق » أما أبو العتاهية « فأشعر الناس » انظر الأغاني ج ٣ ص ١٥٦ و ١٤٠ ؛ وإن كان في زمنه مروان بن أبي حفصة شاعر الخلفاء المنفرد بعظيمته منهم قدرا في الشرف لم يصل اليه شاعر ، وأبو نواس إذ ذاك مخلف عنه محصور ؛ وإن كان في زمنه الحسين ابن الضحاك تربه وصاحب نشأته وأدبه ولزوم مجالس الأدباء (الأغاني ج ٦ ص ١٧٤ و ص ١٩٣ منه) قدمه الأمين على الشعراء وفيهم أبو نواس (ص ١٦٧) حتى لقد خلوط بعد هذا من جزعه على مقتل الأمين وأنكر قتله ولم يتصوره ، والمأمون مع ما ينقمه عليه لخطه الى هوى الأمين جعله ظريف الشعراء وواحد المصير ، أو أشعر شعرائهم وأظرف ظرفائهم (١٦٨) ، وملا المعتصم فنه جوهرًا ثم أمر الحاجب أن يخرجهم وينظم ويدفع اليه ويخرج للناس وهو في يده ليعاموا موقعه من رأى المعتصم ويعرفوا فضله (ص ١٦٩) ، وقبل الواثق منه أن ينشده في طبقة الجساء رفعا منه عن الإنشاد

مع الشعراء ، فنوّله شرفاً لم يصل إليه غيرد (١٨٩) ، والمتوكل قال فيه : « هو عندي أشعر أهل زماننا وأماحهم مذهبا وأظرفهم نطاً (ص ١٧٧) ؛ وإن كان في زمنه اسحق ابن ابراهيم الموصلي ، بكر عطارد ، ونادرة زمنه ، وجماع ما تفرق في غيره من محاسن عصره وفضائله وشماله ؛ وإن كان في أيامه أبو عبيدة ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، والعتيبي وأبو العيئة ، وأمثالهم من خول أهل الأدب ، وأصحاب النوادر والأشعار والأخبار وفكك المجالس وزينتها ، وبهجة العصر وقرة عيون أهليه ، وعناوين ما فيه ، وغير من ذكرنا في فنون الأدب والشعر والكتابة : لم يبلغ أبو نواس فيهم ما يريد به الشيخ طه أن يبلغه بيننا الآن ، لا في الشعر خاصة ، ولا في الأدب عامة ، ولا بين طبقة فحسب ، وإنما يسمو به إلى منزلة الميزان فيشخص به عصره قاطبة على ما كان فيه ومن كان فيه .

ولماذا ؟ سلوا الشيخ طه عن هذا فهو بالسر عليم ، فقد أكد في حديث الأربعاء (٧ جمادى الثانية ١٣٤١ هـ) أن « أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذي عاش فيه » وبيّن أن عمره ٥٨ سنة يستقط منها عمر الحداثة وزمان الطلب . فكيف لعمري مع هذا يقاس به ذلك العصر كله على طوله وتجاوز عمره من ناحيته ؟ !

إن ما امتاز به أبو نواس وذكر أنه فضل به الناس لا غير ، مذهبه في الجُر ، قال له الخليل : ويحك يا أبا نواس فأنت لا تفارق مذهبك في الجُر البتة ؛ قال : لا والله وبذلك فضلتك وفضات الناس جميعا (ص ١٧٩) فلم يدّع لنفسه في الفضل على الناس ما ادّعا له الشيخ طه حسين أنه كان مثال الناس الصادق ولسانهم الناطق ومرآتهم الصافية ، ولم يكن في دهره بتلك المرتبة العظيمة الخطر التي سما به إليها أستاذ الجامعة ؛ على أن محاسن مذهبه في الجُر وإطائف ما ارتشفه فيها سقط منها على غيرد ، وتجلت فيها بإبداع الشاعر بن المفلّح الفحلين : الوليد بن اليزيد والحسين بن الضحاك الخليل . وهذه شهادة

العمدة في هذا الباب ، ومفزع الأدباء والكتاب — قال أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني (ج ٦ ص ١٠٧) : « والوليد في ذكر الجمر وصفها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم وسلبوها ما فيها وأبو نواس خاصة ، فإنه سلب معانيه كلها وجعلها في شعره فسكرها في عدة مواضع منه ، ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنبئ عن نفسها » وقال في (ص ١٦٥ منه) في الحسين بن الضحاك بعد أن ذكر أنه شاعر أديب ، ظريف ، مطبوع ، حسن التصرف في الشعر ، حاول المذهب ، لشعره قبول ورواق صاف : « كان أبو نواس يأخذ معانيه في الجمر فيغير عليها وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسيه الناس إلى أبي نواس ، وله معان في وصفها أبدع فيها فاستعارها أبو نواس ، وأخبارهما في هذا المعنى وغيره تذكر في أما كنهم الخ » وقد ذكر منها في إغارات أبي نواس على خريات الخليل وقائع في صفحات ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

فهذا أبو نواس في مذهبه الجمرى الذي زعم أنه فضل فيه الناس ، رأيته على أى متاع وقع ، وفي أى سهل رجع ، ولا نتعرض له في غيره ولم يدع تجلية ، ولا تصلية ، ولا سبق الرعيل الأول ، ومع ذلك اتخذ الشيخ طه ذروة السنام ، وهام تلك الأيام ، بل مملأها ومشخصها ، ولسانها ومرآتها ، وحسبه في حكمه هذا عكازا يقيه ويهديه ، فذكر أن الناس « افتتنوا بأبي نواس فحفظوا شعره وتناشدوه ، ثم أضافوا إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون لا يعرف قائله ، ثم لم يكتفوا بهذا فرددوا عنه الروايات ، واتحلوا له القصص ، وتحدثوا عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب » قال الشيخ : « أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للمذاة ونعيم الحياة فيكفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية . . . » .

ولو أنا صدقنا الشيخ في مقدماته هذه ، وكان هذا رأيه صحيحا ، لقلنا له : أولى لك في هذا السبيل — الهضام ، ورأس الغول ، والزير ، والبردويل ، وحجرة ، وذات الهمة ،

وأبو الفوارس، وأبو الأٌمصار، وربابة ينزل بها الى « قهوات الصبوات » ففيها ولهم يطيب حديث الأربعة عن أولئك الأبطال الأمثال، عناوين عصورهم الخوال :

(٤) ولقد طالبناه بالدليل على ما زعمه أن « الرشيد كان مازحا من غير شك » جفاء به يقول : « إن الرشيد كان يلهو ويسكر... » وأكّد دليله هذا سقطا فأضاف على الرشيد ابنه المأمون، وسلكه في حكمه فقال عنه : « إن المأمون كان يلهو ويشرب الخمر... » : وكذلك يرى ربيب الجامعة أدلة على دعاويه هي إغراقه فيها، فاذا أردناه على مبيع أهل العلم حسب أن جريدة السياسة وحدها تنجيّه بنشر كل ما يسويه .

ولقد أخذ في طريقه هذا « ابن خلدون » بالسب والتزييف لأنه قال الحق عن الرشيد، وبين كذب ما نسبته اليه أقاصيص الصبيان مما يتعلق الشيخ طه بأمثالها في أحكامه، ومضى مع ابن خلدون في دعوى جديدة يقول فيها : « أن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد، فقد تحدّثوا أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفي لتبرئة الرشيد مما أضيف اليه من أنه كان يلهو ويسكر... » وبهذا آن للشيخ طه أن يرفع عن بصيرته غشاوة الخديعة التي خدع بها ابن خلدون ؟ لم يقل لماذا، ولا سبب تبصرته هو بما لم يبصره ابن خلدون ؟ والشيخ طه طبعاً أرسخ قدما في التاريخ، وأطول باعا من ابن خلدون ؛ ومن ابن خلدون هذا عمدة التاريخ وصاحب المقدمة فيه وبجائته وراويته في جانب الشيخ طه حسين .. ؟ ! إلا أن الأستاذ لم يبين لنا لماذا يصدق عن الرشيد أنه « كان يلهو ويسكر » ولا يصدق عنه أنه كان يصلي مائة ركعة كل يوم، وأنه مضى حياته في الحج والغزو، لأنه قاس حياته بحياته فرأى استحالة ذلك الصلاح على الرشيد ؟ أم صح عند الشيخ علم بما في القرون الأولى لم يظفر به ابن خلدون ؟ أم أن الكتب التي يسقط عليها أقوم وأعدل

وأصدق من أمهات التاريخ وكتب الرواة السلسلة المعنونة ، فيتمد على أمثال « إعلام الناس » و « قصص أبي نواس » و (حواذيت) ألف ليلة ، عن ابن خلدون وابن جرير وابن قتيبة وغيرهم من أرا كين التاريخ وراويه وناقله ؟ لقد أشفقتنا على القراء أن ننقل لهم عن تلك الكتب المعتبرة ما قالت في الرشيد والمأمون تكذيباً للشيخ طه ، ونحسب أننا إن فعلنا لم نأت لهم بجديد . ولا نطالبه على قوله بالبرهان مرة أخرى ، فقد رأينا تلك البراهين الخارجة من معمل حديث الأربعاء وكيف تكون .

محمد سليمان

« يتبع »

الطرف والمُلح

قيل لشيخ : ما بقي منك ؟ قال : يَسْبِقُنِي مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَيُدْرِكُنِي مَنْ خَلْفِي وَأَنْسَى الْحَدِيثَ ^(١) ، وَأَذْكَرُ الْقَدِيمَ ^(٢) ، وَأَنْعَسَ فِي الْمَلَا ^(٣) ، وَأَسْهَرَ فِي الْخَلَا ^(٤) ، وَإِذَا قُتُّ قَرَّبْتُ ^(٥) الْأَرْضَ مَنًى ، وَإِذَا قَعَدْتُ ^(٦) تَبَاعَدْتُ عَنِّي .

(١) الشيء الجديد كلاماً أو غيره لضعف الحفظ من الكبير . (٢) لأن المحفوظ في الصغر قلما ينسى .

(٣) وأنا جالس مع الناس لأن حديثهم يجلب إلى النوم كالطفل ينام لغناء أمه . (٤) وأنا وحدي

لأنني لا أسمع حديثاً . (٥) لأن ظهري قد تقوس وانحنى . (٦) أي إذا أردت أن أقعد فلا بد من اعتمادى على شيء حتى أصل إلى الأرض فإن ضعف قواي جعل المسافة التي بيني جالتي القيام والقعود طويلة .

الكلام في ترجمة القرآن

تحرير محل النزاع - الفرق بين الترجمة والتفسير

الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية - ما يمكن في القرآن وما لم يمكن
هكاهم مطروحة ما يؤتى به من ذلك وهكاهم مطالعة والفرق بين المطروحة والمطالعة

.....

لقد شغل الناس أيماء شغل بالكلام في ترجمة القرآن ، وقام الجدل عنيفاً بين الطرفين ، واتسعت أطرافه بقيام أشياع ومناصرين لكل فريق ، حتى طلعت علينا كلمات من حضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء ، وقد ترقبها الجمهور أيماء ترقب ، وكان المنتظر أن يكون فيها القول الفصل وحسم هذا النزاع ، ولكنهم لم تستأصله كل الاستئصال ، ولم يزل الأمر ملتبساً بين ما اتفق عليه كلامهم وما اختلفوا فيه ، وما زال القارئون يتطلعون إلى ما تهدأ له نفوسهم وتقر عندهم خواطرهم .

وإن أكبر عامل في تشعب مسالك البحث وتعاضى أطراف الكلام هو إغفال تحرير محل النزاع الذي يجعل النفي والإثبات بين الطرفين متواردين على أمر واحد ، ويوفر على كل من المتناظرين الكلام والجهد في إثبات ما لم يخالف أحد في إثباته ، أو نفي ما لم ينكر أحد نفيه ، فاعله إذا تحرر محل النزاع تجد كلا منهما يسلم لصاحبه بما يقول ، وإن اختلفت الأساليب والنزعات ، وظن أن بينهما خلافاً مستحقاً .

وإنه لتحرير محل النزاع في هذه المسألة يجب كشف النطاء عن معنى كلتي (ترجمة) و (تفسير) وبيان ما يريد الناس بهما في تفاهيمهم على العموم، وفي هذه المسألة بنوع خاص؛ وكذلك يجب بيان الترجمة الحرفية والتفسيرية، ثم الرجوع الى هذا البحث كيف نبت قديما وحديثا، وحينئذ يتجلى الأمر فيها يمكن بالنسبة للقرآن وما لم يمكن، ويتضح حكم ما يمكن من ذلك، وهذا هو ما تعرض له في مقالنا هذا وبالله التوفيق:

الفرو بين الترجمة والتفسير — الترجمة وإن كانت في أصل اللغة هي التفسير بلسان آخر، إلا أنها قد تعورفت بأن يوثق بكلام من لغة يؤدي ما يؤديه كلام من لغة أخرى ويسد مسده فيما هو المقصود منه. والتفسير أو الشرح: هو الإتيان بما يفهم منه المعنى المشتمل عليه الكلام الأول، وإن لم يكن مستوفيا لكل ما يقصد منه. ولنشرح ذلك بمثالين مما تستعمل فيه هذه الكلمة:

المثال الأول — قد يجري بين شخصين مختلفي اللغة عهد مباحة أو نحوها، ويجبران الوثيقة بلغة أحدهما، فيعمد الآخر الى وثيقته ويقصد الى متمكن في اللغتين يطلب اليه ترجمة تلك الوثيقة لحرصه على أن يستعمل وثيقة منهومة له. فهذا يطلب بلا شك من المترجم أن يستوفي له كل ما تضمنته تلك الوثيقة مما يقصد المتعاقدان، حتى لو أخل بأى شيء مما هو مقصود فيها كان إخلالا بالترجمة ولم يكن محققا له ما طلب.

والمثال الثاني — أن يبحث واحد في أوراق مخلفة له عن والده مثلا — فيجد من بينها كتابا بلغة لا يفهمها، فيقصد الى أحد العارفين بتلك اللغة يسأله تفسير ما في هذه الورقة وشرحها له، ليرى رأيه فيها أيعنى بها ويحافظ عليها أم يطرحها ويمزقها، فإذا أفهمه ما فيها فقد أجاب طلبه في التفسير والتفهم، وإن لم يستوف كل ما احتوت عليه من نقط مهمة. فهذا تفسير، وقد ينشأ عنه رغبة في الترجمة، بأن يكون لهذه الورقة قيمة عظيمة يصح أن يبني عليها تصرف خاص، فيطلب الى ذلك المفسر أن يترجم له تلك

الورقة لأنه سيمطلب بها حقاً من حقوقه مثلاً ، وهنا يكون المطلوب الترجمة ، أي أن يؤتى بكلام يستوفي كل ما هو مقصود من تحرير تلك الورقة ، لا يبالي طالب الترجمة أن يكون الأسلوبان في الأصل والترجمة متساويين بلاغة أو متفاوتين متى أدى له غرضه ، وهو استيفاء ما هو المقصود من تحرير تلك الورقة .

من ذلك يتبين أن الترجمة هي تيسير الكلام بلسان آخر على وجه يستوفي كل المقصود منه ، وأن التفسير أو الشرح هو تبين الكلام بشرح مضمونه ولو بصورة إجمالية لم تستوف كل التفصيلات المقصودة .

هذا المعنى هو ما يتبادر إلى الفهم حين قوينا : إن فلانا معه ترجمة التوراة أو الإنجيل أو معه الكتاب المقدس أو العهد القديم بالعربية أو اللاتينية أو نحو ذلك ، لا يفهم منه إلا أن كل ما يقصد من تدوين هذا الكتاب أو يطلب من الاطلاع عليه قد تضمنته هذه الترجمة ، فمن عرف أنه ذليلاً أخذ نسخة من هذه التراجم بلغته التي يعرفها ، وليس يفكر بعد هذا في أصل ولا فرع ، ولا في أيها أخذ عن الآخر ، وإنما يعنيه الوصول إلى التوراة مثلاً — بحيث يفهم ما يقصد منها وقد وصل ، فلا يعنيه التفكير في غيره .

هذا المعنى هو مشار هذا النزاع الحاضر ، والنزاع السابق عليه ، فقد قام النزاع هذه المرة على أثر انتقاد الأستاذ النفثازاني عمل الأتراك في ترجمة القرآن ورد الأستاذ فريد وجاني عليه وتحييده عملهم ، فما الذي عملوه ؟ هو أنهم أتوا للأمة التركية بترجمة للقرآن تكتفي بها تلاوة ومطالعة وتعبداً ، تنفيها عن الرجوع للأصل العربي ، وتحايها محل القرآن في كل ما قصد من إزال القرآن ؛ وكذلك كانت الضجة السابقة على أثر منع مشيخة الجامع الأزهر إدخال نسخة من ترجمة للقرآن يراد منها أن تأخذ المعنى المفهوم من كلمة الترجمة ، وهي الإتيان بما يقوم مقام الأصل في كل ما هو مقصود منه ، بحيث يستغنى بالترجمة عن الأصل ، وتقنع نفوس الناس بما وصلت إليه أيديهم لا يتطلعون بعده إلى شيء .

أيهما يمكن بالنسبة الى الفرائد ؟ — بعد أن تبين الفرق بين معنى الترجمة الذي يتفاهمه الناس منها ومعنى الشرح أو التفسير ، يصحح أن يتساءل الباحث : أ كلاهما ممكن في القرآن أم كلاهما غير ممكن ؟ أم هما مختلفان ؟

وللإجابة على ذلك إجابة صحيحة يجب أن يبين ما هو المقصود من إنزال القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم : القرآن أنزل لمقصدين عظيمين أساسيين :
الأول : هداية الناس الى ما فيه صلاحهم في معادهم ومعاشهم ، وبعبارة أوضح : تنظيم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وبأخيه الإنسان وسائر الكائنات .

والمقصد الثاني : أن يكون آية للنبي صلى الله عليه وسلم شاهدة بصدقه فيما يبلغ عن ربه ، وذلك بكونه معجزا للبشر لا يقدرّون على الإتيان بسورة من مثله ، ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك . فأما المقصد الثاني وهو كونه آية ، فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقا من الطرفين المتنازعين ، فإن القرآن الكريم وإن كان الإعجاز في جملته لعدة معان كالإخبار بالمغيبات واستيفاء تشريع لا يتطرق اليه الخلل ونحو ذلك ، إنما يدور الإعجاز الساري في كل آياته على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقا ، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ولكن لكل لغة خواصها لا يشار كها غيرها فيها . فالترجم إن عول على نقل ما في الأصل من الخواص فإنه لا تتأدى له البلاغة المطلوبة إلا اذا تشاركت اللغتان في الخواص بعينها ، وهذا غير حاصل ؛ وإن عمد الى تأدية الثمار التي تؤديها تلك الخواص البلاغية العربية بما يقوم مقامها في اللغة الأخرى ، كان هذا الصوغ وهذا الأسلوب عملا منسوباً للمترجم يتفاوت رقيا وانحطاطا تبعا لمقدرة المترجم ، ولذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل الى درجة الإعجاز مهما ارتقت درجته في بلاغته .

ويستخلص من هذا أن نقل الخواص البلاغية العربية الى ما يقابلها في اللغة الأخرى — على فرض العثور عليه كله — لا يستتبع الدرجة البلاغية في تلك اللغة ،

والتصرف باختيار الأساليب البلاغية المناسبة للغة الأخرى قد يحصل بلاغة، ولكنها تنسب لصائغ الترجمة، ومحال أن يصل الى حد يعجز البشر، كيف وهذا الصوغ صوغه وهو من البشر؟ وإذاً يكون المقصد الثاني وهو الإعجاز الذي به كان القرآن آية، فائتما لا محالة في الترجمة.

وأما المقصد الأول وهو هداية الناس الى ما فيه سعادتهم في الحياتين الدنيوية والأخروية، فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع الكثير الغالب منه الى المعاني الأصلية الأولية التي يشترك في تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوى عليها اللغات عريها وعجمها، وهذا النوع من المعاني لا يشك في إمكان ترجمته واستفادة الأحكام والإرشادات منه، ولكن هل للأساليب البلاغية والمعاني الثانوية دخل في استفادة بعض الأحكام أيضا كما استفيد أكثر الأحكام من المعاني الأولية؟ إن الطريق الموصل الى الجواب الصحيح عن هذا السؤال هو الرجوع الى عمل المستنبطين للأحكام من الفقهاء المجتهدين؛ وإنا اذا رجعنا الى عملهم في الاستنباط نجدهم قد استنبطوا كثيرا من الأحكام من الأساليب البلاغية، ويحضرنا الآن من ذلك مثالات:

(الأول) قد أخذ الشافعية وجوب الترتيب في أعمال الوضوء من آية (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) ووجهوا ذلك بأنه وإن كان تعاطف هذه الأعمال بالواو، وهي لا تقتضى ترتيبا ولا تعقبا، فإنه قد توسط فيها المسح بين أعمال الغسل، وكان مقتضى الظاهر أن يجمع التناسبات بعضها الى بعض ويؤتى بالخالف لها على انفراد، فكان مقتضى الظاهر أن يجمع الغسل الى الغسل ثم يردف بالمسح، فلما توسط المسح بينها دل على أن ترتيبها على هذا الوجه مقصود للشارع؛ وكذلك كان الظاهر أن يرتب في الأعضاء

فيبدأ بأعلىها وينتقل الى الأسفل ، فيكون البدء بالرأس أو بالأَسفل ، ويتدرج الى الأعلى ، فيكون البدء بالرجلين وانتهاء بالرأس ، فلما وسط الرأس بين اليدين والرجلين دل على أن الترتيب على هذا الوجه مقصود للشارع . وكذلك قال الحنفية : إن الغرض في مسح الرأس لا يتأدى إلا بمسح ربع الرأس ، وأخذوا ذلك من الآية الكريمة ، لأنها لما أدخل فيها الباء بعد المسح على الرأس ، وحققا أن تدخل على آلة المسح لا على المسح ، فهم منها أن الرأس نزلت منزلة آلة المسح ، ومعلوم أن المسح عادة يكون براحة اليد ، فيؤخذ من هذا أن اليد توضع على الرأس وتحرك عليها ، كأننا مسحناها بالرأس ، وهذا يحصل به مقدار الناصية أو ربع الرأس عادة ، فقدرناها بالربع . نحن لا نحاول هنا هذا الاستنباط ولا نبحث في قوته وضعفه ، وإنما نريد أن نبين أنهم قد استنبطوا أحكاما من الأساليب البلاغية والماداني الثابرة ، فإن العدول بالباء عن موضعها لإفادة معنى ، أو مغايرة مقتضى الظاهر في الترتيب لاسكتة ، لا يدخل شيء منهما في المعاني الأولية ، بل ذلك من الخصوصيات قطعا .

ومن هذا يعلم أن المقصد الأول وهو الهداية يرجع بعضه أو أكثره الى المعاني الأولية ، وبعضه يؤخذ من خواص التراكيب التي لا يمكن تفهاها . وإذا قد تبين مما سبق أن الإعجاز لا يمكن تحصيله في الترجمة ، كانت الترجمة مفوتة أحد المقصدين برمتها ومفوتة شطرا من المقصد الثاني ، فلا يمكن أن يؤتى بترجمة تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه .

أما التفسير أي تبيان شيء مما يتضمنه الكلام المترجم ، وشرحه وتقييمه والإمام ببعض مزاياه المتضمنة له ، سواء أكان بشرحها أم بمحاولة محاكاة شيء منها في حل الكلام كتأكيده وحصره ومجاز واستعارة وغيرها على وجه أنها قاصرة عن إيفاء كل ما يتضمنه ، فلا أحسب عاقلا ينكره .

والخلاصة أن الإتيان بما يسد مسد القرآن في كل ما قصد منه لا أحسب مسلما يدعيه ، والإتيان بما يفيد شيئا كثيرا مما أفاده القرآن لا أحسب عاقلا ينكره . فقيم الخلاف اذا ؟ لم يبق إلا نقطة واحدة وهي : هل الكلام الذي أتى على شيء من معاني القرآن ولم يقم مقامه في إيفاء كل ما قصد منه يسمى ترجمة ؟ وهل يصح أن يحل محله ويكتفى به طائفة من المسلمين مستغنين به عن القرآن ؟ والجواب عن الأول : أن أمر التسمية أصغر من أن يأخذ هذه الضجة ، وقد عرفنا أن الناس لا يعرفون الترجمة على معنى أنها ترجمة إلا فيما بين بكل ما يقصد من الأصل . والجواب عن الثاني : أن إحلال الترجمة محل الأصل تسجيل لحرمان تلك الأمة من منبع هداها ، ومن وجود الآية التي تستند إليها شريعنا مستنادا دائما ، بينها ، وإذا كان من البعيد عن الصواب أيضا أن نخرمهم من تفهم كتابهم بالقرآن اليسور لهم ، وتقريبه إلى أفهامهم بصوغ المستطاع منه بلغتهم ، فنقول هذا صحيح ، فلنحصله بما لا يجر إلى ضرر آخر ، وذلك بأن نكتب القرآن العربي رنأتي معه بتفسيره بأية لغة على أنه تفسير لا ترجمة ، وحذالو فسر بالعربية أولا وأردف بالترجمة .

ما حكم المندوة والمطالعة — وقبل أن نتكلم على حكم التلاوة والمطالعة لهذه الترجمة نرى تمهيدا للأداة أن نشرح معنى الترجمة التفسيرية والترجمة الحرفية ليتجلى الفرق بينهما وبين قولنا : « ترجمة » و « تفسير » : فالترجمة الحرفية مدارها على أن يؤتى لكل كلمة بما يرادفها في اللغة الأخرى ، وإن اختلفت مواقع الاستعمال حسنا وإلما . والترجمة التفسيرية أن يؤتى للمعنى الذي يفهم من الأصل بتركيب في الترجمة يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له . فاذا أريد ترجمة قوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) ترجمة حرفية ، أتى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد ، وقد يكون هذا التعبير غير مألوف في لغة الترجمة لانهي

عن التبذير والتقدير ، ولذلك قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن ويقول : ومن ذا الذي يعمل في نفسه هكذا حتى يعنى القرآن بنهيه عن ذلك ، ومن فعله لا يستحق أن يلتفت إليه لأنه وضع مضحك ووضع سخريه . وإذا أريد ترجمتها ترجمة تفسيرية أتى بالنهى عن التبذير والتقدير مصورين بصورة شنيعة تنفر منهما حسبا يناسب أسلوب تلك اللغة وإلف أهليها ، ولذلك يكون الغرض مفهوما بسهولة في الترجمة التفسيرية دون الحرفية ، ومن هنا يرجح أغلب المترجمين طريقة الترجمة التفسيرية . وأيا كان فهي ترجمة لا تفسير ، والفرق بينهما واضح كما عرفت .

أما حكم التلاوة والمطالعة فينبغي أن يعرف الفرق بينهما أولا ، ثم معرفة الحكم وحكمته بعد ذلك : فالمطالعة هي المداينة والتفهم لما تطلعه ، وأما التلاوة فهي القراءة ولو مجردة عن ذلك ، وتلاوة القراء على كل حال عبادة ، أما مع التدبر والتفهم فذلك الوجه الأكمل ، وقد قال تعالى : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْهَامًا) وأما بدون ذلك فلا في التلاوة تحصيل لا لحفظ وتكويننا للتواتر في الأداء ، وبه يتحقق ما وعدنا الله به من حفظه لكتابه العزيز في قوله جل شأنه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فتضافر الأمة خلفا عن سلف على حفظه كما هو بكلماته وحركاته وسكناته وشداته ومداته وغنمه وغير ذلك ، وإن لم يفهم كثير منهم معناه ، محقق للتواتر الدافع لمظنة التحريف والتبديل . وناهيك بالكلمة يغلط فيها أحد مشاهير القراء لتشابه بينها وبين مثيلها في سورة أخرى فتجواب الأصدقاء في رده فيرجع الى صوابه .

إن هذه فائدة عظيمة جاءت من حث الشارع على تلاوته ولو لمن فاته فهمه ، وهذا لا يمنع أن التدبر عبادة أيضا كما سبق . على أن كون التلاوة عبادة في الصلاة ولو بلا فهم لا يخالف فيها أحد ، فالجميع على أن من قرأ الفاتحة وآية من القرآن في صلاته أدى المطلوب ، وكان عمله عبادة مثابا عليها فهم أم لم يفهم .

وإذ كانت حكمة التعبد بالتلاوة هي حفظ ما هو آية، والذي هو آية إنما هو القرآن لا تفسيره، لا يكون حكم تلاوة ما أتى به من اللغة الأخرى حكم تلاوة القرآن، فليست تلاوته عبادة. وأما مطالعته وتفهمه فكمطالعة كل كتاب عالمي نافع، فهي طاعة بقصد التفهم، كمطالعة كتب التفسير وكتب الحديث وأمثالها.

أما حكم التلاوة في الصلاة فقد منعها الأئمة الثلاثة وأتباعهم للعاجز والقادر، وأجازها أصحاب أبي حنيفة للعاجز، على تفصيل لهم بين ما هو من باب الثناء أو الدعاء أو من باب القصة والأمر، نتركه لعلماء الحنفية؛ ومنعوا منها القادر على العربية، وروى عن أبي حنيفة جوازها للقادر والعاجز، وقد نقل بعض أصحابه رجوعه عن ذلك، وسكت بعضهم لم يتعرض لرواية الرجوع، ولا شك أن عدم ذكر رواية الرجوع لا يعارض رواية من رواه، وعلى فرض المعارضة فالمثبت مقدم على النافي. وكان وجه نظر الأئمة رضي الله عنهم أن الصلاة لا تصالح لشيء من كلام الناس والترجمة من كلام الناس، فمن عجز عن قراءة القرآن كان كالأخرس يسكت بمقدار الفاتحة. ووجه نظر أصحاب أبي حنيفة أن الترجمة التي هي من باب الثناء أو الدعاء فيها معنى التمجيد والتسبيح، والصلاة محل لها. وقد يمكن توجيه الرواية الأخرى عن أبي حنيفة بأنه يرى القرآن اسماً للمعنى المدلول كما ذكر ذلك بعض من رواه عنه، وإن رده أصحابه. وعلى الجملة فإن مسألة القراءة في الصلاة مسألة فقهية، وأما هذه المسألة فهي مسألة أصلية يتفرع عليها الكثير من الأحكام. هذا ما نرى أدائه لزاماً علينا، نصحاً خالصاً لله ولرسوله، والدين النصيحة. ونسأل الله أن يوفقنا إلى الهدى، فهو رب النعمة وولى التوفيق، والله المستعان.

أبراهيم الجبالي

استدراك

متعلق بمقال كلمة في ترجمة القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ صاحب التوقيع

حضرة صاحب الفضيلة رئيس تحرير مجلة نور الاسلام .

السلام عليكم ورحمة الله .

الكلمة المرسلة مني الى إدارة مجلة نور الاسلام لنشرها تحتاج الى تكملة في موضعين ، أرجو إلحاق هذه التكملة بالكلمة في نفس العدد استيفاء للموضوع ولكم الشكر .
(الأولى) تتعلق ببيان منزلة رواية رجوع أبي حنيفة المذكور في السطر العشرين
صحيفة ٣٢ ، وحاصلها :

روى رجوع الامام أبي حنيفة عن القول بجواز القراءة بغير العربية في الصلاة مع القدرة عليها نوح بن أبي مريم ، وهو من أصحاب أبي حنيفة ، أخذ الفقه عنه وأخذه أيضا عن ابن أبي ليلى ، ورواه أيضا علي بن الجعد ، وهو من أصحاب أبي يوسف ، وروى عنه البخاري وأبو داود أحاديث . وقال أبو حاتم : لم أر من المحدثين من يحدث بالحديث على لفظ واحد لا يغيره سوى علي بن الجعد . وهو من علماء القرن الثاني والثالث ؛ ورواه أيضا أبو بكر الرازي ، وهو أحمد بن علي الجصاص ، وهو إمام أصحاب أبي حنيفة في وقته ، تفقه على أبي الحسن السرخسي ، وهو من علماء القرن الرابع .

وحيث كان رواة رجوع الامام بهذه المنزلة فلا معنى لأن يجعل سكوت باقى أصحاب أبى حنيفة عن نقل الرجوع ماثرا للشك ، فإنه لم يقل أحد : إن سكوت أبى بكر أو عمر أو عثمان عن نقل حديث رواه أبو هريرة موجب للشك .

(الثانية) تتعلق بالتوفيق المذكور بين القول بالفساد والقول بعدم الفساد المذكور فى السطر الثامن الى الثالث عشر صحيفة ٣٣ ، وحاصلها :

التوفيق المذكور هو بالنسبة للقادر على العربية ، وموضوع الكلام فى العاجز عنها ، وفيه التفصيل بين ما إذا كان المقروء قصة وما إذا كان ذكرا ، ولكن سنده قول ابن الهمام فى تحريره : « والوجه فى العاجز أنه كالأعمى فلو أدى به قصة فسدت لا ذكرا » ومعنى هذا أنه يجعل العاجز عن العربية كالأعمى فى أنه لا قراءة عليه ، وأن المؤدى بلفظة أخرى إن كان قصة فسدت صلاته ، لأنه متكلم بكلام غير قرآن وليس ذكرا ، وإن كان ذكرا لا تفسد ، لأن الذكر بأى لسان لا يفسد الصلاة ، وعلى كل فليس تأليا لقرآن . وهذا التفصيل الذى ذكره ابن الهمام هو الذى يتمشى مع المتفق عليه المذكور أولا .

وقد ذكر صاحب طبقات الحنفية نقلا عن صاحب البحر أن الكمال بن الهمام من المرجحين فى المذهب ، بل قال بعضهم إنه من المجتهدين . ومن اطلع على تحقيقاته ودقة نظره فى الأدلة يدرك صحة ما ذكره صاحب البحر . وكثيرا ما تذكر عبارات مطلقة فى كتب المتقدمين وتكون مقيدة فى الواقع نظرا لأدلة اقتضت ذلك ، مثل أصل مجمع عليه ، أو فروع يؤخذ منها ذلك . فهذا الذى رآه ابن الهمام هو الأجدر بالاتباع .

محمود أبو رقيقة

مدرس بكلية أصول الدين

الاسلام

في المناطق الغربية منه أفريقيا الشرقية^(١)

عنيت الجمعية الألمانية للمعارف الاسلامية منذ زمن بعيد بإحصاء المسلمين في النواحي المختلفة من المعمورة مع بيان حالتهم الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، ولما كانت أفريقيا الشرقية جزءا من الممتلكات الألمانية^(٢) التي تدن بالاسلام، وكان للاسلام الأثر الظاهر في حياة سكان تلك البلاد وطينين كانوا أم مستوطنين على اختلاف نحلهم ومشاربهم، فإن اهتمام الجمعية ببحث ودرس عقيدتهم الدينية وأثرها في حياتهم الدينية والدنيوية كان مضاعفا.

والإحصاءات المذكورة فيما يلي وما يتبعها من بيان ترجع إلى ما وصل إليه مراسلو الجمعية وكتابها في السنين الأخيرة قبيل الحرب الأوربية الكبرى.

١ - درجة انتشار الاسلام

تعتبر ناحية « تابورا » حصن الاسلام النيع في أفريقيا الشرقية، ويقدر عدد السكان في هذه العاصمة بما لا يقل عن ٣٥ ألف نسمة - منهم ٢٥ ألفا ممن يدينون بالاسلام، ولا يقل عدد العرب والهنود في هذه الجهة عن مائة نسمة، ويوجد بمدينة « تابورا » وضواحيها ٣٠ مسجدا ومدرسة لحفظ القرآن، وأربعة مساجد كبيرة خصص أحدها للعرب والثاني للهنود والاثنان الآخران للأهالي الوطنيين، وأما باقي المساجد فعبارة عن مباني بسيطة من القش.

(١) نقلا عن مقال للدكتور « شيبيل » في مجلة (العالم الاسلامي) التي تصدرها الجمعية الألمانية للمعارف الاسلامية ببرلين . (٢) تنازلت ألمانيا عن هذه الممتلكات عقب الحرب الاوربية الكبرى .

ويرجع فضل إنشاء المساجد في هذه الجهة غالبا الى الهبات الخصوصية، أو التبرعات الشعبية التي يقوم بها المسلمون .

ويطلق اسم « معلمين » على المؤذنين والمدرسين في المساجد ، وأغلبهم من سكان السواحل الشرقية ، وهم يتقنون كتابة الحروف العربية وقراءتها ، ولكن الكثير منهم لا يجيد فهم اللغة العربية التي لا تستعمل إلا في قضاء الأغراض الدينية ، ولا يتداولونها في باقي مرافق الحياة الأخرى .

ولا تقام صلاة الجمعة بانتظام إلا في الأربعة المساجد الكبيرة ، ولا يؤمها إلا القليل ، ويتراوح عدد المصلين فيها بين مائة ومائة وخمسين نفسا في كل منها ، أما الصلوات اليومية فتقام في جميع المساجد الكبيرة والصغيرة على حد سواء ويؤمها الكثير ، ولكن عدد المصلين يختلف تبعا لفصول السنة .

وتقوم المكاتب الدراسية بتعليم النشء القراءة والكتابة بالحروف العربية ، وبتلقينهم آيات القرآن وتجويدها ، وأما المصاريف الدراسية فتنافها جدا حتى تكاد لا تذكر .

وتقع مدينة « أوجيجي » التي تعتبر من الأوساط الإسلامية الهامة في تلك البلاد بقرب مدينة « تابورا » ، ودخل الاسلام في هاتين المدينتين بواسطة العرب النازحين من زنجبار ومن السواحل الى داخل البلاد الواقعة غرب بحيرة « تنجانيقا » بقصد شراء سن الفيل أو تجارة الرقيق .

ويوجد في مدينة « أوجيجي » مسجد واحد بمأذنة من الحجر ، وأغلب سكان المدينة من العرب ومن العبيد المسلمين النازحين اليها من السواحل أو داخلية البلاد الواقعة بين « تنجانيقا » والكنغو ، ولا يتكلم بالعربية في هذه الجهة سوى العرب ، وأما باقي الأهالي فيتفاهون بلغتهم الوطنية ويطلق عليها « كيسواهيل » علاوة على

بعض لهجات أخرى مختلفة تبعاً لاختلاف مواطنهم الأصلية، ويحترف أغلبهم التجارة والقليل منهم يشتغل بصيد الأسماك أو يخدم في البحرية .

أما التجار المسلمون فمنتشرون على طول السواحل الشرقية لبحيرة « تنجانيقا » كما أنهم ابتدءوا أخيراً في استعمار المناطق الجنوبية أيضاً حيث توجد لهم الآن عدة مساجد بها، وفي سهل « كيراندو » يوجد الآن ثلاث مساجد صغيرة، ويقوم بالإتفاق عليها جماعة المسلمين القادمين من السواحل أو بلاد الكونغو، ويبلغ عددهم في الأربعة القرى المهمة في هذه البقعة حوالي ٦٠٠ نفس أو ما يقرب من خمس عدد السكان، إلا أنه يندر بينهم من يفهم اللغة العربية، ويشغلون بصيد الأسماك وبناء السفن والتجارة والزراعة .

وقد تغلغل الاسلام الى أبعد من ذلك جنوباً، فنجد أتباعه في منطقتي « كيزومبي » و « بسمار كبورج »، ولهم في الأخيرة جامع يقوم بالتدريس فيه أحد فقهاء مدينة « تابورا » ولا يزيد عدد المسلمين في هذه الناحية عن عشر عدد السكان، ولا يتكلم بالعربية سوى العرب المقيمين بها ولو أن كثيراً من الأهالي المسلمين يجيد كتابة الحروف العربية وقراءتها فضلاً عن أن التحية بينهم لا تلقى إلا بعبارات عربية محتة، وأهم الحرف التي يشتغلون بها التجارة .

أما في الجهات الجنوبية من الشواطئ الشرقية لبحيرة « تنجانيقا » وما جاورها من الضواحي في الناحية الشرقية، فيكاد الإنسان لا يشعر للإسلام فيها بأى أثر، رغم أن الكثير من تجار المسلمين يمرون بها .

وكذلك في الطرف الشمالى من بحيرة « تنجانيقا » يكاد يكون أثر الاسلام فيها معدوماً — إلا في السهول الساحلية، حيث أسس العرب المستوطنون على قلة عددهم جامعا وعشر مدارس لنشر اللغة العربية وحفظ القرآن . ويدين بالاسلام في تلك

النواحى العرب وبعض الوطنيين السود، ولو أن عددهم قليل جدا بالنسبة لغير المسلمين، أما اللغة العربية فغير شائعة هناك إلا بين العرب ومواليهم وبعض المدرسين الوطنيين .

أما في سلطنة « أوسامبيرو » الواقعة في شمال « تابورا » و « أوجيجي » البالغ تعدادها حوالى ١٠ آلاف نسمة، فلا يزيد عدد المسلمين فيها عن ٨٠٠ نفس — القليل منهم من أصل عربى أو هندى، ويوجد في بلدة « نامازينا » التى تعتبر واقعة تحت نفوذ الاسلام منذ سنة ١٩٠٥ . جامعان لإقامة الشعائر الدينية، وكذلك في مقر السلطنة وغيرها من القرى المتاخمة يوجد عدد لا يستهان به من المسلمين منتشرون في نواح مختلفة، ولو أن هذه الجهات غير مأهولة بالسكان كغيرها لقلة مواردها الطبيعية وصعوبة الوصول إليها لوقوعها بعيدة عن طرق المواصلات الرئيسية .

٢ — ماهية الاسلام وماله

لم تكن التقارير التى وصلتنا فى أى وقت عن ماهية الاسلام وحالته في بلاد أفريقيا الشرقية بواقية، ولو أنها تكاد كلها تجمع على أن الاسلام لم يبلغ في هذه الجهات حدا بعيدا، فلا تراعى تعاليمه بدقة ولا تمام شعائره بانتظام، ويكاد يكون الختان وصيام رمضان الشيعيين الوحيدين الذين لا يزالان مرعيين عادة عند أغلبية الأهالى المسلمين، أما إقامة الصلوات في المساجد العمومية، أو المحافظة على تعاليم المأكل والمشرب من حيث الحلال والحرام، وكذلك الرضوء على قواعده الصحيحة، فكل ذلك من الأمور التى لا يراعيها إلا القليل منهم، بل وكثير من المسلمين من لا يعرف عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيرته إلا النذر اليسير، ولو أنهم جميعا ينظرون باحتقار الى كل من لا يدين بما جاء به، ويقاومون أعمال التبشير المسيحي في الجهات المأهولة بالسكان مثل « تابورا » و « أوزامبيرو » مقاومة عنيدة .

ومما لا شك فيه أن دخول الاسلام في هذه الجهات كان مقرونا بفتح حياة ثقافية جديدة، فكما أدخل العرب أنواعا جديدة من الزراعات — خصوصا الفاكهة — كان لهم الفضل في نشر التعليم، ولكن مما يدعو للأسف الشديد أن تعاليم الاسلام في كثير من أمور الحياة الدنيوية لا تراعى أو لا تنطبق بالروح العادلة التي تتطلبها، فتنقلب النتائج إلى عكس المقصود منها، وهكذا كانت إباحة تعدد الزوجات مثلا — سببا في كثير من الأمراض الاجتماعية التي تهدد من كيان الأسرة والمجتمع على حد سواء .

٣ — الدعاية لمرسوم

وجد الاسلام أنصارا كثيرة في هذه الجهات حيث حل العرب المستعمرون، فاعتنق عبيد الكونغو (المستوطنون الآن سواحل بحيرة « تنجانيقا » الشرقية وغيرها) ديانة أسلافهم من العرب، كما أنه كثيرا ما تزوج العرب النازحون من النساء الوطنيات — غالبا من بنات رؤساء القبائل الوطنية — فدخلن في دين الله وهلن على أهلهم وذويهم اعتناقه بشرحهم أصوله وتعاليمه مما يأخذنه عن أزواجهن، وكذلك هذا الكثير من العساكر حذو زملائهم من المسلمين واعتنقوا الاسلام، كما كان للتجار العرب أثر كبير في نشر الاسلام والدعاية له باحتكاكهم المباشر بالوطنيين ومعاملة من يدين به معاملة ممتازة مما رغب الكثيرين في الانضمام إلى زمريتهم طمعا في الفائدة المادية التي تعود عليهم إذا هم دخلوا في حي الاسلام .

أما القبائل المنتشرة في داخل البلاد، وهي بطبيعتها في حاجة دائمة إلى سكان الشواطئ الشرقية، فهم أبدا في حالة عدم استقلال اقتصادي، بل يدينون تقريبا بكل شيء للتجار العرب في المدن الشاطئية الذين يسخرونهم ويستغلون جميع منتجاتهم، ولهذا السبب نجدهم دائمي الحذر منهم، مبتعدين كل البعد عن ديانتهم وما جلبت من عادات .

هذا الى أن الكثير منهم لا يميل الى تعذيب الجسم ويعتبر اختان صورة من صور التعذيب التي لا تقبلها عواذهم .

وليستخلص من كل ما ذكر أن المساميين الغرباء تمكنوا حتى سنة ١٩١١ المتداخلة في سنة ١٩١٢ من التغلغل الى قلب المناطق الغربية من أفريقيا الشرقية ونشروا الدعوة الى الاسلام بين الوطنيين ، كما استطاعوا وضع هذه البلاد تحت نفوذهم الاقتصادي والتجاري ، ولو أنه لا تزال هناك نواح لم يتمكن فيها الاسلام من ترسيخ قدمه رغما من وجود ما يدل على تطور فكري نحو الأفكار الاسلامية بين قبائل الوطنيين من حين لآخر .

البوصلة في المملكة النباتية^(١)

اكتشف أحد علماء النبات « شاندرل » خاصية غريبة في إحدى الحشائش السهمية المسماة علميا « *Sagittaria sagittifolia* » وهي إحدى النباتات المائية ، ولها فروع تحت الماء ، وفروع طافية على سطحه ، وأخرى ترتفع قليلا عن سطح الماء ، وهي على نوعين : عريضة وضيقة ، فبينما تبقى العريضة دائما في وضع أفقي ، تتخذ الضيقة أبدا اتجاهها يشير الى كل من القطبين الشمالي والجنوبي ، كما تفعل الإبرة المغنطسة في البوصلة البحرية .

(١) مترجمة عن مجلة « Kosmos » الألمانية .

المقدمة

في جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة (روسية)

إن اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية يشمل منذ سنة ١٩٢٤ الأقسام التالية :

(أ) جمهورية روسيا (بما فيها سيبيريا والأقاليم التسعة المستقلة استقلالا داخليا)
ويوكرانيا والروسيا البيضاء .

(ب) جمهوريات السوفيت الاشتراكية المنضمة للأولى ، وهي : بلاد القريم وقازان وبشكير وبلاد القوقاز الشمالية مع حكومة طاغستان وقازاقستان وأوزبكستان .

(ج) جمهوريات السوفيت الشعبية المتحالفة مع الأولى ، وهي : بلاد التاجيكستان وقرابا كستان وتوكرانياستان وقراقيرغستان ومونوغوليا الشمالية .

(د) اتحاد الجمهوريات الاشتراكية المتحدة مع الأولى — خلاف بلاد القوقاز وهي : أرمينيا وبلاد السكرج وازربايجان .

ومن الوجهة الخارجية فإن سياسة السوفيت الاسلامية التي وضعت بمؤتمرا كوبا سنة ١٩٢٠ تتضمن تحرير الشعوب الشرقية ولا سيما الاسلامية من استغلال أوروبا الرأسمالي والاستعماري .

وأما من الوجهة الداخلية فإن سياسة السوفيت الاسلامية التي حددها ستالين في تقرير سنة ١٩٢١ وسافاروف في تقرير سنة ١٩٢٢ ترمي الى ما يأتي :

- (١) تجزئة وتقسيم العقارات الكبيرة، سواء أكانت إقطاعية أم موقوفة .
- (٢) حل الجماعات الأخوية الإسلامية .
- (٣) القضاء على الحركة الوطنية التركية .

وقد عجلت هذه السياسة بتحرير المرأة، وأعادت تكوين جميعات التضامن، ووردت الى الجنسيات الثانوية المدارس التي يدرس فيها بلغاتها، والأراضي التي كان الاستعمار الروسي قد صادرها — إلا أنها أدت من جهة أخرى الى انحطاط هائل في الأخلاق من وجهة الحياة العائلية ومن الوجهة الاجتماعية، والى نزول القحط بالبلاد بسبب عدم أهليتها لتنظيم حركة تمويل البلاد اقتصاديا، هذا مضافا الى انسلاخ ٣٥ مليون نسمة من روسيا . وقد نزل عدد سكانها من ١٨٠,٦٧٨,٨٠٠ نفس في سنة ١٩١٤ الى ١٣٥,٧١٠,٤٢٣ نسمة في سنة ١٩٢٠ — منها ١٩,٢١٨,٠٠٠ شخص (أي ١٦٪ في المائة) غالبيتهم العظمى من الأتراك المحتشدين في الجنوب الشرقي، ثم بلغ ١٤٧,٠١٣,٦٠٩ نسمة في سنة ١٩٢٧

الصحافة : فيوجد منها بمدينة اقشيد (في بلاد القرم) جريدة «أوقوع اشليري» وجريدة «بلتيش» و«يني دنيا» و«ييلسكي» وكلها تصدر باللغة التركية .

وبمدينة باكو توجد جريدة «قومونيست» وتصدر باللغة التركية، وبها عمود يكتب بالأحرف اللاتينية، ويحررها حبيب جيبوف وتصدر يوميا، ومجلة «اقتصاد خيرلى» مجموعته سى» ويحررها طاليبي وهي شهرية، ثم جرائد «شرق قاضيني» و«ايكنجى همكيال» اتفاقين مجموعته سى» وهي كذلك شهرية، و«مليت ماس ايليسى» و«يني يول» وتصدر بأحرف لاتينية ويطبع منها ٨٠٠٠ نسخة، ثم جريدة «قنديلي» .

وفي مدينة بخارا تصدر منذ سنة ١٩٢٠ جريدة «ازادبخارا» باللغة التركية، وتطبع ٣٠٠٠ نسخة، ومجلة «معارف ومدنيت» وتصدر شهريا باللغة التركية .

وبمدينة جنجى (فى ازربايجان) تصدر باللغة التركية جريدة يومية اسمها « بنى جنجى » . وبمدينة « قازان » تصدر باللغة التركية الجرائد الآتية : قيزيل تاتارستان ، وبسمين ييراق ، وبسمين يول ، والتشنتش ، وقيزيل شرق ياشلارى .

وبمدينة « خوقاند » تصدر باللغة التركية جريدة « فارغانا » ويطلع منها ٤٠٠٠ نسخة . وبمدينة موسكو تصدر باللغة التركية والروسية جريدة « ايشجى » . وبمدينة « ناخيتشيفان » (ازربايجان) تصدر جريدة « شرق قابوزو » باللغة التركية وهى يومية . وبمدينة « نوحا » (ازربايجان) تصدر يوميا باللغة التركية جريدة « شيلى فاعلاخلى » . وبمدينة « يديشيك » تصدر جريدة « ايرن تو » باللغة القراغيزية . وبمدينة بولناتارسك (اسخاباد) تصدر جريدة « نوركينستان » باللغة التركية . وفى مدينة « سمرقند » تطبع جريدة « زرافستان » باللغة التركية . وبمدينة « طاشقند » تصدر منذ سنة ١٩٢٤ جريدة « قيزيل اوزبيكستان » خلافا لجريدة « قيزيل ييراق » ويطلع منها ١٦٠٠ نسخة باللغة التركية ؛ وجريدة « حق يول » بالتركية ، وصحيفة « يالغى يول » وهى جريدة نسائية ؛ وجريدة « انقلاب » وصحيفة « تشوليان » وصحيفة « حقيقت » وجريدة « مشتيم » وهى جريدة هزلية وكلها تصدر باللغة التركية ، وجريدة « برافد فوستوكا » وتطلع باللغة الروسية .

وبمدينة « تفليس » تصدر جرائد « بنى فقير » و « دان الديزى » وتصدران بالتركية و « زاريا فوستوكا » و « سافو » وتطبعان باللغة الروسية .

(١) روسيا الاصلية

ففى روسيا الاصلية (التى تتكون من روسيا الكبرى وسبيريا ويوكرانيا وروسيا البيضاء) عدد المسلمين بها ضئيل ، فقد نصادف بها مركزا لهم يحتوى على ١٥٠٠٠ مسلم وكانوا يبلغون ١٠٠٤٧٩ مسلما حسب تعداد سنة ١٨٦١ وهم فى مقاطعة رياضان الواقعة على نهر الاوكا ، وفى مقاطعة قاسموف (جرودنر سابقا) والى تنوزل عنها لقاسم بن اوغلو

محمد (قيصر قازان) ولأَنصاره ، فأسس بها طائفة قاسموف بين سنتي ١٤٤٦ و ١٦٧٨ وهو ما ساعد كبار الأمراء بموسكو على تحطيم قيصرية قازان المستقلة ؛ ويوجد في سييريا ١٢٥٠٠٠ من تاتار بارابا والتورالي والأشتيك — منهم ٨٠٠٠ مسلم من الآثار الباقية للحكم الاسلامي في مدينة «سيبير» أو (إسكير) لأمراء «تيومن» الشيبانيين من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٦٥٩

المقاطعات المستقلة داخلية :

لا يوجد مسلمون في مقاطعات «زيريان» (أوست — سيدسولسك) و «ياقوت» (فالياقوتسك) هو لهجتهم الكلامية وهو نوع من التركية) ، ومقاطعة «أوراتو خالاس» و «بورياتس — مونغول» (ايركوتس) ولا في جمهورية «الشرق الأقصى» (تشيتا) لكن على العكس من ذلك نجد الاسلام يربح أنصارا في بلاد الماري أو «تشيديميس» حاضرة «كراسنو — كوكتشائسك» إذ يوجد بها ١٠٠٠٠٠ مسلم من عدد السكان البالغ مجموعهم ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة ، وفي بلاد «الفوتياك» التي حاضرتها «ايخفسك» يوجد نصف مليون مسلم من مجموع السكان البالغ قدره ٦٨٦٠٠٤٩ نفسا وفي بلاد «التشوفاخ» وعاصمتها «تشبوكساري» يبلغ عدد المسلمين ٤٠٠٠٠ نسمة من ٧٥٨٠١٦١ نفسا عدد السكان حسب تعداد سنة ١٩٢٠ ، وأما المقاطعات الأخرى المستقلة استقلالا داخليا فان القحط يغتالها .

(ب) بلاد القرم

نالت بلاد القرم استقلالها الداخلي منذ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢١ ، وتبلغ مساحتها ٢٥٠٥٧٧ كيلو مترا مربعا ، وعدد سكانها ٥٧٧٠٨٧٧ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٢٥ ، ويظهر أن أغلبية الزراع من العنصر الاسلامي (من السنين والحنفيين) في خارج المدن التي يسود فيها عنصر العمال الفقراء الروسين الذي يبلغ عدد الشيوعيين منهم أو

المقيدين في سنة ١٩٢٢ : ٦٦,٣٨٩ شخصا، أما المسلمون فعددهم بلغ في ابريل سنة ١٩٢١ ١٨٧,٠٠٠ نسمة ، ويقول اريستوف إن عددهم كان يبلغ ١٩٦,٠٠٠ نفس في سنة ١٨٩٦

تعداد المدن :

«سياستبول» بلغ عدد سكانها في سنة ١٩٢٦ : ٧٤,٧٠٣ نسمة ، و«سمفيروپول» ٨٨,٣٤٠ نفس في سنة ١٩٢٦ و«تيودوزي» بلغ عدد سكانها ٣٤,٣٥٨ نفسا في سنة ١٩٢٤ وأوباطوريا ٣٠,١٧٢ نسمة في سنة ١٩٢٤ و « باغتشى » سراي ١٢,٣٦١ شخصا في سنة ١٩٢٤ و «كاراسو بازار» ١١,٩٧٧ في سنة ١٩٢٤

فبلاد القرم عند ما خضعت لحكم الخازار الذين اعتنقوا اليهودية فيما بين القرنين السابع والعاشر من الميلاد لم تتصل بالاسلام حتى القرن الرابع عشر إلا اتصالا غير مباشر ، وعند غزوة المنغوليين في سنة ١٢٤٢ دخل بلاد القرم بمحض قبائل الأتراك القتشاق ، والتتار النوجائيس ، واعتنقوا الاسلام في القرن الرابع عشر .

وفي سنة ١٤٢٠ تنازل كبار ملوك الهورد دور (La Horde d' Or) عن بلاد القرم الى أورانخ تيمور بن توكاتيمور والى سلالاته ، واستقلت بلاد القرم استقلالاً داخلياً من سنة ١٤٢٠ الى سنة ١٧٨٣ بحاضرتها «استارى قريم» بالقرب من «باغتشية سراي» سنة ١٥٠١ تحت حكم أسرة غيراى ، وقد كان أمراؤها مهديين من الجنوب بالأترك الذين استولوا على «كافا» في سنة ١٤٧٥ ، ومهديين من الشمال بالروس الذين قامت بينهم الحرب سنة ١٥٧١ وسنة ١٦٨٣ وانتزع الروس منهم بلاد القرم فيما بين سنتي ١٧٧٠ و١٧٨٣ ولمناسبة التنازل عن بلاد القرم للروس قد نص في عقد سياسي دولي على بقاء السلطة الروحية لسلطان آل عثمان بصفته خليفة المسلمين ، وذالك عملاً بنصيحة الكونت سان بريست سفير فرنسا (المادة الثالثة من معاهدة كوتشولك — كاي نار جي البرمة في ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤) .

أما دستور القرم الذى أقرته الجمعية العمومية بتصويتها فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ فقد اعترف به السوفيت فى ١٠ يناير سنة ١٩٢٢ وانتخب لبلاد القرم رئيسا مساما يدعى م. سيد علييف (ابن على).

أما الأجناس التى دخلت الاسلام فهى فى الشمال : التتار المنغوليون ورحالة البرارى ، وفى الجنوب ، والمستعمرون القادمون البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وبعض المهاجرين من أصل اسرائيلى أو اغريقى أو غنىوى وبعض النور ، أما اللغة الرسمية فهى الروسية والتركية ، وقد قويت النهضة الأدبية التركية والاسلامية وانتشرت بواسطة الصحف ، وكان فى مقدمتها ومن أقواها وأكثرها انتشارا صحيفة « ترجمان باغتشى سراى » تصدر منذ سنة ١٨٨٣ وتطبع ٥٠٠٠ نسخة ويديرها اسماعيل بك جاسپر ينسكى ، وينفق عليها بعض العظماء مثل مهديف وتسلييف ، وجعفر سعيد امت وأصبحت ذات نفوذ عظيم ، وأما تربية المرأة فسائرة فى التقدم المستمر ، ولا يزال ببلاد القرم ٥٥٦٤ يهوديا من الاسرائيليين القرايين ، و ٤٧٧ و ٤٨٠ من التلموديين . وإن إقامة فظاظ اليهود منذ سنة ١٩٢٧ فى جانكوى وفى يوياتوريا قد أثارت أزمة ضد اليهود . أما خطبة الجمعة فتلقى باسم خليفة آل عثمان منذ القرن السادس عشر ، وقد وافقت روسيا على بقاء هذه الحالة على ما هى عليها فى سنة ١٧٧٤ وسنة ١٧٧٩ وغيرها فى سنة ١٧٨٣ حيث ألقت هيئة العلماء فى أقسجد (سفير وپول) للامتحان الدينى للطلبة المتقدمين ليكونوا « ملا » علماء دينيين ووعاظ .

وقد كان رئيس تلك الهيئة سعيد علييف فى سنة ١٩٢٢ ثم والى ابراهيموف الذى أعدم فى سنة ١٩٢٧ (يتبع)

الحسين عليه السلام

تأليف حضرة صاحب العزة الأستاذ على بك جلال الحسينى المستشار بمحكمة الاستئناف سابقا . وهو كتاب نفيس فى التعريف بالامام أبى عبد الله سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام . تكلم فيه حضرة المؤلف على سيرة الامام الحسين منذ نشأته إلى مقتله عليه السلام ببسط وتفصيل ، وتحدث عن قتلته وأولاده وأزواجه ، ومايقام فى يوم عاشوراء من مظاهر الحزن والسرور ، وخلاف المؤرخين فى موضع دفن رأسه الشريف ، كل ذلك بدقة وتحصيص وإفاضة وتوسع ، فكان أوفى ما كتب فى سيرة الامام الحسين رضى الله عنه . والكتاب محلى برسوم بعض المشاهد . تم طبعه بالمطبعة السلفية فى جزأين على ورق جيد الجزء الاول فى ٢٠٠ ص والثانى فى ٢٤٨ ص . فنشكر حضرة المؤلف الفاضل على هذا العمل الجليل ونحث أهل العلم على الاستفادة منه، ويطلب من المكتبة السلفية بشارع الاستئناف وثمنه ١٥ قرشا م

مراصد الصلاة - فى مقاصد الصلاة

تأليف الحافظ المحدث قطب الدين القسطلاني

هو كتاب قيم فى حكمة الاحكام والتعبدات ، وأنواع القربات وثمراتها ، وأفضلية الصلوات وآدابها . طبع بالمطبعة المصرية بالأزهر طبعاً متقناً على ورق جيد ، وعنى بضبطه والتعليق عليه حضرة الأديب الفاضل الشيخ رضوان محمد رضوان . فنشكره ونحث أهل العلم على اقتنائه ويباع بالمطبعة المصرية وثمنه خمسة قروش م

أعطرت فى هذا الجزء

خطأ	صواب	صفحة	سطر
أثرابه	أثرابه	٤٠	٢
أماى	إماى	٤٥	١٨

ووقع خطأ فى رقم الصفحات : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ نرجو من القارئ الكريم

ملاحظته .

tural references to Mohammad as will leave no room for doubt to rankle in the minds of seekers of truth and will, at the same time render clear the Lord's saying in the Koran that the people of the Scriptures will find his name and qualities clearly given in their books the Law and the Gospel and that they know him even as they know their own children and that they were wont to invoke the Lord in his name for support against those who disbelieved but when the Koran was revealed to him, they themselves feigned disbelief.

The name of Mohammad was clearly given in several chapters of the Gospel of Barnabas as well as in the Books of Isaiah, Daniel, Ezekiel and others. It is evident that such lofty sayings, great knowledge and spiritual attainments given in the Gospel of Barnabas could only refer to a great and a holy prophet. The contents of this Gospel present a striking comparison to the modern ideals of present day thinkers and philosophers.

Nay it is even more striking in consideration of those remote centuries which some Christian critics call the dark ages but fail to substantiate their allegation. The Gospel of Barnabas is, in this respect, full of significance, but it was among the books that were censured and suppressed by Pope Gelasius ⁽¹⁾ in the fifth century or about two hundred years prior to the birth of Mohammad. This was detailed by Father Nematullah of Lebanon on page 33 of his book « Zakhiratul-Albab » published in Beyrouth by the Catholic Public Printing Office in 1882 A.D. The following verse is quoted from the Gospel of Barnabas :

« And the Lord said unto Adam : My servant, I tell thee thou art the first man I created; and he that thou hast set thine eyes upon is but thine own son who will come unto the world several years hence; he will be my messenger who will give light when he cometh and whose soul reposed in heavenly splendour sixty thousand years ere aught I created »; whereupon Adam prayed unto the Lord « O Lord wilt thou givest me thy word on my finger nails » and the Lord gavest unto the first man His word on his two thumbs. « There is no deity but God » on the right hand thumb and « Mohammad is the apostle of God » on the left hand one.

Another quotation from the same Gospel attributed to Christ goes: « When the Apostle of God cometh, will the Lord give unto him that which is the sign of authority; he will bring mercy and salvation unto the people of the world who accept his teachings and will overcome the wicked and extirpate idol-worship so as to foil the designs of satan for thus hath the Lord made covenant with Abraham ».

(1) 492-496 A.D.

بما أنزل ومن أنزل عليه فاجعلنا عندك مع الذين يشهدون بحقية نبيك صلى الله عليه وسلم
وكتابتك .

ترجمة هذا التفسير

« When those who declare they are Christians hear the Koran recited, thou shalt see their eyes overflow with tears for being susceptible of heart, God-fearing and anxious to admit the truth not to rebute it: Their eyes overflow with tears as a result of their knowing a part of the truth; but what would they do should they know the whole truth, read the Koran through and acquaint themselves with the Tradition ? They would say O Lord ! We believe in what was revealed and that unto whom it was revealed, pray to count us with those who bear witness to the truth of Thy Prophet and the authenticity of Thy Book ».

(*Alucy's Commentary*).

It would be fitting in concluding this article, to give in the following pages some instances of the announcement by prophets of the advent of Mohammad and reference thereto in the Scriptures.

Detailed volumes could be written should we wish to give all the announcements uttered by prophets, priests and monks regarding the advent of Mohammad. It would indeed be an endless task to undertake before such evidence of Sateih, Wahb Ibn Monabbah, Kaabul-Ahbar, Al-Mukaukis, Heraclius, the Negus of Ethiopia, Tobbah, Ommiah Ibn Abil-Sult and others could be exhausted.

Such announcements were so widely spread and reiterated over and over again by the prophets that no Scripture of Jews or Christians lacked reference thereto despite the fact that many verses have been misconstrued and corrupted by them. Nevertheless such corruption did not prejudice the true meaning of the verses as is conveyed for instance by the substitution of « Comforter » for « Paraclete » in chapters XVI and XVII of the Gospel of St. John. It was due to divine providence that such verses retained their original meaning. For indeed, had Mohammad not been the promised prophet whose advent Christ announced and said was near at hand, we would wonder who could that prophet be and why was his advent so long delayed..

We will give in the following pages a short account of such Scrip-

those people hear the Koran recited, they fall down to their faces, prostrate in glorification of the Lord or in gratefulness for the fulfilment of His promise in the Scriptures regarding your mission. They say in worship « Our Lord is far above breaking His promise for whatever He promiseth is surely accomplished ». And they fall down to their faces weeping, having been deeply touched by the exhortations of the Koran which intensify their humility as their knowledge and conviction of the Lord is increased by hearing it recited ».

(Alucy's Commentary).

And :

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »
تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

ويعلم أولو العلم الذين آمنوا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحماد وأضرابهما أن القرآن من عند الله ويوصل إلى توحيد وتقوى الله الذي يقهر ولا يقهر المحمود في جميع شؤنه عز وجل
ترجمة هذا التفسير

« The learned ones among the people of the Scriptures unto whom knowledge is given, and who believed in the Koran as Abdullah Ibn Salam and Kaabul Ahbar and others, know that the Koran is come from the Lord and that it leadeth to the belief in the unity of God and fear thereof, He who conquereth but is never Himself conquered, he who is praiseworthy in all His concerns ».

(Alucy's Commentary).

And :

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »
تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

وإذا سمع الذين قالوا إنا نصارى القرآن رأيت أعينهم فائضة من الدمع وذلك لركة قلوبهم وخشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم إياهم إياه . فائضة من الدمع بسبب عرفانهم بعض الحق فكيف لو عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة . يقولون يا ربنا صدقنا

« The story of Joseph is one of the unknown histories which no one could at all divine and which We revealed unto you. You were not present with Joseph's brethren when they resolved to cast him down to the bottom of the well and plotted his destruction. This history was made known to you only through revelation; for you were not present with Joseph's brethren at the time when they contrived casting him down to the bottom of the well. It is established even to those who gainsaid you that you have derived this knowledge from no one ».

(*Alucy's Commentary*).

It is because of this knowledge that the well-versed among the people of the Scriptures doubted not his prophethood as signified by the following verses :

« إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا »
تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

إن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل تنزل القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من تمييز الحق والباطل والمحق والمبطل ، أو رأوا نعتك ونعت ما أنزل إليك إذا يقرأ القرآن عليهم يسقطون بسرعة على وجوههم ساجدين تعظيما لأمر الله تعالى أو شكرا لانجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك ، ويقولون في سجودهم تنزه ربنا عن خلف وعده ، إنه كان ما وعد به ربنا لكائن . ويسقطون كذلك على وجوههم باكين لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ، ويزيدهم القرآن بسماعهم خشوعا لما يزيدهم علما و يقينا بأمر الله تعالى .

ترجمة هذا التفسير

« When the Koran is recited to the learned people who have read the books of old, prior to the revelation of the Koran, and recognised the truth of revelation as well as the true signs of prophethood, and were able to distinguish between right and wrong and true and false, or have recognised your qualities and features of what hath been revealed unto you, when

وذلك يقتضى التصديق بنبو محمد عليه الصلاة والسلام والحذر مما نزل بالمكذبين . ما كان لديك أنت ولا قومك علمها بل كانت مجهولة عندك وعندهم من قبل هذا الإيحاء . وإذ قد أوحيناها اليك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح عليه السلام على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة . إن العقبي بالظفر فى الدنيا والفوز فى الآخرة للذين اتقوا ربهم

ترجمة هذا التفسير

« The story of Noah mentioned before is one of the unknown histories of great import for the details thereof were, on account of its great antiquity, known only to the Lord, and its revelation unto you necessarily entails belief in your prophethood and caution against the fate of those who gainsaid it. Neither you nor your people were given knowledge thereof but it was unknown to you before its revelation. And now that We have revealed it unto you, thou shouldst suffer patiently the afflictions and persecutions which befall thee in course of delivering the message as Noah hath suffered with tolerance all sorts of afflictions for that prolonged period; for success in this world and the hereafter will indeed be assigned to those who fear their Lord ».

(Alucy's Commentary).

And :

وَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ مَسْمُوعًا إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

إن ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام هو بعض أنباء الغيب الذى لا يحوم حوله أحد موحى اليك من لدنا . وما كنت لدى اخوة يوسف عليه السلام حين أجمعوا أمرهم بجعلهم إياه فى غيابة الحب وهم يَمْكُرُونَ به ويغيثون له الغوائل . فهذا النبأ غيب لم تعرفه الا بالوحي لأنك لم تحضر اخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه فى غيابة الحب ، ومن المعلوم الذى لا يخفى على مكذيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه .

ترجمة هذا التفسير

connection with the revelation of the Koran to Mohammad « This is the Nomos that was wont to descend upon Moses ».

« قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا يَبْنِي وَيُنْكَمُ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

قل يا محمد إن الله جل وعلا قد أظهر على رسالتي من الأدلة والحجج ما فيه غنى عن شهادة شاهد آخر فهو خير شهيد بذلك ، كما يشهد به من عندهم علم التوراة والانجيل وهم الذين أسلموا من أهل الكتابين كعبد الله بن سلام وأضرابه فانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتابهم

ترجمة هذا التفسير

« Say, Mohammad ! that God in His glory, hath made manifest such evidence testifying to the truth of my mission as to render superfluous the evidence of any other witness for the Lord is the best of witnesses, also that those who are given the knowledge of the Law and the Gospel can testify thereto, their being of the people of the two Scriptures who adopted Islam as Abdullah Ibn Salam and others who testified to the qualities of Mohammad given in their Book ».

(Alucy's Commentary).

This is one of the greatest proofs of the prophethood of Mohammad. He announced unto his people such precepts and injunctions as were enjoined by other prophets; yet such knowledge was conveyed to him by no living creature. For indeed, such things were within the region of the unknown to which neither he nor any one else could penetrate except through divine revelation as saith the Lord in the following verses :

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

إن قصة نوح عليه السلام المذكورة قبل هي بعض أخبار الغيب التي لها شأن . وكونها بعض ذلك باعتبار أنها على التفصيل لم تبق لطول العهد معلومة لغيره تعالى . موحة اليك

read a book or penned a single letter with his own hand and in this connection the Lord saith :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينِكَ إِذَا
لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسی

وما كنت من قبل إنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو كتاباً ولا تقدر على أن
تخطه يمينك إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لارتاب مشركو مكة المبطلون
وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل ، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتياهم وجه .

ترجمة هذا التفسير

« Thou couldst not recite any book before the revelation of the Koran unto thee, neither couldst thou transcribe one with thine own right hand, for hadst thou been able to read and write, the polytheists of Mecca who gainsaid the truth of the Koran and said mayhap he (Mohammad) had picked it up from the books of the ancients, would have doubted the divine origin thereof; but this not being so, they have no ground for doubt ».

(Alucy's Commentary)

The people among whom Mohammad was brought up, were not only unacquainted with the history of the prophets and their mission, but were moreover hopelessly steeped in ignorance and polytheistic beliefs and believed not in the future life. Monotheism was completely unknown to them and the idea of the unity of the Godhead never presented itself to their minds. They believed in the plurality of gods and the association of others with the Almighty Lord.

An examination of the Koran and the Law (Old Testament) will reveal their total agreement in regard to the fundamental precepts such as that of the unity of God, the prophetic attributes and the injunctions ordained by the Lord. Once this conclusion is reached, it would be easy to recognise the truth of the comment of the Negus of Ethiopia who, on hearing the Koran recited exclaimed « Verily this and that which was revealed unto Moses issue from the one and same source »; as also of the remark volunteered by Waraka Ibn Nowfal who said in



ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE PROPHET MOHAMMAD ⁽¹⁾

(Continued)

Among other proofs testifying to the truth of the claimant to prophethood, is the announcement by former prophets of his advent. Such, indeed, was the case with Mohammad whose advent was announced by Christ and the prophets prior to him.

The truth of the claimant to prophethood could be further attested to by his inculcating some similar precepts such as were ordained by other Prophets. For as the ignorant and iniquitous judge is liable to go, in his judgment, contrary to the established rules followed by learned and righteous judges, and as the ignorant jurisconsults or quacks are liable to go in their practices, off the beaten track of their respective profession, so it is with the lying impostor who claims prophethood, he is bound to deviate from the fundamental principles on which all true prophets concur as for instance the unity of God, the prophetic attributes and the future life.

The ignorance and imposture of all such claimants are bound to be exposed on account of their contradiction to the established rules in the fields of learning and truth.

It is an established fact that Mohammad was illiterate and that he was brought up among an altogether illiterate people. Indeed, he had never

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book « *Messages of Peace* ».

قَدْ جَاءَ كَذِبٌ أَكْبَرُ نُورُ وَكَانَ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَكَانَ نَهْجُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

نور الأئمة الزهراء

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية علمية
تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

نظرة غرة كل شهر عربي



المجلد الثالث	صفر سنة ١٣٥١	الجزء الثاني
<p>رئيس التحرير السيد محمد انخسرين من علماء الازهر</p>	<p>مدير إدارة المجلة عبدالمجيد بن المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى</p>	
<p>الاشتراك</p> <p>داخل القطر المصرى ٤٠ للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس ٢٠ خارج القطر المصرى ٥٠ اطلبة المعاهد والمدارس ٣٠</p>	<p>الادارة</p> <p>شارع محمد مظلوم باشا رقم ١</p> <p>تليفون : ٨٤٣٣٢</p> <p>الرسائل تكون باسم مدير المجلة</p>	

يعامل أئمة المساجد والمأذنون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٩٣٢ - ١٣٥١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرفق بالحيوان

أقام الاسلام هدايته على أساس الرحمة المحفوفة بالحكمة، والرحمة تبعث النفوس مبعث الرفق والإحسان، والحكمة تقف بالرحمة عند حدود لو تجاوزتها انقلبت إلى ضعف ورعونة، وعلى هذا الطريق الوسط جاءت الأحكام والآداب الخاصة بالتصرف في الحيوان.

أذن الاسلام في أكل الطيب من الحيوان، ونبه بهذا الإذن على خطأ أولئك الذين يقبضون أيديهم عن تذكيته أو أكله بدعوى الرأفة أو الزهد، وأباح استعماله في نحو الركوب والحراثة وحمل الأثقال. وقد امتن القرآن الكريم بهذه الضروب من الاستمتاع المأثوف بين العقلاء فقال تعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَحَمْلُ أَثْقَالِكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيمَةِ إِلَّا يَشِقُّ الْآنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) وقال تعالى: (وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءً وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ).

امتن الله تعالى في كتابه العزيز بما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها وجلودها من الملابس والفرش والبيوت، وبما يتغذى به من ألبانها ولحومها، وبما هيئت له من حمل الأثقال، وهذه المنافع من أهم ما ينتظم به حياة الإنسان.

وقال تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فذكر في هذه الآية أهم ما خلقت له الخيل والبغال والحمير من المنافع وهو الركوب ، وفي الركوب راحة البدن ، وسرعة الانتقال من مكان الى مكان ، والراحة من متمات الصحة ، وسرعة الانتقال حفظ للوقت من أن يذهب في غير جدوى .

امتن الله تعالى بالأنعام والخيول وما عطف عليها ، ونبه على ما فيها من جمال وزينة ، وفي هذا ما يرشد الى أن يكون الاستمتاع بها في رفق ورعاية ، فإن إرهاقها أو قلة القيام على ما تستمد منه حياتها ، يجعل نفعها ضئيلاً ، ويذهب بما فيها من جمال وزينة .

كان للعرب قبل الاسلام عادات تحرمهم من الانتفاع ببعض أفراد الحيوان وفيها قوة على أن ينتفعوا بها ، ومن هذا القبيل الناقة المسماة بالسائبة ، وهي الناقة التي يقول فيها الرجل . اذا قدمت من سفري ، أو برئت من مرضي فهي سائبة ، ويحرم ركوبها ودرها ، والوصيلة وهي أن تلد الشاة ذكراً وأنثى فيقولون : وصلت أخاها ، فلا يذبح من أجلها الذكور ، والجلل المسمى بالحمام ، وهو الفحل الذي ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فكانوا يقولون : قد حى ظهره ويمتنعون من ركوبه والجل عليه ، والبحيرة وهي الناقة التي تنتج خمسة أبطن آخرها ذكر ، فإنهم كانوا يبحرون أذنبا أي يشقونها ، ثم يحرمون ركوبها ودرها .

ثم جاء الاسلام فلم ير من الحكمة تعطيل الحيوان وهو صالح لأن ينتفع منه ، فنهى عن هذا التعطيل الناشئ عن سفاهة الرأي ، فقال تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

وكان للعرب عادات يسومون فيها الحيوان سوء العذاب ، ومن هذه العادات ما يفعلونه لموت كريم القوم إذ يعقلون ناقته أو بعيره عند القبر ويتركونها في حفرة

لا تطعم ولا تسقى حتى تموت ؛ ومن هذا الباب شقهم لا آذان الأنعام كما قصصنا عليك عاداتهم في البحيرة ، وهو ما أشار القرآن الى قبحه إذ جعله مما يأمر به الشيطان فقال تعالى : (وَقَالَ لَا تَخِذْنِ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضَالَّةً لَهُمْ وَلَا مَنِيئَهُمْ وَلَا مَرْسَهُمْ فَلْيَبْتَسِئْنَ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْسَهُمْ فَأَيُّ غَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ) .

ما زال الحيوان كسائر الأمتعة تحت يد مالكة يفعل فيه كيف يشاء ، وإذا ناله رفق فمن ناحية عاطفة الانسان على ما يملك لتطول مدة انتفاعه به ، ولكن الاسلام أرشد الى أن الحيوان في نفسه حقيق بالعطف ، فغرس له في القلوب عطفًا عامًا ، واستدعى له الرحمة حتى من قوم لا ينتفعون أو لا يرجون أن ينتفعوا به في حال ، وجعل الرفق به من قبيل الحسنات التي تذهب السيئات ، وتنال بها المشوبة عند الله .

أذن الاسلام في قتل الحيوان للمؤذى كالكلب العقور والفأرة ، وأمر بالإحسان في القتل فقال صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة) وأذن في ذبح الحيوان للاستمتاع بالطيب من لحومه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته) .

قد يخطر على البال أنه متى أذن في قتل الحيوان أو ذبحه فللإنسان أن يتخذ لآذنه رزاق روحه ما شاء من الطرق أو الوسائل ، فقصد الشارع الحكيم الى دفع هذا الخطر وإرشاد الناس الى اتخاذ أحسن الطرق في القتل أو الذبح ، فلا يجوز إحراق ما أذن في قتله أو التمثيل به ، ويجب إرهاف آلة الذبح حتى لا يلاقى الحيوان قبل إزهاق روحه آلاما ، وقد ذكر أهل العلم آداباً اقتبسوها مما جاءت به الشريعة من أصول الرفق بالحيوان ، فقال عمر رضي الله عنه : « من الإحسان للذبيحة أن لا تجر الذبيحة الى من يذبحها » وقال ربيعة : « من الإحسان أن لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر اليها » وقالوا : يستحب للذابح أن لا يحد شفرته بحضرة الذبيحة ، وأن لا يصرعها بعنف .

أباحَت الشريعة صيد الحيوان بنحو الجوارح والنبال والشباك، لينتفع منه الانسان بما يحل الانتفاع به، ومنعت من أن يُنصب الحيوان غرضاً ليرى بنحو النبال، ومما نقرؤه في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا تتخذوا شيئاً فيه الروح ^(١) غرضاً » وفي صحيح الامام مسلم (مرّ ابن عمر بفتيان من قریش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

ووردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل سقي الحيوان وإطعامه، وعدّها من عمل الخير الذي تنال به الزلفى عند الله، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة ^(٢)) .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج فإذا كلب يابئث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فלא خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكره الله فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر ^(٣)) .

وانظر إلى قولهم: « وإن لنا في البهائم أجراً » ترهم كيف كانوا يستهينون بأمر الحيوان ولا يعتقدون أن الإحسان إليه يبلغ مبلغ الإحسان إلى الانسان فيستحقون عليه أجراً، وكيف يكون حال حيوان وقع تحت يد من لا يعتقد أنه سينال بالإحسان إليه ثواباً، ويلقى من أجل القسوة عليه عذاباً:

(١) صحيح الامام مسلم . (٢) صحيح الامام البخارى . (٣) صحيح البخارى .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض^(١)) والوعيد بعقوبة النار على الأمر يدل على أنه من المحذور حظرا لا هوادة فيه ، ومن ذا يخظر على باله قبل هذا أن يكون لحيوان كالهرة حرمة تبلغ في الخطر أن يعاقب من ينتهكها بعذاب النار ؟ .

وقرر الفقهاء وجوب القيام على سقى الدابة وإطعامها ، بأن يعلفها أو يرعاها بنفسه أو يكل لغيره رعيها ولو بأجر ، ولم يختلفوا في وجوب ذلك عليه ، وصرح طائفة منهم بأنه يجبر عليه قضاء ، فإن لم يفعل بيعت عليه الدابة ، ولا تترك تحت يده تقابى عذاب الجوع ، ومما نقرؤه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر ببيعير قد لحق ظهره بطنه فقال : (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة^(٢) ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة^(٣)) .

وتحرم الشريعة الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال ما لا يطيق ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون أن من حمل دابة ما لا تطيق حوسب عليه يوم القيامة ، يروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال لبيعير له عند الموت : يا أيها البعير لا تخصمني إلى ربك ، فإنني لم أكن أحملك فوق طاقتك . وقال الغزالي في الحديث عن الرفق بالدابة وعدم تحميلها ما لا تطيق : « والمحمل^(٤) خارج عن حد طاقتها ، والنوم عايبا يؤذيها ويثقل عليها » وقال : « كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود » .

وإنما يجوز الحمل على ما يطيق الحمل كالأبل والبغال والحمر ، ولا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقرة ، قال ابن العربي : لا خلاف في البقر أنه لا يجوز أن يحمل عليها . وذهب كثير من أهل العلم إلى المنع من ركوبها نظرا إلى أنها لا تقوى على الركوب ، وإنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقى الحرث .

(١) البخاري ومسلم . (٢) التي لا تقدر على النطق . (٣) سنن أبي داود .

(٤) الحمل : شقان على البعير يحمل فيهما العبدلان ، ويقال أول من اتخذ الحجاج بن يوسف الثقي .

ومن الرفق بالدابة أن لا يركبها ثلاثة أشخاص يكون عبئهم عليها ثقيلاً ، أخرج ابن أبي شيبة عن زاذان أنه رأى ثلاثة على بغل ، فقال : لينزل أحدهم فإن رسول الله صلى عليه وسلم لعن الثالث ، وأخرج الطبري عن علي رضي الله عنه أنه قال : « إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم » ومحمل هذه الآثار على حال ما إذا كان ركوب الثلاثة يرهق الدابة ، فإن كانت تطيق ذلك كالناقة أو البغلة يركبها رجل وصبيّان مثلاً ، فليس به من بأس ، ولا سيما ركوبها في مسافة قصيرة ، وهذا ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة راكباً على بغلته فاستقبله أغيامة من بني عبد المطلب ، فحمل واحداً بين يديه ، والآخر خلفه .

ومن الرفق بالحيوان تجنب أذيته في بدنه بنحو الضرب الأليم ، والإشعار الوارد في بدن الهدى ليس إلا جرحاً في سنام البعير بنحو المبضع ، ليكون علامة على أنها هدى ، وأما طعن البدنة بنحو السنان حتى يتجاوز الجلد إلى اللحم فإنما يرتكبه الجهال ، ولا يختلف العلماء في تحريره .

وورد النهي عن خصاء البهائم كما جاء من حديث ابن عمر (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصى الإبل والبقر والغنم والخيل ^(١)) وبهذا احتج فريق من أهل العلم على أنه لا يحل خصاء شيء من الفحول ، وأفتى فريق يجوازه متى دعت إليه مصلحة كأن يخاف عضاضه ، وإذا وجد طريق لمثل هذه المصلحة من غير الخصاء لم يبق موضع للخلاف لأنه تعذيب ، وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان .

ومن الرفق بالدابة أن لا يتابع السير عليها متابعة ترهتها تعباً ، قال صلى الله عليه وسلم : (إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظاً من الأرض ^(٢)) وفي رواية (ولا تعدوا المنازل) .

(١) شرح معاني الآثار للطحاوي . (٢) مسلم وأبو داود .

وورد في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يبقين في رقبة بئر قلادة من وتر أو قلادة ^(١) إلا قطعت) فذهب بعض أهل العلم في فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال : إنما أمر بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض ، ولأنها تضيق عليها نفسها ورعيها ، وكراهة أن تتعلق بشجرة فتخذه أو تعوقها عن المضي في سيرها .

ومن المحذور وقوف الراكب على الدابة وقوفا يؤلمها ، وقد ورد في النهي عن هذا الصنيع حديث (إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتباعدكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ^(٢)) وذكر الغزالي أن أهل الوريع من السلف كانوا لا يقفون على الدواب الوقوف المطول .

ومن الفنون التي يسلكها قساة القلوب في تعذيب الحيوان تهيج بعض الحيوان على بعض ، كما يفعل بين الكباش والديوك وغيرها ، وهو من اللهو الذي حرّمته الشريعة لما فيه من إيلاّم الحيوان وإتعا به في غير فائدة ، وفي سنن أبي داود والترمذي « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » والتحريش بينها إغراء بعضها على بعض .

وإن شئت أن تريد يقينا بما جاء به الإسلام من الرأفة بالحيوان فانظر إلى ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه إذ قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمْرَةً ^(٣) معها فرخان فأخذنا فرخيهما ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش ^(٤) ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من فجّع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها ، ورأى قرية نمل قد أحرقناها ، فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار ^(٥) . »

(١) أمر بقطع ما تقلده به من وتر القوس ثم أمر بقطع كل قلادة من أي صنف كانت . (٢) رواه

أبو داود . (٣) ضرب من الطير ، وقيل الحمرة القبرة . (٤) ترتفع وتظلل بجناحيها . (٥) أبو داود .

وقد نص علماءنا على حرمة تمكين الصبي من التلهي بالطير على وجه فيه إيلاام له ،
وأما ما ورد في الحديث من أن ابنا فطيما لأم سليم كان يلعب بـبُغَرٍ^(١) فحمول على أن
ذلك التلهي لم يكن بحال تعذيب ، كأن يكون الطير في قفص أو نحوه ، أو يكون التلهي
بمحضر أحد أبويه وهما يعلمان ما جاءت به الشريعة من النهي عن تعذيب الحيوان .

أما شتم الحيوان ولعنه ، فأذن ما يقال فيه أنه لغو من القول لا يصدر إلا عن
شأنه الرمي بألفاظ الشتم واللعن دون تدبر في معناها ولا قصد إلى موضعها ، بل وردت
الأحاديث في الزجر عن لعن الحيوان بطريقة بالغة ، فإننا نقرأ في صحيح مسلم « أن امرأة
كانت على ناقة فضجرت منها فلعننها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال :
(خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة) وإنما أمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها عقوبة
لصاحبها ، وفي رواية (لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة) وفي هذا الأسلوب من النهي مبالغة
في الزجر عن لعن الحيوان ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمد إلى الشيء الذي
قد يظنه الناس هينا فيزجر عنه بطريق أشد حتى يتصرفوا عنه جملة .

ومن فوائد النهي عن لعن الحيوان تطهير الألسنة من التعود على قول السوء ،
ومتى ارتدعت النفوس عن لعن ما لا يفهم لللعن معنى ، كان ارتداعها عن لعن من تهور
نأرة غضبه أو غضب بعض أوليائه إذا لعن ، أقرب وأولى .

هذه شذرات مما أوصى به الاسلام من الرفق بالحيوان ، وإن شئت أن تعلم
كيف كان أثرها في نفوس من يقتدون بأدابه في كل حال ، فإنك مثلاً من آداب
الشيخ أبي إسحاق الشيرازي إذ كان يمشي في طريق يرافقه فيه بعض أصحابه ، فعرض لهما
كلب فزجره رفيق الأستاذ ، فهما الأستاذ ، وقال له : أما علمت أن الطريق بيني
وبينه مشترك .

(١) اسم لنوع من الطير . وقد بلغ هذا الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينقل إنكاره له .

فقد رأيت كيف حاربت الشريعة السمحة طبيعة القسوة على الحيوان ، وقررت للتصرف فيه أحكاما مبنية على قاعدة الرفق بكل ذى كبد رطبة ، ولعلك تنتبه مما تلوناه عليك أن الاسلام قد وضع الجمعيات الرفق بالحيوان أساسا يقيمون عليه دعوتهم ، وما من نفس أو جمعية تدعو الى ناحية من الخير إلا وجدت في هذه الشريعة ما يؤيد دعوتها ، ويهدها سبيل الرشدا اذا تشابهت السبل عليها .

ومما تضطرم له القلوب أسفا أن تؤسس جمعيات الرفق بالحيوان في بلاد أوروبا منذ نحو مائة سنة ، ويرتفع صوت الدعوة الى الرحمة بالحيوان أكثر مما يرتفع في بلاد الاسلام ، حتى ظن كثير من الأحداث والعامة الذين يقيسون الأديان بسير المنتمين اليها أن الاسلام لم يوجه عنايته الى حق الشفقة على الحيوان ، وأن أوروبا هي صاحبة الفضل في الدعوة الى هذه الشفقة .

أنشئت في انكلترة جمعية الرفق بالحيوان الملكية سنة ١٨٢٤ ومما يشير الخجل أن يكون لتلك الجمعية فرع في بلد إسلامي كالقاهرة ولا يقوم بمثل عملها جماعة من المسلمين وقد أيقظ الدين الحنيف في قلوب أسلافهم عاطفة الرحمة بالحيوان منذ ١٣٥٠ سنة .

وإذا احتاج الانسان الى حماة وهو يملك من البيان ما يعبر به عن حاجته ويدافع به عن حقه ، كان الحيوان الأعجم أشد احتياجا الى من يستجدي له الرحمة ويدفع عنه البلاء بيده إن استطاع ، أو بلسانه .

هذا والأمل معقود على أن تؤلف في أوطاننا جمعيات لمراقبة تصرف الناس في الحيوان حتى اذا رأت صاحب الحيوان يرهقه بحمل الأثقال أو يناله بأذى ، سمعت بما تستطيع من طرق النهي عن المنكر الى إزالة ما تشهده من الإرهاق أو الأذى ، فيكون لها حمد الناس في الدنيا ونواب الله في الآخرة .

محمد الخضر مسبين

النفس

سورة النور

٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَبَّابٌ حَكِيمٌ) .

هذا من متمات الحكم السابق ، فبعد أن بين ما في جريمة الزنى من الفحش والمقت وسوء السبيل ، وما يستحقه مرتكبها من العذاب والتنكيل ، وكان الأمر الشنيع مما يترامى به الخصوم المتغاضبون غالبا وهم تحت تأثير الغضب ، فينال المرء من خصمه في هذه الحال ما يחדش به كرامته ، ويهدم به شرفه ، ويجلب العار على أسرته وذويه ، أردفه بعقوبة من يقع في ذلك السباب الفاحش صونا للشرف والعرض والآداب أن تدنس وتمتهن ، فبين حكم من يرمى المحصنات أو المحصنين بتلك السبة الشنيعة على ما مر .

ولما كان الزوج عرضة لأن يضطر الى رى زوجته بهذا الأمر صوتا لشرفه ، واحتفاظا بنسب أولاده ، وغيره على كرامته ، وقد يكون صادقا في رمية إذ يكون قد استيقن ولكنه عجز عن إثبات ما رأى بحضور الشهود المطلوبين لإثبات ما رى به ، فإن بين الزوجين من المفاجآت الانفرادية ما لا يكاد يتيسر معه إحضار الشهود في حال تلك المفاجآت النكودة ، لطف الله بعباده فشرع لهم المخلص من هذه الداهية الدهية بهذا الحكم حكم اللعان ، رحمة منه بالمصاب ، وإنقاذ له من هذه المآزق المحرجة .

روى أنه لما نزلت الآية السابقة في حكم القذف وكانت عامة للزوجين وللأجانب ففهموا منها العموم ، قال سعد بن عباد : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم » : فقالوا : يا رسول الله لا نلهم فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، ولا طلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها لشدة غيرة ، فقال سعد : والله إني لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله ، ولكنني تعجبت أني لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيج به ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله لا آتي بهم حتى يقضى حاجته : قالوا فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آتى به واشتد غضبه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية وتبطل شهادته ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها خرجا ، وقال : يا رسول الله إني أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إني لصادق ، فنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحي ، وكانوا يعرفون علاماته ، فأمسكوا حتى فرغ من الوحي فنزلت الآية

فسرى عنه صلى الله عليه وسلم فقال : « أبشر يا هلال فوالله لقد كنت أرجو ذلك من ربى » ثم أرسل إليها فجاءت فتلاها عليها ، وذكرها عذاب الآخرة وأنه أشد من عذاب الدنيا ، فقالت : لقد كذب ، وأصر هلال على قوله ، فقال عليه السلام : « لاعنوا بينهما » فكان ذلك سبب نزول الآية ، وكان لعائشها أول لعان في الاسلام . وقيل نزلت في عاصم بن عدى ، وقيل في عويمر بن نصر العجلاني .

وإنما سقنا هذه القصة لأنها مع كونها بيانا للسبب النزول تبين لنا كيف كان تشريع الأحكام تدريجيا على حسب الحوادث وكان مترقبا لهم ، فيجىء الحكم وقد تشوفوا له ، فيتمكن في النفوس فضل تمكن ، ويعين على امتثاله بقبول وفضل إيمان إذ تتجلى حكمة الحكم تجليا يبين ما فيه من رحمة الله وفضله (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ وَابٌّ حَكِيمٌ) ويتجلى فيها ما كان يملأ نفوسهم من اليقين بحكمة ربهم ولطفه بهم ، حتى إن أحدهم ليقسم إنه يرجو أن يجعل الله له مخرجا ، ويظهر مع هذا عظيم خضوعهم واستسلامهم لما يأمر به ربهم ، وإن كان على خلاف ما تهوى نفوسهم ، وأنهم مهما قامت في نفوسهم الشبهة لن يؤثر ذلك في إيمانهم بأن ما يبلغهم الرسول حق وأنه من عند الله ، وكل ما يبدو منهم هو التعجب لا الإنكار ، ومنشأ التعجب ما عهدوه من اطراد الرحمة في حكم الله بالنسبة إليهم فضلا منه ورحمة ، لا وجوبا عليه وإلزاما (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَقْتَكُمْ) .

والتعبير بالرمى هنا وفيما مر للإشارة إلى أن الكلمة متى انطلقت من فم قائمها فقد انفلت زمامها من ملكه وأصبح لا يملك ردها ، فهي كالسهم يرمى به فلا تعود اليد قادرة على رده ، فليحتفظ من يرمى بالرمى والأمر في يده حتى لا يندم حيث لا ينفعه الندم . وحذف المرمى به لعلامه من السياق لمحيطه بعد الآية السابقة ، وصونا عن

تكرار هذا اللفظ الذي يحفه الفحش من كل ناحية ، فمن كمال الأدب عدم التصريح بالاستنكرات إلا بتقدير الضرورة ، أو في مقام التشنيع والتهويل والتفطيع .

وقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) - الشهداء جمع شهيد ، وهو من يعلم علم الشهود والحضور لا الظن والتخمين ، ففيه الإشارة إلى أن هذا أمر لا ينبغي الإقدام عليه لجورد الظنة ، فإنه أمر جليل ، وشيطان الغيرة قد يلعب بالنفوس فيقيم من الأوهام صرحاً مشيداً ، فدفع هذا بالتعبير بالشهداء . وقوله : (إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) أى إلا شهادة أنفسهم ، كأنه أقيم كل شهادة يقولها مقام شاهد مثبت ، وإلا فالشهادة في العرف الشرعى هى الإخبار بحق الغير على الغير ، ويقابلها الدعوى ، ونحو الإخبار بحق للنفس على الغير ، والإقرار ، وهو الإخبار بحق للغير على النفس .

وقوله : (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) - المراد هنا كل واحد منهم ، فالأحد يتكرر بتكرر الرامين ؛ وقد قرئ أربع بالرفع على أنه خبر شهادة ، وبالنصب على أنه مفعولها لأنها مصدر ، ويكون شهادة مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبراً محذوف ، أى فالواجب في شأنهم شهادة ، أو فعلهم شهادة ، ولفظ بالله متعلق بشهادات ، ولا يضر في ذلك أنه جمع والجمع يبعد المصدر عن شبه الفعل ، فإن الجار والمجرور يكفى فيه راحة الفعل على ما ذكره النحاة .

وقوله : (إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) - أصله مجرور بعلى محذوف ، أى يشهد على أنه لمن الصادقين ، غذف الجار وكسرت همزة إن وعلق الفعل باللام ، والتعليق وإن كان خاصاً بالأفعال القلبية ، فإن الشهادة متضمنة معنى العلم وإن كانت فعلاً لسانياً ، فألحقت بأفعال القلوب ؛ ومن يرى أن هذه الشهادة من باب القسم والمين يرى كسر الهمزة لوقوعها في جواب القسم .

ومعنى الآية أن من رمى زوجته بالزنى فقد قذفها ، فهو بين أن يثبت ما رماها به فينجو من حد القذف ، وألا يثبت فعليه حد القذف كالأجنبية ، إذ يلحقها ويلحق

قومها من جراء هذا القذف ما لا يقل عاره وندسه عن رعى الأجنبي ، ولكن لما كان الزوج من شأنه أن يتصل بزوجه على انفراد ويفاجئها ولا أحد معه فيشق عليه الإثبات بالشهادة ، فإن تكلم تكلم بأمر خطير ، وإن سكت سكت على أمر جليل لا يطيقه ولا يتحمله ، فإنه يالحقه بذلك من تلويث فراشه ، وامتهان كرامته ، والاعتداء على حقه ، وإلحاق الأجنبي عنه بنسبه يشاركه في ماله بوجوب نفقته عليه ، ويرثه بلا حق أو يزاحم ورثته كذلك ، كان من لطف الله بعباده أن شرع لهم حكم اللعان لتخليص من هذا الحرج ، وأباح للزوج أن يستقل بالإثبات بأن يشهد تلك الشهادات المكررة ويردفعها بلفظ الجلالة تهويلًا في الأمر ، ثم يردف الشهادات الأربع باستيجاب اللعنة على نفسه واستحقاقه البعد عن رحمة ربه إن كان من الكاذبين .

ولما كان مثل هذا العمل لا يستحيل أن يكون ناشئًا عن ريبة أحسها الزوج ولم يصل إلى وقوع تلك الفاحشة ، وتكون نيران الغيرة والحمية قد نفخت في منخره حتى خال التخمين يقينًا ، وقد قالوا : « إن الحريص بسوء ظن مولع » فلو جعلت كلمته ضربة لازب على زوجه ، وحرمت من باب تنقذ نفسها منه أن لو كانت في الواقع بريئة ، لكان في ذلك إجحاف بمحقها ، شرع لها المخاص الذي يدرأ عنها العذاب ، وهو أن تقابل شهادته بشهادات أربع مثلها ، وتأتى في الخامسة بما هو أشد من خامسته ، وهو استحقاقها غضب الله إن كان من الصادقين . والغضب أشد من اللعنة ، فإن اللعنة هي الطرد والبعد من الرحمة ، وأما الغضب فهو السخط وإنزال المقت والعذاب ، ولا يلزم من البعد عن الرحمة إنزال السخط ، كما تقول : فلان لا يستحق مني عطفًا ولكن لا أريد أن أضره . وإن كان الحرمان من رحمة الله مما لا قبل للمخلوق باحتماله . فلما كانت هي أصل البالية ومنشأ هذا الفجور بأطباعها وحياتها أمانة من ائتمنها ، غلظ عليها باستيجابها الغضب على نفسها .

هذا على فرض كذبها ، وعلى فرض كذبه هو يكون الواقع منه سب البرىء ، وهو أهون من ارتكاب فاحشة الزنى ، ولذلك اكتفى منه باستيجاب العنة على نفسه . وقد ذكر الفقهاء فى حكم اللعان أنه يجب التصريح بالمشهود عليه ، وهو إرداف كلمة من الصادقين أو من الكاذبين بكلمة فيما رماها به من الزنى ، ليكون المحلوف عليه أو المشهود عليه واضحا جليا لا لبس فيه ولا احتمال للتأويل والمخلص ، وهذا شأن ما يجرى بين الناس فى كبريات الأمور ومخاطرها حتى لا يكون عرضة للتلاعب بالتأويل . ولا ينافى هذا عدم التصريح به فى الآية الكريمة ، لأن الآية من باب التعاميم وذلك كاف فيها ، وحسن الحذف أن الشنائع المستنكرة مما يحسن أن يصاب عنه اللسان والسمع .

والتعبير بهذه الصيغة وهى « إن » المعقبة بلام التوكيد وجعل الخبر من الصادقين ، فيه من التأكيدات ما فيه ، فإن اللام أمرها ظاهر ، وعبارة من الصادقين زيادة فى التوكيد ، كأنه جعل وصف الصدق ثابتا له يعرف به حتى ينخرط فيمن عرفوا بوصف أنهم صادقون .

وقراءة حفص برفع أربع والخامسة وتشديد أن ؛ وقرئ بنصبهما ، وقرئ بتخفيف أن ورفع لعنة .

وقوله تعالى : (وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) يفيد أن العذاب والحد والرجم قد استحق عليها بلعان الزوج ، ولكن لها مخلص اذا سلكته تدفع عن نفسها ما وجب عليها ، وذلك مأخوذ من قوله : (وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ) فالدرء الدفع ، وإنما يكون بعد توجهه ، وكلمة العذاب بأل تفيد أنه ذلك العذاب المستحق على مرتكب تلك الجريمة ، وهو الرجم إذ كانت محصنة .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم وعظهما أولاً ، وخوفهما عذاب الآخرة ، فلما جاء دورها أعاد عليها العظة وقال : إن الرجم في الدنيا أخف من غضب الله في الآخرة . وروى أنه أمر من يضع يده على فيهما عند الخامسة ليحول بينهما وبين التورط فيما اندفعا فيه ، وليترك لهما فرصة للتبصر عساها يتعظان ويرجعان ، ولكنها تبادت . وقد أخذ من ذلك أنه يسن للقاضي ألا يتركهما واندفاعهما ، بل يذكرها ويعظهما ويسهل لهما سبيل الرضا بالحد ، بل يهيئ لهما فرصة ، وبخاصة عند الشهادة الخامسة .

ومتى لاعن الزوج حرمت عليه وقضى بالتفريق بينهما ، فقليل : الفرقة بتفريق القاضي ، وقيل مجرد اللعان موجب للفرقة وإن لم يقل القاضي فرقت ؛ ثم قيل : إنها حرمة مؤبدة ؛ وقيل كالطَّلقة البائنة : يجوز له أن ينكحها إذا عاد وكذب نفسه وحد . وقد قرئ بتخفيف أن ورفع غضب ؛ وقرئ بتخفيفها ولفظ غضب بصيغة الماضي .

ولما كان هذا الأمر على شناعته لا بد من الابتلاء به ، فإن الإنسان هو الإنسان والشیطان هو الشيطان ، والإغواء دأبه ، وضعف الإنسان وانهمزاه أمام جيوش الشهوات ووساوس الشيطان لا بد أن يكون ولو على وجه الندرة ، كان من الرحمة والفضل هذا التشريع ، فقال تعالى : (وَأَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) . والفضل هو الزيادة في الإحسان ، والرحمة هي الصفة التي يكون أثرها الإحسان ؛ وكان الإتيان بها بعد لفظ الفضل لبيان أن هذا الإحسان الذي تشهدون آثاره هو ناشئ عن صفة ذاتية لدى الحق جل جلاله : لا يخشى عليه الاتقطاع ولا يعتريه النفاذ .

وقوله : (وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) ، معنى التواب حين يسند إلى الله تعالى : الذي يقبل التوبة من عباده كثيراً ، فكلما تاب العبد توبة صادقة قبلها منه وإن وقع بعد ذلك في جريمة ؛ والحكيم الذي يراعى الحكمة في أفعاله وأحكامه . وإنما حذف جواب لولا للإشارة إلى أنه مع علمه على وجه إجمالي ، فهو مما لا تحيط العبارة بتفصيله ، ولتذهب

النفس فيه كل مذهب ممكن ؛ ورب محذوف هو أوسع دلالة من مذکور ؛ وكان المعنى : ولولا ما حَفَكم من فضل الله ومزيد إحسانه ، وأن ذلك مصدره الرحمة الذاتية التي كتبها ربكم على نفسه ، وأنه يعرضكم للتوبة ويفتح لكم سبلها ، ويهيئ لكم فرصها ويقبلها منكم ، وأنه يراعى المصالح والحكم في أحكامه ، لو لا ذلك كله لكان ما كان مما لا تطيقونه ولا تحتملونه ، ولا تحيط به العبارة ، فقد تفضل عليكم بفتح المخلص من تلك الورطات الكبرى ، ورطة أن يفاجأ الرجل بأشد ما يكره في أعز ما يحتفظ به ، فإن قتل مهاجمه قتل به ، وإن سكت سكت على ما لا يطيق عليه صبرا ، وإن تكلم استوجب حد القذف وردت شهادته بين المسامين ، فتفضل عليكم بتشريع هذا الحكم المنقذ له رحمة منه وفضلا ، ولم يهمل شأن المرأة ، وقد تكون مظلومة ، ففتح لها باب المخلص تدفع عن عرضها وشرف قومها ، فشرع لها اللعان ، ورحمها معا بالستر على الكاذب منهما في الدنيا وتعريضه للتوبة ، وربما صدق فيها فأحرز مع ستر الدنيا المغفرة في الآخرة .

فأي حكمة ورحمة أوسع من هذا ؟ فهو الحكيم العليم التواب الرحيم . نسأله أن يمن علينا بالدخول في واسع رحمته ، وأن يحملنا بإدراك سر حكيمته في شريعته ، فهو الوهاب ، لا مانع لما أعطى ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

ابراهيم الجبالي



العالم

الذى نوه الدين بذكره

ومطأ الناس في ذلك

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والأحاديث ، اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان ، أو تصنيف في الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأصول أو نحو ذلك ، جاهلا أن ما افتخر به من ذلك قد يوجد في غير المسلمين ؛ وها هي ذى كتب مدارسهم التى ألفها آباؤهم وعلماءهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المنصف ؛ وما تسمعه عن مستشرق أوربا أعجب وأغرب ، فهم شركاؤك فيما علمت ، فلا بد أن يكونوا شركاءك في خاصة ذلك العلم ، وإلا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال ، فإذا يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا الى شيء آخر ، وأن تكون هذه العلوم التى ترقعنا بها على الجهلاء ، وامتلائنا بها عجبنا وكبرا وغرورا ، وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا بما أورتنا من الصفات المهلكة ، ونحشى أن نكون ممن قال الله فيهم : (وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) أشبه شيء بالصنائع التى يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ، ولا يرجع بها الفاسق عن فسقه ، ولا يتميز بها عن بنى نوعه ، إلا على قدر ما يتميز العالم بصنعة من الصنائع عن الجاهل بها .

نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمرا وراء ذلك كله ، وهو الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

وكان مجلسٌ واحد من مجالس العالم خيرا من عبادة ستين سنة ، ذلك العلم الذى يبلغ بك تلك الغاية ، وبحالك تلك المنزلة الرفيعة ، ومن أجله احترمتك الجلاء وعظمت الكبراء ، معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ، ووصلت الى ما لم يصلوا اليه ، والقلوب الانسانية تحس بشرف العلم الأعلى ومكانة ذويه ، وتجل الروحانيين الربانيين إجلالها للملائكة المقربين ، وتنظر اليهم نظر أهل الأرض لأهل السماء على موجب ذلك الإحساس الذى لا يكاد يخلو منه إنسان فيه روح الانسانية .

ذلك العلم يحل عن أن يكون هو العلم بأحكام الفاعل والمفعول ، والتصغير والتكسير والمسند والمسند اليه ، والحقيقة والمجاز ، وتناقض الموجهات ، وأحكام المختلعات وفروع الطلاق ، والبيع والجنائيات ، الى آخر ما اشرأت به الأعناق ، وعظم فيه السباق ، وتبجحت به النفوس ، وارتفعت به الرؤوس ؛ بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله تعالى وعظمته وبديع آياته وعظيم أسراره فى خاقه ، مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها ، وتليدتها وكثرة دسائسها ، وسرعة طيرانها نحو شهواتها ، فترغم يهمونها فى كل شئ ويعاملونها معاملة العدو المحتال ، باحثين وراءها فى كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ، مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله تعالى : (وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ) قائلين : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم ، فامتثلوا قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها ، فلم يتحركوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، ولم ينطقوا إلا لله ، ولم يسكتوا إلا لله ، متحققين أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، فصبروا على بلائه ، وشكروا على نعمائه ، بل رضوا بقضائه ، وسارعوا الى رضائه ، فلم يجحدوا فى أنفسهم حرجا مما

قضى وقدر ، بل ساموا له تسليما ، شأن العبد الصادق فى العبودية مع مولاه ، فرقين
 أن يندرجوا فى سلك من قال الله فيهم : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
 أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ) سائرین فى الدنيا على قدم الأنبیاء يتجرعون
 فى سبيل الحق شدة الأذى ، كاظمين غيظهم ، صابرين على ما أصابهم ، بل عافين عن
 الناس محسنين اليهم ، مشفقين عليهم ، على نهج من قال الله تعالى فى وصفه الكريم :
 (حَرِيسٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (فَلَمَّا كَبِخِعَ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
 إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة ، مقبلين
 على الله تعالى بكليتهم ، داعين اليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، عالمين أنها محل المحن
 ودار الفتن ، فلا يحبونها إلا على نحو ما رسم الشرع لهم ، مشفقين من قوله تعالى :
 (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
 الْغُرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
 أَصْحَابِ السَّعِيرِ) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم ، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك
 عظيم ، عالمين أنها سريرة الفناء وشيكة الانقضاء ، يرون قريبا ما يراه الناس بعيدا .

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيدا غدا ، ما أقرب اليوم من غد :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ
 أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ
 تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ) مقتفين أثر من قيل له : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) واصلين
 الى روح قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) (أَلَيْسَ جُؤُنَا أَنَّمَا

نَمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) محبين للمرشد الأعظم والنبي الأكرم الذى هدام الصراط المستقيم ، وأخرجهم من الظلمات الى النور بحبة تزد على محبة الوالد لولده والولد لوالده ، متحققين بما جاء فى حديث البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وما ورد فى حديث البخارى أيضا « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » فوصلوا بذلك الى روح اليقين ، حتى صارت مظان ثوابه ومواقع مرضاته تعالى مما تنشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم ، عالمين أنهم لا يبلغون درجة الجمال ، ويتنفق عنهم الحرج والمشقة ، ويصلون الى محل الأمن ، إلا إذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ، ورسخ فى كل ذراتهم ، فيميلون اليه ميلا طبيعيا يتقاضى منهم المسارعة اليه والعكوف عليه ، إذ هو محل الأنس وحضرة القدس ، مجتلين فى تلك الحضرات من عرائس الجمال الإلهى ما يفوق كل نعيم ، ويحتقر معه كل لذة سواه ، حتى قال قائلهم : « نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » فكادوا يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ، ويذوبون عند ما يوغلون فى سرادقات ذلك الجلال ، مدهوشين مما يذوقونه فى تلك الحضرات من مناجاة وإلهامات وملاطفات وأنوار وأسرار ، فكانوا من قوم (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) يتيهون على ملوك الدنيا استغناء وعزة ، على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء ، ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم ، وعزتهم التى يحسون بها من أعماق قلوبهم ، أن يتواضعوا لأهل العظمة والكبرياء ، وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الى آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه .

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة، وتخلصوا من كل رذيلة، وأدركوا من شريف الأحوال ورفيع المقامات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكانوا بذلك ورثة الرسل، وقادة الأمم، ودواء العلل، وكواكب الظلمات، وسرج المشكلات، بهم تنحل العقدة وتنفرج الكرب (وراثه نبوية وخلافة إلهية) ولذلك كانوا مرجع الأمراء والكبراء، حتى قال القائل قديما:

إن الأكابر يحكمون على الوري وعلى الأكابر تحكم العلماء

وقد قالوا: إن الأمة تفسد بفساد الأمراء والأمراء يفسدون بفساد العلماء. فانظر أين أنت من تلك المقامات، وإلى أي حد وصلت من البعد عن تلك الصفات أيها المتبجح بعلمك، المترفع على بني نوعك، الغافل عن كون الإنسان لا يزال متعلما طالبا من العلم ما يكون وراء ما علم، وكلما ازداد منه رياء ازداد عطشا، وكلما زاد فضله، بان له جهله، وقد قال تعالى لا أعلم العلماء وأعظم العظما: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وقال: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ) وقال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

وإن العالم حقا ليستحي من الله أن يتبجح بعلمه، وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان، ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الأمواج، وهو بساحله يرجو أن يتطير عليه من مجرد رشاش ينقع به مزيد غلته، ويشفى به بعض علته، وإن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء.

انظر الى ذلك كله ثم قل لي بعيشك هل أحببت النبي صلى الله عليه وسلم حبا وجدا نيا يزيد على محبتك للناس أجمعين؟ وهل صار هواك تبعالما جاء به؟ بل هل سعيت الى ذلك سعيه يوما من الأيام، وأملك من أجله ضميرك، وعاتبتك عليه نفسك؟ أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حبا يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاؤه؟ أم هل صدقت في بيع نفسك لله تعالى وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلا عن

العلماء منهم، فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله، فلم تتكالب على أمورك الشخصية، ولم تهالك على شهواتك النفسية، ولم تذلل لأهل الدنيا ذل العبيد، ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لثام الطباع؟ وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً، أو عرفت لها معنى؟ وهل أنت ممن قال الله فيهم: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)؟ أو ممن قال فيهم: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)؟ وهل أنت ممن يجب لأخيه ما يجب لنفسه؟ وهل أنت ممن يقول لأخيه عند ما يقابله: اجلس بنا ساعة تؤمن، كما كان يقول ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم لبعض؟ وهل أنت ممن (إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)؟ وهل وهل الخ؟ أم أنت ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وقد أحاط به الشره واستعبده حب الدنيا، فليس يهمه إلا شيء يعود عليه، ودرهم يصل إليه، فقافته عزة العلماء، وثروة الأغنياء، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء؟ . .

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول من تسعر به النار يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه فيطيف به أهل النار فيقولون له مالك وقد كنت تأمرنا وتنهانا فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية»؛ كما يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه «قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسل وقلوبكم أكر من الصبر، فبي يستهزئون وإياي يخادعون؛ فوعزتي وجلالي لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران». وفي الأثر «لا تجالسوا من العلماء إلا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا إلى محبة

الله، وعن الكبر الى التواضع، وعن التباغض الى التجانب « ولا قدر للدنيا حتى تبيع بها السعادة الأبدية، وقد قال بعض الملوكة عند ما حضرته الوفاة : كنت أظن أنى ملكت كل شىء فإذا كل شىء لا شىء . وقال بعض الحكماء : « أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره، وعالم فرط فى عامه فلم يعمل به حتى حضره الموت » .

وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك منى ومنك شوقا الى العمل بالعلم، وندما على ذلك العمر العزيز، وخوفاً من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم القيامة بقوله : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكُونُونَ) (تَكُونُونَ) (وَرَجَاءُ أَنْ نَكُونَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا :

تُجِبُ الْآيَامَ بِنَا تَتَبْ	ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة	والليل تطاير الشهب
والدهر يجد بفعل الجد	يد فليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك نخل هوا	لك وكن رجلا فك الطلب
سل دهرك أين قرون الأثر	ض يجبك بأنهم ذهبوا
ساروا عنا سيرا عجلا	فكأن مسيرهم الخب
ما أفصحهم ولقد صمتوا	ما أبعدهم ولقد قربوا
يا لاعب جد بفعل الجد	فليس الأمر به لعب
واحذر دنياك وزخرفها	فجميع مناصبها نصب
فكأنك والآيام وقد	فتحت باباً فيه النوب
وبقيت غريب الدار فلا	رسل تأتيك ولا كتب

وسالك الأهل ومل الصبح ب كأنهمو لك ما صحبوا
 فاذا نقر الناقور جشوا ت ويومئذ يوم عجب
 فيصيح السمع ويحشو الجف ع ويجرى الدمع وينسكب
 وجميع الناس قد اجتمعوا ثم افترقوا ولهم رتب
 ذا مرتفع ذا منخفض ذا منجزم ذا منتصب
 فهناك المكسب والخسرا ن وثم الراحة والتعب

يوسف البرموى
 من هيئة كبار العلماء

الطرف والمُلح

قال سهل بن هارون: ومما حفظ من كلام ذى الياستين مما رأينا تخليده في الكتب
 ليؤتم به، وينتفع بقول حكمته، قوله: من ترك حقاً فقد غبن خطأ، ومن قضى حقاً
 فقد أحرز غناً، ومن أتى فضلاً فقد أوجب شكراً، ومن أحسن توكلأ لم يعدم من
 الله صنعا، ومن ترك لله شيئاً لم يجد لما ترك فقدأ، ومن التمس بمعصية الله حمداً عاد
 ذلك على ملتمسه ذماً، ومن طلب بخلاف الحق له دركاً عاد ما أدرك من ذلك له موبقاً
 وذلك أوجب الفلاح للمحسنين، وجعل سوء العاقبة للمسيئين المقصرين.

السبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) .

قد مضى في العدد السابق الكلام على الثلاثة الأول في هذا الحديث الشريف وهذا تنمة الكلام في البقية :

(٤) ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه :

غير خاف أن العدد هنا عدد الأصناف لا عدد الأفراد ، أى سبعة أصناف وأنواع من الناس يجمع كل صنف صفة من الصفات ، فلا يرد أن هذا الرابع فيه رجلا نحق العدد أن يكون ثمانية ، وذلك لأنهما وإن كانا رجلين فإنهما مشتركان في صفة واحدة فهما صنف واحد ، فليس في المذكور زيادة على السبعة ، وإنما ذكرنا على وجه التثنية لأن الغالب في المحبة التي تجري بين الناس أن تكون متبادلة ، فالنفس دائما تستريح

الى النفس التى تحبها، فتؤدى استراحتها لها الى مشاركتها لها فى المحبة. قيل: إن رجلاً طلب الى أحد الملوك أن يحب ابنه، فرد عليه بأن المحبة ليست أمراً اختيارياً يملكه الانسان من نفسه حتى يطلب منه تحصيله، فقال له: طريق ذلك أن تحسن اليه فيحبك فتحبه. وحقيقة جبات النفوس على حب من أحسن اليها، كما قال الأول: وكل امرئ يولى الجميل محب. واستدعاء محبة أحد الطرفين محبة الآخر أمر يكاد يكون مطرد المشاهدة:

فللقب على القلب دليل حين يلقاه

هذا ما لم يكن الحب لأغراض فاسدة ودواع شريرة، وإلا فإنه قد يجر الى المقابلة بالكره والمقت والسخط بقدر ما يتضمن من كيد وإضرار بالشرف، وخدش للكرامة؛ وهذا فى الحقيقة ليس بحب للشخص المزعوم محبته، وإنما هو حب المرء لذاته، واستغراقه فى ذاته، فيرى مخلوقاً من الناس هو طريق إحراز لذته، فيخترق أحشاءه ويمتحن حياته، وصولاً لبغية دنيئة، ونزولاً لغاية سافلة، فهذا فى الحقيقة محب لنفسه عدو لغيره ممن يزعم أنه أحبه.

نعم قد قالوا: إن أصل كل أنواع المحبة محبة المرء لنفسه، ومنها يتفرع حبه لغيره، فهو إذا أحب المحسن فإنه إنما أحبه لما وصل الى ذاته من آثار إحسانه؛ وإذا أحب الطعام أو الشراب فلما عاد على ذاته منه من دوام الوجود واستكمال به؛ وإذا أحب المال فإنما كان لأنه طريق نيله مقصده مما يكمل وجوده، حتى إنه إذا أحب جمالا فى المخلوقات كألوان الزهر وتجلي الشمس والقمر، كان مرجع ذلك الى استمتاع حواسه، أو استرواح نفسه.

صحيح هذا، ولكن لا يعتبر الحب محباً اذا خرج عن قانون استكمال الوجود الى تدنيس هذا الوجود، والمحبة الشريرة فى محبتها ساع الى تنقيص حياة نفسه بما يجلب عليها من نتائج الشر، وتغنيص وجود غيره بما جناه من الضرر الحسى أو المعنوى، فهو محب لا يستحق التسمية باسم الحب، ومثله شر ينتج إلا الشر.

فللتفادي عن هذا النوع المقوت جاء التحاب الموعود عليه بهذا الفضل العظيم في الحديث الشريف مبينا بأنه التحاب في الله؛ ومعنى ذلك أن يكون مبعث الحب بينهما ما يراه كل منهما في الآخر من مظاهر طاعة الله، ودرجات القرب إلى الله، ولا يرجع ذلك إلى غرض من الأغراض الدنيئة، أو غرض من أعراض الدنيا الزائلة.

وكلمة (تحابا) على صيغة تفاعل؛ وهذا الوزن يأتي في العربية لمعان، منها وهو المراد هنا أن يشترك اثنان أو أكثر في فعل بدون أن يلاحظ أن لأحدهما صفة البدء به أو المجاورة على بدئه، كقواك: تشارك فلان وفلان، بخلاف وزن فاعل، فإنه يدل على المشاركة بطريق أن أحدهما بدأ والآخر سايره فيه، كقولهم: شارك فلان فلانا، كأن الشركة ابتدأت من أحدهما والآخر سار معه فيها، ولذلك تقول لواحد: لماذا خاصمت فلانا؟ فيقول: لا بل هو الذي خاصمني؛ وإذا قلت له: أنت وفلان تخاصمتا؟ يقول نعم وهو الذي خاصمني، أي بدأ بالخصومة؛ فبدء الخصومة من جانب الآخر نفي أن الأول خاصمه ولم يتف أنهما تخاصما.

وقد تأتي تفاعل لتكلف الظهور بشيء ليس متصفا به في الحقيقة، كتناوم أو تجاهل أو تعاضم؛ وكذلك تأتي أثرا مطاوعا لفاعل، كباعده فتباعد؛ وليس شيء من ذلك مرادا هنا، إنما المقصود أنهما اشتركا في أن كلا منهما يحب صاحبه، وأن مبعث المحبة جانب الله وطاعته.

وإن المحبة أصل عظيم في هناءة الحياة واستكمال التعاطف بين العباد، فيكمل انتفاع كل بصاحبه، ويأمن كل غوائل الآخر؛ ولقد بالغ بعضهم فيها حتى قال: الدين المحبة. يريد أن من لم تملك المحبة قلبه لم ينتج الدين في نفسه أثره؛ ويشهد لهذا ما ورد في حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وحديث «مثل المؤمنين في تعلقهم وتوادمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

وأما قوله : (اجتمعنا على ذلك وتفرقا عليه) فعناه أنه حب قلبي روحي صادق ، ليس رياء ولا ملقا ، فهو في حال الاجتماع والافتراق سواء ، يثمر في الأول العطف والإيناس والنواد ، وينتج في الثاني رد غيبته ، وحفظ حقه ، ورعاية مصاحته . وجدير بمن حاز هذا الوصف أن يكرمه الله بإظهاره بظله يوم لا ظل إلا ظله .

(٥) ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله :

إن تغلغل الشهوة في قلوب الناس وتمكنها من نفوسهم أمر معروف ، وإنما يتفاوتون في الفضل بقدر ما يبذلون من جهد للتخلص من أسارها ، وقهر النفس على الفرار من سيئاتها ؛ وقد يكون الخلوص منها لضعف تعلق النفس بها لأنها لم تستكمل كل الرغائب ، كأن يكون الوصول إليها عسرا متعاصيا لا قدرة للمرء عليه ، أو أن تكون داعية الجمال فيها ضعيفة فتضعف الجاذبية ، أو تكون في إنسان مرذول تنفر بعض النفوس من الاتصال به لحقارة شأنه وأتفة النفس من معاشرته ؛ فأما إذا كملت رغائب النفس وهي مبنية على شهوات ، فكانت الصلة ميسورة ، وكان أمامها ما يرغب فيه ولا تعاف النفس مقارفته ، فهذا هو الامتحان حقا ؛ فمن أعرض عنها وقد توافرت رغباته فيها ، فإنما يكون ذلك خوفا من الله ، ولمن خاف مقام ربه جنتان .

وهذا هو ما صورته الحديث الشريف ، فقد بدأ بأن الطلب من المرأة ، وهذه أول درجات الإغراء ، وثني بأنها ذات منصب أي شرف وحظ فلا تأنف النفس من الاتصال بثلبها ولا تحتقرها ، وثالث بأنها ذات جمال ، وذلك أساس الرغبة الشهوية ؛ فإذا امتنع عن ذلك مخافة من الله دخل في قوله جل شأنه : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) . وقوله : (قال إني أخاف الله) أي قال لنفسه ولها ذلك يعظها ويذكرها ، ويربّي في نفسها مع امتناعه خوف الله ، فهي لضعفها أحق بأن تخاف ما يخافه الرجل القوي ؛ وتخصيصه في الإجابة الخوف بنفسه

ليلفتها هي أيضا الى نفسها، وكأنه يقول لها: أنا خفت على نفسي فإن كان يهلك نفسك تخاف أنت أيضا على نفسك. فكأنه يتركها وقد فتمح لها باب الخافة تستنبط هي بنفسها الخوف على نفسها، وهذا في الغالب أشد تأثيرا من أن تدعو الشخص الى الخوف صراحة. وقريب من هذا ما في قوله تعالى: (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

(٦) ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه:

للنفوس ولوع بالمال وإحرازه والتحفظ به لا يدانيه ولوع، فهم يرون فيه تجمع أغراضهم، وأداء رغباتهم، ونيل مشتهياتهم (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَبِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ).

إن محبة المال متغلغلة في نفوس الناس تغلغلا عميقا، وذلك لما استقر لديهم من أنه باب نيل الرغائب، وإحراز المآرب على تنوعها، فلا تكاد تجد رجلا أو امرأة أو صبيا إلا وهو حريص على المال يحصله ويدخره، إعدادا لما يفاجئه من حاجات، بل قد يزداد حب المال الى درجة أن يصير محبوبا لذاته، غفلة عما كان سبب محبته.

ولما كانت مصالح الناس لها به أتم ارتباط، وليس كل ساع لتحصيله بموفق في نيل ما يريد، وإلحاح الحاجات على الناس لا يعرف هوادة، رغب الشارع الحكيم من بيده فضل من المال عن حاجته أن يعطف على من قصرت يده وألحت به حاجته، وجعل على ذلك من المشوبة ما جعل، وجعل الزكاة قرينة الصلاة في الطلب، ورغب في الصدقة بجملة أنواع الترغيب، ولكن متى يستحق عمل الخير والبر مثوبة الله الذي بيده ملكوت كل شيء؟ ذاك إذا صدر منه ابتغاء رضا ربه، وامتنالا لأمره، وإخلاصا له في العمل، وهذا إنما يتحقق يقينا إذا ابتعد عن مظان البواعث التافهة، كالفخر

والرياء والمباهاة . حينئذ يكون الإيثار لوجه الله وابتغاء الثوبة منه ، وذلك في صدقة السر ، فهي أقرب الى رضا الله ، وأبعد عن المن والايذاء للمتصدق عليه ، وأسلم من بواعث الرياء والمباهاة المحبطين للعمل ؛ فلا جرم كان المتصدق المبالغ في إخفاء صدقته جديراً أن يحشر مع المخلصين لله في دينهم ، المحضين عملهم للتقرب الى ربهم ، فاستحق أن يكون من السبعة الذين يؤويهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وأن يعد من المخلصين الذين جمع الحديث الشريف أمارات إخلاصهم على ما سبق بيانه في العدد الماضي .

وقوله : (تصدق أخفى) جملة أخفى حال ، أى تصدق مخفياً صدقته ؛ وروى فأخفى ؛ وروى إخفاء ؛ وروى تصدق بصدقة فأخفاها . ووجه رواية الفاء أن الإخفاء أو الجهر حال من أحوال الفعل وصفة من صفاته ، وصفة الشيء متأخرة في الملاحظة عن وجوده ، وإن لم تنفصل عنه وجوداً .

وقوله : (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) يروى برفع تعلم على أن حتى بمنزلة فاء التفریع ، وبنصبها على أنه غاية للإخفاء ؛ وتقديم شماله على يمينه هي الرواية المشهورة ؛ وروى حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ؛ والرواية الأولى أظهر ، نظراً الى أن أغلب ما يباشر المرء عمله يمينه ؛ وعلى كل حال فالمقصود المبالغة في الإخفاء ، كأن المعنى لو قدرت إحدى يديه ممن يعلم ما علمت بعمل الأخرى ؛ ولا حاجة الى أن تقول : لا يعلم من على شماله مثلاً .

ثم الترغيب في إخفاء الصدقة محمول على صدقة التطوع ؛ أما زكاة الفرض فالأفضل إظهارها ، لأنها شعيرة دينية ، وفي إظهارها إظهار عزة الدين ، وليكون قدوة للمساكين معيئاً على تضافر المكافين على أدائها ، مبعداً عن اتهام بعضهم بعضاً بإيجالها ، فاتحاً باباً واضحاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومثل الزكاة والصدقة في ذلك صلاة الفرض والنفل ، فيسن السعي لصلاة الفرض الى المساجد ، ويسن أداء التوافل في البيوت ،

وعلى ذلك يحمل « أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته » ثم من إخفاء الصدقة التسامح في البيع والشراء بنية الصدقة .

(٧) ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه :

هذا هو المكمل للسبعة ؛ وإنك لترى الإخلاص متجليا في كلمة (خاليا) فإن البكاء قد يتصنعه الرجل الفاجر يرأى به الناس ويخدعهم ، وإذا كل فجور المرء ملك عينيه ؛ أما وهو خال فلا يكون إلا من خشية الله وتذكر تقصيره ، وعظم نعمة ربه وإهماله شكرها ، ثم الفزع والروعة الشديدة من الغفلة عن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، والأسى والحزن على ما ضيعه من عمره وقد هيء له طريق الرجى والنور العظيم .

وقد ورد : ما من أحد يموت إلا ندم ، فإن كان مطيعا ندم أن لم يكن زادا في طاعته وإن كان عاصيا ندم أن لم يكن أقلع عن معصيته . (ذكر الله) إما بقلبه من الذكر بضم الذال ، أو باللسان من الذكر بكسرهما ؛ وإنما يكون ذكر اللسان مؤديا للبكاء إذا صحبه الذكر القلبى ، وإلا فحركات اللسان وحدها لا تفيد ولا تثمر ، ولا تفيض منها عين ولا دمعة ؛ وكلمة خاليا ظاهرة في أن معناها خاليا من صحبة الناس ، ويؤيدها رواية في خلاء ؛ وقال بعضهم : المراد خلو القلب من الشواغل . وهو مع صحته في نفسه لا ينفي أن الأظهر اخلو من الناس . والفيضان أصله زيادة الماء ونحوه في الإناء أو مجرى الماء حتى يسيل من جوانبه ، ويسند الى الإناء ونحوه مبالغة في نسبته للماء ، فتقول : فاض الإناء أو فاض النهر ، أى اشتد فيضان ما فيه حتى كأنه هو الذى فاض .

وقد ورد في فضل البكاء في الخلوة كثير من الأحاديث المرفوعة ، روى الحاكم من حديث أنس مرفوعا « من ذكر الله ففاضت عينه من خشية الله حتى يصيب

الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة» وروى عن أبي هريرة مرفوعاً «لا يالج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع» وروى أن داود عليه السلام سأل ربه : ما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه ؟ قال : أسلم وجهه من لفح النار .

والسر في كل ذلك أن من يبكي من خشية الله بكاء حقيقياً في خلوة قلما يقع في منكر ؛ وإذا فرطت منه السيئة عاد فأتبعها غالباً بالحسنة ، وبادر الى التوبة والاستغفار ؛ والتوبة تذهب الحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات . نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، والإحسان في السر والعلن ، وأن يغفر لنا زلاتنا ما ظهر منها وما بطن م

ابراهيم الجبالي

الظرف والملح

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك ، واستقامة رعيتك ، قال ما هن ؟ قال : لا تعد عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يفرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فائق العواقب ، وأن للأموار بغتات فكن على حذر .

قال عيسى بن دأب فحدثت بهذا الحديث المهدي وفي يده لقمة قد رفعها الى فيه فأمسكها ، وقال : ويمحك أعد على ؛ فقلت يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك ، فقال : حديثك أحب اليّ .

الفتاوى والأحكام

حياة الأنبياء

ومرث

حياتي خير لكم

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا المحقق الشيخ يوسف الدجوي .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فعندنا جماعة متهوسون ينكرون حياة الأنبياء مستندين لقوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) كما يردون حديث « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا مت كانت وفاتي خيرا لكم تعرض علي أعمالكم ، فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت لكم » فترجو من فضيلتكم تحقيق ذلك ولكم مزيد الشكر ، ورجاؤنا أن تفيضوا القول في هذا الموضوع الخطير فإن الأمر جليل ، أدامك الله سيفا للدين وقامعا للمأجدين .
عبد الرحمن محمد
أستاذ بالمدارس الابتدائية

الجواب

الأنبياء أحياء في قبورهم قطعاً ، وهم أولى بذلك من الشهداء الذين ورد فيهم النص القرآني في قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) بل الحياة ثابتة لجميع من فارق الدنيا ولو كفارا، كما يدل عليه حديث أهل القليب الذى فى البخارى؛ وجاء فى الصحيح أيضا أن الميت بعد دفنه يسمع قرع نعال المشيعين، وأن الروح تنادى حامل الجنازة، وأنه يسمع صوتها كل شئ إلا الانسان، ولو سمعه لصعق. وقد رأى صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج موسى عليه السلام يصلى فى قبره، كما رآه فى السماء السادسة وقد راجعه مراراً فى أمر الصلاة؛ وقد وضع البيهقى رسالة فى حياة الأنبياء، وللسيوطى أيضاً رسالة تسمى أنباء الأذكىاء بحياة الأنبياء. أما قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) فعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر، فلا تشتغل بتدبير الجسم، ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه، وإلا فقد ثبتت حياة الأموات كلهم فضلاً عن الأنبياء كما قلنا، وإن كانت الحياة مقولة بالتشكيك، وبين درجاتها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله؛ وها أنت ذا تشاهد فى هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوتة بين أنواع الحيوانات وأصنافها إلى أن تصل إلى أعلاها ما يجعل الأمر لديك فى غاية الجلاء والوضوح.

ولنقص عليك شيئاً من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء فى ذلك:

أما الكتاب فيكفيك منه الآيات المتعددة فى حياة الشهداء؛ والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء. قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكره الآيات الواردة فى حياة الشهداء ما نصه: ولا خلاف بين المسلمين فى أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدراً ودرجة، وأتم فضيلة عند الله عز وجل، وأعلى كرامة من كل من دونهم، ومن خالف فى هذا فليس مساماً اهـ.

وأما السنة ففيها شئ كثير من الأدلة على حياتهم، فمن ذلك حديث «الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون» رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس ابن مالك، قال المناوى فى شرح الجامع الصغير: رجاله ثقات وصححه البيهقى اهـ ومثل

ذلك للحافظ السخاوى فى القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقى فى حياة الأنبياء ، وبها يصير من الصحيح المتفق عليه ؛ ومنها حديث الإسراء الذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ ، كالقرطبى فى التذكرة ، وابن القيم فى كتاب الروح ، والحافظ السيوطى فى غير ما كتاب من كتبه ، على أن أحاديث حياة الأنبياء فى قبورهم متواترة ، قال السيوطى فى مرقاة الصعود : تواترت بها الاخبار ، وقال فى أنباء الأذكىاء بحياة الأنبياء ما نصه : حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا ، لما قام عندنا من الأدلة فى ذلك ، وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك اه .

وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبى : صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء ، خصوصا بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، الى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم اه .

وقد نقل كلام القرطبى هذا أيضا ، وأقره الشيخ محمد السفارنى الحنبلى فى شرحه لعقيدة أهل السنة ، ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبى قال شيخنا أحمد بن عمر : إن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال الى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم

اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء، خصوصاً بموسى عليه وعليهم السلام، وقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندرهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم اهـ.

ويحقق ما ذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أن حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأمته، وسلامه على من يسلم عليه، ورد من نحو عشرين طريقاً؛ وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابياً، وقد نص الحاكم والحافظ السيوطي على أن حديث الإسراء متواتر، قال بعضهم: لا شك أنه يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حي على الدوام، وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل أو نهار.

وبعد فنحن نؤمن أنه صلى الله عليه وسلم حي يرزق في قبره، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، والإجماع على هذا. وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤمنين، وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم، والأنبياء أفضل من الشهداء.

أما حديث «حياتي خير لكم» فهو صحيح محتج به في هذا المقام وفي غيره بلا مرية. ولننقل لك ما قال المحدثون فيه فنقول: هذا الحديث رواه ابن سعد في الطبقات من حديث بكر بن عبد الله المزني مرسلًا بسند صحيح، كما نص عليه غير واحد من الحفاظ، وقال بعضهم: إنه حسن، نظراً لإرساله، وقد نازع بعضهم في الاحتجاج به من حيث إرساله لا من حيث سنده، ولكن فاته أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلًا أو موصولًا ولو ضعيفًا، صار حجة عند جميع الطوائف من أهل الأصول والفقه

والحديث ، كما نص عليه ابن الصلاح في علوم الحديث ، والنووى في التقريب ، وفي مقدمة شرح مسلم وغيرهما من كتبه ، وكذا الحافظ بن حجر في النخبة والعراق في الألفية ، والسخاوى وشيخ الاسلام زكريا في شرحهما عليهما ، والسيوطى في ألفيته وفي شرحه لتقريب النووى .

إذا تقرر هذا عرف أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلأ أو مسندأ صحيحا أو ضعيفا كما صرحوا به ، كان حجة قطعا ، بل اشترط جمع من أهل الحديث والأصول كونه ضعيفا لتقوم الحجة بالمجموع (المرسل والمسند) وإلا كان المسند الصحيح كافيا في الاحتجاج . ولتعلم أن هذا الحديث ورد من طريقين آخرين موصولين ، أحدهما إسناده جيد والآخر ضعيف ، فالأول من حديث عبد الله بن مسعود أخرجه البزار ونص الزرقاني في شرح المواهب اللدنية على أن إسناده جيد ، وكذا الشهاب الخفاجى في شرح الشفا على أن إسناده صحيح ، وكذا نص ملا على قارى في شرح الشفا على أن إسناده صحيح .

والطريق الثانى للحديث المذكور عن أنس بن مالك ، كما عزاه له السخاوى فى القول البديع ، والسيوطى فى الجامع الصغير ، إلا أنه أورده مختصراً ، وقال المناوى : إن إسناده ضعيف . فلم يرد إلا حديث أنس الضعيف لكان مرسل بكر بن عبد الله المزنى حجة على رأى الجميع بانضمام حديث أنس اليه ، فكيف وقد انضم حديث ابن مسعود الصحيح إليهما ؟ بل نقول : عندنا فى الحديث ما هو أكبر من ذلك كله ، وهو أن الحديث متواتر تواترا معنويا لورود معناه من حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر ، وهم عبد الله بن مسعود ، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة ، وأنس بن مالك ، ولحديثه طرق تزيد على الستة ، وأبو هريرة ، ولحديثه طرق تزيد على العشرة ، وعمار بن ياسر ، وأبو أمامه ، وعلى بن أبى طالب ، وابنه الحسن ، وابن عباس ، وأبو بكر الصديق ، وأوس بن أوس الثقفى ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود

البدرى الأنصارى ، وعمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله بن عمر ، وروى مرسلان عن جماعة من التابعين ، منهم بكر بن عبد الله المزنى ، والحسن البصرى ، وخالد بن معدان ، وابن شهاب الزهري ، ويزيد الرقاشى ، وأيوب السخيتانى ، وفى الباب غير المذكورين من الصحابة والتابعين ، وهذا القدر كاف فى إثبات التواتر ، خصوصاً على رأى من يشبهه بسبعة أو عشرة ، وهو الذى رجحه الحافظ السيوطى فى ألفيته حيث قال :

وما رواه عدد جم يجب إحالة اجتماعهم على الكذب
فمتواتر وقوم حددوا بعشرة وهو لدى أجود

ومشى عليه فى كتابه (الفوائد المتكثرة) ومختصره (الأزهار المتناثرة) لحكم بتواتر أحاديث لا تزيد طرقها على العشرة ؛ وهناك من يكتفى فى التواتر بأقل من ذلك كما هو مبين بكتب الأصول وغيرها ؛ وقد ذكرنا لك ما يزيد على العشرين ؛ وقد حكم جماعة من الأقدمين بالتواتر فى الخمسة والأربعة ، ومنهم ابن حزم فى (المحلى) و (الأحكام) ، والطحاوى فى شرح معانى الآثار ، والقاضى أبو الطيب الطبرى وغيرهم . أما حديثنا فمتواتر على جميع الاصطلاحات ، لوجود ما يزيد على العشرين فى كل طبقة من طبقات رواته ؛ واسناد ندى تواتر لفظ هذا الحديث بل تواتر معناه ، فأياك وتلبيس المغاطين أو غلط الجاهلين .

ثم نقول بعد هذا : إنه تقرر فى كتب الفقه والأصول والكلام أن منكر التواتر بعد قيام الحجة عليه يكفر ، فأياك والإنكار أو الإصغاء لأولئك الجاهلين المتفهمين ، فإنهم على شفا جرف هار . وقد أطلنا فى هذا المقام ليقتنع أولئك الثرثارون ، أو ليحذروا الناس ، وليعلموا أنهم على خطر عظيم ، وأنهم من أولئك الدعاة الواقفين على أبواب جهنم ، فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ، كما فى الحديث الصحيح . أسأل الله أن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه

يوسف الربوى

من هيئة كبار العلماء

النسخ

معناه - موارزه ووقوعه - أقسامه - حكمته

ورود إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

ما حكم النسخ في آية من آي القرآن بمثالها؟ وهل هو جائز شرعا وعقلا؟ وإذا جاز فما فائدة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم؟ وما سبب نسخ التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهل يصح نسخ الآية بالحديث مع أن الله يقول: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) فيعلم من الآية أنه تعالى هو الآتي لا غيره ، وأنه لا يصح نسخ القرآن إلا بمثله ، وهل الآية الناسخة أفضل من المنسوخة أو مثالا حتى يصح النسخ أو لا يصح؟ وهل كل ذلك مما يضير القرآن أو يجعل لباغ مدخلا للظعن على أسلوبه القويم؟ .

الجواب

النسخ هو رفع استمرار حكم شرعي بخطاب شرعي متراخ ، أو هو الخطاب الشرعي الدال على رفع استمرار حكم شرعي سابق . والغرض من قولنا بخطاب شرعي الاحتراز عن قطع استمرار الحكم الشرعي بالموت أو الجنون أو نحوهما . وكلمة متراخ للاحتراز عن رفع الحكم بغاية متصلة بالخطاب المثبت له ، نحو قوله تعالى: (ثُمَّ أَمَّوْا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ) فَإِنْ كَلِمَةُ إِلَى اللَّيْلِ غَايَةٌ وَلَيْسَتْ نَسْخًا لِاتِّصَالِهَا بِالْخُطَابِ الْمَثْبُتِ لِلْحُكْمِ الَّذِي انْتَهَى بِالْغَايَةِ . وقولنا « بخطاب شرعي » في التعريف الأول ، أو « الخطاب

الشرعي « في التعريف الثاني : المراد منه الوحي الإلهي الذي يوحى الله إلى نبيه عليه السلام فيبلغه النبي إلى قومه بأى وجه من وجوه الإيصال ، سواء أكان قولاً أم فعلاً أم تقريراً ، وسواء أكان القول مسوقاً للإعجاز مع بيان الحكم أم لم يكن كذلك ، وذلك لأن جميع ما يصدر عن الرسول في مقام التشريع إنما هو عن الوحي الإلهي ، لا فرق في ذلك بين التشريع الابتدائي والتشريع الناسخ لحكم سابق .

ومن هذا يعلم أن النسخ جميعه موجه للأحكام ، ومع ذلك فإن النسخ ينقسم إلى قسمين : نسخ الكتاب ، ونسخ السنة ، والأول وهو نسخ الكتاب أى نسخ آية من القرآن ينقسم إلى نسخ حكم ، ونسخ تلاوة ، وإنما صدق التعريف على القسمين أى نسخ الحكم ونسخ التلاوة ، لأن كلا منهما فيه نسخ الحكم ، وذلك أن معنى نسخ التلاوة نسخ حكم التلاوة ، أى أن هذه الآية كانت لتلاوتها أحكام تلاوة القرآن ككونها يثاب على تلاوتها ، ويصح الصلاة بها ، ولا يجوز للجانب أن يتلوها ولا للمحدث أن يمسخها وهي مكتوبة ، فنسخت هذه الأحكام . وأما نسخ الحكم فهو نسخ الحكم المدلول لها كترخيص المتوفى عنها حولا ، وكالوصية للوالدين والأقربين وأمثال ذلك ، فالنسخ إنما هو للأحكام على كل حال ، وإنما سمي أحدهما نسخ حكم والآخر نسخ تلاوة للفرقة بين القسمين .

ثم النسخ جائز عقلاً وثابت شرعاً ، أما جوازُه عقلاً فلا أن الله تعالى هو الأمر النهي باختياره ، وليس في العقل ما يمنع من أن يأمر بشيء في وقت وينهى عنه في وقت ، سواء أقلنا إنه يفعل باختياره بدون تقييد بحكمة أو علة ، أو قلنا لا يصدر عنه فعل إلا لحكمة وفائدة ، فعلى الأول الأمر ظاهر ، فإنه متى كان اختياره كافياً في الفعل أو في الخطاب ، فيجوز أن تتعلق إرادته بالأمر بالشئ في وقت والنهي عنه في وقت آخر ولو لم يكن لذلك سبب ، كأمره بالصوم في اليوم الأخير من رمضان ونهيه عنه

في اليوم الأول من شوال ؛ وعلى الثاني وهو أنه لا يصدر عنه فعل أو تكليف إلا لحكمة وثمرة ، لا مانع أن يكون في الفعل مصلحة في وقت ومفسدة في وقت آخر ، فيؤمر به في الوقت الأول وينهى عنه في الثاني . ومثل ذلك مثل المريض يكون تناول الدواء مفيداً له حين مرضه فيأمره الطبيب بتناوله ، ويكون مضرأ له بعد سلامته فينهاه الطبيب عنه حينئذ ، أو كالغذاء الجيد لا تتحمله معدة المريض الضعيف فينهاه عنه ، فإذا شفى من مرضه وسامت معدته واحتاج إلى ما يعيد قوته حتم عليه الطبيب تناول ما كان يمنعه عنه . واعتبر ذلك في تربية الطفل يعطى من الغذاء الخفيف ما يناسبه ، حتى إذا شب زيد له من متين الغذاء بمقدار ، ومنع من رضاع أمه ، إذ كان ذلك لا يناسبه بعد كبره . ولا شك أن الأم عرضة لأدوار شتى في التربية ، فيصح أن يناسبها في وقت ما لا يناسبها في وقت آخر . وفي القرآن الكريم ما يدل على جوازده وهو قوله تعالى :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) .

وأما ثبوته شرعاً فلا دلة كثيرة — منها قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) نسخت بالآية السابقة عليها في التلاوة وهي متأخرة عنها في النزول ، وهي قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) وذلك أن ترتيب التلاوة غير ترتيب النزول ، وليس المقام الآن في بيان ذلك ، بل هذا معروف شائع ونلمس حكمته في فن التفسير ، وكقوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية ، تدل على وجوب ثبات الواحد للعشرة ، نسخت بقوله تعالى بعدها : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية ، فإنها تدل على وجوب صبر الواحد للاثنتين دون ما زاد عليهما . ومن النسخ نسخ التوجه لبیت المقدس في الصلاة بالتوجه للكعبة ، ونسخ

وجوب صوم عاشوراء بوجوب صوم رمضان ، ونسخ حكم الوصية للأقربين بآية الموارث ، أو بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » على الخلاف بين الفقهاء في ذلك .

ومن هنا يجيء سؤال هل ينسخ كل من الحديث والآية بالحديث أو بالآية ؟ أى هل ينسخ الحديث بالحديث والآية ، وتنسخ الآية والآية بالحديث ؟ أما نسخ الحديث بالحديث والآية بالآية فلم يخالف فيه أحد من مثبتي النسخ ، ما لم يؤد إلى نسخ حديث متواتر بحديث آحاد ، فإن الناسخ لا يكون أقل قوة من المنسوخ ؛ وأما نسخ الحديث بالآية أو الآية بالحديث فقد اختلف فيه ، فالمجوزون يقولون : كل من عند الله ، وهو الحكيم والملكوف ، والنبي مبلغ ، سواء بقول من نظمه هو أو بالنظم القرآني الكريم ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فشكل من الحديث والآية معناد مريح به من الله ، والفرق إنما هو في اللفظ المؤدى به ، فإذا كان اللفظ المؤدى به من قبل النبي صلى الله عليه وسلم فهو الحديث ، وإذا كان نظمه ولفظه مما أوحى به مع مراعاة الإيجاز فهو القرآن ، ويكون متعبداً بتلاوته حينئذ . والنسخ على كل حال لحكم من الأحكام ، سواء أكان الحكم المدلول عليه بالنص السابق ، أم كان الحكم المتعلق بلفظه على ما سبق في التقسيم .

والمالعون لنسخ الحديث بالآية استندوا إلى قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) فظنوا أن السنة للبيان فحسب ، وليس لهم فيه حجة ، فقد أجمع المسلمون على أن من الأحكام ما ثبت أصله بالسنة ، فليست السنة قاصرة على البيان ، وليس في الآية دليل على انحصار أعماله صلى الله عليه وسلم في البيان ، وغاية ما تدل عليه أنه يكون منه بيان ما نزل إليهم ، إما بالتبليغ على ما هو رأى بعضهم في معنى التبیین ، وإما بتخصيص العام وتقييد المطلق وبيان المجمل وما أشبه ذلك ،

وعلى كل حال لم يقل أحد بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجزى بوحى لأحكام غير ما ورد فى القرآن .

وأما نسخ الآية بالحديث فمنهم من جوزوه ومنهم من منعه ، والمجوزون أكثرهم على أنه لم يقع وإن جاز عقلا ، لأن كلا من الناسخ والمنسوخ من عند الله على ما سبق ، ويقولون فيما توهم فيه أن فيه نسخ الآية بالحديث : إن الناسخ آية لا حديث . فمن ذلك آية الوصية للوالدين والأقربين (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) : توهم فيها أنها نسخت بحديث « لا وصية لوارث » فيقولون : إن الناسخ فى الحقيقة آية الموارث ، فقد بينت لكل ذى حق حقه ، فلم يرجع أمر التقسيم والإعطاء الى الموصى كما دلت عليه آية الوصية المنسوخة ، ويكون حديث « لا وصية لوارث » لبيان نسخ آية الوصية بها ، ولذلك روى أنه عليه الصلاة والسلام قاله بعد نزول آية الموارث .

ومن ذلك آية الجلد (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) : توهم فيها أنها نسخت بالسنة ، وهو فعله صلى الله عليه وسلم ، وأمره برجم ما عر إذا ثبت عليه الزنى وهو محصن ، فيقولون فى دفعه : إن هذا تخصيص للعام لا نسخ ، إذ النسخ هو رفع الحكم كلية ، والتخصيص إبقاؤه مع قصره على بعض أفرادها ، فهو من البيان المدلول عليه فى قوله تعالى : (لَتُبَيَّنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، ومن الفقهاء من يقول : إن التخصيص نسخ ، فإنه رفع الحكم عما كان يتناوله قبل التخصيص . وهؤلاء يقولون إن النسخ هنا بآية نزلت ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، وهى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله) فقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : « خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن » وروى

أبو داود عنه أنه رضى الله عنه خطب وقال : « إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه كتابا فكان فيما أنزل عليه آية الرجم - وهى الآية السابقة - فقرأناها ووعيناها » ثم قال : « لولا أن يقال إن عمر زاد فى الكتاب لكتبتهما على حاشية المصحف » ومعنى ذلك أنها بعد نسخ تلاوتها لم تعد من الكتاب الكريم ، وقد سمع الحاضرون للخطبة ولم ينكر عليه أحد ، فاعتبر إجماعا سكوتيا ، وهو كاف فى صحة روايتها وأنها كانت قرآنا ونسخت ، فيكون ذلك من نسخ القرآن بالقرآن ثم نسخ الناسخ ، وغاية الأمر أن النسخ فى الأول نسخ الحكم المدلول للآية مع بقاء تلاوتها ، والثانى نسخ لحكم تلاوتها مع بقاء الحكم المدلول لها ، فاجتمع فى ذلك نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

وملخص هذا رأى أن نسخ الآية بالحديث جائز عقلا ، ولكن لم يثبت قطعا ، ولو ثبت ما لزم منه محال ، بشرط أن يكون الحديث متواترا . والقائلون بوقوعه يستدلون بهذا الذى ذكرناه .

أما المانعون الذين يقولون بعدم جواز نسخ الآية بالحديث ، فإنهم يستدلون بقوله تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) فإنها تدل على أن الذى ينسخ الآية آية مثلها أو خير منها . ويقول الأولون : لا دلالة فيه على أن المأني به هو الناسخ ، بل كل ما يدل عليه هو أنه إذا حصل نسخ لحكم آية أو تلاوتها أتى الله بآية أو حكم مثلها أو خير منها فى الثواب الأخرى أو فى نفع العباد وتربيتهم ، ولا يلزم أن يكون المأني به هو الناسخ ، بل يؤتى بحكم أو بآية عند النسخ . والفرق بين المعنيين واضح . وسنشرح الخيرية عند بيان حكمة النسخ للتلاوة أو للحكم ، وإنما تنبه هنا على أن مرجع الخيرية ثواب العبد أو نفعه ، لا أن إحدى الآيتين خير من الأخرى فى ذاتها .

وكذلك يستدل المانعون بقوله تعالى: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وذلك أنها تدل على أن الذي يأتي مكان آية آية لا حديث ، وقوله : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ) يدل على أنه منزل من عند الله ، وذلك هو القرآن . ويدفع المجيزون هذين الدليلين بأن قوله : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) لا ينفي أنه قد ينسخ حكم آية بحديث ، فإن عبارة « إذا صنعت كذا » لا تدل على أنه لا يصنع إلا ما ذكرت ، وقوله تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ) يتناول ما نزل قرآنا وما نزل سنة ، فإنه لا ينطق عن الهوى .

هذا طرف من أدلة المانعين والمجيزين ، نكتفي به في المجلة علما بأن استقصاء مثل هذه المباحث مما يكل أذهان جمهور القراء ، وإنما نلم من مثلها بما نتناوله مدارك الأوساط ، ومن شاء الاستقصاء فليهذا المقصد ، ونسكن لا تتسع صفحات المجلة ليغيته ، بل محل ذلك كتب الأصول .

وممن منع نسخ الآية بالحديث الشافعي وأحمد ؛ وممن أجاز به بشرط التواتر مالك وأصحاب أبي حنيفة وابن شريح وكثير من المتكلمين أشاعرة ومعتزلة ، على خلاف بينهم في الوقوع كما ذكرنا آنفا .

أما حكمة النسخ فالكلام فيها في موضعين : (الأول) حكمة النسخ على العموم . و (الثاني) حكمة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة .

فالمقام الأول يكفي فيه ما سبقت الإشارة اليه من أن الدين نزل تدريجيا لترقية قوم تأصلت فيهم عادات ومألوفات ، حتى اعتقدوا فيها أنها المكارم ووسائل المجد ، ومرجع الفخار ومقياس عزة النفس ، وقد اختار الله تعالى وجلت حكمته أن يبعث رسوله من

هذا الشعب الذى بلغ الغاية العظمى فى تقديس أسباب المجد والمفاخر والمآثر ، وغلبت على نفسه وجهة الفخار والتحدث بالمحامد والفرار من المذام بدرجة ما عرفت فى شعب غيره ، ويكفى فى ذلك تتبع ما كان يثور بينهم من الحروب الطاحنة الى درجة التفانى بين المتحاربين ، ويبقى ذلك سنوات عديدة ، فما كانت أسباب ذلك لترجع الى التزام على مال أو متاع ، أو اقتناء ثروة أو غيرها مما هو مدار الحروب فى زمننا هذا ، بل بين المتحضرين كافة فى كل وقت ، وإنما كان مرجع حروبهم فى الكثير الغالب هو الحمية للشرف ، والتعرة فى التفاخر ، والاعتماد بالفضيلة ، والتبريز فى المجد والتبيل ؛ فشعب هذا شأنه ، وقد اختاره الله تعالى للقيام بنصرة نبيه ونشر دينه ، ليس من الحكمة مطلقاً أن يساس قسراً ، وأن تنتزع منه مألوفاته قهراً ، بل الحكمة كل الحكمة فى أن ينقل تدريجياً من حالة الى حالة تليها ، حتى إذا ركن للثانية انتقل الى درجة تليها ، وهلم جرا .

يتجلى لك هذا فى تحريم الخمر التى كان يتغنى بها شعراؤهم ، ويتباهى بها فتيانهم ويتحدث بها شجعانهم ، يرونها أماراة الرجولة ، وعنوان الشهامة ، وسمة الفتوة ، نجاة الأحكام والآيات تستأبها من نفوسهم رويداً رويداً ، حتى استقر أمرها على المنع البات ، وقرأ إن شئت قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) لم يصدموها فيها ولم يتركوا لها ، فنبهتهم ليتأملوا آثامها ومضارها ؛ ثم اقرأ قوله سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فزاد تنبيههم الى أنها لا تناسب هذا المقام العظيم ، مقام وقوف العبد بين يدي ربه يناجيه بكلامه بكل خضوع ، ويستنزل رحمته بكل جهد ، فينبغى أن يكون حاضر كل العقل ، حتى إذا فطنتوا الى منافاتها لأعظم مقام تصبو إليه نفوسهم ، وجرت حوادث زادت تنبيههم الى ما فيها من ضرر ، تشوفوا من أنفسهم لتحريمها بتاتا ، فجاء قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) ، أفلا ترى كيف كانت الحكمة البالغة في تربية شعب اصطفاه الله من بين الشعوب باختيار رسوله منه ، لما أودع فيه من صفات النبيل والمجد ، فيبقىها له بعد أن ينقيها مما علق بها من الأدران ؟ وكذلك آيتا التربص حولا والتربص أربعة أشهر وعشراً : كان الأول علaja لعادة تأصلت في نفوس أشرافهم ، واعتبرت وفاء من الزوجة لزوجها المتوفى عنها ، وهي أن تحرم على نفسها الرجال من بعده ، فكان في هذا وفاء حقاً ، ولكنه زاد حتى حمل من ظلم المرأة ما يعكر اعتباره فضيلة ، فالظلم لا يدوم وإن دام دمر ، ولكن العدل إن دام عمر ، فلم يكن من الحكمة أن تقتلع صفة الوفاء الأبدى المقدسة في نظرهم الى الحكم الذي أراد جل شأنه أن يستقر الأمر عليه ، وهو تربص أربعة أشهر وعشر طفرة واحدة ، بل الحكمة كل الحكمة أن تكون النقلة على درجتين : (الأولى) الى حالة كان يراها بعضهم والعقول تسيغها بعد الأولى بسهولة ، وهي تربص الحول — ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر . و (الثانية) بعد هذه وهي ما استقر عليه الحكم ، وهو كاف للوفاء عند الانصاف .

وهكذا إذا تتبعنا الأحكام التي نسخت وأحسننا التأمل ، فإنك ظافر بحكمة تزيدك إيماناً وشكراً ، وينطلق لسانك بقوله جل شأنه : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) .

الموضع الثاني — حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ، أو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

وقد عرفت مما سبق أن معنى نسخ التلاوة هو نسخ حكمها ، أي لم تبق للآية صفة القرآنية — من التعبد بتلاوتها ، وصحة الصلاة بها ، ونحو ذلك ، فأما القسم الأول وهو بقاء

التلاوة مع نسخ الحكم، فلتتجلى لنا حكمته البالغة في تربيتنا، ونشهد التدرج في السكال الذي أعدنا له جل شأنه بتغيير الحكم الذي كان يناسب علة متأصلة في الأمة الى حكم مناسب للدوام والاستقرار، فنزداد شكراً، ويقوى امثالنا للحكم، واقتناعنا بالرحمة المودعة فيه، فقد يكون انتقالا إلى أخف فاشكر نعمة التخفيف، وقد يكون انتقالا الى حكم أشد من الأول فنشكر نعمة التهذيب لنفوسنا، والتعريض للزيادة في مشوبتنا، وتنبّع الأحكام التي ورد عليها النسخ تقرأ العجب العجائب .

وأما القسم الثاني وهو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم فيظهر في كل آية بما يناسبها، وإذا كان السؤال في آية الرجم فلنخصها بالذكر، ولنبد فيها ما يظهر لنا مما تشرح له الصدور :

لقد وردت الآية في عقوبة هذه الفعلة الفاحشة جد الفحش في نفسها، التي تزداد خفشا إذا وقعت ممن لم يكن ليظن به أن يتردى في هاويتها، وبإلوث برجسها، ويفتضح بشناعتها، وهي مع كونها إجراما خبيثا فيها معنى الفحش والعار والتبجح حتى قببح تكرار سيرتها، فهي مما يستحى من تكراره، وهي من الشناعة بحيث ينبغي أن تسلك في مسلك ما يستحيل ولا يكاد يقع، ومما ينبغي أن تنزه الأسماع عن تكرار سماعه والألسنة عن تكرار التلفظ به.

هذا كله في فرض أن يقع ممن ذاق هذا الأمر وعرف قيمته، وأما أصل وقوعه ممن لم يعرفه ولا سبق له غشيانه في حلال، فهو مما لا يكاد يقتلع كلية من الناس، فالزنى إذا فرض خفه ألا يفرض إلا من فتيان لم يتخلصوا من جهالة الشباب، ولم يتذوقوا طعم الزواج، فقد يعذرون فيه فلا يستحقون ذلك الإعدام للزرى، وهو القتل كما تقتل الحشرات الخبيثة، ولكن يؤدبون، فليكن تأديبهم أمرا مانلا أمامهم تتلى عليهم آيته كل حين، أما من بلغ درجة السكال فلا يسع العقل أن يصدر منه

هذا حتى يتعرض لحكمه ، فن الحكمة بعد أن علم أمره أن تنسخ تلاوته ويبقى حكمه معلوماً في الشرع ، ودل على البقاء صنعه صلى الله عليه وسلم مراراً ، وصنع صحابته من بعده .
ومما يشرح الفرق بين الإِجرام والفحش أنك تستبيح لنفسك التحدث الى نبيك وبناتك بأخبار سرقات أو قتل أو نهب ، وتتحاشى أن يصل الى سمعهم أو سمعهم أخبار هتك الأعراس ، أو تعرض الرجال للنساء وتعرض النساء للرجال ؛ وعلى ذلك يكون أصل الفريضة لخطرها تثبت بقرآن يتلى ، كما أشار اليه عمر رضى الله عنه في خطبته السابقة ، وتنزيه الأسماع والألسنة عن تكرار ذكره ، وإدراجه في سلك ما لا يكاد يحصل حتى يتعرض له — مدعاة لنسخ آيته ، وبذلك تتجلى الحكمة البالغة في التشريع بآية قرآنية ثم نسخها مع بقاء حكمها .

وأما حكمة نسخ التلاوة والحكم جميعاً فإنها تعلم بالقياس الى ما ذكرناه والله التوفيق م
ابراهيم الجبالي

الظرف والمُلح

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : أعجب ما في الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فإن سنع له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأُسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسي التحفظ ، وإن أتاه الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء ، وإن جهده بالجوع قعده الضعف ، وإن أفرط في الشبع كظته البطننة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له قاتل .

نقد كتاب حديث الأربعاء

(٥) ثم إننا نثني عنان جريدة السياسة الى بديهية في آداب الصحافة باتباعها لا يسوغ لها نشر ما يفحش به حديث الأربعاء ، فكان اعتذار الشيخ طه عنها حيث يقول : « فنحن نتخير لهذا الشباب من الشعر الدنس أقله من الأثم حظا ، وأنزله من الفجور نصيبا ... » فهل أحمد الله إذ أقر الشيخ طه بما تولى من كبره في نشر الشعر الدنس ؟ وهل ينجيه من إثمه نزر فخره وقلة حظه ؟ أفى الفجر قل وكثر ؟ كلا ، إنما هو كالخمر ، وقدما قيل فيها : « أفسدتك الكأس الأولى » ثم ثنى الاعتذار بما هو أقبح من الذنب فقال : « وهل يحب ساداتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس ؟ » .

نحجج للاستاذ ؛ لقد أتمت جريدة السياسة معلومات قراءها فلم يبق عليها إلا أن تقفهم على فجر بشار وأبي نواس ، أو كأن قراءها الأحرار حبسوا معارفهم على ما تفيض بها أنهارها ، فتعطشوا الآن لبشار وأبي نواس ، أو أن الجامعة المصرية خلطت على جريدة السياسة وصارت هذه فرعا من تلك تنشر محاضراتها بالبريد ، أو كأن لسان الأحرار الدستوريين لا يريقه ما ياتما كه من الأحياء فلم يكف غربه عن الأموات يتولى الأستاذ منهم نشر مقابحهم ، وذكر مخازيهم ، وهتك أسرارهم التي أطبقت دونها صفائح وجندل ، وكفنت معهم في أجداثهم ، فنشرها لا يرقب فيهم إلا ولا ذمة ، وللموتى حرمة وللموت جلال من دونه تلك الأعاذير ، قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه وفي البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا الى ما قدموا » ولأبي داود : « إذا مات صاحبكم فدعوه لا تقعوا فيه » .

(٦) والآن نتقل مع الشيخ طه الى أشد ما تنكره عليه ونلظ له فيه ولا عتب علينا ولا ملام : قال الشيخ المسلم طه حسين في سياسة ٧ جمادى الثانية : « بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتا قاله حسان يهجو به هنداً زوج أبي سفيان ، فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : قل وروح القدس معك » .

في الحديث الصحيح من رواية مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد » الحديث . فاذا سهل علينا قليلا أن يخبط الشيخ طه بقلمه خبط عشواء في العلماء والخلفاء ، فلا يسهل علينا أن نعلم به جرأته الى الحضرة النبوية إلا متحرجا حذرا ، ولا نفقر له تهجمه على المصطفى بنشر كلمة عن ذاته الطاهرة يلتقطها ممن ليس أهلا لقولها ، أو ينقلها عن كتب لم تخصص للحديث وروايته على صحة ، ولذلك ترى صدرى ضيقا حرجا مما جرى به قلم الشيخ طه ، وكان أولى له ثم أولى أن يباعد ولا يقارفه ، فكيف وقد طوعت له نفسه أن يتكر على المصطفى ويذكر بالقلم الذي يكتب به الشعر الدنس — كما يقول — أن أخلاقه وعاداته تمنعه من نشر شيء أعجب به النبي وأعان عليه الروح الأمين ؟ ! الى هذا الحد وصل الأستاذ ؟ !

لقد كنا نظن أن حديث مخرجه من الأزهر وهو في سنن الطائفة أتت عليه السنون وأذهب العلم في الكبر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . . على أنا نعلم بالشيخ الى كتب الأدب لأننا نعلم منه مبلغ علمه في الحديث ، فهذا حديث روح القدس مع حسان مذكور في الأغاني ج ٤ : بصفحات ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ في عدة مواضع ووقائع لم تذكر فيها هند ولا شعر هند ، بل كان معه جبريل في هجاء المشركين الذين آذوا الاسلام وأعانته بسبعين بيتا في مدح النبي وساعده روح القدس في حماية أعراض المسلمين وما كافح عن رسول الله ، وشهد معه صلى الله عليه وسلم فيما قدس به

ربه وشهد لرسله ، ودعاه للحارث بن عوف ، ووهب له الجارية « سيرين » علامة رضاه عنه بعد غضبه عليه فيما كان قد سمع فيه بقومه قريش إذ تاب .

فهذا ما كان من ذكرٍ لرسول الله مع حسان بما يناسب هذا المقام ، أما حكاية هند وهجاء حسان فيها فقد ذكرها أبو الفرج في كتابه ج ١٤ ص ٢٠ وهي قصيدة قالها فيها بعد أن أسمعه سيدنا عمر بعض ما قالته هند في واقعة أحد ، وكانت إذ ذاك مشركة توقد النار على المسلمين ، وفعلت بتلك الواقعة ما لم يفعله أحد حتى جدعت آذان قتلى الصحابة وأنفهم ، واتخذت منهم قلائد ، وبقرت عن بطن حمزة فلاكتها ، وكانت هي والنسوة اللاتي معها يضربن خلف الرجال بالدفوف ، وهند تقول فيما تقول من تحريش المشركين بالمسلمين وتحميتهم عليهم ، ثم كان ما كان ، فهجأها حسان بأحد عشر بيتاً لم يذكر أنه أنشدها رسول الله فأعجب بها وقال لشاعره ما قال الشيخ طه (قل وروح القدس معك) ، وإنما القصة مع عمر ، والقصيدة أقل ما يقال في مشركة كان لها ولزوجها ذلك النصيب الوافر في هزيمة المسلمين يوم أحد ، وليست أخش مما يقع عليه الشيخ طه وينشره إن كان ما يقال في مشرك مستحق لعن فحش .

فهل عند الشيخ طه نبأ صحيح عن حديثه هذا الذي يرويه ؟ على أن الحديث لا يروى من كتب الأدب ، ولا يؤخذ أنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من كتبه التي تخصصت له ، فإن لم يكف الأستاذ هذا فقد أجلبناه مثل ما أجلبت لمهلكها ثمود أن يسند روايته ويخرج حديثه ، وإلا رويناه الحديث الصحيح الذي بلغ مبلغ التواتر ورواه غير واحد في الصحاح والسنن والمسانيد : قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب على معة ، بدأ فليتبوأ مقعده من النار » .

(٧) وبعد هذا كله يصح أن نفكه القراء بما تنادى به الشيخ طه ، فقد زعم أن نقدنا إياه وإنكارنا سوءه سب له وشتم يعرض عنه . ولو قالها غير الشيخ طه

لغفرناها . الشيخ طه الذى تعلق من صغره بأعراض أعلام عصره بغية الوصول الى ما قصده من قبل زميله بشار فى هجاء جرير ، فقال ما لم يباغى الباغى الأول : الآن وقد نقدت بالحق تحس ألم النقد ؟ فكيف غيرك وقد أخذته نقد الحقد وقصد الكيد وهو يستعين بالله من العقرب تلسب النبي والذى ؟ أفتريد أن أقول لك ما تقوله العرب فى هذا « رمتنى بدائها وانسلت » أم أنقل لك ما أنت به أعلم من قول سيد الكنيسة الإفرنسية وغيرها فى الإصحاح السابع من إنجيل متى « لا تدينوا لكيلا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينيك فلا تظن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك ، يا مرأتى أخرج الخشبة أولاً من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك » .

وهبنى جاريته فيما زعمته نجر ما عليك من نقدك وأنت والحمد لله حى يومك وحر تنصف لنفسك ، فاعتذارك أنت وقد تعلققت بالأموال تنبش قبورهم وتنسب السوء لهم ، وطاعتهم حين لا يدفعون ، وتكلمت فيهم من حيث لا ينطقون ، وغرك ما وطأه الموت لك من أكنافهم ، فتهجمت على حرماهم ، لم تحاش عالما ولا خشيت خليفة ، ولو كانوا مثلك اليوم أحياء لكان بينك وبينهم بعد المشركين ، وحال دون قولك فيهم سوط بعذبتين . وقديما مر ابن زيان وهو يومئذ سيد الأحابيش على أبى سفيان بن حرب وهو يضرب فى شدة حمزة عليه السلام بعد قتله يوم أحد ويقول : ذق عقق ، فقال الحليس بن زيان : هذا يا بنى كنانة سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون لحما ! فقال : اكنمها على فإنها كانت زلة . وكنت أنتظر من أستاذنا مثل توبة أبى سفيان وترك فرى الأموات ، ولكنه استغشى ثوبه وأبى واستكبر وما اعتبر . ولو أن الأستاذ طه عمداً الى أبى نواس فشرحه كما شرح من قبل أبا العلاء : لم يقدم له

تلك المقدمات الخاطئات ، وجنب قلمه الحكايات الكاذبات ، ولم ينبش القبور ولم ينشر كواذب الفجور ، لما ظننت أن كاتباً تعرض له فيما سقط فيه ، وإن كنت أرى أن الشيخ يرجع الى حديث معاد ، ويفتح باباً فرغ الناس منه ، فأبو نواس ترجم كثيراً وجمعت أشعاره وأخباره ، فما قيمة أستاذ الجامعة في بحثه هذا بعد هذا والحب منتثر لمسقط الطير بلا عناء ؟ وكانت همته في نظري أبعد من هذا ، ولكنه أنزلها لهواه ، وأعظمه فأطغاه ، إذ ما كنت أظن أن أديب اليونان ، وصهر الفرنسيين ، وأبامرغريت ، وريبب الجامعة المصرية وأستاذها ، ومحبي السربون في أول كلمة قالها - يرضى لنفسه من العلم درجة الدعوى فيه .

والدعوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أديباء

ويقيه في رده تيهان من ضل عنه هاديه ، ولقد بصرت بهزالق أقدامه ومخالب أقدامه ، وأردته على وجهة الصلاح ، وأذنت في أذنه حي على الفلاح فأخلد الى الأرض واتبع هواه ، وكان الظن في حياته أن يأبأه ، فقل ما شئت فأيس على هداك ، ولن أبالي بحديثك نالة ، ولا أردّ عليه بعد اليوم مقالة ، فقد تبين الرشيد من الغي ، وحسينا الله ونعم الوكيل م

محمد سليمان



مولد النبي صلى الله عليه وسلم بي

ورد رياسة الأُزهر الجليلية خطاب من حضرة الاستاذ الشيخ عبد المجيد قرشي من بلدة بتي بلاهور من الهند في الدعوة الى إقامة حفلات عامة لذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من ربيع الاول فأجابته حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بخطاب يحمّد فيه الدعوة ويشكره على هذه المهمة ، وبعث اليه بحجة الخطاب الرسالة الآتية :

إن الاحتفال بالذكريات العظمى وتمجيد أيام النعم الكبرى أقوى أمارات ارتقاء الشعور وحياة الوجدان ، وهو مما يساعد المنعم عليه على أن يعرف للنعمة قدرها ويقوم بواجب شكرها ، وذلك حق محتوم على كل من انتفع بهذه النعمة وجنى ثمرة من ثمارها . ولله على عباده نعم لا يحصيها العد ولا تقف عند حد ، تتفاوت مقاديرها بحسب عموم أثرها وعظم خطرها ودوام النفع بها . وإن من أعظم النعم خطرا ، وأعمها أثرا وأدومها نفعا ، وأجملها وقعا ، رحمة الله التي بسطها على جميع العالمين ليهديهم بها الى سعادة الدارين ، ذلك هو ظهور النور المحمدي ، ومولد صفوة الله من خلقه ، الذي خاطبه جل شأنه بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) فقد جاءت شريعته الغراء كنفيلة بسعادة الحياتين ، وانتفع بها جميع العالمين في الدارين .

أما الانتفاع العاجل في الدنيا فحسبك منه أن تعرف ما كان عليه العالم قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت الدوائتان المهيمنتان على معظم المعمور في الشرق والغرب (فارس والروم) تقسمان العالم اقتسام امتلاك ، فتمفرضان على رعاياهما من صنوف الإذلال

والإرهاق ما جعل الحياة بؤسا والعيش شقاء وجحيمًا ، وطال عهد ذلك بالناس حتى حسبوه من لوازم الحياة ، فنشئوا وكأنهم يعتقدون أن الناس بطبعهم صنفان : صنف خلق للسيادة والعز ، وآخر خلق للعبودية والمذلة ، وترتب على ذلك نفوسهم حتى استكانوا للشقاء وخنعوا للإعنات ، وملاك الطغيان رعوس ساداتهم فأوغلوا في إرهاب العالم وتزاحموا على الأثرة بالسيادات حتى وقع العالم في لجة عميقة من الاضطراب وارتباك الحياة ، فعم البؤس طبقات الناس ، وكانت الحياة جد مريرة ، فلما جاء الاسلام أزال الفوارق الجنسية ، وقرر مبدأ المساواة في أصل الخلقة ، وأن التفاضل بينهم إنما يكون بما يبدو من آثارهم وعظيم الانتفاع بهم في الدين والدنيا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ففتح بذلك باب جديد من أبواب سعادة البشر ، وهو باب (خير الناس أنفعهم للناس) وأكرم الناس عند الله أتقاهم ، فرد طغيان الطاغين ، وكبح جماح الجاحمين ، وعاد التنافس في النفع وتقديم الخير على النوع البشري بأعظم المنافع .

وكذلك كان العلم محتكرا لطائفة من الناس يجبرونه عن غيرهم ، ويقصرون الاعتزاز به على من يختارون ، فكان في دائرة ضيقة خاليا من المنافسة التي تشد العزائم وتزكي الهمم ، فقررا الاسلام إباحة ساحته ، بل أكد في الحث عليه والترغيب فيه ، ووضع قاعدة (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) وقرنها بقاعدة (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وأطلق الفكر من كل عقال ، ما لم يصطدم بإضرار أحد ، أو يطغى على مقام العزة الإلهية ، أو يصطدم بحكم من الأحكام الدينية ، فكان في هذا باب أوسع للسعادة البشرية . وغير خاف ما عاد على العالم أجمع من تقرير هذين المبدأين من عظيم النفع العاجل ، وهما مبدأ انتزاع المفاضلة بالأجاس ونوطها بنفع الناس ، ومبدأ إباحة العلم لكل من هو أهل له .

وأما الانتفاع الآجل في الآخرة فحسبك منه أن جعل سبيله واضحاً، وبابه مفتوحاً سهل التوصيل لأعظم الغايات وهي السعادة الخالدة، وقرن أحكامه بحكم ومصالح ترغب فيها العقول السليمة، وكلما أعرض المرء عن سلوكه بمعصية فتح أمامه باب التوبة مع الترغيب وتأكيده الطلب، فإذا فوت امرؤ بعض هذه المنافع على نفسه فليس ذلك بقادح في عموم الرحمة، فالشمس نعمة ولو على غير المبصرين، وعسى أن ينتفع بشروقها الأعمى بأن يراه المبصر فلا يصطدم به فيؤذيه، فضلاً عما عاد عليه من منافعها الأخرى. فخير بالمسامين في مشارق الأرض ومغاربها يجمع الأمم نظراً لما عاد عليها من سنا نوره مما أضاء لها سبيل الحياة أن تعرف لهذا اليوم السعيد فضله على الإنسانية جميعها. وإنه لما يملأ القلب سرورا والنفوس غبطة أن ترى في الأقطار المصرية لهذا الموسم العظيم موسم المولد النبوي من مظاهر التعظيم والتبجيل ما لا يكاد يدانيه موسم آخر، فترى من عناية حضرة صاحب الجلالة ملك مصر الملك فؤاد الأول والحفاوة بهذا الموسم ما يناسب جلال صاحبه عليه السلام، ويليق بعظيم آثار نعمته على العالم، وتتبعه في ذلك حكومته الرشيدة، وتقتدى به في هذا العمل الجميل الأمة المصرية، فلا يكاد يهل هلال ربيع الأول من كل سنة حتى ترى أعظم ساحة في القاهرة عاصمة الديار المصرية قد غصت بأنخم السراقات، متحلية بأبدع الزينات، متلألئة الأنوار بالثريات الكهربائية والمصابيح المضيئة، وفي وسطها سرادق الملك أعظم سرادق يمتاز بأبهته وجماله، وسرادق الخاصة الملكية لإطعام الطعام على نفقة الجيب الملكي الخاص، ويتبع ذلك سرادقات وزارات الحكومة، ثم سرادقات العطاء وأرباب الطرق الصوفية، وكأن لوامع الأنوار فيها تذكر بطلوع النور الإلهي، نور الرحمة والهداية على العالم الأرضي بمولده صلى الله عليه وسلم.

وليس جمال تلك الأنوار الساطعة ليلاً بأبهج رواء ولا أروع منظراً من هالات الموائد قد صفت عليها أشهى ألوان الأطعمة، تحيط بها دوائر من العفافة، يطعمون مما

يشتهون ، ويتعاقبون عليها ليلاً ونهاراً ، فئة تنصرف وفئة تخلفها حتى يعم الفرح به الغنى والفقير ، فيصرف من ذلك في الصدقات ، وإطعام الفقراء ، وإكرام الضيوف ، وإقامة الزينات ، ومظاهر السرور ، أموال طائلة من الجيب المملوك وخزانة الدولة وإيراد الأوقاف وتبرعات العطاء والأعيان ، فإذا ما وافت الليلة الثانية عشرة منه سارت مواكب أرباب الطرق الصوفية تؤم هذه الساحة الفيحاء ، يستقبلها جلالة الملك بنفسه ، أو أعظم رجل في الدولة بالنيابة عنه ، حفاوة بالموسم وإجلالاً للذكرى .

وفي صبيحة اليوم الثاني عشر يتوجه جلالته أو من ينيبه للمشهد الحسيني حيث تتلى بمسمع منه قصة المولد الشريف بغاية التجلة والتعظيم ، وتجري صورة من هذا في المدن العظمى وسائر البلدان المصرية . وفي هذا اليوم يستريح عمال الدولة في كل مصالح الحكومة أسوة ببقية الأعياد الرسمية ، فترى في ذلك عيداً تشترك فيه الأمة المصرية على بكرة أبيها ، ويكون مهرجانه أنخم مهرجان تشهده البلاد كل عام ، فيشمل الاحتجاج به كل الطوائف من مسلمين وغير مسلمين .

وإن في ذلك لمظهراً للشعور الراق والوجدان الحى ، ومعرفة القدر وأداء واجب الشكر ، ويتبعه من آثار المحبة والوئام وانتشار السكينة والسلام ما يجلب عن الوصف . نسأله جلّت قدرته أن يديم نعمه على بنى الإنسان ، وأن يهديهم إلى ما فيه السعادة الكاملة في جميع الأزمان ، والله المستعان .

الأقاليم الجليدية

في القطب الجنوبي^(١)

يتقدم الانسان يوما بعد يوم نحو كشف أجزاء العالم النائية غير المعمورة، إلا أن هناك في أواسط القارات مساحات واسعة من الأراضي لا يستهان بها ما زالت غير معروفة، فهناك في آسيا الوسطى مثلاً أقاليم لا تقل مساحتها عن مساحة ألمانيا لم تطأها رجل مستعمر بعد، وفي عام ١٩٢٦ اكتشفت في شمال شرق سيبيريا أراضى لا تقل طولاً وعرضاً وارتفاعاً عن مناطق جبال الألب في أواسط أوروبا، إلا أننا وصلنا الآن من حيث الاستكشافات الى درجة تمكننا من معرفة شكل الكرة الأرضية على وجه التقريب، وحتى الأقاليم الجليدية في القطب الشمالى أصبحت معروفة ما عدا بعض أجزاء بحر الجليد وعدد قليل من الجزائر الواقعة به.

أما في الطرف الجنوبي من الكرة الأرضية فتوجد قارة لا يقل اتساعها عن أوروبا ليست معروفة لنا إلا في بعض أجزائها، ولم نتوصل بعد الى استكشاف أكثر من نصف سواحلها.

ونستعرض الآن بعض نقط المقارنة بين هذه الأقاليم الجليدية وقارة أوروبا حتى نستبين اتساع هذه البقاع الجنوبية النائية التي لم يتم استكشافها حتى الآن، ولو أن المقارنة في مثل هذه الحالة تكون في بعض نقطها ناقصة حيث تختلف كل من الناحيتين من حيث الشكل الخارجى اختلافاً بيننا، وعلى ذلك فالفائدة المرجوة من مثل هذه المقارنة لا تزيد عن تعرف المساحات العامة دون التفاصيل الشكلية الدقيقة.

(١) نقلا عن مقال للاستاذ «باشين» في مجلة "Kosmos" الألمانية.

لنفرض الآن وقوع مركز القطب الجنوبي في مدينة «موسكو» حتى يسهل لنا تطبيق مساحات الجهات المستكشفة في الأقاليم الجليدية الجنوبية على القارة الأوربية، فيكون ما قطعه الرحالة «أموندسون» في ٥٥ يوما عام ١٩١١ هو عبارة عن المسافة بين الحدود الروسية الجنوبية عند جزيرة القرم على البحر الأسود وبين مدينة موسكو التي تمثل في هذه الحالة القطب الجنوبي، ويكون ما قطعه «الكابتن سكوت» في ٣٠ يوما عبارة عن المسافة بين مدينة استراخان عند منابع نهر الفولجا ومدينة موسكو حيث عاد كل منهما الى حيث بدأ رحلته عن نفس طريق الذهب، وعلاوة عن هاتين الرحلتين الاستكشافيتين قام ثلاثة آخرون برحلات قصيرة تتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ كيلومتر في قلب المناطق الجليدية الجنوبية التي تمثلها روسيا في هذه الحالة أي لا تزيد عن بعد الشقة التي بين مدينتي موسكو وليننجراد، فتكون معلوماتنا في هذه الحالة عن داخلية البلاد الأوربية محصورة فيما تمكن هؤلاء الرحالة من رؤيته في الرحلات الخمسة التي قاموا بها على الوجه السابق وصفه.

فاذا ما توسعنا في مقارنة المناطق الجليدية الجنوبية بالقارة الأوربية فاننا نجد في هذه الحالة أن معلوماتنا من جهة السواحل الخارجية لا تزيد عن السواحل الجانبية لروسيا وحدودها الآسيوية، والنصف الجنوبي من سواحل بلاد النرويج، وبعض أجزاء سواحل بريطانيا، دون التأكد من شكلها تماما.

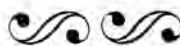
يتضح من ذلك أن معلوماتنا عن الأقاليم الجليدية في القطب الجنوبي لا تزيد عما لو كنا لا نعرف من أوروبا إلا أجزاءها التي ذكرت في المقارنة السابقة، وحتى هذه الأجزاء المعروفة لنا ليست من الواضح بحال تمكننا من الحكم عليها من حيث مواقعها أو شكلها الداخلي أو الخارجي، فلا تزال علاقة بعض أجزاءها ببعض الآخر غامضة كل الغموض حتى إنه ليصعب علينا في أغلب الأحيان معرفة مقدار اتصالها ببعضها ببعض

ككتلة واحدة ، كما يصعب تمييز مواضع انفصال أجزائها عن بعض لكثرة كتل الجليد المتراكمة في كثير من أنحائها . وكثيراً ما يخيّل المستكشفين أن بحرّاً يمتاز هذه القارة القطبية الجنوبية الى مياه جنوب أستراليا ويمثل في هذه الحالة كما لو كان هناك نظير له في أوربا يمتد من بحر الشمال الى البحر الأسود .

فلهذه الشكوك الكثيرة والصعوبات الجمة التي تقوم في وجه كثير من المستكشفين اجتهد الرواد المتأخرون في أن يستخدموا المخترعات الحديثة مثل الطيارات وآلات القياس والمناظير المختلفة الأغراض للتغلب على هذه الصعوبات لإزالة كثير من الغموض الخيم على هذه البقاع الواسعة حتى يسهل استكشافها ولا تعرض حياة الرواد للأخطار .

وقد أدت الطيارات في مساعدة المستكشفين في الفترة الأخيرة خدمة كبيرة ، ولو أن استخدام المناطيد يرجع الى زمن أبعد في استكشاف مناطق القطب الشمالى فاستخدام الطائرات يأتى بفائدة أعظم لسهولة قيادتها في الاتجاهات المختلفة والسرعة الفائقة التي تساعد المستكشف على قطع المسافات السحيقة في أزمان قصيرة ، ولقد أثبتت التجارب التي قام بها بعض رواد القطب الشمالى أن الطائرات أظهرت من الكفاءة في مغالبة المصاعب ما هو جدير بأن يجعلنا نثق بها كل الوثوق في الاستكشافات القادمة ، ولذا فأننا لا نعجب حين نعلم أنه في خريف عام ١٩٢٨ (أى في وقت الربيع على حساب الزمن في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية) قامت رحلتان بالطيارات بقصد الاستكشاف في القطب الجنوبي .

« يتبع »



المسلمون^(١)

في جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة

(روسية)

(ج) قازان (بلاد التتر)

.....

قد عينت حدود بلاد التتر بمقتضى مرسوم ٢٧ مايو سنة ١٩٢٠ ميلادية، وتبلغ مساحة هذه البلاد ٦٦,٠٥٢ كيلو مترا مربعا، وعدد سكانها ٢,٩١٤,٤٣٩ نسمة في سنة ١٩٢٥ يقطن منهم عشرون من المائة (٢٠ ٪) في المدن، ويبلغ عدد المسلمين منهم ١,٢٩٤,١٧٤ نفسا من السنين حنفي المذهب، وأشهر مدنها هي مدينة «قازان» وعدد سكانها ١,٧٤٩,٣٠٧ نفسا في سنة ١٩٢٦، ومدينة «سيمبرسك» (Simbirsk) وعدد سكانها ٦٥٠,٠٠٠ نسمة، ويوجد ببلاد التتر ١,٢١٠,٨٤٥ نفسا من الجاليات الروسية منهم ٣٠٤,٨١ من الشيوعيين المقيدين.

دخول الإسلام — ابتداء دخول الإسلام في بلاد القازان باعتراف الأمير حيدر أمير بولغاريا (بالقرب من سباسك "Spassk" على الضفة الشرقية من نهر الفولجا) للدين الإسلامي، وكان ذا صلات ببيغداد، ولا تزال توجد بعض العملة المضروبة باسم خلفائه: «طالب» في سنة ٩٥٠ و «مؤمن» في سنة ٩٧٦، وإن بلغاريا العظمى الواقعة على الفولجا قد ضمت الى هذه البلاد في سنة ١٢٣٧ بواسطة الفتح المنغولي، وقد منحها أمراء (خانات) التتر كمقاطعة في سنة ١٢٦٦ الى طوقا تيمور بن جوجي

(١) مترجم عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامي.

رأس أسرة تتر قازان وكازيموف وبلاد القرم، وإن تسامح أولئك الأمراء الذي دخلوا في الاسلام حوالى سنة ١٣٢٠ قد ترك دور الاسقفيات المسيحية فلم يهدمها.

وفي سنة ١٤٣٧ أسس أولوغ محمد قيصرية قازان (وقازان معناه قدر أو حلة ، وهى مدينة أنشأها باتو فى القرن الثالث عشر) ، وقد فتحها القيصر ايفان الرابع فى سنة ١٥٥٢ . وقد حاول القيصر أن يدخل بالقوة أصحاب الأملاك العقارية فى الديانة المسيحية ، ولكن بالرغم من مجهودات الأسقف سان — جورى فى سنة ١٥٥٥ فإنه لم يصدع لأوامره ما يبلغ قط ٣ فى المائة (٣٪) منهم ، وفى سنة ١٧٧٧ أقرت القيصرية كاترين الثانية رسميا باستمرار وجود الاسلام فى قازان بأن ألقت هيئة رسمية لاختيار علمائه ، وسميت باسم « مجمع العلماء » فى أوفاء .

وبعد سنة ١٨٦٤ استأنف المنسكى وتلاميذه العمل على تنصير تتر قازان بطريقة منظمة ، وذلك بواسطة إنشاء المدارس — إلا أن ذلك أحدث رد فعل بين المسلمين إذ أخذوا ينشئون المدارس الاسلامية (وسميت باسم « المدارس الأهلية ») فن ١٦٠.٠٠٠ ممن عمدوا فى الديانة المسيحية قد عاد ٥٠.٠٠٠ الى حظيرة الاسلام عندما أعلن دستور سنة ١٩٠٥ ، وإن الاضطهادات السوفيتية قد قربت منذ سنة ١٩١٨ بين مسلمى ومسيحي قازان . والأجناس التى دخلت الاسلام هى : الفنلنديون الأصليون الذين اعتنقوا الاسلام فى القرن الحادى عشر ، وطبقة الحكام من التتر من رؤساء أسر المنغول الذين هاجروا لبلاد قازان فى القرن الرابع عشر .

اللغة — أما لغة البلاد فهى لغة خليط من اللغة التركية التتية والعثمانية ، وقد اتبعت كتابة هذه اللغة من نحو ٢٥ عاما مع إبقاء الحروف المتحركة وهى ال « ا » وال « و » وال « ى » وال « ه » (حرف الهاء معتبر من الحروف المتحركة فى اللغة التركية) ولا سيما الأ حرف الثلاثة الأولى حسب كتاب « الأصول الجديدة » ، وجميع العلماء

يتكلمون العربية ، وأما المستوى الفكرى للذكور والإناث فهو غير عادى ، وكان يوجد ٦٥٦ مدرسة ومكتبا في سنة ١٩٠٠

أما نساء قازان فعلى رأس نهضة التطور النسوى الاسلامى ، حيث كان يوجد فى سنة ١٩٠٠ تلميذة واحدة من اثنتى عشر امرأة تقارية ، بينما لم يكن يوجد سوى تلميذة واحدة من كل خمس وخمسين امرأة روسية ، أى أن نسبة التلميذات التقارية كانت تبلغ أكثر من ٩ فى المائة (٩ / ١٠) من عدد نساء التتر بينما نسبة التلميذات الروسيات لم تبلغ الى نحو ١٠٨ فى المائة (١٠٨ / ١٠) من عدد النساء الروسيات .

ولأثر القازان تأثير كبير على الصحافة العثمانية ، وتحظى صحفهم بعظيم التقدير ، مثل جريدة « يولدوز » . وتلقى الخطبة منذ ابتداء القرن الثامن عشر باسم خليفة آل عثمان ضمينا بالرغم من مراقبة رجال البوليس . والطريقة النقشبندية كثيرة الانتشار بين سكان قازان .

وقد أسس درمند درويش بهاء الدين فيسوف (ابن عويس) أحد رجالهم والذي يدعى أنه الحفيد الثانى والثلاثين لتلك الذى أدخل الأمير حيدر فى الاسلام ، أسس « دارا للصلاة » فى قازان سنة ١٨٦٢ ، وكان يدعو الى الإضراب عن دفع الضرائب ، وهذا ما حمله على أن يتصل بتولستوى ، أما ابنه عنان الدين الذى خلفه فى سنة ١٨٩٣ فقد دافع فى قضية سنة ١٩١٠

الصحافة - أما صحافة قازان فيوجد منها سنة ١٩٢٣ الصحف التالية : « تاتارستان » و « بسنن يراق » و « بسنن يول » و « إلتشنتشى » و « قيزيل شرق ياشلارى » و « معارف » وتطبع باللغة التركية ، وأربع نشرات شبيهة بالرسمية تطبع باللغتين الروسية والتترية .

بلاد بشكير

قد وضعت حدودها بمقتضى مرسوم ١٤ يونيو سنة ١٩٢٠ . وتبلغ مساحتها ١٥٤,٢٧٦ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها يبلغ ٢,٢٧٨,٧٧٨ نسمة في سنة ١٩٢٥ منهم ٧٤٧,٠٠٠ من رجال البشكير المسامين السنيين التابعين لمذهب الخنقية ، و ٤٦٧,٠٠٠ من المستعمرين الروس ، و ١٠٣,٠٠٠ من الأمم الأخرى ، و ٩٥,٠٠٨ من الشيوعيين المقيدين .

المدر - أما مدنها فهي : « أفا » ويبلغ عدد سكانها ٩٨,٥٥٠ نسمة في سنة ١٩٢٦ و « سترليتاماك » وعدد سكانها ٦٠,٠٠٠ ، و « زلاتووست » وعدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نسمة ، ويوجد بها العمال الروسيون من غير المسامين والذين يشتغلون في مصنع الأساحة الذي أسس في سنة ١٩١١

أما دخول الاسلام فيها فقد جاء عن طريق مركز « بولغارى » و « قازان » . وكانوا يطلقون اسم « باسجرت » على أهالى البشكير في القرن الثالث عشر من الميلاد . وبعد سقوط « قازان » في سنة ١٥٥٢ أصبح أهالى البشكير تابعين لأمرأ (خانات) « سيدير » . ولكن منذ سنة ١٥٥٨ أخذ التجار الروس من أهالى « نوفجورود » في الاستيلاء على بلاد البشكير بأن كانوا يبنون شيئاً فشيئاً القلاع بالقرب من المناجم التى اكتشفوها ، إذا اكتشفوا الحديد في سنة ١٦٢٧ ، والذهب في سنة ١٧٧٤ ، والبلاطين (الذهب الأبيض) في سنة ١٨٢٤ ، وقليل منهم من دخل المسيحية ، وكان المستعمرون الروس البالغ عددهم سنة ١٨٩٧ - ٧٨٤,٠٠٠ نسمة هم وحدهم يغشون الكنائس البالغ عددها ٣٤٩ كنيسة .

الأناس التى دخلت في الاسلام - هى : الأهالى الذين هم من أصل فنلندى وصبغوا بالصبغة التركية بواسطة تترقازان ، و «البشكير» و «التبطر» و «المشتشيرياك» . أما اللغة فهى لغة قازان التركية .

مدينة «أوفا» التي أسست في آخر القرن السادس عشر أصبحت في سنة ١٧٧٧ مركزاً لاهيئة المجمع الديني، أُلِّفَ لانتخاب علماء التتر المسلمين بصفة نظامية. وفي نفس مدينة «أوفا» هذه توفي سنة ١٩٢٠ سماحة المفتي الأكبر عليم جان بارودي الذي يعد أكبر ثقة للسلطة الشرعية العليا لجميع مسلمي روسيا. أما مديرية «أوفا» فكان بها في سنة ١٨٩٧ - ١٥٥٥ مسجداً و ٤٠٦٥٦ «ملا» (رجال الدين) و ٦٠٣٢٠ مدرسة.

ويعيش رجال البشكير على تربية المواشي وفلاحة الأراضى، وهم قوم نصف رحل أى أنهم يعيشون عيشة وسطاً بين عيشة الرحل وعيشة المستوطنين، فأهالى الأراضى البائرة يأوون الى بيوت شتوية، وأما أهالى الجبال الذين كانوا جندوا وكونوا فرقا عسكرية خاصة حتى سنة ١٨٧٤ فقد عودوا على عيشة الإقامة والاستيطان.

هذا وقد عقد مؤتمر لمسلمي روسيا بمدينة «أوفا» في سنة ١٩٢٣، وقد وضع الـ ٢٨٠ مندوباً الذين حضروا المؤتمر مبادئ أقرتها حكومة موسكو، منها انتخاب هيئة من العلماء مكونة من خمسة أعضاء ضمنهم امرأة يتجدد انتخابهم كل ثلاث سنوات ورئيسها وهو المفتي تمتد سلطته القضائية على المنطقتين القديمتين السنيتين للشيخوخة، وهما منطقتا «القرم» و «أورنبورج» والى بلاد «أوزبكستان» أما المنطقة الثالثة وهى بلاد القوقاز فقد كانت شيعية. «يتبع»

نثر الدر المكنون

من فضائل اليمين الميمون

تأليف حضرة الأديب الفاضل السيد محمد بن على الأهدلى الحسينى البينى الأزهرى .
تكلم فيه على فضل اليمين وأهله وما جاء من ذلك في السنة الصحيحة، وبسط القول في مناقب بعض التابعين من أهل اليمين، وفي وفود اليمين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبه وبعوثه عليه الصلاة والسلام اليهم، وختم بحمده بالحديث عن فضائل آل البيت، فكان من خير ما كتب في موضوعه. فنشكر حضرة المؤلف على عمله الجليل ونحث الباحثين على اقتنائه.

في الكهرباء الجارية

قد يسأل سائل عن الكهرباء ما هي ، فنقول له : إن سؤاله هذا كثيرا ما يعرض ولا يجد له أبدا جوابا مقنعا ، ذلك لأن الكهرباء لا تتأتى رؤيتها ولا سمعها ولا تعاطيها كغيرها من الأشياء ، ولهذا يتعذر علينا أن نعلم من أمرها ما نعلمه من أمر غيرها ، ولا شك أن أوجز تعريف لها وأيسره هو أنها شكل من أشكال القوة .

وكأنني بك تقول : ما هي القوة ؟ فاعلم أن الشمس إذا طلعت ساطعة كانت أشد حرارة منها إذا طلعت في يوم غائم ، فهذا الأمر الخفي في ضوء الشمس هو القوة ، فإذا أصاب الأرض هذا الضوء استجالت هذه القوة حرارة تدفئها ، وأما في الأيام الغائمة فلا تكون قوة الضوء الواقعة على الأرض مثلها في أيام الصحو ، ولذلك يكون النهار فيها عادة أبرد منه في تلك الأيام .

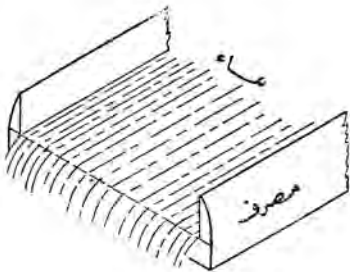
وهذه القوة المنبعثة من الشمس إذا استجالت حرارة كانت سببا في نمو النبات والشجر ، فإذا قطعت شجرة وأوقدت تحت مرجل استجالت القوة المنبعثة من خشبها المحترق حرارة ، وأحالت الحرارة المتولدة من اللهب ماء المرجل بخارا ، وهذا البخار هو شكل آخر من أشكال القوة .

والآلة البخارية أو الدوالب البخارية الحزوني يحيل هذه القوة من بخار إلى قوة آلية يمكن استعمالها في إدارة أى دوالب ، وذلك بتوصيله بالآلة البخارية أو بالدوالب البخارية الحزوني بواسطة السيور والبكرات . والمولد الكهربائي يمكن توصيله بآلة بخارية أو بدوالب بخارية حزوني ، وما ينتجه هذان الدوالبان من القوة الآلية

يستحيل شكلا آخر من أشكال القوة يعرف بالقوة الكهربائية أو بالكهرباء ، ومن أجل ذلك تكون الكهرباء شكلا من أشكال القوة .

فى التيار الكهربائى :

أتدرى اذا أمطرت السماء ماذا يحصل فى الماء الذى يسقط على سطح منزلك ؟ إنه يجرى من وسط السطح الى حافته ، وينصب فى المصارف ويسيل منها فى أنابيب متصلة بها نازلة على جانب البناء ، وتوجه المصارف والأنابيب الى المكان الذى يراد صبه فيه . كذلك يكون جريان الكهرباء الى المكان الذى يراد جريها إليه ، وإنما يستعمل فى ذلك عادة بدلا من مصارف الماء وأنابيبه سلك من النحاس الأحمر ، وجريان الكهرباء فى هذا السلك هو المسمى بالتيار الكهربائى ، فهو يجرى فيه كجرى الماء فى الأنابيب النازلة على جانب المنزل سواء بسواء . على أن الكهرباء ليست سائلا وإن كان المشتغلون بها عملا يقولون عنها كثيرا إنها « عصاره » فتراعى إذا أغلقوا مجرى من مجاريها قالوا أغلقنا مجرى العصاره ، فن أجل فهم جرياتها — وهى مما لا تتأنى رؤيته — لا بد من مقارنتها بشئ يمكن رؤيته أو إدراكه ، ولذلك يتخذ جريان الماء مثلا لجرى التيار الكهربائى .



شكل (١)

مصرف مستعمل لتحديد مقدار جريان الماء

فى الأمابير:

أتدرى ماذا يحدث فى الماء الذى يسقط على قمة الجبل فى حال المطر ؟ إنه يتحد من الجبل الى خندق يكون أسفلهُ ، وليست جميع الخنادق متساوية الأحجام ،

فبعضها صغير وبعضها كبير جدا ، وبعضها يحتوى على وشل من الماء ، وبعضها يكاد يكون ملاء به .

هذا القول يجعلنا نفكر في نسبة الماء الجارى في المجارى المختلفة، على أنها لا تكون نسبة غاية في الضبط، لأن الخندق الكبير قد لا يكون فيه إلا مقدار صغير من الماء في حين أن الصغير قد يكون مملوءاً منه، ويستعمل المهندس في مقاس جريان الماء في خندق أو مجرى تدبيراً كالمرسوم في الشكل (١) ويعبر عن مقدار جريان الماء بعدد من الجالونات^(١) في الدقيقة الواحدة، أو بقدم مكعب من الماء في الثانية الواحدة. وتصدق هذه الحالة نفسها على جريان الكهرباء. على أنه لا بد من استعمال لفظ للتعبير به عن نسبة جريان التيار الكهربائى، وهذا اللفظ هو كلمة « أمبير » فإذا تكلمنا باصطلاح الكهرباء قلنا إن مقدار جريان التيار الكهربائى هو أمبير مثلاً أو أمبيران أو خمسة أمبير أو عشرة أو مائة أو ألف حسب ما يكون المقدار، فإذا جرت خمسة أمبير في سلك وعشرة في سلك آخر، كان ما يجرى في السلك الثانى ضعف ما يجرى في السلك الأول. فإذا رأيت كلمة أمبير فاعلم أن معناها نسبة جريان التيار الكهربائى في السلك، وهى شبيهة بنسبة جريان الماء في الخندق كما تراه مرسوم ما في الشكل (١).

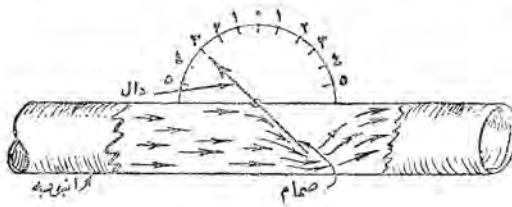
مقاييس نسبة الجريان :

إذا أريد قياس نسبة جريان الماء في أنبوبة فلا بد من وضع شئ فيها يعين هذه النسبة، وهو ما يمكن عمله بالتدبير المبين في الشكل (٢) الذى يصح تسميته مقياس الجريان، وهذا التدبير عبارة عن صفيحة من الحديد تسمى مروحة توضع داخل الأنبوبة وتربط في أعلاها بفصلة، وتكون هذه المروحة من الحجم بحيث تسد فتحة الأنبوبة سدا تاماً، ويثبت فيها عقرب كعقرب الساعة يكون خارجها ليرى وضعها في داخلها، وفي هذا التدبير لولب (غير ظاهر في الرسم) يجعل المروحة تسد فوهة الأنبوبة إذا خلت من جريان الماء فيها، وفي هذه الحالة يقف العقرب على علامة الصفر

(١) الجالونات جمع جالون وهو أحد مقاييس السوائل فى انجلترا. وهو المستعمل الآن فى مصر فى بيع الفاز والبنتن.

فكلما عظم مقدار الماء الذي يجري في الأنبوبة عظم تذبذب المروحة كما تراه في الشكل (٢) وازداد تبعاً لذلك تحرك العقرب مقابل عدد أكبر من درجات مقياس الجريان.

والتدبير المستعمل في مقياس جريان التيار الكهربائي كان يسمى أولاً «أمبير متر»



شكل (٢)

تدبير يرى نسبة جريان الماء خلال أنبوبة

لأنه كان يرى نسبة جريان التيار الكهربائي بالأماير، ولما روى في هذا الاسم (أمبير متر) من الطول اختصر فصار «امتر» وترى مثالا للأمتر في الشكل (٣)

ويربط الأمتر دائماً بكيفية تجعل التيار يمر في المقياس عند أحد طرفيه إلى طرفه الآخر.

في الضغط :

إنك ترى الماء في حال المطر ينحدر على جانب التل إلى حفرة تكون أسفله، وهذا هو شأنه دائماً، وإنما يكون منه ذلك لأن له ثقلاً يميل بالطبقة العليا منه إلى دفع



شكل (٣)

منظر خارجي لمقياس أماير تلطفت شركة الآلات الكهربائية في مدينة وستون بأهدائه إلينا

ما تحته من طريقها، فتقل الماء فوق هذا الذي يميل لكبس الماء التحتي أو دفعه ينتج ضغطاً، وكلما ازداد ارتفاع الماء فوق نقطة ازداد الضغط عليها، وهذا أمر لا شك أن تكون لاحظته إذا كنت حاولت مرة وقف جريان الماء من أنبوبة متصلة بمرجل موضوع في مكان عال، أو من صنوبر ماء، بوضع يدك على فوهة

الأنبوبة أو الصنوبر، ولا بد أنك تذكر انبثاق الماء حول يدك، وأن ضغطه كان

قويا جدا أقوى منه في حال نزوله من قعر مرجل . وهذا يدل على أن الضغط هو الذي يلجئ الماء الى الخروج من أنبوبة مركبة مع غيرها أو مفردة ، وهو الذي ياجئه الى الصعود من موقع المضخة الى الخزان المرتفع عنه ، ثم ينقله الى الأنابيب المدفونة تحت الأرض ومنها الى صنابير بيوتنا .

الضغط الكهربائي :

يجري التيار الكهربائي في السلك أو الموصل على نفس القاعدة التي يجري عليها الماء في الأنبوبة ، فالضغط هو الذي يدفع ذلك التيار الى الجريان في السلك أو الموصل ، غير أنه في هذه الحالة يكون ضغطا كهربائيا لا مائيا ، ويكون مصدره القوارير الكهربائية الجافة ، والقوارير السائلة ، وقوارير التخزين ، والمولدات الكهربائية .

في الفولت :

ليس الضغط الناتج من قارورة جافة أو من قارورة تخزين أو من مولد كهربائي واحدا في جميع الحالات ، فإن المولد الكهربائي يمكن تديره وبناءه على أساس أنه يكاد يولد أي مقدار مطلوب من الضغط ، والكلمة المستعملة للتعبير عن الضغط الكهربائي هي كلمة فولت ، والضغط الذي يتولد من قارورة جافة هو فولت ونصف ، والذي يتولد من مجموعة قوارير تخزين اسيارة هوستة أفلات ، والذي يتولد من التيار الكهربائي المستعمل للاستصباح في بيوتنا هو من ١١٠ الى ١٢٠ فولتا ، والضغط الكهربائي اللازم لخطوط النقل الكبرى أو خطوط القوة الممتدة خلال قطر من مدينة الى أخرى هو ٣٣٠٠٠ أو ٦٦٠٠٠ أو ١٣٢٠٠٠ فولت .

في مقياس الضغط — فولت متر :

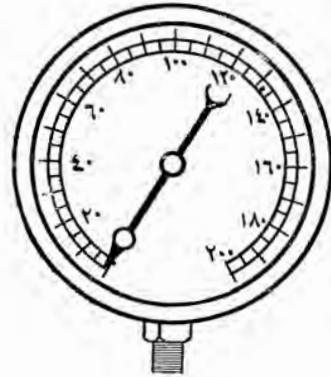
يركب على كل مرجل بخاري مقياس يعرف به مقدار ما فيه من الضغط ، ويمكن الوقاد من معرفة كفاية النار التي تحت المرجل لتحصيل الضغط البخاري اللازم أو عدم كفايتها . وفي أما كن رفع المياه وإدارة المضخات يوجد مقياس ضغط شبيه بالرسوم

في الشكل (٤) متصل بأنبوبة المياه يستطيع به العامل القائم بإدارة المضخة أن يعرف إن كان ثمة ضغط كافٍ لاجاء الماء الى المروور في الأنبوبة . وكل صاحب سيارة لديه مقياس ضغط صغير يستعمله لاختبار ضغط الهواء في الحلقات المطاطية لسيارته . والضغط الكهربائي الذي ياجي التيار الكهربائي الى الجريان في السلك يحدد مقداره بتدوير يسمى الفولتمتر كما في الشكل (٥) وإنما سمي بهذا الاسم لأنه يريك مقدار الضغط .



شكل (٥)

منظر خارجي لمقياس ضغط كهربائي فولتمتر تلطف
شركة الآلات الكهربائية في وستون بأعدها إلينا



شكل (٤)

مقياس ضغط البخار أو الماء

وستلاحظ أن المنظر الخارجي للفولتمتر المرسوم في الشكل (٥) شبيه جدا بمنظر الأمتر المرسوم في الشكل (٣) والواقع أن صناع الآلات يستعملون غالباً وعاء من نوع واحد لكل من الفولتمتر والأمتر ، وتكتب على ناصية المقياس كلمة فولتس أو فولتمتر (Volts، Voltmeter) أو أمبيرس (Amperes) أو أمتر (Ametr) بحروف مطبوعة للدلالة على ما إذا كان معداً لاستعماله مقياس ضغط أو مقياس سرعة جريان . وثمة كلمة أخرى هي أكثر استعمالاً في عرف المشتغلين بالعمل الكهربائي إذا أريد التعبير عن الضغط الكهربائي الملجئ للتيار الى المروور في السلك ، وهي كلمة فولتج (Voltage) ^(١) فهم يعبرون بها عادة بدلا من هذه العبارة الطويلة ، وكذلك القول في الضغط الكهربائي الناتج من أي مولد، فإنه يعبر عنه بتلك الكلمة .

عبد العزيز محمد

(١) فولتج كلمة انجليزية معناها مقدار الضغط بالأفلات .

المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية

تأليف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى وكيل مشيخة الأزهر الجليلة سابقا ، بحث فيه عن نشأة الروح وتعلقها بالأبدان وآثارها الكونية وتصرفاتها البرزخية وفي مقرها بعد الموت ، وفي معنى حياته صلى الله عليه وسلم وحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والشهداء في قبورهم وأنها نوع من الحياة أقوى وأكمل من الحياة الدنيوية ، وجرى فضيلة الأستاذ في دقة البحث والتحقيق وحسن البيان على طريقته المعروفة في غير هذا الكتاب من مؤلفاته القيمة ، وقد تم طبع هذا التأليف في نحو ١٥٨ صفحة . فنشكر لفضيلة الأستاذ عمله الجليل ، ونحث أهل العلم على اقتنائه ، ويطلب الكتاب من مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده .

فلسفة العقوبة

تأليف حضرة الفاضل الاستاذ محمد افندى مهدى علام أستاذ التربية وعلم النفس بدارالعلوم، وفلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالأزهر ، وهو بحث في فلسفة العقوبة قصد به حضرة المؤلف أن يخرج للطلبة والمعلمين والأكباء والأمهات ولغيرهم فكرة عن العقوبة وما يتصل بها ، فبحث أولا في الذنب ، وبدأ بالكلام في الشرور الاخلاقية مفرقا بينها وبين الشرور القانونية ، ثم تكلم في العقوبة ومنشئها وأغراضها والمذاهب المختلفة فيها، والقواعد الأساسية التي يجب أن يحافظ عليها المعاقب ، ثم تكلم في المسؤولية ، ثم انتقل الى العفو، وعقد للعفو في الاسلام فصلا خاصا أبان فيه فضل الاسلام على جميع الشرائع والقوانين ، وختم البحث بالكلام في آراء بعض الفلاسفة في العقوبة ، والكتاب مفيد في موضوعه ، وقد تم طبعه في نحو ١٣٦ صفحة ، ويطلب من المطبعة السلفية ، وثمنه ١٠ قروش .

as were compatible with reason and would inevitably lead to eternal salvation, and was not averse, in case of deviation, to accept the penitence of those who went astray.

And if such are the blessings of Islam and the benign teachings of its Holy Prophet, it is incumbent on all Moslems of all nationalities throughout the world to commemorate the great event of its advent by world-wide celebrations of the Prophet's birthday.

In this connection it is most gratifying to state that Egypt does not lag behind in the celebration of this memorable day.

His Majesty King Fouad I, King of Egypt, sees to it that this day is celebrated with all the pomp and ceremony due to our Holy Prophet.

State and nation enthusiastically acclaim the day and join in the celebration and as soon as the new moon of Rabi-ul-Awal appears in the sky and days ahead of the 12th of that month, preparations on a gigantic scale are made in readiness for the great day.

Huge marquees beautifully decorated and artistically lit up with chandeliers and electric lights, spring up as if by magic, in the most spacious review field of Cairo.

No expense is spared by His Majesty to provide the poor attending the Royal Marquee with the choicest of viands and fruits to which thousands are treated night and day.

Other marquees provided by the State Ministries, the well-to-do and the Sufist chiefs also attract their full quota of the poor. Mohammad was the Prophet of mercy and his day could not be better celebrated than by showing mercy to the poor.

At night, the spacious field ablaze with myriad electric lights of all the rainbow hues virtually turning night into day, presents a most wonderful spectacle to the onlooker. Lights everywhere to commemorate the divine light that was shed by his advent on the world.

On the eve of the 12th Rabi-ul-Awal, endless processions, headed by the sufists, make towards the scene of the celebrations and are received on their arrival by His Majesty the King in person or by the highest dignitary of the State representing him.

On the morning of the 12th, His Majesty or his representative attend the recital of the Birthday-story in the Great Mosque.

The same procedure is followed in all cities and provincial towns of Egypt and government functionaries are given a holiday on this auspicious occasion. Such pomp and grandeur are only witnessed once a year and are not seen on any other occasion when Moslems and non-Moslems of all denominations take part in the great festivities.

Thus are fulfilled the teachings of brotherhood, mercy and peace which Mohammad had proclaimed unto the world.

May the Almighty Allah ever please to shower His bountiful mercies upon mankind and guide them to wherein lies their salvation in this world and the hereafter.

THE PROPHET'S BIRTHDAY.

We are requested by Cadi Abdul Majid Qarshi of Patti, Lahore, India, to join in the world-wide celebration of the Prophet-day fixed to take place on the 12th Rabi-ul-Awal on which day our Holy Prophet was born.

We take much pleasure indeed to voice this desire which we heartily share, on the pages of « Nour-El-Islam » and give hereunder a short account of some of the great and outstanding changes which the advent of the Prophet has wrought on this world.

Islam was ordained from on high to vouchsafe the well-being and salvation of man. Thirteen centuries may well suffice to testify to its potential efficacy for the right and good conduct of human affairs.

The world was contended, long before the advent of Mohammad, by two mighty countries. East and West have long fallen under the ruthless dominion of Persia and Greece. They imposed their will on the subject races and oppression weighed heavy on the hearts of men. Life was rendered unbearable and it was thought, as time dragged its weary days, that such was the common fate of man and that some were born to hold sway while others were doomed to a life of drudgery and privation.

Through the long and protracted years of oppression, men took their sad fate for granted and have, perforce, become reconciled thereto. The master classes on the other hand were rendered, in their struggle for supremacy, more and more despotic as the desire to wield a greater share of authority had become an obsession with them and inevitably resulted in accentuating the sufferings of the people. The world was thus plunged in the most abysmal depths of chaos and misery and life seemed then rather a curse than a blessing.

It fell to the lot of Islam to afford the panacea for this wide-spread evil and put an end to racial prejudices and distinctions. It established once for all the equality and universal brotherhood of man and allowed no other distinction save that merited by spiritual and worldly endeavour.

The world cried out for justice and equality and Islam came to the rescue when it was most needed. It delivered the world from the prevailing oppression and men began to breathe freely once more after the misery and gross iniquity they have long experienced.

Nor was that the only merit of Islam. Learning too had suffered greatly under the despotism that then prevailed. It was hedged in with secrecy and exclusiveness and was made the monopoly of a privileged few. Thus it was divested of the competitive spirit of research requisite for the development and progress of true learning.

Here again, Islam came to the rescue of man. It established the freedom of thought and made it the universal heritage that it should be. It strongly urged to seek knowledge and encouraged research by pointing out, in the Holy Koran, the mysteries of heavens and earth.

Neither was Islam oblivious of the life to come. It ordained such tenets

On rising after being seated he was wont to say : « Praise be to the Lord, all thanks are due unto thee, there is no God worthy of worship but thee, I pray for thy forgiveness and am penitent unto thee ».

He hardly ever said «No» in response to his petitioners. If he was asked to do something to which he took no exception, prompt came his reply « Yea », but if he cared not to do it, he relapsed into silence.

His whole existence was so bound up with the memory of the Lord that he gave mention to His hollowed name on all occasions.

He made place for the weary wayfarer to mount behind him on his steed and ate from off the ground. Nay, he never declined the invitation of the slave.

He used to incline the pitcher for the thirsty cat to drink therefrom; and he so admired a man to wait upon his friends that he praised and prayed for him.

He milked his own ewe and attended to his own personal needs. He used to wake up during the night and stand for hours in worship of the Lord so much so that his feet became swollen on more than one occasion.

The best meal for him was that in which many participated. He never reserved aught to himself of the affluence that came his way and used to say in this connection : « It pleaseth me not have I a mountain (like Ohod) of gold to retain a single Dinar thereof unless it be devoted to the cause of my Faith ».

On one occasion he received several Dinars which he distributed among those present. Six Dinars were left over and he gave them to one of his womenfolk.

That night he lay sleepless in his bed and was restless until he divided those as well among his household « Now my mind is at rest ! » he said.

Suffice it to say in testimony of Mohammad's humility and unworldliness, that when he died his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

During his life time he contented himself with the minimum of necessities as regards food, clothing and habitation and renounced all else though he could have lived in state and luxury should he but desired to do so.

Such was Mohammad the Prophet of Islam, humble in life and humble in death, but withal blessed and exalted by the Lord on high.

He used to inquire of people after those they knew and never failed to praise the good and condemn the evil.

He was pleasant to his companions and kindly disposed towards them. He was never known to be rude or impertinent, nor did he ever speak disparagingly of any one or seek the faults and failings of others.

When he spoke, his companions used to be hushed and hang breathlessly on his words and only when he relapsed into silence did they speak, so weighty indeed was his counsel and so grave were his words.

« Announce ye glad tidings and alienate not the people but make easy the way unto them and constrain them not unto narrow straits », he used to counsel his messengers to do.

He ate but little and is cited to have said in this connection : « A few morsels may well suffice man to sustain his body ». On coming home he used to inquire : « Have ye aught of food ? » and should there be none, which was not an infrequent occurrence, he was wont to say : « I fast this day ».

« Help ye to fulfil the object of him who cannot attain it », says Mohammad « for whoso fulfils his object will the Lord vouchsafe him security on the day of great terror » (judgment day).

On setting out to defend the Faith he prayed the Lord « O Lord, of thee do I seek aid, and in thy hallowed name do I go forth and fight in thy cause ».

On occasions when he was roused to anger while standing, he used to sit down and if he was sitting, he used to assume a reclining position to restrain his feelings thereby.

When he missed one of his companions three days, he inquired after him, should he happened to be absent he prayed for his safe return or at home he visited him or stricken with sickness he rushed to his bed-side.

On bidding anyone farewell, he was wont to take his hand in his and never did he withdraw it until the other withdrew his.

He never turned down the plea of whomsoever solicited his help ; should he was in a position to give it at the time, he never hesitated in doing so straightway but if he lacked the substance whereby to alleviate the straitened circumstances of his petitioner, he promised to come to his aid as soon as such was available.

Unstinted were his bounties; in giving he never had a thought for himself and saved nought for the morrow.

He was the most indulgent, equitable and virtuous of all men. His hand never touched a woman's unless she was his wife or a near kinswoman.

He was most modest and unassuming ; he was serene without being haughty, eloquent without being loquacious and above all most pleasant of mien and completely indifferent to all worldly affairs.

He sat in the company of the poor and shared his food with the needy and wayfarer. The goodly he honoured, and the noble he sought to befriend.

He gave unto his kindred but never did he give them priority over the more deserving ones among others.

He was equanimous of temper; fury never ruffled his serenity. The plea of the penitent he was never loth to accept.

He joked, yet never did he utter but a truth. Neither did he roar with laughter or look disapprovingly upon innocent play.

Nothing ever engaged his attention so much as the worship of God or an indispensable occupation whereby to sustain himself and his own.

He never looked down on the poor for their penury or feared a king for his main and dominion.

He forbore from retribution for anything done save the breaking of the Lord's law; and never did he have the choice of two ways but he chose the easiest of the two unless he feared to commit a sin or alienate his kindred thereby.

He never returned evil for evil but was always prone to pass over the offence and forgive the offender. Love and compassion were characteristic of Mohammad; no one was more concerned than he to seek the interest and welfare of the people.

Voices, were not raised in his presence, he inspired awe and reverence in the hearts of those with whom he came into contact. He was open-handed and his forbearance knew no bounds even on occasions when it was severely taxed.

His manner and tone were sincere and reassuring; he inspired reverence in whomsoever chanced to see him and deep affection in whomsoever knew him.

He was wont to say unto his disciples : « Let no one from among ye bear ill tidings regarding others unto me for I would please come unto ye clear of conscience ».

and that it was published in 1733 A.D. by Anthony Bortelly. In Chapter XLII of this translation a verse is given wherein the qualities of the prophet who will preach a new law and assume great power and authority under the name of Ahmed, were detailed.

This translation is still retained by the Armenians and it could easily be verified by seekers of truth.

So much then for tangible proofs quoted from the Scriptures. Mohamad did not lack such qualities as could only pertain to true prophets. In this connection, it would be fitting to record in the following pages some of his personal traits and actions which will shed light on a phase of his life hitherto neglected by most biographers. The importance of such an account could not be overestimated, for indeed man's personal character provides a clear indication of his true nature and the state of his mind and soul.

It was not accidental that Mohammad was acclaimed the best of men, the most generous and brave. He was most tolerant and suffered patiently the persecution of his enemies.

Lying was most abominable to him; he used to avoid and completely ignore anyone of his own folk who told a lie and it was not until the delinquent showed true penitence that he spoke to him again.

When he gazed up into heaven, he was wont to say : « O Wielder of hearts ! confirm thou my heart in thy obedience ». But knowing as he did of the oscillation and inconsistency of mens' hearts, he used often to reiterate. « Nay ! By Him who wields the hearts of men ».

He was taciturn and laughed on rare occasions. His liberality and kindness have won the hearts of all those around him. He used to inquire of the servant if he was in need of anything and never did he, by word or deed, cause distress to his folk. Unto no one would he break bad news. He gave freely unto the poor, visited them, came to their sick-beds and gave them of his unbounded sympathy and attended their funerals when death claimed a dear one from their midst.

Pleasant of face and amiable was he to the sinner of the deepest dye that mayhap he win him over thereby.

Oftimes The Lord engaged his thoughts. Vain discourse never did he indulge and long indeed did he pray to the Lord.

The widow, the poor and even the slave never sought his help in vain for never did he refrain to give it or disdain to accompany any of them and help accomplish their object.

And in the Book of Psalms, Chapter XLV. 2, 3, 5 and 9 addressing a future prophet :

« Grace is poured into thy lips : therefore God hath blessed thee for ever ».

« Gird thy sword upon thy thigh, O most mighty ».

« Thine arrows are sharp in the heart of the King's enemies; whereby the people fall under thee ».

« King's daughters were among thy honourable women ».

This address could only be meant for Mohammad as Jesus was not the prophet who resorted to force and the sword in defence of religion nor indeed, did any people fall under him. He sought refuge in vain to escape the persecution of the Jews and was made the object of insult and derision and even put to violent death as the Christians allege.

No less significant are the following verses Chapter XV. 7 of the Gospel of St. John :

« Nevertheless I tell you the truth; It is expedient for you that that I go away : for if I go not away, the Paraclete (1) will not come unto you ».

and Chapter XIV. 15, 16 and 29 of St. John :

« If you love me, keep my commandments ».

« And I will pray the Father, and he shall give you another Paraclete that he may abide with you for ever ».

« And now I have told you before it came to pass, that, when it comes to pass, ye might believe ».

The other « Paraclete » in whom Christ bade them believe and who was to abide with them for ever is no other than Moammad for no other prophet came after Jesus, and it is not conceivable that he has not come until now as Christ very often told his advent was near at hand.

It is easy to draw inferences from such saying as : « Abide with you for ever » and « It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete will not come unto you ».

In pages 63 and 64 of his book « Saiful-Muslimeen », Hyder Ali Al-Korashy mentions that the Armenian priests and people have translated the book of Isaiah from the original into the Armenian language in 1666 A.D.

(1) « Comforter » is now substituted for « Paraclete » in the new version of the Gospel.



ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE PROPHET MOHAMMAD ⁽¹⁾

(Continued)

Among other scriptural quotations alluding to the advent of Mohammed, the following from the book of Deuteronomy XXXIII. 2 is significant :

« And he said : « The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them, and shined forth from Mount Paran, and he came with thousands of saints ».

The coming from Sinai implies the assignation of the Law to Moses, the rising up from Seir implies the assignation of the Gospel to Jesus and the shining forth from Mount Paran implies the revelation of the Koran to Mohammad as Paran is a mountain of Mecca.

The following quotation from the Book of Genesis Chapter XXI. 21 in connection with the story of Ishmael fully substantiates this view :

« And he dwelt in the wilderness of Paran : and his mother took him a wife out of the land of Egypt ».

According to the Arabic Translation published in 1844 A.D. Book of Genesis Chapter XVII. 20, a covenant was made with Abraham regarding his son Ishmael that one of his progeny will be followed by a great people. None of Ishmael's descendants became the chieftan of a great people except our Prophet Mohammad.

Again in the Book of Genesis, Chapter XLIX. 10, of the Arabic translation of the Bible published in 1722, 1831 and 1844 A.D., the following verses are significant :

« The sceptre shall not depart from Judah until he cometh who claimeth all and is waited for by the people ».

(1) Translated from the very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's book « Messages of Peace ».

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ نُورَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بَيْتُ الْأَنْبِيَاءِ



مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها هيئة تحرير الأزهر الشريف

تظهر شهرة كل شهر عربي

الجزء الثالث	ربيع الاول سنة ١٣٥١	المجلد الثالث
مدير إدارة المجلة	رئيس التحرير	
عبد المحسن بنز	السيد	
المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى	محمد النخسرين من علماء الأزهر	
الادارة	الاشتراك	
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١	داخل القطر المصري	٤٠
تليفون : ٨٤٣٣٢	للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	خارج القطر المصري	٥٠
	طلبة المعاهد والمدارس	٣٠
يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعلماء معاملة الطلاب		
ومن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه		

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٩٣٢ - ١٣٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشريعة الإسلامية

صالحة لكل زمان ومكان^(١)

المصالح المرادة

من اطمأن قلبه إيماناً بأن الشريعة وحى نزل بها الروح الأمين على أفضل الخليفة لم يرتب في أنها قائمة على حكمة، وأن الخير في الاقتداء بها والوقوف عند حدودها، يقطع بهذا كل من صادفت فيه دلائل النبوة فطرة سليمة أو ألمعية ناقبة، ويزيد المتفقه في الشريعة بعد هذا الاعتقاد الذي اقتضاه أصل الإيمان أنه يرى حق اليقين كيف قامت أصولها وفصلت أحكامها على رعاية المصالح في الحياتين: العاجلة والآجلة، ولم يختلف أهل العلم في أن كل حكم شرعى مربوط بحكمة، وأن الحكمة هي التي دعت الى تقريره، ومرجع هذه الحكم الى المصالح والمفاسد، ومن هذا الأصل الذى دل على أن الله تعالى قد شرع الأحكام على طريقة جلب المصالح ودرء المفاسد، نشأت قاعدة المصالح المرسلة.

لا نزاع في بناء الأحكام على المصالح التي قام الدليل الشرعى على رعايتها، ومثال هذا حفظ العقل الذى دل على رعايته تحريم الخمر وإقامة الحد على شاربها، فاذا عرض

(١) هذا مقال سادس يتصل بخمس مقالات نشرت تحت هذا العنوان في الاجزاء ١، ٢، ٣، ٤، ٥ من

المجتهد مطعوم لا يسمى خيرا ولكنه يفعل بالعقل ما تفعله الخمر لم يتردد في تحريمه أخذاً بالدليل القائم على اعتداد الشارع بمصلحة حفظ العقل وبناءً بعض الأحكام على رعايتها ، وهذا هو أصل القياس في الشريعة ، فإنه مبني على التفقه في بعض الأحكام المنصوصة ومعرفة قصد الشارع فيها الى مصلحة بعينها ، حتى اذا وجدت هذه المصلحة في واقعة أخرى أخذت حكم الواقعة المصرح بها .

ولا نزاع في عدم الاعتداد بالمصالح التي قام الدليل الشرعي على إلغائها ، والشارع الحكيم لا يلغى مصلحة إلا اذا عارضتها مصلحة أرجح منها ، أو استتبعت مفسدة لا يستخف بأمرها ، ومثال هذا الاستسلام للعدو : قد يبدو أن فيه مصلحة حفظ النفوس من القتل ، ولكن الشارع رأى أن هذه المصلحة مغمورة بالمفاسد من كل جانب ، فلم يعتد بها ، وأذن في دفاع العدو نظرا الى مصلحة أرجح منها ، وهي احتفاظ الأمة بالعزة والكرامة ، والتمسك من المسابقة في مضمار الحياة .

ومن هذا الباب تعدد الزوجات : يتبعه من الضرر أن تتألم المرأة من أن تشاركها في صلة الزوجية امرأة أخرى ، ففي ترك التعدد مصلحة هي قطع وسيلة استيلاء الزوجة ، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة مكتفياً بما اشترطه من العدل بين الزوجات ، وأباح التعدد نظرا الى ما قد يترتب عليه من المصالح ، كتكثير النسل ، ومساعدة الرجل على تجنب الحرام الذي قد يقع فيه صاحب الزوجة الواحدة اذا عرض مانع من التمتع بها مثل المرض والنفاس .

ومما يدخل في هذا السلك قصة أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم إذ باشر إحدى نساءه في رمضان ، ثم ندم على ما فعل ، وجمع الفقهاء وسألهم عما يكفر به ، فقال له يحيى بن يحيى الليثي : تكفر بصوم شهرين متتابعين ، فاما خرجوا قال له بعض الفقهاء : لم لم تُفقه بمذهب مالك ، وهو التخيير بين العتق والصيام والإطعام ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يباشر كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود .

وقد أقيمت هذه الفتوى على رعاية مصلحة لم يعتد بها الشارع ، ففي حمل الملك على الصوم مصلحة منعه من اتباع الشهوات ، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة مكتفياً بالنهي عن الإفطار وتأثيم من يرتكبه ، وجعل الكفارة العتق أو الإطعام أو الصيام من غير فرق بين الملك وغيره .

ويبقى النظر في المصالح التي لم يتم دليل معين على رعايتها أو على إلغائها ، وهذه هي التي تسمى المصالح المرسلة ، وقد اعتد بهذه المصالح كثير من الفقهاء ، وبنوا بعض الفتاوى على رعايتها ، والجاري على بعض الألسنة والأقلام أنها أصل من أصول المذهب المالكي ، والواقع أن لها يداً في سائر المذاهب المعول عليها ، وللمالكية القسط الأوفر في استثمارها ، قال ابن دقيق العيد : الذي لاشك فيه أن لملك ترجيحاً على غيره من الفقهاء في هذا النوع ، يليه أحمد بن حنبل ، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره في الجملة ، ولكن لهذين ترجيح في استعماله . وقال البغدادى في « جنة الناظر » : لا تظهر مخالفة الشافعي لملك في المصالح ، فإن مالكا يقول : إن المجتهد إذا استقرأ موارد الشرع ومصادره ، أفضى نظره إلى العلم برعاية المصالح في جزئياته ووكلياته ، وأن لا مصلحة إلا وهي معتبرة في جنسها ، لكنه استثنى من هذه القاعدة كل مصلحة صادمها أصل من أصول الشريعة ، وما حكاه أصحاب الشافعي عن الشافعي لا يعدو هذه المقالة .

ولهذه القاعدة أمثلة مسوقة في كتب الأصول من فتاوى السلف وأقضيتهم ، ومن هذه الأمثلة قضاء الصحابة رضي الله عنهم بتضمين الصانع ، فالرجل ينصب نفسه لصناعة كالخياطة أو الصبغ فيدفع إليه شخص ثوباً ليخيطه أو يصبغه ، فيدعي ضياعه ولم يتم بينة على أنه تلف بغير سبب منه ، فيقضى على الصانع بضمان الثوب أخذاً بقاعدة المصالح المرسلة ، ووجه المصلحة في هذا المثال أن الناس في حاجة شديدة إلى الصانع ، وهم يغيبون بالأمته عن أعين أصحابها ، وليس من شأنهم الاحتياط

في حفظها، فمن المصلحة القضاء بضمانهم حتى لا تضيع أموال كثيرة، وهذا معنى قول على كرم الله وجهه : « لا يصلح الناس إلا ذاك » يعني تضمين الصانع .

ومن أمثلته قتل الجماعة بالواحد ، فإن القصاص الوارد في النص هو قتل النفس بالنفس ، فإذا اشترك جماعة في قتل شخص واحد ، فهي قضية لم يوجد لها دليل معين ، وقد ذهب الامامان : مالك والشافعي الى قتل الجماعة بالواحد ، وهو ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والمستند في هذا قاعدة المصالح المرسلة ، ووجه المصلحة أن عدم أخذ الجماعة بالقصاص يذهب بدم القاتل المعصوم هدرًا ، ويفتح بابا قصد الشارع الى إغلاقه ، وهو باب سفك الدماء البريئة ، فإن الجماعة متى أمنوا من عقوبة القصاص حين يشتركون في القتل ، سهل على أحقادهم أو شهواتهم أن تسوقهم حتى يبدوا أيديهم الى إزهاق الأرواح دفعة ، ففي قتل الجماعة بالواحد مصلحة حياة نفوس كثيرة وحفظها من أن يتواطأ على قتلها جماعات ما لها في احترام الأرواح من خلاق .

ومما أسندوه الى هذه القاعدة أن يتحفز العدو للهجوم على بلاد الاسلام ولم يكن في بيت المال ما يقوم بحاجة الجند المهيأ لقتاله ، فقد قال طائفة من علماء الأندلس : للأمر العادل أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافيًا للجند في الحال ، ووجه المصلحة أن هذا الفرض تقوى به شوكة الدولة وتخلص به البلاد من استيلاء قوم إن ظهروا عليها لا يرقبوا فيها إلا ولا ذمة .

والى هذه القاعدة يستند الامام مالك في إجازته سجن المتهم ، فالسجن عذاب ، والأصل أن لا يعذب أحد لمجرد الدعوى ، ولكن الامام رحمه الله تعالى نظر الى أن في سجن المتهم مصالحة الوصول الى الحق ، وليس ببعيد أن يقصد الشارع الى حفظ هذه المصلحة ، ويغضى عما يلحق المتهم من ألم الاعتقال ، والمراد من المتهم من تقوم حوله قرينة تحمي في نفس الحاكم ، وتؤثر في قلبه شيئًا من الظن .

وليس في الأخذ بالمصالح المرسلة فتح طريق يدخل منه العوام الى التصرف في أحكام الشريعة على ما يلائم آراءهم أو ينافرها — كما ظنه بعض الكتّابين — فإن ما ذكرناه في شرط الأخذ بهذه المصالح من عدم ورود دليل شرعي على رعايتها أو إلغائها يرفعها عن أن تكون في متناول آراء العامة أو أشباه العامة، إذ لا يدري أن هذه المصلحة لم يرد في مراعاتها أو إهمالها دليل شرعي إلا من كان أهلاً للاستنباط، قال الشيخ عمر الفاسي في رسالة له في الوقف: «وأني للمقلد أن يدعي غلبة الظن أن هذه المصلحة فيها تحصيل مقصود الشارع، وأنها لم يرد في الشرع ما يعارضها ولا ما يشهد بإلغائها، مع أنه لا بحث له في الأدلة ولا نظر له فيها، وهل هذا إلا اجترأ على الدين وإقدام على حكم شرعي بغير يقين؟» فليس كل ما يبدو للعقل أنه مصلحة يدخل في قبيل المصالح المرسلة وتبنى عليه الأحكام، وإنما هي المصالح التي يتدبرها من هو أهل لتعرف الأحكام من مآخذها حتى يثق بأنه لم يرد في الشريعة شاهد على مراعاتها أو إلغائها.

ولا يقف في سبيل المصالح المرسلة ما أورده بعض الكتّابين من أنه يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف المواطن والعصور، فإن هذا الاختلاف معدود في محاسن الشريعة، وهو ناحية من النواحي التي روعيت في جعلها الشريعة العامة الباقية، وليس اختلاف الأحكام الناشئ عن مراعاة المصالح المرسلة اختلافاً في أصل الخطاب، وإنما جاء من جهة تطبيق أصل عام دائم هو أن المصلحة التي لم يرد دليل على مراعاتها بخصوصها أو إلغائها، يقضى فيها المجتهد على قدر ما يراه فيها من صلاح، فالأحكام المبنية على رعاية المصالح المرسلة تستند الى أصل تعرفه المجتهدون من موارد الشريعة، فكان الشارع يقول للذين أوتوا العلم: اذا عرض لكم أمر فيه مصلحة ولم تجدوا في الأدلة التي بين أيديكم ما يدل على رعايتها بخصوصها أو إلغائها، فنزول تلك المصلحة بعقولكم الراسخة في فهم المقصود من التشريع، وفصلوا لها حكماً يطابقها.

وقد ادعى بعض أهل العلم من غير المالكية أن الامام مالكا أفتى بانبا على قاعدة المصالح المرسلة يجوز قتل ثلث العامة لمصلحة الثلاثين ، والمالكية ينكرون نسبة هذه الفتوى الى الامام مالك أشد الإنكار ويقولون : إنها لم تنقل في كتبهم البتة ، وإنما تكلموا كما تكلم غيرهم في مسألة العدو يضع أمامه الأسرى المسلمين يتترس بهم في الحرب ، فأفتوا بأنه يجوز دفاع العدو بنحو الرمي متى خيف استئصال الأمة ولو أفضى الدفاع الى قتل أولئك الأسرى من المسلمين .

ونقرأ في ترجمة الشيخ علاء الدين الجمالى أحد فقهاء الحنفية أن السلطان سليماً ثم بقتل جماعة خالفوا أمر السلطان في بيع الحرير ، فدخل عليه الشيخ علاء الدين منكراً عليه قتلهم ، فقال له السلطان : أما يحل قتل ثلث العالم لنظام الباقي ! فقال الشيخ علاء الدين : نعم ، ولكن اذا أدى الحال الى خلل عظيم ، فعفا السلطان عن الجميع .

وقد حقق الباحثون في المصالح المرسلة النظر ، وأجروها في أبواب المعاملات ، وتجنبوا بها أصول العبادات ، لأن المتفقه في علم الشريعة يدرك أن أحكام المعاملات مبنية على رعاية المصالح المدنية التي يتيسر للعقول السليمة متى تلقتها من الشارع ، وغاصت في تدبرها من كل جانب ، أن تقف على أسرارها ، وترى خير الحياة في التمسك بها ، وأما العبادات ففيها ما تستبين حكمته ، ويبسود القصد من مشروعيته واضحا ، ومنها ما لم تقف العقول على حكمته الخاصة ، وحسب العقل في الإيمان بحكمة ما كان من هذا القبيل أنه صادر ممن قام الدليل القاطع على أنه لا يأمر إلا بخير ، ولا يجرى في هذا الإيمان حرجا مادامت العبادات على اختلاف ضروبها بريئة مما تنبذه العقول الراجحة ، والفرق بين ما لا يقف العقل على مصلحته الخاصة ، وما ينبذه لاشتهاله على فساد راجح ، لا يخفى إلا على ذى نظر سقيم .

ولما كثر في العبادات ما تخفى مصلحته الخاصة ، قالوا إن أصلها التعبد ، وقصروا الأمر فيها على ما ورد عن الشارع الحكيم ، ثم إن الشارع حذر من الزيادة على ما قرره

من العبادات ، وسمى ما يخترع بقصد القرية بدعة وضلالة ، والتصرف في العبادات من طريق المصالح المرسلة يفتح باب البدع ويدخل بالناس في ضلال بعيد .
فلا نزاع في بطلان اختراع عبادات ذات أوضاع لم يرد بها كتاب أو سنة ، بدعوى أن فيها مصالح توافق قصد الشارع فيما وضع من العبادات .

وقد يتصرف الفقهاء في أشياء تتصل بأصل العبادة ، وينظرون إليها من ناحية المصالح الملازمة لتلك العبادة ، فيصيبون في الحكم ، ويخطئون ، ومن أمثلة تصرفهم الصحيح أن أذان الجمعة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفين بعده واحدا يقام بباب المسجد ، ومن الواضح الجلي أن القصد من الأذان الإعلام بدخول وقت الصلاة ، ولما كثر الناس واتسع العمران بالمدينة ، أقام عثمان رضي الله عنه أذانا بالزوراء^(١) ، وهذا العمل خارج عن البدعة ، لأنه تصرف في إحدى وسائل العبادة ، لا في أصل العبادة ، ولأن القصد من الأذان واضح وضوحا لا يحوم عليه ريبة ، وهو إعلام المصلين بدخول الوقت ، وفي الأذان بالزوراء إعلام بدخول الوقت على وجه أكمل ، ولم يكن الباعث على زيادة هذا الأذان وهو كثرة الناس واتساع العمران متحققا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال إن الشارع لم يعتد بهذه المصاحبة ، وإنما ليست من نوع المصالح التي توافق قصده من التشريع .

وقد يتسرع الى هذه القاعدة من لا يجيد فهمها ، فيفتى بغير حق أو يقضى بغير عدل ، وقد رأيت السلطان سليما كيف توهم أن في قتل جماعة كثيرة خالفوا أمره في بيع الحرير مصالحة يأذن الشارع بالمحافظة عليها ، وظن بعض القضاة أن هذه القاعدة تبيح له أن يقطع أئمة شاهد زور ، لينعه من الكتابة ، واستشار ابن دقيق العيد في هذه العقوبة فأنكرها أشد الإنكار ، وعدّها من المنكرات العظيمة الوقع في الدين والاسترسال في أذى المسلمين . وخاتمة المقال أن رعاية المصالح المرسلة من أهم القواعد التي تأتي بشعر طيب متى تناولها الراسخ في علوم الشريعة ، البصير بتطبيق أصولها في محمد الحضر مبین

(١) موضع بالمدينة قرب المسجد .

النفس

سورة النور

٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ السَّكَدُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَقَوَّيْتُمْ بِالَّذِينَ أَنْتُمْ فِيهِ لَمَسَّكُمْ مَا أَتَى لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَّكِلَ بِهَذَا سَبْعًا نَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

سبب النزول - كان من عادة صلى الله عليه وسلم اذا خرج الى غزاة أن يقرع بين نسائه فأَيَّهن خرجت عليها القرعة اصطحبها معه في سفره ، فلما أراد الخروج لغزوة بني المصطلق أقرع بينهن فخرجت قرعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما فساфرت معه ، وكان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد نزول آية الحجاب ، فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة نزل منزلا قريبا منها ، ثم أمر بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها ، ثم أقبلت الى رحاها فافتقدت عقدا لها كان في عنقها ، فرجعت تلتمسه حيث كانت فحسبها ابتغاؤه ، وجاء الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن ، والنساء إذ ذاك خفيفات اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت إذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا محيب ، فأمت المنزل الذي كانت به ظانة أنهم سيرجعون اليها حين يفقدونها ، فجلست حتى غلبها النوم .

وكان صفوان بن المعطل السلمي يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسي شيئا فيجمله الى المنزل الآخر ، فلما أقبل عليها عرفها ، وقد كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فأناخ راحلته بجوارها وولّاها ظهره وأخذ يسترجع ، شأن المؤمنين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت على استرجاعه فوجدت الراحلة بجانبها فركبتها ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكيلا يقع بصره عليها حتى وافى القوم وهم نزول في المنزل الآخر ، فربح جماعة فيهم المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول ، فسأل فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الإفك ، وفتن بكلامه نفر من المؤمنين ، فلما قدموا المدينة مرضت عائشة ، ومكثت شهرا لا تدري ما يقول إلا فاكون ، قالت : وما كان يرينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أنى لم أكن أرى منه اللطف الذى اعتدته منه اذا كنت أشتكى ، فكان يدخل فيسلم ويقول : كيف تيكم (وقي إشارة للمؤنث) ثم ينصرف ، فلما نقهت خرجت

مع أم مسطح لبعض شأنهما ، ولم يكن من عادتهم إذ ذاك اتخاذ الكنف في البيوت ، فلما رجعتا عثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ؛ وكان مسطح أحد الخائضين في الإفك ، فقالت لها عائشة : بئس ما قلت أتسمين رجلاً شهيداً ؟ قالت : أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت وما قال ؟ قالت : أما إنك من المحصنات الغافلات ، إنه يقول كيت وكيت ، وأخبرتها بإفكهم ، فعاودها المرض أشد مما كان ، فدخل صلى الله عليه وسلم وسأل عنها كعادته فلستأذنت منه أن تأتي أبويها ، تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لها ، فأتت أمها وسألتها : ما يتحدث الناس ؟ فقالت : يا بنية هو في عليك فقما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقالت : سبحان الله ولقد تحدثت الناس بهذا ؛ وملكها البكاء ليلتها لا يرقأ لها دمع ولا تكتمحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين ويوما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار بعض الصحابة في ذلك فمنهم من قال : والله ما نعرف عن أهلاك إلا خيراً ، ومنهم من قال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فسأل بريرة فقالت : والذي بعثك بالحق ما علمت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عيبي أهلها فتأتي الداجن فتأكله ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد وصعد المنبر وقال فيما خطب : يا معشر المسلمين : من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً — يريد عبد الله بن أبي — فقام سعد بن معاذ وهو سيد الأوس فقال : أبا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا أخرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فرد عليه سعد بن عبادة سيد الخزرج وقد ملكته الحمية وذكري أيامهم الماضية التي أنقذهم الله منها وألف بين قلوبهم ، وللشيطان مسالك ولكن لا يلبث الإيمان أن يتغلب عليها ، ثم تحرش الحيان بعضهما ببعض حتى هما أن يقتتلا ، فنفض

بينهما صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم عليها وهى فى بيت
أبويها فتشهد ثم قال :

أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ،
وإن كنت أملت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد اذا تاب تاب الله عليه .
قالت : فلما قضى صلى الله عليه وسلم مقاتله تقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة .
وذلك شأن البرىء يستشعر بعزة النقاء والبراءة ، ثم قالت لأبيها : أجب عنى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ما أدرى ما أقول . وقالت لأمها كذلك فأجابت
بمثل جواب أبيها ، فقالت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ذلك القول حتى استقر فى نفوسكم ،
ولئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى ، وإن اعترفت لكم
بما يعلم الله أنى بريئة منه لتصدقنى ، والله لا أجدلى ولكم مثلاً إلا قول العبد الصالح
أبى يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، واضطجعت على فراشها ، قالت :
وأنا والله أعلم أن الله سيبيرئى ولكن ما كنت أظن أن سينزل فى شأنى وحياً يتلى ،
ولقد كنت أحقر فى نفسى من هذا ، وإنما كنت أرجو أن يرى صلى الله عليه وسلم
رؤيا فى منامه يبيرئى الله بها ، قالت : فوالله ما قام صلى الله عليه وسلم من مجامسه ولا خرج
أحد من البيت حتى أنزل الله الوحي على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي
من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى اليوم الثانى ، قالت : فوالله
ما فزعت وما باليت علما منى ببراءتى ، وأما أبواى فحسبت أن نفسيهما ستخرج فرقا من
أن ينزل الوحي محققا ما قال الناس ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال :
أبشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله . فقالت أمها : قومى إليه ، فقالت : لا أقوم
ولا أحمد إلا الله الذى برأنى ، فنزلت الآيات العشر (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ
مِّنْكُمْ) وقد كان مسطح قريب أبى بكر : كانت أمه بنت خلة أبى بكر ، وكان أبو بكر

ينفق عليه لفقره خلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، فنزل قوله تعالى : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى) الى قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) فقال أبو بكر : بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي ، وعاد للنفقة عليه .

ولقد سقنا هذه القصة على طولها ليتبين سبب نزول هذه الآيات ، وليتجلى ما فيها من أخلاق كريمة من عائشة وأبويها ، وليظهر أن الذين كانوا يزعمون الإيمان وهم خلو منه إبقاء على أنفسهم ، ما كانوا يألون جهدا في تتبع ما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكانت السياسة الشرعية والحكمة في الدعوة مدعاة للكف عنهم حتى لا يقال إن رسول الله يقتل أصحابه .

المفردات - الإفاك : هو أبلغ الكذب وأبعده عن الصدق ، والعصبة : الجماعة من العشرة الى الأربعين ، وقيل من الأربعة فصاعدا . والخطاب في منكم ولكم جماعة المؤمنين ، وقوله : (لَا تَحْسَبُوهُ) : الحسبان الظن ، ويقال غالبا لظن خلاف الواقع .

والعنى أن تلك الجماعة التي اختلقت ذلك البهتان وأنت به من عند أنفسها ما خرجوا عن أنهم عصبة منسوبة اليكم ومعدودة منكم ، فلا تثر أنفسكم عليهم كل الثوران فالمرء عادة عرضة لأن يصاب من أقربيه ، وأجل شئ به حينئذ أن يغضى بعض الإغضاء ولا يبالغ في الاستقصاء ، والتسلي بهذا المعنى معهود عند العرب كقول الشاعر :

قوى هو قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبني سهمي

وأضافا فيهم عصبة ، والعصبة جماعة قليلة تعصبت وانشمرت على أمر بيتته ورابطت عليه ، وفي ذلك تهوس لشأنه ، إذ ليس التحدث به مستفيضا بنفسه بل بيته قوم محصورون ، فالغرض من هذا الإخبار بدء التسلية لمن أصيبوا بذلك وهم من وجه اليه القذف ومن يتصل به ، أى عائشة وصفوان وأبو بكر وزوجه والمصطفى صلى الله عليه وسلم . وقوله

تعالى بعد ذلك : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) فيه من التسرية عنهم ما يزيل أثر كل حزن ، فكفى بشهادته جل شأنه أنه خير لا شرفيه ، وكيف لا وقد حازت به عائشة رضى الله عنها شهادة يبرأتها يقينا ، وأصبح التصديق يبرأتها وطهارتها جزءا من إيمان كل مؤمن ، ومن شك فيه فقد كفر ، إذ شك في خبر الله عز وجل ، وفيه التوعد لأولئك الذين اختلقوه باستحقاق كل منهم من الله جزاء ما كسب ، فالله القادر القاهر هو الذى تولى عنكم عقوبة من آذاكم ، وخص كبيرهم في هذا بالعذاب العظيم ، وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطالب ظن الخير وعدم المسارعة الى سوء الظن ، والدعوة الى تطهير اللسان وصون الآداب ، والتحرز عن الخوض في كبريات التهم بلا علم ، وتقدير بينات التهمة بحسب فظاعتها حتى لا يتخذ الناس الكيد بالاتهام الكاذب ذريعة للخدش والنكاية بلا حق .

فكل هذا من الخير الذى عاد على المقذوفين ومن اتصل بهم وعلى عامة المؤمنين بسبب هذه الحادثة ، والله فى طي كل مصيبة نعمة ، فسبحان من لا يحمده على المكروه سواء ، إذ فى ضمنه محبوب ورحمة وإن لم يطع على ذلك صاحبها . ولقد ترى من آثار الخير ما بدا من عائشة رضى الله عنها فيما بيناه فى القصة السابقة من استجاعتها قواها وعدم تضععها وقت أن جد الجدل حين عرض صلى الله عليه وسلم مقالته عليها ورجوعها أدبا منها لأبوابها ليحييها ، وتحجيمها عن أن يهجم على البت بأمر لا يتعاق بأنفسهما وإن كان متعلقا بأعز نفس عندهما ، احتراما لاحق ووقفا عند حد العلم .

وما أبعد هذا مما نراه متكررا من اندفاع الناس للدفاع عن ذويهم بغير علم ، واجترائهم على الجلاف فيما لا سبيل لهم الى علمه إلا مجرد حسن الظن أو ميل القلب لمن يدافعون عنه ، ثم قولها رضى الله عنها : لقد سمعتم هذا القول حتى استقر فى نفوسكم ، وهى قاعدة مقرررة أن تكرار القول من شأنه أن يترك كل مرة أثرا فى النفس حتى ينقلب من الإنكار الى الشك الى الظن الى الاستقرار ، ثم إياؤها التكلم بما لا ترى

في نفس مخاطبيها استعدادا كاملا لقبوله ، وردها الأمر الى الله مستعينة بالصبر ، واثقة بمعونته جل شأنه ، فهذا مظهر من الكمال العقلي والخلق لم يكن يتجلى لولا هذه الحادثة ، وإن من أراد أن يستنبط منها من صنوف الخير ليجده وافرا على ما في القصة من مكروه .

وذكر وعيد الأفاكين بعد بيان أنه خير ، لكيلا يبقى في نفوس من لحقهم هذا الأذى شيء من الأثر ، فقد بان خيرهم وانتقم الله لهم ممن آذاهم ، وقوله : (لِكُلِّ أَمْرٍ) أتى باللام في مقام على للإشارة الى أن هذا حق لازم لصاحبه لا مفر من استيفائه ، والتخصيص على أن الجزء لاحق لكل امرئ منهم أشفى للنفس من أن يلحق بجملةهم ، وغير خاف حال من تولى كبره منهم ، والكبر بكسر الكاف وقرئ بضمها مع سكون الباء في كل : هو معظم الشيء ، وقيل كبر الشيء بالكسر بداءته ، وقيل الائم . والذي تولى ذلك هو عبد الله ابن سلول ، وسلول أمه ، وكان رأس المنافقين ، كان يطمع في سيادة قومه فلما جاء الاسلام وأسلم الأنصار ولم يقو على مناهضة هذه القوة العظمى انضوى تحت لوأها قهرا ونفاقا ، وما زال الحقد والنفاق يأكلان قلبه حتى مات ، وكثيرا ما كشف ستر الرياء عن نفسه الخبيثة ، فما كان يروح له فرصة في التأليب على المسلمين أو إيصال الأذى اليهم إلا انتهزها ، وكان ما يخفيه صدره أكبر مما يبدو من فيه ، وعظم عذابه بقدر عظم جريمته .

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) — لولا لاحت على الشيء وتأكيد طلبه وبيان أنه كان ينبغي أن يسارع اليه لوتنبهتهم الى ما فيه من دواعي الأخذ به ، وتلك الدواعي هي أولا — أنه من عمر الإيمان قلبه من رجل أو امرأة وأحسن من نفسه أنها تأبى الوقوع في مثل هذا الفحش ، ينبغي أن يقيس على نفسه من شاركة في وصف إيمانه ، فقد وحد الإيمان بين أنفسهم ، وهذا سر قوله : (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) فكان ما تظن وقوع غيرك

فيه ترى في نفسك أنه قريب الوقوع منك ، فهل أنت أبها المؤمن كذلك ؟ وحقا إن المرء يتخذ نفسه غالبا مقياسا لغيره ، ويحمل ما يصدر منه على حال نفسه ، كما قال الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

واستقرازاللحمية الرشيدة ببيان أن ما توهوا لحوقه بإخوانهم في الدين فقد جروا بذلك الرية بمثله على أنفسهم ، فكأنهم رأوا الإيمان غير كاف في ردع النفوس عن شروها ، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين ، وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه فينبغي أن يغار عليها غيرته على نفسه . وقوله : (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) إرشاد للرد المنتظر ، بأن لا يكتفوا بالظن في أنفسهم ، بل يجب أن يتبعوه برد الفرية على صاحبها ، واسم الإشارة القريب هنا للتحقير ، كأنه يصور بصورة الأمر الذي لا يتشوف إليه ولا تتبعه النفوس استقصاء ، وذلك في القريب المشاهد . وإفك أى كذب مختلق بلا أصل ، وقلب الأمور عن وجهها ، ومفاجأة بالبهتان ، ومبين أى ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج الى شدة تأمل ، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائقة بمقام النبوة أن تصان فرشهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه ، وأنه اذا جاز أن تكفر امرأة نبي كامرأة نوح وامرأة لوط ، فلن يجوز أن تفجر امرأة نبي وهى على فراشه ، فإن الكفر وإن كان أشد جرما من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عارا ، وأشد تنفيرا ، وأوجب للاحتقار في نظر الناس ، والأنبياء مصونون عن أن يلحقهم ما يزرى بمقامهم ، ويهد من كرامتهم ، ثم منبت عائشة رضى الله عنها ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بين في أنها رضى الله عنها أبعد في نظر كل عقل عن أن تحوم حولها الشبهة .

وأيضا فإن صدور هذا الإفك عن قوم عرفوا بالنفاق ولهم سوابق في الكذب والبهتان أماره على أن ما جاءوا به كذب واقتراء ، ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا

في هذا ؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن هذا إفك ما كان ينبغي أن يحل في نفوس المؤمنين محل أن يغيظهم . ولا يعكر على الوجه الأول وهو أن هذا لا يحتمل في مقام الأنبياء كونه صلى الله عليه وسلم اختلفت عاداته في ملاطفتها حال مرضها ، وأنه سألها ذلك السؤال أمام أبيها ، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه السلام بكلام الأفاكين ، وقد قال تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) لأنه تطرق إليه رغبة في أهله ، فقد قال في خطبته : والله ما علمت على أهلي إلا خيرا .

(لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) .

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذي اختلقوه ، وأنه من القذف الذي لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا إذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحتها ، وفي ذلك تأديب وتربية على أن تعطى كل دعوى ما يناسبها من الحجج ، وقد شرح ذلك في آية القذف في العدد الماضي . وقوله : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) تقرير لكذبهم لأنه تعليق ، فالمنعى هم الكاذبون عند الله في هذا ، وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم أو ألا تنخدعوا في قولهم لأنهم لم يأتوا بالشهداء ، فليس هذا من باب عجز المدعى عن الإثبات ، وهو لا يستلزم الكذب ، بل من باب لوم من انخدع بكلامهم في غير مظان الخديعة ، والإشارة إليهم لاستحضارهم بأولئك بصفاتهم التي بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم ، بل انحصار الكذب فيهم ، كما يستفاد من الجملة المعرفة الطرفين المشتملة على ضمير الفصل ، كقولهم : هذا هو القاتل ، أى لا قاتل غيره ، فكأن كذبهم لشدة شناعته قد استأثر باستحقاق اسم الكذب ولا كذب غيره ، ومثله قولهم : هذا هو الرجل ، أى لا رجل سواه ، وكلمة (عند الله) أى في علمه وفي الواقع : فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم ، وعلى هذا يكون الكلام

في مورد القصة بعينه ، وهو قذف أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتكون لولا للتبكيك والتأنيب لا للحض والطالب .

وفي الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم بحيث يشمل هذه القصة وكل ما يماثلها من نوعها ، وإذا تكون لولا لبيان ما يطلب في مثل هذه الحال . وقوله : (فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالْبُحْثِ) الخ : يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطلوبة فهو كاذب عند الله ، أى حكمه في شريعة الله حكم الكاذب يقينا ، فيقام عليه حد الكاذب ، فعنى (عند الله) أى في حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق .
(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

لولا هنا للربط والتعليق ، وهي التي يقال فيها حرف امتناع لوجود ، أى دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة . والفضل : الزيادة في الجود والكرم ، والرحمة : الرأفة ، وكلاهما في الدنيا بإضافة النعم التي منها الإمهال للتوبة والإرشاد لطرق الخير ، وفي الآخرة بقبول توبة التائبين وإثابتهم على امتثال أوامره ، وقيل إن « في الدنيا » يرجع للفضل « والآخرة » يرجع للرحمة ، ولا داعي له . والتعبير بالمس تهويل شأن العذاب وأنه يكتفى في الإزعاج به مسه ، لا تهوين الإصابة به . والإفاضة : الخوض مع الإكثار ، كأنهم زادوا في حديثهم حتى فاض من جوانبهم كما يفيض الماء من إنائه ، ووصف العذاب بالعظم ليكافئ عظم الخطب الذي وقعوا فيه . والخطاب لعموم الخائضين وإن كان فيهم ابن سلول ، فإنه داخل في الفضل والرحمة في الدنيا ، وقد هيئ له في الآخرة ففوتهما على نفسه بإصراره بعد ما تبين الحق ، ويجوز أن يكون الخطاب لعامة المؤمنين على معنى أن هذا الذي وقع فيه من وقع لولا فضل الله ورحمته لكان من موجبات عموم العذاب ، كأنه من الفتن التي لا تختص نتائجها بالذين ظلموا ، وقيل الخطاب للخائضين غير ابن أبي .

وفي الآية نوع آخر من الخير وهو تنبيههم الى نعمة الله عليهم ورحمته التي يجب أن يشكروها ويعرفوا قدرها فلا يغتروا بأمهال عقوبة حتى يأمنوا مكر الله ، وإذا تورطوا في معصية فلا يأسوا من روح الله ، فهذا ما فيه الخير لعامة المؤمنين ، وأما الخير الخاص بالمقذوفين ومن يتصل بهم ، فحسبك منه هذا التنويه العظيم بشأنهم ، إذ كاد سوء عمل أولئك الفاذفين يرد بهم في سوء العذاب لولا فضل الله ورحمته .

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

إذ ظرفية متعلق بمسكم ، وفيها معنى التعليل ، فإن ربط الفعل بوقت حادثة مشعر بأن حصوله بسببها ، أى مس العذاب لتلقى ذلك القول ، والتلقى والتلقف والتلقن متقاربة المعنى ، أى أخذ الشيء بحرص واعتناء — إلا أن فى التلقى معنى الاستقبال له والتهيؤ لأخذه ، وفى التلقف معنى السرعة فى الالتقاط ، وفى التلقن معنى الخدق فى تفهمه واستقصائه . وقوله : (بِأَلْسِنَتِكُمْ) معناه أنهم كانوا حين ملاقاتهم بعضهم بعضا يستثير أحدهم الآخر بسؤاله ما وراءك ؟ فكان يتلقى ذلك القول ويحتذ به بلسانه ، لا أنه مجرد سماع عفوا ، وبهذا يظهر ما فيه من معنى الجرم . وقوله : (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ) معناه أن هذا القول لم يكن له محل فى قلوبكم وأمارات تقرأه فى نفوسكم ، بل هو قول اذا رجعتكم الى أنفسكم لا تجدونه يتجاوز أفواهكم ، فالأحد منكم به من علم ، فالتقريع فيه من جهة الإقدام على ما لا علم فيه ، فهو كقوله تعالى : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) ويجوز أن يكون تشديعا عليهم ، كقولك : تقول هذا بفمك أو بلسانك ، أى تجاهر به ولا تخشى ما فيه من ضرر وخطر ؟ وقوله : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) تنبيه على جرم آخر وهو استهانتهم بما وقعوا فيه ، فالواخذة فيه فى ثلاثة مواضع : تلقى ذلك بالسؤال عنه ، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم ويميلون به أفواههم ، واستهانتهم بما صدر منهم فلا

ينعطفون الى الاستغفار والايقلاع مع عظمتهم عند الله . والخير في ذلك لعامة المؤمنين
التربية والايقاد الى قبح ما وقعوا فيه ، ليتعلموا دقائق الأعمال وما تحتويه من خطر
حتى لا يتردوا في مثلها في المستقبل ، وآثار ذلك واضحة جليلة ألمع الى شيء منها في الآية
التالية ، وهي قوله جل شأنه : (وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) فإن فيها تنبيها على ما كان ينبغي أن يصدر منهم حين
سماعه من التحرز عن التكلم به فضلا عن الإفاضة فيه ، وتلقيه بأسمائهم بحثا عنه وجريا
وراءه . ولولا هنا للبحث المصحوب باللوم ، إذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم ، فإن
دلائله واضحة ، فإن فيه إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ
يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وقد فلام المؤمنين وما عهد
عليها ولا على أحد من بيتهما ما يريب ، وإقداما على ما يضر المقدم عليه بلا احتمال لمنفعة
عاجلة ولا آجلة ، ومثل هذا لا يصح من عاقل فضلا عن ملك الإيمان قلبه ، وافتياتا
بلا علم على ثلم شرف هو أعز على صاحبه من كل شيء ، فكل هذه الوجوه كانت
تؤدي الى أن يقولوا : (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) وهذا من أبلغ طرق التربية
والتعليم المسالك التي يحسن بالمو من ساوكمها . وقوله بعد ذلك : (سُبْحَانَكَ) فيه
أولا تنزيه الحق جل جلاله عن أن يرضى لأكرم الخلق عليه صلى الله عليه وسلم بمحاول
هذه النقيصة بألصق الناس به ، أو أن يرضى عن طغيان أولئك الأفاكين . وقوله :
(هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) أصله من بهته اذا فاجأه بكذب متعلق بلا أصل ولا يخطر على
البال ، فإن المرعى بهذا يبهت ويدهش ، وعظمه لعظم خطره وشدة وزره .

هذا وقد روى أن بعض الصحابة رضى الله عنهم حين سمع هذا قال : ما يكون لنا
أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . فكان في الآية إشارة الى حسن التأسي
ووجوب التفطن لما هو الأعظم قبولا في نظر العقل ، والأشد انطباقا على الأخلاق

الشرعية ، ولا يعكّر على هذا ما بدا على أبي بكر وزوجه من الجزع ، فما كان ذلك لريبة لحقتهما ، وإنما هو التأذي مما أصيبوا به من الكلام البذيء بلا وجه حق ، وقد روى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين ما يقول الناس ؟ فقالت : لو كنت مكان صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءاً ؟ قال : لا ، قالت : ولو كنت مكان عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة خير مني وصفوان خير منك . فقال أبو أيوب : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم .

يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

هذا كالنتيجة للآيات السابقة ، وأن ليس الغرض منها مجرد التقرير والتوبيخ ، وإنما يقصد بها العظة والتعليم حتى لا تقعوا في مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر . وقوله : (أَبَدًا) أي ما دمت أحياء . واقترانه بإن كنتم مؤمنين ، لبيان أن ذلك مقتضى الإيمان وثمرته ، فإذا لم تتعظوا به فإن الإيمان لم يؤت ثمره . وقوله : (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) حث للعقول على التدبر في أحكامه وحكمه ، ليعين ذلك على قبول النفس لها وعظم رغبتها في الامتثال . وتكرار لفظ الجلالة في الآية الكريمة لتمكين ذلك في النفس فضل تمسك ، والعليم : المحيط بكل شيء وما يترتب عليه ، والحكيم : الذي يضع الأمور في نصابها وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ابراهيم الجبالي



ذكر قصص الانبياء في القرآن

قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

يقول تعالى : إنه يقص علينا قصص الأنبياء وما كان منهم وما حصل لهم لنعتبر بما فيها من حكم جليلة ، وفوائد رفيعة ، وتعاليم إلهية ، وإرشادات ربانية ، تنير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة في الدارين ، بحيث تكون للناس نبراسا يستضيئون به في كلتا الحياتين ، وقد قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أي لا يخافون من أمر مستقبل ولا يحزنون على أمر فائت .

فطوبى لمن يتلو القرآن حق تلاوته ، ويتدبر ما فيه حق تدبره ، ولا يهذه ^(١) هذ الشعر أو ينثره نثر الدقل ، فمثل هذا نصيبه منه قليل ، وحظه من معين علمه ضئيل ، وإن للقرآن ظهراً وبطناً ، وقد اغترف من بحاره العلماء كل على قدر ما آتاه الله ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسرار ما ابتهج به علماء الاجتماع ، ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق ، ولا غرو فهو الكتاب الذي لا تخلق جدته ، ولا تنقضي عجائبه (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وهو

(١) الهذ والهناذ بضم الهاء : سرعة القراءة . والدقل : الردىء من الثمر أو النخل الذى لا يعرف له جنس . وأصل هذا ما ورد في حديث ابن مسعود وحذيفة في القراءة (هذا كهذا الشعر ونثر اكنثر الدقل) أى كما يتساقط الرطب اليابس من العنق إذا هز .

الصراط المستقيم الذي ارتفع به سلف الأمة الى أوج العز والفخر ، فكانوا أرفع الأمم على الإطلاق ، وأعزها على الإطلاق ، بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فكانوا يخشون الله ولا يخشون أحدا سواه ، مطهرين من أدناس الدنيا التي تسقط الأمم وتذل الشعوب ، متحايين فيما بينهم على مقتضى ما رسم لهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فما أشبههم بأهل الجنة في الجنة ، نزع ما في صدورهم من غل ، قائلين دائما : (وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) مشفقين من أنفسهم ، عالمين أنها أماراة بالسوء ، ذاكرين قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَسَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) .

وقد أخبرنا عز وجل أن الناس مختلفون جد الاختلاف في فهم القرآن على حسب استعدادهم (والإمداد على قدر الاستعداد) فقال : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَبِهَدًى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) وقال : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) وان من النفوس ما لا تعرف إلا الشر ولا تفهم إلا الشر ، فهي تقاب كل شيء ، كالأبناء الخبيث الذي اتخذ من معدن خبيث ، فإنه يقاب كل ما يوضع فيه من الماء الصافي الى طبعه الخبيث ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .

ولنقص عليك شيئا مما تضمنته قصة آدم عليه السلام مما ستعلم أنه يكفل سعادة الدنيا والآخرة لمن عرفه وتمسك بما فيه ، وكأن الله يشير الى ذلك بقوله : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) لجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم ،

ثم نتلو عليك بعد ذلك بعض ما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من حكم جليلة وأسرار نبيلة ، فنقول وبالله التوفيق :

ما يؤخذ من قصة آدم عليه السلام من الفوائد والاشارات على طريق البجاء :

(١) يؤخذ من إعلامكم أيها العقلاء بتلك القصة وجعل الله إياكم خلفاء في الأرض أن الله تعالى ما عرفكم أنكم خلفاء عنه إلا لتعرفوا ما فيكم من الاستعداد العظيم ، حتى تعملوا بمقتضى تلك الخلافة ، فتهيئوا أنفسكم لهذا المنصب الشريف وتحكموا بالعدل ، فلا تفسدوا في الأرض ، ولا تسفكوا الدماء ، فإن ذلك كان مظنوناً فيكم ، ومتربحاً منكم ، فلا تحققوا ذلك الظن .

(٢) يؤخذ من عرض الله تعالى على الملائكة ما يريد أن يحدّثه في الأرض ، وما كان منهم معه تعالى من المحاوراة والمقاولة أن من الحكمة استخراج ما هو كامن في النفوس حتى لا يكون فيها اعتراض ولا منازعة خفية ، وهو ضرب من سياسة الحاكم مع المحكومين ، وفن من فنون تربيتهم وإصلاحهم .

(٣) يؤخذ من محاوراة آدم عليه السلام مع الملائكة وعرض الأشياء عليهم وسؤالهم عنها سؤالاً يعرفهم أن دعواهم تفوقهم على من عداهم من المخلوقات دعوى غير صحيحة — أنه لا بد من البرهنة على الدعوى ولو كانت من أكبر كبير ، حتى تملك العقول بالحق لا بالاستبداد الذي تبق الشبهة فيه كالنار خلل الرماد : يوشك أن يكون له ضرام .

(٤) يؤخذ من كونه تعالى علم آدم الأسماء كلها ولم يعلمها الملائكة أننا معشر بني آدم مستعدون لما هو أعلى من متناول الملائكة ، ولنعلم أن الملك ليس له إلا وجهة واحدة ، فليس مستعداً إلا لأن يكون مظهرًا لبعض آثار الأسماء الإلهية ، أما الإنسان فهو مستعد لأن يكون مجلى لجميع الآثار وظهور جميع الأسرار ، فهو صالح للمقابلات

ومستعد لجميع المتضادات ، فهو أعلى المظاهر التي تتجلى فيها آثار الأسماء الإلهية ، وأنوار الصنات الربانية ، وما من شيء في هذه العوالم السفلية والعلوية على اختلاف أنواعها واتساع أصنافها إلا وفيك نموذج منه ، ولسان فصيح يعبر عنه . ومما ينسب للامام علي كرم الله تعالى وجهه قوله :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وترغم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولهذا شرح طويل لا يمكننا أن نأتي عليه اليوم .

(٥) نستنبط من قوله تعالى : (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) أنه ينبغي لمن يريد إقامة الحجة على خصمه أن يأتي له بما يفيد اليقين بحيث تمتلئ به نفسه ، حتى يصل الأمر عنده الى حد المحسوس الذي لا مرية فيه .

(٦) يؤخذ من قوله تعالى : (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) أنه يجب الاعتذار لصاحب الحق ، ويتحتم الشكر لصاحب النعمة ، فإنهم ما سجدوا لآدم عليه السلام إلا شكراً لتعليمه إياهم ما لم يعلموا ، واعترافاً بفضلهم عليه . وارتفاع مقامه على مقامهم .

(٧) يؤخذ من قوله تعالى : (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أن الكبر أساس المفاسد كلها ، وموجب لاقتراف ما يستلزم الهلاك الأبدي ، ويفوت أعظم السعادات ، ويوجب أكبر الآفات ، ويجر صاحبه الى رد الحق مهما كان قائله ، ويبين أن الرجوع الى القياس والأنظار العقلية كقول إبليس : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قد يكون سبباً للضلال ، وموجبا لغاية الخبال ، والواجب ترك ذلك مع من يجب طاعته والتسليم له ، وأن ذلك لم ينشأ إلا من عدم الاعتراف لله تعالى بالحكمة والعظمة وسعة العلم ، فضلا عن كونه قادحا في المحبة التي تقتضي الإذعان وعدم السؤال .

(٨) ويؤخذ من قوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) أن فيك غريزة من الحرص لا تدع شيئاً إلا أتت عليه، فإما أن تنسيك أو تطغيك، مع بيان أن الشيطان لا يتمكن منك إلا بواسطتها، فيتحتم عليك ملاحظتها، وتقويم اعوجاجها، والاحتراس منها.

(٩) يؤخذ من محاوراة الشيطان لآدم وحواء واحتياله عليهما بقوله: (مَا نَهَا كُماً رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) ولم يكفه ذلك القول حتى أقسم لهما عليه إنه لمن الناصحين، يؤخذ من ذلك كله أن لكم عدوا لا يألو جهدا في الكيد لكم، والاحتيال عليكم، حتى تهلكوا كما هلك، وقد أقسم ليغوينكم أجمعين، وليأتينكم من بين أيديكم ومن خلفكم، وعن أيمانكم وعن شمائلكم (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ولذلك كله ختم الله كتابه العزيز بالاستعانة من ذلك العدو المبين، الذي يؤثر فيك من حيث لا تشعر، ويأتيك من حيث لا تعلم، ويعرف موضع الضعف منك، فأمرك أن تستعين بربك الملك العظيم، والاله الذي هو فوق الملوك، من شر ذلك الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس، فإن من وقى شره فقد وقى الشر كله ونال الخير كله.

ولعل نفسك التي بين جنبيك أول من يدخل في الوسوس من الناس، أو هي المرادة منهم، فإنها أعدى أعدائك، وما أرسل الأنبياء جميعا إلا لتخليص الناس من شر النفس والشيطان، فهذا هو الغاية القصوى من جميع الشرائع، والغرض الأسمى من كل ما جاء به الأنبياء، فالخلاص منهما هو السعادة الكبرى لمن فاز به في الدنيا والآخرة،

فكانه تعالى أرشدك في آخر كتابه الى فذلـكة ما في القرآن كله ، وخلاصة ما تضمنته آياته ، فهو النتيجة المختصرة ، والغاية التي ليس وراءها غاية ، وهو الحقيقة التي ترمي اليها جميع العلوم ، والزبدة التي تمخضت عنها جميع الفهوم ، فهي نتيجة تغنيك عما امتلأت به كتب الأولين والآخرين من علم العلماء وحكمة الحكماء .

هذا ولعله يرشدك الى أن المراد من الناس قبل كل شيء ، هو نفسك التي بين جنبيك ، أو أنها تدخل في الناس دخولا أوليا . إن الوسوسة تعتمد الخفاء ، وليس أخفى من وسوسة النفوس في الصدور ، أما تأثير شياطين الانس فلا ننكره ، ولكنه بعيد عن معنى الوسوسة بعدا مّا ، وإن كان مما يصل الى القلوب في لطف وخفاء ، وقد جرت المناسبة لهذا ، ولعله مفيد في الموضوع أو غير بعيد منه .

(١٠) بيان أن من اقترف ذنبا فله طريق الى الخلاص منه بالتوبة ، والارشاد الى ما تداوون به أنفسكم مما عسى أن يكون منكم بمقتضى تلك الغريزة ، وأن الحكمة في أن تتداركوا الخطأ الذي ربما وقعتم فيه بموجب الجبلة البشرية ، لا في أن تستسلموا لليأس من روح الله ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون .

(١١) بيان أن الانتباه بعد الخطأ واليقظة بعد الغفلة ربما كان سببا في بلوغ الدرجات العلا والترقي الباهر ، فإن آدم بعد ما كان منه أدام الملاحظة لجلال ربه والاحتراس من عدوه ، ومراقبته نفسه ، بعد ما عرف أن هناك عقوبات مقررة وسننا لا تتبدل ، عرف بها من كمال الإلهية وجلالها وحكمتها وعظمتها ما لم يكن يعلمه قبل ، شأن من تربى في النعمة التي لا يتأتى أن تكون معها المعرفة الصحيحة ، ولا الرجولة التامة ، ولا الصبر والثبات ، ولا التطلع الى السكال ، ولا معرفة وجه المخرج من المضايق فالتجربة والمحنة والبليّة أكبر المعاميل وأعظم المؤدبين ، ومن لم تهذب نيران الامتحان لا يثبت أمام حوادث الحداث ، بل يندرج في سلك النساء والصبيان .

(١٢) بيان أن السعادة والفوز والفلاح والأمن من الخوف ليس له إلا طريق واحد (فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) واتباع الناس والنفس يضل عن سبيل الله، فإن الانسان ظلوم جهول (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَيُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فإنهم إنما يتبعون الظن، والأنبيا أعلم، والله أرحم وأحكم (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).

(١٣) ويؤخذ من القصة بعد ذلك أن من السنن الإلهية الامتحان، وهو ضرب من ضروب الترقية، وفيه أيضا إزالة طغيان النفس التي ترجع بصاحبها الى غاية النقص بعد غاية الكمال.

وبعد فلتعلم أن الأخلق الذميمة كلها ترجع الى الكبر، والحسد، والحرص، وسنفصل ذلك، وهذه الثلاثة التي هي جماع الشرور، وأصول المفسد، ومثار الشقاء والبلاء، مأخوذة من هذه القصة (قصة آدم عليه السلام) فكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْررها عليك المرة بعد المرة تجريرالك من هذه الخصال الذميمة، وتذكيرا إياك بما ينشأ عنها. أما الحرص الداخلى فى تكوينك، الآخذ بجماع قلبك، وهو فى أصل جيباتك وعنصر من عناصر طبيعتك، فقد نهيك عليه كى تحذره حذر كالأفاعى بما قص عليك من كونه أباح لآدم الجنة كلها إلا شجرة واحدة، فأبى عليه حرصه الغريزى وتكوينه البشرى أن يدعها ويستغنى عنها بكل ما عداها. وأما الكبر والحسد وما ترتب عليهما من الطرد الأبدى واللعن السرمدى لا إبليس، فقد بينهما بما قص علينا من قول إبليس: (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْت عَلَىٰ لَيْثٍ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَخْتَبِكَ نَذِيرَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا) وقوله: (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) الى آخر ما جاء فى القصة مما يبين حسده البالغ، وكبره الذى رده به أمر الله وطعن فى حكمته، فأصبح من الكافرين، واستوجب اللعنة الى يوم الدين.

ويلتحق بذلك ما ذكره الله في قصة ابني آدم الذين قتل أحدهما الآخر إجابة لداعي الحسد، وامتنالا لغريزة الحرص الذين هما سبب كل بلاء، وأساس كل شقاء. ولنفصل لك ما يتفرع عن تلك الخصال الثلاث من شعبها الكثيرة التي أتت على سعادة الدنيا والآخرة، ولولاها لكان الناس في سرور وحبور في هذه الحياة وتلك الحياة، ولعلك لا تستطيل القول فنقول: إن الأخلاق الرديئة جميعها ترجع الى ثلاثة أصول: الكبر، والحرص، والحسد، فهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصي. وبيان ذلك أن الكبر من آثاره التي تنشأ عنه عجب المرء برأى نفسه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، والتعدي على الغير، والظلم والجور عند القدرة، وترك الإنصاف في المعاملة، والتهاون في الواجبات، والإعراض عن أداء الحقوق، والقحة وصلابة الوجه في دفع الحق، والفحش والسفاهة في الخطاب، والجدال والهجاج في الخصومات، والنزق في العشرة، والحدة والبطش في التصرف، واحتقار الناس والاستطالة عليهم، والافتخار بما يزعمه من المواهب، والإنكار لفضل من فضل عليه، والبغى والعدوان وما شابه ذلك. هذه فروع الكبر ولوازمه.

أما الحرص وهو الخصلة الثانية، فمن آثاره التي تترتب عليه الطمع الكاذب، وشدة الرغبة، والطلب الحثيث، والعجلة في السعي، وتعب البدن، وعناء النفس، وكد الروح في الجمع والادخار، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخل والمنع والشح، والغش والمكر في المعاملة، واللؤم، وما يتبعها من الشؤم والخذلان، وقلة الانتفاع بالموجود، والحرمان من المدخر، والمضايقة في المعاملة، والمناقشة في الحساب، وسوء الظن بالأمين، والتهمة للثقات المؤمنين، والخيانة في الأمانة، وطلب الحرام، وهتك الحرم، وارتكاب الفحشاء، والكذب، وكثرة الحيل في البيع والشراء، وقلة النصيحة، واليمين الكاذبة، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات، والعداوة الناشئة

من التعدى فى الحدود ، وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأعمال السيئة . هذه فروع الحرص ونتائجها .

أما الخصلة الثالثة وهى الحسد، فمن آثاره الحقد والغل والدغل، وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة والبغضاء، والبغى والغضب، والتعدى والعدوان، وقساوة القلب وقلة الرحمة، والفظاظة والغاظة، والطعن واللغو والفحشاء . وطالما كانت هذه الخصال سببا للخصومة والنشر والحرب والقتال إن أمكن جهرا، وإلا كان بالحيل والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء وتشيتت الشمل وقطيعة الرحم والبعد من الإخوان، ومفارقة الأليف، وخراب الديار، ووحشة الوحدة، والحزن والغم، وألم القلب وهوم النفس وعذاب الأرواح، وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من ذلك كله .

وبعد فنقول : ذكر علماء الأخلاق أن القوى التى هى منشأ الخير والشر ثلاثة، وهى القوة الغضبية ، والقوة الشهوية ، والقوة العقلية ، فأشير الى القوة الغضبية بما كان من إبليس ، والى القوة الشهوية بما كان من آدم فى قربان الشجرة ، والى القوة العقلية بما كان من رجوعه الى الله وتوبته ، الى آخر ما أوجب له الاصطفاء والارتقاء ، ويلتحق بذلك تعليمه الأسماء كلها .

أليس من أعجب العجب أن تشتمل هذه القصة على علم الأخلاق بحذافيره ؟ إذ هو راجع بكل فروعه الى هذه القوى الثلاثة كما هو معروف . ولتقتصر اليوم

على هذا

بوسف المرموى

من هيئة كبار العلماء

الذكريات الإسلامية

في الهجرة والمولد النبويين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وصلى الله على من أرسله بالحق مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، محمد النبي الأمي العربي الهاشمي وآله وصحبه وجنده وحزبه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فإن الاحتفال بالذكريات العظمى ، وتكرار ذكرها ، وتمجيد النعم الكبرى معين على أداء واجب شكرها ، وبرهان على أن المنعم عليه يقدرها حق قدرها . وإنك لتلمح في الشرع الشريف طرفا من هذا ، فقد ترى في مجي العيدين العظيمين : عيد الفطر وعيد الأضحى في وقتها أن كلا منهما جعل موعده عقب نعمة كبرى من الله بها على عباده ، فقد جاء عيد الفطر عقب شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وكان عيد الأضحى عقب يوم عرفة الذي نزل فيه قوله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَارَضْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) وناهيك بهما من نعمتين لا يححد فضلها ولا يحقر شأنهما إلا من كتب عليه الحرمان من رحمة الرحمن ، وهما نعمة إنزال القرآن ونعمة إكمال الدين ،

وترى أن حكمة تخصيص يوم عاشوراء بمزيد تأكيد لطلب الطاعات النافلة كالصوم وصلة الرحم، والعطف على اليتامى والفقراء، وأمثال ذلك، قد تجلت فيما ورد من أنه يوم نجي الله فيه موسى من فرعون وقومه، وأخرج فيه يونس من بطن الحوت، ودرست فيه سفينة نوح على الجودي، وأمثال ذلك من النعم التي أنعم الله بها على أنبيائه وأصفياه، ونعمته عليهم نعمة على جميع الخلائق الذين أرسل الرسل رحمة بهم، وهدى لهم، ونعمة على كل من يغار على الحق ويعنى بنصرته.

وإن من أكبر النعم التي أفاضها الله على الأمة الإسلامية بل على جميع البرية نعمة تخليص نور الحق من ضغط ظلمات الشرك، فقد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم بين قوم شديدي الشكيمة قوين المراس، تمكنت منهم الحمية حمية الجاهلية حتى أنستهم مصالحهم، وأعمتهم عما فيه سعادتهم، فلم يبصروا ذاك النور المتلألئ بين أعينهم، ولم يسمعوا صيحات التبشير والإنذار تنبههم وترشدهم، فزالوا يغمضون أعينهم على القذى، ويصرفون عقولهم عن الهدى، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذر أن يسمعوا ما يغلبهم على تصميمهم، ويصدون عن سبيل الله من أمن، ويؤذون الرسول والمؤمنين بلا ذنب سوى أنهم يحرسون على حياتهم حياة سعيدة، وما زالوا يعتدون بقوتهم، ويصولون بعزتهم وغلبتهم، ويتنبعون حركات كل من آمن أو مال إلى الإيمان فيحولون بينه وبين الإيمان بمختلف الوسائل: بإرهاب المستضعفين، وتأنيب ذوى الخطر، واستعطاف من له صولة، حتى قطعوا الطريق على السالكين، وكادوا يمتنعون رحمة الله أن تصل إلى عباد الله.

ولقد مكث عليه الصلاة والسلام معهم عشرة أعوام أو يزيد يدعوهم إلى الإيمان برهم، وهو معروف بينهم طول عمره بالصدق والأمانة حتى سموه الأمين، وهم له كارهون يكيّدون ويصدون، حتى ضاقت بالمؤمنين أرضهم، وسمّوا هذه الحياة

المضطربة ، والعشرة المشاكسة ، فأذن الله لنبيه أن يهاجر هو وأصحابه من هذه الديار ، وهي أحب بقاع الأرض اليهم لأنها تجمع الأماكن المقدسة ، ومقر بيت الله ومفخرة قريش ، وأثر إبراهيم وإسماعيل ، ومنبت نسلهم الأول ، ففرجت عنهم الضائقة ، وخرجوا لا يلوون على شيء مما يحبون ، يفرون منها بدينهم ، فالؤمن يجب أن يكون مؤمنا قبل كل شيء ، لا أن يكون متمسكا بأرض اتفق له أن وجد عليها قبل كل شيء ، فأرض الله واسعة فضاها ، وكما يقولون : أرض بأرض وجيران بجيران ، أما الدين فلا بديل له ، ولا عوض عن سعادة الحياتين ، فمن خسر دينه فقد خسر سعادة الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

أذن الله لنبيه وللمؤمنين أن يهاجروا من مكة الى المدينة ، فهاجر اليها فريق من المؤمنين أولاً بأمره صلى الله عليه وسلم ، وهاجر بعد ذلك عليه السلام هو وأبو بكر ، وقد تكفلت كتب السيرة النبوية بتفصيل ما وقع في هذه الهجرة وفي هجرة الصحابة قبل ذلك الى أرض الحبشة بما فيه المقنع ولم نرده من كلمتنا هذه .

وإنما الذي نعى به في هذه الكلمة هو بيان ما ترتب على هذه الهجرة مما كان نصرة للحق وسعادة للمؤمنين ، بل رحمة لجميع العالمين ، ذلك هو انجلاء هذه الشمس الساطعة وانكشاف غيوم تلك الأضاليل والأباطيل عنها من تسلط قوم بلغ بهم الحق والجناية على أنفسهم وعلى الناس أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فكان تجلى هذا الضياء وسطوعه على كافة الخلائق وذهاب الحجب التي كانت تحول بينه وبين الوصول لمن ينتفع به رحمة على الناس أجمعين ، كيف لا وقد قال جل شأنه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ولا يمنع أنها رحمة للناس أجمعين تفويت فريق من الناس على أنفسهم الانتفاع بها عنادا واستكبارا ، أو جهلا وغباوة ، فشروق الشمس رحمة للجميع وإن أغمض بعض

الناس عينيه فلم ينتفع بضوئها أو كان به غشاوة، وسكينة الليل رحمة للجميع وإن قضاء بعضهم في العريضة حتى أتلف صحته، ونزول المطر رحمة للجميع وإن قاطعه أناس وأبوا أن يستقوا من مائه.

على أن هذه الرحمة قد شمل الانتفاع بها ولو من بعض الوجود جماهير سكان الكرة الأرضية حتى من لم يؤمن، فقد أبادت أحكامها وتعاليمها عوائد ممقوتة مرذولة كان الناس قد خضعوا لها واستكانوا تحت نيرها حينما من الدهر لا يفكرون في التخلص منها ولا يعملون على إنقاذ نفوسهم من مقتها. جاء الاسلام فنبه النوع الانساني الى منزلته في الوجود، وأنه لا ينبغي أن يكون خاضعا إلا للسيد الأعلى، وألا يستعظم إلا ربه، فغرس في نفوس الخلائق معنى (الله أكبر) فكان بذلك قاضيا على ما استفاض بين الأمم والشعوب من خضوع فريق لفريق، واستعباد ناس لناس، واستبداد إرادة بإرادة، دون مبرر لكل ذلك سوى الزعم الباطل بأن بعضهم أرقى عنصرا وأكرم أصلا من بعض، وأحق أن يطاعوا في كل ما يشاءون، وأن البقية يجب عليهم الخنوع والذلة والطاعة لأنهم لا يصح لهم أن يتساموا الى مراتب ساداتهم، فجاء الاسلام بتبدأ (الله أكبر) فغرس في النفوس أنه لا كبير إلا وفوقه أكبر منه، وأن هناك من هو أكبر من كل كبير، ومهيمن على الصغير والكبير، ولا تفاوت بين الناس يوجب هذا التقديم والتأخير، فالتناس لأدم، وأدم من تراب، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالأعمال الصالحة، والآثار النافعة، وما يكون منهم من عمل يقربهم الى ربهم، وذلك تهذيب نفوسهم، وتمجيد خالقهم، والعطف على سائر الناس، وإيصال النفع للخلائق، وأمثال ذلك من أسباب التقوى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) فسرت هذه الروح في الأمم والشعوب، فتنبه الانسان الى حقوقه في مشارق الأرض ومغاربها، فبعد أن

كان الجزء المعروف من الأرض يتقاسمه دولتان هما فارس والروم ، فتنشز كل منهما في أرضها من صنوف الإرهاق والظلم ما عود الناس الاستكانة والذلة ، نفخت هذه الروح روح المساواة في الإنسان ، فتراجع الأقوياء وساموا بهذا المبدأ الحق ، فانتفع بذلك كل الناس ولو لم يدينوا بالذين الحنيف دين الاسلام .

فترون من هذا أن يُمن هذا الدين قد لحق حتى الكافرين ، فحق على الجميع لو أنصفوا وقدروا ما أصابهم من خير أن يشتركوا في تمجيد هذه الذكري أجمعين .

إن ذكر الهجرة وأسبابها ، والوقائع التي حصلت فيها ، والنتائج التي ترتبت عليها أمر قد استفاضت به كتب السير والتاريخ ، وقد سمع مرارا وتكرارا ، فلم أركب داع للتحديث فيه ، وإنما أشير إلى أمر واحد ، وهو أن المسلمين في زمن عمر رضى الله عنه لما رأوا أن بعض الكتب يحى متقدما وبعضها يحى متأخرا ، وأن الحوادث تتوالى وتكون مذكورة بترتيبها في ذهنهم إبان حدوثها فإذا مضى عليها طويل وقت ضاعت معالم ترتيبها ، وجدوا أنفسهم بحاجة شديدة إلى وضع تاريخ يضبط لهم زمان الحوادث والكتب ، فتشاوروا بينهم في أمر يجعلونه مبدأ للتاريخ وتعرف أوقات الحوادث بنسبتها إليه ، فذكروا جملة حوادث عظمى كوله صلى الله عليه وسلم ، وبعثته ، والبدء بالدعوة والجهر بها ، والإسراء به صلى الله عليه وسلم ، ووفاته ، وذكروا فيما ذكروا هجرته عليه السلام إلى المدينة ، فنظروا وإذا بها مبدأ انهزام الباطل أمام الحق ، وارتفاع كلمة الله ، وأول عهدهم باعتزاز الاسلام ، وتبوءه المقعد المرجو له والجدير به ، نظروا وإذا بهم قد أصبحوا يدعون عباد الله إلى دينه جهارا ، لا يخشون معارضة ولا استنكارا .

نظروا وإذا بهم قد أصبحوا طلقاء بعد التقييد ، أحرارا بعد الأسر أو ما هو أشد من الأسر ، أعزاء بعد الذلة ، منصورين بعد الهزيمة ، فكان هذا اليوم أحب الأيام

الى قلوبهم ، وأروعها أثرا في نفوسهم ، وأظهرها تأثيرا في حياتهم ، وأى يوم أعظم من يوم الانتصار ؟

ما كانت الغزوات التالية والانتصار فيها إلا أثرا من آثار الهجرة ، وما كانت الحوادث التى قبل الهجرة على عظمتها مؤتية ثمرها لولا الهجرة ، فلتكن الهجرة هى مبدأ التاريخ الاسلامى ، وما أجدرها أن تكون مبدأ التاريخ العالمى ، لما حوته من كمال وصول الرحمة من الله الى عباد الله ، وسلامة الطريق من قطاع الطريق !

وإنه ليجزى لنا وقد وصل بنا الكلام الى تكرار ذكر الرحمة التى جاءت بها الشريعة الغراء أن نشير الى آثار رحمته تعالى بالمؤمنين فى هذه الشريعة المطهرة ، وعظيم نعمته عليهم فى هدايته التى تخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه .

وإن نعمة رسالته صلى الله عليه وسلم لتتجلى واضحة فى ثلاثه مظاهر : (الأول) فى وضوح التعاليم فى شريعته الغراء (الثانى) فى متانة حججها وسطوع أدلتها وبراهينها (الثالث) فى عظم فوائدها وجليل آثارها فى الدنيا والآخرة .

ولندشرح كل واحد من هذه المظاهر بمنتهى الإيجاز بما تسعه هذه السكاة :

أما وضوح تعاليمها فإن الناظر اليها مجردة عن أى مصدر أو مستند يجدها فى ذاتها تغلغلا فى النفوس ، ويجد فى القلوب استعدادا لقبولها ، ولو لم يسندها برهان أو لم يعرف منزلة قائلها ، فما أشبهها بقولهم : قضايا قياساتها معها ؛ أو هى كما قال تعالى فى وصفها : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) . ذاك أنها فى عقائدها وفى عباداتها وفى أحكام معاملاتها تجلو على العقل المثل الأعلى لما ينبغى أن يكون عليه نظام هذا الوجود .

فأما العقائد فلم تهق العقول بما تعيا عن فهمه ، بل هدتها الى ما يزيل الحيرة ويحل لغز الوجود ، فقد أرشدت الانسان الى أن ما يقع عليه حسه وتدركه نفسه من هذا

العالم المنظم في ارتباطه ، المتقن في إبداعه ، المتناسك في تباينه ، مع قيام الدليل من حاله على إمكانه في نفسه وعدم مقتضى الوجود من ذاته ، يجب أن ينتهي الى وجود واجب يكون أكل وجود متصف بأكل الصفات وأجدها ، وجود لا يخضع لعوامل الكون والفساد ، ولكنه مصدر لكل ما يبدو من الآثار ، ويكون هو المهيمن على جميعها المتصرف في كل شئونها من صغير وكبير . دل باهر صنعه على عظيم علمه وحكمته ، وقدرته وإرادته ، فهو الحى القيوم ، وهو بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير ، وهو الرحمن الرحيم ، والغنى عن كل شئ ، وكل شئ محتاج إليه .

ولا شك أنه لا يحل مشكلة الوجود الجامع لهذه الأجرام الفلكية ، والعوالم الأرضية ، وما حوت من ارتباط وتناسك ، وصلاح وحكمة ، وما يعتريه من تغير وانحلال وحركة وسكون ، سوى هذه العقيدة السهلة التي تتحدر الى العقل الإنسانى من الملكوت الأعلى لا يحجبها عنه إلا ازوار طبعه ، أو اعوجاج تربيته ونشأته .

وإن من مظاهر رحمته أن يتعهد العقل بهدأة يرشدونه إذا ضل ، ويقومونه إذا اعوج ، ويؤيدهم بأدلة ظاهرة ، وآيات باهرة ، هي أمارات أنهم رسل من عنده يبلغون عنه وهم فى بلاغهم صادقون ، وأنهم وهذا شأنهم يجب أن يكونوا أمناء صادقين ، وأن يكون لهم من راحة العقل والفتنة ما يقتدرون به على أداء مهمتهم وإرشاد أمتهم ، وإن هذا من القبول بحيث لا تأباه العقول . لم يزد الاسلام فى أمر العقائد على هذين وما يتفرع عنهما مما يلزمهما ويستفاد منهما ، وذلك هو الإيمان بالله وكتبه وملأئكته ورسله .

وأما العبادات فقد أشير الى أساسها إجمالاً فى قوله تعالى : (قُلْ يَا هَلْ السَّكِينِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) .

ولما كانت تفاصيل العبادات لا يستطيع العقل تحديدها أرسل الأنبياء ليهدوا العقل البشرى الى ما يرضاه منه الحق جل جلاله ، وهو أعلم بما يرضى . ولقد جاءت هذه الشريعة في هذا الباب بما هو أنور في نظر العقل من الشمس في رابعة النهار ، فجعل أركان الاسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ولكل ركن منها في تهذيب النفوس وتنظيم شئون المجتمع أبلغ أثر وأعظم خطر ، ففي الشهادتين تعويد النفس ألا تصدر في أعمالها إلا عن بصيرة بالأمر واستيقان بصحته ، فهما عمل ومهما ترك فهو فرع اعترافه ويقينه بخضوعه لله وحده ، وتصديقه لرسوله ، يقينا واضحاً يشبه المشاهدة ، وهذا يستتبع قطعاً النتيجة المذكورة في قوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا) .

وفي إقام الصلاة تذكير النفس مراراً في كل يوم وليلة بعظمة الخالق ، واستحضار نعمه ، والوفاء بشكرها استزادة لها بالشكر ، والاستعانة به في كل شأن ، وطلب الهداية من لديه ، مع تعظيمه وتبجيله والخضوع له أيما خضوع ، وفيها من نيل شرف المثلول بين يدي أحكم الحاكمين مع خلوص نفس وطهارة ظاهر وباطن ، وإشعار القلب بالجلال ما يغرس في النفس الانسانية الشعور بالعظمة والعزة الدينية ، إذ من يشعر أنه عبد للملك الأعلى يقف بين يديه وهو مطلع عليه لا تحدته نفسه أن يكون عبداً لعبد مثله .

وسر الزكاة أن فيها من جمع القلوب وتقوية أوامر المحبة والعطف بين الأمة ما يكفل سعادة الجميع بارتباطهم بعضهم ببعض ، وهي أكفل ضامن لدفع الشيوعية الممقوتة .

وأثر الصيام في تحديد عزة النفس وقع غلوها لا يخفى على من ذاقه وجربه .

وهل الحج إلا اجتماع جماعة المسامين كل عام في وقت واحد في صعيد واحد مسةشعرين معنى العبودية ، خاضعين لرب لا شريك له ، يتعارفون فيتساندون فيكونون إخواناً ، كالبنين المرصوص يشد بعضهم بعضاً ؟ .

هذا شأنها في وضوح تعاليمها في عقائدها وعباداتها ، فإذا التفت إلى ما بثت من أخلاق كريمة تطهر النفوس من الآثام والأدناس ، وجدت لذلك ما يملأ قلبك اعتقادا واستيقانا بأنها الرحمة المهداة حقا للعالمين .

وأما في المعاملات فاعتمد إلى أى باب من أبوابها سواء أكانت معاملات خاصة كنظام الأسرة ، أو عامة كعقود النظم المدنية من بيع وإجارة ورهن وضمان وأمثالها ، أو معاملات أعم كعقود النظم بين الأمم من معاهدات واتفاقات وأمثالها ، فإنه يتجلى لك من ذلك ما لو اجتمعت العقول متضافرة على أن يأتوا بخير منه شامل لجميع الأمم في كل زمان ومكان ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وإنك لتكتفي في الاستشهاد على هذا بقيام تشريعات وقتية لفئة من الناس في حالة تكون مغايرة لبعض أحكام الشريعة الغراء ، ويتوهم فيها أنها كفيلة بسعادتهم وهناءة حياتهم ، فلا يمضى عليها كبير زمن حتى يظهر عوارها ، ويسعى أهلها في تبديلها ، في حين أن أحكام هذه الشريعة الغراء تمضى عليها الخقب والدهور فلا تزيدها الأيام إلا جدة ، وما من اعتراض أو إشكال توهمه الخارجون عليها إلا وكشف الزمان فساد التوهم فيه . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

هذا ما تسعه هذه الكلمة في وضوح تعاليمها إجمالا ، وأما متانة براهينها وقوة حججها ، وبيان آياتها ، فذلك متجلى في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنها لنوعان — منها ما هو من جنس معجزات إخوانه المرسلين عليهم جميعا أفضل صلاة وأتم تسليم ، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، وكرّد عين قتادة الذي فقئت عينه في إحدى الوقائع ، وكتسبيح الحصا وحنين الجدع وأمثال هذا ، فهى من جنس معجزة موسى في تسخير الماء بأنفلاق البحر ، ومعجزة عيسى في إبراء الأكمه ، ومعجزتهما في إحياء الموتى ، وقلب العصا حية . وحكمة ذلك أن شريعته عليه

السلام لما كانت ناسخة للشرائع السابقة فمن الحسن ألا تمتاز شريعة عليها بمعجزة لم تؤيد بها ، حتى لا يكون في المنسوخ قوة خلا منها الناسخ .

ومنها ما اختص به صلى الله عليه وسلم وذلك هو المعجزة الباقية الخالدة ما بقي وجوب العمل بهذه الشريعة المطهرة ، وذلك أبد الأبدن ، تلك هي معجزة القرآن الكريم ، وإن وجوه الإعجاز فيه لمتكثرة ، أظهرها ما يرجع الى بلاغة أسلوبه وقوة بلاغته حتى عجز من تحداهم وهم فحول البلاغة عن أن يتعرضوا لمحاكاة شيء منه ولو قدرا صغيرا كسورة قصيرة ، وذلك مقدار ثلاث آيات ، وقد كانوا — لو وجدوا الى ذلك سبيلا — قادرين على أن يشهد بعضهم لبعض ، وما أكثرهم إذ ذاك وأشد عنادهم ، فعجزهم جميعا والبلاغة موضع مباحاتهم ومناط نفخهم دليل عجز من سواهم من باب أولى وذلك هو الإعجاز اليقيني حتى لمن لم يكن من أهل البلاغة . على أن فيه من نواحي الإعجاز ما يعرفه أصحاب العلوم المتنوعة ، فما أحق من زاول فنون التشريع والتقنين وعرف ما يقاسيه المتصدى له بعد أن يعد لذلك عدته ، ما أحقه بمعرفة أن ظهور هذا التشريع الكامل ممن لم يزاول هذا الفن واهتمداه لما يوافق كل أمة بادية أو حاضرة وفي بكل ما يلزمها أمر ليس في طاقة أحد من البشر خصوصا ، مع اختلاف الأجيال والقرون والعادات والمألوفات ! .

وما أجدر من درس الأخلق وأخذ نفسه بأن يعطيها كاملة أن يعرف أن ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك فوق الطوق البشري ! بل إنا لنجد في القرآن من وجوه الإعجاز ما لا يتوقف المرء فيه على تعلم علم ولا التبصر في فن ، وإنما يكفيه أن يكون له قلب أو يلقى السمع وهو شهيد ، ذلك كالأخبار بالمغيبات الماضية والمستقبلة فتجىء صادقة لا يتخلف منها شيء . وإنك لتجد من غرائب المدهشة العجب العجاب في قوله تعالى :
(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ دَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلْمُوتَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا) فَإِنْ هَذِهِ السَّكْمَةُ لَوْ لَمْ يَكُن قَائِلُهَا يَقُولُهَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مَا صَحَّ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ أَنْ يَحَازِفَ صَاحِبُهَا فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ تَحْتَ رَحْمَةِ خَصْمِهِ الَّذِي هُوَ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى تَكْذِيبِهِ فَيَقُولُ لَهُ: مِنْ أَخْبَارِي الصَّادِقَةِ عَنْ رَبِّي أَنْ لَا أَحَدَ مِنْكُمْ يَقْدِرُ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ. فَمَا كَانَ أَيْسَرَ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يَلْفِظَ بِكَلِمَةٍ تَنِي الْمَوْتَ فَيَقْضَى عَلَى كُلِّ أَخْبَارِهِ؛ وَمَا كَانَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا قَالُهَا بِلِسَانِهِ لَا بِقَلْبِهِ، فَمَا لِأَحَدٍ إِطْلَاعٌ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ سِوَى عِلَامِ الْغُيُوبِ، وَإِذَا لَوْ قَالُهَا زَلَزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالُهَا، وَأُخْرِجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالُهَا، وَقَالُوا: أَيْنَ صَدَقَكَ يَا مُحَمَّدُ! وَلَقَدْ كَانُوا يَضْجُونَ وَيَصْخَبُونَ لِأَقْلِ وَأَتَقَهُ مِنْ هَذَا حَتَّى يَلْقَمُوا الْحَجَرَ الْمَسْكُوتَ، فَمَا بِأَلَاكَ بِثَمَلِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ لَهُمْ. وَإِنْ حُجَّةٌ تَصِلُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْبِدَاهَةِ وَالْوُضُوحِ لَهِيَ حُجَّةٌ سَاطِعَةٌ وَآيَةٌ بَيِّنَةٌ، بَلْ شَمْسٌ مُشْرِقَةٌ لَا يَعْصِي عَنْهَا إِلَّا مَنْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً.

وَأَمَّا عَظَمُ فَوَائِدِهَا وَشُمُولُ نَفْعِهَا وَدَوَامُ ثَمَرِهَا فَإِنَّهَا فِي هَذَا الْبَابِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَعَادَةِ الدُّنْيَا، وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ، فَأَمَّا سَعَادَةُ الدُّنْيَا فَقَدْ شَمِلَتْ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ: مِنْ دَانَ بِالْإِسْلَامِ وَمَنْ نَأَى بِجَانِبِهِ، فَلَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْغَرَاءُ وَالْعَالَمَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنْ شَقَاقٍ وَاقْتِرَاقٍ، وَاخْتِلَافٍ وَاضْطِرَابٍ. جَاءَتْ وَقَدْ تَأَصَّلَتْ فِي النَّاسِ عَادَاتٌ مَمْقُوتَةٌ وَفَوَارِقٌ مَرْدُولَةٌ جَعَلَتْ الْإِنْسَانِيَّةَ تَتَنَّى مِنْهَا أُنَيْنًا مَوْجَعًا، فَقَدْ كَانَتِ الدُّوَلَتَانِ الْقَائِمَتَانِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ (فَارِسَ وَالرُّومَ) تَقْتَسِمَانِ النَّاسَ اقْتِسَامَ امْتِلَاكٍ، فَتَفَرِّضَانِ عَلَى الرِّعَايَا مِنْ فَنُونِ الْإِسْتِعْبَادِ وَالْإِسْتِبْدَادِ مَا قَيِّدُهَا بِقِيُودِ الذَّلِّ، وَجَعَلُهَا تَسْتَكِينٍ وَتَمْنَعٍ لِبُؤْسِ الْعَيْشِ وَشَقَاءِ الْحَيَاةِ، حَتَّى تَرْتَبَ فِيهِمْ عَقِيدَةٌ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ طِينَةِ سُوءٍ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ مَزِيلًا لِهَذِهِ الْفَوَارِقِ، مَقْرَرًا أَنْ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالْإِتْقَانِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (فتنبه الإنسان إلى حقوقه وهب يطالب بها واستيقظ من سباته، نخضع القوى لحكم الإله الأقوى واسترد الضعيف حقه المفقود، فسعد الناس أجمعون .

واقد جاء وقت على علماء الأديان كانوا أيضا يشاركون زعماء الحكماء في جبروتهم، فيحتكرون العلم يقصرونه على طائفة منهم ويحرمون بقية الأمة منه، فجاء الإسلام وأباح العلم لكل إنسان ، بل دعا إليه وحث عليه ورغب فيه ، بأن جعل كل ما في الأرض جميعا ملكا للنوع الإنساني ينتفع بكل ما فيه من خيرات ، ويستثمر كل ما يؤتيه من الثمرات ، مستعينا بالعلم والبحث والتحليل ، غير مقيد في تفكيره وبحته إلا بتجنب ما فيه ضرر بأحد ، أو تعد على مقام العزة الإلهية ، أو تجاوز لمركز العبودية ، أو مخالفة لصريح أحكام الدين ، أو نصوص الكتاب الكريم ، وما وراء ذلك فهو له هنيء سائغ ، فكان من وراء إباحة العلم للجميع بعد حظره والترغيب فيه والحث عليه أن أقبلت النفوس تسوقها الحاجات ، وتغذوها الهمم ، وتذكيها المنافسة ، وتتسع أطرافها باتساع نواحي الحياة ، حتى قدمت للبشرية منافع لم تكن على بال أحد ، واشتركت في ذلك من دان بالإسلام ومن أعرض عنه ، فعم نفعه هذا جميع العالمين . وذلك أن الحاجة والثرة الدنيوية لا تميز فيها بين متدين وغير متدين ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، لا فرق في ذلك بين عمل الدنيا وعمل الآخرة (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) والله لا يضيع أجر من أحسن عملا من عمل الدين ومن عمل الدنيا .

هذان المبدأان العظيمان : مبدأ المساواة بين أجناس الناس في الخلق والحقوق والواجبات ، ومبدأ إباحة العلم وتمكين جميع الطبقات منه مع بث مبدأ العدالة والإنصاف وأن كل واحد أحق بإحراز ثمر جهوده — كان لهما في إسعاد النوع البشري ما يجعل حقا على كل طائفة أن يقدر نعمة هذه الرحمة المهداة ، ويقيم لها في قلبه وفي مشاعره أعظم

ذكريات التبجيل والتمجيد . وإن عموم النفع وعظم الخطر ودوام الأثر لمتجل فيها لكل من له قلب وسمع وبصر ، وبهما يتجلى مظهر من قول الكتاب المبين : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

وأما الارتفاع الأخرى فحسبك منه أن هياً سببه واضحا سهل التناول ، وفتحاً باب السعادة الأبدية الخالدة ، حائلاً على اجتيازها بأبلغ أنواع الحث والتعريض حتى يدعوهم إلى دخول الجنة بسلاسل ، وكلما سدوا باباً بالآخر عارض فتحت لهم باب بالتوبة إلى آخر لحظة من لحظات الحياة . فأى رحمة وأى نعمة أعظم وأبلغ من هذه الرحمة والنعمة ؟ ولا ينقص من منافعتها أن حرم بعض الناس أنفسهم من اجتناء بعض ثمارها ، فطلوع الشمس نعمة حتى لمن أغمض عينيه عن إبصارها ، بل لمن حرم نعمة الإبصار بالمرّة ، فإنه ينتفع بها بأن يراه المبصرون فيرشدوه ويتحاشوا أن يصطدموا به فيؤذوه ، ويتعاونوا على تحصيل منافعها ونيل ما ربه في ضوئها ، ونزول الغيث نعمة ولو لمن تحاشى أن يستقيه ، فقد أنبت له الزرع وأدرّ له الضرع ، وجعل ما يحيط به في خير ، وإباده هو عنه لا ينقص من أنه نعمة عليه ، وهلم جرا في النعم العامة ، ومنها نعمة هذه الشريعة المطهرة التي هي مفتاح سعادتي الدنيا والآخرة .

فأى نعمة هي أحق من هذه النعمة بالذكر والشكر من بنى الإنسان عامة ؟ فإذا ابتهج العالم أجمع لحلول مواعدها وعودة موسمها ، فإنما هو قائم بالشكر الجميل ، ومقابل الجميل بالجميل ، سواء في ذلك موسم افتتاح السنة الهجرية ، وموسم شهر مولده صلى الله عليه وسلم ، وإن مما يملأ القلب سروراً والنفوس غبطة أن نرى مظهر هذا الموسم العظيم قد أخذ في أرجاء القطر المصرى من الإجلال والتعظيم ما لا يدانيه فيه موسم آخر ، فلا يكاد يظهر هلال شهر ربيع الأول حتى ترى الأمة تحركت لإحياء لياليه باجتلاء سيرته صلى الله عليه وسلم والقيام لله بشكر هذه النعمة بصنوف العبادات وإقامة

الأذكار ، وعمران المساجد بالصلوات ، والمجالس بتكرار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وببالغون في إطعام الطعام وإكرام الفقراء ، وبذل الصدقات الى درجة أن يدخلوا السرور على نفوس أفراد الأمة بأسرها .

تنأسى الأمة في هذا كله بقدوتها العظمى في الخير ، ونبراسها الهادى الى طريق الفلاح جلالة ملكها المعظم **قواد الاول ملك مصر** . ومن أجل ما يسر النفوس ويشرح الصدور أن ترى تجيد هذه الذكرى العظيمة وتبجياها مشتركا بين طوائف الأمة المصرية على اختلاف مللها ونحليها ومشاربها ومذاهبها . ومن ذا الذى لا تحقق جوانحه لذكرى من كان سبباً لسعادته بل سعادة العالم أجمع ؟ .

نسأل المولى القدير أن يسبغ على العالم الاسلامى نعمة الهداية السكاملة ، والسعادة الشاملة ، وأن ينزع ما فى صدور الناس من غل ونفور ، وأن يبدلهم منه السرور وانشرح الصدور إنه سميع مجيب - آمين

ابراهيم الجبالى

الظرف والمِلح

وقع بين الحسن ومحمد ابن الحنفية لقاء ، ومشى الناس بينهما بالنائم ، فكتب إليه محمد ابن الحنفية : أما بعد فإن أبى وأباك على بن أبى طالب ، لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأنى امرأة من بنى حنيفة ، وأملك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الأرض بمثل أى لكانت أملك خيراً منها ، فإذا قرأت كتابى هذا فاقدّم حتى تترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى .

الفتاوى والأحكام

أوراق اليانصيب

ورد إدارة المجلة السؤال الاتي :

هل يجوز عمل اليانصيب وشراؤه اذا كان لمقصد خيرى كما تفعله بعض الجمعيات الخيرية الاسلامية ؟
ع . ج

وورد السؤال عن حكم هذه المسألة بعينها ، بتوقيع حضرة محمد ابراهيم سيد احمد المدرس بمدرسة الدر الأميرية ، وحضرة عبد العزيز اسماعيل صاحب مطبعة الاتحاد الأخرى ؟

الجواب

أوراق اليانصيب هى تلك الأوراق التى جرت بعض الجمعيات على إصدارها وتوزيعها على الشعب بشمن معين لكل ورقة ، على أن يكون جزء من ثمن المبيع من تلك الأوراق للجمعية والجزء الآخر للأوراق الراجعة ، وقد كانت الجمعيات تصدر ما شاءت من هذه الأوراق حتى كثرت أضرارها ، فنظمتها الحكومة أخيراً تنظيماً قالاً من أضرارها ونظم طريقة السحب ، فصار يحضر البعض منها مندوب من قبل الحكومة .
والقصد الأصلى من هذا العمل هو الصرف على بعض الأعمال الخيرية كتنعيم الفقراء والصرف على المعوزين ، ولكن توسع الناس فيها حتى صارت تعمل فى كثير

من الشئون وهى مهمما نظمت نوع من أنواع الميسر (القمار) وهو حرام ، لأن طريقة اليانصيب عند التأمل البسيط تكاد تتفق والطريقة التى كان يعملها العرب فى الجاهلية بالأقداح ، وهى أنه كانت لهم أقداح هى الأزلام والأقلام الخ يجعلون لكل واحد منها نصيباً معلوماً من جزور ينحرونها ويحزءونها عشرة أجزاء ، وقيل ثمانية وعشرين ، ولا يجعلون لثلاثة منها نصيباً ، ثم يضعون الأقداح فى الرابة وهى خريطة ، ويضعونها على يدى عدل ثم يهزها ويدخل يده ، فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه .

وقد نعى الله عليهم هذا ونهى عنه وإن كان فيه نفع ، قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) .

فأنت ترى أن الله سبحانه وتعالى حرم الميسر لأنه أخذ مال الرجل ييسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، لما فى ذلك من الأضرار بصاحب المال ، ولما فيه من الأضرار التى تنجم عن هذا من خصومات ومنازعات قد تؤدى الى سفك الدماء ، ولم يعتبر جل شأنه ما فى بعض طرق الميسر من نفع ، لأن القاعدة التى يقرها الشرع ويقبها العقل هى الموازنة فى كل أمر بين النفع والضرر ، فما كان ضرره أكثر من نفعه حرم ، والميسر من هذا القبيل .

وأوراق اليانصيب ميسر اشتمل على منفعة ومضرة ، وضرره عند التأمل أكثر من نفعه ، وقد يكون فى بعض صوره من شر أنواع القمار إذا دخله غش ، وكثيراً ما يحصل ذلك .

ونفع الفقراء ميسور وغير متوقف على هذه الطريقة ، إذ في مكنة أهل البر واليسار مد يد المعونة للفقراء من غير مقامرة ، ونفس الشعب يمكنه الا ككتاب وأداء ثمن تلك الأوراق من غير حاجة الى المخاطرة بالمال . وهذا يجعل الدفع لوجه الله دون قصد الربح من وراء ذلك ، وهى طريقة الإحسان ، أما شراء الأوراق الحاصل الآن فليس من باب البر ، لأن الباعث عليه هو قصد الربح ، وهذا يبعده عن كل أنواع الإحسان . على أن المسلمين فى غنى عن هذه الطرق جميعها اذا تمسكوا بدينهم ، وأخرجوا زكاة أموالهم التى من مصارفها الفقراء والمساكين .

وصفوة القول أن عمل اليانصيب هو من عمل الميسر المحرم شرعا ، فلا يجوز شراء هذه الأوراق ولا بيعها ، والربح الناشئ منها ربح خبيث لا يحل لصاحبه التمتع به ، والله الموفق

ط هيب

عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

الظرف والملح

قال رجل لسويد بن منجوف وقد أطل الخطبة بكلام افتتحه للصالح بين قوم من العرب : يا هذا أتيت مرعى غير مرعاك ، أفلا أدلك عليه ؟ قال نعم ، قال قل : أما بعد فإن فى الصالح بقاء الأحوال والآجال ، وحفظ الأموال ، والسلام . فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتواهبوا الترات .

عبد الله بن سلام وكعب الأحمبار - ووهب بن منبه

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
قرأت بإحدى المجلات المجلة الآتية :

«تظاهر جماعة من أحمبار اليهود بالدخول في الاسلام ليصيديوه في مقاتله إذ عجزوا
عن هدمه بمنائوته وجها لوجه ، وقد نالوا بعض بغيتهم بتسميم العقول وبث الأضاليل
في النفوس ، وهكذا فتنوا الناس بالخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ورأس
هؤلاء الذين اندسوا بين المسلمين لإفساد عقائدهم ثلاثة : كعب الأحمبار ، ووهب
ابن منبه ، وعبد الله بن سبأ » .

فهل هؤلاء الثلاثة كما ذكر الكاتب ؟ أرجو بيان الجواب على صفحات مجلة
نور الاسلام حيث إن هذه المجلة تخالف عقيدة كثيرين من المسلمين . أسأل الله
أن يلمنا الصواب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود الشرييني
بفارسكور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
أما بعد فإن كثيرا من الناس يجازف فيما يكتب ولا يتحرى الصواب فيما يحرر ،

وقد رأينا بعض المشهورين بالأدب والتاريخ من كبار الكتّاب بمصر يقرن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل بعبد الله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي نفي مرارا، وأضل الناس بدعوتهم الى التغالى في حب على كرم الله وجهه ، وبغض عثمان رضى الله عنه كيذا للإسلام والمسلمين ، فأين هذا من ذلك ! ولكننا في عصر أصبح فيه فوضى في كل شىء حتى العلم والدين .

ولنقص عليك بعض ما قال العلماء في عبد الله بن سلام وكعب الأخبار ووهب ابن منبه فتمقول : جاء في تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ما نصه :

عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الخبر أبو يوسف الاسرائيلي حليف الأنصار ، أسلم وقت مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله وشهد له بالجنة ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) وقوله تعالى : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وكان عبد الله من علماء أهل الكتاب وأفاضلهم في زمانه بالمدينة ، روى عدة أحاديث ، حدث عنه أنس بن مالك ووزارة ابن أوفى قاضي البصرة ، وأبو سلامة بن عبد الرحمن ، وأبو يوسف المقبري ، وأبو بردة ابن أبي موسى وابناه يوسف ومحمد ابنا عبد الله وآخرون . روى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن يزيد بن عميرة قال : لما احتضر معاذ قيل له : أوصنا ، قال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدتهما ، فالتمسوا العلم عند أبي الدرداء أو سامان وابن مسعود وعبد الله بن سلام ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنه عاشر عشرة في الجنة) أخرجه الترمذي . وروى مالك عن سالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول لأحد إنك في الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) متفق عليه .

روى عاصم بن مهندلة عن مصعب عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يدخل رجل من أهل الجنة) فدخل ابن سلام ، ومن غير وجه أن ابن سلام رأى رؤيا فقصمها على رسول الله فقال له : (تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثقى) .
وعنه أنه مرَّ بحمل حزمة حطب فقبل له : أليس قد أغناك الله عن هذا ؟ فقال : بلى ولكنني أردت أن أضع الكبر . واتفقوا على موته سنة ثلاثة وأربعين « هـ .

كعب الاحبار

هو كعب بن ماتع الحميدى من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم في زمن أبي بكر ، وقدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلًا ، وله شيء في صحيح البخارى وغيره هـ .

وهب بن منبه

هو الحافظ أبو عبد الله الصنعائى عالم أهل اليمن ، ولد سنة أربع وثلاثين ، روى عن أبي هريرة كثيرًا ، وعن عبد الله بن عمرو بن عباس وأبي سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير ، فإنه صرف عنايته الى ذلك وبالغ ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام ، وهما عن أبي هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى الصحاح رواها عنه معمر ، وقد طال عمر همام وعاش الى سنة نيف وثلاثين ومائة ، وحدث عن وهب ابن أخيه عبد الصمد وأقاربه ، وعمرو بن دينار واسرائيل أبو موسى ، وسماك بن الفضل وعوف الأعرابي وآخرون ، وكان ثقة واسع العلم مثل كعب الاحبار فى زمانه .
قال العجيلي : كان وهب ثقة تابعيا ، وكان على قضاء صنعاء . وقيل كان والده من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

وعن وهب قال: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ يعنى نفسه. قال مثنى بن الصباح: لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والفجر وضوءاً. ولو هب ترجمة طويلة في تاريخ دمشق.

فها أنت ذا ترى عبد الله بن سلام من أكابر الصحابة قد نزل في حقه قرآن مثل قوله تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة. فكيف يسوى بعبد الله بن سبأ الضال المضل؟ وهل هذا إلا خلط يحرمه الدين والعلم جميعاً، ويسخر منه التاريخ لدى عارفه؟ وأما كعب الأخبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات. وقد سمعت أن وهباً كان يصلي الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة، وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأخبار ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة، وأما ما يرويه هو ووهب بن منبه رضى الله عنهما فلم يستنداه إلى الرسول ولم يكذبا فيه على أحد من المسلمين، وإنما كانا يروياه على أنه من الإسرائيليات، ولست مكلفاً بتصديقه ولا الايمان به.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نلفت نظرك إلى أن ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين قد يذكرون أشياء غير صحيحة، ولكن عذرهم في ذلك أنهم يذكرون السند، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا من العهد، فإن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول، وبذلك يعرف ما يروونه من ضعف وصحة، ولكن خلت العناية الآن بذلك العلم، فعلى من يشتبه في شيء مما يذكرونه أن يبحث عن رجال السند الذي ذكره ليعرف ما عسى أن يكون من راو ضعيف أو وضاع، ولينظر مع هذا أهو إسلامي أم اسرائيلي، وليعطى كلامه حكمه، فإن لم يفعل فليست التبعة عليهم بل عليه. أسأل الله أن يرزقنا الأدب في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حق سلفنا الصالح، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين منه وكرمه.

يوسف الدهموي
من هيئة كبار العلماء

زكاة الورق النقدي

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي :

أرجو التفضل بموافاتنا بفتوى في موضوع الزكاة المستحقة على ورق النقد «بنكنوت» المتداول بين جميع الناس في معاملاتهم على المذاهب الأربعة يمكن الاعتماد عليها حيث إنه قد تضاربت الأقوال في عدم وجوب الزكاة عليها ؟
عبد المجيد صبرى — بوزارة المعارف

الجواب

الزكاة ركن من أركان الدين أوجبها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء رعاية للفقراء ورأفة منه بهم ورحمة ، فأوجب جل شأنه على المسلم العاقل البالغ الحر المالك ملكاً تاماً لنصاب تام قابل للزيادة بالتوالد أو التجارة ، أو ممكن النمو في ذاته ولو لم ينمه صاحبه إخراج جزء من ذلك المال قدره سبحانه وتعالى .

وقد جعل الله مناط الوجوب ملك النصاب متى كان المال منتفعاً به أو في الإمكان الانتفاع به ، فالملك المودع عند أمين تجب فيه الزكاة ولو لم يعمل فيه صاحبه ، والدين الذى على ملى تجب فيه الزكاة عما مضى من السنين لا مكان الانتفاع به لتيسر الحصول على ذلك المال ، فيجب الأداء على المالك متى قبض الدين .

وقد قسم الامام الأعظم رحمه الله الديون الى ثلاثة أقسام رأى وجوب الزكاة فيها جميعها على التفصيل الآتى ، وهى :

أولاً - دين قوى وهو بدل مال القرض ومال التجارة ، وهذا يجب فيه الزكاة إذا حال الحول ولو لم يقبض الدائن من المدين ، غير أن الأداء يترأخى الى أن يقبض أربعين درهما فيجب عليه أداء درهم ، وكلما قبض شيئاً بعد هذا وجب الأداء بحسابه .

ثانياً - متوسط وهو بدل ما ليس للتجارة كشمع الثياب ودار السكنى ، والحكم فى هذا كالأول ، إلا أن الأداء لا يجب إلا إذا قبض نصاباً تاماً .

ثالثاً - دين ضعيف وهو بدل ما ليس بمال كالمهر والوصية وبدل الخلع ، وهذا لا تجب فيه الزكاة عما مضى من سنتين قبل القبض ، وتجب بعد القبض إذا قبض نصاباً وحال عليه الحول .

ورأى أصحابه وجوب الزكاة فى الديون كلها قبل القبض ، وكلما قبض شيئاً زكاه قل ذلك أو أكثر ، ولم يستثنوا إلا بعض أفراد الديون .

وإذ قد تبين هذا فالجواب هو ما يأتى :

اعتادت الدول فى هذه الأزمئة اتخاذ وحدات غير النقدين للتعامل بها بقيم اسمية مختلفة وحفظ ما يوازى قيم هذه الوحدات من ذهب أو فضة ، أو من ذهب وسندات فى خزائنها ضماناً لما تصدره من الأوراق ، وقد نهجت حكومتنا السنية هذا المنهج فى سنة ١٨٩٨ واستصدرت ذكرى تولى أحد المصارف المالية (البنك الأهلى المصرى) تدفع قيمتها لحاملها عند الطلب ، وقد اشترط على المصرف أن يكون فى خزائنه ذهب يعادل نصف قيمة هذه الأوراق التى تصدرها والنصف الثانى يكون من القراطيس التى تعينها الحكومة . وقد نص فى الأوراق التى استصدرها المصرف أنه يتعهد بأن يدفع لحاملها لدى الطلب المبلغ المسمى بها .

وقد تعامل الناس بهذه الأوراق معاملةً بالنقدين ، وصارت هذه الأوراق أثماناً ، فيصح القول بوجوب الزكاة فيها حيث إن الثمنية قد عرضت لها وصار الناس يتعاملون

بها على اعتبار أنها أثمان رائجة، فتجب الزكاة فيها باعتبار قيمتها، ويكون ذلك قياسا لها على الفلوس المسكوكة إن كانت أثمانا رائجة أو سلعا للتجارة. وقد نص الحنفية على وجوب الزكاة في قيمتها، ففي فتاوى قارئ الهداية - الفتوى على وجوب الزكاة في الفلوس إذا تعول بها وبلغت ما يساوي مائتي درهم أو عشرين مثقالا من الذهب. وفي الشرمبالية - الفلوس إذا كانت أثمانا رائجة أو سلعا للتجارة تجب الزكاة في قيمتها، وإلا فلا.

غير أن هذا يبعده أن هذه الأوراق لا قيمة لها في ذاتها، واعتبارها إنما جاء من ضمان جهة الإصدار لما سمي بها، حتى إذا تنحت الجهة الكافلة عن الضمان أو أصيبت جهة الإصدار بالإفلاس تصبح هذه الأوراق ولا قيمة لها، فمواجهتها في الواقع ونفس الأمر ناشئة من ضمان أرباب الأموال الموثوق بهم وبقدرتهم على الدفع لقيمتهما، فليست كالفلوس المسكوكة التي تعرض لها الثمنية أو ينوى بها التجارة. وليست هذه الأوراق سنداً بوديعة، فيكون إيجاب الزكاة فيها باعتبار المال المودع في المصرف، لأن الوديعة تسليط الغير على حفظ المال صريحا أو دلالة بتعاقد بين الطرفين، وشيء من هذا لم يحصل بين مدير المصرف وحامل هذه الأوراق، ولأن المال المودع لا يضمن عند الهلاك إلا بقيود، والقيمة الاسمية للأوراق مضمونة على المصرف، ولأن المال المودع في المصرف الذي يصدر هذه الأوراق يكون أقل من قيمتها الاسمية في كثير من الأحيان، وقد يكون المودع في المصرف سندات على الغير فيبعد اعتبار هذه الأوراق سندات بودائع حتى يكون إيجاب الزكاة فيها باعتبار المال المودع.

والذي يظهر هو اعتبار هذه الأوراق سندات بدين (هو المبلغ المسمى بها) على الجهة التي أصدرتها تطالب به، ويجب عليها وعلى الجهة التي كفلتها في الإصدار الأداء عند الطلب، وهذا أقرب شيء إلى ما نص عليه في هذه الأوراق، وإلى ما اشترطته الحكومة من الشروط.

وإذ قد علمت أن الامام الأعظم أوجب الزكاة على الدائن في ديونه ، فلا تمتد في وجوب الزكاة في قيم الأوراق المالية (البنكنوت) على حاملها متى بلغت نصاباً أو نصباً وحال عليه الحول ، وأنها تجب فيها على السنين الماضية قبل القبض لأنها سندات بدين قوى ميسور الحصول على القيمة فيه . أما القول بعدم وجوب الزكاة فيها فأمر لا يوافق روح الشريعة ، واحتيال على دفع الوجوب ، وهدم لركن من أركان الدين الحنيف .

وقد جرى السادة الشافعية على وجوب الزكاة في الدين الحال ، قال في مختصر المزني قال الشافعي : وإن كان له دين يقدر على أخذه فعليه تعجيل زكاته كالوديعة . ومذهب المالكية أن الدين إذا لم يكن ثمن عرض وكان حالاً فيزكيه عن كل سنة ولو قبل قبضه .

وقال الحنابلة : إن من له دين على مليء باذل من قرض أو دين عروض تجارة أو ثمن بيع وحال عليه الحول ، فكلما قبض شيئاً أخرج زكاته عما مضى . وفي الدين على غير مليء روايتان الصحيح من المذهب أنه كالدين على المليء فيزكيه إذا قبضه عما مضى . فيتمين من هذا وجوب الزكاة في قيمة الأوراق المالية عند أتمتنا الأربعة على الوجه السابق بيانه ، والله الموفق

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً



الرؤيا

ليست طريقا للأحكام الشرعية

ورود إدارة المجلة السؤال الآتي :

هل يجوز العمل بما يتلقنه الانسان — مهما عظم شأنه — في حالة الرؤيا عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ولو لم يرد هذا العمل في الشريعة ؟
وما قولكم فيمن يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لقنه في الرؤيا صيغا معلومة للتسبيح أو التهليل لم يلقنها لأحد قبله ، وأن من عمل بها يضاعف له كل عمل يعمله ؟
بيروت — عزت المرادى

الجواب

كثير من المرائى ينشأ من انطلاق الخيلة وسيرها في غير نظام حيث تعطل الحواس ، ويفقد التنبيه ، ولا يبقى للإرادة سلطان على تنظيم حركة التفكير ، وقد تنشأ عن تعلق النفس بالشئ في حال اليقظة وكثرة تفكيرها فيه ، وربما نشأت عن أمر تنفعل له الأعصاب ، كأن يقرع صوت الموسيقى أذن النائم ، فتضطرب أعصابه ، وتجرى في مخيلته صور من خواص الموسيقى ، فيرى نفسه في مجتمع سرور أو عرس .
وجميع هذا من قبيل أضغاث الأحلام لا يحتفل بتأويله ، ولا ينبغي الالتفات اليه .
وفي المرائى ما يكون من قبيل الإلهام فيدل على بعض المعانى دلالة صحيحة ، وقد دل على وجود هذا القسم القرآن والسنة الصحيحة ، والتجارب التي لا تقف عند نهاية ،

بل دل القرآن على أن صدق الرؤيا قد يتحقق في رؤيا غير المؤمنين ، ومن شواهد هذا رؤيا عزيز مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ووقعت على نحو ما عبرها .

ولما كان في المرأى المنامية ما هو من هذيان الخيلة سقطت الرؤيا عن درجة الاعتبار ، ولم يكن لها في ما أخذ الأحكام الشرعية موضع ، قرر أبو اسحاق الشاطبي أن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم طريق من طرق الوحي الصادق ، ثم قال : « وأما أمته فكل واحد منها غير معصوم ، بل يجوز عليه الخطأ والغلط والنسيان ، ويجوز أن تكون رؤياه حالما ، وكشفه غير حقيق ، وإن تبين في الوجود صدقه واعتيد ذلك فيه واطرد ، فإمكان الخطأ والوهم باق ، وما كان هذا شأنه لم يصح أن يقطع به حكم » . وإنما كانت رؤيا الأنبياء وحياء ، لأنهم معصومون من أن يتمثل لهم الباطل في صورة الحق ، ولم يجعل الله للشيطان أو الخيال عليهم من سبيل .

هذه نظرة في أصل الرؤيا ، فإن ذكر الرجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وأمره بأمر يخالف ما جاء في شريعته ، أو أخبره بشيء يخالف ما يعلمه في اليقظة ، فليس له التمسك بهذه الرؤيا ، بل يأخذ بما جاء في الشريعة الغراء ، ويبنى على ما يعلمه في اليقظة ، فإن قيل : إن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام حق لقوله عليه الصلاة والسلام : (من رأى في المنام فقد رأى فإن الشيطان لا يتخيل بي) فيكون ما يأمر به أمراً حقاً ، وما يخبر به خبراً صدقاً ، قلنا : إن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قد تكون لمثاله الصادق ، كرؤيا الصحابي الذي رآه في اليقظة فأنطبع مثاله في نفسه ، أو رؤيا من درس صفاته المنقولة في الكتب فارتسمت منها في نفسه صورة مطابقة ، أما رؤياه على غير هذا الوجه فمحتمل لأن يكون من قبيل تخيل الشيطان ، ثم إن رؤيا مثاله الصادق وإن كانت حقاً ، لا يصح الاستناد اليها في حكم شرعي لاحتمال الخطأ والغلط في ضبط المثال في النوم ، قال الزركشي في البحر المحيط : « والصحيح أن

الننام لا يثبت حكماً شرعياً ولا ينفيه وإن كانت رؤية النبي صلى الله عليه وسلم حقاً والشيطان لا يتمثل به ، ولكن النائم ليس من أهل التحلل والرواية لعدم تحفظه .

والخلاصة أن من رأى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة غير مطابقة لشأئله الواردة في الصحيح ، فروياه هذه ليست هي الرؤيا التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها حق ، فضلاً عن أن تكون مأخذ حكم شرعي ، فإن كانت مطابقة لما ورد في شأئله فهي حق ، ويؤخذ بها في نحو التحذير من عمل عرف من دلائل الشريعة أنه سيء ، أو الترغيب في عمل قام الدليل في اليقظة على أنه صالح ، فالعمل الذي يذكر الإنسان أنه تلقنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، يعرض على دلائل الشريعة ، وبوزن بمقاييسها ، ويقضى فيه بأصولها ، ويدخل في هذا الباب صيغ التسبيح والتهليل ، فيؤخذ فيها بما يرويه علماء السنة ، وتسمعه أدلة الشريعة المتلقاة عنه عليه الصلاة والسلام في حال اليقظة ، وليس من المقبول أن يكون في بعض صيغ الأذكار المتلقاة في المنام فضل لا يوجد في الصيغ التي تلقاها الصحابة رضي الله عنهم في حال اليقظة .

محمد الحنظل مسين

النظر والمُح

قال حكيم : ما أبين وجوه الخير والشر في سرة العقل إذا لم يصدتها الهوى .

مبحث الزار

الجن أو الجان - السبطان - العفريت - المارد - الاصابة منه الجن

علاجها - الزار - حرمة

ورد إلينا عدة أسئلة من بعض حضرات الفضلاء مشتركي المجلة
في موضوع الزار فرأينا كتابة المبحث الآتي ردا على حضراتهم .

قال في لسان العرب : الجن ولد الجان ، وقال ابن سيده : الجن نوع من العالم سموا
بذلك لاجتماعهم عن الأبصار ، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يرون ، واجمع جتان ،
وهم الجنة .

والجني منسوب الى الجن أو الجنية ، والجنة الجن ، ومنه قوله تعالى : (مِنْ أَجِنَّةٍ
وَالنَّاسِ) والجوهري - الجن خلاف الإنس والواحد جنى سميت بذلك لأنها تخفى
ولا ترى ، والجنة طائفة الجن . وعن ابن الأعرابي : والجان أبو الجن خلق من نار
ثم خلق منه نسله . وفي القاموس : الشيطان كل عات متهم من إنس أو جن أو دابة .

والجن والشياطين والعفاريت في لسان الشرع أجسام حية نارية غير مركبة قادرة
على التشكل بأي شكل كان ، وعلى أن تنفذ في الأجسام نفوذ الهواء المستنشق ، منها
المؤمن والكافر والخير والشرير ، ووجود هذا الجنس من العالم مقطوع به بدلالة
الكتاب والسنة عليه ، وقد يحتك بعض أفراد هذا الجنس ببعض أفراد الآدميين
فيحدث لهم من هذا الاحتكاك أضرار ، منها الجنون والصرع ، ومنها غير ذلك من

أمراض تصيب الأجسام ، وهذا القدر مجزوم به عند أهل الملة ، وفي قوله تعالى في صفة أكلة الربا: (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) ما يفيد أن الشيطان قد يمس الإنسان فيصرع أو يصاب بما هو غير محمود من جنون أو مرض ، وقد ورد « ما من مولود يولد إلا يمسسه الشيطان فيستهل صارخا » وغير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز وقوع الأذى للآدميين من الشيطان ، بل ووقوعه بالفعل .

وفي الآلوسى ما نصه : « وقد يدخل في بعض الأجساد على بعض الكيفيات ريح متعفن تعلقت به روح خبيثة تناسبه فيحدث الجنون ، وربما استولى ذلك البخار على الحواس فعمتها واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرف فتتكلم وتبتطش وتسعى بالآلات ذلك الشخص الذي قامت به من غير شعور للشخص بشيء من ذلك أصلا ، وهذا كالمشاهد المحسوس الذي يكاد يعد منكره مكابرا منكرها للمشاهدات » .

وغير خاف أن من النفوس سواء أكانت من الأنس أم من الجن نفوس اقوية وأخرى ضعيفة ، وأن بعض ذوى النفوس القوية قد يستولى على ذى النفس الضعيفة استيلاء تاما يفقدها إرادتها في كل أمر وكل شأن ، وهذا ليس خاصا بالنفوس البشرية بل قد تستولى بعض النفوس الكبيرة من الجن على بعض النفوس الضعيفة من الأنس فتسلبها الإرادة وتجعلها لا تصدر في شيء إلا عن إرادتها ، يقرب ذلك جدا ما نراه نحن في عمليات التنويم المغناطيسى .

هذا القدر هو المعروف في الدين وعند العرب قبل البعثة من مس الشياطين والجن للآدميين ، وما عداه مما يتوهمه الناس أو يهرفون به فحديث خرافة لا أصل له في الدين .

وقد من الله على عباده فجعل لكل داء دواء ، ولكل داء أطباء يعرفونه ويفهمونه ويعالجونه بما يبعد أثره أو يضعفه . وللأمراض التي تحصل من المس أمارات يعرفها الخذاق من أطبائه يعالجونها بما لا يخالف الدين ولا يباين العقل ، إما حسيا وإما معنويا

يقوم بالأول الأطباء الخصبون بمعالجة الأمراض العصبية ، وبالثاني أطباء النفوس وهم أصحاب النفوس الكبيرة من الصديقين والصالحين ، يحولون بسلطانهم وما لهم من نفس عالية بين الشياطين وأصحاب النفوس الضعيفة ، وبفضلهم لا يتمكن الشيطان من الأضرار ، ولا من الاستيلاء على النفس ، وينصرف عنها . وقد خفي هذا الأمر على كثير من الناس فعبء عن الحالة الأولى بأن عفريتاً أو شيطانا دخل الجسم ، وأن فلانا أخرجه ، والحقيقة ما سمعت ، فلا دخول ولا خروج على الوجه الذى يفهمه الناس اليوم ، وإنما هو ما شرحناه لك .

وقد انتهر فرصة جهل العامة شياطين الإنس ، وهم شر من شياطين الجن ، وتوسعوا فى أمر المس توسعاً ضاراً ، فما رأوا مريضاً بمرض عصبى أو بمرض غير عصبى إلا قالوا إنه من الجن ، وإنه فى استطاعتهم علاجه ، واتخذ كل فريق منهم طريقاً للعلاج ، هذا يعالج بتعاويز لا يقرها الدين ، وما أنزل الله بها من سلطان ، وذلك يداوى بما لا يلائم مرض المريض ، وقد يعالج بعضهم المريض المشرف على الهلاك بما يقضى عليه ، وقد حصل ذلك مراراً .

وأكثر هذه الطرق انتشاراً تلك الطريقة الضارة القبيحة المحرمة شرعاً طريقة « الزار » وقد انتشرت هذه الطريقة فى جميع أنحاء القطر فى المدن والقرى ، وللقائمين بها دعايات فى جلب السيدات إليهن يعجز إبليس نفسه عنها ، حتى لقد أصبح الحال من أشد الحالات ضرراً بالأخلاق ، فأصبحت ترى الممسوسات أكثر من السليمات ، لأن ما ينفثه هؤلاء الدعاة من طرق الترغيب الكثيرة كثيراً ما يصادف هوى من الجملة وما أكثرهم ! وإذا عرفت أن من طرق الترغيب فى هذا تيسير الزواج على من لا زوج لها ، ورضاء الزوج الغاضب وجعله تحت سيطرة الزوجة وصالح الخصم ، وتسهيل الرزق ، وما إلى ذلك من طرق خادعة ، جزممت بأن الحال حال

شديدة تقتضى الضرب على أيدي هؤلاء الدعاة ومعاقبتهم ، ولا شك أن ما يدعوا اليه هؤلاء ويقومون به في حفلات « الزار » محرم شرعا ، وممقوت عقلا ، لاشتماله على الكفر في بعض الصور ، وعلى ما هو محرم شرعا بالكتاب والسنة والإجماع ، كشرب الدم المسفوح وطلاء الجسد به أياما ، والطواف حول القرايين من دجاج وخراف ، والاحتفال بها ، وشرب الخمر في بعض الصور اذا كان العفريت ممن يطلبون شرب الخمر ، والرقص والمفاخرة بما أعدت كل سيدة من حلى وملابس اشيعها ، وما جلبت من هدايا ونقائس لأُمها (الكودية) وإذا أضيف الى هذا ما يصيب الناس في أموالهم من أثر هذه الحفلات التي لا نتيجة لها ، كان ذلك أدخل في باب التحريم .

طه هبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية

سابقا

الظرف والمُلح

اعتذر رجل الى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يقبل عذره ، فقال عبد الأعلى : أما والله لئن كان احتمل إثم الكذب ودناءته ، وخضوع الاعتذار وذلتة ، فعاقبته على الذنب الذاهب ، ولم تشكر له إنابة التائب ، إنك لمن يسيء ولا يحسن .

الرفاليم الجليدية في القطب الجنوبي^(١)

أما الرحلة الأولى فكانت تحت قيادة المدعو « بيرد » ضابط الطيران البحري الأمريكي الذي تمكن في ٩ مايو سنة ١٩٢٦ من قطع المسافة بين جزيرة « سبتزبرجن » والقطب الشمالي ذهاباً وإياباً في ١٥ ساعة أى قبل أن يتمكن الرحالة العالمى المشهور « أموند صون » والجنرال الايطالى « نويسل » من التحليق فوق القطب الشمالى على ظهر السفينة الجوية « نورجه » بثلاثة أيام .

تمكن « بيرد » من الوصول الى الجهة المعروفة هناك باسم « حاجز روص » فى آواخر عام ١٩٢٨ حيث ضرب خيامه . وبهذه المناسبة نذكر أن الرحالة « أموند صون » بدأ فى عام ١٩١١ رحلته المشهورة الى القطب الجنوبي من هذه البقعة أيضاً على زحافات الثلج ، وكانت الاستعدادات المتخذة لرحلة « بيرد » تامة والمعدات موفورة للغاية حتى كانت لا ينقصها العلماء المنقبون والقوارب والطيارات وكلاب الجر الزلاقات الجليدية ، وعلاوة على ذلك فكان فى حوزتهم ٢٢ جهازاً للإرسال بواسطة الراديو و ٣٤ جهازاً لالتقاط الإشارات اللاسلكية ، حتى إن كل من اشترك فى هذه الرحلة استطاع أن يرسل أو يتسلم على انفراد إشارات لاسلكية .

ولقد ساعدت هذه المعدات أعضاء الرحلة كثيراً على التغلب على صعاب كثيرة حيث إنه فى ذات يوم اقتلعت الرياح إحدى الطيارات التابعة لفريق منهم من مربطها

(١) نشرت مقدمة هذا المقال فى الجزء السابق .

وحطمتها على جبال الشاج ، وأوشك هؤلاء على الإشراف على خطر أكيد في ١٨ مارس سنة ١٩٢٩ بعد أن أضناهم المجهود الذي بذلوه في استكشاف جبال روكفلر في إحدى رحلاتهم ، ولولا تمكنهم من الاتصال بزملائهم بواسطة جهازيات الإرسال بالراديو لذهبت أرواحهم ضحية قيامهم بعمل من أجل الأعمال الإنسانية .

وبعد استكشاف جبال روكفلر تقدم جماعة الرواد نحو الشرق بخطوات واسعة وأطلقوا على أراض لم يسبقهم أحد الى رؤيتها وأطلقوا عليها اسم « ماري بيرد لاند » تخليداً لذكرى زوجة رئيس الرحلة ، وضمت الى أملاك الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي تقع وراء حدود الأراضى التي ضمها إنجلترا الى ممتلكاتها من قبل .

وبعد أن قضى « بيرد » وإخوانه فصل الشتاء قام برحلة واسعة النطاق توج بها أعماله الاستكشافية في هذه الجهات ، حيث طار على متن طائرة كبيرة « لويد بينت » مع سائق ومهندس للآلة اللاسلكية ومصور ، متجها شطر القطب الجنوبي ، واضطر أن يعاو بطائرته الى ارتفاع ٣٠٠٠ متر حتى يتمكن من التحليق فوق جبال الملكة مود البالغ ارتفاعها ٤٥٠٠ متر الى اكتشفها « أموندسون » من قبل ، وكان عليه أن يلتقى بما بلغ مقداره ٢٨٠ رطلا من مؤونة الأكل التي أخذها معه ليسهل على الطائرة الارتفاع الى مثل هذه الطبقات ، وبذا حرم من زخيرة كان قد أعدها لإعاقته في حالة اضطراره للهبوط لأى سبب طارئ ، وقد كللت أعماله بالنجاح ، وتمكن من التحليق فوق القطب الجنوبي الواقع على هضبة من الجليد ، وهو على ارتفاع ٣٠٠٠ متر ، ثم عاد الى خيامه حيث بدأ بعد أن قطع هذه الشقة في ١٨ ساعة و ٤١ دقيقة .

وأما الرحلة الثانية فكانت تحت قيادة الرحالة الاسترالى الشهير « الكابتن فليكنز » ولم تكن مزودة بالاستعدادات الكثيرة مثل التي كانت في حوزة الرحلة الأولى ، إلا أن قائد هذه الرحلة من الرجال الأفذاذ الذين لا تنقصهم التجربة العملية في مثل هذه الأمور ، وتاريخه حافل بأعمال الاستكشافات ، فكان عضواً في الرحلة التي

قام بها « ستيفانسون » التي دامت خمس سنوات ما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٨ في المناطق الجليدية بشمال كندا ، وقام برحلة الى المناطق الجليدية بالقطب الجنوبي من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٢ ، واشترك أخيراً في رحلة زميل له « شا كلتون » حيث تمكن بطائرته من التوغل داخل مناطق القطب الشمالى فى عام ١٩٢٧ ، وفى ابريل سنة ١٩٢٨ قام بطائرته من شبه جزيرة « آلاسكا » فى شمال أمريكا الى جزيرة « سبيتز برجن » فى شمال النرويج ماراً بالبحار الجليدية الغامضة فى القطب الشمالى . وبذا يكون هو أول من قام برحلة شمالية غربية — كما يسمى عادة اجتياز البحر المتجمد حذاء الشواطىء الشمالية — بدون أى صعوبة مذكورة ، وذلك بواسطة الطائرة .

وقد لا يوجد برهان أقوى للاستدلال على صلاحية الطيارات وتفوقها على المراكب والزلاقات فى الاستكشافات القطبية من أنه كان فى وسع « الكابتن فلكنر » أن يقوم بعمل بواسطة الطائرة فى ٢٢ ساعة بسهولة لم يتمكن غيره من كبار الرواد المحنكين من القيام به بواسطة البواخر والزلاقات فى قرون عديدة ، بالرغم من الضحايا الكثيرة التى ذهبت فى سبيل تحقيق هذا العمل . وقد لا يقع منا موقع الاستغراب أنه فى سبيل الاستكشافات فى المناطق المتجمدة بالقطب الجنوبى ذهبت ضحايا لا تقع تحت حصر إذا علمنا الفارق الواسع بين الصعوبات التى يلاقيها رواد هذه الجهات والتى يلاقيها رواد مناطق القطب الشمالى . فالطريق الى الأولى محفوف بالمخاطر والزوابع البحرية ، مع خلوه من محطات لاتخاذها قواعد بحرية للرحلة فينقطع الانسان عن كل وسائل المساعدة ، هذا الى صعوبة الحصول على مواد غذائية أو وقود بواسطة الصيد وخلافه . وتاريخ استكشاف القطب الشمالى حافل بأخبار صيد كلاب البحر وثيران وديبة أو طيور المناطق الباردة ، حيث كان الرواد يستفيدون من لحومها فى غذائهم ويستعملون شحومها فى الوقود ، وأما القطب الجنوبى فعبارة عن بقاع قفرة

خالية من الإنسان والحيوان والنبات ، ولذا فكثيراً ما يطلق عليها اسم « دولة السكوت الأبدى » .

يتضح مما سبق بيانه من الفروق الكبيرة بين منطقتي الاستكشافات عظمة « الكابتن فلكنز » ورحلته التي كانت سبباً في إزالة كثير من غموض هذه الصحارى الجليدية الواسعة . كان الغرض الأول من رحلة « الكابتن فلكنز » استكشاف النواحي الغربية المرتفعة من القطب الجنوبي الواقعة جنوب أمريكا ، والتي ظالمات حولها شكوك علماء الجيولوجيا لشدة شبهها وتما مطابقتها للطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية مما جعل البعض يميل الى الاعتقاد بأنها كانت متصلة بها في العصور التاريخية الغابرة ، هذا الى أنه وجد في هذه النواحي كثير من بقايا الغابات المتحجرة يرجع تاريخها الى تلك العصور ، وتدل دلالة واضحة على أن في هذه العصور كانت الأحوال الجوية لهذه المناطق تسمح بنمو نباتات غزيرة بها لا تزهده عادة إلا في الأجواء القريبة من المناطق الحارة ، بينما يغطي الثلج الآن جميع أرجائها . جعل « فلكنز » جزيرة « ديسبشون » مركزاً لرحلته ، وهي جزيرة بركانية في غرب القطب الجنوبي تخللت مياه البحر فتحاتها المتخلفة عن البراكين الخامدة ، فجعلتها كثيرة الأخاديد صالحة للملاحة ، واتخذها كثير من صيادي الحيتان مرفأً هادئاً يتقابلون عنده في كل صيف .

بدأ « فلكنز » من هذه الجهة — وهي أقصى ما وصلت إليه يد المدنية الانسانية — رحلتين بالطيارة : الأولى في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ والأخرى في ١٠ يناير سنة ١٩٢٩ طار في رحلته الأولى متجهاً نحو الجنوب بسرعة ١٩٣ كيلو متراً في الساعة الى أن وصل درجة ٧١ من خطوط العرض ، وحلق فوق سطح الماء على ارتفاع ٣٠٠ متر وعلى الأراضى الغربية من القطب الجنوبي على ارتفاع ١٨٠٠ متر ، إلا أنه اضطر الى التحليق على بعض الجهات على أبعاد أكبر حتى وصل الى ٢٥٠٠ متر في الجو ، وتمكن في هذه الرحلة بسهولة من إثبات أن غرب القطب الجنوبي غير متصل بالاقليم الجليدية

الجنوبية ولا علاقة له بها بالمرّة، بل هي عبارة عن مجموعة جزر في شكل هضبة ترتفع في بعض جهاتها الى ١٨٠٠ متر، وتعلو هذه قمم قد تصل ارتفاعاتها من ٢٤٠٠ متر الى ٢٧٠٠ متر .

وقد ساعد جيو المناطق القطبية الصافي على اتساع منطقة دائرة النظر الى ٢٠٠ كيلو متر، فتمكن «فلكنز» من كشف ما بين المحيط الهادى والمحيط الاطلنطى من يابس وماء بكل وضوح، فاكتشفت ست جزائر جديدة واقليم ساحلى لا يقل طوله عن ٥٠٠ كيلو متر، كما اكتشف مضيقا يجوار الدائرة القطبية يصل بين المحيط الهادى والمحيط الاطلنطى، وأطلق عليها اسم قناة « كرين » . ورأى على مسافة أبعد نحو الجنوب أربع ثلاثات ضخمة ومنها ينحدر سطح الهضبة الى أن تنتهى في مضيق مائى أطلق عليه اسم مضيق « ستفانسون » عند خط عرض درجة ٧٠، وأما في الناحية الأخرى فكشف عن أراضى واطئة مغطاة بالتلوج على مدى النظر، وأطلق عليها اسم ناشر الصحف الأمريكى الشهير « هيرست » ويغلب على الظن أن هذه الأراضى الواسعة هي جزء من أقليم القطب الجنوبى، وبهذا يثبت أن ساحله الشمالى يبعد بما يقرب من ١٠٠٠ كيلو متر مما كان يعتقد البعض من قبل .

لم تستغرق كل هذه الاستكشافات التى أخذت لها صور شمسية ووضحت على الخرائط بدقة تامة أكثر من خمس ساعات وخمس وعشرين دقيقة .

يتبين لنا قيمة هذا النجاح الباهر عند مقارنة النتائج التى وصل اليها « الكابتن فلكنز » فى مثل هذا الوقت القصير بالمعلومات القاصرة والخرائط الزائفة التى كانت فى حوزتنا قبل ذلك والتى هي ثمرة مجهودات فائقة وضحايا عديدة فى سنين طويلة .

لم تساعد الأحوال الجوية الرحالة الباسل فى رحلته الجوية الثانية ففقل راجعا بعد أن زود العالم بمعلومات قيمة، ولم يثنه ما صادفه من صعوبات وحرمان من أن يعيد الكرة ويشترك فى رحلة المنطاد الألمانى الكبير « جراف زبلين » لتزداد معلوماته من وجهة الطيران بالمناطيد .

المسلمون

في جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة

بلاد القوقاز الجنوبية وطاقغستان

وعدا المديريات الثلاث التي بقيت تحت إشراف حكومة موسكو المباشر فإن بلاد القوقاز الجنوبية التي أعلنت استقلالها ووحدها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٧ في مؤتمر فلاديقوقاز قد قسمت الى جمهوريتين بين سكان الجبال المقول عنهم « جورتسى » وبين « الطاغستان » ثم قسم الجبليون جمهوريتهم الى خمس ولايات سوفيتية صغيرة حسب الشعوب التي تقطنها وهي :

(أ) ولاية « الجورتسى » الأصليين ، ويشملون « أوسيت الشمال » و « الكيست » و « الانجوش » ، وحاضرة هذه الولاية هي « فلاديقوقاز » وعدد سكانها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة .
(ب) ولاية « تشيتشينا » وعدد سكانها ١٠٥,٠٠٠ نسمة وحاضرتها « جروزني » (Grozny) حسب مرسوم ٤ يناير سنة ١٩٢٣

(ج) ولاية « كبادردى — بالكارى » ويبلغ عدد سكانها من الكابارديين ١٤٥,٠٠٠ نسمة ، ومن البالكاريين ٢٠,٠٠٠ نسمة وحاضرتها « نالتشيك » .
(د) ولاية « التشر كس الكاراتشاويين » وعدد سكانها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة وحاضرتها « باتالبا تشنسك » (Patalpachinsk) .

(هـ) ولاية « التشر كس أدلغى » وعدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، وحاضرتها « كرسنودار » وهي « إكاترينودار » القديمة . ومجموع مساحة هذه الجمهورية يبلغ ٤٤,٠٩٠ كيلو مترا مربعا ، ومجموع سكانها ٨٠٨,٤٢٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٢٠ ، وفي سنة ١٩٢٥ قد ضمت تلك الولايات الخمس مع بلاد القوقاز الجنوبية الروسية الى

بلاد القوقاز الشمالية فأصبح مجموع عدد سكانها ٦,٨٣٣,٠٩٠ نسمة في سنة ١٩٢٥ ، وبلغت مساحتها ٢٧٩,٦٧٠ كيلو مترا مربعا . وأما مدنها المهمة فهي فلاديقوقاز وعدد سكانها ٧٠,٠٠٠ نسمة « وجروسنى » وعدد سكانها ٥٠,٠٠٠ نسمة .

وأما بلاد الطاغستان فتبلغ مساحتها ٥٨,٩١٨ كيلو متر مربع ، وعدد سكانها ٨٣٣,٩٩٦ نسمة في سنة ١٩٢٥ وهى حكومة حاضرتها « بوبيناه » (Bouïnah) وكانت تدعى « تيميرخان شورا » سابقا ، وعدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ومدنها الأخرى الشهيرة مثل « دره بند » (Derbent) وعدد سكانها ٤٠,٠٠٠ نسمة و « ماختشاك كاليه » (بتروفسك سابقا) وعدد سكانها ٣٥,٠٠٠ نسمة . والمجموع العام للمسلمين في بلاد القوقاز يبلغ مليوناً ونصف مليون مسلم . وهذا العدد لم يبلغ الأربعة الملايين التى كان قررها اتحاد شمال القوقاز في سنة ١٩١٧

دخول الاسلام في بلاد القوقاز الجنوبية — ابتداء دخول الاسلام في هذه البلاد من الجنوب الشرقى عن طريق مضيق (دره بند) « باب الأبواب » شرقى « جدار خسرو » وعن طريق « طاغستان » . وأول من شرع في إدخال « الاوار » في دين الاسلام هو أبو مسلمة شيخ الشافعية الذى يوجد قبره فى « خوزراق » (Khownzaq) الذى تأكد فيما بعد أنه هو نفس الأمير أبو « مسلم » وابتداء اعتناق « الاوار » للإسلام فى سنة ١٠٠٠ من الميلاد ثم اعتنقه « القومويق » (Koumuiks) فى القرن الرابع عشر ، ثم « الدرغين » (Darghina) فى القرن الخامس عشر ، ثم إن اليهود « طاغ تشوفوت » الذين أدخلوا فى الاسلام بواسطة « الخازاريين » (Khazars ?) والمسيحيين (Alains) قد غفت آثارهم وانقرضت بقاياهم ، إلا أن « الينغيل » (Yenghil) لم يعتنقوا الاسلام إلا فى القرن التاسع عشر . ومنذ القرن السادس عشر للتاسع عشر اشتبك الأمراء المحليون فى النضال بين فارس وتركيا وروسيا انتهى بفوز روسيا فى سنة ١٧٨٥ ومنذ سنة ١٨٣٠ نظمت الطريقة النقشبندية حركتها لاعادة شوكة الاسلام ، ومن ذلك قامت الثورة التى قادها الأمير شاميل بين سنتي ١٨٣٢ و ١٨٥٩ ثم فى سنة ١٨٧١

بالقرب من بلدة المدينة (Médine) وهو أمير عظيم من أمراء « جونيبي » (Gounib) من بلاد الأوار (Aware) من الكتلة السنية الشيعية .

أما القسم الشمالى الغربى فان الاسلام الذى بدئ دخوله فيه بواسطة أمراء (خانات) بلاد القرم ثم بواسطة باشوات « عنبه » (Anapa) الاتراك بين سنتى ١٧٨١ و ١٨٢٦ قد دخل فى بلاد القوقاز الجنوبية (بلاد الجركس) عن طريق « كبادردى » فى القرن الثامن عشر ، لكنه لا يزال ضعيفا ، لأن الجركس ما فتئوا يعبدون قوى الطبيعة ، مثل آلهة المطر والصيد والصاعقة وغيرها . ونظام الاقطاعيات عندهم الذى قضى عليه العثمانيون فى أوائل القرن التاسع عشر قد قسم الناس الى طوائف وطبقات ، ويدعون أنفسهم أنهم سنيون حنفيون . وأما دخول الاسلام فى القسم الشمالى الشرقى فقد كان من عمل أمراء (خانات) « الهورد دور » (مملكة المونغول الغربية منذ عهد « براكاخان » (Baraka Khan) من سنة ١٢٥٦ الى سنة ١٢٦٧) وأسرة « باكو » (Bacou) التى حكمت من سنة ١٢٢٤ الى سنة ١٣٥٩ وأسرة « أورددا » (Orda) التى حكمت من سنة ١٣٧٨ الى ١٥٠٢ وجاءت من « قيتشاق » الشرقية ، وكذا أمراء (خانات) « استراخان » من سنة ١٤٦٦ فى عهد حاج طرخان الى سنة ١٥٥٤

هذا ولا يزال يوجد فى هذا القسم عدد عظيم من المسامين المهاجرين من الجنس الفنوى (الفنلندى) أو من الجنس التركى (من التتار النوجائيس الذين نزحوا من كارا) فى القرن السادس عشر ، وكان عددهم يبلغ ٨٧,٠٠٠ نسمة ، ويوجد كذلك بجانب التتار القلموق البوذيين ٥٠٠٠ نسمة من التركمان المسامين سنة ١٩٢٢

وقد ابتداء استعمار روسيا لبلاد القوقاز فى ولاية « قوبان » (Kouban) فى سنة ١٣٢٠ ، وذلك بترحيل قوزاق يوكراينا الى « كراسنودار » (Krasnodar) ثم باحتلال « الزبوروج » (Zaporoguas) الذين استوطنوا هذه الولاية منذ سنة ١٧٣٧ بعد أن طردوا منها التتار النوجائيس وأقاموا الحصون فى « ستافروبول » (Stavropol) و « جورج » و « جيفيسك » و « موزدك » (Mozdok) و « كيزلجار » . وإليك

أهم الأجناس التي دخلت في الاسلام :

الفنويون (الفنليون البلقار) ، والترك التتار (التتار والنوجائيس وغيرهم) لغاية شمال الطاغستان ، و « الكست » و « الانجوش » و « التشيتشين » ثم طائفة « الليسغيان » في الطاغستان ، و يبلغ عددهم ١٥٠,٠٠٠ من « الاوار » و ١٢٢,٠٠٠ من « الكورين » و ٦٦,٠٠٠ من « القومويق » و ٦١,٠٠٠ من « الدارغين » و ٥٥,٠٠٠ من « اللالك » الخ . ثم الجر كس و « الكابارديون » و « الكراتشائف » و « الاداغين » . وكل جنس من تلك الأجناس يتكلم لغته الخاصة به عدا البلقار والتتار الترك فانهم يتكلمون التركية . وقد رفض نحو ٤٠٠,٠٠٠ من الجر كس أن يخضعوا لحكم الروسيا فانضموا لتركيا فيما بين سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٨ ، وقد شكل منهم سلاطين آل عثمان عدة فرق عسكرية هنا وهناك في العزيزية وقنيطرة سوريا وعمان (Amman) وغيرها ، ولما وقعوا تحت سيطرة إنجلترا في سنة ١٩٢٠ هرب من بينهم ٥٠٠٠ من تركيا الى بلاد اليونان في سنة ١٩٢٢ ويقوم الآن الجرا كسة المشردون في خارج بلادهم بحركة قومية عظيمة لاجلاء لغتهم . ومسامو بلاد القوقاز الجنوبية من السنيين (عدا قليل من الشيعيين في جنوب دره بند) وجلهم حنفيو المذهب ما خلا « الأوار » فانهم يتبعون مذهب الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي . ومنذ سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٩١٧ كان شيوخ الدين عندهم (الملا) وقضاة القرى يعينون بواسطة هيئة علماء (أورنبورج) (Orenbourg) ، وقد كان الامام نجم الدين حنسين شيخا للاسلام عند أهل الشيعة من سنة (١٩٢٠ - ١٩٢١) أما منتوجات بلاد القوقاز الجنوبية فهي غاز البترول في « جروزني » حيث توجد ٤٨٧ بئرا ، وفي « مايكوب » متصلة بقناة بالقرب من بحر قزوين ، ويستخرج منه ٣ ملايين طن في السنة ، والزنك في « كورجيورت » والفحم ، ويزرع الورد في « كوبا » ويصنع السجاد التشيتشيني (تترزي) والطاغستاني في دره بند وكابستان (كوبا) . ومنذ سنة ١٩٢٠ استرد المسلمون الانجوش من القوزاق الروس أراضي الفلاحة التي كانت استعمرتها جاليات القوزاق في وادي « السونجا » م

How could he achieve success in face of overwhelming odds and embark as he did on what was seemingly a hopeless quest ?

How could he win those millions of people to his cause and bend their wills to his own ?

Would not such a soul be justly termed the greatest in the world ? and would not its will be regarded as the most indomitable ever known ?

Could a gainsayer account for such unprecedented influence which was the lot of Islam to exercise over the world ?

Nay, history as well as reason both point out that such great achievements could never have been performed without divine favour and heavenly support.

of men and endowing its followers with its invigorating and uplifting influence.

All that, had Mohammad, the Prophet of Islam accomplished yet he never lost an iota of the initial purity of his soul and throughout his life, he remained unaffected by success which would have rendered others the most conceited and vain — glorious of men.

He continued to be the same kindly, modest and contented person that he ever was. In all his actions he offered a living example of equity and perfection.

He was kindness incarnate; the little urchin of Medina would confidently take him by the hand and lead him round the town on an errand. So great was his kindness and love for children that he disdained not to converse with and accompany them, nay he evinced great pleasure to do so.

Would not the total disregard of material success which Mohammad had shown throughout be considered a mighty proof of his greatness and rectitude ?

Kings, legislators, philosophers, leaders have all succumbed to the temptation of but a fraction of this success.

But the power which Mohammad enjoyed was a spiritual one and proceeded from on high. He was not therefore amenable to the banal influence of temptation and his thoughts were far removed from the material successes the world offered.

It is noteworthy that all chroniclers agree that the great soul of Mohammad is unique and singular. Environment and consuetudinary usages exercised no influence over it, which fact reveals a surprising phenomenon in human nature. For how indeed could Mohammad, who was born and bred among a heathen and ignorant people be immune from the effects of customs, morals and beliefs which prevailed for generation in that part of the world ? How is it that heredity so failed to function in his case that his character showed no trace of the peculiar traits of his people ?

How could he overcome single-handed those unsurmountable difficulties and emerge from the mighty struggle in which he was engaged unscathed and unaffected ?

In concluding this article, we give in the following pages the views of some modern writers on Mohammad. A contemporary writer writes : "Virtue, as all moralists agree, and as reason points out, could not be associated with vice, for should that ever take place, one of them will inevitably dominate the other; and once it has become dominant, it will exercise its peculiar influence over men. Vice and virtue are diametrically opposed and their respective influence, as established by intuitive and empirical knowledge, is well-defined in each case and admits of no confusion.

Should I claim then that the spirit of Mohammad was the greatest spirit that has ever been known to the world since the creation, no one would hesitate to admit the truth of this assertion. For should he do so, I would simply ask him to point out, if he can, a single individual who alone and single-handed, achieved success in one of the following three items :

Firstly, the unification of a people who were divided into hostile tribes and among whom blood-feuds never ceased from time immemorial; and the stamping out entailed by such unification, of the prevailing vices of those dark ages and the institution of virtue and goodness in lieu thereof.

Secondly, the prescription of a law that endowed them with power and made possible their ascendancy and expansion after having practically been unheard-of.

Thirdly, the extirpation of false beliefs and the institution of a religion inculcating such high ideals as to admit of its growth and development in a most surprising manner up to the present day. Many people adopt this religion of their own accord and through no missionary propaganda. Little wonder therefore that this religion is confidently expected to inherit all the remaining religions in some future day.

Thus with no human aid or counsel to direct it, had this great soul accomplished those three gigantic tasks. So complete indeed was the success it achieved that the leading men of learning in the West unanimously recognise the far-reaching results it involved and rightly regard it as a signal event in the history of the world.

With its mission accomplished, this great spirit rose in satisfaction to where it belonged. The opposition with which it met at the outset only contributed to its eventual success. The name of Mohammad was thus engraved deep in the world-history leaving an indelible mark on the minds

His, was a company of modesty, goodliness and righteousness.

So highly indeed did his people hold him in esteem that they conferred upon him the epithet of "the Faithful" long before his prophetic mission.

In this connection, Al-Nadr Ibn Al-Harith who was sometime the sworn enemy of Mohammad, thus addressed Koreish :

"When a youth, Mohammad was in character the best among you, the most honest and true yet when grey hairs glistened on his temples and he announced unto you his mission you said "a sorcerer for sooth!" Nay by Allah, he is no sorcerer.

HIS HUMILITY AND INDIFFERENCE TO THE WORLD.

We have already alluded in these articles to the Prophet's complete indifference to the world. Suffice it to point out in this connection how little indeed did he care for it and how unheedful he was of the joys and luxury it offered, yet the world lay at his feet and the dominion of Islam extended far and wide beyond the Peninsula. Yet Mohammad died in poor circumstances and his shield was already in pledge to provide the where-withal for his family.

A month or even two may elapse and no fire would be kindled in Mohammad's hearth. To quote Aysha, "Never did the family of Mohammad eat their fill of barley bread for three full days in succession." "The messenger of God left not a single Dinar (1) or Dirham nor a sheep or a camel." "On his death there was nothing eatable in my house save half a loaf of barley bread left over on a shelf."

"Once" Aysha goes on to say "the Prophet told me : the world had been offered me but I declined; I may go hungry one day and eat my fill another; on the former, I would humbly pray the Lord and on the latter I would glorify and praise Him."

(1) A Dinar is an ancient Arab gold coin of 65 grains weight.

HIS LIBERALITY AND MAGNANIMITY

In the exercise of charity Mohammad was unique and incomparable. No one ever petitioned Mohammad in vain. Always ready to help and give his all to the first petitioner who came to his door, he retained nought of the affluence that came to him and lived throughout his life even as the humblest live.

It is cited on the authority of Anas, one of his companions, that a man once petitioned Mohammad for a living and received all the sheep that were grazing between two mountains near by.

On returning to his people, the man called them to Islam and announced unto them that "Mohammad giveth even as him who hath no fear of the onset of poverty:"

More than one person have received the bounty of one hundred camels. One Safwan had on one occasion received three hundred, a hundred, then another hundred then yet another hundred.

Al-Abbas was once given such a quantity of gold that he could scarce carry it and had to abandon the attempt to carry it all.

On one occasion, ninety thousand Dirhams (1) were sent to Mohammad. He ordered them to be laid on a mat in front of him and started on the spot to distribute this huge sum, and never did he refuse a petitioner until the whole ninety thousands were exhausted.

HIS MODESTY AND URBANITY.

"The Prophet" says Aysha, "was the least disposed to vile words or deeds nor did he ever wilfully have recourse thereto." "He never returned evil for evil but he was always prone to pass over the offence and forgive the offender."

In referring to anything distasteful, he was wont to express it allegorically to spare his hearers' susceptibilities.

(1) A Dirham is a silver coin equivalent to nearly sixpence.

thou not!" "Fear thou not!" said the Prophet, "for even if thou wished it, thou wouldst not have been able to do it."

Before his adoption of Islam, Zeid the jew, once came to demand of the Prophet the settlement of a debt. He grabbed him by his clothes and harshly spoke thus to him "Verily, ye sons of Abdul-Muttalib are recalcitrant!"

Omar who was present at the time, severely chided the jew for his insolence but the Prophet who stood smiling said "Verily, he and I are more in need of a different treatment from thee O Omar;" "thou shouldst have bidden me be prompt in settlement of the debt and him to be more courteous in demand thereof." "Three days yet remain ere the debt falleth due." He then bade Omar to discharge the debt and give his creditor twenty handfuls over for the treatment he received on Omar's hands.

Mohammad's behaviour on this occasion, so favourably impressed Zeid that he adopted Islam soon after.

"I have" says Zeid "satisfied myself as to all the signs of the prophet-hood of Mohammad except as regards to two which I have yet to know : "whether his forbearance is outstripped by his temper and whether his tolerance is augmented by insolence."

The preceeding incident prompted Zeid to decide to take his stand once for all, on the side of Islam.

The books of Traditions abound in such instances which we could scarce deal with in this short treatise. But suffice it to point out, in testimony of Mohammad's forbearance and forgiveness, the tolerant attitude which he always maintained in the face of the ever-increasing persecution of Koreish. When, however, he triumphed over them and entered Mecca the scene of his sorest sufferings and persecutions, he nobly forgave them and granted them full amnesty.

"How do ye think I would treat you?" inquired Mohammad of Koreish on the surrender of Mecca.

"We hope for good" said they, "a noble brother and the son of a noble brother," whereupon he said "I say even as my brother Joseph said : There shall be no reproach against you this day; God will forgive you for He is the most merciful; go you are free."

Such unparalleled display of tolerance and magnanimity, gives an insight into the Prophet's character and the momentous nature of his mission. For not only did he refrain from retaliation for the physical injury and humiliation afflicted upon him, but he also forgave his assailants, nay, even took pity on them that he prayed for them and interceded with the Lord on their behalf. Their ignorance was to him a sufficient excuse and hence he prayed the Lord for them for "they know not what they do."

On one occasion when the process of the distribution of spoils was in progress, the Prophet was harshly interrupted by an Arab who said "Observe thou justice in dealing out the spoils for this is no fair division."

Mohammad no more than calmly explained the reason why such division was made. But his companions were so infuriated at the Arab's insolence that they wanted to kill him were it not for the Prophet forbidding them to do so.

On another occasion when Ibn-Al-Harith resolved to slay Mohammad, he came upon him, in one of the expeditions, while he was having his midday sleep in the shade of a lone tree at a good distance from his companions.

Mohammad had just awakened in time to find Al-Harith standing by with a drawn sword in his hand. "What keepeth thou from me?" said Mohammad. "Allah" said Al-Harith and the sword fell from his hand whereupon the Prophet picked it up and offering it back to him repeated. "What keepeth thou from me." "Be thou the best of forgivers" said Al-Harith, which plea the Prophet granted and set him free. On returning to his tribe, Al-Harith is cited to have said "I have come from the best and most noble of men."

Nor was this the only instance in which he forgave the assailant who attempted his life. He forgave the jewess who administered poison in a lamb he was about to partake of. She confessed to her evil intention and was forgiven and set free.

"Never was the Prophet" says Aysa, "inclined to retribution for any harm done him unless the Lord's Law be violated; neither did he smite anything save in the cause of the Lord nor strike a woman or a servant throughout his life."

A man was once brought before him for attempting his life "Fear

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE PROPHET MOHAMMAD ⁽¹⁾

(Continued)



HIS TOLERANCE AND FORGIVENESS

The most tolerant and indulgent of people are sometimes apt to lose their patience and be roused to anger when they are driven to extremes that they could no longer restrain their feelings.

Not so was Mohammad, for his was the patience that grew with persecution and increased in the face of insolence and revilement.

"Never did the Prophet" says Aysha, "have recourse to retribution save when the Lord's Law was violated."

It is related that when the Prophet's eye-tooth was broken and his face lacerated at Ohod, his companions were so deeply chagrined that they asked "Wouldst thou not invoke the Lord's wrath against the unbelievers?" to which he replied, "I have not been sent to invoke evil upon men but to pray for the Lord's favour and a mercy unto them." "Forgive O Lord my people for they know not what they do."

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digawy's Book "*Messages of Peace*".

قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اسْتَعِزَّ بِوَسْوَائِهِ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بُفِّ الأَشْيَاءُ الأَكْبَرُ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصديدها مشيخنا الأزهري الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

المجلد الثالث

ربيع الثاني سنة ١٣٥١

الجزء الرابع

رئيس التحرير

السيد

محمد بن الحسين

من علماء الأزهر

مدير إدارة المجلة

عبد المجيد بن عبد العزيز

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى سابقا

الاشتراك

الإدارة

- داخل القطر المصري ٤٠
خارج القطر المصري ٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذنين
والمعلمين المدارس الأولية والطلاب داخل القطر ٢٠
ولحضرته المذكورين في خارج القطر ٣٠

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل اللغة العربية

ومسايرتها للعلوم والمدنية (١)

في الكائنات ما يدرك بإحدى الحواس ، فيولد في الذهن صورة شيء آخر غير محسوس بالفعل ، كالذخا ن المشاهد على بعد : يولد في أذهاننا صورة النار ، والنار غير ظاهرة لأبصارنا ، وكالاحمرار يبدو على الوجه فجأة فيحضر في أذهاننا معنى الخجل ، ولم يكن قبل ظهور هذا الاحمرار حاضراً ، وكلفظ الأسد يحضر في أذهاننا صورة الحيوان المفترس ، وهذا الحيوان غير حاضر عند ما يطرق اللفظ أسماعنا .

ولا شيء يدل على آخر بطبيعته حتى يكون مجرد وجوده كافياً في الدلالة ، وإنما توجد الدلالة بعد العلم بما بين الشئيين من رابطة ، ولولا ملاحظة هذه الرابطة لما اقترن شيئان في الذهن على أن هذا دال ، وذاك مدلول له . فالأوضاع البدنية كتقطيب الوجه ، تدل على بعض أحوال نفسية كالغضب ، وهذه الدلالة لا تتحقق إلا عند من عرف بطريق التجربة مثلاً — أن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية يرتبطان في الوجود ، وهذا هو الذي يمكنه أن يلاحظ هذا الارتباط ، فتقترن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية في ذهنه ، أولاهما بصفة دالة ، وأخرهما بصفة مدلول عليها .

(١) محاضرة ألقيت بدار جمعية الهداية الإسلامية في مساء الخميس ١٩ صفر سنة ١٣٥١ (٢٣ يونيو

وإذا قالوا : إن دلالة احمرار الوجه على الخجل طبيعية ، فعلى معنى أن احمرار الوجه يرتبط بالخجل بقانون طبيعي ، أما نفس الدلالة فإنها لا تتحقق إلا بعد أن يكون الناظر قد علم أن احمرار الوجه ينشأ عن الخجل ، وهذا العلم إنما يحصل من نحو التجربة أو التلقين .

وعلى هذا النحو يجرى حال الأمور التي لا يربطها بما تدل عليه قانون طبيعي ، وإنما هو العرف والاصطلاح ، فإذا رأينا عالماً على شاطئ البحر عرفنا أن هناك سفينة ، ومن البين أن لا رابطة بين العلم ووجود سفينة بالمرسى غير تلك الرابطة الذهنية الناشئة من اصطلاح الناس على أن يرفعوا على السفن أعلاماً .

ومن هذا الوادى دلالة الألفاظ على المعاني ، فإن المعنى لا يحضر عند النطق باللفظ ، أو لا يحضر حضوراً تنشأ عنه فائدة إلا أن يسبقه العلم بأن هذا اللفظ قد وضع ليدل على هذا المعنى ، وأن المتكلم به ممن يحدو في الكلام حدو هذا الوضع .

اللفظة :

اللغة — كما قال ابن جنى — أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم — وهى مرزبة عرف بها الانسان ، ولم يعرف فى البشرية ليس لها لسان تعبر به عن حاجتها ، وقد حاول بعض الباحثين أن يثبت من تركيب أدمغة أشخاص عاشوا فى القرون الخالية أنهم كانوا محرومين من هذه المزية ، فلم يستطع أن يقيم على ما يقوله دليلاً تام المقدمات صحيح الإنتاج . كما أن العلم لم يستطع أن يثبت لغير الانسان من الحيوان لغة تخاطب ، وفى دائرة المعارف الانكليزية أن هذه المسألة لا تزال تحت البحث .

أصل نشأة اللغة :

تصدى للبحث فى أصل نشأة اللغات كثير من الفلاسفة والمتكلمين واللغويين ، وذهبوا فى البحث مذاهب شتى ، هذا يقول مصدرها التوقيف من الله ، وذلك يقول

مبدؤها الطبيعية ، وآخر يقول منشؤها الاصطلاح والتواطؤ ، والقائلون إن مبدأ اللغات التوقيف لا ينكرون أن تعدد اللغات ونموها من بعد كان بطريق الاصطلاح وعلى حسب الحاجة ، رجح ابن حزم في كتاب الإحكام أن أصلها التوقيف من الله تعالى ، ثم قال : ولا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها ، بها علموا ماهية الأشياء وكيفياتها وحدودها ، ثم قال : ولا ندرى أى لغة هي التي وقف آدم عليه السلام عليها أولاً .

وليس في أدلة هذه المذاهب ما يجعل النفس في قرارة من علم لا يخالطه ريب ، وقصارى ما وصل اليه الباحثون اليوم أن الناظر في اللغة متى توغل في أطوارها الى أقصى ما يسعه التاريخ ، يصل الى شذوذ في تركيب الكلمات أو تركيب الكلام ، بحيث يعتقد أن هذه اللغة لم تبلغ حالتها الحاضرة إلا بعد أن تقلبت في أطوار صرت عليها أحقاباً ، فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوي أو المؤرخ أن يحكم في أصل نشأة هذه اللغات حكماً فاصلاً ، وإنما يستفيد من بحثه في اللغات التي بين يديه أنها تكون في أول أطوارها قليلة الكلمات غير متنوعة الأساليب ، ثم تفرز مادتها وتتعدد أساليبها ، على حسب ما يكون للناطقين بها من ثقافة أو حضارة .

تأثير الفكر في اللغة :

للفكر أثر في اللغة عظيم ، ولولا الفكر لفقدت اللغة خواصها ، ولم يكن لوجودها أية فائدة ، فإن الفكر هو الذي يربط الألفاظ بمعانيها ، فيعتمد إليها وهي أصوات فارغة ، فيردها كالأصداف تحمل من درر المعاني ما يبهز العقل ، أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيه النفس ، والفكر هو الذي يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها ، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة ، أو يبتدع فيها أساليب طريفة ، ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها ، وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها .

ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة أن اللغة لا يرتفع شأنها وتظهر فصاحة ألفاظها وغزارة مادتها وحسن بيانها إلا أن تلد أرضها رجالا ذوى عقول نيرة وقرائح جيدة .

تأثير اللغة في الفكر :

للفكر تأثير في اللغة كما أسلفنا بيانه ، وهذا لا يمنع من أن يكون اللغة تأثير في الفكر من بعض الوجوه ، وقياس هذا أن العلم يزيد الأُخلاق تهذيبا ، وللأخلاق الملهذه كالصبر على طول البحث ، والإِصناف في المحاوره ، دخل في توسيع دائرة العلم أو تحقيق ما يشكل من مباحثه .

تؤثر اللغة في الفكر من جهة أن المعاني لا تمايز ولا تخرج في وضوح إلا أن يشار الى كل معنى بلفظ يخصه ، فاللغة وسيلة إيضاح المعاني الغامضة ، وتنسيق المعاني المختلطة ، والرجل الذى يريد أن يؤدي المعنى في صورة منتظمة ، يفكر في اختيار الألفاظ والأساليب أكثر ممن لا يبالي أن تقع صور المعاني في ذهن مخاطبه مبهمه مختلطة .

وتأثير اللغة في وضوح المعنى وتنظيمه في ذهن المخاطب أمر لا شبهة فيه ، والذي يمارس التدريس أو التحرير ، قد يحس في نفسه معاني بجملة أو مختلطة ، فيأخذ في معالجتها بالبسط أو التنسيق ، وإنما يستعين على بسطها أو تنسيقها بكلام نفسى ، وليس هذا الكلام النفسى إلا صور ألفاظ لغوية تتسرب من قوة الحافظة الى المفكرة ، فاللغة تأثير على الفكر من قبل أن يعبر عنه بالقلم أو اللسان .

واللغة تصور ما يخطر في الفكر من المعاني ، وهى التى تجعل المعاني محفوضة باقية ، وكذلك يقول أحد الفلاسفة : « الأفكار التى لا تودع فى الألفاظ كالشرارات التى لا تبرق إلا لثموت » .

ولا تقتصر اللغة على نقل ما يجرى فى أقوال الأجيال الماضية من المعانى الحيوية ، أو الآراء العلمية أو الأدبية ، بل تنقل إلينا طرق تفكيرهم ، ومن الواضح أن الأقوام

يختلفون في طرق التفكير ، وطرزُ تفكير كل قوم مبثوث في ألفاظهم ، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم .

هل يمكن اتحاد البشر في لغة ؟ :

يقول الباحثون في اللغات : كانت اللغات في أول الأمر فقيرة مختلفة ، إذ كان لكل جماعة صغيرة من البشر لسان خاص ، وبكثرة اختلاط صنوف البشر واشتراكهم في المنافع أخذت بعض اللغات تقترب من بعض ، بل أخذ بعضها يندمج في بعض ، فقلَّ عددها ، واتسع نطاق بعضها .

ثم رأى بعض علماء أوربا مثل (ديكرت) أن تعدد اللغات أدى الى صعوبة التفاهم بين الأفراد المختلفة الشعوب ، وهذا مما يجعل سير المدنية بطيئاً ، فارتأوا وضع لغة جديدة لتكون لسان البشر جميعاً ، وقد سعى لإفناذ هذا الرأي الطبيب البولوني « لودفيج زامنهوف » (Ludwing Zamenhof) فوضع اللسان المسمى الاسبرانتو (Esperanto) .

وقد اعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين حرفاً ، ووضع له ست عشرة قاعدة ، ومعظم كلماته من اللغة الرومانية والانكليزية ، وفي العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو ١٧٧٦ جمعية ، وفي ألمانيا وحدها من هذه الجمعيات ٤٤١ جمعية مركزها الرئيسي في مدينة لايبتيق ، وجمعيات العالم كلها مركزان أساسيان أحدهما في جنيف ، والآخر في باريز ، وفي أوربا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة ، وفي دائرة المعارف الألمانية أن عدد الذين يتكلمون بها يقرب من مائة وثلاثين ألفاً .

وإذا أمكن انتشار لسان من الألسنة حتى يعرفه جميع الأمم زيادة على ما يعرفون من لغاتهم القومية ، فمن الصعب جداً أن ينتشر بين الشعوب على اختلاف مواطنها

لغة تستولى على ألسنتها، وتطمس على آثار لغتها، فإن الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس، وهل من سبيل إلى أن تتحد الأمم في تفكيرها وإحساسها؟

اللغة العربية لا تموت :

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الأمم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها، وإذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها، فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرص الناس على حياة لغتهم، فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى وإن تضافر على هذه اللغة أمم الأرض جميعا .

تأبى هذه الشعوب هجر اللغة العربية وتحويل ألسنتها إلى لغة أخرى، تأبى ذلك لأنها لغة القرآن الذي هو معجزة الرسالة ومطاع الهداية، ولأنها تملك من فصاحة الكلم، وحكمة الأساليب، وغزارة المادة ما يجعل خطيبها أو شاعرها أو كاتبها المجلى في حابة البيان، فلو زهدت هذه الشعوب الإسلامية في اللغة العربية كانت قد فرطت في جنب الله، وأضاعت من يدها لسانا بلغ في الإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات بنى الانسان .

كتب^(١) « جول فرن » قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هناك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية، قال : إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه .

اللغة في عهد الجاهلية :

كانت اللغة في عهد الجاهلية تعبر عن حاجات القوم وما تجود به قرائحهم، أو يجرى في مخيلاتهم من صور المعاني، فما كانوا ليحسوا نقصا في لغتهم، وإنك ل ترى المذاهب

(١) من مقال « عليكم باللغة العربية » للاستاذ محمود بك سالم .

التي كانوا يطلقون فيها أعنتهم، كالفخر والنسيب، فسيحة الأرجاء إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الناس في مثل بيتهم، الآخذ من المعاني المحسوسة أو المعقولة مأخذهم، ومن نظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم، وجد من جودة تصرفهم في المعاني وحسن سبكهم لألفاظ ما يدل على أنهم كانوا يرسلون الفكر والخيال، ويصوغون ما شاءوا من المعاني، فيجدون في ألفاظ لغتهم وأساليبها ثروة تسعدهم على أن يقولوا فيبدعوا، وإليك مثلاً من إبداعهم في الفخر بالبسالة، والثبات في حومة الوغى، قال ودّ الثبّ ثميل المازني يخاطب بني شيبان :

رويد بني شيبان بعض وعيسكم	تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى	إذا ما غدت في المازق المتداني
عليها الحكمة الغر من آل مازن	ليوث طعان عند كل طعان
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم	على ما جنت فيهم يد الحدّان
مقاديرهم وصلون في الروع خطوهم	بكل رقيق الشفرتين يمان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم	لأية حرب أم بأيّ مكان

هذه الأبيات إيدان بالحرب، افتتحها الشاعر بشيء من التهمك، فقال : « رويد بني شيبان بعض وعيسكم » وإنما كان طابعه الكف عن بعض وعيسهم تهكماً، لأن هذا الطلب شأنه أن يصدر ممن يعتقد قدرتهم على تنفيذ كل ما يوعدون به، وبعد أن تظاهر بكبارهم والرهبة من وعيسهم على وجه التهمك فاجأهم بإنذار بليغ هو لقاءهم فرسان قومه بالمكان المسمى « سفوان » فقال : « تلاقوا غدا خيلي على سفوان ».

ثم وصف هذه الخيل بأنها متدربة على الحروب غير هيابة من مضائقها فقال :

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المازق المتداني

وليست الخيل كافلة للنصر إلا أن تكون أعنتها في أكف رجال لا يلوون جباهم عن طعان، لذلك أردف هذا البيت بقوله :

عليها الحكمة الغرّ من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
وفى وصفهم بالغر إيماء الى شاهد من شواهد قوة الجأش وهو طلاقه الوجه
ووضاءته عند لقاء الأقران ، وقال : « عند كل طعان » ليدل على أن الشجاعة قد أشربت
في نفوسهم فلا تتأخر عنهم في موطن ، ولا تغيب عنهم في حال ، وعزز هذا
البيت بقوله :

تلاقوهم فتمعرفوا كيف صبرهم على ما جنت فيهم يد الحدّان
ليدل على أن خلق الصبر فيهم وثيق العرى ، واسع المدى ، وليسوا بمن يزفون
الى الحروب زفيف النعام حتى اذا طال عليهم أمدّها ، وكثر ما لا قوه من مكارهها ،
ضجروا من صحبتها ، ومالوا بالسيوف الى أغمارها . وفى الناس أولو شجاعة ولكن
شجاعتهم لا تتجاوز بهم أن يبسطوا أيديهم على قدر ما تناله سيوفهم أو رماحهم ، فقصد
الشاعر الى أن يدل على أن قومه ليسوا من هذا الصنف ، فقال :

مقاديم وصالون فى الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمان
يعنى أنهم يقدمون فى القتال حتى اذا قصرت سيوفهم ، وبعُد ما بينها وبين
أعدائهم مشوا قُدما حتى يضربوا بشفارها الرقيقة فى مقاتلتهم ، ولم يبق لبني شيبان
أمل فى النجاة إلا أن يرجوا من هؤلاء الحكمة النظر فى أمر هذه الحرب ، فلعلهم يرون
عواقبها غير صالحة فيتحاموها ، فقطع الشاعر عرق هذا الأمل فقال :

اذا استنجِدوا لم يسألوا من دعائم لأية حرب أم بأى مكان
فأخبر أنهم كالجنود متأهبون للخوض فى غمار الحروب ، ولا يزيدون على أن
يسمعوا نداء من يستنجدهم ، فيطيروا الى ما يناديهم له غير سائلين عن سبب الحرب :
أحق هو أم باطل ، ولا عن مكانها : أقرب هو أم بعيد .

تأثير الاسلام في اللغة :

طلع الاسلام على العرب وفي هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون ، بل في هدايته ما لا تقي اللغة يومئذ بالدلالة عليه ، فعبّر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء ، ومن الجلي أن القرآن الكريم والحديث النبوي قد سلكا في البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ ، ثم إن فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بسطة بمانقل اليها من المعاني العلمية أو المدنية ، ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها ، وبراعة أساليبها ، واتساع مذاهب بيانها ، وكثرة الأغراض التي يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة .

فضل اللغة العربية :

للغة العربية فضل من جهة اعتدال كلماتها ، فإننا نجد أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف ، وأقل من الثلاثي ما وضع على أربعة أحرف ، وأقل من الرباعي ما وضع على خمسة أحرف ، وليس في اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية ، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدا على حرف واحد أو على حرفين .

ولها فضل من جهة فصاحة مفرداتها ، فليس في كلماتها الجارية في الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع ، وللمعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضوء قطعاً أو خطباً أو قصائد تسترق الأسماع وتسحر الألباب . ولعناية العرب بهذيب الألفاظ زعم قوم أن العرب تعنى بالألفاظ ، وتغفل للمعاني ، وهؤلاء هم الذين رد عليهم ابن جني في باب مستقل من كتاب الخصائص ، ومما قال في هذا الباب : « فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، وحسوا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه وتشريف ، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحسينه وتركيبه وتقديسه » .

كانت اللغة الفارسية في الشرق هي التي يمكن بها لها من فصاحة وحسن بيان أن يوازن بينها وبين اللغة العربية ، وقد شهد بعض الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأن العربية أرقى مكانة وألطف مسالك ، قال ابن جني في الخصائص : « إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي ، وقد تدرب قبل استعرا به ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه ، سألت غير مرة أبا علي عن ذلك ، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيتة » .

وقد استدل بعض علماء الأدب بما كتبه أرسطو في الشعر على أن الشعر العربي أرق من الشعر اليوناني ، قال حازم في كتاب المناهج الأدبية ^(١) :

« ولو وجد أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى ، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها ، وفي إحكام مبانيها واقترباتها ، وطلب التفاتاتهم وتمنياتهم واستطاداتهم وحسن ما أخذهم ومنازعهم ، وتلاعبهم بالأقاويل الخيلة كيف شاءوا ، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية » .

هذه شهادات صادرة ممن يعتقدون أن اللغة العربية فضلا من جهة أنها اللسان الذي نزل به القرآن الكريم ، واليك شهادات ممن لا يؤمنون بالقرآن ، وإنما ينظرون إلى اللغة من ناحية حسن البيان ، قال المستشرق : « أرنست رينان » في كتابه تاريخ اللغات السامية :

« من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحّل . تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها . وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بالمكتبة الصادقية في تونس .

ظهرت لنا في حلل السكّال الى درجة أنّها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى إنّها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة — لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ، ولا تعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج ، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة » .

وقد ذكر محاسن العربية رجال يعرفون غيرها من اللغات الراقية ، وشهدوا لها بأنها أقرب اللغات انطباقاً على النظم الطبيعية ، قال المطران يوسف داود الموصلي : « من خواص اللغة العربية وفضائلها أنّها أقرب سائر لغات الدنيا الى قواعد المنطق ، بحيث إنّ عباراتها سلسلة طبيعية ، يهون على الناطق صافي الفكر أن يعبر فيها عما يريد من دون تصنع وتكلف ، باتباع ما يدلّه عليه القانون الطبيعي ، وهذه الخاصية إنّ كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية في وجه من الوجوه ، فقلما تجدها في اللغات المسماة « الهندية الجرمانية » ولا سيما الأفرنجية منها » .

لندع الحكم بين اللغة العربية وأى لسان أعجمي لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الأعجمي ، فهو الذي قد يصغى اليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف ، ويتلقون حكمه بالقبول ، والذي أقوله وأنا على بينة مما أقول : أن أساليب اللغة العربية أقرب الى النظم الطبيعية من اللسان الألماني ، فإن في اللسان الألماني ضرباً من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبيعي ، وليس لهذه الضروب في العربية الفصحى من شبيه ، ففي اللغة الألمانية أفعال مركبة من قطعتين ، يضع المتكلم إحدى القطعتين في أول الجملة ويضع الأخرى عند انتهائها ، فالسامع لا يعرف معنى الفعل عند ما يسمع القطعة الأولى في صدر الجملة ، ويبقى معه لفظ لا يدري ما معناه حتى يصل الى القطعة للمقابلة في آخر الكلام . والمتكلم باللسان الألماني يأتي في صدر الجملة بعلامة استقبال الفعل أو مضيه ، أما الفعل نفسه فهو آخر ما تسمعه من الجملة ، أعني أنه يأتي بعد المفاعيل

والظروف ونحوها . والمتكلم باللسان الألماني كثيرا ما يورد أداة التعريف ولا يأتيك بالمعرف إلا بعد كلمات أو جمل لها صلة بالمعرف ، وقد تلاقيك أداة تعريف ولا تصل الى المعرف إلا بعد أن تقرأ نحواً من سطر أو سطرين .

الحاجة الى مجمع لغوي :

قد أريناك أن اللغة العربية بالغة من حسن البيان ما ليس بعده مرتقى ، وكانت تجرى مع العلوم والحضارة جذبا لجذب ، فلا يقف علم أو خطيب أو شاعر ، إلا وجد في غزارة مادتها وإحكام أساليبها ما يمكنه من إبراز الحقائق أو التخيلات في برود ضافية محبرة ، ثم أدركها نقص منذ حين ، وأخذت تتباطأ في مسيرة العلوم والمدنية ، حتى تقدمها كثير من اللغات النامية ، وأصبحت هذه اللغات تجول في كثير من العلوم والفنون ، وتعب عن معان تقف دونها اللغة العربية صامته .

ولم تقع اللغة العربية في هذا التباطؤ لقلة مفرداتها ، أو ضيق دائرة تصريفها ، أو إبايتها نقل بعض كلماتها من معانيها الأصلية الى معان أخرى تناسبها ، ولو كان شيء من هذا دخل في تباطؤها ، لعذرنا أولئك الذين يحاولون صرف الألسنة عنها ، ويدعون الى أن تأخذ كل جماعة بلغتها المعتلة المشوهة ، ولعذرنا أولئك الذين يدعون الى استبدال الألفاظ الأعجمية ، وحشرها في منشآتنا وأشعارنا وخطبنا ومحاوراتنا ، وإنما علة ذلك النقص غفلة المعهود اليهم بالقيام على حياة اللغة ومساريتها للعلوم والفنون والمدنية .

والوسيلة التي نهض باللغة ، وترفعها الى مستوى اللغات الراقية ، هي الوسيلة التي نهضت بتلك اللغات الحية ، وجعلتها تسير مع العلم والحضارة كتفا لكتف ، أعنى تأليف مجمع لغوي ينظر فيما تجدد أو يتجدد من المعاني ، ويضع لكل معنى لفظا يناسبه ، ولا عجب أن تكون اللغات الأجنبية الراقية قائمة بحاجات العلم والمدنية ، وأن يكون باللغة العربية خصاصة من هذه الناحية ، فإن أصحاب تلك اللغات قد سبقونا الى عقد

المجامع اللغوية منذ أحقاب ، فالجمع اللغوى فى المانيا تألف سنة ١٦١٧ م ، والمجمع اللغوى فى فرنسا تألف سنة ١٦٣٤ ولم ننس أن كلمات كثيرة حدثت فى اللغة العربية لهذا العصر ، وأصبحت تجرى على السنة أدبائنا ، وتنطق بها أقلام كتابنا ، وهى عربية المنبت ، خفيفة الوقع على السمع ، آخذة حظها من مناسبة الوضع ، ولكن العلوم تندفق تدفق السيل ، ومقتضيات المدنية تتجدد تجدد النهار والليل ، وكل من المعانى العامة والمرافق الحيوية تحتاج الى أسماء تلتئم مع سائر الألفاظ العربية التمام الدرر النقية فى أسلاكها ، وتلك الكلمات المشار إليها إنما هى من صنع أفراد قد تنساق اليهم من نفسها ، فيقع عليها اختيارهم ، وتصادف فى الناس حاجة ، فتتلقفها أسنتهم ، وهذه الطريقة لا تشفى غلة العلم ، ولا تملأ المدنية عيننا ، وإنما يشفى غلة العلوم للتكاثر ويملاً عين المدنية الزاخرة ، تأليف مجمع لغوى يسير مع العلوم والمدنية ، لا يتأخر عنها طرفة عين .

ذكر ابن حزم فى كتاب الأحكام سنة من سنن الكون فى سقوط اللغة ، فقال : « إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم ، أو تنقلهم عن ديارهم ، واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ، ونشاط أهلها وفراغهم ، وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم ، فضمون منهم موت الخاطر ، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ، ونسيان أنسابهم وأخبارهم ، ويود علومهم ، هذا موجود بالمشاهدة ، ومعلوم بالعقل والضرورة . »

وقد أصاب ابن حزم فى حكمه على الأمة التى تقع تحت سلطان من لا ينطق بلسانها ، من أن لغتها تصير الى انحطاط أو ضياع ، وهذه سنة لغات الأمم التى يجدها الأجنبي فى جهالة ، ويتمكن من أن يبقيا فى جهالتها ، أما الأمة المتيقظة لوسائل سلامتها وعزتها ، فإنها تندفع فى ابتغاء هذه الوسائل بكل ما تستطيع من حيلة ، وعلى

كل ما تهتدى اليه من سبيل ، فلا تألو جهدا في الاحتفاظ بلغتها ، والعمل لا إغلا ، شأنها ، على الرغم من كل من يكيد لها ، ويبرى السهام ليرى بها مقاتلتها ، وفي البلاد التي تنطق بالعربية شعور ساطع في نفوس شيوخها وشبابها ، ومن أثره هذه الغيرة التي تملأ ما بين جوانحهم ، وتهزهم أفرادا وجماعات الى النظر في إصلاح ما اختل من أمورنا ، وإعادة ما تقوض من مجدنا ، فنحن على ثقة من أن اللغة العربية سترفع رايها ، وتفوق اللغات الراقية بغزارة مادتها وفضل بلاغتها ، وما ذلك من هم أبناءها وطموحهم الى الحياة الماجدة ببيعيد

محمد الخطير مسين

الطرف والمُح

قال المهلب يوماً لجلسائه : أراكم تعنفونني في الإقدام ، قالوا : إى والله إنك لستقوط بنفسك في المهالك ، قال : إليكم عني : فوالله لولا أن آتى الموت مسترسلا ، لآتاني مستعجلا ، إني لست آتى الموت من حبه ، إنما آتية من بغضه ، ثم تمثل بقول الحصين بن الحمام المرى :

أرى كلنا يهوى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهما بها صباً
خُب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

النفس

سورة النور

٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وهذا باب آخر من أبواب الخير الذي أنعم الله به على الأمة بسبب هذه الحادثة الشديدة ، حادثة خوض من خاض في أم المؤمنين رضى الله عنها ، ذلك هو هدايتهم الى شدة خطر هذا الجرم وعظيم هوله ، وقد كانوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . وإنك لا تجد من أنواع الجرم ما يقدم عليه صاحبه غافلا عن عظيم خطره إلا جرم اللسان ،

وكان سهولة حركته بطبعه ، ولذة التحدث بالأمر المستغربة ، وحسبان أن الكلام لم ينقص من المتكلم فيه شيئاً محسوساً يذكر ، مع اعتياد الناس التساهل في القول والسماع ، كل أولئك جعل الناس يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

إن من شاء أن يشهد عظمه يرجع الى ما يجده من نفسه حين ينقل اليه أن فلانا ناله بكلام يكرهه وإن كان صادقا ، فإنه يجد من غليان دمه وثوران نفسه ورعدة جسمه ما يحمل على الجزم بأنه لو تمكن منه ما أبقى عليه ، فاذا كظم غيظه كظمه على حقد وحرص ، وترى له في نفسه من المقت والكرهية ما يجعله يتربص به الدوائر ، ويسره أن يراه في أشد مكروهه ، هذا إذا لم يشغل فكره في الانتقام منه ، وناهيك بضرر نزع الرحمة من قلوب متحابة ونفوس متآخية . هذا كله في الكلام المستكره مطلقا ، فما بالك بالكلام في العرض وهو مستقر الشرف ومستودع الحياة ؟ وكيف اذا كان من ينال من عرضه سيده محصنة ؟ وكيف اذا كانت من أشرف الخلق بهذه المنزلة ؟ أفليس العقل لأول نظرة وأدب الدين لمن حل قلبه يقضى أن يقولوا : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم ؟ .

والشيوخ : الانتشار ، والفاحشة والفحش : الجرم الخزي المغيب ، وقد يكون الجرم شديدا كالقتل والكفر ولا يسمى فحشا وفاحشة ، فإنك لا تجد القاتل يلحقه من العار والخزي والاستخذاء وتنكيس الرأس خجلا وعارا مثل ما تجده فيمن رمى بتلك الفاحشة . وإن أسلوب الآية من ربط العذاب الأليم في الدنيا والآخرة بمحبة الشيوخ مع أن الظاهر أن يقال : إن الذين يشيعون الفاحشة الخ : فيه مبالغة في الزجر والتهويل ، وكأنه يقول : إن المحبة لهذه الخطة المرذولة والرضا بها موجب للعذاب في الدنيا والآخرة ، فكيف بالخوض فيها والعمل على نشرها بالفعل ؟ (وترتيب العذاب على محبة الجريمة المستلزمة الإصرار عليها لا ينافي قولهم : إن الهم بالمعصية ثم تركها

لا عقوبة فيه) وهو في هذا منبه للمؤمن الى أصل الداء من نفسه ، وهو عجة هذا الأمر الشنيع الفظيع ، فتي تنبه الى أصل الداء عمل على مداواة منه واستأصل شأفة العلة قبل بدو آثارها . وإن فيه مع الإرشاد الى العلاج الحاسم تنبيهاً لمنشأ المرض ، وهو ميل النفوس بفطرتها الى التمسك في الشرف والمجد ، وأن تفوق غيرها في كل فضيلة ، فاذا شعرت بتقيصة عند الغير رأت ذلك موافقاً لرغبتها وأثرها ، وهو انفرادها بالطهارة حيث تدنس الغير فيسترسل في الجريمة وهو لا يشعر . فانظر الى هذا التأديب العجيب والإعانة على تعرف ممكن الداء ليستأصل بأسهل دواء ، سبحانه لا نحصى ثناء عليك .

وإنك اذا تأملت في تعليق الشيوخ بالفاحشة نفسها مع أن المراد شيوع خبرها والحديث فيها ، وجدت باباً آخر من الإرشاد ، ذلك أن الأسماع التي لم يطرقتها حديث الفحشاء تجد أصحابها في أكل نفرة من خطراتها على نفوسهم ، فاذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه وأكبرت الأمر ، وملسكه من الملح والذعر الشيء الكبير ، فاذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمأزاه ونفرته أقل ، فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمراً مألوفاً لا يستنكره ولا ينفّر منه ، وقد يزيد حتى يستمرى الحديث ويصغى اليه ، وهنا تنفتح أمامه هوة التدهور فيتردى فيه وقد مات حارسه وهو عاطفة الاستنكار والنفرة ، فتري بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة ، فلا جرم عبر به عنه . ومما يزيدك استبصاراً في هذا ما ترى من تخرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث ، فما ذاك إلا لما وقر في النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس اليه فيردى فيه ، وهل يشك أحد في أن من أساليب الترغيب في الشيء خيراً كان أو شراً تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شئونه ؟ وهل يربي الشجاعة والكرم في النفوس مثل أخبار الشجعان والأجواد ؟ فهذا من سر التعبير بقوله : (يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ) الخ .

وإذا كان ذكر الفاحشة مستكرها على كل حال فإن للتعبير بهذا اللفظ هنا جمالا ياله من جمال ، فقد بين به ما يحمل على النفرة منه ، واختير على لفظ الزنى تحاميا عن ذكره في هذا الموطن ولو بطريق النقي مبالغة في تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها ، ثم ليعم جميع أنواع الفحش . وأما قوله جل شأنه : (فِي الَّذِينَ آمَنُوا) ففيه إثبات ما هو كدليل البراءة والتكذيب للأفاكين ، وهو إيمان من وجه اليهم هذا الرمي الشنيع ، وما كان المؤمن الصحيح الإيمان مظنة لهذه المنكرات ، كما أشير إلى ذلك بقوله عز وجل فيما تقدم : (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) وفيه مع هذا لفت نظرهم إلى ما في أنفسهم مما يمنعهم من هذا الفحش ، وإنهم ليجدون من أنفسهم أن إيمانهم يمنعهم من مقارفته ، فحقهم أن يقيسوا إيمان من رموهم على إيمانهم ، وهذا كما يفهم من التعبير عن المرميين (بأنفسهم) في الآية السابقة .

وقوله : (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) قالوا : إن التعبير بلهم فيه إشارة إلى أن هذا حق من حقوقهم ملازم لهم لا يعدوهم ولا يخاصون منه فهو نصيبهم من عملهم ، والعذاب المتوعد به في الدنيا شامل لحد القذف ، ولما يصيب المتعرض للأعراض غالبا من مصائب الدهر ، ولحوق المحزيات ، وتسليط الألسنة على عرضه تثير منه ما مكن بالباطل وبالصحيح ، ومن غربل الناس نخلوه ، ومن فتن عن عوراتهم فضحوه ، ومن لا يتق الشتم يشتم . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى ، ويبين جانبا من خطره ما شر حناه آنفا في شديد وزره وقبح أثره .

وأما قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فهي تنعيم لهذه الإرشادات منزلة منها منزلة قوله فيما سبق : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) كأنه يدفع بها خاطر من يظن أن الكلام كثير عليه أن يستتبع كل هذا الوعيد ، فخرج عن أنه كلام ، والكلام فيه الصادق وفيه الكاذب ، فجاءت هذه الجملة الجميلة لتبين لهم أن الله

عليه بالأعمال وآثارها، وما يترتب عليها في نفس من وجهت إليه، وفي نفس من وجهت منه، وفي نفس السامعين من مضار كثيرة، وقد أشرنا فيما سبق إلى شيء منه، فكأنه تعالى يدعونا إلى أن نستمسك بهدايته فيما تبين لنا وجه الحكمة فيه وفيما خفي علينا فهو العليم الحكيم، وهو الرؤوف الرحيم، فلا تركوا علمه الحق إلى أوهامكم الباطلة، فذلك أردفها بقوله جل من قائل: (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) فقد تفضل عليكم وأرشدكم إلى ما فيه خيركم، وزجركم عما يقطع أوصالكم، وينفر قلوبكم بعضهم من بعض، ويربى الضعيفة والتقاطع والتدابير في نفوسكم، وأقل ثمرة من ثمراته أن يجعل أحدكم يحب الضرر لصاحبه، ويجعله يفرح به ولو لم يكن من ناحيته، فكفى بهذا شؤماً، فضلاً عما ينشأ عنه من استهتار النفوس الضعيفة في الفحش واستهانتها بالوقوع فيه لتكرار ذكره أمامها، أولنسبته إلى من كان يظن فيه الخير، فيقول في نفسه: وأين أنا من هذا؟ إذا كان هو قد حصل منه فلم لا يحصل مني؟ فيكون بئس الربى؛ ولا تنوهم أن في قوله: (وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) تكراراً مع قوله: (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) فإن في الأول ذكر الآثار اللاحقة بالعباد والرحمة المسبغة عليهم تفضلاً منه وإحساناً، وفي الثاني ارتقاء بذهنهم ليشهدوا صفته تعالى الثابتة القارة التي هي مصدر تلك الآثار وعنها تنشأ جميع النعم، والتي يقرب فهمها قولهم في جانب المخلوقين: ملكة راسخة في النفس، فكأنه لفت نظرهم أولاً للآثار المتجلية الواضحة، واستطرق منها إلى ما هو منها بمنزلة المدلول من الدليل. وحذف جواب لولا يفيد ما لا يفيد أي ذكر، فكأنه قيل: لولا الفضل والرحمة لوقعتم في هذه المهالك ولضلت بكم المسالك، ولكان بعضهم على بعض شراً ووبالاً، ولساءت حياتكم حالا وما آلا، فالحمد لله على فضله ورحمته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) هذا إرشاد جديد، وتنبيه أوسع دائرة

مما سبق ، وتحذير من عدو بعيد وهو الشيطان ، بعد التحذير من العدو القريب وهو النفس ، فقد أشير في الأول الى بعض أسباب هذه الجريمة وهو محبة النفس وميلها الى الاستئثار بالشرف ، والانفراد بمجد الطهارة ، وبين لهم ما في هذا الأمر الذي تحبه نفوسهم من طلائع المقت والغضب الإلهي والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وأشير هنا الى سبب آخر وهو ما يلقبه الشيطان من الوسوسة في النفوس والهواجس المنكرة ، وأن له تحديثا خفيا مع النفوس المصغية اليه فيوقع في وهما من منكر القول وزوره ما تعلق به ويلحق بها ، فتستترسل فيه وتزيد عليه من فروضها واحتمالاتها ، وتستن في ذلك شوطا بعيدا جريا وراء الخطوة الأولى التي رسمها لها الشيطان وخطاها أمامها . ولا شك أن تنبيهك الغافل الى ما سيتردى فيه ، والى أن قائده هو عدوه الأكبر الذي عاهد الله على إغوائه ، وأن يختلط عليه كل مسلك ، وأن يأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، هذا التنبيه بلا شك يرد الى العاقل عقله فيقيمه شر الشرك الذي نصب لاصطياده ، ومن يتبع خطوات الشيطان ضل سواء السبيل ، وأشرف على غاية هي الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة ، فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وأمره إغواؤه وإغراؤه ووسوسته بتزيينه الشر والقبيح ، وإبداء ما قد يرغب فيه من اغتنام لذة عاجلة ، أو تشف من نفس مكروهة .

وإنك اذا علمت أن الشيطان مخلوق حي ذو فهم وتعرف وإن كنت لا تراه ، ونظرت الى أنه يجري بين الناس تفاهم على أوجه شتى ، من نظرات وإشارات وتصنعات ، بل قد يجري بينهم ما هو أدق من هذا في التفاهم ، إذ قد يتفاهم اثنان بجريان الخواطر بين نفسيهما ، وإن كان قليل من الناس من يعرف هذا أو يعترف به ، أقول اذا علمت هذا سهل عليك تصور وسوسة الشيطان للنفوس ، وإلقاء المغريات بالشرف في روعها وتذكيرها بمحاسن المفاصد ولذات الفواحش ، وشغلها عن التفكير في عواقبها ، واستعانتها عليها بما وقر فيها من عواطف ، حتى اذا كانت عواطف خير قلبها الى الشر واستخدمها .

ومن أمثلة ذلك ما يحكى أن عبدا كان فى صومعة ، وكان بجواره رجلان لهما أخت جميلة ، فعن لهما أن يسافرا فاستودعاها أختهما ليتولى إطعامها وليحميمها ويحرسها ، فكان فى كل يوم يحىء بطعامها يضعه على باب صومعته فتجىء تأخذه ، فحسن له الشيطان أن يكرمها بوضع الطعام على باب بيتها حتى لا تتجشم المشى الى صومعته وقد يقابلها فى طريقها ما يؤذيها ففعل ، ثم بدا له أن يزيدا إكراما بأن يناديهما لتأخذه منه حتى لا يتعرض الطعام لما قد يفسده ففعل ، ثم رأى أن فى طول مقامها منفردة وحشة مسئمة فقد يكون من الخير أن يسرى عنها بالتحدث اليها فترة وجيزة ففعل ، وهنا تمكن الشيطان أن يحجل بينهما ، فما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان نالهما ، فوقعا فى التهلكة . فلقد جاءه الشيطان من طريق الخير ، ووجد من نفسه ميلا الى ذلك ، وأغفله عما سيجره اليه من سوء المصير .

وقوله تعالى بعد هذا البيان والإرشاد : (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) فيه تنويه بهذه الهداية العظمى ، ليمسك بها ويعمل جهد الطاقة على امتثالها ، ومن الحق أن من وقع فريسة ضعيفة بين هذين العدوين القويين الخفيين : النفس والشيطان ، لا يكاد يزكو لولا فضل الله عليه بالتزكية والتطهير ، وأنى له أن يزكو وهو مستمرى ما تدعوه اليه نفسه ويدفعه اليه شيطانه ؟ فكيف يستمسك وهو بين قائد ضال ودافع أضل ؟ ولكن الله يزكى من يشاء ، فهو يختار من عباده من ينقذهم من سلطان الشيطان ويصطفهم عبادا له . والله سميع عليم ، فهو لا يخفى عليه شئ مما يجرى من حديث النفس أو وسوسة الشيطان ، ولا يخفى عليه شئ من استمسك نفوس الأصفياء بالأخيار ، وردهم له مذموما مدحورا ، وقمعهم نفوسهم يحفظونها من التردى فى الهاوية ، فيذكرون ما يؤمنون به من أن الله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه قدير عظيم ، فهو مالك ناصيتهم ، فإن شاء سلبهم حياتهم أو قدرهم وإن شاء أمهلهم حتى يوقع بهم شديد العذاب ، وأنه ذو الجلال والإكرام الذى من

حقه أن يستحيا منه ، فلا يقدم على ما يكرهه ولو لم يكن خائفا عذابه ، كما قيل في صهيب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » .

هذا وفي ختم هذه الآيات بقوله تعالى : (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فتح عظيم لباب التوبة ، ودعوة واسعة الى الدخول في حظيرة التزكية ، وتشويق الى ذلك ببيان أن الله سميع لما يجري منكم من خير أو شر ، فاجعلوا ما يسمعه منكم مما ترجون به رحمته ، عليم بكل شيء ، ومن جملة ذلك نيائكم التي تعقدونها على الخروج مما تورطتم فيه من المعاصي . وإنك لتجد في هذه الإرشادات المتوالية والتربية العالية ما يشرح لك قوله جل شأنه فيما مضى : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) نسأل الله تعالى أن يهدينا للخير ، وأن يزكينا بفضلته ورحمته ، إنه سميع مجيب ما
ابراهيم الجبالي

الظرف والمحل

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخصمه : والله لو صور الجهل لأظلم معه النهار ، ولو صور العقل لأضاء معه الليل ، وإنك من أفضلهما لمعدم ، خف الله ، واعلم أن من ورائك حكما لا يحتاج المدعى عنده الى إحضار بينة .

*
* *

وقال أعرابي لأبيه : يا أبت إن في كبير حقدك ما يبطل صغير حتى عليك ، والذي تمت به الى أمت بمثله إليك ، ولست أزعم أنا سواء ، ولكن لا يحل لك الاعتداء .

اعتراف أجنبي بفضل الاسلام

شيء مما يقوله علماء الافرنج عن الدين الاسلامي ، وما للعبادة البدنية فيه من الأثر في تربية النفوس وتركبة الأخلاق ، لعل في نشره هنا عظة بالغة لتاركي الصلاة والمفرطين في جنب الله ، الساخرين بنواهيه ، المضيعين لأوامره ، ولعلمهم ينتهون .

جاء في كتاب العقيدة الاسلامية لمؤلفه السير توماس أرنولد بصفحة ٢٩ وما يليها بمناسبة كلامه في الصلاة ما ترجمته :

هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية ، فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد المشرق ما لا كيفية أدائه من التأثير في النفوس . ودونك ما قاله فيه الأسقف لوفروا قال : « لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة أن لا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم فإنك حينما كنت ، سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل ، كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مسحة للرياء ، ولا أقل شائبة من حب الظهور ، يذر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين . ولنتقل من صلاة الفرد الى صلاة الجماعة فنقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل في عرصة المسجد الجامع بمدينة دلهي (بالهند) يوم الجمعة الأخيرة من شهر الصيام (رمضان) وكلهم مستغرقون في صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية في كل حركة من حركاتهم . نقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون رأى ذلك المشهد أن لا يبلغ تأثره به أعماق قلبه ، وأن لا يلاحظ ببصره القوة

التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها . على أن توقيت الأذان اليومي للصلاة بأوقات معينة حينما يرنّ به صوت المؤذن في أبكر البكور قبل الإسفار ، وعند الظهيرة والناس مضطربون ومصطخبون في أعمالهم ، وعند الإساء ، هذا الأذان الذي يحصل في هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه .

ومما يؤثر عن رينان^(١) أيضا قوله : إنه ما دخل مسجدا مرة إلا تأثرت تأثراً شديداً بل شعر بشيء من الأسف أن لم يكن مساماً . وقد كان ذلك المشهد (مشهد الصلاة) من الأسباب المساعدة على دخول رجل يهودي من أهل الاسكندرية في الاسلام سنة ١٢٩٨ كما حكاه هو عن نفسه إذ قال : « كنت مريضاً مرضاً شديداً فتمثل لي في أثناءه أن هاتفاً يهيب^(٢) بي أن أعلم الاسلام ، ولما دخلت المسجد ورأيت المسلمين مصطفين للصلاة وقوفاً كالملائكة ، سمعت في نفسي صوتاً يناديني بقوله : هذه هي الجماعة التي أنبأ بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ ولما رأيت الخطيب يتقدم للخطبة وعليه رداء أسود وقع في نفسي وجدان الرهبة والخشية ، ولما ختم خطبته بهذه الآية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وأقيمت بعد ذلك الصلاة آمنت من نفسي أنها سمت سمواً كبيراً ، فقد بدت لي صفوف المسلمين كأنها صفوف الملائكة ، وأن الله سبحانه قد تجلى عليهم في سجودهم وركوعهم ، وسمعت في نفسي مناجياً يناجيني بقوله : إن الله سبحانه إذا كان قد خاطب شعب إسرائيل مرتين في جميع القرون الخالية ، فلا جرم أنه يخاطب هذه الجماعة في كل وقت من أوقات صلاتهم . واقتنعت في نفسي بأنني خلقت لأن أكون مساماً^(٣) .

عبد العزيز محمد

(١) رينان حكيم فرنسي شهير . (٢) يهيب بي : يناديني . (٣) نقلاً عن مجلة المباحث

السُّنَنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جاس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبته الى ركبتيه ، ووضع كفيه على نخذه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لأبواب الشريعة المطهرة ، من أعمال العبادات الظاهرة والباطنة ، ولذا ابتدأ بعض المصنفين في الحديث كتبهم به ، كأنهم يرونه من السنة بمنزلة أم الكتاب من القرآن الكريم ، وبدأ به مسلم بعد ما استوفى الكلام في شئون الرواية والرواة ، ورواه البخاري ومسلم أيضا عن أبي هريرة ، وفي الروايتين اختلاف يسير بالتقديم والتأخير ونحوهما مما لا يختلف به جوهر المعنى .

وقد تكلم العلماء كثيرا في بيان معنى الإيمان والإسلام وهل هما متحدان في المعنى أو متغايران ينفكان أو متلازمان بما يعد بسط القول فيه باستقصاء خارجا عن مقصدنا في هذه الكلمات المنشورة للجمهور - إلا أنا لا نرى بأسا بالإلمام بطرف من ذلك لا ينبو عن مشاغل الأوساط ولا يعد سلوكه تعمقا .

أصل الإيمان في اللغة : التصديق بالشئ واعتقاد النفس له مع الجزم به وعدم التردد فيه بحيث تكون النفس مذعنة مطمئنة ، يقال آمن به وآمن له اذا صدقه ووثق به . والإسلام : الاستسلام ، يقال أسلم له قياده اذا استسلم وخضع ولم يعارض . وهذان المعنيان هما المناسبان للمعنيين الشرعيين للإيمان والإسلام ، فالإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه مع إذعان النفس له وقبولها إياه ، أى التصديق الخالى من الإنكار والمكابرة ، والإسلام هو الانقياد لما جاء به من الأحكام والخضوع له وعدم المعارضة فيه أو الإباء لشئ منه .

واقد جاءت النصوص في الآيات والأحاديث دالة تارة على وحدتهما كقوله تعالى : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ودالة تارة أخرى على تغايرهما كقوله تعالى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) فن هنا اختلفت كلمة العلماء في اتحادهما وتغايرهما ، ولكن كلهم جميعا واحدة في أن من اختلف منه أحد

المعنيين المذكورين لا يعتبر في نظر الشارع مؤمنا ولا مسالما ، فلا ينجيه أن يعتقد صدق الرسول فيما يبلغ عن ربه مع إياه أن يمثل أو امره عنادا واستكبارا ، ولا ينجيه أن يسلم قياده وإطيع أو امره وهو في نفسه غير معتقد صدقه في أنه يبلغ عن ربه ، فالمنافق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، والمعاند الذي يجزم في نفسه بالتصديق ولكن تدفعه عوامل من صلف أو كبرياء أو عناد عن الإذعان للطاعة كأولئك الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الفريقان سيان في أنهم ليسوا مؤمنين ولا مسالمين شرعا ، ولا تجرى عليهم أحكام الإسلام ، فقد قال تعالى في المنافقين : (وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) وقال تعالى في التنديد بأهل الكتاب والنعي عليهم سوء صنيعهم : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

ومن أجل هذا قال فريق من المحققين : إن الإيمان والإسلام وإن تغايرا في معناهما فلا يعتد بأحدهما دون الآخر ، فهما متلازمان في الشرع وإن انفكا في المفهوم ، فليس بمسلم شرعا من لا يكون مؤمنا ، وليس بمؤمن شرعا من لا يكون مسالما .

وليلاحظ أن معنى الإباء وعدم الإذعان للطاعة مغاير لمعنى الترك ، فربما كان الترك لكسل أو تهاون في أداء الواجب مع الإذعان بالطاعة ، فلا يعد التارك على هذا الوجه كافرا خارجا عن معنى الإسلام والإيمان ، وإنما يسمى عاصيا وفاسقا .

نعم قد ورد في السنة ما ظاهره ينفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) الى آخر الحديث ، فإن ظاهره يفيد انتفاء الإيمان عمن يفعل شيئا من هذا ، ولكن هذا الظاهر غير مقصود ، وإنما المراد أنه لو لاحظ المؤمن معنى الإيمان الكامل في نفسه ، واستحضر ما يعتقده ويجزم به جزما لا شك معه من أن الله عالم به مطلع

عليه مالك بخاصيته ، وهو الذى منحه القدرة التى بها يجاهر بمعصيته ويحارب ربه ، لو لاحظ هذا واستحضره لما أمكن أن يقترب من الذنوب ما يقترب ، ولكن إن لم يمنع الخوف يمنعه الحياء ، فلا يفعل العبد ما يفعل إلا وهو غافل عن مقتضى إيمانه ، ذاهل عن حكم عقيدته .

فالإيمان المنفى حال المعصية هو الإيمان الكامل الذى يتفاوت المؤمنون فيه ، فمنهم من يكمل استحضاره وتدوم ملاحظته ، ومنهم من تستولى عليه الغفلة حتى تدركه الذكرى النافعة التى قال فيها جل من قائل : (وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهُ أَنْ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وهذا هو المراد فيما ورد فى شأن أبى بكر رضى الله عنه من أنه لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح بها . وأما الاعتقاد الجازم فإنه اذا نقص فيه معنى الجزم ، بدخول الشك والتردد على النفس ، كان كافرا جزما . ومن الأمثلة التى توضح هذا نوع توضيح ما يحكى أن أحد المبشرين المسيحية شاهد رجلا قد أخذ منه السكر مأخذا شديعا ، وراح فيه الوجاهة والترف ، فاقرب منه وقال له : « إنك خسارة فى نار جهنم ، وقد اعتنقت ديننا يحرم عليك السكر ولا تستطيع القيام بما أوجبه عليك ، فلو أنك آمنت بخلصنا المسيح الذى تحمل الخطايا عن البشر بتعرضه للصاب فداء لنا لنجوت من العذاب مهما ارتكبت من الذنوب » فخركت هذه الكلمة كامن الإيمان من نفسه ، وتنبه لما يحاك له من شرك الشرك ، فدفع المبشر فى جبهته وقال له : « تقول ربنا يفتقر لنا السكر توقعنا أنت فى الكفر ؟ قم... » فثل هذا قد أحاطت به الغفلة حتى نبش ممكن الإيمان حساس الدقيق منه فتذكر ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ولنرجع الى شرح الحديث ، ولا ضرر فى سوق هذه الكلمة المتقدمة ، إذ كانت مما يتساءل فيه كثير من الناس ، وما نظن أن المقدار الذى أتينا به مما ينبو عن متناول الجمهور :

يقول عمر رضى الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل » الخ - قد جاء في رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم كان قد برز للناس ، ومعنى ذلك أنه جلس على هيئة متميزة عن بقيتهم بحيث يعرف القادم أنه هو صلى الله عليه وسلم دون أن يسأل ، وقد كان قبل ذلك يجلس معهم كأحدهم ، فكان القادم الذى لم تسبق له رؤيته يسألهم : أيكم رسول الله أو أيكم محمد . وسر الحالين ظاهر ، فهو يجلس معهم كأحدهم ليتعلموا منه الأدب الكامل فى أن يرعى عظيمهم صغيرهم ، ويظهر بمظهر المساواة لهم ، حتى تطيب أنفسهم وتعظم محبتهم ، وليس أجلب لمحبة القلوب من تواضع العظيم ، وبذلك يكون لهم نعم القدوة الصالحة ؛ وكان يجلس بهيئة متميزة ليعرفه من ورد عليهم فيتجه اليه بالسؤال بدون حيرة ولا تردد ، فيسهل على مرید التعلم مقصده . وقد ورد فى بعض الروايات أنهم كانوا يرجون أن يرد بعض الأعراب ليسأله صلى الله عليه وسلم عن أشياء يريدون السؤال عنها وينعمهم المهابة والحياء وما عرفوا من كراهيته صلى الله عليه وسلم كثرة السؤال ، فأرسل الله جبريل عليه السلام ليعلمهم آداب السؤال ، وأنه اذا كره السؤال فيما لا يتعلق به مقصد عظيم مما تطلبه شهوة العقول ، فلا حرج فى السؤال عما ينبغى علمه والا حاطة به ، وفهمه حق الفهم .

والحكمة فى محبى جبريل عليه السلام بهذه الهيئة الحسنة من شدة بياض الثياب ، وشدة سواد الشعر ، المستغربة من جهة أنه مع وجاهته غير معروف لهم ، وليس عليه آثار السفر ، ليعظم اتجاههم اليه ، وإصغائهم لما يقول ويقال له ، فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم ، وأعظم تطلعا للأمر المستغرب ، وبذلك يتمكن فى نفوسهم ما يدور بينهما عليهما الصلاة والسلام من سؤال وجواب . ويعلم من هذا أن الملائكة قوة التشكل والظهور بما يريدون .

وقول عمر رضى الله عنه : « ولا يعرفه منا أحد » يفسره ما ورد فى رواية أخرى : « فنظر القوم بعضهم الى بعض » وهذا شأن القوم الذين يرد عليهم من لا يعرفونه ،

خصوصا اذا كان موضع غرابة بكونه وجيها حقه أن يعرف ، وليس عليه آثار السفر حتى يكون جهلهم له لأنه غريب عنهم . وقوله : « حتى جالس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه » — قد ورد في رواية أخرى شرح ذلك بأنه جالس جاكوس أحدا للصلاة ، ويفهم من هذا التأدب من جهة السائل ، فإن هذه الجلسة جلسة المتأدب ، والعطف وعدم الجفوة من المسئول المرشد ، كما يفهم من هذا القرب . وأما قوله : « ووضع كفيه على فخذه » فيحتمل أنه وضع كفيه على فخذي النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يسترعيه لناحيته ويظهر بمظهر الإقبال عليه وشدة الحرص على التلقف والتلقى منه ، ويحتمل أنه وضع كفيه على فخذي نفسه وهي حالة التأدب ، وقد ذهب الى كل من الاحتمالين بعض الشراح جازما به ، ولكل من المعنيين وجهة .

وأما قوله : « وقال يا محمد أخبرني عن الاسلام » الى آخره ، فقد روى بدله : ما الايمان وما الاسلام بالاستفهام بما ، وبتقديم السؤال عن الايمان على السؤال عن الاسلام . وإن التفرقة بين طاب الاخبار عن الشيء وبين السؤال عنه بما ، إنما هو من الاصطلاحات المستحدثة ، والعرب تقول : أخبرني عن كذا أي فسر له وفهمني معناه ، وهذا التفسير والتفهم تارة يوافق الحقيقة والواقع ، وتارة يخالفهما ، فلا عجب اذا قيل للمفسر : صدقت ، متى أصاب في التفسير ، ولا يقال : إن التفسير ليس من الأخبار التي توصف بالصدق والكذب ، ولا يقال كذلك : إن المفسر ليس مخبرا حتى يقال أخبرني عن كذا ، فإن ذلك كله من الاصطلاحات المستحدثة ، والعرب تستعمل كلا العبارتين في مثل هذا ، أي « أخبرني عن كذا ، وما هو كذا » .

وقوله : « فقال صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة » الخ — الذي في رواية البخاري بدل أن تشهد الخ : أن تعبد الله ولا تشرك به . ومؤدى المعنيين واحد ، فإن من شهد أن لا إله إلا الله يكون

قد علم علما جازما واضحا في نفسه كأنه يشاهده أنه لا متصرف في الكائنات ولا مهيمن على العالم ولا مستولى على كل شيء إلا الله وحده ، فلا مستحق لأن يعبد ويخضع له ويدان له إلا الله ، فلا يعبد إلا إياه ولا يشرك به شيئا ، ومن كان يعبد الله ولا يشرك به فهو بلا شك جازم أن لا إله إلا الله .

وقوله : « وتقيم الصلاة » الخ - هذه مكملة لأركان الإسلام الخمسة الواردة في حديث « بنى الإسلام على خمس » . ودخول هذه الأركان في تحقيق معنى الإسلام معناه الإذعان لها وعدم إبانها ولا رفضها ، ولا يقتضى هذا أن يكون من ترك شيئا منها مع القدرة عليه قد كفر وخرج عن الإسلام ، وإنما ذلك خاص بالشهادتين ، فهما الركن الذى من تركه مع القدرة على أدائه كان كافرا ، وإن كان عنده الجزم بصدق معناهما ، نعم إن من ترك هذه الأشياء فهو على قاب قوسين من الكفر ، فإن الرجل لا يزال يرتكب المعاصى حتى يران على قلبه فيوشك أن يدخل في الكفر ، إن لم يكن قد دخل فيه بالفعل .

وإن من يسمع من بعض المتدهورين في المعاصى من كلمات الاستهانة بما هم فيه يعلم حقاً أن تغلبهم في الفسوق أشرف بهم على هاوية الكفر أو أرداهم فيها ، وهل قول القائل لمن ينصحه : « يا سيدى ابق خذنا على جناحك » إلا مظهر من مظاهر الشك وعدم الجزم ؟ وإنك لتحتار في شأنهم حين تقول لصاحب هذه الكلمة : « إذا أنت لا تصدق بالله ولا بالنبي » فيفرع لهول هذه التهمة ويغضب لها ويخاصمك من أجلها ، فهذه المظاهر المتناقضة دليل الارتباك والحيرة ، ومصداق ما ورد (ألا وإن لكل ملك حى ألا وإن حى الله محارمه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) .

وعلى الجملة فورد الحديث في مقام تربية النفوس على أصول الدين ، وغرس الأحكام التى تعود على الانسان بالسعادتين في النفوس ، وما ذكرناه من عدم تكفير من ترك

شيئا منها مع الإذعان لها وعدم الإباء والرفض إنما هو في مقام الحكم على من يحصل منه شيء من ذلك : أيحكم بكفره أم يحتفظ بإيمانه ويعدّ مسلما عاصيا في نظر الشارع . ولقد ورد في شعب الإيمان أنها سبعون شعبة ، وأن منها الحياء ، ومنها إمالة الأذى عن الطريق ، وهذه بلا شك لا يقال إن تاركها كافر .

وقوله : « قال صدقت ، قال فعجبنا له يسأله ويصدقه » — القائل الأول هو السائل ، والقائل الثاني هو الراوى . ووجه العجب ظاهر ، فإن كونه يسأل يقتضى ألا يكون عارفا بالمستؤل عنه ، وقوله صدقت ، إنما يصدر عن من يعرف حتى يحزم بصدق المجيب ، ولم يكونوا ليعهدوا أن أحدا يسأله صلى الله عليه وسلم عن شيء إلا سؤال تعلم واسترشاد . ولنكتف بهذا المقدار من الحديث ، وتمة الكلام عليه إن شاء الله في العدد التالى . والله أعلم .

ابراهيم الجبالي

النظر والملمح

وقع بالكوفة وباء نخرج الناس وتفرقوا في النجف ، فكتب شريح الى صديق له خرج بخروج الناس : أما بعد فإنك بالمكان الذى أنت فيه بعين من لا يعجزه هرب ، ولا يفوته طلب ، وإن المكان الذى خلفت لا يعجل لأحد حمامه ، ولا يظلمه أيامه ، وإنا وإياك لعل بساط واحد ، وإن النجف من ذى قدرة اقرب .

الفتاوى والأحكام

أين مقر الأرواح بعد الموت

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي :

كنت أطلع بعض موضوعات في كتاب فتح العلام الجزء الثاني قرأت فصلا معقودا للبحث في روح الميت بعد انقضاء الحياة وهو كما يأتي :

« رأى جمهور المتكلمين أن الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو باق لا يفنى ، قال الشيخ البجيرى : إن الأرواح خمسة أقسام : أرواح الأنبياء ، أرواح الشهداء ، أرواح المطيعين ، أرواح العصاة من المؤمنين ، أرواح الكفار .

أما أرواح الأنبياء فتخرج من أجسادها وتصير على صورة مثل المسك والكافور^(١) وتكون في الجنة تأكل وتنعم ، وتأوى بالليل الى قناديل معلقة تحت العرش . أما أرواح الشهداء اذا خرجت من أجسادها فإن الله يجعلها في أجواف طيور خضر تدور بها في أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتشرب من مائها ، وتأوى الى قناديل من ذهب في ظل العرش . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أرواح المطيعين من المؤمنين فهم في رياض الجنة لا تأكل ولا تنعم لكن تنظر في الجنة فقط .

(١) الرواية المعروفة : أطيب من ريح المسك . وستسمعها عن أبي موسى الاشعري في أرواح المؤمنين .

أما أرواح العصاة من المؤمنين فبين السماء والأرض في الهواء . وأما أرواح الكفار فهي في أجواف طير سود في سجين ، وسجين تحت الأرض السابعة ، وهي متعلقة بأجسادها ، فتعذب أرواحها فيتلأئم بذلك الجسد ، كالشمس في السماء الرابعة ونورها في الأرض ، كما أن أرواح المؤمنين في عليين متنعمة ونورها متصل بالجسد .

ثم قال : إن المحقق القسطلاني نقل عن الحافظ ابن كثير ما يفيد تمتع أرواح المؤمنين وإن لم يكونوا شهداء بالأكل والتلذذ ورؤية منازلهم في الجنة لا بالنظر فقط . انتهى ما رأيته في فتح العلام فيما يتعلق بروح الميت .

أرجو بيان ما هو الصحيح من هذه الأقوال ، وهل ورد نص في الشريعة الحمديدية عن صحة هذه الأقوال كلها أم عن بعضها دون بعض ؟

عطية الشوافي هلال

بمعهد الزقازيق

الجواب

مقدمة :

ليس بهمنا الكلام في حقيقة الروح ما هي ، ويكفي أن نعرفها بآثارها وخصائصها ، وأنها ليست من جنس هذا العالم المنظور (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ولنعلم قبل كل شيء أنه قد صح فيما لا يحصى من الأحاديث والآثار أن الأرواح جواهر حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر ، وأنها عارفة مميزة مدركة عالمة الى غير ذلك مما جاء في السنة الصحيحة . ولتعلم أيضا أن الانسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والتخيلات على حسب استعدادة ، ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط ، وتارة يخطئ فيما يحس ويتخيل ، بل نستطيع أن نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التي يقع عليها الحس ويدركها اللمس

لا يصل اليها الانسان تماما وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجعا . فالعلم بكنهه الأشياء على ما هي عليه من كل وجه مختص بالله تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) وقد خلقت على حد محدود في عقلك ، كما خلقت على حد محدود في سمعك وبصرك . ثم هنا شيء آخر يجب التنبيه له خصوصا في هذا المقام ، وهو أن العوالم كثيرة ، ولكل عالم منها أحكام تخصه ، ولا يصح أن يقاس بعضها على بعض ، فن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم الإنس على عالم الجن ، وبأحكام عالم الجن على عالم الملائكة ، وبأحكام عالم الأجسام على عالم الأرواح ، أو تحكم بشيء من أحوال هذه العوالم كلها على إله العالم الذي ليس كمثل شيء ، بل في عوالم الحس ما يرشدك الى هذا ، فليسوائل أحكام تغاير أحكام الجوامد ، وللغازات أحكام تغاير أحكام السائلات ، وقد عرف الآن من ظواهر الكهرباء والراديو ما لا تكاد تصدق به إلا بالمشاهدة ، بل بين أنواع الحيوان وهو جنس واحد ما تختلف خصائصه وتتباين أحكامه ، وكمن فرق بين الحيوانات المائية وغيرها ، أو تقول بين الحيوانات الدنيا والعليا ، وكلها مخلوقة من تراب ، وقد خلق الله الانسان من سلالة من طين ، وسلط عليه الروح ، فكان له من الأحكام ما تعرف ، ثم خلق الجن من مارج من نار ، فكان لها بمقتضى ذلك ما تقضى منه العجب ، فليس يحجبها ستار ، ولا يمنعها جدار ، فلو فرضنا أن الله عز وجل — وهو على كل شيء قدير — خلق مخلوقا من الكهرباء وسلط عليه الحياة وتمتع بالشعور والإرادة والاختيار ، فاذا يكون حاله والى أى حد تنتهى عجائبه ؟ .

إذا عرفت هذا فأمر الأرواح والملائكة أعجب من ذلك كله ، لأن هذه الأشياء كلها خلقت من تلك العناصر المادية الأرضية التي تعرفها ، فما بالك بما جاوز تلك العناصر ، وعلا على تلك الظواهر ، حتى قال فيه الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالي والراغب والحليمي : إنها جواهر مجردة عن المادة وعلائقها (والله يخلق ما يشاء كما يشاء)

فأها من الأحكام والشئون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا). ومن ظن أن أحكام الوجود كلها منحصرة في تلك النواميس الطبيعية التي عرفها فقد جهل عظمة الله الذي لا نهاية لمقدوراته، وجهل قدر العلم الذي لا آخر له، وجهل قدر الانسان الذي قال الله فيه: إنه خالق ضعيفا، وكان ظلوما جهولا. ولنتقصر من المقدمة على هذا.

بمعرف المقدمة :

أما ما قاله الشيخ البجيرى فهو منقول من بحر الكلام للنسفى على تغيير فيه، ولا حاجة للإطالة في ذلك. وفي المسألة أقوال كثيرة للعلماء من السلف والخلف، وفيها سنن مأثورة وأحاديث مشهورة. وسنتلو عليك شيئا من ذلك ثم نعرفك جلية الحق ووجه الجمع بين تلك الآراء المتعارضة فنقول :

يرى كثير من العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء أو غير شهداء اذا لم يجلسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وهو مروى عن أبى هريرة وابن عمر. وقريب منه قول الامام أحمد في رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة لقوله تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ) ذكره تعالى بعد ذكر خروجها من البدن، وقسمها ثلاثة أقسام: مقربين: في الجنة، وأصحاب اليمين: سالمين من العذاب، ومكذبين: لهم نزل من جحيم وتصلية جحيم. كما قسمها يوم البعث الأ كبر يوم القيامة الى ثلاثة أقسام في أول السورة (الواقعة) في قوله: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) ولما في الموطأ

والنسائي عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يبعثه الله الى جسده يوم القيامة » وأخرج عبد الله بن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت : « دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه عن هذه الروح فوصفها حتى أبكى أهل الميت فقال : « إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مياهها وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وإن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى الى حجر في النار » وقيل : إن الذي في الجنة الشهداء لقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وروى عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : الشهداء يغدون ويروحون في الجنة ثم يكون مأواهم الى قناديل معلقة بالعرش . وفي صحيح مسلم واللفظ له وجامع الترمذي وغيرهما عن مسروق قال : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فقال : إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرواحهم في أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة في أيها شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل .

وأخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق^(١) من ثمر الجنة أو شجر الجنة » لفظ الترمذي ، وقال حسن صحيح . ولاحمد وأبي داود والحاكم وقال صحيح الإسناد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يعني يوم أحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل

(١) تعلق أى تناول . وهو بضم اللام كما في المختار .

من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » الحديث . وفى بعض الآثار : فى صور طير ، وفى بعضها فى أجواف طير ، وفى بعضها كطير خضر .

وحديث كعب « نسمة المؤمن طائر » وقيل هم بفناء الجنة على بابها يأتهم من نعيمها ورزقها ، قاله مجاهد . وقد يحتج له بما فى المسند عن ابن عباس مرفوعا : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم بكرة وعشية من الجنة . وقالت طائفة من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله . ولم يزدوا على ذلك . وقريب منه قول حذيفة بن اليمان : الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر مواعدها حتى ينفخ فى الصور . وهذا تأدب منهم مع لفظ القرآن حيث يقول : (أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وعن أبى موسى الأشعرى قال : « تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتنتقل بها الملائكة الذين يتوفونه فتتلقاه الملائكة من دون السماء فيقولون : هذا فلان ابن فلان كان يعمل كذا وكذا المحاسن عمله فيقولون : مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعدون به من الباب الذى كان يصعد عمله منه فتشرق فى السماء ولها برهان كبرهان الشمس حتى تنتهى الى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض انطلق بروحه فيقولون : ما هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان كان يعمل كذا وكذا المساوى عمله فيقولون : لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد الى أسفل الأرضين » .

وقال الامام مالك : بلغنى أن الروح مرسلة فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت . وهو قول سلمان الفارسى رضى الله عنه . وقال ابن حزم : إنها عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب والنار ، تحت السماء ، ثم قال : ولا يدل ذلك على تعادلهم ، بل هؤلاء من المؤمنين عن يمين آدم فى العلو والسعة ، وهؤلاء من الكفار عن يساره فى السفلى والسجن ، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء الى الجنة . وقيل : هى على أفنية قبورها . وقد ذهب اليه ابن عبد البر وقال : هو أصح ما ذهب اليه العلماء ، ألا ترى

أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة كأحاديث السلام على القبور؟ يريد بالأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر في عرض المقعد على الميت ، وحديث البراء بن عازب الذي فيه « هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » وحديث أنس بن مالك الذي فيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن في قبره سبعون ذراعاً ويضييق على الكافر . وحديث جابر أن هذه الأمة تبثلى في قبورها فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أناه ملكان . الحديث ، وفيه أنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعوني أبشر أهلي ، فيقال له اسكن فهذا مقعدك أبداً . وكذا سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه . ومراده بأحاديث السلام — وهي صحيحة — أن فيها خطاب المسلم لأهل القبور خطاب العاقل الحاضر .

تحقيق في المسألة وجمع بين الآراء :

قال ابن القيم : وهذا القول (يعنى قول ابن عبد البر) إن أريد به أن كونها على القبور لازم بحيث لا تفارقها ، فهذا خطأ يردّه الكتاب المحكم والسنة الصحيحة ، وعرض المقعد لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فناؤه ، بل على أن لها اتصالاً به يصحح أن يعرض عليهما مقعدها ، فإن للروح شأن آخر ، فتكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة بالبدن ، بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهي في مكانها ، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام ليلة الإسراء قائماً يصلى في قبره ، ورآه في السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كملح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر بمنزلة شعاع الشمس يكون في الأرض وجرمها في السماء . وهذا قول ابن عبد البر بعينه ، فإنه قال : أرواح الشهداء في الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورها . والمعنى أنها قد تكون على أفنية قبورها ، لا أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور . وقد قال مالك : بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت . وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله تحت العرش ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان .

والروح المطلقة من أسر البدن وعوائقه من التصرف والقوة ما ليس للمحبوسة في علائقه وعوائقه ، فلا يحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة وعلى غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة ، فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم في السعادة أو الشقاوة ، فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون في منازلهم أيضا ، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح بعض الشهداء لاجمعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره ، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولى قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل آنفا » . ومنهم من يكون على باب الجنة كما في حديث ابن عباس : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة . ومنهم من يكون محبوسا في الأرض لم تزل روحه الى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحا سفلية أرضية ، فإن النفس الأرضية لا تجامع النفس السماوية ، كما أنها لا تجامعها في الدنيا ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها (فالمرء مع من أحب هنا وهناك) ومنها أرواح تكون في تنور كأرواح الزناة ، وأرواح في نهر الدم كأكلة الربا ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها في قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له .

وإذا أمعنت النظر في السنن والآثار عرفت حجج ذلك وأنه لا تعارض بينها ، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها ، وأن لها شأنا غير شأن البدن ، وأنها مع كونها في الجنة هي في السماء ، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهي أسرع شيء انتقالا ، وأنها تنقسم الى مرسله ومحبوسة ، وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة وألم ، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الجنين في بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن الى هذه الدار ؛

وللنفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها ، الأولى بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث . الثانية هذه الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر . الثالثة دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار اليها كنسبة الدار الأولى وهي بطن الأم الى هذه التي نحن فيها . الرابعة الدار التي لا دار بعدها ، دار القرار : الجنة أو النار ، والله تعالى ينقلها في هذه الدور طبقا بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل اليها . ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى . وقال ابن القيم في موضع آخر : إن الأرواح المنعمة مطلقة لا حجر عليها ، فأرواح الأنبياء في الجنة وفي عليين ، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون في السماء الأولى أو الثانية ، كما في حديث المعراج ، وأنها حرة مطلقة تكون عند قبرها وتذهب حيث شاءت ، فالآثار في ذلك كله صحيحة وحق لا مرية فيه . وقال الحكيم الترمذي : الأرواح تجول في البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأحوال الملائكة تتحدث في السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح طيارة الى الجنان الى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعي الى الله تعالى أيام الحياة . وذكر البيهقي في كتاب عذاب القبر أنه لما توفي ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعا في الجنة » وهو في الصحيح ، ثم قال : فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه ابراهيم بأنه يرجع في الجنة وهو مدفون بالبقيع في مقبرة المدينة .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه ابن أبي الدنيا من مرسل سليم بن عامر الجبائي مرفوعا : أن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع الى مكانه ، وكذا المؤمن يجزع من الموت فاذا أفضى الى ربه لم يحب أن يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع الى بطن أمه .
ويكفي هذا وإن كان قليلا من كثير

يوسف الرموي

من هيئة كبار العلماء

الأخوة الإسلامية - ودار الإسلام

وورد إدارة المجلة السؤالان الآتيان :

السؤال الأول - ما حقيقة الأخوة الإسلامية المرادة بقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ؟ .

السؤال الثاني - ما حقيقة معنى دار الإسلام وحق المسلم فيها وإن لم تكن هي وطنه ؟ فهل له أن يتمتع بحقوقها كما يتمتع بها أي مسلم هو وطنها ؟ والذي دعاني مع بعض إخواني الى طلب معرفة الحقيقتين هو ما نراه اليوم من فوضى المعاشرة بين أكثر إخواننا المسلمين على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وانحرافهم عن جادة الصواب في معاملة بعضهم بعضا على حسب معنى الأخوة الإسلامية في هيئاتهم الاجتماعية ، فكأنهم بهذا الانحراف ما أدركوا معنى الأخوة الإسلامية التي قررها الله لهم ، أو أنهم أدركوه لكنهم يتعامون ويتجاهلون عنه ، أو يتساهلون في اعتبار أهميته للجامعة الإسلامية .

ومما دلنا على حصول الانحراف الكلي منهم هو أننا نرى الأفريقيين المسلمين متى رأوا مساهما هنديا لا يعتبرونه أخا لهم لأنه آسيوى ، ويعتبرون أى أفريقى من مواطنيهم أخا لهم وإن كان وثنيا أو مرتدا عن دين الإسلام، ونراهم يعاضدونه ويساعدونه فى كل ما يحتاج اليه من المساعدة ، ويخذلون أى مسلم لم يكن مواطنا لهم ، وكذلك نرى المسلم الآسيوى لا يعتبر المسلم الأفريقى أخا له ، بل يعتبر كل آسيوى أخا له وإن خالفه

فى دينه الاسلامى . فهل هذه المعاملات والوطنيات التى نراها فى ايماننا هذه تطابق معنى
الأخوة الاسلامية فى شىء ؟ أفيدونا رحمكم الله تعالى بتوضيحكم الجواب ؟

برهان بن محمد مكمل

مدرس العربية بمدرسة الحكومة — زنجبار

الجواب

أبدأ الكلام على إجابة هذا السؤال بكلمة إجمالية عن الايمان والاسلام ليتضح
الجواب عما سأل عنه فأقول :

الايمان هو تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما علم بحبيته به من الدين
بالضرورة . والقصد الاذعان والقبول بما جاء به مع الرضا الذى لا يصحبه كبر ولا عناد .
وإقرار اللسان بما أذعن به القلب أمر لا بد منه .

أما الاسلام فهو الانقياد والخضوع للألوهية ، ولا يتحقق إلا بقبول الأوامر
واجتناب النواهي ، ولا ينفك الاسلام المعتبر شرعا عن الايمان ، ولا الايمان عن
الاسلام ، فلا يوجد مؤمن غير مسلم ، ولا مسلم غير مؤمن . وثمرات الاسلام تظهر بالقيام
بالأوامر كالنطق بالشهادتين ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، والحج ،
وما الى ذلك من بقية الأوامر .

والايمان متى تحقق من شخص ترتب عليه حكمه ، وهو عصمة النفس والمال ،
قال عليه الصلاة والسلام : « نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى
وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .
وهذه العصمة حق لمن أسلم على سائر المسلمين ، فليس لمسلم كائنا من كان حق
فى أن يعتدى على مسلم آخر فى نفسه أو ماله ، لا فرق فى ذلك الحق بين رفيع ووضيع

وسيد ومولى ، وغنى وفقير ، وعظيم وحقير . وعلى الجملة فإن دخول الشخص ساحة الدين الاسلامى وتصديقه التصديق الذى بيناه يجعله متمتعاً بكل حق أوجبه الله للمسلم على المسلم ، ومترخصاً بكل رخصة رخص الله فيها للمسلمين ، ومطالباً بكل حق أوجبه الشرع كذلك ، وهذا الحكم عام للمسلمين طراً لا يختلف الحال فيه باختلاف مناطق إقامتهم ، فسواء فيه العجمى والعربى والأمرىكى والأوربى ما دام الكل مسلماً .

أما دار الاسلام التى سألت عنها فالجواب عليها يتبين لك من الآتى :

بعث صلى الله عليه وسلم هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ولقد قام صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى التوحيد ، فدعا الناس الى الهداية والخروج من الظلمات الى النور وصدع بأمر ربه ، ولاقى فى ذلك من الشدائد ما لاقى ، ولم يثنه عن الدعوة ما كان يلقاه ، فاستمر يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتي هي أحسن ، ويدافع ويدب لحماية الدعوة الى الحق ، حتى أكمل الله على المسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يدعو الى النجاة الى أن انتقلت روحه الشريفة الى الرفيق الأعلى ، فقام أصحابه من بعده يدعون الى ما كان عليه الصلاة والسلام يدعو اليه ، ويقالون فى سبيل نصره الاسلام حتى سطعت شمس الدين الاسلامى على أكثر أنحاء المعمورة ، وانتشر الاسلام بسرعة لم يكن لها نظير فى التاريخ ، فانتقل الاسلام من جزيرة العرب الى غيرها ، واستولى المسلمون على كثير من الممالك كالفرس والشام والعراق ومصر . ولقد كانت أم القرى (مكة) أول بلدة مهمة فتحها المسلمون تحت قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فانتقل الحال فيها من شرك بالله الى إيمان بالتوحيد ، وجرت فيها الأحكام الاسلامية من رجم وقطع وقصاص ، ومن عبادات ومعاملات ، وزالت تلك الأحكام التى كان يدين بها مشركو العرب ويتحاكمون اليها . ثم تتابعت الفتوح واتسع نطاق الاسلام ، وبحكم الفتح دخلت هذه الممالك تحت سيطرة

المسلمين وسلطانهم، وكانت الولاية فيها خليفتهم، فأجرى فيها أحكام الاسلام وصارت هذه البلاد بلاداً إسلامية، ومن هنا قال الفقهاء رحمهم الله: إن دار الاسلام هي التي تجرى فيها أحكام الخيفية السمحة، وتعتبر بالنسبة لسائر المسلمين بلداً واحداً، وبعبارة أخرى: دار الاسلام هي الاقليم الواقع تحت ولاية ملك مسلم تجرى فيه أحكام الاسلام من عصمة النفس والمال، وإقامة العدل، ومعاقبة الجناة، وكبح جماح الظامة، ورد يد الطغيان، وما الى ذلك من بقية أحكام الدين الاسلامى.

فكل مملكة من الممالك العالمية جرى الأمر فيها على الوصف الذى قدمناه، تعتبر دار إسلام، وإن اختلفت هذه الممالك باختلاف الملك والمنعة، إذ لا عبرة باختلاف الدار فى حق المسلمين بعضهم مع بعض، لأن حكم الاسلام يجمعهم، فالممالك الاسلامية كلها فى حكم المملكة الواحدة: لكل مسلم فيها ما لبقية المسلمين من أهلها من الحقوق التى أوجبها الشارع كعصمة النفس والمال، ورد المظالم ودفع الغائلة، ولا دخل لاختلاف الأقاليم والممالك — متى كانت إسلامية — فى التمايز بين المسلمين فى المعاملة الدينية. فالمسلم الأسيوى والمسلم الأفريقى سواء فى الحكم الاسلامى فى أى دار من دور الاسلام، لأن الاسلام آخى بينهم، وأخوته فوق كل اعتبار، وقد نص الفقهاء رحمهم الله على أن اختلاف الدارين لا تأثير له بين المسلمين، وأن التوارث يجرى بينهم وإن اختلفت الدار باختلاف الملك والمنعة، فأهل العدل مع أهل البغى يتوارثون فيما بينهم، لأن أحكام الاسلام تجمعهم، وبالأولى يتوارثون اذا كان السكل من أهل العدل، كإيران ومصر والأفغان والحجاز، فن مات من المسلمين بإيران يرثه قريبه المسلم المصرى.

وسماحة الدين الاسلامى تأبى التفرقة فى الحكم بين مختلفى الوطن ما داموا مسلمين، بل تأبى سوء المعاملة المخالف فى الدين ما لم يكن حرباً على المسلمين. ومن المعلوم أن من أخص صفات الاسلام أن الدين جعل لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وحض

على التمسك بأهداب الفضيلة حتى مع الأعداء عند المعاهدة أو المهادنة . والدين الذى يوجب القصاص فيقتل المسلم بالذى والحر بالعبد حقنا للدماء وصيانة للأنفس ، لا يبيح لأهله أن يتفرقوا شيئا مهما اختلفت الدار ، ولا يحيز لأهله أن يعاملوا بعضهم بعضا معاملة غير جائزة ، فليس من الجائز فى الدين أن يعامل مسامو أفريقية مسلمى آسيا معاملة لا يرضونها لأنفسهم متذرعين بأنه ليس مواطن لهم ، فإن ذلك من حمية الجاهلية التى نعاها الله على مشركى العرب ، ولأن المسلم من أية قبيلة أو أية قارة أخ للمؤمن فى الدين ، لأن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاحق ما إن لم يفضل الأخوة النسبية لم ينقص عنها ، وأخوة المؤمن للمؤمن معناها أن كلا منهما انتسب لأصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، والذى هو جماع الفضل ، ومكارم الأخلاق ، ومنشأ المجد والسودد .

وقد أوجب الدين الاسلامى على المؤمن لأخيه المؤمن حقوقا كثيرة تكفل الكتاب العزيز والسنة الشريفة ببيانها ، وإنا ذا كرون لك البعض من ذلك لتعلم منها سماحة الاسلام ، فمن ذلك ما جاء فى الكتاب العزيز جليا واضحا فى الآية التى نتلوها عليك ، قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئسَ الْأَلْسِمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ومن الحقوق صون النفس والمال والعرض ، ورد الظلم ، والنضال دون أخيه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وألا يؤذيه بقول ولا بفعل ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ومن أهم الحقوق المؤمن على أخيه المؤمن الوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، والعفو عن الزلة ، والتصديق فى الحديث ، وستر العورة والنصح له اذا استنصحه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكرهه لها ، وأن يوقره ويحله وينزله المنزلة اللائقة به ، ولا يجبهه ولا يكذبه ما دام لم يجرب عليه كذبا ، ويتواضع له ولا يتكبر عليه ، ولا يصغى لسماع كلام الناس فيه ، ويترك هجره ويقل عثرته ، وما الى ذلك من الحقوق والآداب .

وصفة القول أن المسلم يجب عليه درء المضرّة عن أخيه المؤمن ، وأن يعمل على جلب المنفعة له ، وقد ندب الدين الى التآخى بين المسلمين تقوية للرابطة بينهم ، وزيادة فى تمكين قوة الاسلام وإعزازها ، فأخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وبين أبى بكر وعمر ، وبين غيرهما من بقية أصحابه . ولا يخفى ما فى الإخاء من التناصر ، لأنه معاهدة بين شخصين أو أشخاص على التمسك بالفضائل ونبذ الرذائل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل على كل ما يرقى من شأن المتعاهدين ويزيد قوتهم وألفتهم ومحبتهم ، وبدهى أن هذا الصنيع بين جماعة المسلمين من شأنه التقريب بينهم ، ووقوف كل منهم على حال الآخر وشؤونه ، فيتلافى السكل النقص ويرأبون الصدع ويعملون المصلحة ، وفى هذا من الفوائد ما لا يستهان به ، وكل الذى ينبغى فى التآخى ديانة هو أن يتخير الانسان أن تكون مؤاخاته لقوم متصفين بالعقل يفهمون الأمور على ما هى عليه ، لهم من حسن الخلق ما يمنعهم عن النقائص ، وأن يكونوا معروفين بالصدق والأمانة والشجاعة ، والوفاء والكرم ، وعلمو المهمة وعظم المروءة ، غير فاسقين ولا مبتدعين ، وأن يكون أساس المؤاخاة جلب المنافع ودرء المضار ، دون تعد على حق الغير ومن غير إخلال بالواجبات الدينية أو الدنيوية .

من هذا تعلم أيها السائل أن ما يعمله أهل الأقاليم والقارات من التباين والاختلاف وسوء المعاملة على الوجه الذي ذكرت في سؤالك ، ليس من الدين الاسلامي في شيء .
 وإذا أضفت الى ما قدمناه لك ما هو معلوم من سماحة الاسلام والمسلمين مع أهل ذمتهم ومن وادعهم أو جاورهم من أهل الملل الأخرى ، وما كان عليه خلفاء المسلمين من الثقة بأهل الذمة ثقة لا تقل عن ثقتهم بأخيه في الدين ، تلك الثقة التي كانت سبباً في تقريبهم وإعطائهم المناصب الكبيرة في الدولة والأخذ برأيهم في مهام الأمور ، لم تتوقف عن الجزم بأن الحال التي وصفت في سؤالك حال بعيدة عن الدين وعن تعاليمه وإرشاداته ، بل لجزمت بأن حال المسلمين الذين ذكرت حال لا يحسن السكوت عليها ، ويجب استئصال هذه الأوصاف المباشرة للدين ولسماحته من أنفسهم بإرشادهم الى ما دعا اليه دينهم من التلطف والسماح والبر والمعروف وحسن المعاملة مع من ليس متفقاً معهم في الدين فضلاً عن أخيهما فيه ، قال الله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

وكيف يستبيح لنفسه من آمن بالله واليوم الآخر أن يتناسى ما طالبه الله سبحانه وتعالى الى المسلمين كافة من التعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان بقوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) وكيف يقدم مسلم على نبذ مسلم لمجرد اختلافهما في الوطن دون أن يكون قد انحرف عن جادة الصواب ولم يدرك معنى الأخوة في الإيمان ، أو يكون قد أدرك ولكنه تجاهل لغرض ؟

وأين هؤلاء من قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ؟ وأين هم من فعله صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين تأليفاً لقلوبهم ؟ فالقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم الوفود التي كانت تفقد عليه وينزلهم منازلهم

اللائقة بهم ولم يكن لهم بعدُ شرف الاسلام ؟ وأن هم مما كان عليه السلف الصالح في صدر الاسلام من سماحة وكرم ؟ وإن منهم من كان يخرج عن ماله جميعه لمصلحة المسلمين أينما كانوا وفي أى مكان حلوا ، ومنهم من حبس ماله لأبناء السبيل ووقفه على فقراء المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا .

وصفوة القول أنه لا يجوز لمسلم أن يخذل مسلماً ويترك معاونته ومساعدته لمجرد اختلافهما في الوطن ، كما أنه لا يجوز لمسلم أن يعاون مرتداً عن دينه لمجرد أنه يشاركه في الوطن ، لأن معاونته المرتد عن دينه أيا كانت جنسيته لا تجوز شرعاً . والله الموفق

طه صبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

الظفر والملح

لما ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشاري قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئسما أدبك أهلك يا حجاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما قمتني به ، أبعد الموت منزلة أصانعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال : خلوا عنه ، فخرج الى أصحابه فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع الى حربته معنا ، فقال : هيهات ! غلّ يدّاً مطلقها ، وأسر رقبةً معتقها ! وأنشد :

أأقاتل الحجاج عن سلطانة	بيد تقصر بأنهما مولاته
إني إذا لأخو الدناءة والذي	عقت على عرفانه جهلته
ماذا أقول إذا وقفت موازياً	في الصف واحتجت له فعلته
وتحدث الأكفاء أن صنائعا	غرست لدى فخطلت فخلاته
أأقول جار عليّ ؟ إني فيكم	لأحق من جارت عليه ولاته
نا الله ما كدت الأمير بآلة	وجوارحي وسلاحها آلاته

الاجتهاد - والتقليد

وورد السؤال الآتي :

هل يجوز للعالم أن يفتي على كل مذهب ولو بطريق الاجتهاد ، ومع كونه في الأصل مقلداً ومن شأن المقلد أن لا يخرج عن قول إمامه ؟ وإذا فرضنا أنه مجتهد وقد أفتى بما يخالف الأئمة الأربعة أو أصحابهم بالاستنباط من الكتاب أو السنة بأقوال وأحكام لم تظهرها الأئمة وأصحابهم في عصرهم ولا علماء السلف .

ثم هل يكون مصدقا في دعواه الإفتاء بطريق الاجتهاد المطلق منتسبا أو غير منتسب ، مع أننا وإياكم نعرف أنه لم يدع الاجتهاد المطلق غير المنتسب بعد الأئمة الأربعة إلا الامام محمد بن جرير الطبري ولم يُسلم له ، ونعرف نحن أيضا أن المجتهدين اجتهادا مطلقا منتسبا هو ما كان عليه أصحاب الأئمة الأربعة مثل أبي يوسف وابن القاسم وأشهب والمزني وغيرهم ، ومع ذلك نعرف نحن وأنتم أيضا أنهم لم يخرجوا عن قول أئمتهم وفتواهم وتأليفهم ؟

ثم إنهم كانوا يستنبطون الأحكام بطريق النقل وبطريق الكشف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويلتمسون النظر الى عين الشريعة ذوقا وكشفا ، ولكن الآن نبحث عن علماء الخلف فنجد منهم من يدعى الاجتهاد ، فنجده يلحد في الكتاب ، ويبيح ما هو حرام ويحرم ما هو مباح ، ومنهم من يتخذون الرأي والقياس يحلون به ما يشتهون ويبيحون به ما يتلذذون ، ومنهم من يفتون العوام في أمر دينهم بدون قيد ولا حد يقفون عنده ولا شرط .

نرجو من فضيلتكم التحقيق في هذا الموضوع والإجابة بما يبين لنا كيف كان علماء السلف واجتهادهم وكشفهم ونقلهم ، والفرق بينهم وبين علماء الخلف وقياسهم وآرائهم ، وما تأخذه من علماء الخلف وندين الله تعالى به ، والفرق بين فتواعم وفتوى السلف رحمهم الله . وفقكم الله للعمل بما فيه رضا مآ

عبد المحسن عبد الحفيظ القصراوي
إمام وخطيب مسجد سيدى زايد بعزب العزب

الجواب

الاجتهاد مأخوذ من الجهد والمشقة . وفي لسان الفقهاء : بذل الطاقة والوسع في تحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط . ولا ينال مرتبة الاجتهاد إلا من اتصف بالصفات الآتية :

الأول - أن يكون ذا فطنة تمكنه من استنباط الأحكام الشرعية .

الثانى - صحة إيمانه بمعرفة البارى سبحانه وتعالى وبصفاته ، وأصدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله .

الثالث - أن يعرف الكتاب (القرآن) بمعانيه لغة وشرعية ، أما لغة فبأن يعرف معانى المفردات والمركبات وخواصها فى الإفادة ، فيفتقر الى اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان ، ما لم يكن يعرف ذلك سليقة . وأما شرعية فبأن يعرف المعانى المؤثرة فى الأحكام ، ويعرف أقسام اللفظ من خاص وعام ومشارك ومجمل ومفسر ومشكل ومحكم وخفى ونص ومؤول وما الى ذلك من الأقسام ، ويعرف حكم كل بحيث يتمكن من الرجوع الى ما يحتاجه عند طلب الحكم .

الرابع - أن يعلم السنة : متنها وهو نفس الحديث ، وسندها وهو طريق وصولها إلينا من تواتر أو شهرة أو آحاد ، ويعلم حال الرواة والجرح والتعديل . والغرض

من معرفة متن السنة معرفة معانيه لغة وشريعة على السنن الذى تقدم فى معرفته بالكتاب .

الخامس - معرفة وجوه القياس بشرائطها وأحكامها وأقسامها والمقبول منها والمردود ليتمكن من الاستنباط الصحيح .

السادس - أن يكون على علم بمسائل الإجماع حتى لا يفتى بخلاف ما وقع الإجماع عليه .

السابع - أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ بحيث لا يخفى عليه شيء من ذلك مخافة أن يقع فى الحكم المنسوخ .

الثامن - أن يكون عدلاً ، وهذا شرط لقبول فتواه لأنه لا يقبل قول الفاسق فى الديانات .

التاسع - ألا يكون الاجتهاد فى مقابلاته قاطع من نص أو إجماع . وهذا الشرط شرط لجوازه وحله ، ومنه يعلم أن المجتهد فيه هو الحكم الشرعى العملى الذى ليس فيه دليل قاطع ، وأنه لا يحل الاجتهاد فى مقابلاته قاطع من نص أو إجماع .

ومتناول الاجتهاد الأحكام الخمسة ، من حيث الحكم المتعلق به ، فيكون واجبا عينيا على المسئول فوراً ، سواء فى حق نفسه أو فى حق غيره إذا خاف فوت الحادثة على غير الوجه الشرعى ، أو نزلت به الحادثة بهذا الشرط وكان يعلم الجواب والصواب ؛ ويكون واجبا كفائياً لو لم يخف فوت الحادثة على غير الوجه الشرعى ، فتى أفتى مجتهد فى الحادثة سواء أكان هو المسئول أو غيره من باقى المجتهدين ، سقط الوجوب عن الكل لحصول المقصود ؛ ويكون مندوباً إذا كان فى حكم شرعى من غير سؤال فيه أو مع السؤال ، لكن قبل نزول الحادثة ؛ ويكون حراماً وهو ما إذا تناول البحث فى مقابلة دليل قاطع من نص أو إجماع .

هذه هي الشروط التي يجب أن تتوافر حتى يتحقق الاجتهاد . وأنت خير بعد اطلاعك عليها أن تحققها أو بعضها غير متيسر الحصول الآن ، لانصراف الناس عن تعلم العلوم الدينية واشتغالهم بالعلوم الآلية ، ومن اشتغل منهم ببعض العلوم الشرعية فإنما يشتغل بالنزر القليل ، وباليته يشتغل به ليعامه ، بل إنما يشتغل به ليكون طريقا للكسب ، وقل في الناس من يتعلم العلم للعلم ، أو يبحث مسألة من المسائل قاصدا الوصول الى حق يقرره أو صواب يدعو اليه .

ولا يستثنى من هذا إلا علماء الأزهر ، فإنهم والحمد لله يشتغلون بمسائل الفقه والأصول والتفسير والحديث ، ويشغلون بالوسائل إليها ، ولكنهم وهم على ما نعلم من علم لقواعد الأصول ومعرفة لمسائل الفروع لم يدع أحدهم أنه مجتهد في مذهبه ، فضلا عن أن يدعى أنه مجتهد مطلق . وإنك لتراهم ولا سيما خاستهم كشايخ الجامع وغيرهم ممن ماثلهم على سعة اطلاعهم وعلو كعبهم في العلوم الدينية لا يخرجون عن المنقول في مذاهبهم في المسائل الدينية الشرعية ، وهذا منهم — حفظهم الله — معرفة بقدر الأئمة المجتهدين وما بلغوا من رتب عالية ودرجات سامية في العلم والتقوى والورع . هذه المعرفة بقدر الأئمة جعلت هؤلاء السادة يرون أن لا يلبح هذا الباب إلا من بذل الوسع حتى صار على بينة من الكتاب والسنة ، وعرف مأخذ الأدلة وأحاط بالمسائل وعلاها وما أجمع عليه منها ، وحقق ودقق وراض نفسه على البحث والتنقيب حتى أحاط بدقائق العلوم ، وعرف تاريخ التشريع .

لهذا لم يدع أحد من مشايخنا الاجتهاد . وإذا كان مثل الامام الغزالي يرى أن الزمن خلا عن المجتهد ، فهل يكون من استطاع أن يدخل في روعك أو يخلج في صدرك أن في هذا الزمان من توافرت فيه بعض الشروط فضلا عن تمامها ؟ لا سبيل الى الجزم بهذا وحال الناس هو ما عرفت ، وأكثر أبناء الأُمم ممن يقصدون

دور العلم إنما يقصدونها للحصول على شهادات تمكنهم من الاستخدام ، حتى إن كثيرا ممن ينتسبون الى العلم أصبح شغلهم الشاغل هو التوظيف ، وقصدهم مما يتعلمونه من المسائل على قلتها وعدم التعمق في بحوثها الربح وجمع المال .

أما ما يتمشـدق به المغرورون ممن ينسبون أنفسهم الى العلم وهو يرى منهم فلا قيمة له . وإذا أنت تأملت في حال هذه الفئة وما هي عليه من قصور في المدارك وتقصير في معرفة المسائل ، جزمت بأن ما يدعيه هؤلاء من اجتهاد لا سبيل له من الصحة ، وأن دعاوهم باطلة لا يستطيعون سوق البرهان عليها ، وحسبك في بطلان دعاوهم أنهم ليسوا على شيء من العلم ولا اخلاق ، وأنهم لا يفقهون من كتاب الله ولا سنة رسوله لا قليلا ولا كثيرا ، ولا ملكة لواحد منهم على تفاهم معاني الكتاب وخواص تراكيبه ، وليس فيهم من يعرف أسباب النزول ولا تاريخ الوقائع ولا الناسخ ولا المنسوخ ، بل لا أكون مبالغا اذا قلت : إنه ليس فيهم من يحفظ كتاب الله فضلا عن السنة المطهرة .

وقد علمت أن من الشروط معرفة السنة متنا وسندا ، وحال هؤلاء المغرورين هي ما وصفت لك من بعد عن الكتاب العزيز ، وهم أبعد ما يكون عن الحديث متنا وسندا ، وليس فيهم من يعرف الجرح والتعديل ، بل إن بعض هؤلاء لا يحسن قراءة أسماء الرواة . وقد اكتفى هؤلاء من العلم بقولهم : هذا غير مفهوم ، وذلك غير معقول ، وما الى ذلك من ألفاظ جوفاء ، فهل هؤلاء وهذا حالهم يستطيعون فهم كتاب الله واستنباط الأحكام منه ؟ وهل يكون قريبا من العقل وحال الكثرة الغالبة من الناس ما شرحناه قبل أن يتصور وجود مجتهد في هذه الأزمان التي انصرف الناس فيها الى الماديات تاركين العلم ينعى أهله ويبحث عنهم فلا يكاد يهتدى إلا الى النذر اليسير ممن هدام الله ؟

وإن الإنسان لتأخذه الدهشة وتملك به الحيرة من دعاوى أدعياء العلم الذين لا يميزون بين غث القول وثمينه، فتراهم وهم على هذه الحال التي وصفنا يدعون معرفة حقائق الأشياء وهي بعيدة عن مداركهم . وكيف تسمع دعاوى أمثال هؤلاء الاجتهاد ومنهم من لا يحسن المراجعة في مراجع اللغة ، ولا فهم التراكيب البلاغية ، ولا يكاد يفرق بين الحقيقة والمجاز ؟! وقد علمت أن الشرط في المجتهد أن يكون على علم تام بمعاني المفردات والمركبات وخواصها في الإفادة . وكيف يسمع لأمثال هؤلاء أنهم مجتهدون ومن الشروط الأساسية لقبول الاجتهاد أن يكون المجتهد تقيا عدلا بعيدا عن الهوى ، وهؤلاء المدعون لا يتحرون الصدق ولا يتورعون عن المخالفات ، ولا يرغبون عن مساءة ، ولا يتخرجون عن المؤثم ، والويل لمن رام هدايتهم الى الطريق السوى ، فإنهم يحاربونه بكل أنواع البلايا .

إذا تبين هذا تبين لك أن دعوى الاجتهاد الآن غير مقبولة، فلا يسمع من أحد من الناس أنه مجتهد مطلق ، ولا عبرة لدعواه ، ولا يعمل على فتواه ما دامت تخالف أقوال المجتهدين . أما أن عالما من العلماء يحيط بحفظا وضبطا لمسألة من مسائل الفقه في مذهب الامام أبي حنيفة ، ويحيط بها كذلك في مذهب الشافعي ، فإذا سئل عنها في المذهبين فنقل النص الراجح في المذهب على وجه الصحة ، وكان عدلا غير متهم في النقل ، فلا مانع من ذلك شرعا ، وليس تقليده لإمام من الأئمة بمانع من تقليده لإمام آخر في حادثة أخرى ، كما أن التزامه بمذهب لا ينفع من أن يكون على علم ومعرفة لمذهب آخر ، فيفتى فيه ناقلا القول الراجح .

أما من ذكرتهم في آخر سؤالك وسميتهم علماء وقات إنهم ياجدون في الكتاب ، فهؤلاء ليسوا بسمامين ، فأول شروط الاجتهاد مفقود فيهم ، وهم بناء على وصفك إياهم بأنهم يحرمون الحلال يكونون قد خرجوا عن دين الاسلام ، لأن تحريم الحلال كفر ،

ومن كان هذا شأنه فالواجب تعذيره بما نص عليه الكتاب والسنة وخرجه الأئمة .
ودعوى هؤلاء الاجتهاد وهم على ما ذكرت من وصف وأبنت من حقيقة دعوى
لا نصيب لها من الصحة ، والواجب على كل مسلم أن يحول بينهم وبين العامة حتى
لا يفسدوا عايهم دينهم لأنهم أضر على الدين من أعدائه ، ويحرم على المسلمين أن
يسألوه عن أى حكم أو يأبهوا لقول من أقوالهم . وإن من دواعي الأسف أن كثير
هؤلاء فى كل ناحية ، وكثرت مزاعمهم ، وعلة ذلك نفشى الجهل فى المسلمين ونبتهم
الأخذ بالتعليم الدينى ، حتى صار يدعى العلم من ليس من أهله .

وصفوة القول أن هؤلاء ليسوا من أهل الدين حتى يستفتوا فيه ، وهانحن أولاء
نسوق اليك أيها السائل حكم التقليد فى المسائل الفرعية والواجب على المقلد فنقول :

التقليد :

التقليد هو العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بغير حجة . فالعمل بقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس تقليداً ، والعمل بالإجماع ليس تقليداً . والتقليد
يجب على غير المجتهد فى المسائل الشرعية الفرعية ، لقوله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الَّذِ كُرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وهو عام فى جميع من لا يعلم ، فيجب عليه سؤال
من يعلم . وقد جرى الناس منذ فجر الاسلام الى اليوم على استفتاء غير العالم للعالم من
غير نكير ، وليس لازماً أن يكون المسئول مجتهداً مطلقاً ، بل يجوز لمجتهد المذهب
(وهو المطلاع على ما أخذ الأحكام الذى له ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من
الأصول التى مهدها إمامه) أن يفتى فيما يسأل عنه بمذهب إمامه من غير نقل لكلام
إمامه ، وتقبل فتواه لدى الناس متى كان معروفاً بالعلم والعدالة ، وقد انعقد الإجماع على
ذلك ، فقد أفتى العلماء وإن لم يكونوا مجتهدين اجتهدا مطلقاً فى جميع العصور من غير
اعتراض . أما المفتى الذى يفتى بنقل ما حفظه أو وجدته فى كتب المذهب من نصوص ، فهذا

ناقل لا يشترط فيه إلا ما يشترط في الراوى من العدالة والضبط والحفظ . وإن الواجب على المفتى أن يفتى بالراجح ، ولا يجوز له الإفتاء بالمرجوح ، لأن العمل بالمرجوح اتباع للهوى ، واتباع الهوى محرم شرعا . ومن اكتفى بأن تكون فتواه أو عمله موافقا لقول أو وجه في المسألة من غير نظر في الترجيح ، فقد جهل وخرق الإجماع . وينبغى ملاحظة أن يكون الترجيح صادرا من أهله ، ولا يكفي صدوره من أى عالم كان . ولا بد للمفتى أن يعلم حال من يفتى بقوله ، بأن يعرف حاله في الرواية ، ودرجته في الدراية ، وطبقته من الفقهاء ، ليكون على بصيرة وافية في التمييز بين الأقوال المتخالفة والآراء المتعارضة . ولا يخفى أن الفقهاء طبقات ، منهم طبقة المجتهدين اجتهداً مطلقاً ؛ ومنهم طبقة المجتهدين في المذهب ؛ ومنهم طبقة المجتهدين في المسائل التي لارواية فيها عن صاحب المذهب ؛ وهؤلاء لا يخالفون إمامهم لا في أصول ولا في فروع ، ولكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التي لا نص فيها عنه على حسب الأصول التي قررهما ، ومقتضى القواعد التي بسطها . وهناك طبقات أخرى ، أدونها طبقة المقلدين الذين لا يقدرّون على التمييز بين الغث والسمين ، وهؤلاء لا يجوز تقليدهم ولا الأخذ بآرائهم .

وصفوة القول أن الواجب على من نصب نفسه للفتيا على مذهب إمام أن يتبع الراجح من الأقوال ، وأن يعرف مراتب الترجيح قوة وضعفاً ، وأن يتثبت في الإجابة ولا يجازف فيها ، خوفاً من الافتراء على الله بتحريم حلال أو تحليل حرام ؛ وأنه يحرم اتباع الهوى والتشهى .

من هذا يتضح أن من يتعرض للفتيا بغير أن يتحقق فيه ما سبق ، لا يؤخذ بفتواه ، ولا يعتمد على قوله . كما أنه لا يعتمد على ما يفتى به كثير من الناس بمجرد مراجعة كتاب من الكتب المتأخرة التي ليست محررة دون الاطلاع على المآخذ

والتثبت من الصحة ، إذ كثيرا ما يقلد الساهون الساهين ، وكثيرا ما يكون النقل الأول خطأ .

وإذ قد علمت ما شرعناه قبلُ سهل عليك فهم أن من يتعرض للفتيا ممن ذكرت في سؤالك ليس أهلا للفتوى ، ولا عبرة برأيه ولا قوله ، وأن الواجب على المستفتي أن يسأل من هو معروف بالعلم والعدالة والتقوى والورع ، ومعرفة ذلك واضحة وميسورة . والله أعلم ؟

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

اخبار انتشار الثقافة الاسلامية

في الخارج^(١)

ظهرت حديثا رسالة قيمة باللغة الألمانية في تراجم حياة عظماء الشرقيين اسمها « مجموعة التراجم الشرقية » واشترك في وضعها كل من الأساتذة « فيست » من جامعة ميونخ (المانيا) و « بارتهولد » من جامعة لينجراد (روسيا) و « فيك » من جامعة تينجن (المانيا) و « فيجوالا » من جامعة برلين (المانيا) و « أوجدن » من نيويورك (أمريكا) و « روزنبرج » من جامعة لينجراد (روسيا) و « توماس » من جامعة اكسفورد (إنجلترا) .

وقد قام بنشر هذه التراجم القيمة الدكتور لوسيان شيرمان ، وظهر أول أجزاءها في سنة ١٩٢٦ وتمت في عام ١٩٢٨

(١) نقلا عن مجلة « Der Islam » الألمانية .

رؤيا

الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية

بلى الاسلام بأشخاص يتخذون من الافتراء عليه طرقا للتنفير منه ، أو حباثل لاصطياد شئ من المال ، ومن هذا القبيل صحيفة تشتمل على حكاية رؤيا منسوبة لشخص يسمى نفسه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية ، وقد اخترعت هذه الأَكْذوبة من مدة تزيد على أربعين سنة ، ولا يزال مخترعها يتعهد بها الناس في الشرق والغرب من سنة الى أخرى ، وكثيرا ما كتب أهل العلم في تزييفها وبيان ضلالاتها ، ورجاؤنا اليوم في الخطباء والوعاظ أن ينبهوا الأمة لفريتها وسخافة عقل من يتقبلها ، وقد ورد إدارة المجلة مقال محرر بقلم فضيلة الاستاذ صاحب التوقيع يكشف عن جهل كاتبها ، وسوء قصده ، وعظم وزره ، وإليك ما كتب الاستاذ :

لا نزال بين آونة وأخرى نسمع خبر هذه الرؤيا ، ويسوءنا أن يتهافت الناس على طبعها ونشرها وقراءتها وتعليقها على الجدران ، رغبة في الوعد الذي وقع فيها ، وهو قوله : « ومن يصدق بها ينج من عذاب النار » وقوله : « ومن قرأها ونقلها من بلد الى بلد كان رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، وكانت له شفاعته يوم القيامة » ورهبة من الوعيد الذي تضمنته ، وهو قوله : « ومن كذب بها كفر » وقوله : « ومن قرأها ولم ينقلها كان خصم النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة » ! .

كنا في سنة ١٣٢١ هجرية نشرنا في الجزء السادس من المجلد الثالث من مجلة الحقائق ، ردا ممتعا على هذه الفرية ، وحذرنا الناس من الوثوق بها ، والاعتراض بعودها ووقع إذ ذاك في خلدنا أن صاحب هذه النشرة سيرتدع عن إعادة نشرها ، وأن الناس

سيعرضون عنها ، ولا ياتفتون بعد هذا اليها ، ولكن خاب ما ظننا ، ولم نبليغ ما أملنا
فالكاذب لا يزال الفينة بعد الفينة ينشر فريته ، ويذيع كذبه بين الناس ، وهم لا يزالون
يقبلون عليها ، ويتقبلون ما فيها من ترهات وتغريز بالقبول الحسن ، والعناية اللازمة .

نعم إن ناشرها - جريا مع الأيام - قد عاد عليها بالتشذيب والتهديب فنقح
وصحح ، وحذف منها كثيرا من المفتريات التي كنا نهينا عليها مثل قوله : « كنت ^(١) ليلة
الجمعة في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر الخير سنة كذا مضطجعا على وضوء
كامل » الخ . وقوله : « استحييت (كذا) من الله عز وجل ^(٢) » وهو يقول لى : يا محمد
لأبدلن وجوههم وأعذبهم عذابا شديدا ، فقلت يارب أمهاتهم حتى أنذرهم وأبلغهم »
الخ . وقوله : « يا أحمد ^(٣) إنهم قد سلب إيمانهم من كثرة الزنى » الخ . وقوله : « يا أحمد ^(٤)
إن تارك الصلاة لا تمسوا جنازته » . وقوله : « ومن ^(٥) اطلع عليها ، ولم يخبر بها الناس

(١) كتبنا في الرد الاول على هذه الجملة ما نصه : هذا من كذبات الرجل إذ أن هاته الرؤيا لم تزل من
سنين عديدة تأتي على هذا النمط وهو أنه في ليلة الجمعة من اليوم الثاني والعشرين الخ . ومع اختلاف السنين
لم يختلف تعيين الليلة ولا الشهر ليظن الجاهلون أنها قريبة العهد وحديثة الزمن . (٢) كتبنا في الرد
الاول على هذه الجملة ما ملخصه : دعوى هذا الافاك بأنه عليه الصلاة والسلام طلب إيهال أمته حتى ينذرهم
ويبلغهم محض كذب ، لا نه عليه الصلاة والسلام بلغ الناس جميع ما أمره الله تعالى بتبليغه وقد آتم تبليغه وترك الناس
على شريعة كاملة تامة واضحة . والشك في إتمام التبليغ كفر يجب التحذير من اعتقاده . (٣) ملخص
ما كتب في الرد على هذه الفرية أن الزنى وما بعده من المعاصي التي ذكرها مما يوجب ارتكابها العذاب في الدار
الآخرة لكنه لا يسلب الايمان ولا يحو الاسلام خلافا لما زعمه هذا الكاذب على الله ورسوله . وقد صح
قوله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله
على النار . الحديث . أخرجه البخارى . (٤) يلخص ما كتب في الرد على هذه الفرية بأن عامة العلماء
على أن تارك الصلاة اذا مات تجب الصلاة عليه كما يسن تشييع جنازته ، خلافا لما افتراه هذا الكذاب على الله
تعالى ورسوله . (٥) أما هذه الجملة غلصا ردا عليها أن وعيد اسوداد الوجه يوم القيامة هو للكافرين
والمكذبين . وقد جعله هذا المفترى لمن لم يخبر الناس بوصيته فالامتناع من إخبار الناس بوصيته معناه عنده
الكفر والتكذيب ! عافانا الله من الكذب وحمانا من الافتراء !

كان وجهه مسوداً يوم القيامة» الخ. وقوله: «ومن»^(١) كذب ولم يصدق بها - يعني الوصية - فهو ملعون ثم ملعون ثم ملعون» الخ. وقوله: «من بعد»^(٢) ألف وثلاثمائة وأربعين سنة يخرجن (كذا) النساء من بيوتهن الى الأسواق من غير إذن أزواجهن» الخ. وقوله: «وبعد»^(٣) ألف وثلاثمائة وخمسين ينزل من السماء مطر كبيض الدجاج، وبعد سنة ١٣٧٠ تغيب الشمس ثلاثة أيام». وقوله: «وبعد ألف»^(٤) وأربعمائة يظهر المسيح الدجال».

وقوله: «فما كان»^(٥) والله والله والله وآيات الله وأمانه إنها مكتوبة بقلم القدرة» وقوله: «ومن كان»^(٦) عنده ثلاثة دراهم واستأجر بهم (كذا) وكتب هذه الوصية وكان مذنباً وعليه فرض صيام غفرت ذنوبه ببركة هذه الوصية».

(١) قلنا في الرد على هذه الا كذوبة: إن اللعنة اذا لم تجد مسلكاً رجعت من حيث جاءت كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم عند أحمد. وعلى هذا فهذه اللعنات تعود على صاحبها. (٢) يلخص ما كتبتناه في الرد على هذه الجملة أنها مع ما فيها وما في غيرها من اللحن الذي يتنزه عنه الله تعالى ورسوله دليل واضح على كذبه إذ أن النساء خرجن قبل الوقت الذي عينه بعشرات من السنين. (٣) كتبنا في الرد على هذه الا كذوبة ما ملخصه: ما ذكره من نزول المطر كبيض الدجاج وغروب الشمس محض كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ليس هو من أشراف الساعة التي ورد النص الصحيح بها. (٤) كتبنا في الرد الأول على هذه الفرية ما ملخصه: صح في الحديث الشريف أن خروج المسيح والدجال من أشراف الساعة لكن لم يصح تعيين ذلك في سنة مخصوصة. فمن أين لهذا الكذاب العلم بتعيين الوقت وتحديد الله تعالى يقول على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) أي فإني صلى الله عليه وسلم بنى عن نفسه الكرامة علم الغيب. وهذا الكذاب يدعيه. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(٥) جاء في الرد الأول على هذه الكذوبة ما ملخصه: من علامة الفاجر أن يحلف من غير أن يستحلف وهذا الكذاب لم يكتف بالهزم بالدين حتى عرج الى السماء وأدعى أن وصيته مكتوبة بقلم النور! نسأل الله تعالى السلامة منه ومن أمثاله أهل الافك والزور. (٦) يلخص ما كتب ردنا على هذه الفرية الفاضحة بأنها مؤكدة أتم التأكد تلاعب هذا الأفاك بأحكام الدين فقد سبق له أن حكم بسلب إيمان المذنب ثم جاء الآن بفقر ذنوبه لا لأنه آمن وتاب بل لمجرد أنه نقل هذه الوصية الكاذبة، ولو أن إنساناً ترك صوم يوم واحد من صيام الفرض ثم نقل جميع كتب العلم بل نقل كتاب الله الحكيم لا يكون ذلك مكفراً لذنبه بل هو مسئول ومحاسب.

كل هذه الترهات والأكذوبات قد حذفها هذا المفتري الكذاب جرياً مع الأيام كما قلنا، وجاء إلينا الآن برؤيا أو وصية ملخصة مشذبة ومع ذلك لم تخل مما يجب إنكاره وفضيحة صاحبه، وإشهاره بين الناس بأنه كاذب أفاك متلاعب، مجترى على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم القائل في الحديث الصحيح المتواتر الذي رواه الجهم الكثير^(١) من الصحابة عنه صلى الله عليه وسلم «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أى فليتخذ منزله منها.

وقبل الشروع في الرد على وصية هذا المفتري الجديدة رأينا أن نتقدم إلى إخواننا (قراء مجلة نور الاسلام الغراء) بحمل مختصرة يتعرفون منها عظيم أمر الكذب، وخصوصاً ما كان منه في حكاية المنام كهاته الرؤيا التي نحن بصدد ردها، وما كان من ذلك على الله تعالى وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فبمع الكذب مطلقاً

لا يشك عاقل في أن الكذب من أقبح الخلال وأردأ الخصال، وأنه وخيم العاقبة، كثير الأضرار، مذل لصاحبه، مخز لفاعله، منهك لقوى المجتمع البشرى، مفسد لنظامه المالى والاقتصادى والأخلاقي، موجب لانت الله وعذابه في الدار الآخرة، وهما كم ما يشير إلى ذلك من آيات كتاب الله الحكيم، وسنة نبيه الرؤوف الرحيم:

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ). وقال جل ذكره: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» وقال جل جلاله: (ثُمَّ نَبْهِّلُ^(٢) فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ).

(١) قيل: إنهم يبالغون ثمانين نفساً وبلغ بهم الطبراني وابن منده سبعة وثمانين منهم العشرة المبشرون بالجنة وقال الحافظ المنذرى روى هذا الحديث عن غير ما واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر. (٢) أى تتضرع في الدعاء.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر » زاد في رواية : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ؛ وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي الى الفجور ، وإن الفجور يهدي الى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار » وقال صلى الله عليه وسلم : « رأيت الليلة رجلين أتياني قالاً لى : الذى رأيتك يشق شدة كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به هكذا الى يوم القيامة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح والمرء » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم بيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً » وقال صلى الله عليه وسلم : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا اخيانه والكذب » .

وعن الحسن بن علي بن فضال : « حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

(١) رواه البخارى ومسلم والزيادة لمسلم . (٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه . (٣) رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه . (٤) رواه البخارى من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه . (٥) رواه أحمد والطبرانى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . (٦) المرء : الجدال . (٧) أخرجه البيهقى بإسناد حسن وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه . (٨) الزعيم : السكفيل . (٩) قال الحافظ المنذرى رواه أحمد قال حدثنا وكيع سمعت الاعمش قال حدثت عن أبى أمامة قال قال صلى الله عليه وسلم الخ . (١٠) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن صفوان^(١) بن سليم قال : « قيل يا رسول الله : أ يكون المؤمن جباناً ؟ قال نعم قيل له : أ يكون المؤمن بخيلاً ؟ قال نعم . قيل له : أ يكون المؤمن كذاباً ؟ قال لا » . وقال^(٢) صلى الله عليه وسلم : « إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلاً من ثلث ما جاء به » .

فبح الكذب في مظانية المنام

لو أن هذا الرجل الذى سعى نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية كان ممن يخشون الله تعالى ، ويعدون العدة للقائه سبحانه ، لما حمل نفسه أقبح أنواع الكذب ، وأشدّها لله تعالى سخطاً ، حيث اعتاد أن يبنى وصيته على رؤيا منامية يحكيها للناس وهو فى ذلك من الأفاكين الكذابين الدجالين ، فقد صح عنه^(٣) صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من أعظم القرى^(٤) أن يدعى الرجل الى غير أبيه ، أو يرى عينه فى المنام^(٥) ما لم تر ، أو يقول على ما لم أقل^(٦) » . وقال^(٧) صلى الله عليه وسلم : « من أفرى القرى أن يرى عينه ما لم تر » . وعن أوس^(٨) بن أوس الثقيفى مرفوعاً : « من كذب على نبيه أو على عينيه أو على والديه فإنه لا يرمى ریح الجنة » وقال^(٩) صلى الله عليه وسلم : « من كذب فى حلمه^(١٠) كلف يوم القيامة أن يعقد شعيرة » وقال^(١١) صلى الله عليه وسلم : من كذب فى حلمه متمعداً فليتبوأ مقعده من النار .

دمشق — محمود يس

« يتبع »

- (١) قال الحافظ المنذرى رواه مالك هكذا مرسل . (٢) رواه الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وقال حديث حسن . (٣) قال العراقى : رواه البخارى من حديث وائلة بن الاسقع رضى الله عنه . (٤) بوزن القرى ويعد أى من أ كذب الكذبات الشنيعة . (٥) قال الزبيدى لانه جزء من الوحي فالخبر عنه بما لم يقع كالخبر عن الله تعالى بما لم يلقه اليه . (٦) جمع الثلاثة لشدة المناسبة بينها وليبان أنها من أغش أنواع الافتراء . (٧) قال العراقى : أخرجه البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ورواه أحمد بلفظ إن من أعظم . ورواه البيهقى من حديث وائلة رضى الله عنه . (٨) رواه ابن جرير والطبرانى وابن عدى والخراطى . (٩) قال العراقى : رواه البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الزبيدى : ورواه حمد والترمذى وابن جرير والحاكم . (١٠) بضم فسكون أى فى منامه . (١١) قال الزبيدى : أخرجه الامام أحمد .

استعمار المناطق الشمالية في أمريكا^(١)

تمتد يد المدنية يوماً بعد يوم الى استعمار المناطق النائية في شمال أمريكا بعد أن كانت خلوا من أثر الحياة الاقتصادية لا يكاد يفلت أحد من أجدادنا الذين ركبوا المخاطر وقابلوا الأهوال في تجاربها من يد الأقدار القاسية بأن يقع ضحية إقدامه فريسة الأجواء العاتية أو الوحوش الضارية التي تجوب فيافيها المقفرة أو غاباتها الباسقة .
تقع هذه النواحي النائية الآن في وسط معترك الحياة الاقتصادية العالمية ، ويتنازع الانسان حيازة مرافئها التجارية ومناطقها الصناعية والزراعية .

تدفعنا الحاجة المستمرة الى الفحم والمعادن والزيوت الى استكشاف أقصى أنحاء المعمورة ، واقتحام مجاهل الأرض التي كانت يخيم عليها الى زمن غير بعيد كثير من الغموض ولا نستطيع اليها سبيلاً . وأما الآن فلا تسمح حالة العالم الاقتصادية وقد بلغ سكان المعمورة نحو المائتي ألف مليون بأن تترك مثل هذه الأقاليم الشاسعة دون استغلال اقتصادي واسع النطاق ، ولذا فانا نجد أن حركة استعمار الأوصاح منها فالأصاح قائمة على قدم وساق ، وتبذل الممالك المتحضرة في سبيلها كل مرتخص وغال .

وما كان يعوق استعمار المناطق الشمالية الأمريكية إلا الفكرة الخاطئة عن سبل الحياة التعسة فيها وانقطاع مواردها الطبيعية ، وقد ساد هذا الاعتقاد في مملكة السكوت الأيدي وانتشارها شمال الجهات المعمورة من آسيا وأمريكا الشمالية أمداً طويلاً كانت لا تطلع فيه الشمس أو يطل القمر إلا على قبور الأبطال المجاهدين في صحراوات جديدة

(١) نقلا عن مقال للاستاذ « هانس ميرلين » في مجلة « Kosmos » الألمانية .

واسعة الأرجاء ، أو على قبائل الاسكيمو تحيا حياة منعصمة بين الأوحال والجليد بعيدة عن كل حضارة ومدنية ، لا نعرف عن وجودها إلا في أشعار وأغاني المنشدين . وقد بعث حب الاستطلاع من ناحية والسعي وراء الرزق من ناحية أخرى جماعة من سكان القارة الآروبية وأمريكا الشمالية الى ارتياد هذه البقاع المجهولة ، وأقاموا بها وفلحوا الأرض وأسسوا بعض الصناعات المنزلية ، ووجدوا أن في كثير من بقاعها لا يغلب سقوط الثلوج أكثر مما يسقط في كثير من المدن الكبيرة في أوروبا أو أمريكا ، وأنهم لا يقاسون من برد الشتاء أكثر مما يعانون من حر الصيف ، وقد تصل درجة الحرارة فيه ٣٢ في الظل ، وتستمر على ذلك أكثر من ستة أسابيع تمتدشرفها المراعى الواسعة وتكثر الزهور الياضعة ذات الألوان الرائعة كثرتها في البلاد الجنوبية ، فتحيا الأرض حياة لا يمكن أن يسعها خيال سكان المناطق المعتدلة ، فتصل الزهور وبعض المحاصيل الزراعية الى أحجام ليس لها مثيل في ناحية أخرى من المعمورة .

يتضح من ذلك أن البراري الشمالية في كندا وما يتبعها من مجموع جزر ليست عديمة الحياة كما كان الاعتقاد القديم ، خصوصا وأن بها من الماشية المختلفة ما يحصى بعشرات الآلاف ، ومن الطيور ما يحصى بالملايين . هذا الى ما بها من الثعالب والذئاب مما يجعل سكوت هذه الناحية من الأرض لا وجود له إلا في خيال الأجيال السابقة . أما العدو الحقيقي في هذه الجهات صيفا فهو البعوض الذي يؤثر كثيراً في راحة المقيمين بها . أما وجود الثلاجات الكثيرة في نواحي متعددة من جرينلاند فأنما يرجع الى وقوعها في المناطق الشمالية وليس الى ما يهطل من الجليد .

يتضح مما سبق ذكره أنه ليس بوسع الانسان أن يحكم على أحوال الجهات بمجرد اطلاعه على علوم تقويم البلدان والأجواء الطبيعية دون أن يكون ملماً بالأحوال والظروف الخاصة لكل جهة من الجهات ، ومما يزيد الدهشة من هذه الناحية أن

سكان تلك الأقاليم (الاسكيمو) يدعون رغدة العيش وبمبوحته ، وأنه كلما ذهب الانسان شمالا كلما قلت أسباب سعادة المعيشة وأصبحت الحياة لا تطاق .

وتهتم حكومة كندا الآن اهتماما كبيرا في استعمار أراضيها الشمالية واستغلالها الى أوسع مدى ، وتميل الى اعتقاد آراء روادها ورجالها المستكشفين ، ففي سنة ١٩١٣ أرسلت بعثة كبيرة بقيادة الرحالة المشهور « ستيفانسون » دامت حتى عام ١٩١٧ لكشف مجموعة الجزر الواقعة شمالى « بانكسلاند وفكتوريا لاند » ، وقد ثبت لرجال هذه البعثة أن الأحياء المائية تكثر في هذه الجهات كثرتها في المياه القريبة ، وأن كثيرا من أنواع المواشى والغزال يقطن هذه الأصقاع حتى درجة ٨٠ عرضا ، وهذه المعلومات تؤيد ما قرره « سفردروب » من ذى قبل . ويميل « ستيفانسون » الى الاعتقاد أنه مما يعود على الحياة الاقتصادية بفائدة لا تنكر لو اهتمت حكومة كندا بتشييد مدينة كبيرة في بانكسلاند أو فكتوريا لاند ، ويتنبأ أن برارى كندا الشمالية ستصبح في وقت قريب أهم مراكز السكر الأرضية لتصدير اللحوم المحفوظة والمجففة .

ويمكن « ستيفانسون » من اكتشاف مستودعات كبيرة للفحم والقطران في جزيرة « ملفيل » وينابيع لغاز البترول على شواطئ بحيرة العميد . وفي وادى نهر ما كنزى طبقات من المعادن الخلم ، هذا علاوة على مناطق الذهب التى وجدت من قبل فى ناحية « جوكون » ولا تزال عالقة بالأذهان — إلا أن هذه الاكتشافات ما هى إلا نتيجة المصادفات ، ويغلب على الظن أنه بالبحث العلمى الدقيق يمكن أن نتحصل على كميات وافرة من هذه المعادن والزيوت الطبيعية .

وقد ترددت الكميات التى يمكن الحصول عليها من ثروة الأرض الدفينة لتوفرت طرق الحصول على الغذاء الكافى للعمال القائمين بعملية البحث والاستغلال ، أو بمعنى آخر لو تمكنا من الحصول على المواد الغذائية من نفس الجهة ، إذ أنه مما لا يزال يذكره

كل إنسان أن استعمار غرب الولايات المتحدة الأمريكية قد تم على الوجه المعروف لوجود قطعان المواشى بوفرة هناك ، وأن صيدها فيما بعد ذلك وذبحها لحاجة أو لغير سبب أو مبرر ما كان سببا في انعدام هذه الماشية الآن تماما . ويقال رواد هذه النواحي الأمرين في الحصول على اللحوم من مسافات بعيدة ، وتعتبر هذه الحادثة من أكبر السيئات المعروفة في التاريخ الاقتصادى . وتبذل حكومة كندا الآن مجهوداً كبيراً في إصلاح غلطة جارتها (الولايات المتحدة الأمريكية) وتقاوم حركة صيد قطعان المواشى القليلة الموجودة ، بل وتحيطها بسيج منيع حتى تبقى وتتكاثر لتسكون من معدات الاستعمار المقبل .

وقد أجريت هذه التجارب في ولاية «ألبرتا» بنجاح باهر حيث زاد عدد رؤوس الماشية زيادة مضطردة أدت الى ضيق المراعى بها على اتساعها واضطرت الحكومة الى نقل بضع آلاف منها الى بقاع أخرى لرعاية ما بها من الكلاً والحشائش على ما يتكافه نقل هذه المواشى في مثل هذه النواحي غير المعمورة وغير الممهدة السبل من مجهود كبير ونفقات باهظة . وذلك كله حرصاً منها على مستقبل البلاد الزراعى والصناعى الذى يتوقف على أسباب المعيشة وأجور العمال .

وأكثر أنواع المواشى شيوعاً في هذه الأصقاع هو البقر القطبى ، وهو نوع متوسط بين البقر والغنم ، ولحومه طيبة ، وكثير الشبه بالحيوان المعروف باسم «ياك» فى هضاب آسيا الداخلة . ولهذه الفصيلة من البقر صوف غزير يحسدها عليه كثير من الحيوانات القطبية للوقاية من البرد ، وهى قوية العضلات سريعة العدو ، حتى ليكاد يستحيل على الهواة اقتناصها أو رميها بسهولة ، وتسميت بفطرتها فى الدفاع ضد عدوها الذئب الذى يتغذى عليها وعلى ما يصادفه من الغزال المستوحش . وتبذل الحكومة عناية خاصة فى استئصال هذه الوحوش الضارية ، فاذا نجحت فى القضاء عليها

فإنه من المنتظر أن يزداد عدد الماشية زيادة كبيرة وقد أعدت مزرعة مترامية الأطراف لاقتناء وحماية هذا النوع من البقر مساحتها ٣٨٤٠٠ كيلو متر مربع في شرق بحيرة العبيد ، وأخرى في الجزائر الواقعة في الطرف الشمالى من خليج هدرسون لتربية الغزال المعروف باسم « رنتير » .

وكل هذه التجارب هي في الواقع ابتدائية ، ولكن الظواهر تدل على أن برارى كندا القطبية والمتاخمة لها ستصبح في زمن غير بعيد لا تقل أهمية في إنتاج اللحوم عن أهمية الولايات الجنوبية في محصول القمح ، ولا زال بعض سكان مقاطعة « مانيتوبا » ذات الشهرة العالمية في زراعة القمح يذكرون الى عهد قريب اشتغالهم بصيد الحيوانات ذات الفراء الثمينة ، وتدرجهم في مختلف الأعمال الاقتصادية الى أن صاروا من الزراع وأصبحت بلادهم من أكبر أقاليم العالم محصولا في القمح ، ولا يزالون يذكرون عهدا كانت تعتبر فيه حدود الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية الحاجز الطبيعي للزراعة ، وهم يشهدون الآن انتقال هذه الحدود الزراعية من دائرتها الى منطقة تبعد ١٠٠٠ كيلو متر شمالا ، وفي عام ١٩٢٦ نال أحد مزارعى اقليم « ويس ريفر » الجائزة الأولى لمحصول القمح في معرض شيكاغو الزراعى ، ولا يمكننا التنبؤ من الآن الى أى بعد نحو الشمال سينتقل هذا الحاجز الطبيعي للزراعة فيما بعد .

الطرف والملح

قال حكيم : ليس لثلاث حيلة : فقير يخالطه كسل ، وخصومة يخامرها حسد ، ومرض يمازجه هرم .

الثقافة الإسلامية في الخارج

افتتحت دار الكتب التابعة للحكومة الألمانية بيرلين قاعة مطالعة خاصة بالقسم الشرقي من محفوظاتها ، وقد عنيت به عناية تامة ، وبلغ عدد الزائرين منذ افتتاحه في عام ١٩٢٤ الى أواخر سنة ١٩٢٦ ما لا يقل عن ١٧٠٠٠ ممن يهتمون بالشؤون الشرقية والثقافة الإسلامية . وإن دل هذا العدد على شيء فدلالة على اهتمام الجمهور المثقف بالاطلاع على علوم وآداب الاسلام . هذا وقد عني « المهر جوتشالك » بوضع فهرس حافل بأسماء الكتب والمجلات العربية وغيرها من اللغات الشرقية المحفوظة بدار الكتب الألمانية بيرلين والتي يمكن للزائرين الاطلاع عليها في كل وقت بقاعة المطالعة الخاصة بها . وتحتوي هذه القائمة المقسمة الى أبواب وفصول مختلفة بترتيب يسهل على الباحث عمله على ما لا يقل ٣٤٠٠٠ كتاب مختلف أو ٧٢٠٠٠ جزء .

وتعتبر هذه القائمة التي اهتمت دار الكتب المذكورة بطبعها طبعاً جيداً من أهم المراجع التي يلجأ إليها المستشرقون للعناية التامة التي بذلت في تنسيقها ، ولاحتوائها على أجل ما ظهر في العالم الشرقي كله في اللغة والآداب والثقافة وأصول الدين والتاريخ .

رد الخطأ والكفر والبدع

التي حواها كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع

تأليف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصالح بن مراد المدرس بمجمع الزيتونة

تناول فيه فضيلته بالنقد والتفنيد كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع وأبطل بالحجة والبرهان كل ما زاع به صاحبه من مفتريات وترهات . ثم أتبع ذلك بالدفاع عما لغا فيه الملحدون من أحكام وآيات ، مبيناً أسرار الشريعة الإسلامية ومزاياها ببيان عذب وأسلوب متين ، والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في ورق جيد ويقع في ٢٣٨ صفحة . فنشكر فضيلة المؤلف على غيرته الدينية وعمله المجيد ونحث أهل العلم على الاستفادة منه .

In his last address to the people, he said:

" O ye who hearken unto me, if I have smitten any of you, there is my back for him to smite; if I have smirched any one's reputation let him wreak his vengeance on mine: if I have robbed anyone's property, let him exact it out of mine; for verily this day he is secure and my heart beareth no malice."

When he finished his address and made to depart, a man siezed him by his clothes and demanded the settlement of three Dirhams which Mohammad owed him. The debt was discharged on the spot the Prophet saying: "Better the shame of this world than that of the hereafter."

the Law (Old Testament) in a few places but the reason thereof is not hard to find. The Koran was revealed to set the seal to previous Scriptures just as Mohammad was sent as the last of the prophets. His mind and soul came under the same influence which affected the minds and soul of other prophets; he worshipped the same God as they worshipped. Little wonder therefore should words be similar or even identical in some cases despite the fact the Lord's dispensations were given unto mankind through the media of different prophets. For did they not proceed from the one and same source ?

(9) Mohammad was definitely averse to all pomp and luxury. He was not haughty nor was he covetous of wealth or worldly power. He used to milk his own ewes, sit on the ground, mend his own clothes and cobble his own shoes. Contentment pervaded his whole being for never did he complain of his lot. He left this world and never once in his life did he have a full meal of barley-bread.

He never maintained a court nor permitted a retinue to attend him. His was a spiritual authority which aspired to no worldly pomp, neither did he seek the aid of a vizier to administer it.

He despised money and hated to have anything of it left on his hands. During his life he had attained to the highest pinnacle of authority and virtually exercised absolute power, yet never did he abuse it or go beyond the limits of equity. Of this power he had only one symbol: a staff where no king was more entitled to a sceptre than he.

(10) Mohammad resolutely set himself to exterminate paganism. In the choice between paganism and the worship of one Almighty God, he never hesitated for a single moment to choose the latter. His conviction never faltered throughout, and his zeal never showed signs of abatement from beginning to end. And herein is revealed another sign of his truth, for uniformity is not an attribute of man.

He was averse to the amassing of wealth and whenever he had a little thereof, he straightway spent it in charity.

On one occasion, he gave his wife Aysha a small sum of money to keep. When he was taken ill, he directed that it should be given to the poor and when this was done, he exclaimed, "Now I am at peace for verily it behoves me not to meet my Lord with this money still in my possession."

(6) The Koran constitutes in itself an ample proof of Mohammad's truth. It still remains up to the present day one of the mysteries which no one could solve or fathom the depth thereof save those who implicitly believe in the authenticity of its revelation and are convinced of its divine origin. But even then it is questionable whether they fully understand its intricacies.

(7) No one could deny that Mohammad displayed all the signs of true prophethood in so far as he delivered a message unto people at the behest of his Lord and wholly believed in the truth of his word.

Mohammad believed that his mind was so completely influenced by a divine spirit that he no longer exercised any control over it. He was merely the instrument of God and the medium through which the word of God was conveyed to mankind.

His ego completely disappeared and was sunk deep in the idea of the all-pervading Providence in which he implicitly believed.

Whether the revelation came to him in his dreams or at times of unconsciousness, it is difficult to say, but in either case, the truth of these revelations could not be gainsaid.

(8) Emotions used to show clearly on his face; some thought that he was subject to fits, a conjecture which proved totally unfounded for Mohammad embarked on his mission after the fortieth year and never before in his life did he show signs of ill-health to justify this assumption. Very few people indeed could be so well-known throughout the span of their life as Mohammad was. So thorough indeed was his life treated that even such details as the number of grey hairs in his beard did not escape the traditionists' attention.

Had Mohammad been suffering of ill-health or fits as it is alleged, it would have been impossible to hide the fact and one or two of his biographers would have at least referred to it. Mohammad's states of unconsciousness were not due to fits or any other supernatural paroxysms. They were essentially the manifestation of an awe-inspiring experience under which he laboured when the word of God was revealed to him.

Mohammad was not an innovator nor did he profess to be a writer. Indeed, we would find some similarity between the Koran and

(3) We all know of the great hardships which Mohammad had endured and the mental agonies which he suffered in silence. The secret of his fortitude lies in the fact that the Lord caused his soul to be open only for the reception of the true faith. It is for this reason that he frequently sought solitude to escape the scenes of idolatry and polytheism which acted as thorns in his side whenever he came across them.

The oneness and unity of God had so pervaded his soul that he used to seek the solitude of Mount Hera to hold communion with and give prayers to the Lord.

(4) It is indeed baffling to the human mind how such verses (of the Koran) came to be uttered by an illeterate person like Mohammad, verses whose equivalent the master mind of mankind utterly fail to produce in both words and meaning. The failure of the Arabs themselves who were the acclaimed masters of eloquence and oratory and who were intent on the refutation of Mohammad's claims points conclusively to its divine origin.

It is related that when the Koran was recited to Okba Ibn Rabieh, he was so impressed by its beauty and eloquence that he straightway embraced Islam.

Not less impressed was the Negus of Ethiopia whose eyes teared when the Chapter of Zachariah and the verses regarding John were recited to him by Jafar Ibn Abi Taleb. In this connection it is recorded that on the following day, he requested Jafar to recite the story of Jesus from the Koran which he did. The Negus was surprised to hear that Jesus was the servant of the Lord and his apostle and that he proceeded from the spirit of God. He took up a thin rod that was lying in front of him and said to Jafar:

"The difference betwixt what I have just heard from you and that which our religion saith is no more than the thickness of this rod."

This rod has however become stronger that it stood between Ethiopia and Islam and rendered it a Christian country up to the present day.

(5) It is hard to believe that human eloquence could produce such effect, for the eloquence of the Koran is so positively flawless and inimitable that no man on earth or angel in heaven could produce anything like it and its origin is therefore unquestionably divine.

deep in their hearts. This is the bedrock of all good and prosperity, and the Prophet Mohammad could, in this respect, be considered the greatest of all prophets, for would not his insistence to purge the souls of the taints of evil and his solicitude for the people's salvation constitute another sign of his truth ?

It would indeed be impossible that such far-reaching results as were achieved by Mohammad could have been reached without divine support. The failure of others who wielded great earthly power fully bears out this conclusion. Moreover it should be remembered that of earthly power, Mohammad had none and his cause spread and is still spreading to the furthest corners of the globe by sheer power of truth and conviction.

CONCLUSION

In concluding this series of articles on the Prophet Mohammad, we summarise in the following pages the views expressed by Count Henry, the great French orientalist when dealing with the same subject.

He classified his views into ten arguments:

(1) In establishing the truth of Mohammad, we need only point out his own conviction that his mission was a true and real one and that his ultimate object was to extirpate idol worship and substitute God's worship in lieu thereof.

(2) Mohammad's faith was inborn in him. It grew within his conscience into an all-pervading belief which no other soul prior to him had ever conceived.

This unwavering faith revolutionised the thoughts of men and was directly responsible for the change that took place in the destinies of mankind over a large area of the globe. Mohammad could neither read nor write. He was, as he repeatedly described himself an illiterate Prophet. It is significant that no one of his contemporaries ever denied this assertion.

He never read a book nor did he seek guidance from any of his predecessors in the matter of religion.

guide, preacher, warrior, leader, legislator, judge, philosopher, chieftain, politician, ruler, party to a treaty, combatant, warshipper and a prophet, he was a model of perfection. And inasmuch as history and tradition record him so, they are both agreed that such combination could not possibly be displayed by an ordinary person. But Mohammad was indeed no ordinary person. For should we contemplate his life-story, his traditions and the tenets of his religion, we would be convinced beyond doubt that his life offers a guiding spirit to all mankind and endows men with power and vigour in the exercise of their vocations but above all it prescribed a law that warranted the achievement of men's aspirations and offered a haven for those who seek peace of mind and soul. Thus viewed, Mohammad's character presents a most intriguing phenomenon to philosophers and psychologists.

Would not his wide vision comprehending as it did all spheres of human life constitute a sign of his truth? There is not a single concern of man to which he did not prescribe the adequate means for the right conduct thereof. He pointed out the proper attitude in regard to God, which leads to the elevation of men's mind and the salvation of his soul, thus acquainting him with those finer and higher attributes that dwell within him. Nor was the treatment of his family and people in general left out. His relations with them were so happily ordered to ensure a happy and contented life.

Again it should be remembered that the elevation of the Arab people from the lowest depths of ignorance to the highest attainments of learning, from a state of degradation to exaltation, their inculcation to a most efficient culture and guidance to the most noble conduct in every sphere of life were directly due to the benign influence exercised by Mohammad. They were guilty of the grossest iniquities that made them akin to the beasts of prey. Yet in less than a little time they achieved distinction in all the spheres of life and the light that was theirs was henceforth, shed all over the world.

To those of sound judgment and clear insight, this proves beyond all doubt that the messenger of such dispensation is the very incarnation of all good and perfection. For the virtues imbued from one person by others must, of necessity, be commensurate with his moral worth and attainments. "I was sent to perfect the traits of noble conduct". This in a nutshell was the mission of Mohammad for indeed the object of all God's dispensation is to deliver mankind from the evils that beset them and implant noble conduct and the fear of God

and are averse to anything new, no matter how advantageous it may prove.

Notwithstanding his weak position and the apparently hopeless end he set himself to achieve, he kindly reasoned with them and advanced arguments to establish his claims. Through repeated exhortations and admonitions a sense of anxiety was engendered in their hearts; yet withal, he proffered them goodly counsel even as a king whose word is law unto his people and whose commandments are just and equitable or even as a wise father who is solicitous for his children's welfare and whose severity is tempered with kindness and mercy.

But what astounded them most of all was the fact that Mohammad was humble and illiterate and far below them in station and knowledge to dare to condemn and criticise their actions. Yet his cause prevailed in the end and wonder they did at such might coupled with humility, such power where disability was thought to dwell, such knowledge despite illiteracy and such wisdom in an age of ignorance and idolatry !

Could there be a greater evidence of the purity of this great soul and the support given thereto by the Lord ? Could there be a mightier proof of his truth and the authenticity of his mission ?

An illiterate person, yet despite his illiteracy calls the master writers of the day to the intelligent understanding of their texts! He who had never been tutored yet calls upon the learned people to rectify their knowledge! He who was born and bred far away from learning and erudition yet had come to guide the master minds of his time! He who was reared among a backward people, yet had come to correct the corrupted beliefs of philosophers ! He who was an orphan among a primitive race to whom nature and the universe were beyond their comprehension, yet had prescribed for the benefit of the world at large the principles of an efficient law whereby the salvation of mankind is assured. Those who aspire to blessedness, had only to follow his example to attain to eternal salvation.

For indeed Mohammad's character combined such noble traits as to offer to all men of all kinds a perfect pattern for imitation. This is itself constitutes a miracle which no sound reason would deny. Mohammad's character did not only offer one phase to be judged by, but combined so many phases at the one and same time. As a tutor,

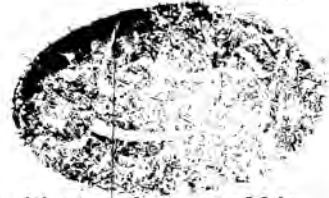
ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE PROPHET MOHAMMAD⁽¹⁾

(Continued)



That Mohammad met with stubborn opposition on the part of his people, is a fact well established by both history and tradition. They left no stone unturned in their desire to refute his claims and did all that lay in their power to prejudice his cause. Proud kings and princes, great poets and orators have all taken their stand against Mohammad and united in a joint effort to rebut his pretensions rather than follow him or submit to his claims. Their vanity and blind zeal for their beliefs and the time-worn dogmas of their forefathers stood an unsurmountable barrier between them and the admission of Mohammad's truth. Yet, in face of relentless persecution, he never ceased to call them unto the very reverse of their beliefs and fearlessly point out the folly of idolising their wooden dieties.

Alone and unaided, he delivered his message and was heedless of the spirit of antagonism he evoked in an altogether conservative people; and little wonder indeed that this should be the case, for men are apt to cherish what they are used to, wrong though it may be

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book "*Messages of Peace*".

قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رُضْوَانَهُ مَجِئَ السَّلامُ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بُحُرُ الْإِسْلَامِ



مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية
تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الخامس		جمادى الأولى سنة ١٣٥١		المجلد الثالث	
مدير إدارة المجلة		رئيس التحرير			
عبد المحسن بن عبد العزيز		السيد محمد النجاشي			
المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى		من علماء الأزهر			
الادارة		الاشتراك			
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١		داخل القطر المصري		٤٠	
تليفون : ٨٤٣٣٢		خارج القطر المصري		٥٠	
الرسائل تكون باسم مدير المجلة		للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذنين		٢٠	
		والمعلمين المدارس الأولية والطلاب داخل القطر		٣٠	
		والخفصات المذكورين في خارج القطر			

نمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٩٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفحة من حياة أبي الحسن الأشعري

التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى وقد أورث الناس ديناً ساطع الحجج، محكم الآيات، فساروا في ضوئه أمة واحدة، لا يختلفون في شيء يرجع إلى العقائد حتى آخر خلافة عثمان رضي الله عنه حيث حيث تلك المناقشات السياسية، واتخذها مرضى القلوب أمثال عبد الله بن سبأ ذريعة إلى فتنة يكيدون بها للإسلام، ففتحوا بابها بقتل الخليفة، ونشأت خلافة على كرم الله وجهه، وغبار الفتنة ثائر، فتولدت تحت مثاره آراء سياسية، ثم جعلت تلك الآراء تتحول إلى مذاهب دينية، ودب في النفوس مرض الاختلاف؛ ومن هذا الاختلاف ما يرجع إلى أصول العقائد فيحل عروة الإيمان، ومنه ما يرجع إلى فروعها، فلا يزيد على أن يسمى انحرافاً عن الصواب. كثرت الفرق، وتعددت الألقاب، فوهن حبل الاتحاد الإسلامي، ولولا هذا التفرق لبلغ الإسلام من القوة فوق ما بلغ، وارتقى في السيادة ذروة فوق التي ارتقى. ومن هذه الفرق فرقة يغفلون في التشيع للإمام على كرم الله وجهه. ومن أبعدهم في هذا الغلو نزعة السبئية: أتباع عبد الله بن سبأ الذي ادعى لعلي عليه السلام وصف الألوهية، فنفاه على المدائن، ويقال: إنه كان يهودياً، فتظاهر بالإسلام ليكيد له بمثل هذه الدعوى.

ويقابل هذه الفرقة فرقة يدينون بكراهة على رضى الله عنه ، وهم الخوارج ^(١) ، ونشأ هذا المذهب من جماعة كانوا مع علي في حرب صفين ، ثم خرجوا عليه عقب قضية التحكيم .

ومن هذه الفرق فرقة يبالغون في إثبات الوعد ، حتى قال بعضهم : لا يضر مع الإيمان معصية ، وهم المرجئة . أما الإرجاء الذى ينسب الى بعض فضلاء التابعين كالحسن ابن محمد بن الحنفية ^(٢) ، فعناه عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتلتين من العلويين والأمويين بكونها مخطئة أو مصيبة ، وإرجاء أمرهما أى تأخيرهما وتفويضهما الى الله تعالى ، وهو بهذا المعنى لا يمس جانب الإيمان ، ولا يعد صاحبه عند أهل السنة موضعاً للعيب . ومن هذه الفرق فرقة يبالغون في إثبات القدرة للإنسان ، وينكرون إضافة الخير والشر الى القدر ، وهم القدريّة ، وأول من تكلم بهذا معبد بن عبد الله الجهني الذى خرج مع ابن الأشعث ، ووقع في يد الحجاج فقتله سنة ٨٠

ومن هذه الفرق فرقة لا يشبتون للعبد قدرة على الفعل لا مؤثرة ولا كاسبة ، وهم الجبرية ؛ وأول من ظهر بهذا المذهب جهنم بن صفوان الذى خرج مع الحارث بن سريج على بنى أمية في أواخر دولتهم ، ووقع في قبضتهم بعد انهزام الحارث ، وقتل سنة ١٢٨ أو ١٣١

ومن هذه الفرق فرقة يشبهون الله — وهو واجب الوجود — ببعض مخلوقاته ، وهم المشبهة ؛ ومن تعزى إليه هذه البدعة الجعد بن درهم مؤدّب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ومن غلاة المشبهة الكرامية : أتباع محمد بن كرام ^(٣) ، وهو شيخ

(١) الصفرية ، والأزارقة ، والنجدية ، والمجاددة . (٢) توفي سنة ٩٩ أو ١٠٠ ، وعبارته في الكتاب الذى يقال إنه قد وضعه في الإرجاء « ونوالى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، ونجاهد فيهما لأنهما لم تقتل عليهما الأئمة ، ولم فشك في أمرهما ، ونرجىء من بعدما ممن دخل في الفتنة فشكل أمرهم الى الله » (٣) ضبط بفتح الكاف وتشديد الراء ، وضبطه آخرون بكسر الكاف وتخفيف الراء .

نشأ بسجستان، ثم دخل نيسابور، وباح بالتجسيم، فحبسه عبد الله بن طاهر، ثم أطلقه فتخلص إلى القدس الشريف، وهناك توفي سنة ٢٥٦

ومن هذه الفرق فرقة يؤولون القرآن والسنة على غير ما يراد منهما، مكرراً بالدين وصرفاً للناس عن هدايته، وهم الباطنية. واثمار من أصلهم المجوسية بالسكيد للإسلام، وقع — على ما يقصه أبو بكر بن العربي^(١) — في عهد البرامكة، ولكن تأويل الظواهر على وجود تعطل أحكام الشريعة وتذهب ببهاء حكمتها، ظهر فيما بعد؛ ومن زعماء هذه النحلة حمدان قرط المتوفى سنة ٢٦٤، ومنه أخذ الباطنية لقب «القرامطة».

ومن أذئاب هذه الفرقة اليوم الطائفة المسماة بالبايية أو البهائية، وكانت قبل هذا تعمل في خفاء، فسرى وبأوها في نفوس كثير من المسلمين الغافلين، حتى أخذ بعض زعمائها الغرور، فجأهروا بشيء مما يسرون، فأنكشفت للناس سريرتها، وافتضح أمرها، فلا تقوم لدعايتها بعد هذا، إن شاء الله، قائمة.

ومن هذه الفرق فرقة المعتزلة، ومن رءوسها أبو حذيفة وأصل بن عطاء الغزال، وصاحبه عمرو بن عبيد، وكانا يجالسان الحسن البصري المتوفى سنة ١١٦، ثم اعتزلاه في نفر كانوا على رأيهما، وظهر بعد هؤلاء طبقة أخرى، من زعمائها إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة ٢٢١، ومحمد بن الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥، وأحمد بن أبي دواد المتوفى سنة ٢٤٠، وبشر المريسي المتوفى سنة ٢١٨، ثم عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠، وظهر بعد هؤلاء طبقة من رجالها أبو علي محمد الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣ وهو أستاذ أبي الحسن الأشعري، وأبو القاسم عبد الله الكعبي المتوفى سنة ٣١٧، وإليه تنسب الفرقة الكعبية، وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفى سنة ٣٢١ وإليه تنسب الفرقة البهشية، فالكعبي وأبو هاشم كانا معاصرين لأبي الحسن الأشعري.

وظهر مذهب الاعتزال لذلك العهد ، إذ كان لكثير من زعمائه البراعة في البيان والوجهة عند رجال الدولة ، فعمر و بن عبيد كان رفيع المنزلة عند المنصور ، وكان المجلس الذي يعقده البرامكة لأصحاب المقالات ينتظم من أبي الهذيل العلاف ، و ابراهيم النظام وبشر بن المعتمر ، وجعفر بن حرب ، وثمامة بن أشرس ، وجعفر بن بشر ، وكلهم من زعماء الاعتزال . وأحمد بن أبي دؤاد كان وجيها لدى المأمون ، وتولى قاضي القضاة في خلافة المعتصم ، وهو الذي امتحن الامام أحمد بن حنبل ، وحاول إلزامه القول بخلق القرآن الكريم ، وكذلك كان أبو دؤاد في عهد الواثق ؛ ولما تقلد المتوكل الخلافة أصيب ابن أبي دؤاد بفالج ، تخلفه في القضاء ابنه محمد بن أحمد ، ثم صرفه المتوكل عن القضاء ، وولى مكانه يحيى بن أكثم ، وكان يقتدى بمذهب أهل السنة .

ومن أسباب ظهور الاعتزال أن بعض زعمائه كانوا يتصدون للرد على الخارجين عن الملة من نحو الملاحدة والطبيين ، كما ردّ واصل الغزالي على المناوية ، ورد أبو هاشم ابن أبي على الجبائي على القائلين بالطبائع ، وردّ أبو الحسين بن أبي عمر الخياط على ابن الراوندي في كتاب الانتصار ، وكانوا يدرسون الفلسفة ، ويتناولون آراء رجالها بالنقض ، فلاّبي هاشم هذا كتاب النقض على أرسطاليس في الكون والفساد . ومما نقرؤه في ترجمة النظام أن جعفر بن يحيى البرمكي ذكر أرسطاليس ، فقال النظام : قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؛ فقال النظام : أيهما أحب إليك : أن أقرأه من أوله الى آخره ، أم من آخره الى أوله ؟ ثم أخذ يذكر شيئا فشيئا ، وينقض عليه ، فتعجب جعفر منه .

ودراسة المعتزلة للفلسفة أفادت في ردعهم على بعض الفلاسفة والملاحدة ، ولكن انحرفت ببعض آرائهم عن قصد السبيل ، فتعسفوا في تأويل نصوص من الكتاب والسنة ظنا منهم أن الفلسفة تتعاضى عن قبول ما تدل عليه هذه النصوص ؛ ولم يكن المعتزلة في المسائل التي تعزى إليهم على رأى واحد ، بل كانوا يختلفون في بعض الآراء

وقد ينتصب بعضهم لتنفيذ آراء بعض، كما ألف جعفر بن حرب في الرد على أبي الهذيل العلاف كتاباً سماه توبيخ أبي الهذيل، وبالغ في الرد عليه حتى أشار إلى تكفيره .

وزاد مذهب الاعتزال في القرن الثاني والثالث رواجاً أن أهل السنة كانوا لا يعنون بمجادلتهم على طريقة نظرية يرخى فيها الخصم لخصمه العنان، ثم يدفع شبهه شبهة بعد أخرى، وينقض أدلته دليلاً بعد دليل، وكان الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يكره التصدي لمجادلة المبتدعين؛ حكى عنه الغزالي في كتاب المنقذ أنه أنكر على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً، ثم أجبت عنها، فلا يؤمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب، ولا يفهم كنهه. قال الغزالي: وما ذكره أحمد حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، أما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية.

كان أهل السنة من ناحية التفقه في الدين وتقرير أصول الأحكام يبسطون القول إلى أبعد غاية، أما موقفهم أمام الفرق التي تتكلم في العقائد وما يتصل بها، فيشبه موقف من يستخف بقوة خصومه، فلا يعدّ لهم ما استطاع من قوة، أو لا يعمل في دفاعهم ما لديه من سلاح، حتى يحوسوا خلال أرضه، وينقصوها من أطرافها. سادت في القرن الثالث الآراء المخالفة لمذهب السلف، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري فأحسن التعبير عن مذهب أهل السنة، وانقلب علم الكلام إلى هيئة غير هيئته التي خلعها عليه المعتزلة والمرجئة والمشبّهة والقدرية، والذي يستطيع أن يجاهد فيقلب أمماً كثيرة من وجهة إلى أخرى، جدير بأن يعدّ في أعظم الرجال، فاذا عرضنا عليك صحيفة من حياة أبي الحسن الأشعري، فإنما نعرض عليك شيئاً من سيرة رجل كان له في إصلاح النفوس وتقويم العقول جهاد أي جهاد.

نسب أبي الحسن الأشعري ومولده :

هو علي بن اسماعيل بن اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والأشعري نسبة الى أشعر أبي قبيلة باليمن ، فنسبه عربى صريح ، ومولده بالبصرة سنة ٢٦٠ ستين ومائتين .

نشأته العلمية :

نشأ الأشعري بالبصرة وهى يومئذ زاهية بالعلوم الدينية والعربية وفن الكلام ، فأخذ السنة عن الحافظ زكريا بن يحيى الساجي ، وأبى خليفة الجحى ، وسهل بن نوح ، ومحمد بن يعقوب المقرئ ، وعبد الرحمن بن خلف الضبي ، وقد أكثر فى تفسيره من الرواية عن هؤلاء ، ثم رحل الى بغداد ، وأخذ عن لقيه فيها من علماء الحديث .

ودرس علم الكلام على مذهب المعتزلة ، فكان يتلقى على طائفة من كبارهم مثل أبي على الجبائي ، والشحام ، والعطوى ، وكان متقدماً فى هذا العلم على أقرانه ، وسأحدثك قريباً عن براءته من مذهب المعتزلة ورجوعه الى مذهب أهل السنة .

واذا لم يُذكر الأشعري فى طبقات المحدثين ، فلأن همته لم تكن مصروفة الى الإكثار من الرواية ، وإنما كان يبذل جهده فى تعرف آراء الفرق والغوص على الحجيح التى تنقض شبههم ، وتدمع باطلهم ، فلا بأس عليه مما وصفه به بعض الخنايلة من أن خبرته بمقالات أهل الكلام أوسع من خبرته بمذاهب أهل الحديث ، وكثير ممن عاصروه أو تلقوا عنه ، قد شهدوا له بغزارة العلم وحسن التصرف فيما يعلم ، قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرائينى : كنت فى جنب الشيخ أبى الحسن الباهلى كقطرة فى جنب البحر ، وسمعت الباهلى يقول : كنت فى جنب الأشعري كقطرة فى جنب البحر .

وهذه الشهادة وإن كانت صادرة عن تواضع من أبي الحسن الباهلي ، لا تخلو من إيماء الى عظم منزلة أبي الحسن الأشعري في العلم .

مذهبه في أصول الدين :

كان أبو الحسن الأشعري في مبدأ أمره على مذهب الاعتزال ، ولزم أباً على الجبائي سنين كثيرة ، ثم اهتدى الى أن الحق في جانب أهل السنة ، وأراد أن يكون رجوعه عن الاعتزال علانية فأتى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، وركب كرسيه ، ونادى بأعلى صوته قائلاً : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى : أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخالق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار (يعنى في الدار الآخرة) وأن أفعال الشر أنا أفعالها ، وأنا نائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة .

والواقع أنه لم يأت بمذهب جديد ، وإنما صار الى مذهب السلف وما كان عليه الأئمة الراشدون ، فقام بتأييده والنضال عنه ، وإنما ينسب اليه المتمسكون بمذهب أهل السنة لأنه زاد المذهب حججاً ، وألف فيه كتباً كثيرة ، وقد صرح في كتاب الاستبانة بأنه على طريقة السلف فقال : « وديانتنا التي بها ندين التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل — نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته — قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون » وعوده الى مذهب أهل السنة بعد الاعتزال شاهد — كما قال القاضي عياض في المدارك — على ثبات قدمه وصحة يقينه في التزام السنة ، اذ لم يلزمها لأنه نشأ عليها ولا اعتقدها تقليداً .

مذهبه في المصطلح العملية :

تنازع بعض أصحاب المذاهب أباً الحسن الأشعري : كل ينسبه الى مذهبه ، ذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية ، وقال : « قد زعم بعض الناس أن الشيخ كان

مالكي المذهب، وليس بصحيح، وإنما كان شافعيًا، تفقه على أبي إسحاق الروزي^(١)، نص على ذلك الأستاذ أبو بكر بن فورك في طبقات المتكلمين، والأستاذ أبو إسحاق الأسفرائيني فيما نقله عنه الشيخ أبو محمد الجويني في شرح الرسالة.

وذكره القاضي عياض في كتاب المدارك على أنه من فقهاء المالكية، وقال: ذكر محمد بن موسى بن عمران أن الأشعري كان مالكيًا، وقال: ذكر لي بعض الشافعية أنه كان شافعيًا حتى لقيت الشيخ الفاضل الفقيه رافعا الحمال الشافعي فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن كان مالكيًا، وكان مذهب مالك رحمه الله تعالى في وقته شائعًا في العراق، أيام إسماعيل^(٢) بن إسحاق. والذي يظهر أن أبا الحسن الأشعري لم يؤلف كتابًا في الأحكام يستفاد منه أنه مستقل النظر في الأحكام، أو أنه مقتد بأحد الأئمة.

قوله على المناظرة:

تمرن الأشعري على المناظرات منذ كان على مذهب الاعتزال، حتى إن أستاذه أبا علي الجبائي كان إذا حضرت مناظرة، قال له: نب عني، وكان الجبائي صاحب قلم، ولم يكن قويًا على المناظرة في المجالس.

وكان رحمه الله تعالى يقصد إلى مواطن المعتزلة ليناضلهم، فقليل له: كيف تخالط أهل البدع، وتقصد بهم بنفسك، وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أولو رئاسة: منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إليّ، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصرا بالحجة!

وكان لا يبتدي مناقريه بالسؤال، بل يقف موقف الحبيب المدافع، حضر الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف مناظرة بين الأشعري وبعض مخالفيه، ففضى العجب من علمه

(١) هو أبو اسحق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق الروزي. إمام في فقه الشافعية جليل. دخل إلى مصر في أواخر عمره وتوفي بها سنة ٣٤٠ ودفن بالقرب من تربة الامام الشافعي. (٢) هو القاضي إسماعيل

وفصاحته، وقال له: لم لا تسأل أنت ابتداء؟ فقال الأشعري: أنا لا أكلم هؤلاء ابتداء ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله، رددنا عليهم بحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الرد على مخالفتي الحق.

وجرت مناظرات بين أبي الحسن الأشعري والجبائي، منها مناظرة في قول الجبائي كسائر معتزلة البصرة: إنه يجب على الله تعالى مراعاة الأصالح بمعنى الأنفع للعبد؛ فسأل الأشعري أبا علي الجبائي عن ثلاثة أخوة عاش أحدهم في الطاعة، وأحدهم في الكفر والمعصية، والآخر مات صغيراً. فقال له الجبائي: يثاب الأول، ويعاقب الثاني، ولا يعاقب الثالث ولا يثاب. فقال الأشعري: إن قال الثالث: يا رب هلاًّ عمرتي، فأصالح، فأدخل الجنة كما دخلها أخي المؤمن؛ فأجابه الجبائي بأن الرب يقول: كنت أعلم أنك لو عشت لفسقت فدخلت النار، ثم قال الأشعري: فإن قال الثاني: يا رب لم لم تمتني صغيراً حتى لا أعصى فلا أدخل النار كما أمت الثالث؛ فانقطع الجبائي. فمعتزلة البصرة هم الذين يرون وجوب مراعاة الأصالح بمعنى الأنفع للعبد؛ أما معتزلة بغداد فيذهبون في تفسير الأصالح الذي يجب على الله مراعاته إلى معنى الأوفق في الحكمة والتدبير، وليس هذا المذهب بموضع المناظرة الساففة، لأن الحكمة لا تتبع جلب المنفعة أو درء المفسدة الشخصية، وإنما تقوم على ما يقتضيه حسن النظام العام للخلق.

أهمرة وتقواه :

كان في أبي الحسن دعاية، وكان له مع هذه الدعاية غيرة على الحق حامية، وتلك الغيرة هي التي كانت تدفعه إلى مقارعة مخالفيه غير مبال بما كان لهم من جاه أو رئاسة، قال أحد أصحابه: «إنه كان حضر معه مجلساً في جماعة من المبتدعة، فقام فيه لله مقاماً حسناً، وكسر حجّتهم، فلما خرج قلت له: جازاك الله خيراً، قال: وما ذاك؟ قلت: لمقامك هذا لله تعالى ونصر دينه، فقال: يا أخي إنا ابتلينا بأمرأ سوء أظهروا بدع المخالفين، ونصروها، فوجب علينا القيام لله، والذب عن دينه حسب الطاقة، فسأله من معرفة ربك، وما تطيعه به وتتقرب به إليه، أجدي عليك من هذا».

وهذه القصة تدل على أنه كان يؤثر الحق على رضا الأمراء ، وأنه كان من التواضع بحال من يذكر أن الازدياد من معرفة الله والاقبال على فعل الطاعات يفضل ما كان يشتغل به من مقارعة الابتداع على طريقة علم الكلام .

وفي أبي الحسن خصلة يعز في أهل العلم وجودها ، وهي الرجوع عن الرأي عند ما يستبين الحق ؛ وشاهد هذا أنه نفى يده من مذهب الاعتزال علانية عند ما استبان أن الحق في جانب أهل السنة ؛ وكان قد صنف في أيام اعتزاله كتابا كبيرا نصر فيه مذهب المعتزلة ؛ ولما صار الى مذهب أهل السنة ألف كتابا في نقض ذلك الكتاب الذي نصر فيه مذهب الاعتزال ؛ وقد يقول في بعض مؤلفاته : ألفنا كتابا في مسألة كذا ، رجعنا عنه ، ونقضناه ، فن وقع اليه فلا يعولن عليه .

وكان رحمه الله متجعلا بالحياء والورع ؛ قال أحمد بن علي الفقيه : خدمت الامام أبا الحسن بالبصرة سنتين ، وعاشرته ببغداد الى أن توفي ، فلم أجدا ورع منه ولا أغض طرفا ، ولم أر أحدا أكثر حياء منه في أمور الدنيا ، ولا أنشط منه في أمور الآخرة . وكان ينفق من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة .

مقصود :

خصوم الرجل على قدر عظم شأنه ، فكلما ارتفع الرجل درجة ، أو ظهرت له منزلة ، تألم لها من أحسوا من أنفسهم العجز عن أن يبلغوا شأوه ، فليس من العجيب أن يكون لمثل الأشعري خصوم يناوونه ، ويعززون اليه من المقالات ما لم ينطق به لسانه ولم يحظر على قلبه ، وليس من المعقول أن يقف الأشعري لطوائف مختلفة المذاهب والآراء ، وقفة من لا يعرف ذلك الذي يسميه الناس رهبة أو إحجاما ، ويرجو مع هذا أن يمضي في سلامة من أن يتحدثوا عنه في غير أمانة .

ألقى به خصومه أقوالاً لم تسمع منه في مناظرة ولا توجد له في كتاب، كما عزوا إليه أنه قال : إن المعجز هو كلام الله تعالى الذي لم يزل غير مخلوق ، ولا نزل إلينا ولا سمعناه قط ، وقد ساق الأستاذ ركن الدين أبو عبد الله محمد الجويني في كتاب عقيدة الإمام المطالبي أشياء من هذه الأراجيف ، وقال : « قد تصفحت ما تصفحت من كتبه ، وتأملت نصوصه في هذه المسائل ، فوجدتها كلها على خلاف ما نسب إليه » ثم قال : « ولا عجب أن اعترضوا عليه واختصوا ، فإنه رحمه الله تعالى فاضح القدرية وعامة المبتدعة ، وكاشف عوراتهم ، ولا خير فيمن لا يعرف حاسده » وتحدث القاضي عياض في كتاب المدارك عن يناوءون الأشعري فنسب طائفة منهم إلى الغلو في ترك التأويل حتى وقعوا في التشبيه ، ثم قال : « وأكثر من شنع عليه بالأندلس ابن حزم ، فإنه ملأ كتابه عليه وعلى أئمة أصحابه كذباً وتشائيع باطلة ، وذلك في كتابه المسمى بالنصائح والفضائح » .

ولأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد المنعم القرطبي رسالة رد بها على شخص تورط في هجو الأشعري ، تسمى « زجر المفتري ، على أبي الحسن الأشعري » قال في طالعها :
 أسير الهوى ضلت خطاك عن القصد فيها أنت لا تهدي خير ولا تهدي
 سللت حساماً من لسانك كاذباً على عالم الإسلام والعلم الفرد
 تمرست في أعراض بيت مقدس رعى الله منك الثغر بالحجر الصلد
 ومما قال في وصف الأشعري :

وسلّ حساماً من بيان فهو مه فرد سيوف الغي مقلولة الحد
 وأبدى علوماً ميزت فضل فضله كتميز ذى البردين والفرس الورد
 فجاءت مجي الصبح والصبح واضح وسارت مسير الشمس والشمس في السعد
 سلن سيوف الحق في موطن الهدى فغادرن صدى الملاحدين بلا الحد

وأيدن دين الله في أفق العلا بلا منصل غضب ولا فرس نهيد
وأَمْضِينَ حكم النقل والعقل فاحتوى كلام إمام الحق مجدداً على مجد
أنصاره :

قلنا فيما سلف : إن الأشعري لم يبتدع مذهبا جديدا ، وإنما هو مقرر لمذهب السلف المبني على الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وترك تأويلها حيث لم يعارضها قاطع من معقول أو محسوس ، فزبة الأشعري أنه بسط البحث والمناظرة عنها بالحجج النظرية ، أى على طريقة علم الكلام ، وهى الطريقة التى مكنته من الظهور على من يدرسون أو يدعون الفلسفة ، ويتعلقون فى الجدل عن مذاهبهم بشيء من آرائها ، ولأخذه بظاهر الكتاب والسنة ، وتصديه لمداغة كل فرقة شاذة أو ضالة بمثل سلاحها ، كان لمؤلفاته الوقع الحسن فى نفوس أكثر أهل العلم من أتباع الأئمة ، قال القاضى عياض فى كتاب المدارك : « فلما كثرت تأليفه وانتفع بقوله ، وظهر لأهل الحديث والفقهاء ذبّه عن السنن والدين ، تعلق بكاتبه أهل السنة ، وأخذوا عنه ، ودرسوا عليه ، وتفقهوا فى طريقه ، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق فى الذب عن السنة وبسط الحجج والأدلة فى نصر الملة » .

وقد ينساق أبو الحسن الأشعري فى مجادلة الخصوم الى آراء لا تمس أصول العقائد ولا ترجع الى صريح القرآن أو السنة ؛ وأكثر ما يخالفه فيه بعض علماء السنة الذين يحملونه ، كإمام الحرمين وغيره من الراسخين فى العلم ، عائد الى هذا القبيل .

أنكر بعض أهل العلم على الإمام الرازى مناقشته للأشعري فى بعض مؤلفاته ، فقال ابن السبكي : والإمام الرازى لا ينكر عظمة الأشعري ، كيف وهو على طريقته يمشى ، ويقول يأخذ ؛ ولكن لم تبرح الأئمة يعترض متأخريها على مقدمها ، ولا يشينه ذلك ، بل يزيّنه .

ومن معاصري الأشعري محمد بن محمد بن محمود أبو منصور المازدي المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ٣٢٣، وهو من أئمة أهل الحق، وبينه وبين الأشعري خلاف في مسائل يعذر كل منهما صاحبه في الاجتهاد فيها، ولا يراه حائداً بها عن مذهب أهل السنة.

مؤلفاته :

لأبي الحسن مؤلفات كثيرة، حتى قيل إنها تزيد على مائتي مصنف، من هذه المؤلفات كتاب الفصول في الرد على الخارجين على الملة من الملاحدين والفلاسفة والطبيين، والدهريين، وأهل التشبيه، والقائلين بقدوم الدهر، على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، ثم رد على البراهمة، واليهود والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يشتمل على اثني عشر كتاباً.

ومنه كتاب الموجز، وهو يشتمل على اثني عشر كتاباً على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة.

ومنها تفسيره المسمى بالمتن، قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب القواصم والعواصم: وانتدب الأشعري إلى كتاب الله فشرحه في خمسمائة مجلد، وسماه بالمتن، ومنه أخذ الناس كتبهم، ومنه أخذ عبد الجبار الهمداني كتابه في تفسير القرآن الذي يسمى بالحيط في مائة سفر، ثم ذكر ابن العربي أن الصاحب بن عباد بذل عشرة آلاف دينار لخازن السكتب في بغداد، فألقى النار في الخزانة، فاحترقت السكتب، واحترق من بينها «المتن» ولم تكن منه إلا نسخة واحدة فمفدت من أيدي الناس. وكان الصاحب بن عباد على مذهب المعتزلة، ولأبيه عباد بن عباس كتاب في أحكام القرآن ينصر فيه مذهب الاعتزال.

وليس بين أيدينا من مؤلفات أبي الحسن غير كتاب الإبانة ، وهو كتاب قرر فيه عقيدة السلف ، ورد على ما يخالفها من آراء اعتزالية ، ومنه يقف القارئ على طريقة الشيخ في الرد على مخالفيه ، ويعرف كيف كان يجمع في الاستدلال بين السمع والعقل .

وفاته :

توفي أبو الحسن رحمه الله تعالى ، في بغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ، قال أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي : لما قرب أجل أبي الحسن الأشعري دعاني فأتيته ، فقال : اشهد على أنني لا أكفر أحداً من أهل هذه القبلة ، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد ، وإنما هذا كله اختلاف عبارات . ومات في حجر أبي علي هذا ، وكانوا يصفونه عند النداء لجنازته بناصر الدين ، ودفن في تربة بين الكرخ وباب البصرة ، قال أبو الحسن القابسي : لقد مات الأشعري يوم مات وأهل السنة باكون عليه ، وأهل البدع مستريحون منه . أفاض الله على قبره رحمة ونورا .

محمد الخضر مصبي

الظرف والملح

قال سليمان بن عبد الملك : ما سألتني أحد قط مسألة يشغل على قضاؤها ، ولا يخفُ لدى أدائها بلفظ حسن يجمع له القلب فهمه ، إلا قضيتها ، وإن كانت العزيمة قصدت إلى منعه ، وكان الصواب مستقراً في دفعه ، ضناً بالصواب أن يرد سائله ، أو يحرم نائله .

النفس

سورة النور

٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : (وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْخَلْقُ الْمُبِينُ ١٣ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

لما نزلت الآيات العشر السابقة ببراءة عائشة رضی الله عنها ، حلف أبو بكر
الصدیق رضی الله عنه ألا ينفق على مسطح ، وكان ابن خالته ، وكان فقيراً مهاجراً بدرية ،
وكان من خاض في الإفك ، فنزل قوله تعالى : (وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ)
إلى قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقال أبو بكر :

بلى إني لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه وقال لا أنزعها منه أبدا . وإن من ينظر الى جريرة مسطح من إيدائه لأبى بكر فى أعز شىء عليه وهو عرض ابنته ، مع قرابته منه ، وقد قيل :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ومع موالاته إحسانه اليه ، ولا شىء أصعب على النفس من مقابلة الإحسان بالإساءة ؛ ومع بقاء احتياجه اليه ، وليس أدل على السخافة وأوجب للدهشة من مهاجمة المحتاج من يحتاج اليه فى أعز عزيز لديه بلا موجب ؛ ومع كونه بلا وجه حق ولا دليل إثبات وما كان لمؤمن أن يهجم فى كبريات الأمور بلا تثبيت ؛ ومع علاقة الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنها من أعظم ما يجب الاحتياط فيه والتبصر فى شأنه قبل الإقدام ، نقول : إن من ينظر الى ما صدر من مسطح على هذه الصفات التى ذكرناها لا يستنكر من أبى بكر رضى الله عنه أن يحلف أن لا ينفق عليه بعد . وأى نفس بشرية تستطيع التسامح والإغضاء عن هذه الجريرة التى هى تجمع جرائم ؟ ومع ذلك لم يتعد فى يمينه حقا من حقوقه وهو قطع إحسانه عنه ، وليس بواجب عليه بخصوصه أن ينفق عليه ، فلم يزد أمر مسطح عن أنه فقير ، وليس أبو بكر مكافئا أن يعول الفقراء ؛ ورابطة قرابته به وهى أنه ابن خالته لا تجعله واجب النفقة عليه . ولو أن رجلا غير أبى بكر لكان له كل العذر عادة اذا أضمر له الشر وصمم على أن ينتقم منه ما استطاع ، ولو ليجازيه على كفر نعمته عليه ، ومقابلته بالإحسان بالإساءة اليه .

مع هذا كله كان أبو بكر أسرع شىء الى إجابة داعى الله فقال : بلى إني لأحب أن يغفر الله لى ، وعاد الى سابق إنفاقه متعبدا ألا يقطعه عنه ، بل روى أنه ضاعف له ما كان يجريه عليه ؛ وهذا أعظم مظهر لمن كان الإيمان من قلبه ، وأنه ممن ينطبق عليه قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ) وأن

مرضاة الله في طاعة أمره أحب إليه من متابعة عوامل نفسه . وإن هذه المسارعة بدون تردد ولا تلكؤ لأعظم برهان على أنه كان يتلقف كل ما يعلم تقريبه من ربه ليسارع الى جنته ورضوانه ؛ وإن الضغط على النفس حتى تنزل على ما أَرَادَهُ اللهُ وأمره لأصعب أنواع الجهاد حتى سمي ذلك في الحديث الشريف جهادا أكبر ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين رجع من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » وأين مجاهدة الانسان لعدوه يستجمع له كل قواه الظاهرة والباطنة ويراه وجهالوجه من مجاهدته لنفسه التي بين جنبيه تزين له القبيح وتأخذه على غرة وعلى غفلة من أمر دينه ، وما أ كثر الغفلات ، وتستعين عليه بداعي الهوى والشهوات ، ويعينها الشيطان بتحسين أو تهوين السيئات ، والتنفير من الحسنات ، إلا من عصم الله ؟

وإنك لتجد في هذه الآية الكريمة بابا آخر من أبواب البين والخير يساق لنا بمناسبة هذه القصة فيحقق معنى من قوله تعالى : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) ذلك هو تعويد النفوس احتمال الأذى ، وتحذيرها من أن تجهل منه قاطعا وصارفا عن فعل الخير ، فإنه من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ؛ ولن يكون الخير خالصا تمام الخلوص لوجه الله حتى تبتعد عنه حظوظ النفس ؛ وأى خير هو أبعد عن حظ النفس وهواها من أن تحسن الى من أساء اليها ؟ ولذلك قيل : « ليس إلا حسان أن تحسن الى من أحسن إليك ، وإنما إلا حسان أن تحسن الى من أساء إليك » ذلك أن إلا حسان للمحسن وإن كان جميلا وفيه معنى الشكر ، إلا أن فيه شائبة المعاملة والمقايضة ، وليس هذا في إلا حسان الى من لم يحسن إليك ، بله المسمى ، فقد جاءت هذه القصة مصورة أشد إساءة تلحق الانسان من الانسان ، ومع ذلك أمر المساء اليه بمعاودة إحسانه الى من أساءه ، فامتثل طيب النفس قريير العين بما يوصله الى رضا ربه . ومما يدل

على طيب نفس أبي بكر رضى الله عنه وقرة عينه تعهده أن لا يقطع ذلك عنه أبداً ، وما روى من مضاعفته له ما كان يعطيه إياه .

من هذا السياق تفهم أن معنى يأتل يحلف ، من الألية بمعنى الحلف ، يقال آلى على كذا حلف عليه . ويؤيده قراءة : ولا يتأل ، على وزن يتفعل ، وهو المناسب لسبب النزول على ما سمعت ، وقوله : أن يؤتوا ، أى على ألا يؤتوا ، وحذف لا النافية في القسم مستفيض في لغة العرب ، قال تعالى : (قَالُوا تَأَلَّهِ تَقْتُلُ تَذَكُّرُ يَوْسُفَ) أى لا تفتأ ، وقال الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح . وقال بعضهم : إنه بمعنى يقصر ، من قولهم : لا يألو يفعل كذا أى لا يقصر . ودعاهم الى هذا ما زعموه من أن افتعل يأتى من فعل لا من أفعل ، كقولهم : رضيت وارتضيت وكسبت واكتسبت ، ولا يقال أعطيت واعتطيت ولا أكرمت واكرمت ، وقولهم : التزمت بكذا هى فى مقابلة ألزمه لا بمعناها ، يقال ألزمه فالتزمه . وأيضاً فإن الحلف كان على ألا يؤتوا ، لا على أن يؤتوا ، وقد عرفت جواب هذا الأخير وهو شيوع حذف لا مع القسم ؛ وأما جواب الأول فيكفى فيه النقل عن جمهور المفسرين فى الصدر الأول كابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، بل جميعهم على أنه بمعنى يحلف ، وكل واحد منهم حجة فى اللغة ، فكيف بمجموعهم !

والفضل : الزيادة . وإنما تكون فى زيادة الخير والحمد ، ولذا يفسر بأنه ضد النقص ؛ والمراد الزيادة فى الدين حتى لا يتكرر مع قوله : « والسعة » فإنها بمعنى الزيادة فى المال ؛ والمراد هنا نهي أهل الفضل وسعة الرزق مطلقاً عن الحلف على منع الخير عمن اتصف بتلك الصفات الآتية . ودخول أبى بكر رضى الله عنه فى ذلك مقطوع به على ما قاله الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن دخول الواقعة

التي هي سبب النزول مقطوع به؛ وكذلك قوله: (أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يراد به كل من اتصف بصفة من هذه، وهي واردة في مسطح، وقيل في جماعة منهم مسطح، وعلى كل حال فدخل مسطح في هذا دخول أُولَى. وإنما ذكر هذه الصفات بطريق العطف مع أن الموصوف بها في سبب النزول واحد، وهو مسطح للدلالة على أن كل صفة منها كافية في استيجاب العطف عليه وموالاته إحسانه، فكأنه يقال: لو لم يكن له إلا قرابته أو إلا مسكنته أو إلا أنه مهاجر في سبيل الله، لكان بذلك جديراً أن يعفى عنه ويداوم على الإحسان عليه، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات كلها فيه؟ وهذا المعنى لا يستفاد إذا أتى بالصفات مترادفة بدون عاطف، فإنها قد يفهم منها أن المنهى عن قطع صلاته هو من اجتمعت فيه تلك الصفات.

هذا وإن في وصف أبي بكر رضي الله عنه بأولو الفضل والسعة بإطلاق دليل على علو قدره في الدين والخير، فإن في الفضل معنى الزيادة في الخير، وفي السعة فوق سعة المال معنى سعة الصدر والقلب وأنه بحيث لا ينبغي أن يضيق صدره لأمر فرط من أحد في حقه. وقد حاول بعضهم أن يأخذ من الآية أنه رضي الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتكبت تحولات متعسفة لا يسهل أخذها من الآية؛ وفضله رضي الله عنه ثابت وأدلته كثيرة، ولكن هذا شيء وإعطاء الآية ما يريدون شيء آخر.

والقربى: القرابة. والمسكين: من لا شيء له أو له ما لا يكفيه، كأن الفقر قد أسكنه وأبطل حركته. والفقهاء في الفرق بينه وبين الفقير وأيهما أسوأ حالاً كلام كثير، أحسنه أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي إذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المعنى وكان لكل منهما معنى يخصه، وإذا افترقا في اللفظ بأن عبر بواحد منهما كان معناه شاملاً للفرقتين. والمهاجرون في سبيل الله: هم من هجروا ديارهم وأهليهم وأترابهم وأصحابهم فراراً بدينهم؛ وكأن الهجر حصل من الجانبين: جانبهم وجانب أهليهم؛ والمراد

بهم من هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة، ومنهم مسطح، بل كان مع هجرته من أهل بدر. وما ورد في شأن أهل بدر من مثل « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم » ليس معناه عصمتهم ولا خروجهم عن دائرة التكليف، وإنما معناه أن الله علم أنهم يموتون على إيمان وتوبة، فلا مانع أن يعلم منهم بالذنوب من يلم ويتوب فيتوب الله عليه.

وقوله تعالى: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) اللام فيه لام الأمر، وهي غالبا لأمر الغائب. والعفو: محو الذنب، من قولهم عفت الريح رسم الديار وآثارها أي محتها. والصفح: الإعراض، فكأنهم أمروا أن يمحو أثر الذنب فلا يؤاخذوا عليه، وأن يعرضوا عنه بتماما فلا يذكره ولا يلتفتوا اليه. وما أشبه هذا الأمر بأمره تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ)؛ وإنها لمزية جليلة القدر لأبي بكر، وفيها من عظيم الترغيب في القدوة الحسنة من التجاوز عن المسيء والصفح عنه ما فيها، فكيف وقد أردفت بقوله تعالى: (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)؟ ومن ذا الذي لا يشعر كل وقت بأنه في أشد الحاجة الى أن يغفر الله له؟ ومن ذا الذي لا تدوب نفسه حسرات كلما ذكر سيئاته في حق مولاه المنعم عليه، المتفضل بالأحسان اليه، للمدله بكل ما لديه من قوة فيها يعصيه ويجاهره بالعصية، وهو مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية، وكان من حقه أن يخاف بطشه في كل حين، أو أن يستحي من عصيانه بنعمته التي أنعم بها عليه، أو أن ينجل من جلاله وعظمته فلا يفرط منه ما ينكره عليه، وما من امرئ إلا وهو واقع في شيء من هذا — إلا من عصم الله؛

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسن فقط

فباب مغفرة الله لك هو أن تغفر لمن أذنب اليك، بدلالة هذه الآية الكريمة (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ومن جمال الأسلوب في الآية الكريمة أن أتى الأمر والنهي في صدرها بطريق الغيبة معلقا بالصفات التي من حقها أن تدعو الى امتثال الأمر واتباع الإرشاد : من كونهم أولى فضل وسعة ، وكون المطلوب العطف عليهم أولى قرابة ومسكنة وهجرة ؛ ثم لما جرى الى باب الترغيب والتشويق واجتناء الثمار ، عدل الى طريق الخطاب تقريبا لمنزلتهم ، ولا يلائمهم عظيم الشرف بالزلفى حيث يقول لهم مخاطبا : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) وإن في هذا من التشويق ما يصعد بالنفوس الصافية الى عليين فيكاد يطير بها فرحا وتاهفا على إحراز هذه المنزلة ، وتحليقا في سماء العز فتتسى كل شيء في سبيل الحصول على مقام الخطاب الأسمى ؛ فلا بدع أن كان من أبي بكر رضى الله عنه ما كان من مضاعفة الإلحاح والاحسان ؛ وما أحسن ختامها بقوله : (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ! ذلك الختام الذى يشوق أعظم تشويق الى التخلق بأخلاق الله ، والافتداء بصفاته التى رضىها لنفسه ، ودعانا الى التمسك بها : من الغفران ، والرحمة ، والاحسان .

قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَنْهُمْ أَسْنِمَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ أَلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) .

تضمنت الآية السابقة (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ) الخ تعظيفا على قوم ممن وقع في هذه المهلكة ، فعير بعيد على بعض الأذهان أن يتطرق اليها أن في هذا التعطيف تهوينا لما لسان تلك الجريمة ، فعاد اليها مفضعا أمرها ، مشنعا على من وقع فيها ، شارحا عظم خطرها وشديد وعيدها ؛ وأى وعيد أشد من اللعنة فى الدنيا والآخرة واستحقاق العذاب العظيم ، وتقرير ذنبه بشهادة جوارحه عليه بما يخزيه ويقطع حجته ويسد عليه باب التنصل من ذنبه ؛ وحسبك بإردافه بأن سيوفى جزاء الحق ، ويعلم — إن لم يكن قد علم — أن الله هو الحق ، وأن وعيده هو الحق ، وأن قوله هو الحق المبين ،

فقال جل شأنه : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) وقد سبق لك القول بأن مثلهم في الجزء من يرمون المحصنين الغافلين المؤمنين ، وأن تخصيصهم بالذكر لأن أكثر ما يوجه مثل هذا القول إليهم ، لأنهم عرضة لهذه الظنة غالباً ، ولأن تأثرهم بهذا الرمي أشد ، ورميهم به أخش ، ولأن النساء غالباً لا يكاد يتعلق بهن أمر من أمور الحياة العامة كالظلم والعدوان أو ما يماثلها ، وإنما إذا جرى ذكرهن اتجهت الأذهان في شأنهن إلى أمر العرض .

وإن التشديد في الوعيد في هذه الآية بذكر اللعن في الدنيا والآخرة مع العذاب العظيم ، ثم ذكر شهادة الجوارح الخ بالقياس إلى ما ذكر في الآية السابقة (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) ليناسب كل من الوعيدين ما ذكر في جانبه أتم مناسبة ، فإن محبة الشيء وإن كانت تستدعي غالباً الوقوع فيه ، مغايرة لا يقعها بالفعل ، خصوصاً بصيغة الرمي والقذف . وما أحسن التعبير بصيغة الرمي : فإن الناطق بهذه الكلمة يقذفها لا يدري من أصابت في طريقها : من محصنة وأبيها وأخوها ، وزوجها وبنيتها ، وعشيرتها التي تؤويها ، كل أولئك قد نالهم من قذيفته الطائشة ، وهو ناعم البال لا يدري من آلام أولئك شيئاً . ثم التعبير بهذه الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام ، فالمحصنات : أى المصونات التي بولغ في صونها حتى كأنها جعل عليها حصن منيع . والغافلات : أى المنصرفات الذهن عن التفكير في هذه المفاحش ، فلا تتجه إليها نفس منهن بتفكير ، فضلاً عن التوجه إليها برغبة ، بل الوقوع فيها والمقارفة لها . والمؤمنات : معناه أولئك اللائي آمنن بما أنزل على الرسول من أحكام وأذن لها بالطاعة ، والتزم من حدود الإيمان ، فهن أبعد إنسان عن أن ينال منهن هذا المنال الفاحش . وبهذا يتبين لك سر تقديم (المحصنات الغافلات) على لفظ (المؤمنات) مع أن الإيمان أصل الفضائل بجملتها ،

ذاك أن استنكار الرمي مع صفتي التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الإيمان، وكون وصف الإيمان أصلاً على الإطلاق مستحقاً للتقديم بالذات لا يمنع أن يكون لغيره تقدم خاص في موضع من المواضع .

واللعن : الطرد من رحمة الله . ولعنهم في الدنيا إما على لسان الملائكة والمؤمنين وإما على معنى طردهم عن الرحمة في استحقاق الحد والتعذيب ، وألا تأخذهم بهم رافة في دين الله . وأما من الآخرة فهو استحقاق العذاب العظيم ، فإن صاحبه أبعد ما يكون من رحمة الله ؛ وعظم العذاب بقدر عظم الجرائم . واللعن في الدنيا والآخرة جزاء ما أقض من مضاجع ، ونال من كرامات ، وثلم من شرف ، وآذى من أبرياء ، إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وقوله جل شأنه : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

لفظ يوم متعلق بما تعلق به قوله : ولهم عذاب عظيم ، أى يستحقون ذلك العذاب يوم تشهد عليهم الخ . وكان في هذا إشارة إلى أنهم يحاولون الإنكار والتصل مما اقترفوا حين يرون ما يحل بهم من عذاب عظيم ، فيختم الله على أفواههم أن تنطق باختيارهم ، ثم ينطق ألسنتهم وجوارحهم بما اقترفوا ، قطعاً لحجتهم وتسجيلاً للخرى عليهم نظير ما أخزوا الأبرياء . وإنطاق الألسنة والجوارح بالشهادة لا ينافي الختم على الأفواه أن تتكلم بإرادة أصحابها ، فقد عقلت الألسنة أن تتخذ آلة للتحدث عن إرادة أصحابها ولكن أنطقها الله الذى أنطق كل شئ ؛ فهذه الشهادة يصح أن تكون باللفظ كما هو ظاهر النص ، ولا داعى لتأويله بالوقوف عند المألوف من أن المتكلم عادة إنما هو الشخص التام الخلقة والتكوين المستقل بهما ، فليس الوقوف عند المألوف بمقتضى لصرف النصوص عن ظاهرها . ويجوز أن تكون الشهادة بلسان حالها كما يقال : تمت عليك عينك ، وكما في قوله تعالى : (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) وأياً كان فالمستيقن هو أن

الجوارح تشهد ؛ والظاهر هو أن الشهادة بالقول ، إبقاء للنص على ظاهره ، وإن كان البحث عن كيفية الأمور الغيبية بأزيد مما ورد لا يخلو عن مجازفة ، والله أعلم . وقوله : (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فيه تنبيه على أن شهادة الجوارح على أصحابها لا تقتصر على القول المذكور ، بل ستعم ما كان منهم من جرائم الأعمال كلها ، فتشهد كل جراحة على صاحبها بما صدر منها وما صدر من غيرها أيضا . والتعبير بكانوا يعملون فيه إشارة إلى أن تلك الأعمال كانت ديدنا لهم وعادة ، ففرق بين عمل كذا وكان يعمل كذا .

(يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) .

أجل : حينذاك تمنح نفوسهم ، ويتبين ما حاولوا المرء فيه ، وتحق عليهم الكلمة وتنقطع عنهم الحجة . حينئذ يتبين الحق من الباطل ، وينصب الجزاء الحق على الذنب الذي انكشف وأنجلي ولم يبق فيه مرء . يومئذ يوفيهم الله القادر القاهر ، من بيده ملكوت كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، يوفيهم دينهم وجزاء أعمالهم ؛ والذين يستعمل بمعنى الجزاء كقولهم : كما تدين تدا ؛ والحق : العادل الذي لا يزيد على جريرتهم ويقتنعون بحقيقته وعدالته ؛ ويعلمون أن الله هو الحق فيما أرسل على السنة رسله من أمر ونهي ووعد ووعيد ، فقد بين لهم في الدنيا ، وأقام لهم اليبينات جلية ظاهرة على يد رسله ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولكنهم كذبوا عنادا واستكبارا ، أو انصرفوا غفلة فتدهوروا في الجرائم استهتارا ، أو جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ؛ فهائم أولاء اليوم قد تبين لهم الحق جهارا ، وغشيم من الهول ما لا يستطيعون منه فرارا ، وعلموا أن دينهم الحق ، وأن جزاءهم هو العدل ، وأن الله هو الحق المبين ، الحق فيما حكم ، المبين لما شرع ، فيلحقهم الندم حيث لا ينفع الندم . وتخصيص علمهم بهذا اليوم لأنه يصير علما ضروريا لا مزية فيه ولا تردد ولا يتوقف على استدلال ، فلا ينافي نسبة ذلك لعصاة المؤمنين .

وبعد فقد اختلف المفسرون في المراد من المحصنات الغافلات في هذه الآية : أهو كل محصنة غافلة مؤمنة ، وإن كان سبب النزول قصة عائشة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟ أم هو خاص بعائشة رضى الله عنها وحدها ، أو مع باقى أمهات المؤمنين رضى الله عنهم ، نظراً الى شدة الوعيد باللعن فى الدنيا والآخرة ، وعظم العذاب وشهادة الجوارح ، وترك ذكر التوبة ؟ وذكر بعضهم أن الآية فى كفار قريش ، إذ كانوا يرمون المؤمنات المهاجرات بأنهن هاجرن للفجور .

والذى يظهر رجحان الوجه الأول ، وأن المراد كل من اتصف بتلك الصفات ، أى كل محصنة غافلة مؤمنة ؛ وعظم العقوبة على قدر عظم الجريمة ، فاستحقاق اللعنة وعظم العذاب وشهادة الجوارح ليست قاصرة على الكافرين ، وإنما المختص بهم الخالود فى العذاب ، وهو لم يذكر فى الآية ؛ وقد نيطت اللعنة فى آية اللعان السابقة بالكذب وليس كفراً ، وإن كان من أشد الجرائم ، وبخاصة الكذب فى ردى المحصنة بالفاحشة . وعدم ذكر التوبة هنا لا يفيد عدم قبول توبة من تاب ، فباب التوبة مفتوح ، حتى التوبة من الكفر بالإيمان ، وذلك معلوم من عموم النصوص الداعية للتوبة ، وليس بال لازم تكرارها مع كل وعيد .

ومن طريف النكت ما ذكره بعضهم أن القاذف مطالب فى الدنيا لتصديق دعواه بأربعة شهداء ، فالقاذف يوم القيامة يقوم فى وجهه لتسكديه خمسة شهود من جوارحه : لسانه ويداه ورجلاه ، تنكيلا له وفضيحة أشانه ، جزاء وفاقا على محاولته فضيحة المحصنات الغافلات المؤمنات .

(اَلْخَبِيَّاتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

هذا مبني على سنة الله في خلقه ، وحكمته الغالبة فيما بين الناس ؛ وأكبر مظاهرها ذوو القدر العظيم والخطر الكبير ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ ومعناه أن الخبيثات من النساء لا يلقن إلا بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال لا يقعون إلا على الخبيثات من النساء ، فكل عن مثيله يبحث ، وإليه يرد ؛ والطيبات من النساء إنما يهدين للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال يوفقون للطيبات من النساء .

هذه سنة الله الغالبة في خلقه التي تظهر فيها حكمته البالغة ؛ فإذا تخلفت بحسب بادئ الرأي في نظرنا لحكمة خفيت علينا في بعض الحالات ، فهل يمكن أن تتخلف في أطيب الخلق على الإطلاق ، بل هل يقبل العقل أن يصاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الدعاة إلى الله ، المنتصبون لجمع القلوب على حبة الله ، هل يمكن أن يصاب أحد منهم بمثل هذا الوباء المنفر للطباع من الاتصال بمن أصيب به ؟ فكيف بصفتهم وخيرهم وأفضل الخلق على الإطلاق ؟ وعلى هذا يكون المراد بالخبيثات والطيبات : النساء ، وبالخبيثين والطيبين : الرجال ، ويكون « أولئك » إشارة إلى الطيبين والطيبات ، والإخبار عنه بصيغة المذكر في قوله « مبرءون » للتغليب ، وتكون الآية تحتم القصة بحكم عام مقرر في السنة الإلهية والحكمة المرعية ، وهي أن يختار الله لكل فئة ما يناسبها ويليق بها ، فلا يمكن أن يختار أخبث الخبيثات لأطيب الطيبين . وهذا قريب مما سبق في آية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) على ما سبق تقريره ، ويكون ذكر هذه الآية كتقرير النتيجة للآيات السابقة .

وذكر بعضهم أن الخبيثات والطيبات ، أي من الكلام ، للخبيثين والطيبين ، أي من الناس رجالاً ونساءً ؛ والمعنى أن خبيث القول إنما يوجه للخبيث من الناس ، والخبيث من الناس هو المستحق للخبيث من الكلام ، أو الذي يصدر عنه ذلك ؛ وكذلك الحال

في الطيبات والطيبين، والإشارة في أولئك للطيبين والطيبات تغليباً كما سبق، وضمير يقولون للخبيثين أو الأفاكين. والذي يظهر هو الوجه الأول، وكلاهما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ووعده الله لهم بالمغفرة والرزق الكريم أى الجنة، فيه أعظم بشارة للصديقة رضى الله عنها، وفيه شهادة لها بأنها من أهل الجنة؛ فالآية وإن كانت عامة ولكن دخول صورة السبب في العموم دخول أولى مقطوع به على ما ذكره علماء الأصول.

هذا وإن من تأمل فيما تضمنته هذه الآتى الحكيمة من حكم مفصلة، وتعاليم قيمة، وإرشادات بالغة، وتربية للنفس، وتهذيب للأخلاق، وشفاء لأمراض القلوب، وتنبيه على كيفية العلاج الشافى، وتوجيه للنظر الى مغامز الشيطان ومكامن الداء ومن أين أتى ليجتنب، كل ذلك مع التنوع فى التربية وحياطة الأخلاق بالسياج المتين، نقول: من تأمل فى ذلك علم كيف كانت الشريعة المطهرة تتعهد النفوس من جميع نواحيها بالتغذية والتربية والعلاج وتقويم الحياة من جميع مناحيها، ونجلى له أن بث الإرشاد ومختلف الأحكام بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض هو الغاية القصوى فى التربية والتعليم الحكيمين، وأن ما يتوهم بعض قاصرى النظر من جمال ضم كل نوع الى قرينه يباب وحده هو خرق فى رأى، وقصر فى النظر، واغترار بالجهل، فلا يسع عقل عاقل أن يعتمد امرؤ فى تنشئته ناشئاً قد عهد اليه به أن يجعل له يوماً للغذاء بلا شراب، ويوما للشراب بلا غذاء، ويوما يكسوه ولا يغدوه، ويوما يعالج داءه ويهمل غذاءه، لو أنه فعل ذلك لكان من الحمق فى المكان المسكين، وإنما الحكيم العليم من يتعهد من فى عهده بجميع حاجته، فيمزج هذا بذلك، ويضيف إليه من التعليم والتقويم ما يكفل له الكمال فى كل ناحية، فسبحان الحكيم العليم، ذى الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ نسأله جل شأنه أن يهدينا الى سواء السبيل؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل. ابراهيم الجبالى

صاحب المنار

والصلوة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد الأذان

رحم الله امرأ عرف قدره

كتبنا في الجزء الأول الصادر في شهر محرم من هذه السنة جوابا عن سؤال ورد إلينا يقول كاتبه : إن بعض الناس قال لمن أتى بالصلاة عقب الأذان : إنك أتيت جرما ، فقلنا له : إن ذلك ليس جرما وحاشا أن يكون جرما فإن العلماء صرحوا بأنها بدعة حسنة ، ويصرح الشافعية بأنها سنة عقب الأذان من المؤذن وغيره ، وروينا في ذلك ما جاء في صحيح مسلم : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على » الحديث .

ثم قلنا ما ملخصه : إن المؤذن ممن سمع الأذان ، وكل من سمع الأذان طلب منه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، ثم هو مخير بعد ذلك ، فإن شاء ذكرها سرا وإن شاء ذكرها جهرا ، فكل ذلك محصل لا متثال الأمر النبوي ، فإنه لم يلزمنا صلى الله عليه وسلم في ذلك كيفية مخصوصة ، فأصلها مطلوب بالأمر العام الذي ورد به القرآن ، وهي بعد الأذان مطلوبة طلبا خاصا بمقتضى هذا الحديث . أما الكيفية فهي موكولة الى اختيارنا ، ولو كانت الكيفية المخصوصة لازمة للزمن أن نبحت عن درجة جهرهم وإسرارهم وسرعتهم في النطق بها وإبطائهم في ذلك ، الى آخر ما قلناه في تلك المقالة .

ثم قلنا : لا يصح أن يرمى من أتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالإجرام ، ومن فهم أنها داخلة في البدعة التي هي ضلالة فهو جاهل وجامد لا ينبغي أن يعد في سلك

العلماء، والخلاف بين من يقسم البدعة الى حسنة وغيرها، وبين من يرى أن البدعة لا تكون حسنة، هو خلاف لفظي في الحقيقة، فإن الأول أراد البدعة اللغوية، والثاني أراد البدعة الشرعية، وقد نقل ذلك التقسيم عن الامام الشافعي نفسه (الذي ليس من علماء القرون الوسطى) بل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة سيئة» يوافق هذا التقسيم الذي لم يفهمه الشيخ، فشنع عليه اغتراراً بكلام من لا يرى التقسيم؛ وقد قلنا: إن من فوائدها بعد الأذان تذكير الناس بالعمل بالحديث المتقدم، بل الخروج من الإثم الذي يراه بعض العلماء في ترك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند ذكره، وقد سمعوا ذكره في الأذان فوجب عليهم أن يصلوا عليه صلى الله عليه وسلم وإلا أثموا على هذا الرأي، فلو لم يكن إلا تذكيرهم بهذه السنة أو بهذا الواجب لكفى. فقامت قيامة الأستاذ الشيخ رشيد من أجل ذلك، فكتب في مناره ما أكل الحكم فيه اليك بعد أن أتلوه عليك:

قال: «إنها بدعة فشت هي وأمثالها في أمصار المسلمين يجهل المعممين أدياء العلم بالسنة، الى أن يقول: وإننا لنعجب أشد العجب إذ نرى بعض كبار علماء الأزهر يفتون الناس ببدعة الزيادة في الأذان ويزعمون أنها حسنة، الى أن يقول: إن لهم إذاً أن يزيدوا في الصلاة ركعات أو سجعات، وهل يوجد دليل على امتناع ذلك وأمثاله غير كونه مخالفاً للمأثور؟ وما الفرق إذاً بين الأذان وغيره؟ أما أنه لو فعل هذا كثير من العوام لأفتاهم باستحسانها مفتي مجلة نور الاسلام (يعني الشيخ الدجوى)».

وأرجو كل الرجاء أن لا تسأم من الأخذ والرد مع الشيخ حتى تعرف منزلته من العلم ومكانه من المنطق، ثم تذكر لك بعد ذلك مقدار تصلبه في الدين، واحتياطه للكتاب والسنة، وهو اكتشاف غريب وتفككة لنيدة.

(١) فنقول لفضيلة الأستاذ: ليس هذا زيادة في الأذان، وإنما هوشىء فعل بعد انتهاء الأذان، فأين هذا من ذاك؛ وليس هناك من يجعل الزيادة من الأذان، بدليل

أنها تترك في أذان المغرب ؛ وبديل أنهم تارة يطيلون وتارة يقصرون ؛ وبديل ما ذكره هو أنهم قد ينادون شيخ العرب (السيد البدوي) فهل يفهم أن ذلك كله من الأذان ؟ بل قد يذكرون شيئا من القصائد في مديحه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان ، فهل يعتبر ذلك كله من الأذان ؟ اللهم إن الأمر واضح حتى عند العوام ! .

(٢) أما قياسه ذلك على زيادة ركعة أو سجدة في الصلاة فهو قياس ينبغي أن نتعجب منه أشد العجب ، فإننا لم نجعل ذلك من أجزاء الأذان ولا أدخلناه فيه ، فهو بمنزلة الذكر بعد الصلاة ، أو بمنزلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ منها ؛ على أن الأذان لا يصح أن يقاس على الصلاة من كل وجه .

(٣) وإنى لأعجب أشد العجب من مجتهدنا الجديد الذي برز في علم الأصول ، وقتل المنطق بحثا حيث يقول : ما الفرق بين الأذان وغيره ؛ مع كون الفرق في هذا القياس الذي أراد أن يجعله برهانه الساطع ودليله القاطع أوضح من الصبح عند صغار الطلبة . ومن الذي لا يفرق بين الزيادة في الشيء والزيادة عليه بعد الفراغ منه ؟ ولا بأس أن نفكهمك بشيء من علم الشيخ وذوقه الرفيع :

يقول : إن هؤلاء القموريين يدعون البدوي وأمثاله من دون الله (أى فهم كفره) فانظروا أولاً لسوء عقيدة الشيخ في المسامين ؛ وثانيا إلى خطئه في التطبيق ، وثالثا إلى ذوقه في الإتيان بما لا علاقة له بالمقام ، بل نداء السيد البدوي مما يرد عليه لو كان يدرى ؛ ورابعا إلى خطئه النحوي في قوله القموريين ، وابن مالك يقول : والواحد اذ كر ناسبا للجمع . ولكن الشيخ أرفع من أن يقلد ابن مالك أو سيديويه ؛ ومن لطائفه أنه يعبر عن عصور النور والعلم عندنا بالقرون الوسطى تقليدا للأوربيين .

(٤) ثم نقول : ألا يكفي ذلك كله في أن تكون المسألة محل نظر يصح الاجتهاد فيها لهذه الوجوه كلها ، فلا يضيق صدر الشيخ من يخالفه فيها ، وغاية أمرها بعد كل تنزل أن تكون خلاف الأولى بالكيفية المخصوصة لو سامنا وجهة نظرهم ؟ !

(٥) ألم يقرر العلماء أن الأمر لا يكون منكراً يجب النهي عنه إلا إذا كان مجمعا على إنكاره ، أو كان فاعله يرى أنه منكرك ؟ .

(٦) وبعد هذا يحسن بنا أن نناقش الشيخ مناقشة خفيفة في عباراته البليغة :
يدعى أنه لا يوافق على هذه البدعة وأمثالها إلا أدعياء العلم المعممون الجاهلون .
فليت شعري أيجهل الأستاذ أن ذلك مذكور في كل مذهب من المذاهب الأربعة ، وربما كان في كل كتاب من كتبه ، أم يرى أولئك المعممين كلهم بالجهل والغباوة ؟ !
(٧) ولماذا يعجب أشد العجب من فتوى بعض كبار العلماء باستحسان هذه البدعة ؟ أليس موافقا لغيره ممن لا يحصى كثرة من علماء المذاهب ؟ وهل هناك محل للعجب بعد ما امتلأت الكتب بذلك ؟ .

(٨) بل ذكر حضرته قبل ذلك بقليل أن علماء القرون الوسطى قسموا البدعة الى حسنة وغير حسنة ، وقال : إن المعممين أفتوا باستحسانها ، فأى معنى لأن يعجب أشد العجب لمفتى مجلة نور الاسلام عند ما يقول ذلك ؟ .

(٩) ألم يكن فيما قاله هو ما يجعله يحس بما في كلامه من تناقض أو شبه تناقض حيث دهش غاية الدهش مما ذكر هو أنه كان معروفا لدى علماء القرون الوسطى ؟ فما الموجب للعجب ولأشد العجب حينئذ ؟ ! ولكن الشيخ لا يحس بما يقول .

(١٠) ألم يبلغ الشيخ أن بعض تلك الطائفة التي بذروا فيها تلك البذور الخبيثة قد أثاروا بسبب ذلك شرا كبيرا في كثير من البلدان ، ووصل الأمر فيها الى حد سفك الدماء ، وإبطال صلاة الجمعة ، وإفساد أمر البلد كلها بما حصل بينهم من التشاحن والتباغض ؟ ! أليسوا بمنزلة من يبنى قصرا ويهدم مصرا لو فرضنا أنهم بانون !

فصل في المقام

(١١) والخلاصة التي ينتفع بها القارئ في هذا المقام أنه قد خفي الفرق بين الزيادة على الأذان والزيادة فيه على مجتهد آخر الزمان الشيخ رشيد ، ولذلك استباح

لنفسه أن يقول إن مفتى مجلة نور الاسلام لو سئل عن زيادة ركعة في الصلاة لأفتى باستحسناتها .

ونقول زيادة في الإيضاح واهتماما بالموضوع : إن أمر الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان هين جدا ، ومن الجرم أن يسمى جريمة ، ولسنا أول من قال إنها بدعة مستحسنة ، بل علماء المذاهب الأربعة مصرحون بذلك ، وليس كل ما لم يفعل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يكون بدعة سيئة ؛ ومن فهم أن ذلك داخل في قوله في الحديث : « وكل بدعة ضلالة » فهو من أقل الناس علما ، وأضيقهم عقلا ، كما أنه ليس ذلك زيادة في الأذان حتى يشبهه بركعة في الصلاة ، أو يقول إنه زيادة في العبادة المشروعة ؛ بل هو عبادة مستقلة ، كما إذا قرأنا القرآن مثلا بعد الصلوات ، أو صلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكذلك الصلاة والسلام بعد الأذان سواء بسواء ؛ ولكن شيخ المنار ليس من أهل المنطق ولا الأصول ، ولا صلة له بصناعة البرهان ، فهو يرخي لقلمه العنان فيما يحول برأسه ، بلا ميزان يضبطه ، أو أصل يرجع إليه ، شأن من يأخذ علمه عن الأوراق لا عن العلماء .

ولا نزال نقول له : أترى علماء المذاهب كلها بهذا ، فإنهم قائلون باستحسناتها فتقول إنهم لو سئلوا عن زيادة ركعة في الصلاة لأفتوا باستحسناتها كما قلت ذلك لمفتى مجلة نور الاسلام ، أم ذلك خاص بنا لغير معنى معقول ؟ ؛ وليس يبعد على الشيخ أن يرى من شاء بما شاء أو يرجح بلا مرجح ، ولهذا لم يتعرض لما ذكرناه في مقالنا من التوجيه والاستدلال ، لأنه لا صبر له على الحوار المنطقي ولا الجدل العاصي ؛ وكأنه من قسم العامة الذين أشرنا إليهم في صدر ذلك المقال ، لا من الخاصة الذين تكلمنا معهم في آخره .

وقد سقنا لهم من الأدلة الصحيحة ما يقنع المنصف ؛ وقلنا : إن الصلاة مطلوبة وكيفية مباحة ؛ ولو كان استعمال العام في بعض أفرادها مخصصه ، أو المطلق في بعض جزئياته يقيدده ، لكان كل عام مخصصا ، وكل مطلق مقيدا ، لأن العام أو المطلق حين

استعمل لم يكن إلا في بعض جزئياته ، ولكن الشيخ لا يعرف هذا ولا يحسنه ، ولذلك عدل عن الكلام فيه ، ونحن لا نستطيع أن نحاور إلا أهل البرهان وأرباب المنطق .

ألم يكن الأجدر بهم أن يقتنعوا أو ينصفوا فيقيموا لأولئك العلماء وزنا ، أو يقولوا : إن المسألة محل نظر فيصح فيها الاجتهاد ، وما يصح فيه الاجتهاد لا يتصلب فيه أهل العلم هذا التصلب ، ولا يحمدون فيه هذا الجود ؟

مصححات أو مبيكات

(١٢) هذا ، ثم نقول لحضرة العلامة المجتهد : مالك تأتي بالمتناقضات فتشن الغارة على مسألة يصح فيها اختلاف النظر والأمر فيها واسع ، ولا تحتاط هذا الاحتياط في مسألة الربا المجمع على تحريمه ، وتبيح الانتفاع بالأرض المرهونة قياسا على ما قال بعض العلماء في الانتفاع بالحيوان المرهون الذي يركب ويحلب بنفقته ، كما في الحديث ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، إن كنت تعرفه أو سمعت به ؟ !

(١٣) بل رأينا منك ما هو أظم وأدهى أيها المحتاط في ترك الصلاة على النبي عقب الأذان ، رأيناك لم تحتط في تفسيرك هذا الاحتياط عند ذكر الملائكة في سورة البقرة ، فأخذت تتقرب من الماديين لتكون مجددا وعصريا بتأويل كتاب الله على غير ما أراد الله ، بما يخرق الإجماع ، بل يصادم المعقول والمنقول ، فقررت أن الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية . وليت شعري هل تلك القوى الطبيعية هي التي وقع الحوار بينها وبين الله تعالى بقولها : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ؟ ! وهل تلك القوى الطبيعية هي التي أوجب الله علينا الإيمان بها وقال في حقها : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) الى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يعلم تأويله إلا شيخ المنار والراسخون في علم المادة .

(١٤) ومثل ذلك ما قرره في المكروبات عند ذكر الجن في القرآن ، وليت شعري هل هذه المكروبات الجنية هي التي كانت تعمل لسليمان ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ؟ وهل هي التي قال عفريت منها لسليمان عليه السلام : أنا آتيك به « بعرش بلقيس » قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين ؟ وهل هي التي قالت لقومها : إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم الخ الخ ؟ .

(١٥) ومثل ذلك ما قاله في مذهب درون في أول تفسيره لسورة النساء ، وأنه يجوز تطبيق القرآن عليه . وما أدري كيف يفعل في قوله تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) الى آخر ما جاء في الكتاب والسنة ، مع أن كثيرا من الأوربيين أنفسهم يأبون هذا المذهب كل الإباء . وهل يبقى مع تلك التأويلات وثوق بكتاب الله الذي أصبح قابلا لكل تأويل ، وأصبح المراد منه غير معروف حتى في أصول الدين ، كالايمان بالله تبارك وتعالى ؟ فرحى مرحى أو برحى برحى ! فأى خدمة أعظم من هذه الخدمة لدين الله وكتاب الله ، وأى إصلاح أكبر من هذا الإصلاح (الدينى والمدنى والسياسى) ! وأى اجتهاد أجل من هذا الاجتهاد الذى يفوق اجتهاد الاسماعيلية والبابية ؟ ! وهل هناك فرق بين هذا وبين تأويل للملاحدة من الباطنية الذين أطنب الشيخ في الرد عليهم والتشهير بهم ، ونسى أن له من الترهات ما يفوق ترهاتهم حتى صدق عليه قول القائل : رق حتى انقطع ، وحلق حتى وقع :

أُمُورُ تَضْحَكُ السُّفَهَاءُ مِنْهَا وَيَبْكِي مِنْ عَوَاقِبِهَا اللَّيِّيبُ

(١٦) وهل نسي الشيخ ما كنا نكتبه تحت عنوان « صاحب النار وآدم عليه السلام » حتى تدخل بيننا السيد عبد القادر التلمساني رحمه الله حينما جمعنا لأجل الصالح بيت السيوفي والاتفاق على ما يرضى الله ورسوله ؟

(١٧) وهل نسيت يا حضرة الغيور على دين الله ما كان منك من تأيين رؤساء الإلحاد مما أفضى الى التقاضي أمام مجدى باشا عليه رحمة الله ؟ وإن الشيخ ليعلم أن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان ، بل أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله كما في الحديث الشريف الذي لا يحمله الأستاذ (ومن ذاق حلاوة الإيمان يحب المرء لا يحبه إلا لله) ويقول الله في كتابه العزيز : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) فهذا كلام الله ورسوله ، ولكن الشيخ لا تحكم عليه سنة ولا كتاب ولا منطق ، وكل ذلك تحت سلطانه وتصرفه وبديع تأويله . ولقد كتبنا في هذه المجلة كلمة عن إنكار الملائكة ، ورأينا أن نسترعليه فلم نصرح باسمه ، ولكن أبى عليه ذوقه وعقله إلا أن يضطرنا للتصریح ، ولعله أنفع للقارئ وأبلغ في النصيحة .

(١٨) وهل نسي الشيخ ما أفتى به من حل صلاة التلاميذ المسلمين مع النصارى بالكنيسة، ليغرس في قلوبهم الخالية النقية تلك الطقوس النصرانية ، وينقش في نفوسهم الساذجة ما يسمعون من القسوس والمبشرين هناك .

عظيمة العظام

بل وصل الأمر من اجتهاد مجتهدنا (الذى يبحث في جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى) كما يقول فى مناره - أن اجتراً على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم عن أبى ذر من أن الشمس تسجد تحت

العرش، وقال : إن الأنبياء، لا تعرف هذه العلوم، ولو كان رشيداً لم يضق صدره بذلك ولو سعه إيمانه بالغيب، فإن لم يسعه إيمانه بالغيب فكان ينبغي أن يسعه علمه بسعة لغة العرب وكثرة مذاهب البيان فيها، فإن ضاق علمه كما ضاق إيمانه فما كان ينبغي أن تضيق سياسته وهي التي وسعت الشرق والغرب. وبيان ذلك أنه كان يستطيع أن يقرر في الحديث ما قرره العلماء في قوله تعالى حكاية عن الأرض والسماء : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وقوله تعالى : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله تعالى : (نَكَادُ نَمِيزُ مِنَ الْعَيْظِ) وقوله تعالى : (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) حتى قال كثير من العلماء : إنه باسان المقال لا بلسان الحال، بدليل قوله : ولكن لا تفقهون تسبيحهم، فإننا نعرف ما يدل عليه حالها، فالذي لا نفقهه إذا هو مقالها لا حالها، وقد سبّح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم. وإن لم يتسع صدره ولا إيمانه لذلك فكان عليه أن يخرج ذلك على وجه من وجوه المجاز أو الكناية، ووجوه الخارج كثيرة، وما أوسع لغة العرب لدى من يعرفها، وكان ينبغي إذ لم يتسع صدره ولا إيمانه ولا علمه شيء من ذلك أن تتسع سياسته لحسن المخرج منه بأية وسيلة غير تجهيل النبي صلى الله عليه وسلم، ولو أن يرى البخاري أو غيره من رواة الحديث بالخطأ والكذب، ولا يتعرض لرسول الله، فقد كان تكذيبهم أهون من تكذيبه صلى الله عليه وسلم، فما أضيق دينه وعلمه وسياسته، وإن كان يبحث في شئون الإصلاح الديني والمدني والسياسي :

وإني أحس منك بامتعاض شديد غيرة على المقام النبوي، ولعلك تستبعد صدور ذلك من الشيخ أو لا تصدقه، فلننقل لك عبارته بنصها وفصها وما طعن به على أحاديث كثيرة في البخاري غير هذا الحديث، ثم ترقى من تكذيب الرواة في تلك الأحاديث إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث :

قال في مناره الصادر في آخر رمضان سنة ١٣٢٧ صفحة ٦٩٧ من مجلد السنة المذكورة ما نعرض عليك محصله، لتحكم فيه، وليتضح به الموضوع الذي نحن فيه، فإنه كالمقدمة له: رد الأحاديث التي في البخاري وغيره الناطقة بأن آية (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجوهما البتة) كانت قرآنا يتلى، وأن عمر قال ذلك بجمع من الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وهو معروف لامراء فيه؛ ويستند حضرة في ذلك الرد الى ما تعرف منه مقدار علم الشيخ وتفكيره. يقول: إن ذلك لو تم لكان يتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شيء منه؛ ولم يفرق الشيخ بين النسخ الذي يكون من قبل الشارع ولا يعرف إلا من جهته ولا يكون إلا في زمنه بإرشاده وتبيينه، وبين التفريط في القرآن وضياع شيء منه. ثم رد الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في سحر النبي صلى الله عليه وسلم، رد ذلك بتمويهات وخيالات لا تطيل بها.

ومن المعلوم أن الأنبياء تجوز عليهم الأمراض البدنية والأعراض البشرية ولا فرق بين السحر الذي يؤذيه في بدنه ولا تسلط له على الوحي، وبين كسر رباعيته يوم أحد. وكان عليه وهو المحدث الكبير - فيما يزعم - أن يطعن على سند الحديث ويخرج أحد رجاله، أو يبين أن فيه علة خفية كما يصنع أرباب هذا الشأن، وقد طعن في أحاديث أخرى يطول فيها القول. ثم قال بعد ذلك كله مترقيا من رد روايات البخاري الى رد كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وهي جراءة لا يصح أن تكون من مسلم يؤمن بالله ورسوله.

قال ما نصه: «ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية السؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالظلوع الخ» الى أن قال: «فالشمس طامعة في كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفه عين كما هو معلوم بالمشاهدة علما قطعيا لا شبهة فيه» أي فكلام النبي كذب

لا شبهة فيه !! الى أن قال : « والأنباء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمر المخلوقات على حقيقتها » الى آخر ما قال ، أى فالتبى صلى الله عليه وسلم لم يعرف ما عرفه الشيخ رشيد ، بل لم يدرك المشاهد المحسوس .

وليت شعري ما الداعي إذاً له صلى الله عليه وسلم أن يدخل في شيء لا يعرفه ولا سئل عنه ، بل هو الذي لفت نظر أبي ذر اليه وقال له حيث غربت الشمس : أتدرى أين تذهب ؟ فقال : الله ورسوله أعلم الخ . أما الشيخ رشيد فلا يقول الله ورسوله أعلم ، بل يقول : أنا أعلم ؛ وإن جوزنا عليه الخطأ في المشاهد المحسوس كما هو رأى الشيخ ، فكيف نتق به فيما أخبر به من المغيبات التي هي وراء الحس والمشاهدة .

هذا وتلاحظ أن الشيخ رشيد يؤول لنظريات الأوربيين التخمينية كتاب الله بما لا يخطر لأحد على بال . وإن نظرت في منار شعبان من تلك السنة أيضاً وجدت من السخافات ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم .

وبعد فلا بد أن يكون الشيخ مكذباً لله أيضاً في قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ) الخ ، فإنه أثبت السجود للشمس ، كما أثبتته الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فرق بينهما ، فثبت لأحد المثليين يثبت للآخر ، فالشيخ إذاً مخطئ لله ورسوله ، مكذب للقرآن والسنة . وإن شئت فقل مجهل لها :

ولولا ضيق المقام لسردنا على القارئ الكريم ما يلايه عن أكبر المصاب ، أو يغنيه عن أعظم الألعاب . ويكفي هذا اليوم ، ونصوص المنار عندنا إذا أرادها القارئ ، وإني لأعلم أن الشيخ سيكيل لنا من السب والإقذاع ما يعرفه منه القراء ، ولكن هناك فرق بين قول باللسان وكلام يشبه الهذيان ، وبين ما يشهد له الوجدان ويقام عليه البرهان .

يوسف الدهوي
من هيئة كبار العلماء بالأزهر

السُّنَنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على خذيّه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فمجبنا له يسأله ويصدقّه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

ذكرنا الحديث في العدد الماضي وتكلمنا على صدره ، وأعدناه هنا جميعه تيمنا به وعونا للمطالع على حفظه التماسا لبركته ، مع كونه من أجمع الأحاديث الشريفة لأصول الشريعة وفروعها كما سبق تقريره ، وإنه من أجل ذلك بدأ به بعض المحدثين كتبهم كأنهم رأوه من سائر الأحاديث بنزلة أم الكتاب من القرآن الكريم .

وقوله : « قال فأخبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » فيه ضمير قال الأول يعود للسائل ، وضمير قال الثانية يعود للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعنى طلبه الإخبار عنه طلبه تبيين معناه وتفسير المقصود منه ، كما بينته ما ورد في الرواية الأخرى « ما الإسلام وما الإيمان » الخ . وأصل الإيمان في اللغة التصديق مطلقا ، مأخوذ من الأمن ، كأن المصدق آمن المخبر من التكذيب ؛ وقد جاء في الشرع على هذا الوجه مع تقييده بأشياء مخصوصة ، فهو التصديق بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعلم مجيئه به بالضرورة . وقد ذكر فيه الفقهاء والمتكلمون وعلماء الحديث أقوالا كثيرة مختلفة يقترب بعضها من بعض ، ويتعد بعض منها عن بعض ، في ماهيته ، وشروطه ، وأجزائه ، وهل يزيد وينقص ، وأطالوا في ذلك بما لا نرى مجاراتهم فيه في هذه الكلمة الموجهة لجمهور القراء ، وإنما نكتفي بكلمة وجيزة ، ومن أراد الاستقصاء استطاع الرجوع الى كتب الكلام ، ومبسوطات شروح الحديث ، وكتب الفقه .

والذي يعنيننا من بين كلامهم أن الإيمان هو التصديق القلبي ، أى إذعان النفس وتسليمها وعدم جحودها ، وأنه مغاير للمعرفة الخالية من الإذعان وقبول النفس ؛ وعلى ذلك يكون من عرف في نفسه معرفة يقينية مصحوبة بالجحود والتكذيب ، ورفض ما هو معلوم له عنادا أو استكبارا ، لا يسمى مؤمنا ؛ وذلك مثل الذين حكى الله عنهم بقوله جل من قائل : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ

فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وكما قال تعالى في حكاية خطاب موسى لفرعون : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فوصفه موسى بأنه كان يعلم أن رب السموات والأرض هو الذى أنزل ، ومع ذلك كان كافرا لأنه كان يحدد ويرفض ما استقر في نفسه علمه فلم يكن مصدقا ؛ وهذا أمر غير مسألة الإقرار باللسان ، بل هو عمل قلبي نفسي ، وهو طمأنينة النفس لما علمت وقبولها إياه ، وهو أمر اختياري مغاير لما تسميه انقذاح المعنى في النفس مما قد يكون اضطراريا . ومن هنا نعلم صحة التكليف بالإيمان نفسه ، خلافا لمن ظن أن التكليف به تكليف بالنظر والاستدلال ؛ وحمله على ذلك ظنه أن العلم أى التصديق أمر اضطرارى لا يستطيع دفعه عن نفسه من سَلِمَتْ له الأدلة ، وإنما الأمر الاختياري هو توجه النفس نحو المطلوب بالاستدلال عليه والنظر في أدلته ؛ وقد عرفت أن العلم والتصديق القهرى قد يصحبه رفض المكابرة والعناد ، وإباء ما يلقى إليه ، مع علمه بحقيقته ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فهؤلاء المنكرون مكابرة لا يسمون مؤمنين ، وإن كانت نفوسهم ممتلئة جزما بما توافر لديها من آيات بينة .

وكلا يسمى هذا مؤمنا لا يسمى من نطق بلسانه وهو غير مصدق بقلبه مؤمنا ، وذلك كالمناققين الذين كانوا لا يعتقدون بصدقه صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يظهرون أنهم آمنوا ، نفاقا أو خوفا أو غير ذلك ، فهؤلاء إن علم أمرهم علما جازما أنهم يبطنون الكفر ، عوملوا معاملة الكفار ، وإن لم يعلم أمرهم قبل منهم في الدنيا ، والله يتولى جزاءهم في الآخرة . ومصدق الأول قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) الآيات في أول البقرة ، وقوله جل شأنه : (وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

أما من آمن بقلبه وأقر بلسانه وأذعن للطاعة ، أى لم يشهر سيف العصيان تمردا وإياء ، ولكنه يترك ما كلف به من أمر ونهى ، كسلا عن الطاعات ، أو انهزاما أمام داعى الشهوات ، فلا يخرج بذلك عن معنى الإيمان والإسلام ، وإن كان عاصيا وفلسقا ، فيدخل فى وعيد العصاة والفاسقين ، ولكنه لا يدخل فى عداد الكفار المخلدين فى نار جهنم ، والله أعلم .

أما زيادة الإيمان ونقصانه فإنها لا ترجع الى التصديق والجزم ، وإلا فنقص الجزم لا يكون إلا بالشك ، ومتى شك وتردد فقد كفر . وإنما مرجعها واحد من أمرين : الأول أن اسم الإيمان وإن كان استعماله فى الأصل فى لسان الشرع للتصديق - قد يطلق على الأعمال لأنها ثمرته ومظهره ، فمن ذلك قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) فسروا الإيمان هنا بالصلاة الى بيت المقدس ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان » ونحو ذلك . والأمر الثانى أن التصديق الجازم وإن كان لا يقبل النقص ، إلا أن أثر التصديق يتفاوت بحسب قوة استحضار ما هو كامن فى نفسه أو غفلته عنه ، فإنك تجد شخصين مقبلين على نتيجة واحدة كلاهما عرضة لها ويعلم كل منهما أن لا مفارقه من لقائها ، ولكنك تجد أحدهما دائم التذكر لها والاستحضار لما ينبغى أن يعد لها ، بينما ترى الآخر منصرف النفس عنها يؤلمه أن تذكره بها أو تمر بها على خاطره .

واعتبر بالموت الذى لا يشك أحد فيه وأنه ملاقيه : كيف ترى الكثير من النفوس منصرفا عن تذكره ، يتضايق ممن يلفتة اليه ، أو يتكلم فيه أمامه ، وانظر حال طلاب العلم فى تذكرهم ما هم قادمون عليه من الامتحان ونتائجه ، وعلمهم أن من راسب منهم لاقى من الخزي والهون ما لا يطيق عليه صبورا ، ومع ذلك لا تجدهم متساوين فى العمل على مقتضى جزمهم ، لأنهم ليسوا بمتساوين فى قوة استحضارهم ؛ وعلى هذا

يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فإن معناه لو استحضر ما كن في نفسه من عقيدة حقة ، وراعى أن الله عالم به مطلع على حركات نفسه قادر على البطش به ، لكان إن لم يرعو حذر العقاب ، انكمش حياء من على الجناب . نسأله تعالى التوفيق . ولنكتف بهذا القدر في هذه المسألة ، ونرجع الى شرح الحديث : قوله صلى الله عليه وسلم في جواب السؤال عن الايمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » معناه أن الايمان هو ما تعارفه أهل اللغة في مخاطبتهم ، وهو التصديق ؛ وإنما يخص بأنه تصديق بهذه الأشياء المذكورة ، فقوله : « أن تؤمن بالله » أى تصديق بوجوده تعالى ، وأنه لا يجوز عليه العدم ، وأنه موصوف بصفات الجلال والكمال : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، والحياة ، وأنه منزّه عن صفات النقص ، وعن صفات الأجسام والمتحيزّات ، وأنه واحد أحد ، فرد صمد ، خالق جميع المخلوقات ، متصرف فيها بجميع التصرفات ، يفعل في ملكه ما يشاء ، ويحكم في خلقه ما يريد ، ليس كمثل شئ ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وقوله : « وملائكته » أى أن تؤمن بأن لله ملائكة ، هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم مخلوقون قائمون بأنفسهم ، ليسوا قوة مودعة في مخلوق آخر ، فيصح أن يكون منهم رسل ، كما قال تعالى : (اللَّهُ يُصَوِّطُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) ويصح أن يعهد الى بعض منهم شئ من تنفيذ مراد الله في خلقه ، كقبض الأرواح ، وتصريف الرياح ، وسوق الماء الى أرض جرز ، ونفخ في الصور للبعث ، وهبوط بالوحى على الرسل ، وأمثال ذلك ، فن ورد في النص ذكر اسمه تفصيلا وجب الايمان به تفصيلا ، كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ، وما ورد بصفة معينة كحملة العرش والكرام الكاتبين وجب الايمان بهم على هذه الصفة ، وما لم يرد في شأنه اسم معين ولا صفة مخصوصة وجب الايمان بهم إجمالا .

ومن الحماقة أن يزعم بعض من لا خلاق لهم أن الملائكة عبارة عن القوى المباشرة في عالم الكائنات لتنظيم وجودها، كنظام الجاذبية أو الكهرباء أو ما أشبهها؛ فهذا ومثله ما حمل عليه إلا ضيق العطن، وظنهم أن ما لم يقع تحت بصرك ولم يحسوه إحساساً مادياً فهو معدوم البتة. وليت شعري كيف التيس عليهم عدم العلم بالشئ بالعلم بعدم الشئ؟؛ وإذا كانوا لا يعترفون إلا بما علموه بحواسهم، فاذا استفادوا من إيمانهم؟ وأين هو الإيمان بالغيب الذي ذكره تعالى في صفات المؤمنين بقوله: (وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)؟

هذا وللعلماء في تحديد ماهية الملائكة كلام طويل، فمنهم من يقول: هم أجسام نورانية قادرة على التشكل بأي شكل تريد؛ ومنهم من قال: إنهم جواهر قائمة بذاتها مجردون عن المادة ولو احقها؛ وليس هذا الموضع مما يتسع لذكر قول كل منهم ودليله؛ والذي يعيننا منه أن نؤمن بأن لله ملائكة هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم بالصفات التي أشرنا إليها سابقاً؛ وأما تحديدهم بالكسنة فما لا سبيل إليه في المغيبات، بل قد نقول: إنه أصعب شئ في المحسوسات.

وقوله: «وكتبه» معناه أن تؤمن بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه لهداية الناس وإرشادهم إلى مصالحهم في حياتهم الدنيا والآخرة، وأن ما فيها كلامه القديم الذي شاء من الأزل أن يُطلع عليه عباده على يد أنبيائه ورسله، رحمة منه بالعباد، ولكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فمنها القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هدى للناس وبينات؛ ومنها التوراة والإنجيل والزيور وصحف المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقوله: «ورسله» أي أن تؤمن بأن لله رسلاً من البشر اصطفاً من خلقه ليلبغوا أمر ربهم، ويشرعوا لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأيدهم بمعجزة منه تحمل من اطلع عليها

على تصديقهم، تمييزاً لهم عن من يدعى هذا المقام السامى كذباً طمعاً في الإذعان له، وأن ينال من الاحترام والطاعة ما لا حق له فيه .

ولا يكون الإيمان بالرسول حتى يكون المؤمن غير مفرق بين أحد من رسله، فكل من ادعى النبوة ولم يكن في ماضيه ما يؤخذ عليه من المنفرات، وعرف بالصدق والأمانة، وظهرت على يده معجزة أى أمر خارق للعادة لا يستطيع أحد من الناس أن تبلغه قدرته، وجب الإيمان برسائله . والرسول عليهم الصلاة والسلام مصدقون بعضهم بعضاً، لا معارضة بينهم ولا مناقضة، دعوتهم الى توحيد الله وتمجيده وعبادته واحدة، وطريقهم في الدعوة من الإرشاد والمصابرة والإقناع والإفهام بإقامة الحجة كذلك واحدة، وإن اختلفت بعض أحكام الفروع حسب مقتضيات الظروف والأحوال المناسبة لكل أمة ولكل عصر، وعلى ذلك يكون من آمن ببعضهم وكذب ببعض مع قيام آيته وبلوغ حجته بمنزلة المكذب للجميع، فإنه إنما صدق من صدق حجة لنفسه لا طاعة لأمر ربه، وإلا فلا فرق بين نبي ونبي في أن كلا مبلغ عن ربه، مؤيد منه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات .

وأنت تعلم أن المسلمين والله الحمد قد آمنوا بجميع الرسل، إذ جاء صلى الله عليه وسلم مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وأن كلا من عند الله، وإنما جاء الذين يزعمون اتباعهما والإيمان بهما فيهما بتحريف من عند أنفسهم (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) ولذا كثر فيها التناقض والتخالف وذلك أمانة أنه ليس من عند الله كما قال جل شأنه : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) والإيمان بأولئك الرسل يستتبع الإيمان بصدق ما بشروا به من نبي عربى أمى هو نبيتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « واليوم الآخر » أى يوم الدين ، يوم الجزاء ، يوم القيامة ، (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) .

والإيمان باليوم الآخر هو أكبر داع لامتنثال التكليف ، وأعم باعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فإنه وإن كانت الخاصة من المؤمنين تصل درجاتهم إلى أن يعبدوا الله لأنه مستحق لأن يعبد لذاته ، أو شكرا له على سابق نعمه ، فإن العامة تقصر نفوسهم عن هذه الدرجة العليا ، وأكبر عامل يحفزهم على امتثال التكليف مع ما فيه من مشقة هو خوفهم من العقاب ورجاؤهم الثواب .

وقوله : « وَأَنْ تَوَكَّنْ بِالْقَدَرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ » أى أن كلا من عند الله ، فهو وحده المقدر للأشياء بحكمته ، المدبر للعالم بكل ما فيه بإرادته ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معقب لحكمه ، فما من أمر يقع فى الكون إلا وهو بتقدير العزيز العليم ، أرادته من الأزل ، وأوجده على حسب عامه القديم .

والقضاء والقدر معناهما إرادة الله الأشياء فى الأزل ، وإيجاده لها فيما لا يزال .
ف قيل : القضاء : تعاقب الإرادة فى الأزل ، والقدر : إيجادها بقدرته على وفق إرادته .
وقيل : بل القدر تقديرها وإرادتها من الأزل ، والقضاء إيجادها ، كما فى قوله تعالى : (فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) وانقسام القدر إلى الخير والشر هو بالنسبة لما يبدو لنا ويوافق مصالحنا الخاصة ، وإلا فباعتبار النظام العام كل خير ، وكل حسن ، وما من شئ إلا وله فيه حكمة بالغة ، ومستوفى كل جمال ، وهو أبداع ما تصل إليه المدارك لو اطلعت على مجموع الكون ؛ وكل هذا باختياره ومشيئته لا وجوبا عليه ، فهو مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وإنما خص القدر بالذكر مع دخوله فى الإيمان بكتب الله ورسله إذ تضمنت الكتب أن كلا من عند الله وبلغت الرسل ذلك —

لأن بعض من يزعم لنفسه الإيمان يغالى فى تنزيه الله عن بعض ما لا يعجبه ولا يروق فى نظره، فينسبه لشريك الله — حاشا وكلا، وذلك كالمجوس الذين ينسبون الخير لآله الخير وهو النور بزعمهم، والشر لآله الشر وهو الظلمة فى اعتقادهم؛ وقد تبعهم بعض من يدعى الاسلام فوقعوا جهلا فى هذه العقيدة الفاسدة، وهم القدرية، ولذا قيل: القدرية مجوس هذه الأمة.

وقوله: «أخبرنى عن الإحسان» الخ — قد سئل عن الإحسان أيضا لوروده فى آيات كثيرة تدعو اليه وترغب فيه، كقوله تعالى: (يُمْ أَتَقَوُّوا وَأَحْسِنُوا) وقوله: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) وقوله: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرُ وَزِيَادَةٌ) وكقوله: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) والإحسان يستعمل على وجهين — تارة معدى يالى، يقال أحسن اليه، إذا أنعم عليه وأولاه يدا، وتارة بدونها كقولهم: أحسن العمل، أى أتى به على أكل وجه؛ وهو هنا بالمعنى الثانى، إذ المراد إحسان العبادة وإتقانها.

وإن هذا لا يرشاد من أعظم طرق التربية والتعليم، بل من جوامع الكلم فى ذلك، فإن العبد إذا استحضر ربه فى مقام العبادة استحضارا كاملا، كان ذلك مدعاة لآخلاص العبادة، واستكمال كل ما يطلب فيها من سنن ونوافل، مع الخشوع والخضوع وعظيم الإقبال والإجلال. وإنك لترى المرء إذا كان يرى أباه أو رئيسه أو أحدا ممن يحله ولو كان مساويا له فى المنزلة، يجهتد فى أن لا يرتكب أمامه ما يكرهه، فيكف بهذا المقام بين يدى أحكم الحاكمين، مالك يوم الدين، مالك التواصى، واهب النعم، ذى الجلال والإكرام! وانظر إلى قول الشاعر:

يمثلك الشوق الشديد لناظرى فأطرق إجلالا كأنك حاضرى

فإذا ضعفت نفسه عن هذا الاستحضار وجب ألا يغفل عن أن الله يراه ، ويعلم سره ونجواه ؛ وهذا هو سر الحياء ومحل المراقبة في الحقيقة ، فإن إجلالك لمن تراه إنما هو لأنه يراك ، حتى لو كنت تراه وهو لا يراك ما كلفت نفسك معه ما كلفتها ؛ وهذا المعنى متحقق بالنسبة لعلام الغيوب مع الجوارح والقلوب ، فيجب أن يراعى ذلك لاجتناء ثمره . وإنك لتجد هذا المعنى حارساً قوياً على المكلف يصونه إذا راعاه عن الوقوع في المعصية ، فتي هم بها ورأى برهان ربه جلياً واضحاً ، وقام في نفسه مقتضى إيمانه مستحضراً ظاهراً ، ولا حظ أن ربه مطلع عليه يراد وإن لم يكن هو يراد ، فر من المعصية إما فرار الخائف الحذر ، أو فرار المستحي الخجل .

وهذا هو الذي حصل ليوسف عليه السلام ، فقد هم بها ، أي تحركت نفسه التحرك البشري الذي هو مقتضى الخلقة والطبيعة البشرية ، لا الهـم بمعنى العزم والإرادة الاختيارية ، فلما رأى برهان ربه ، وتمثل في نفسه مقتضى إيمانه به ، واستحضرت نفسه ما وقر فيها من عقيدة مستيقنة ، فر من بين يديها دينه (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

وتأمل إن شئت قوله جل شأنه بعد آيات : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فإنه رتب على توجه كيدهن إليه صبوته وميل نفسه ، وعقبه بأكن من الجاهلين ، لأن الميل إذا استحكم صرف النفس عن استحضار معلوماتها ، وطمس على القلوب أن تتفكر فيما قر فيها ، فيجبل ، بل يذهل المرء حتى ينفذ أمر الله .

وهذا مغزى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أي مستحضر معنى إيمانه الذي هو به جازم ، فكأن العقيدة المذهول عنها التحقت بالعدم ، إذ لم تثمر ثمرتها ، وهي منعه وصيائته من الوقوع في المعصية . وكذلك الإحسان

فى باب الطاعات - على ما سبق - مدعاة لجمال الخضوع والخشوع والإخلاص فيها، وصدق التوجه الى الحق جل جلاله، بل تقول فى المباحات: إن من استحضر مقام الإله كأنه يشاهده، أو عجز عن ذلك فراعى ما يحزم به وتنطوى عليه نفسه من رؤية الله إياه، حمله ذلك على مراعاة الآداب، وأن لا يستغرق فى لهو الدنيا ولعبها، بل تتجه نفسه الى حياة الجد والعمل.

واعتبر نفسك مع والدك وأنت صغير، أو مع من تجله وأنت كبير، فهل ترى من الأدب اللائق بك أن تشغل نفسك بلهو ولعب وحياة باطلة؟ فأنت ترى أن مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، مقام الحارس المقوم الناهض بالنفس الى درجات الرقى فى الفضيلة، والتدرج فى مدارج العبادة بل السعادة.

وإنى لأحسب هذا المقام هو المشار اليه بقوله عليه السلام فى أبى بكر: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح بها» فذلك هو قوة الاستحضار حتى كأنه يراه، أو ملاحظة أن ربه فى كل حين يراه. نسأل الله أن يحققنا بمقام الإحسان، وأن يعاملنا منه بالإحسان، إنه هو اللطيف الخبير! وموعد تمة الكلام على بقية الحديث العدد القادم، إن شاء الله. والله أعلم.

ابراهيم الجبالي

النُظْرُفُ وَالْمُلْحِ

لما قتل ذو الرياستين دخل المأمون على أمه فقال: لا تجزعى فإنى ابنك بعد
ابنك. فقالت: أفلا أبكى على ابن أ كسبنى ابناً مثلك!

الفتاوى والأحكام

النذر

ورد الى ادارة المجلة السؤال الآتى :

ما قولكم دام فضلكم في رجل نذر أن يدفع لأهل البيت رضى الله عنهم جزءا من ماله أصلا وربحاً، وجزءاً آخر للفقراء كذلك، ثم إن هذا الرجل يقيم في جهة تحتاج الى من يرشدها في دينها وليس لها قوة على إحضار عالم بأجر، فهل يجوز أن يدفع للعالم أجره من المنذور أم لا؟ وهل يصح النذر لأرباب القبور أم لا يصح؟

عبد السلام محمود ماضى
أوليش الحجر—دقهلية

الجواب

النذر قرينة أوجبها العبد على نفسه بالتزامه، فمن نذر نذراً غير معلق بشرط كأن يقول لله على صوم شهر، أو لله على أن أحج حجة، أو لله على صلاة ركعتين ونحو ذلك مما هو طاعة مقصودة، فعليه الوفاء بما نذره، لقوله تعالى: (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) ولقوله عليه الصلاة والسلام: « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ولا انعقاد الإجماع على وجوب الوفاء به. ومن نذر نذراً معلقاً بشرط فوجد الشرط فإنه ينظر الى الشرط الذى علق به النذر، فإن كان شرطاً يرغب فى حصوله كما لو قال: لو شفى الله مريضى فعلى صوم شهر، أو إن نجح ولدى فى امتحانه فعلى حجة، فوجد الشرط،

لزمه الوفاء ، ولا يجزئه إلا فعل عين المندور ، لأنه حيث أراد كونه كان راغباً في حصول المندور أيضاً ، فكان النذر في معنى المنجز ، فيندرج في حكمه وهو وجوب الإيفاء به .
وأما إذا كان النذر معلقاً بشرط لا يريده الناذر كما لو علقه على دخول دار لرجل لا يحبه أو تكليم خصم له فوجد الشرط ، فإن الناذر بعد حصول الشرط مخير بين الإيفاء بما سعى وبين أن يكفر كفارة يمين ، لأنه لما لم يرد حصول المعلق عليه ، علم أنه لا يرغب كون المندور ولا حصوله ، بدليل أنه جعله مانعاً من فعل الشرط ، لأنه لما علق النذر على ما لا يريد كونه ، أراد بالضرورة منع نفسه منه . ولا ينافي ذلك أن يكون المندور عبادة لأن الإنسان لا يريد إيجاب العبادات دائماً وإن كانت مجلبة للثواب ، مخافة أن يتقل الأمر عليه فيتعرض للعقاب .

ويشترط لصحة النذر ووجوب الوفاء بالمندور شروط — منها أن يكون المندور عبادة مقصودة لذاتها ، فلا ينعقد النذر بالمعصية ، فن نذر قتل زيد أو سرقة ماله أو غصب داره وما إلى ذلك من المعاصي التي هي حرام لعينها أو ليس فيها جهة قربة ، لم ينعقد نذره ولم يصح ، ولكن تلزمه كفارة يمين بالحنث . وأما إذا نذر ما فيه قربة ولكنه اقترن بمعصية فإن نذره يصح ويلزمه الوفاء بالقربة على غير الوجه الذي تقترن فيه بالمعصية ، فن نذر صوم يوم النحر يصح نذره ويجب عليه الوفاء بصوم يوم غير يوم النحر ، لأن لزوم الوفاء بالنذر معناه لزوم الوفاء بأصل القربة لا بكل وصف التزمه ، فصح التزام الصوم من حيث هو صوم مع إلغاء كونه في يوم العيد . وعلى هذا يتفرع أن من نذر أن يتصدق بهذا الدرهم فتصدق بغيره عن نذره ، أو نذر التصدق في هذا اليوم فتصدق في غد ، أو نذر أن يتصدق على هذا الفقير فتصدق على غيره ، أجزاءه عن نذره ، وكان بهذا خارجاً عن عهدة النذر الذي التزمه ، ولا يقال إنه أتى بغير ما نذره ، لأن لزوم ما التزمه إنما كان باعتبار ما هو قربة لا باعتبار آخر ، وقد أتى بالقربة الملتزمة . ومثل ذلك ما إذا نذر صلاة ركعتين في المسجد الحرام فصلاهما في غيره ولو أقل درجة منه لما علمته من أن الغرض هو القربة .

ومنها أن يكون للمندوراً صل في الفروض كالصوم والصلاة والصدقة ، فلا يلزم الوفاء بعبادة نذرت وليس من جنسها فرض ، فمن نذر على نفسه عبادة مريض أو تشييع جنازة أو دخول مسجد أو بناء قنطرة أو بناء رباط وسقاية ونحو ذلك ، لا يلزمه الوفاء لأن هذه الأمور ليست بعبادة من جنسها فرض .

ومنها ألا يكون المندور واجباً عليه قبل النذر ، فلو نذر حجة الاسلام أو صلاة ظهر ذلك اليوم أو صلاة ظهر غد لم يلزمه غيرها (أى غير المكتوبة) .
ومنها ألا يكون ما التزمه أكثر مما يملكه ، فلو نذر التصديق بألف وهو لا يملك إلا مائة ، لزمه المائة فقط .

وإذ قد علمت أن المندور يجب الوفاء به متى كان مستوفياً الشروط التي قدمناها فاعلم أن من لم يقيم بما أوجبه والتزمه فعله الإثم ، فمن نذر أن يتصدق بشيء يملكه ولم يفعل ، إثم . وقد علمت مما تقدم أن الغرض من النذر القربة ، وأن النذر لا يتقيد بزمان ولا بمكان ، فمن نذر أن يتصدق على فقراء أهل المدينة جاز أن يتصدق على فقراء الكوفة ؛ ومن نذر أن يتصدق في مسجد السيد البدوي بشيء معين من ماله جاز أن يتصدق بذلك المال في مسجد الامام الحسين أو في بيته ، لأن الغرض القربة ؛ ومن نذر أن يتصدق بماله على المساكين ولا مال له لم يصح نذره ، فلا يلزمه شيء ؛ ومن نذر أن يتصدق بجزء من ماله وكان المال موجوداً فأخر الوفاء الى أن أعسر بعد اليسار ، إثم ، وإن كان نذره معلقاً وجاء الوقت ولم يكن بيده شيء ، لم يأتهم ؛ ومن نذر أن يذبح هذا الجمل ويتصدق بلحمه على الفقراء صح نذره ، ولكن لا يلزم خصوص هذا الجمل فلو ذبح غيره من الجمل أو ذبح بدله سبع شياء جاز ؛ ومن نذر أن يتصدق بخبز مقرر جاز أن يتصدق بدله بثمنه ؛ ومن نذر صوم شهر معين كرجب مثلاً لزمه متتابعاً ، لكن إن أفطر فيه يوماً قضاؤه وحده ولا يستقبل الصوم ، ومن نذر صوم شهر دون تعيين

كان بالخيار عند الوفاء بين أن يتابع الصوم وبين أن يفرقه — إلا إذا شرط المتتابع في الصوم فيلزمه ؛ ومن نذر أن يحج سنة ٣٥٣ فحج سنة ٣٥٢ صح ، لأنه تعجيل بعد وجوب السبب وهو النذر ، فيلغو التعيين .

إذا تقرر هذا فلنرجع الى سؤال السائل فنقول : إن كان الغرض من جعل بعض المال لآكل البيت رضوان الله عليهم التصديق على الفقراء الذين يوجدون في المساجد المنسوبة لآكل البيت كما هو الظاهر من صنيع الناس ، صح النذر ولزمه الوفاء ، ولكن لا يلزمه أن يتصدق على خصوص هؤلاء الفقراء ، ولا في خصوص المكان الذي ذكره في نذره ، لأن الغرض القربة الى الله وسد خلة المحتاج ، وذلك يتحقق بإعطاء أى فقير كان ، وإن كان الغرض للناذر تمليك المنذور لآكل البيت (وهو غير ظاهر ولا مقصود للناس) فهذا النذر على فرض إرادته يقع غير صحيح ، لأن آكل البيت رضى الله تعالى عنهم قد فارقوا هذه الدنيا ، فليسوا الآن بالذين يقبلون التمليك ولا بالذين يملكون ، فلا يصح النذر لهم إلا على الوجه الذى بيننا قبل من حمل عبارة الناذرين على عرفهم وما يقصدونه ، وهو أن الغرض التصديق بالمنذور على الفقراء الذين يكونون في مساجد آل البيت ، وقد علمت صحته وما يجوز فيه ، وأنه لا يتقيد بزمان ولا بمكان .

ويبعد أن يكون الغرض الذى يسأل عنه السائل هو النذر لآكل البيت من الأحياء ، لأن هذا لا خفاء فيه ، وعلى فرض إرادته فإن الحكم فيه هو أن من نذر التصديق على فئة من آكل البيت الأحياء فلا يخلو : إما أن يكونوا فقراء أو أغنياء ، فإن كانوا فقراء صح النذر ولزم الوفاء به ، وإن كانوا أغنياء لم يصح إلا إذا كانوا من أبناء السبيل لعدم القربة .

وإذا قد تبين أن النذر يجب الوفاء به متى استوفى شروطه ، اتضح أن المنذور للفقراء لا يصح صرفه أجرا للتعليم . أما النذر لأرباب القبور بأعيانهم فقير صحيح ، لأنهم ليسوا أهلا للملك والتملك ، أما من نذر أن يتصدق بجزء من ماله على الفقراء ليكون ثواب ذلك لأبيه المتوفى أو لغيره ، فذلك جائز . والله أعلم . طه ميب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

الصلاة في الطيارة

وورد من حضرة محمود محمود التاجر بالمغربلين السؤال الآتي :

ما حكم الشريعة السمجة في الصلاة في الطيارة ؟

الجواب

إن كانت الطيارة مستقرة على الأرض جازت الصلاة فيها وإن أمكنه الخروج منها ، لأنها إذا استقرت كان حكمها حكم الأرض ، ولا تجوز الصلاة فيها حينئذ إلا من قيام برکوع وسجود متوجها الى القبلة ، لأنه قادر على تحصيل الأركان والشرائط ، أما إن كانت طائرة فإن أمكنه وقف السير والنزول بها الى الأرض من غير ضرر ، يستحب له النزول ، لأن فيه أمنا من دوران الرأس حين الصلاة في الطائرة ، وهذا قد يحوجه الى القعود .

وإذا صلى بها برکوع وسجود قائما متوجها الى القبلة أجزأه ، وإذا دارت وهو يصلي يتوجه الى القبلة حيث دارت ، لأنه متى كان قادرا على تحصيل الشرط وجب عليه تحصيله ، وأما إن عجز عن القيام بأن علم أنه يسبب له دورانا في الرأس أو مرضا آخر وكان عاجزا عن النزول بالطائرة الى الأرض صلى فيها قاعدا برکوع وسجود ، لأن ركن القيام يسقط بعذر العجز ، وإن لم يقدر على الصلاة قاعدا برکوع وسجود وكان لا يمكنه النزول بالطائرة الى الأرض ، صلى متوجها نحو القبلة يوميء بالركوع وبالسجود ، ويجعل إيماء السجود أخفض من إيماء الركوع .

هذا ما يمكن تخرجه على قواعد أئمتنا ويؤخذ من نصوصهم في الصلاة على الدابة

وفي السفينة . والله أعلم

طه عييب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

المسيح الدجال - والمهدى

وورد السؤال من حضرة عبد الله سليم بدوى بأبى صوير شرقية عن :
المسيح الدجال ، ومجيئه آخر الزمان ، ودرجة الأحاديث الواردة فى ذلك ، مع ذكر
تخريج تلك الأحاديث .

الجواب

اعلم أن من لطف الله تعالى ورحمته لعباده بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام
ليبينوا للناس ما لا تستقل به عقولهم ، وليعضدوا العقل فيما يستقل بعرفته ، مثل
وجود البارى وعلمه وقدرته ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليؤمنوهم
ويزيلوا خوفهم عند الإتيان بالحسنات وعند تركها ، وليبينوا لهم حال الأفعال التى
تحسن تارة وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل الى مواقعها ، وليعاموهم الأخلاق الفاضلة
التي ترجع الى الأشخاص ، والسياسات الكاملة التي تعود على الجماعات ، وليرشدوهم
الى ثواب المطيع وعقاب العاصي ، ليرغبوا فى الحسنات ويحذروا السيئات .

وصفة القول أن النظام الذى به صلاح حال النوع فى معاشه ومعاذه لا يكمل
إلا ببعثة الأنبياء . لهذه الحكم جميعها كان من لطف الله تعالى لإرسال الرسل ، وقد
أرسل الله سبحانه وتعالى جل شأنه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعله خاتم
المرسلين ، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان ، وأكمل برسالاته الدين . قال
تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا) . ولما كانت النفوس مجبولة على التعلق بالشهوات ، راغبة عن

التكاليف، ميالة الى اتباع الهوى، لم يخل الله سبحانه وتعالى الأرض من دعاة الى الحق يرشدون الناس الى أحكام دينه والى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة، ويرغبونهم فى الطيبات، ويدينون لهم ما يغيب عنهم من أوامر ونواه، رحمة منه سبحانه وتعالى بعباده، غير أنه يعرض على الناس ما يلهيهم عن الطاعة وعن التمسك بالدين، فتسوء حالهم ويتفشى فيهم الجهل، فيبتعدون عن الصراط السوى، وتكثر الفتن، ويسود أهل البدع ودعاة الضلالة، ويصبح الإسلام وقد بلغ أهله من الضعف ما لم يستطع البليغ وصفه، ولقد يكثر هذا كثرة زائدة حين يأذن الله سبحانه وتعالى بقرب زوال الدنيا.

ولقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن لقرب الزوال أمارات هى أشراط الساعة التى يبينها صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الأمارات التى تكون عند ما تبدأ ساعة الزوال دقائقها ظهور رجل يدعى الألوهية يسمى المسيح الدجال يختبر الله به عباده، وقد أقدره الله على أشياء من مقدوراته من خوارق العادات، فيقع ذلك المقدور بقدره الله ومشيئته، وقد جعل الله صورته على وصف لا يدع مجالاً للشك فى كذب ما يدعيه من الألوهية، فهو مكذب لدعواه بصورة حاله، ودلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة ذلك النقص الذى فى عينيه، وعن إزالة شاهد الكفر المكتوب بينهما، فيستمر فى دعواه الناس، فيغتر به الرعاع لشدة حاجتهم وفاقهم، وتقية من خوفه وأذاه. وفتنة هذا المفتون عظيمة تدهش العقول؛ ولهذا حذر الأنبياء صلوات الله عليهم من فتنته، ونهبوا على نقصه، ودلالة إبطاله؛ ولهذا التنبيه أثره فى أهل التوفيق، فلا يغترون به لعلمهم بحاله؛ ولهذا روى أنه يقتل شخصاً ثم يحييه، وأن ذلك الشخص بعد الإحياء يقول له: «ما زدت فيك إلا بصيرة» ويبقى الدجال داعياً الى ما يدعو اليه مدة من الزمان يختلف فيها العلماء، الى أن يعجزه الله سبحانه وتعالى فلا يقدر على أمر خارق للعادة، ويبطل أمره، ويقتله المسيح عليه الصلاة والسلام.

هذا هو القدر الذى عليه أهل السنة، أما الأحاديث الواردة في شأنه فكثيرة، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال له لمسة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجلاها فهي تقطر ماء، متكئا على رجلين يطوف بالبيت، فسألت من هذا فقيل لى: المسيح ابن مريم، ثم اذا أنا برجل جعد قشط أعور العين البنى كأنها عنبة طافية، فسألت من هذا فقيل لى: المسيح الدجال». وروى البخارى واللفظه ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بعث نبي إلا أنذر أمتة الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر». وروى البخارى واللفظه ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له في نقابها ثقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق».

وروى أيضا بسنده عن أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يحيى الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج اليه كل كافر ومنافق» وروى أيضا عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان» وروى أيضا عن سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: «إني لا أنذركوه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، وليكنى سأقول لكم قولاً لم يقله نبي لقومه: إنه أعور، وإن الله ليس بأعور» وقد روى البخارى جملة أحاديث أخر يمكن الرجوع اليها في باب ذكر الدجال من كتاب الفتن. وروى مسلم عدة أحاديث يمكن الرجوع اليها في باب ذكر

الدجال من كتاب الفتن أو أشراف الساعة، وروى غيرهما. وكل ما روى يدل على أن الدجال شخص على الوصف الذى قدمناه.

وصفوة القول فيه أنه فتنة أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم أمرها، وحذر المسلمين منه، ووصفه بأوصاف لا تجعل للمسلم شبهة فى كذبه وتضليله، ولا يعزب عن بالك أن هذا الدجال إنما يكون فى آخر الزمان، وأن ظهوره من أشراف الساعة. ولما كان من أشراف الساعة المهدى المنتظر أيضا، فقد رأينا بمناسبة الكلام عن المسيح الدجال أن نذكر كلمة عن المهدى المنتظر، لتكون بينة للناس على كذب من يدعى فى هذا الوقت أنه المهدى المنتظر:

سبق أن بينا فى صدر هذه الكلمة أن الله سبحانه وتعالى اكامل رحمته للناس لا يدعهم دون إرشاد الى ما فيه خيرهم فى معاشهم ومعادهم؛ لهذا ورد أنه حين تكثر الفتن ويكثر دعاة الضلالة فى آخر الزمان يظهر رجل من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم يحى ميت الآمال، ويدعو الى الشرع واتباع هدى المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيرجع الناس بفضل رعايته وبركة رسوله صلى الله عليه وسلم الى اتباع أحكام الله وسنة رسوله فى جميع أحوالهم، فقد روى الترمذى وأبو داود عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى» وفى رواية لابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا» وروى أبو داود عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المهدى من عترتى من أولاد فاطمة» وعنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يكون خلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة

هارباً الى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيباليعونه بين الركن والمقام ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فاذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيباليعونه ، ثم ينشأ رجل من قریش أخواله كلب فيبعث اليهم بعثاً فيظهرون عليهم ، وذلك بعث كلب ، والخبية لمن لم يشهد غنيمة كلب ، فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبهم ويلقى الاسلام بجرانه في الأرض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » رواه أبو داود وأحمد وأبو يعلى . قال ابن خلدون : سنده متين على شرط الشيخين لا معمر فيه ولا مطعن .

وروى ابن ماجه من طريق ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه وتغير لونه فقلت يا رسول الله : ما نزال نرى في وجهك شيئاً تكرهه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون من بعدى بلاء وتشديداً وتطريداً حتى يأتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فيفرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من أهل بيتي فيملئوها قسطاً كما ملئوها جوراً ، فن أدرك ذلك منكم أو من أعقابكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج » وعن حذيفة بن اليمان : « ياتمت المهدى وقد نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام كأنهما يقطر من شعره الماء فيقول : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلى خلف رجل من ولدى » وعن علي رضي الله تعالى عنه في إحدى خطبه قال : « إن لله تبارك وتعالى خليفة يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض ظلاماً وجوراً فيملئوها قسطاً وعدلاً ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوله الله حتى يلى هذا الخليفة من ولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها » الى إن قال : « وسيميت الله به كل بدعة ويحيي به كل سنة » الى آخر ما قاله كرم الله وجهه . وقد أكثر الشيعة الكلام في أمر المهدى

وردوا كثيرا وتأولوا بعض آيات الكتاب العزيز بما يجعلها مشيرة الى ظهور المهدي مما لا نقول به ، ولا محل لذكره في هذه العجالة .

وتعرض لهذا أيضا بعض المتصوفة وأشار أكثرهم الى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق من ولد فاطمة رضى الله عنها . والقدر المشترك فيما قدمنا من أحاديث يكاد يكون مجمعا على أن من أمارات الساعة ظهور مجدد لأحكام الدين من سلالته الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا وإن من دواعي الأسف أن تكون مسألة المهدي المنتظر مدعاة لفتن كثيرة قام بها أهل الفتن والأهواء : كل يدعى أنه المهدي المنتظر ، ونسوا جميعا أن ظهور المجدد الحكيم إنما هو في آخر الزمان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل له من الأمارات ما لا ينطبق على واحد من دعاة المهدي الآن وقبل الآن ، فقد علمت من الحديث الذي قاله ابن خلدون إن سنده متين على شرط الشيخين ، أنه قد صرح فيه بعلامات قاطعة للاشتباه في أمر المهدي المنتظر — منها أنه يخرج من المدينة هاربا الى مكة ، ومنها أنه يبايعه أهل الحل والعقد ، وأن تكون المبايعة بين الركن والمقام ، ومنها أن ذلك يكون بعد موت خليفة الوقت والتنازع في إقامة خليفة غيره ، وأن يكون كارها في بيعته لا راغبا فيها ، فضلا عن أن يدعو الناس اليها الى آخره ؛ وهذه الأمارات — وأهمها أن ذلك إنما يكون عند قرب زوال الدنيا — لا تجعل إلا انسان يشك في كذب من ادعى المهدوية قبل ، ومن يدعيها الآن .

هذا ما أحببنا أن نذكره تنميya للبحث . والله الموفق

طه هبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

من هم المخاطبون

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

وورد أيضا من حضرة عبد الحفيظ ابراهيم اللاذقي ببيروت السؤال الآتي :
هل المطالبون بانكار المنكر هم العلماء فقط دون غيرهم ، أم جميع الناس ؟

الجواب

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية لا فرض عين : اذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، والواجب على الكفاية واجب على الجميع ، ويسقط بفعل البعض ، فيأثم الكل بتركه . ومن هذا يعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطالب به جميع الناس ، لا فرق في ذلك بين عالم وغير عالم متى كان غير العالم يعلم المنكر حتى يصح له أن ينهي عنه ، ويعلم المعروف حتى يصح له أن يدعو اليه . والآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة ، منها قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلْتَكُنْ أُمَّةٌ » وظاهر الأمر بالإيجاب ، وقد جعل الله الفلاح منوطا به حيث قال : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وفي الآية أيضا بيان أن ذلك فرض كفاية ، إذ لم يقل : كونوا كلكم أمرين بالمعروف ، بل قال : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » . وقال تعالى : (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) وقال تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ) وقال تعالى: (لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وقال عز وجل: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) والأخبار الدالة على ذلك لا تكاد تحصى. وقد انعقد الإجماع على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الجميع وجوباً كفاً إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

وبما أن علماء الدين أعرف من غيرهم بالمحظورات والمنهيات، فواجب عليهم المبادرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل غيرهم على الوجه الذي أبانه الشرع. ولو أن المسلمين في سائر الأقطار وخصوصاً العلماء منهم قاموا بواجبهم نحو الدين، وتركوا التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما تفشت البدع والمنكرات، ولوقف كل عند الحد الذي حده الشارع. وفق الله المسلمين إلى التمسك بأهداب الدين.

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

تكذيب مزاعم

في مجلة المنار

ظهر كتاب منسوب إلى طالب بالأزهر من النجديين وفيه إقذاع وسباب موجه إلى أستاذ من هيئة كبار العلماء، فكلفت المشيخة الجليلة أحد الأساتذة بأن يجري تحقيقاً مع الطالب من جهة ما تضمنه الكتاب من الطعن والشتيم، فقدم الأستاذ نتيجة تحقيقه إلى مجلس إدارة الأزهر، فقرر المجلس في جاسته المنعقدة في ١٣ مارس سنة ١٩٣٢ فصل الطالب من الانتساب إلى الأزهر.

هذا ما وقع، وما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا في مناره من أن فضيلة الأستاذ الأكبر خاطب دولة رئيس الوزراء في مصادرة الكتاب، وأن المشيخة حملت الطالب على أن يبيع لها الكتاب، ووعدته بأن تعطيه شهادة العالمية، كل هذا الذي ذكره الشيخ رشيد مزاعم غير صحيحة، ولا منشأ لها إلا التخييل المحض.

تطعيم الأشجار^(١)

إن تطعيم الأشجار عمالة شائعة بين المشتغلين بالزراعة وفلاحة البساتين ، فإذا كنا نعجب بالنتائج التي توصلنا إليها من تحسين أنواع الزهور وزراعة الفواكه وإكثارها إلا أننا نجهل بصفة عامة ما تتضمنه عملية التطعيم من الوجهة العلمية ، ولا نعرف كيف أن الشجر البري المطعم يمكن بواسطة نمو الطعم أن يصبح شجرا يذمنا يخرج أزهارا جميلة وفاكهة شهية . وقد شاهدنا أن كروم فرنسا قد سلمت من مرض الفيالوكيزيرا التي كانت تنخر جزورها ، وذلك بفضل تلك الكروم من الكروم الأمر بكمية التي لا تغتالها حشرة الفيالوكيزيرا الفتاكة ، ولذلك نرى من المناسب أن ندلى هنا بأحدث النظريات التي أدت إلى الوصول إلى طريقة علمية لعملية للتطعيم ، والتي تلعب دورا تزداد أهميته كل يوم في الاقتصاد الزراعي .

قلما يوجد من الناس من يتأثر بيهاء وروثق الورد الجميل الذي أمكن الوصول إلى إنتاجه الآن ، أو من لا يشعر بإعجاب ممزوج برغبة شديدة أمام الفواكه الشهية التي ينتجها المشتغلون بزراعة الأشجار ، فإلى تلك المشاغل الفنية ، وإلى عمليات التزاوج التي أجريت بحذق ومهارة بين الأشجار وبعضها ، يرجع الفضل في ظهور كل تلك الثمار الجيدة والزهو الجميلة ، فالتطعيم يلعب إذاً دورا مهما في الاقتصاد الزراعي ، إذ أنه يتيح لنا الإكثار من أنواع مختلفة من الثمار والأزهار ، ومن تحسين نوعها ، ويساعد على تولد الأشجار المطعمة بواسطة شتلها . ولكن ما هي تلك الظاهرة العجيبة ؟ أن

(١) مترجم عن الفرنسية من مجلة « العلم والحياة » .

يؤخذ جزء صغير من فرع من نبات معين ، ويطعم به نبات معين آخر ، فيغير هذا الأخير تغييرا تاما . وكيف أن هذه العملية البسيطة يمكن أن تجعل من النبات البري الذي لا فائدة فيه نباتا يثمر ثمارا يانعة وعجيبة من حيث الحجم والدقة ، أو تحول شجرة النسرين (ورد الغابات) الى شجرة ورد البساتين ؛ وهل هو خشب الشجرة أم قشرها الذي يلتحم مع الجزء المطعم به ؟ أو هل النباتان : الطعم والمطعم يتحدان مع بعضهما اتحادا عضويا ، أم على العكس يحفظ كل منهما خصائصه الفردية ؟ وما هي أنواع الطعم التي يمكن إجراء تطعيمها حتى تتحد وتنمو نموا صالحا بين أجناس النباتات المختلفة ؟ وما هي التي لا تنجح عمليات التطعيم بينها ؟

كثيرا ما طرح هذه الأسئلة أمامنا ، ولكن لا نجد الجواب الشافي عليها إلا عند ما نفحص الأشجار عن كثب ، ونباشر أعمال المشتغل بعملية التطعيم ، ونكسب على النظر إليها من خلال المجهر .

وما هو التطعيم ؟ — هي تلك العملية التي ينشأ عنها التحام جزء من نبات بنبات آخر ، فيقال لهذا : حامل الطعم وموضع ارتكازه ، ويورد له المواد الضرورية لانماؤه وازدهاره وإخراج شطئه . ولو أن الطعم ليس في واقع الأمر وسيلة للإكثار ، لأنه لا يضاعف عدد الأفراد في نوعها ، إلا أنه من الوجهة العملية يمكن اعتباره وسيلة للإكثار ، إذ بواسطته نستطيع تحويل النباتات البرية التي لا فائدة فيها الى نباتات مثمرة أو مزهرة ، فالأولى تدعى « النباتات الطمعة » وأجزاء النباتات التي أطعم بها تسمى « بالطعم » .

والتطعيم لا يمكن في الغالب إجراؤه إلا مع قصيلة النباتات ذات الفلقتين ، أما ذوات الفلقة الواحدة (مثل الفصيلة الزنبقية والبصلية والتخيلية) فلا يمكن تطعيمها لتجردها من قاعدة يرتكز عليها الطعم لتغذيته وتسبب التحام الطعم بالمطعم ، كما يحصل

في الفصيلة الأولى . وهذه القاعدة الموصلة للغذاء ، والتي لها أهمية كبرى في التطعيم ، تقع بين اللحاء (الخشب الرقيق) وبين الطبقة السكتائية (القشرة الحية) وفي الجزء الداخلي من القشرة ، ومن توالد الخلايا الجديدة المستمر يحصل انتفاخ الساق من جهة وتبدل القشرة الحية من جهة أخرى ، فيتكون الخشب الجديد حول القاعدة ، والجزء الحديث من اللحاء يتكون في الداخل . وإن وجود هذه القاعدة هو الشرط الأولى لنجاح عملية التطعيم ، إذ من المحتم اجتماع الطعم مع قاعدات الأشجار المطعمة في نقطة على الأقل ، ولا بد من أن يشتمل الطعم على عين أو عدة عيون صالحة للنمو لإخراج فرع أو عدة فروع ، وإلا فإن الطعم لا يفلح ولا ينتج أية فائدة عملية حتى ولو حصل الالتحام .

هذا وزمن التطعيم : فيمكن إجراؤه طول العام ، إلا أن أكثر عمليات التطعيم تجرى في وقت خروج المصاراة النباتية وحول أواخر الصيف ، وفي هذه الحالة الأخيرة يحصل الالتحام قبل حلول فصل الشتاء ، لكن العيون لا تنمو إلا في السنة التالية .

كيف يحدث الالتحام ؟ — إن تقابل القواعد بالطعم يحدث الالتحام كما رأينا ، إلا أنه قبل أن تنتج تلك القواعد أنسجة موصلة جديدة على امتداد أنسجة الطعم والمطعم يتصل هذان القسمان ببعضهما اتصالا وقتيا ، إما بواسطة الالتحام المباشر ، وإما بتكوين أنسجة حديثة محلية ، وهي التي لم تتميز بعد ، أو بعبارة أخرى لم تكون لها شكلا خاصا بها ، وهذا الاتصال الوقتي يحدث في حالات كثيرة جدا ، حتى الحالة التي لا يلتحم فيها الطعم بصفة نهائية ، ومن ذلك تدرك أن بعض الطعم (طعم الأرم على الأخص) يبقى مخضرا ، ورغمما عن ذلك فإنه لا يلتحم بصفة دائمة .

هذا وبالاتحاد النهائي النائي من تكون أنسجة موصلة جديدة (من خشب وقشر) تبتدى حقيقة حياة الطعم على القاعدة المنذية له من الشجرة المطعمة ، لكن

وقوف النمو النسبي (كما سيأتى الكلام عنه فيما يلى) يستمر بين الطعم والمطعم بسبب بطء فى سريان العصارة النباتية ، ولا سيما العصارة الناضجة الاكثر تغذية والأقل ميوعة من العصارة العادية ، ومن ذلك يحدث انسداد الأنسجة بطبيعة الحال ، ويحصل انتفاخ بمحازاة الطعم . (يتبع)

مسألة ترجمة القرآن

لصاحب الفضيلة ضيف مصر السكريم الشيخ مصطفى صبرى افندى شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقا بحوث قيمة نافعة ، وآراء سديدة حكيمة . وقد وقف فضيلته على ما كتب فى مسألة ترجمة القرآن وما دار فيها من نقاش ، فأبى عليه فضله إلا أن ينفع الناس بعلمه ، ويقف جمهور المسامين على رأيه ، فوضع فى ذلك كتابا قويا سماه « مسألة ترجمة القرآن » ناقش فيه مناقشة علمية إقناعية كل القائلين بجواز الترجمة ، وخص بالنظر ما ذهب إليه بعض العلماء المعاصرين ، وبعض فقهاء الحنفية السالفين فى ذلك ، معتمدا على متانة الحجة العقلية والعقلية وصرح البرهان وصحة النقل . وقد عني بالتحرير الدقيق لما استندوا إليه من نصوص مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

وقد عرض فضيلته لما تشيع به بعض الكاتيبين المغالين فى نصرة التجديد ، ففقد مزاعمهم بالبيان الجلى المقنع .

والكتاب مصوغ فى بيان عذب وأسلوب علمى متين . طبع بالمطبعة السلفية طبعا متقنا فى ورق جيد . فذكر فضيلة الأستاذ على غيرته الدينية ، ونرجو أن ينتفع المسامون بسديد رأيه .

الذهب فى منشوريا^(١)

توجد أراضى واسعة فى شمال الأمبراطورية الصينية لا زالت مجهولة للمستعمرين ، خصوصا ما يقع منها فى وادى نهر « الأ مور » الذى يكوّن الحدود الطبيعية بين منشوريا وسيبيريا ، فانه يندر وجود السكان بها . وقد اتجهت الى ذلك الاقليم أنظار العالم منذ وجد بعض الباحثين عن الذهب من بلاد سيبيريا المتاخمة مناجم غنية من هذا المعدن النفيس .

تألفت بعد ذلك شركة روسية صغيرة لاستغلال ثروة الأرض الدفينة فى هذا الاقليم ، وتحصلت على نتائج باهرة بالرغم من عدم استعدادها بالمعدات العامة والفنية الكافية . ولما بلغ خبر هذه الثروة بعض المخاطرين استوطنوا هذه الجهة طمعا فى الرزق الواسع ، واتفقوا أثناء قيام الثورات التى عقببت الحرب الأوربية الكبرى مع جماعة من المنفيين والعساكر الفارين ونفر من المتجولين فى الغابات على تأسيس جمهورية خاصة بهم للبحث عن الذهب ، وأعلنوا استقلال هذا الاقليم ، وأبعدوا كل من حاول الإقامة به من الأجانب الدخلاء ، ولم تتمكن الحكومة الصينية من التغلب عليهم وطردهم إلا بجهود كبير ، ومنعت بعد ذلك مهاجرة الباحثين عن الذهب ، وهكذا خيم الغموض على هذه الثروة الكبيرة فى الصحارى المقفرة .

وفى عام ١٩٢٧ سمحت الحكومة الصينية لبعثة ألمانية لأول مرة أن تجرى بعض الأبحاث العامة فى هذه المنطقة ، وقد تمكنت هذه البعثة من الحصول على معلومات

(١) نقلا عن مقال للدكتور « هانس ماير » فى مجلة « Kosmos » الألمانية .

قيمة عن مناجم الذهب الخفية فى هذا الاقليم غير المعمور . ويمتد الى مسافات واسعة لا تقل مساحتها عن ٢٠٠ ألف كيلومتر . ولا توجد بهذه الناحية بقاع مسكونة باستمرار لا تقطاعها عن مرافئ المعيشة وبعدها عن سبل العمران — اللهم إلا بعض محطات صغيرة تقع على طريق البريد العام، وكانت معدة لراحة واستبدال الخيل فى العربات، وتبعد المحطة عن الأخرى بمسافات بين ٢٠ و٣٠ كيلو متر ، ولا يتعرف الا انسان الآن على هذا الطريق فى أجزاء كثيرة منه إلا بواسطة أعمدة أسلاك المسرات والبرق الممتدة على جانبيه .

وتتد على جانبي هذا الطريق صحروات واسعة يجوبها من حين لآخر بعض الوطنيين الصيادين ، وأما الطرف الشمالى فهو عبارة عن هضبة يباغ ارتفاعها نحو الألف متر ينمو بها كثير من السكلا وبعض شجر الأرو والقان ، وفى منخفضاتها تكثر المستنقعات والأوحال .

ويوجد الذهب تقريبا فى أحواض جميع النهرات والمجارى التى تتبع من هذه المنطقة الجبلية وتصب فى نهري « أمور » و « روني » ، وهو فى الغالب على شكل قطع صغيرة قد تصل الى حجم ذرات الرمال . وقد تحققت البعثة الألمانية أثناء تجوالها فى تلك الأصقاع من وجود كميات وافرة من التبر وقطع أكبر من هذا المعدن النفيس .

وفى الوقت الحاضر لا تسمح الحكومة الصينية باستغلال واسع النطاق لمعظم هذه المناجم ، وذلك لعدم تنظيم أسباب الاستغلال تنظيما يتفق ومصاحبة البلاد الاقتصادية ولعدم استتباب الأمن فى هذه الناحية بعد مما يهدد ثروة هذا الاقليم بأخطار مستمرة ، وعلى الأخص حرمت كل الجاليات الأجنبية من منح امتياز البحث والاستغلال فى هذه المنطقة أو على الأقل لا تمنح امتياز إلا بشرط سيادة أغلبية صينية بحثة . وتعمل الآن ثلاث شركات كبيرة تستخدم حوالى بضع آلاف العمال على

استخلاص الذهب فى هذه المنطقة . هذا اذا استثنينا المجهودات البسيطة التى تقوم بها بعض الشركات الصغيرة الأخرى ، وكذلك ما يستخلصه بعض الأفراد المتجولين بآلاتهم وطرقهم الأولية . وقد تكون حرفة البحث عن الذهب فى هذه المنطقة من أشق الحرف التى يقوم بها الأفراد ، فان حياتهم المتعبة مهددة من حين لآخر بالجوع والعطش المرير ، وبزهرير البرد ليلاً أو الوقوع فريسة الوحوش الضارية التى تجوب هذه الأصقاع مثل الدببة والثآليل بل والنمور فى الجهات الشرقية ، فاذا فاز أحدهم بعد شق النفس بالقليل من تهر الذهب وقفل سالماً الى البلاد المعمورة ، فانه لا يسلم فى طريقه اليها من اللصوص وقاطعى الطريق الذين يقفون لأمثالهم بالمرصاد ، وكثيراً ما صادفت قافلة البعثة الألمانية فى أثناء أبحاثها فى النواحي المختلفة من أعياء التعب ونهكة الجوع والعطش وأشرف على الهلاك من هؤلاء الصيادين قبل أن يحصل على ما يكافئ مجهوده الذى قضى فيه شطراً كبيراً من حياته بعيداً محروماً .

وكثيراً ما يتفق بعض هؤلاء الباحثين عن الذهب على العمل بالاشتراك ويستخلصون بطريقة عملية سهلة لا تحتاج الى مجهود أو عناية كبيرة قدرا لا يستهان به من حبات الذهب ، وتتأخص عملياتهم فى تحويل المياه من مجاريها الطبيعية الى الشقوق التى بها الذرات الذهبية فتجترقها ، ثم تحجز فى أحواض فتطفو الرمال الخفيفة على سطح الماء ويسقط الذهب فى القاع حيث يستقر بداخله ، وبذا يسهل تنقيته من الرواسب الثقيلة الأخرى ، وبديهى أن هذه العملية تسبب ضياع جزء كبير من ذرات الذهب الدقيقة التى تجرى مع الماء المتدفق ، إلا أنها على سهولتها وقلة ما تتطلبه من مصاريف ومجهود أنجح الطرق التى يمكن للأفراد الذين تنقصهم أسباب الاستغلال الفنية أن يتبعوها .

ويمكن التنبؤ اليوم بأنه لو استعملت الطرق الفنية والآلات الحديثة للبحث واستخلاص الذهب فى المستقبل فإن شمال منشوريا يصبح فى زمن قريب من الأهمية

بمكان عظيم ، ويمكنها مزاجحة مناجم سيبيريا . وكذلك في الطرف الجنوبي من منشوريا عند حدود شبه جزيرة كوريا فإنه يغلب وجود الذهب على أشكال أخرى مغايرة داخل أحجار مختلفة ، وقد منحت شركة أمير يكية منذ عامين امتياز بحث واستخلاص الذهب منها . ولا توجد الآن احصاءات دقيقة عن كمية أو قيمة الذهب الذي يستخرج من منشوريا ، ولكن بعضهم يقدره بعشر ما يكتسب من سيبيريا .

منهج اليقين

في بيان أن الوقف الأهل من الدين

تأليف صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي
وكيل الجامع الأزهر ومدير المعاهد الدينية سابقا .

وهو بحث واف في بيان منزلة الوقف الأهل من الدين الاسلامي ، رد به فضيلته في فصول محكمة على من زعموا أنه نظام مدني لا أصل له في الدين ، بأدلة ناهضة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفعل الصحابة . وقد أفاض في هذه الفصول أيما إفاضة . فكان بذلك من أوفى ما كتب في موضوعه .

وقد ختمه فضيلته برسالة ضافية في ترجمة القرآن نقض فيها أقوال المنحرفين ، واستشهد بأمثلة عديدة من تراجم مختلفة خلص منها الى عدم إمكان الترجمة . والكتاب مطبوع طبعاً متقناً . فنحث أهل العلم على الاستفادة منه .

استدراك

جاء في السطر الأخير من صفحة ٣١٣ : صدعي . والصواب : صرعي .

ends of justice in a case submitted for judgment before Ibn Al-Khateeb. The judge straightway said "I would never suffer my authority to be curtailed". He then dismissed his officers, resigned his post and retired into the seclusion of his home. On hearing of this, king Al-Ashraf was greatly annoyed and tried all he could to pacify and conciliate him until he accepted to go back on certain conditions which were all granted by the king.

An honest head of the state greatly esteems the judge who displays such qualities of rectitude and tries his utmost to please him in order to dissuade him from resignation.

Abu Obeid, another Cairo Judge, once sent Abu Bakr Ibn Al-Haddad to Baghdad to secure his exemption from the judgeship of Cairo. The vizier Ali Ibn Issa Ibn Al-Gouh, did not entertain the idea and said "I think he resents the surveillance of Hilal Ibn Badr for he is an inexperienced youth who does not appreciate the judge. I will, therefore, dismiss Hilal and appoint so-and-so who is a wise man and knows how to appreciate the judge".

An equitable sovereign justly admires the learned man whose rectitude and impartiality have been tested over and over again. Such admiration, necessarily prompts him to nominate such a man to judgeship. Omar Ibn Al-Khattab once took a horse from a man with a view to price it. He inadvertently overloaded the horse which sustained some injuries in consequence. The man vehemently disputed with Omar about it to which Omar said "Choose a man to judge between us". The man named one Shareeh Al-Iraqy. "You have taken it well and sound, you are therefore responsible to return it in that same condition" was the judgment of Shareeh. Al-Shaaby, the narrator of this incident says that Omar was so apparently pleased with him that he, straightway made him a judge.

On account of the inherent difficulty involved in the office of justice firstly as regard ascertaining the truth and secondly as regards enforcing it, many of the righteous and learned men decline the appointment thereto and resolutely refuse to accept it for fear that they might encounter, in the course of enforcing the law something that lies beyond their power to repel or for fear of falling into error in the consideration of some cases and establishing the facts thereof.

Haroun Al-Rasheed once offered Al-Mughierah Ibn Abdul-Rahman Ibn Al-Harith the judgeship of Medina for a gratuity of four thousand Dinars which Al-Mughierah declined saying "I would rather the Sultan strangle me than sit in judgment on men".

to be continued.

who feareth the censure of no one for upholding the tenets of God. Nay! by Allah! I would not thwart the precautions he hath taken for himself nor betray the Moslems by the suspension from office of the like of him”.

On being asked the reason why he turned down the evidence of the Caliph, Ibn Basheer replied “It is imperative in the hearing of evidence to afford the defendant the right to refute it, and who would dare repudiate the Caliph’s evidence if it were accepted? Had I not given the defendant that right, I would have been unfair to him”.

Islam teaches the judge that he is independent and that he is subject to no one’s influence. The history of Islam abounds in cases where many equitable judges did not refrain from passing a judgment against the very head who nominated them to the judgeship just exactly as they would pass it against the poorest and meanest of the people.

Ibn Abdul-Salam says of such judges “Sometimes they passed judgment against the very one who nominated them to office and even declined to accept his evidence”.

Al-Mukry says of the judicature of Andalusia “The judiciary system of Andalusia, is acclaimed by both the upper class and the proletariat as the most efficient for being administered in strict accordance with religion and for the fact that should a summons be served on the Sultan, he had to appear in court before the judge”.

Ibn Basheer, judge of Cordova, once passed a judgment against the Caliph Abul-Rahman Al-Naser in an action brought against him by one of his subjects. The sentence was duly communicated to the Caliph along with a note from the judge threatening to resign his post if the Caliph would not abide by the judgment and expeditiously execute it.

Some of the judges would throw up their situation in righteous indignation if ever a functionary of the state interferes in the litigations dealt with by him. This happened in the case of Ibrahim Ibn Ishaq, judge of Cairo, when two men came to him for judgment and he pronounced it against one of them. The party thus sentenced, went to the Emir and pleaded for his intercession in the matter, whereupon the Emir sent Ibn Ishaq orders to suspend the judgment pending reconciliation of the parties concerned. Ibn Ishaq consequently left the court and retired to his house. On being apprised of what had taken place, the Emir sent him a message requesting him to go back but he resolutely answered the Emir “Never would I go back; there is no intercession in judgment”.

Burhanul-Din Ibn Al-Khateeb, another justice of Cairo, did the same thing when Muhibul-Din, the army-chief tried to defeat the

make a book on the manners of judgeship?" "Uphold justice and stretch thine legs if thou wilt in court; for hath the judge better manners than those of Islam!" he replied.

It is said of Abu Abdullah Mohammad Ibn Issa, a judge of Cordova that "he used the utmost severity in enforcing justice and was resolute in executing the ordained punishments. He sought out the right evidence in secret and proclaimed the truth in public. He feared no one in a position of authority or flattered anyone of high rank. Neither did he ever pass over the lapses of those in authority or their peoples". They justly feared his severity and none ever dared to hope for any remission so far as he was concerned.

We read of Ibrahim Ibn Abu Bakr Al-Agnadi, a judge of Cairo, that "he countenanced no message or intercession by anyone; but he, regardlessly established the truth and favoured no one with appointment to a post unless he rightly merited it".

Abdullah Ibn Taleb, a judge of Al-Qairwan who had been once tried and interred in prison, used to say while he was prostrate in prayers "O Lord! thou knowest I have never unjustly pronounced a sentence, nor did I ever prefer any body's favour to thine own or fear the censure of any one for following thy way".

It is cited by chroniclers concerning Mohammad Ibn Abdullah Ibn Yahya, a judge of Cordova that "he flattered no one of main and might or passed over the offences of those in authority. The strong never hoped for his injustice and the poor never despaired of his equity. The weak were never so bold of heart and tongue as they were in his days".

Some of the judges may be asked to settle a case in which one of the litigants submits the evidence of the Caliph himself but he heedlessly wave the evidence aside. The Sultan Bajazet once gave evidence in a case before Shamsul-Din Mohammad Ibn Hamza Al-Finary, judge of Constantinople. The judge waved the evidence aside and when the Sultan asked him the reason why he did so, he curtly answered "Thou performest not the congregational prayers", whereupon the Sultan ordered a mosque to be built in front of this palace, and thenceforward never missed the congregational prayers.

A case was once submitted to Mohammad Ibn Basheer, judge of Cordova in which one of the litigants was Saidul-Khair uncle of the Caliph Abdul-Rahman Al-Naser. Said produced, among other evidence, the evidence of the Caliph himself in writing. When the letter of evidence was presented to the judge, he said to Said's agent "this evidence would not do for me, you better find me an equitable witness" whereupon Said went to the Caliph and tried to persuade him dismiss the judge. But the Caliph said "the judge is a righteous man

Islam has pointed out the success attendant on upholding the cause of justice and the misery resulting from iniquity.

The judgment of the Holy Prophet (Peace be upon him) was the ideal in the establishment of rights and judging between litigants. Suffice it to recall in testimony of this the incident in which the Prophet once sentenced a woman of Beni Makhzoum who committed a theft to undergo the ordained punishment. Koreish spoke to Osama (1) to intercede in the matter with the Prophet with a view to rescind the sentence.

"Wouldest thou intercede in an ordained punishment?" said the Prophet who then addressed the people thus:

"O men! your predecessors have erred before you for when the strong committed a theft, they passed it over but when the lowly did so, they imposed the ordained punishment on him. Nay, by Allah! should Fatima the daughter of Mohammad commit a theft Mohammad would himself sever her hand".

The Prophet has planned the way of justice as clear and upright as could be. He gave practical examples during his life of the administration thereof, thus making the way completely clear to his companions who followed his instance and taught the people what equitable justice was.

In his message to Abu Moussa Al-Ashari, Omar Ibn Al-Khattab says: "Treat people alike in talking unto them, turning your face towards them and judging between them, so that the strong hopeth not far thy injustice and the lowly despaireth not of thy equity".

Islam and the life of its learned men, have had a healthy effect on reforming the judiciary systems to a great extent. There could be no court within whose precincts justice is truly upheld unless the judge in charge be of sound reason and a firm believer in the judgment day.

Fear of God prompts the judge to consider carefully every case so that he may be in a position to elicit the truth. He would not let himself be influenced by first impressions though he may be sure his judgment will be duly enforced and no superior authority would rescind the sentence pronounced by him.

Certain Emirs of Andalusia used to dismiss the judge who expeditiously settled cases which required some little deliberation as such expedition only meant heedlessness on part of the judge to blunder in his judgment.

Fear of God further prompts the judge not to overstep the bounds of justice and deviate therefrom in the least.

Ismail Ibn Ishaq Al-Malky was once asked "Wilt thou not

(1) A favourite attendant of the Prophet.

Among the Traditions cited in warning against unfair judgment is the following: "He who is appointed to the judgeship, is even like unto him who is slain without a knife".

In this Tradition, the sufferings of the judge in the hereafter is likened to the tortures suffered in this life by one who is slain without a knife. This is the case of the judge whose knowledge of justice is scanty or whose sense of probity is faint and feeble.

The Tradition could however be interpreted to refer to the inherent difficulty involved in judgeship. The judge who suffers greatly in the course of revealing the truth and enforcing it, striving against his own desires and inclinations, is indeed like him who is slain without a knife. The Tradition moreover indicates the high position of judgeship for the equitable judge is likened to the slain in the cause of the Lord who is no longer subject to the influence of passions and whose sole object is the favour of God, and great indeed is the recompense of the Lord.

Another Tradition comprising both promise and warning, is the following: "Three are the judges: two have hell for their abode and one has Paradise for his. One who knew the truth and judged according thereto is in Paradise. Another who is ignorant of the principles of equity yet sits in judgment, is in hell. And the third who knew the truth yet judges with injustice is in hell."

This Tradition points out the ending of those who uphold the truth in their judgment knowing thereof. To such paradise is promised. But those who pass judgment ignorantly or unfairly are destined for hell. The Tradition however, does not include the learned in the principles of law and equity who tries his best to get to the truth but fails to light on it and judge according to his own opinion.

It is cited that on reciting the following verse:

«وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا»

ترجمة هذه الآية نقلا عن الالوسي

"And call to mind the story of David and Solomon when they passed judgment concerning the field which the people's sheep grazed and ate up at night; and We did know of their judgment. So We made Solomon to understand the case and each of them have We endowed with great wisdom and knowledge". (Alucy's Commentary), Hassan Al-Bisry remarked "Had it not been for the Lord giving the parallel of these two, judges would have all been doomed to perdition; for the Lord hath praised the one for his knowledge and excused the other for trying his best to get to the truth".

conferred upon the just ruler, an honour, no less than the love of God for him which could only mean prosperity in this world and salvation in the hereafter.

Among the traditions indicating the high esteem and exalted position in which the just ones are held by the Lord is the following:

"The just are assigned platforms of light to the right hand side of the Most Merciful — whose two sides are both right — those who seek the truth in their judgment, are just to their people and just to their charges". This alludes to their proximity to the Lord and their success in securing His favour.

The mention of the "Most Merciful", arouses the hope and confidence of the just ruler who will be granted the full realisation of his hopes and desires just like him who is held near to the Lord whose mercy embraces everything.

The following Koranic verse is one of warning against injustice:

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ»
ترجمة هذه الآية نقل عن الالوسي

"O David! We have made you viceregent on earth and have given you authority and the right of judgment between the people; so judge between them with justice ordained by the Lord and follow not the desire of the soul in judgment, lest it should lead you astray from the signs which He set on truth; for those who deviate from the way of the Lord, will be severely chastised as they forgot and remembered not the day of reckoning" (Alucy's Commentary).

This verse points out that the settlement of cases after one's own passions and desires is definitely a deviation from the Lord's way and as such will inevitably lead to severe punishment. No one could make light of a punishment which the Lord Himself has described as severe and render himself thereby liable to it for the mere trifles of this world unless he has lent himself to perdition and denied his soul the blessing of true belief.

This verse has a highly invigorating effect on souls already blessed with the security of true belief. It is related that Ahmed Ibn Sahl had for his neighbour Bakkar Ibn Kutaibah, judge of Cairo. On passing his house once about eventide, Ibn Sahl heard him reciting the above verse. At daybreak, he heard him reciting and reiterating the same verse. "No wonder" he said "Bakkar is most fair of judgment and is held in high esteem by those in authority".

finds himself more or less, inclined to the cause of one or the other for say, relationship, friendship, high position or wealth; or maybe this inclination be the outcome of sympathy for one of them on account of poverty or weakness or that the judge may happen to share the same feelings of animosity towards the other litigant.

In such cases, a judge could seldom regard the two litigants on a footing of equality while he settles the case according to the dictates of equity inspired from on high.

Such feelings as surge in the judge's breast during the examination of the case, are overlooked unless they prove instrumental in supporting the cause of one of the litigants against the evidence submitted and the principles of equity.

Those feelings are apt to influence the judgment passed by the judge and cause it to incline towards the one to whom he has given his sympathies. The influence thus exercised varies according to the sympathy felt by him, and when they become stronger in someone who fears not the Lord, and is ignorant of the sublime ends of justice, truth is apt to be totally disregarded and the judge is thereby carried away, by his feelings of sympathy, to the very depths of iniquity.

Such feelings which incline the judge and influence him to please one of the litigants by siding with him, are bound to make fair judgment a burdensome business unagreeable to men's nature. And herein lies the secret why great stress was particularly laid on justice by Islam which urged to equitable dispensation thereof by different ways and means.

The Moslem Religion has given the fullest attention to equitable dispensation of justice inasmuch as it was concerned with all that is essential for securing the wellbeing of man. It ordained the highest ideals of justice and promised those who uphold it with high esteem and a good ending while it threatened those who deviated therefrom with severe punishment and an evil abode.

Among the Koranic verses pointing to the great honour of justice is the following:

« وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقل عن الألوسي

"If you are requested to judge, then judge between them with equity which We ordained and in accordance with the injunctions of the Koran and the law of Islam, for surely Allah loveth the just as to ward evil off them and exalt their position." (Alucy's Commentary).

Thus the Lord enjoins justice and points out the great honour

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

FAIR JUSTICE OF ISLAM⁽¹⁾



Islam has embraced every possible felicity of mankind through the guidance and culture it offers. Indeed evidence to substantiate its teachings is abundantly available and no excuse could be offered for remaining ignorant thereof.

The guidance of Islam proceeds in stages. It might merely point out a thing without having to refer to it constantly or insist thereon beyond the bare mention of it for the simple reason that it is easily assimilated by men or that they are naturally inclined thereto such as the affection of father to son or striving for a living to sustain one's self.

But sometimes a thing may be a little burdensome and intendedly meant to turn the souls of men away from desires. In such case, strong will and foresight are needed as for instance in prayers, payment of the ordained alms (Zakat), fasting, pilgrimage and Jihad. These, it repeatedly enjoins by different ways and means so that it may win thereby the hearts of men according to the intensity of ardour and aspirations that dwell within them.

Such is the way of Islam in enjoining fair judgment.

The two litigants submit their case to the judge who oftentimes

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

قَدْ جَاءَ كَرِيمٌ أَقْبَرُ نُورًا وَكَأَنَّ مَنِينٌ يَهْدِي بِهُ اللَّهُ تَرِيقَ رِضْوَانِهِ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غمرة كل شهر عربي

المجلد الثالث	جمادى الآخرة سنة ١٣٥١	الجزء السادس
رئيس التحرير السيد محمد الخشيني من علماء الأزهر	مدير إدارة المجلة عبد المحسن بن عبد المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى	
الاشتراك	الإدارة	
داخل القطر المصري ٤٠ خارج القطر المصري ٥٠ للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين (٢٠ ومعلمي المدارس الأولية والطلاب داخل القطر ولحضرته المذكورين في خارج القطر ٣٠	شارع محمد مظلوم باشا رقم ١ تليفون : ٨٤٣٣٢ الرسائل تكون باسم مدير المجلة	

نمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٩٣٢ - ١٣٥١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاكاة المسلمين للاجانب

قد يوجد في أفراد البشر من يولد في بيئة عفاف وحكمة ، وتولاه يد التربية الحازمة بالتنبيه لمواقع الهنات ، فتكون سيرته كالسيكة الخالصة لا يجد فيها الناقد مغمزا ؛ وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال السكال وبلغت في رقيها المسدنى أن يفتح الناقد الأملى فيها عينه فلا يرى إلا أعمالا مرضية ، أو عادات مقبولة ؛ فإذا وجد في الأفراد من يفضل براءته من العيوب جملة ، فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على شرها ، ورجحان محامدها على مذاممها ؛ وإذا وجد في الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية في أن تقتدى بسيرته على الإطلاق ، فليس في الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض : خض خوضها في كل واد ، وشابها مشابها الغراب للغراب .

هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة في النهوض ، فإذا رأوا أمة ذات معارف وسطوة ، تهافتوا على محاكاتها في غير تدبر واحتراس ، وربما سبقوا إلى ما يعد من سقط متاعها ومستهجن عاداتها ، فصبوا همهم في تقليدها فيه ، فزادوا شعبهم وهنا على وهن ، وكانوا كالعثرات تعترضه فتعوقه عن السير ، أو تجعل سيره في الأقل بطيئا .

ومتى كثر في الشعب أمثال هؤلاء الذين لا يميزون في محاكاةهم السيئة من الحسنة ، فقد الشعب هدايته الدينية ، وتجرد من مميزاته القومية ؛ ولا يفلح شعب نكث يده من الدين الحق ، ولا يعتز شعب نظر الى قوميته بازدراء .

وقد تعرض ابن خلدون في مقدمته لهذه المحاكاة من حيث إنها طبيعة اجتماعية فقال : « إن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده ، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي ، إنما هو لكمال الغالب » ثم قال : « ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها ، بل في سائر أحواله » ثم قال : « وانظر الى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان في الأكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها يسرى إليهم من هذا التشبه والافتداء حظ كبير ، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء ، والأمر لله » .

وهذا الذي قرره ابن خلدون طبيعة من طبائع الأمم الضعيفة حيث توجد بجوار أمة قوية ، ولكنها طبيعة عرفت علتها ، فيمكن لزعماء الأمة الضعيفة أن يعالجوا العلة ، فتسلم الأمة من هذه الطبيعة ، ويمكنها أن تحتفظ من الافتداء بالغالب إلا فيما كان من وسائل الرقي والسيادة . يذكر ابن خلدون أن العلة في هذا التقليد إما ما وقر في صدر الأمة من تعظيم الغالب ، وإما ما تغالط به من أن غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من المذاهب والعوائد ، وكلتا العلتين إنما تنفسي

في الأمة الملقى حبلها على عاتقها، تمتشى على غير بصيرة، ولا تقصد الى غاية نبيلة. فاذا قيض الله للأمة المغلوبة رجالا يعالجون ما عساه أن يطغى في صدرها من تعظيم شأن الغالب، أو يوقظونها الى ما تغالط به من أن غلب الغالب بما انتحله من المذاهب والعوائد، أنقذوها من عمية التقليد الذي تتجرد به من الآداب الدينية والمميزات القومية. والناشئ الذي يدرس تاريخ الاسلام، وما كان لرجاله من مجد شامخ وسلطان كريم، لا يكبر في عينه سلطان الغالب الى أن ينحدر في التشبه به في كل حال.

يذكر الكتاب والخطباء تقليد المسلمين للأجانب، ومنهم المسرفون في الدعوة الى التقليد، ومنهم الراشدون؛ وإليك كلمة تعرض عليك الرأي الذي يقف عند حدود الدين، ويرعى حق القومية، ويقدر المصالح، ويحرص على أن لا يفوت الأمة منها مثقال ذرة:

محاكاة المسلمين للأجانب تظهر في ضمنية وجوه:

(أحدها) محاكاتهم فيما يشتمل على مصلحة دينوية، ولا يخالف حكما شرعيا أو أدبا دينيا؛ وهذا مما تأذن الشريعة في الأخذ به، ويتأكد العمل به على قدر ما فيه من مصلحة؛ وليس من المعقول أن تنهى الشريعة عما فيه خير لمجرد أن قوما من غير المسلمين سبقوا إليه؛ ويدخل في هذا مجاراتهم في العلوم والصنائع، ووسائل الدفاع، والمرافق التي يخف بها جانب عظيم من عناء هذه الحياة؛ ومن شواهد هذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق حول المدينة المنورة وقد أشار به سامان الفارسي، وهو من مكاني الفرس في حروبها.

وفي أوروبا اليوم نظم إدارية نزلها بقاعدة رعاية المصالح، فترى إجراءاتها في بلادنا من قبيل إصلاح الإدارة؛ كنت أرسلت من برلين برقية لصديق لي في جنيف، فجاءني خطاب من إدارة البرقيات يقول لي: لم نهتد الى معرفة المبعوث اليه بالبرقية،

وبعد ساعات وصِلتني برقية من صديقي جواباً عن البرقية التي بعثت بها إليه ، وبعد ساعات جاءني خطاب من تلك الإدارة تقول فيه : اهتدينا الى معرفة صاحبك بعد وأبلغناه البرقية . فمن ذا ينكر فائدة مجارة الأجانب في مثل هذه النظم المريحة للنفوس ! وأذكر من آيات للأستاذ محمد بن عبد الكريم المقيبلي في الرد على من أنكر تعلم علم المنطق قوله :

خُذ العلم حتى من كفور ولا تقم دليلاً على شيء بمذهب أهله
ولا أسوق في هذا الوجه محادثهم في بعض أخلاق انتظمت بها مدينتهم ،
وارتفعت بها على كثير من البلاد رايتهم ، كالصبر على المكاره ، والإقدام على العظام ،
وقوة رابطة الاتحاد والتعاون بين أفرادهم وجماعاتهم ، فإن الاسلام قد أُرشد الى جميع
الأخلاق التي تزدهر بها المدنية ، وتستحكم بها عرى السيادة ، فاذا ظهر المسلمون بخلق
عظيم ، فإنما يقتبسونه من حكمة دينهم وسيرة عظمائهم .

(ثانيها) محادثهم في شيء من شعائر دينهم ؛ وهذه المحاكاة إن كانت عن رضا
دلت على نبذ الإسلام ، ولا سيما محاكاة تقع منه مرة بعد أخرى ، فإن قامت قرينة على
أنه يقصد الاستهزاء بمن يقدم ، فهي سفاهة وعصيان ؛ فالذين يرسلون أبناءهم لمدارس
أجنبية تحتم على كل تلميذ الاشتراك في القيام بشعائر الدينية ، إنما يلقون بأفلاذ
أكبادهم في حفرة من النار .

وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط في هوى الأجانب ، والانغماس في التشبه
بهم أن اقترح في غير خجل قلب هيئة المساجد الى هيئة كنائس ، وتغيير الصلوات
ذات القيام والركوع والسجود الى حال الصلوات التي تؤدي في الكنائس ؛ وهذا
الاقتراح شاهد على أن في الناس من يحمل تحت ناصيته جبيناً هو في حاجة الى أن
توضع فيه قطرة من الحياء .

(نأثما) محاكاتهم في شيء لم يكن من شعائر دينهم ، ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة ، كتقليدهم في اختلاط الرجال بالنساء ورقص الفتيان مع الفتيات ، أو نهى عنه على وجه الكراهة ، كتقليدهم في تناول الطعام باليد الشمال^(١) أو إطالة بعض الأظفار ؛ والمحاكاة التي توقع في محرم فسوق عن أمر الله ، والتي توقع في مكروه يخسر بها صاحبها قسطا من ثواب الله ؛ هذا اذا كانت المحاكاة عن مجرد هوى ، فإن كانت عن اعتقاد أن ما يفعله الأجنبي أحكم وأليق ، زلزلت أصل الإيمان ، والتحققت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملته ؛ وعلى هذا الوجه يجري حكم استبدال قوانينهم الوضعية بأحكام الشريعة الغراء نحو القوانين المبيحة لما حرم الله من الربا .

ومن الأمراض التي سرت الى المسلمين على طريق التقليد للأجانب موبقة الانتحار ، فقد يتخيل صغير العقل حيث يقع في بلاء أن الانتحار طريق يصح أن يسلك للتخلص من البلاء ، متكثفا في هذا الخيال على أن كثيرا من رجال الدول أو الأمم الغالبة يرتكبونه وسيلة الى الخلاص من مكاره تصيبهم ، أو مكاره يخشون إصابتها .

ومن هذا الباب محاكاتهم في إغلاق محال التجارة في يوم الأحد أو السبت ، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قصد الى صوم يوم السبت والأحد ليخالف أهل الكتاب في جعلهما يومى عيد ، لأن صوم اليوم يبعده من أن يكون عيدا ؛ نقرأ في سنن أبي داود أنه صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم السبت والأحد ، يتحرى ذلك ويقول : (إنهما يوما عيد الكفار وأنا أحب أن أخالفهم) وأخرج الامام أحمد والنسائي أنه ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صيامه السبت والأحد .

(١) ليس من الصعب على من يريد المحافظة على أدب إسلامي أن يعود يسراه قطع اللحم ونحوه بالسكين ، ويعود يمتنه تناوله بالشوكة . وقد عزم على هذا قوم يمز عليهم أن يستحقوا بأدب ديني فوجدوه أمرا ميسورا .

فإغلاق المسلم لمحل تجارته يوم الأحد أو السبت يناقض قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صوم هذين اليومين ، لأن إغلاق محل التجارة أو الصناعة في يوم معين لا يلتزمه إلا من شأنه أن يعتقد أن ذلك اليوم حقيق بأن يتخذ عيداً .

ومن محاكمتهم فيما يجرمه الشرع وينبذه العقل إنشاء مكتب يستأذنه فاسدات الأخلاق في التجارة بأعراضهن فلا يجد في صدره حرجاً أن يأذن لهن ؛ وقد تيقظ كثير من رجال دولتنا الرشيدة إلى ما في هذه المحاكاة من شر مستطير ، فأخذوا يجاهدون في تطهير البلاد من هذه الخبائث ، وسيلقون على هذا الجهاد شكراً صادقاً ، وذكراً طيباً ، وما عند الله خير وأبقى .

(رابعها) محاكمتهم فيما لم يتعرض له الدين بنهى خاص ، ولكن رعاية جلب المصالح أو درء المفاسد تقضى بترك هذه المحاكاة ؛ والمصالح كالمفاسد تتفاوت في شدتها فيفصل الحكم على حسب هذا التفاوت ؛ ومن أمثلة هذا النوع اتخاذ بعض الأزياء الظاهرة في الاختصاص بهم كالقبعة ، فإن وضع المسلم لها على رأسه بين قوم مسلمين يدل على ميله وترجيحه لجانب من اختصاصوا بلبسها ، ويوقع في اعتقاد الناظرين إليه أنه من طائفة المخالفين ؛ والمسلم المطمئن لدينه يتحاشى ما يدل على أنه يميل إلى غير أمته أكثر مما يميل إلى أمته ، ويتألم من أن يصفه أحد بأنه من قوم غير مسلمين ؛ وقد حاول بعض المفتونين بتقليد الغالب فيما لا أثر له في قوة سلطانه أن يحملوا أبناء المسلمين في مصر على لبسها نخاب سعيهم ؛ ولم يكن جند صلاح الدين الأيوبي الذي انتصر على جيوش الأروبيين في حطين حيث كانت الواقعة الفاصلة ، يرضى بأن يتخذ في شعاره القبعات ، ولم ينفع أعداءه المهزمين أن كان على رأس كل واحد منهم قبعة .

ويدخل في هذا القبيل اتخاذ نحو الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم وفي المصنوعات القومية ما يغني غناءها ، وفي الإقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة ؛ وارتقاء الشعوب على قدر يسارها .

ومما يثير الأسف البالغ أن يقتصر المسلم في رسائله أو عند ذكر الحوادث على ما يؤرخ به المسيحيون ، وهو التاريخ القائم على ميلاد المسيح عليه السلام ، وقد فشت هذه المحاكاة ، حتى أصابت أقلاما شأنها أن تنهى عن مثل هذا التشبيه ، وفي الاعتماد على التاريخ الهجري محافظة على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله ، وكان صاحبنا العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله تعالى يقتصر في مراسلاته على التاريخ الهجري متعمدا هذا الاختصار حتى في مخاطبة الجمعيات أو الشركات الأجنبية .

(خامسها) محاكاتهم في أمور لم يرد فيها عن الشارع نهى خاص ، ولم تكن في نفس موافقتهم فيها مصلحة أو مفسدة ، ولا تلقى على صاحبها شبهة الانتماء الى ملتهم ، ولا حرج في هذه المحاكاة إلا من جهة الاحتفاظ بالتقاليد القومية ، فصغار النفوس أو العقول يسارعون الى التخلي عن المعروف بين قومهم ، ويستبدلون به المعروف بين الأمم الأجنبية ، ولا داعي لهم الى هذه المحاكاة إلا الافتتان بكل شأن من شئون أولى الشوكة والسلطان . أما أولو الأحلام الراجحة فلا ينتقلون عن المعهود في بيئتهم إلا الى ما هو أفضل ، ولا يفضل عرف على عرف لمجرد أنه يجري بين قوم لهم القوة والغلبة ؛ ومن أمثلة هذا محاكاتهم في لون خاص يلتمونه في حفلات خاصة ، فليس للون الخاص في الحفلات مصلحة أو مدخل في نهوض القوم ، وإنما هي عادة جرت بينهم ، وألفتها أذواقهم ، فإذا لم يعتد قوم مسامون التزام ذلك اللون في مثل تلك الحفلات وأبوا تقليد الأجانب في هذا العرف ، دلوا بهذه الإيابة على الاعتزاز بقوميتهم ، ونهوا على أنهم لا يريدون أن يكونوا أتباعا حتى فيما لا يقدمهم خطوة ، ولا يسد من حاجاتهم خلة .

فإن خطر على بال أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعر رأسه موافقة لأهل الكتاب ، قلنا : كان عليه الصلاة والسلام بين فريقين : عباد الأوثان وأهل الكتاب ، وأهل الكتاب أقرب الى الدين الحنيف من عباد الأوثان ، فهم بالموافقة يومئذ أحق من عباد الأوثان ، ولكن بعد أن دخل عباد الأوثان في الإسلام ، وأصبح

فرق الشعر شعار فريق كبير من المسلمين ، عاد صلى الله عليه وسلم ، ففرق شعر رأسه ، وكان الفرق آخر حالتيه .

وإن تعجب فمعجب لذلك الذى وضعت صولة الغالب على بصيرته غشاوة ، فقام يدعو المسلمين الى تقليد الأجانب بدون قيد ولا استثناء ، وذهب يذكرك فى وجه هذا التقليد المطلق غاية هى العمل لاتحاد العالم ؛ ولا نطيل فى وصف انحراف هذا الرأى فان العالم فى حاجة الى الاتحاد فى معرفة واجبات الانسانية ، وفى احترام الأقوياء لحقوق الضعفاء ، ومتى ظفر بهذا الاتحاد لم يضره اختلاف شعوبه فى بعض مظاهر الحياة ؛ ثم ما بال هذا الكاتب يسعى لاتحاد العالم من ناحية دعوة المسلمين الى موافقة الغربيين فى كل شىء ، ولم ينظر نظر المتدبر الرصين فيدعو الغربيين الى موافقة المسلمين فى آداب هى أشد انطباقا على ما تقتضيه الانسانية وترتضيه الأذواق السليمة . .

هذه كلمة نوجهها الى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، لعلمهم يجدون فيها تحقيق الفرق بين محاكاة الأجانب المحموده ومحاكاة المنبوذة ، فيسلكوا طريقا وسطا يكفل لهم سعادتي الأولى والآخرة ، (وَاللّٰهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) .

محمد الخضر حسين

النظر في الملح

دخل معن بن زائدة على أبي جعفر المنصور فقال له : كبرت يا معن ، قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلمد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : أى الدولتين أحب إليك : أهذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برُّك على برِّهم كانت دولتك أحب إليّ . فقال المنصور : صدقت .

النفس

سورة النور

٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة المباركة التي وصفها جل شأنه في فاتحتها بقوله جل من قائل : (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) وهذا الحكم له مزيد اتصال بما قبله ، فإن من متمات الاحتياط لصيانة الشرف والعرض المستفادة من الآيات السابقة تشريع هذا الحكم العظيم ، المتضمن من آداب المعاشرة ومخالطة الناس بعضهم بعضاً ما فيه صون كراماتهم وسمعتهم ، وشرفهم ، ودوام الارتباط بينهم ، على أنقى الوجوه وأبعدها عن الريبة والتألم والتأذى .

ومناسبتها للآيات السابقة جلية واضحة، فقد ذكر في أول السورة حد الزنى مبيناً ما فيه من الشناعة والفظاعة، مؤكداً في التشديد على من وقع في جريمته، مبعداً له عن أن ينال برأفة ورحمة؛ ثم أردفه ببيان حد القاذف المتعدى على شرف الناس وسمعتهم، وساق تلك القصة التي كانت فتنة لكثير، ولكنها تضمنت من التعليم خيراً كثيراً كما سبق تفصيله وتوضيحه، وجاء في هذه الآيات بتشريع الأحكام التي تساعد على سد هذا الباب ودفع ما فيه من المفساد والشرور، فقال جل شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا).

وذكروا في سبب نزولها أن امرأة شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنها تكون في بيتها على الحالة التي لا يحب أن يراها فيها أحد: لا والد ولا ولد، فيأتها أت فيدخل عليها، فكيف تصنع، فنزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا) الخ. ومن ذا الذي يخلص من هذه الحالة؟ فما من أحد: رجل أو امرأة إلا وهو عرضة لأن يكون على حالة لا يحب أن يراها فيها أحد: لا والد ولا ولد، فيسوءه أن يفاجئه مفاجيء فيطلع على ما لا يحب أن يطلع عليه أحد، فاذا فوجئ على هذه الحالة تألم وكره القادم ولو كان قدومه برأيه، فليس أكرم على المرء من صون نفسه وشرفه، وعدم تعريضهما للافتضاح وانكشاف الستر. وفوق هذا تجدد هذا الأدب متضمناً لقطع السنة السوء من مظنة الريبة، فاذا دخل امرؤ بيتاً بلا استئذان، وكان ذلك مباحاً، فقد يراه حال دخوله أو حال خروجه من يهتمه ويهتم أهل البيت المدخول عليهم بما لم يخطر لهم ببال؛ ولقد يصادفه حال خروجه رب الدار وليس فيها إلا امرأته مثلاً — فتذهب به الظنون كل مذهب، ويجد الشيطان له في نفسه مرتعا خصبيا، ربما جرى خراب البيت وإلحاق أطفالها بالأيتام، وتتسع المقالة لضعفاء الإيمان، فيخوضون في الأعراض بما ليس لهم به علم؛ فتشريع هذا الحكم من أعظم مظاهر الرحمة في تشريع الحنيفية السمحة.

والبيت: المسكن. لأن الرء يأوى الى مسكنه ليلاعادة، فهو فى الأصل من بات يبيت، مقابل ظل يظل، فالأولى لليل، والثانية للنهار. والاضافة فى يبيتكم للاختصاص بالسكنى أو الملك، أى ملك المنفعة لا ملك العين وحده، حتى إن من أجر بيتا لغيره أو أعاره له، فليس لملك البيت الدخول حتى يستأنس ويسلم.

وقوله تعالى: (حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا) معناه حتى تستأذنوا. فهو إما من الأنس ضد الوحشة، لأن من دخل بيتا غير بيته تلازمه الوحشة حتى يؤذن له فتبديل وحشته أنسا وطمأنينة، فيكون المعنى: حتى تطلبوا الأنس بالإذن، أى وتصلوا إليه، بدليل (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ) الخ، أو حتى تأنسوا وتطمئنوا بالإذن لكم بالدخول؛ وإما من قولهم: أنس بالشئ وآنسه أى عامه، كقوله تعالى: (أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) أى رآها وأبصرها، فالمعنى حتى تستعملوا: أفيها أحد، أو حتى تعلموا أن فيها أحداً؛ وهو كناية عن تنبيه أصحاب الدار بالقدوم عليهم ليكون لهم الخيار فى الإذن والرد، أو حتى تستعملوا الحال التى أمامكم وينكشف لكم الأمر، أأذنتم بالدخول أم منعتهم منه. والمعانى متقاربة فى الغاية وإن اختلفت فى طريق الدلالة.

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة، كقرع الباب، أو النداء لمن فى البيت، أو صرخ الاستئذان، أو التهنع، أو التسبيح، والتحميد وما يجرى مجرى ذلك؛ فالقصود ظاهر، والوسائل معروفة، وكما لا يجوز الدخول قبل الاستئذان لا يجوز النظر الى داخل البيت قبل الاستئذان، فقد ورد «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر» وليس معنى الحديث أن من لا يبصر كالأعمى له الدخول بلا استئذان، فإن فى معنى النظر العلم مطلقا، وقد يطالع الأعمى بسمعه على ما لا يجب أهل البيت أن يطالع عليه، خصوصا مع ما هو معروف عن كفى البصر أنهم يعتمدون على حاسة السمع

في تعرف أشياء بطريق الحسد قد لا تخطر للمبصرين على بال . ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء ، مع المحارم وغير المحارم ، فما من امرئ إلا وله حالات يكره أن يطالع غيره عليها ، رجلاً كان الغير أو امرأة ، محرماً أو غير محرم ؛ وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أُمِّي ؟ قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيري أأستأذن عايتها كلها دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ ! قال : لا ، قال : فاستأذن عليها .

وقوله تعالى : (وَكُتِبَ عَلَيْكُمُ الْأَسْتِئْذَانُ) ظاهر في أن السلام بعد الاستئذان ، وهو الموافق للعادة من أن القادم قد لا يعلم أفي الدار أحد ، فإذا استأذن وأذن له ، سلم ودخل . ولا يعارض هذا ما روى الترمذي عن جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال : « السلام قبل الكلام » فقد يحمل الكلام في هذا على ما يجري بين الناس وقد تقابلوا وتلاقوا بعد الإذن أو في الطريق ونحوه ، نعم روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لا يؤذن له حتى يسلم ؛ وكذلك روى عن زيد بن أسلم قال : أرساني أبي إلى ابن عمر فقلت : أأج ؟ فقال : ادخل ، ثم قال : مرحباً بـابن أخي ! لا تقل : أأج ، ولكن : السلام عليكم ، فإذا قيل : وعليك ، فقل : أأدخل ، فإذا قيل : ادخل فادخل . فظاهر هذا وما قبله يدل على أن السلام قبل الاستئذان .

وقد رأى بعضهم تفصيلاً حسناً في ذلك ، وهو أنه إن وقعت عينه على من في البيت بأن كانوا ظاهرين ، قدّم السلام ، وإلا قدم الاستئذان . وقوله تعالى : (ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فيه إرشاد إلى ما حوى هذا الحكم من عظيم المصاحبة التي ترجع على ما يتوهمونه من أن في الاستئذان وانتظار الإذن مذلة ومهانة للمستأذن المنتظر ، وقد يكون في غنى عن هذه الزيارة ، أو قد تكون زيارته لصالح المزور أو نحو ذلك ، فلماذا تحمل مذلة الاستئذان والانتظار ، وهكذا من مظاهر النعرة التي كانت

تتملك نفوسهم ، فقال جل شأنه : إن تشريع الحكم للعموم على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها ، فكلما منعتكم من الدخول على غيركم بلا إذن منع غيركم من الدخول عليكم كذلك ، وما منكم من أحد إلا وهو عرضة لمثل هذا ؛ وفيه استبقاء المودة وعدم التأذى من زيارتكم بخلاف ما لو كانت هجوما ، فقد يكون قصدكم منها البر فتقلب الى شر . وقوله : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) جاءت بعد قوله : ذلكم خير لكم للتعليل الذى فيه دعوتهم للتذكر . و « لعل » الآية للتعليل فى القرآن الكريم تخالف لام التعليل من جهة أن التعليل فيها منوط باختيار المخاطبين ، على معنى أنه هَيَّ الأمر لمن يريد أن يتذكر أو يتفكر أو يتقى مثلاً ؛ وأما اللام فهى للتعليل المحتوم ، أى ليس الأمر فيه منوطاً باختيار الشخص . فكن على ذكر من هذا . والمعنى أنه بسط لكم الحكم وأرشدكم الى خيريته لتتذكروا وتتعضوا وتعلموا فتحرصوا على امثاله ، فباب التذكّر مفتوح أمامكم لمن شاء .

هذا ولا يبعد أن يلتحق ببيوت السكن حجر القائمين بالأعمال العامة ، فإنها وإن لم تكن سكناً ولا محلاً لانكشاف عورات ، ولكن قد يكون المنوط به عمل من الأعمال العامة بحاجة الى خلوة يستجمع فيها ذهنه لينجز ما عهد اليه به ، فلو أتيح الدخول عليه بغير إذنه تعطل عن عمل واجب عليه إنجازه ؛ وقد يكون مع ذى مصاحبة يحب أن يفرغ لها ليتها على أتم وجه ، أو يكون مع صاحب حاجة يكره أن يطلع عليها غيره ؛ فكل هذا وأشباهه مدعاة الى احترام من فى مركز العمل أن يدخل عليه بغير إذن ؛ روى أن أبا سفيان استأذن على عثمان رضى الله عنهما فى زمن خلافته فلم يأذن له مع ما بينهما من صلة النسب ، فقيل له : أنت أبو سفيان رأس العرب فى الجاهلية والاسلام وبحبك عثمان بن عفان ؛ فقال : لا عدمت من قومي من أحجب بياحه ؛ فانظر الى هذا الجواب السديد الذى رد كيد ذلك المحرش عليه ، ودفع الحمية والنمرة الكاذبة عن نفسه ،

ويبين له أن ما فيه من عزة عائد على فهو من قومي ؛ وهذا الخطاب ليلاقى اعتراض المعترض ، فقد جاءه من ناحية العزة والحمية ، فأجابه من ناحيتها أيضا ، وهو أنه من قومه فيعتز به ، وإلا فقد كان حجبه لمصاحبة العمل .

قال تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ) .

هذا تتميم للحكم الأول من جهة أنه في البيوت التي فيها أصحابها وهذا في البيوت التي ليس فيها أصحابها ؛ وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا » الخ غير أن يقال : فإن لم يكن فيها أحد ، فإن « لم يجد أحدا » معناه لم يعلم أن فيها أحدا وإن كان فيها أحد ولم يجب أن يظهر نفسه . وقوله : (فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ) وجهه أنه قد يكون في البيت الذي ليس فيه أحد أشياء لا يجب أصحابها أن يطالع أحد عليها ، فليس المنع من أجل العورات الشخصية فحسب ، بل مثلها الأمتعة والممتلكات والمرافق ، يعرف ذلك كل من رجع إلى شئونه الخاصة وكان حريصا على كرامته . وقوله : حتى يؤذن لكم ، أى ممن يملك الإذن بالدخول في هذا البيت ويدرى ما يقول ، فلا يعول على إذن صبي إلا إذا علم أنه مأذون من قبل أهله في البيت .

وقوله تعالى : (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) بيان لأن هذا الاستئذان حقيقى لا صورى ، فالاستئذان عليه أن يأذن وأن يرفض ، وعلى المستأذن أن يمثل لكلماتي الحاليتين ، فلا تأخذه العزة بالإثم ، فيلج في الاستئذان ، أو يلج بلا إذن ، أو يقف على الباب ، فإن في هذا مضيمة لمصاحبة الحكم وقد شرع لمنفعة الجميع ، ورب متأذ منه يوما قد احتاج إليه في اليوم التالى . وقوله : « هو أزكى لكم » إما معناه أظهر لنفوسكم من دنس الدناءة والرذالة والثقل ، أو أنفع لدينكم وأكمل لأدابكم ، على أن أزكى من زكايزكو بمعنى طهر أو بمعنى نما .

وبعد فالحكم المذكور في الآيتين مخصوص شرعا بما اذا لم يكن في البيت منكر
تجب إزالته ، أو حادث خطير يجب المبادرة بالإيقاظ منه ، كحشوب حريق ، أو هجوم
لصوص ، أو شروع في قتل ، أو إيذاء بلا وجه حق ، أو أمثال ذلك ، فله حق الدخول
لإزالة هذه الحالات .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ،
فيجازي كل امرئ على حسب ما عمل وقصد ، فقد يدخل متظاهرا بنية إطفاء حريق
مثلا - وهو ينوي أن ينهب ما تصل اليه يده ، أو أن ينظر الى ما حرم الله ، فمأجل
ختم هذه الآية بقوله : والله بما تعملون عليم ! ومن نظر في هذه الآية الكريمة علم
أن هذا المبدأ الذي يترجم به كثير بأنه من آثار المدينة الحديثة وهو احترام المنازل
والبيوت قد دعا اليه القرآن الكريم على أبلغ وجه . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا
لنهدى لولا أن هدانا الله .

قال تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

هذا في البيوت العامة المعدة لمصالح الجمهور كالحمامات ، ومحال البيع
والشراء ، فقد روى في سبب نزول الآية أن أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت الآية
السابقة قال : يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذي يختلفون من مكة والمدينة والشام
وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسامون وليس
فيها سكان ؟ فنزل قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) الآية . وقوله : فيها متاع
لكم ، إما صفة لبيوت ، وإما مستأنف كالتعليل لنفي الجناح ، أى أن البيوت العامة
لا حرج عليكم في دخولها فإن فيها متاعا لكم ، أى أعدت لمنافعكم واستمتاعكم ،
إما بقضاء ما تبتغون منها من شراء أمتعة أو نحوها ، أو بالإيواء اليها بأنفسكم

ودوا بكم ومتاجركم ، أو قضاء بعض مصالحكم كالاستحمام أو الحلق ، أو خياطة الثياب أو ما ماثل ذلك .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) نسقه كنسق قوله فيما تقدم : والله بما تعملون عليم . والداعية إليه هنا قوية ، فإن إباحة الدخول المبنيّة على غرض قد يتخذها بعض الناس ذريعة لأغراض خفية سيئة ، فجاء قوله : والله يعلم ما تبدون وما تكتمون لينذركم حين أباح ما أباح لهم أنه عليم بما يجري في نفوسهم ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون . نسأله تعالى أن يوفق لعمل الخير وقصد الخير إنه سميع مجيب : والله أعلم ^١ إبراهيم الجبالي

الطرف والمُهلح

يروى أن أعرابيا وقف على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها الى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك . فقال له على : خطّ ^(١) حاجتك فى الأرض فأنى أرى الضر عليك فكتب الأعرابي على الأرض : إني فقير . فقال على : يا قنبر ^(٢) ادفع إليه حتى الفلانية . فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حُلّة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حملا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى نداء السهل والجبال
لا تزهد الدهر فى عُرف بدأت به فكل عبد سيُجزى بالذى فعلا
فقال على : يا قنبر أعطه خمسين دينارا ، أما الحلة فامسألتك ، وأما الدنانير فلا دبك .

(١) إنما دعاه الى كتابة حاجته رفقا به وصيانة لماء وجهه ، وتلك كانت عادته رضى الله عنه ، فقد روى أنه كان يقول لا صحابه : من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لا صون وجوهكم عن المسألة . (٢) قنبر كجعفر : مولى على وخادمه .

السنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جاس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على خذي ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

لا نرى بدعا من العمل أن ندرج الحديث الواحد في المجلة ثلاث مرات في ثلاثة أعداد متوالية، وبخاصة مثل هذا الحديث الذي يراه جمهور المحدثين بمنزلة أم الكتاب من القرآن المبين كما قدمنا، فعسى أن يكون ذلك معينا على حفظه في جملة ما يحفظ من أحاديثه صلى الله عليه وسلم، فقد روى الترغيب في حفظ ما ورد عنه عليه السلام في جملة روايات، ومنها: نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، قرب مبلغ أوعى من سامع. وقد مضى فيما سبق شرح صدر الحديث الى قوله: فأخبرني عن الساعة، ونحن ماضون في شرح بقيته بعون الله وتوفيقه:

« قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

أى قال هذا الآتى الجالس من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الجلسة: فأخبرني عن الساعة، أى متى تكون، كما ورد في رواية أبي هريرة: قال: يا رسول الله متى الساعة؟ وقوله: قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، أى قال صلى الله عليه وسلم: ليس لدى من العلم بها أزيد مما لديك، وهو أنها آتية لا ريب فيها، أما تحديد وقتها فقد استأثر الله بعلمه في جملة أشياء استأثر بها، وهى المذكورة في الرواية الأخرى بقوله: في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) فهذه الخمس لا سبيل لأحد الى العلم بها علما جازما، فمن ادعى علم شيء منها على سبيل الجزم فهو كاذب، وانتفاء الجزم لا يقتضى انتفاء الظن والتخمين المبني على قيام الأشراف والأمارات، فالأمارات قد تشبهه وقد تتخلف، والعلم الجازم غير قابل للتخلف، وإلا لم يسم علما، فظن نزول الغيث لهبوب رياح خاصة أو انعقاد غمام متراكم، وتخمين القوابل وأهل الخبرة بأن في بطن المرأة ذكرا أو أنثى لا يسمى علما جازما، فكثيرا ما يتخلف الظن في ذلك، على أن تلك الأمارات إنما

تقوم بعد استكمال خلقة الجنين ، أو توافر أسباب نزول الغيث العادية ؛ وعلى كل حال فهي قابلة للتخلف ، والأمارات فيها كالأمارات المذكورة في الحديث لقرب قيام الساعة ، فإنها مهما دلت على القرب لا تعطى العلم بالتحديد الذي استأثر الله به .

ولا يهولنك ما يجد في عالم العلم والاكتشاف من التوصل الى أشعة تخرق حجب الأجرام فتكشف ما في باطن الأرحام وتصوره ، فليس هذا من باب علم ما في الأرحام ، وإنما هو من رؤية أشياء خلقها الله وأتم خلقها فيبصرها من يقدر على إبصارها بعد تمام تكوينها ، والذي استأثر الله جل وعز بعلمه هو حالتها قبل تمام تكوينها ، وإلا فبعد التكوين قد أصبحت من عالم المرئيات ، فكل من اخترق الحجب إليها أبصرها على وجهها ، ويكذب كل الكذب من يزعم أن لديه القدرة على التحكم في النسل ليجعل هذا الجنين ذكرا وذاك أنثى ، فالله وحده هو الذي يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . وكما يقال فيما في الأرحام يقال في باقي الخمسة : من إنزال الغيث ، وعلم النفس ما تكسب غدا ، وعلم مكان الآجال ومستقر النفوس ، فلتتوافر أماراتها توافرا تاما فلن يعدو أمرها التخمين والظن ، شأن كل الأمارات ، وشأن أمارات الساعة ، ولكن العلم الحقيقي عند الله ، كما قال تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ) فسُرت بهذه الخمسة .

« قال : فأخبرني عن أمارتها » وروى : عن أماراتها بالجمع ، وروى : ولكن سأخبرك عن أشراتها . والأشراط جمع شرط (بفتح الراء) وهو العلامة ، فهو بمعنى الأمانة . وقوله : « أن تلد الأمة ربتها » أى سيدتها ، وكأن التأنيث فيها لمراعاة معنى النسمة أو النفس ، ولصون لفظ الرب عن أن يستعمل في مثل هذا المقام ، وإلا فالقصد السيد ذكرا كان أو أنثى .

وقد فسر هذه العلامة شراح الحديث بعدة أوجه ، فقيل : إن ذلك كناية عن فساد الزمان ، وكثرة عقوق الأولاد للأمهات ، حتى كأن المرأة بدل أن تلد الابن البار أو البنت البارة التي تقترب الى الله بخدمتها ، أو الذي يرى أن الجنة تحت أقدامها — تلد من الأولاد من يتحكم فيها ويرى لنفسه حق السيادة عليها كأنه سيدها وهي أمته . وقيل : إن ذلك كناية عن كثرة التسرى وعدم مراعاة حكم الله في أمهات الأولاد من أنهن يستحقن العتق بالوفاة ، ولا يجوز التصرف فيهن ببيع ولا شراء ولا هبة ولا غيرها ، فيتبدل الحال ويفسد الزمان حتى يهمل هذا الحكم ، فتباع الأمة المستولدة حتى تقع بالتداول في يد ابنها وهو لا يعرفها .

وقيل : هذا كناية عن التسرى في الملوك والأمراء ، فتلد الأمة المملوكة من يلي أمر الملك والإمارة ، فتحضع له أمه مع سائر الرعية ، فبذلك تكون قد ولدت سيدها أو سيدتها . وقيل الرب بمعنى المربي ؛ ومعناه أن تلد الأم من يكون أوفر علما منها وأغزر معرفة بمعالجة الأمور ، فيتولى تربية أمه ، وقد كان المعتاد أن الأم هي التي تتولى تربية ابنها .

وأيا ما كان فإن هذه العلامات فيها من معنى الإيهام ما يبقى العلم الواضح بقيام الساعة أمرا مكتوما استأثر الله به ؛ وهذا لحكمة عظيمة ، فإن الله تعالى كما خبا عن كل امرئ أجله ، حتى يكون أمامه باب الأمل فسيحا فيقبل على العمل الذي هو مناط العمران في هذا العالم ، وحتى يكون دائما بين الخوف والرجاء ، يرقب الموت كل حين ويفسح لنفسه عظيم الأمل حسب ظنه اتساع الأجل ، كذلك خبا عن مجموع العالم أمر قيام الساعة حتى يطرد أمر العمران ، ويبقى الاتجاه الى الله تعالى بين كفتي الميزان ، فمن الناس من يقبل على الطاعات ، ومنهم من ينعس في العصيان ، لحكمة يعلمها هو ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة .

وقوله : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » — قد اختلفت فيها آراء الشراح أيضا : فمنهم من قال : إن ذلك كناية عن انقلاب الحال وانتقال الإمرة والسيادة الى رعاي الناس ، فيصبحوا هم السادة ، وتقبل عليهم الدنيا فيكونوا هم ملاك الأموال ، فيتطاولون في البنيان ويتباهون به ، ويلزم هذا انخفاض أعالى الناس وورءوسهم ، كما قال القائل :

وكذا الدنيا اذا ما عز ناس ذل ناس

ولعل من نسق ذلك ما نسمع عن تلك الفئات من طعام الناس الذين ناروا على نظام العالم فقلبوه رأسا على عقب ، واستأثروا بما في أيدي الملاك فأزالوه عنهم وأزالوهم عنه ، أولئك هم البلاشفة المفسدون . وقيل : هذا كناية عن تفتح كنوز الأرض واتساع خيراتها حتى تعم الثروة كافة الناس ، فيتطاول الحفاة العراة في البنيان ، وينغمسوا في البذخ والترف . وقيل غير ذلك . وقد عرفت الحكمة في مجيء الأمارات على هذا الوجه من الإيهام فيما سبق في العلامة الأولى .

وقوله : « قال ثم انطلق » أي قال عمر رضي الله عنه راوى الحديث : ثم انطلق السائل فلبث مليا ؛ روى : فلبث ثلاثا ، أي ثلاث ليال ؛ وفي رواية أبي هريرة : ثم أدبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوه فلم يروا شيئا فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . ولا تعارض بين هذه الرواية ورواية عمر التي فيها فلبث مليا أو ثلاثا ، فقد يكون عمر قام عند قيام السائل وقبل أمره صلى الله عليه وسلم من يبق من الصحابة برده ، فلم يعلم ما علمه الذين بقوا في المجلس إذ ذهبوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فأعلمه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث ، وأما هم فقد علموا في المجلس أنه جبريل .

والسرفي مجيء جبريل عليه السلام على هذا الوجه أن ينههم أن يسألوا عما فيه فائدة لهم في دينهم : من معنى الإيمان والإسلام والإحسان ، فيقيسوا عليها السؤال عن المهم من

الأحكام، ولا يسترسلوا في السؤال عن غير المهم، كسؤال بعضهم: أين أبي، ونحو ذلك.
وأما سؤاله عن الساعة فليعلمهم أنه لا سبيل إلى علمها فيكفوا عن السؤال عنها.
ولقد جمع لهم هذا الحديث أمر العقيدة وتفصيلها، والعبادات العملية وأمها
أبوابها، وطريق الترقى في عبادات الله والتقرب إليه، الذي هو المقصد الأعظم، والغاية
القصوى، والنهاية في سعادة الدارين، وأوقفهم عند الحد فيما استأثر الله تعالى بعلمه،
فكان ذلك من أئمن المجالس وأعودها عليهم وعلى المسامحين بالخير والبركة، والله سبحانه
وتعالى أعلم

ابراهيم الجبالي

النظر في الملح

قال رجل للمهدي: عندي نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لمن نصيحتك هذه؟
لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال: ليس الساعي بأعظم
عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفي
غيطك، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك؛ ثم أقبل على الناس فقال: لا ينصح لنا ناصح
إلا بما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب، ومن
استتر عنا لم نكشفه، ومن بادانا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقاننا عثرته، فاني أرى التأديب
بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب
لا تبقى لوال لا ينعط إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا
يرحم إذا استرحم.

الفتاوى والأحكام

هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء

جاءنا هذا السؤال من حضرات الموقعين ، ونصه بعد الديباجة :

الذي نعتقد ونعتقد أن كل موحد صادق يعتقد أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، واليوم وقع في يدنا مجلة النار فوجدنا صاحبها يقول : إن أجساد الأنبياء تبلى ، ويجهد في تضعيف الحديث الوارد في ذلك ، ولا يجب اعتقاد أن أجساد الأنبياء لا تبلى ، ويقول : إن هذه المسألة من مسائل الإيمان بعالم الغيب ، فهي اعتقادية ، وما يجب اعتقاده والإيمان به لا يثبت إلا بالنصوص القطعية الرواية والدلالة ، وليس فيها نص ظني راجح فضلا عن القاطع ، ويقول : إنها من مسائل المناقب والفضائل التي يقبلون فيها الروايات الظنية ولا يأبون إثباتها بما دونها من الضعاف ، وبهذا النظر قبل بعض ما روى فيها وإن كان معلولا ، إلى أن يقول : إن التسليم بهذه الخرافات وعدم إنكار العلماء لها قد كان فتنة للعقلاء المستقلين ، منفرا لهم عن الدين ، إلى أن يقول : وقد نبش بعض رجال الحكومة التركية اللادينية الحاضرة بعض قبور الأولياء المعتقدين عند العامة أمام الجماهير منهم فأروهم بأعينهم أنه ليس فيها إلا عظام نخرة . هذا ما قال ، فخرجوا من فضيلتكم بيان الحق في ذلك حتى نطمئن على عقيدتنا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فوزى السير خالده التجاني
مدرس

أحمد سلمان عثمان التجاني
مدرس بمدرسة الكفر القديم

عبد الحميد محمد بيومي
المدرس بمدرسة الروامل

وآخرين

محمد محمد غالى التجاني
مدرس بمدرسة العدلية

عبد الرزيم مصطفى التجاني
مدرس بمدرسة الجوسق الازلامية

الجواب

أحضرنا المجلة المذكورة فقرأنا ما فيها خاصا بذلك الموضوع ، وإنا نرى قبل كل شيء أن نبين ما في هذه المجلة من التناقض الذى يدل على الضعف العلمى وعدم الرسوخ فى القوانين المنطقية ، ثم المجازفات الشنيعة التى لا يقدم عليها محتاط لدينه ولا مثبت فى علمه فنقول :

قال الشيخ رشيد : إن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية التى يجب أن تكون أدلتها قطعية ، ثم قال بعد ذلك إنها من مسائل الفضائل التى يتساهلون فيها . وكفى بذلك تناقضا وجهلا . ثم نقول له ثانيا : إن الاعتقادات التى يجب فيها القطع هى التى تكون من أصول الدين ، وليست كل مسألة غير عملية يلزم فيها القطع ، بدليل ما ذكرته أنت من أن الفضائل يتساهل فيها ، وليس معنى كون المسألة اعتقادية أن فيها اعتقادا كما توهمه صاحب المنار ، فإن المسائل العملية نعتقد صحتها ووجوبها أو سذبتها الخ ولا نقدم على شيء من الأمور العملية إلا بعد أن نصدق بأنه شرع الله ورد به خطابه المتعاق بأفعال المكلفين ، وإذا لم نعتقد ذلك لم يكن حكما شرعيا عندنا ، فإذا لا بد من الاعتقاد فى مسائل الحلال والحرام والفروع العملية كلها ، كما أن من الاعتقادات الاعتقاد بأن أبا بكر أفضل الصحابة مثلا ، وأنه أحق بالخلافة منهم ، وأن عمر أفضل من عثمان ، وأن المسجد الحرام أفضل من المسجد الأقصى الخ ، وهذه كلها لا عمل فيها ، وإنما فيها الاعتقاد ؛ أفيرى الشيخ أنه لا بد فيها من الدليل القاطع كما يقول ، أم يسهل عليه أن نفيده أن الاعتقادات التى سمع العلماء يقولون فيها : إن دليها قاطع هى أصول الدين التى لا بد منها فى كون الشخص مسلما ؟ .

والخلاصة أن الاعتقادات التى يجب أن تكون أدلتها قطعية هى ما يكفر جاحدها لا كل ما فيه اعتقاد ، أو ما ليس فيه عمل كما ظن حضرته ، فلا نطاق الاعتقادات

إلا على ما أوجب الدين اعتقاده وجعله من الأصول لا من الفروع ، والأصول كلها اعتقادية ، فصارت هذه العبارة متعارفة بينهم في ذلك ، كما لا يخفى على من مارس العلم أو تلقاه عن العلماء . ثم نقول : كيف يكرر الشيخ أن المسألة ليست قطعية ولا ظنية مع ورود الأحاديث الصحيحة فيها على ما ذكره بعد ، ويصف القائلين بذلك أنهم خرافيون ! وهذه جراءة غريبة ، فإن الأحاديث في ذلك صحيحة لا شك فيها ، وقد خرجها الثقات من أئمة الحديث وصححوها كما ستسمع . أما ما يقوله من أن الأتراك نبشوا قبور الأولياء فوجدوها عظاما نخرة ، فلا يستدل به إلا من ليس له علم ، ومن أين جاءه أن الولي دفن في هذه القبور ؟ ! وهل ثبت عنده ذلك من طريق صحيح وهو يطعن في الطرق الصحيحة إذا كان فيها فضل الأنبياء وشرفهم ونحو ذلك مما لا يوافق نزعتهم ، ويصدق كل ما يقال ولو كان أو هي من بيت العنكبوت إذا صادف هوى في نفسه أو جاء عن الأوربيين ، وإذا يؤول له الآيات القرآنية :

ثم نقول بعد ذلك : ما لنا وللأولياء ؟ وأين هذا من كلام السائل الذي سأل عن الأنبياء الذين وردت فيهم الأحاديث الصحيحة ، لا في الأولياء الذين يجوز عليهم كل شيء حيث لم يكونوا معصومين ؟ ! فلو ثبت ما قاله لصح أن نقول : إن الولي قد تغير حاله واقترب من الكبر ما جعله في زمرة الفاسقين ، فذلك جائز عليهم ، كما يجوز الغلط في اعتقاد أنهم أولياء . ولماذا يذكر ما رآه الكماليون ولا يذكر ما ذكرته الجرائد المصرية في ظروف كثيرة من ذلك عند ما كانت الحكومة تريد أن تنقل بعض الأولياء من أماكنهم لأمر ما « كآبي نوار — بينها » وأحد الصحابة بالعراق ، وقد حضر نقل جثمانه جمهور عظيم وعلى رأسه جلالة الملك فيصل ، كما ذكرته الجرائد من عهد قريب ! وغير ذلك كثير لا يحضرني الآن ، ووزارة الأوقاف تعرف كثيرا منه .

وفي موطن الإمام مالك وغيره أن معاوية لما أراد أن يجري النهر الذي يمر في قبور الشهداء بأحد ، وجدوا عمرو بن الجوح لم يتغير ، وكذلك غيره ، حتى قال بعضهم :

لا ينكر بعد هذا منكر . وكان بين غزوة أحد وحفر النهر ست وأربعون سنة ؛ وفي مثل هذا آثار كثيرة ، فلماذا يعدل عما في الموطأ وغيره الى ما روى عن الأتراك ولو كان صحيحا كما يقول ؟ ! .

الخطم على الحرب :

ورد في هذا الموضوع أحاديث كثيرة — منها حديث « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » وهو حديث صحيح في نهاية الصحة لا غبار عليه ، صححه من الأئمة من لا يحصى عددهم ، منهم ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبي (صفحة ٢٧٨ جزء أول من المستدرک) ، وصححه أيضا النووي في الأذكار ، والحافظ عبد الغني ابن سعيد المقدسي والامام القرطبي في التذكرة ، والحافظ ابن يحيى وقال : إنه صحيح محفوظ ينقله العدل عن العدل ، وحسنه ابن العربي المالكي فيما نقله عنه الثعالبي في العلوم الفاخرة ، وحسنه أيضا المنذرى فيما نقله عنه السخاوى ، وصدره في الترغيب والترهيب بعن ، وهي علامة الصحيح والحسن عنده .

ومع تصحيح هؤلاء الحفاظ الأعلام ، وفيهم الذين لا يعرف لهم تساهل فيه كالذهبي والمنذرى وابن العربي المالكي ، فإننا نتكلم على الحديث من جهة الصنعة الحديثية فنقول : الحديث أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة وأحمد في مسنده ، وابن أبي عاصم في الصلاة له ، وأبوداود والنسائي وابن ماجه في سننهم ، والطبراني في معجمه ، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في صحاحهم ، والبيهقي في حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه ، كلهم من طريق حسين بن علي الجعفي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس الثقفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل أيامكم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثرُوا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » ، قالوا : وكيف

تعرض صلاتنا عليك وقد أرممت — يقولون بليت — قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيح — أبو الأشعث الصنعاني اسمه شراحيل بن أدة ، روى له مسلم ، ووثقه العجلي ، وذكره ابن حبان في الثقات . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر روى له البخاري ومسلم ، ووثقه ابن معين والعجلي ، وابن سعد والنسائي ويعقوب بن سفيان وأبو داود وغيرهم . والحسين بن علي الجعفي روى له البخاري ومسلم ، ثقة باتفاق ، قال عثمان بن أبي شيبة : بخ ثقة صدوق ، وبه تم الإسناد ، فإن حسين بن علي شيخ جماعة ممن أخرجوا الحديث ؛ فهذا برهان ما حكم به أولئك الحفاظ من الصحة لهذا الحديث .

ثم إن له طريقا آخر أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي الدرداء مرفوعا « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فإنه مشهود يشهده الملائكة ، وإن أحدا لن يصلي على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها ، قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال وبعد الموت ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » قال الحفاظ المنذري في الترغيب والترهيب : إسناده جيد ؛ وكذا قال العلامة السهمودي في وفاة الوفا (صفحة ٤٠٦ جزء ثاني) وقال السخاوي في القول البديع والحافظ البوصيري في زوائد ابن ماجه : رجاله ثقات ، إلا أن فيه انقطاعا . قالت : انقطاعه لا يضر ، لأن الحديث الأول الصحيح شاهد له . وله طريق ثالث عن ابن شهاب مرسلا : « أكثروا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهري ، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » أخرجه النعمري والطبراني كما ذكره السخاوي في القول البديع . وله طريق رابع أخرجه ابن ماجه من حديث شداد بن أوس بلفظ حديث أوس بن أوس . وله طرق أخرى ذكرها الحفاظ المنذري في اختصار السنن لأبي داود أنه جمعها في جزء خاص . فلا يرتاب مع هذه الطرق والشواهد في صحة هذا الحديث إلا متعصب جاهل أو معاند مضل .

ويلتحق بذلك الموضوع ما يحسن أن نتم به هذا المقام ، وهو حديث : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » رواه أبو يعلى والبيهقي من طرق متعددة من حديث أنس ابن مالك ، قال المناوى فى شرح الجامع الصغير قال السهوى : رجاله ثقات ، وصححه البيهقي . انتهى . قلت : والسهوى ذكر ذلك فى وفاة الوفا (ص ٤٠٥ جزء ثانى) ، وسبقه الى ذلك الحافظ السخاوى فقال فى القول البديع (صفحة ١٢٦) : رجاله ثقات ، وصححه البيهقي .

ولنبين ذلك من طريق الصناعة الحديثية حتى ينقطع لسان كل مكابر فنقول : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الجهم بن على ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، حدثنا المستلم بن سعيد عن الحجاج بن الأسود عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » رجاله كلهم ثقات — ثابت : هو البنانى ، لا يسأل عنه لإمامته وجلالته ، ثقة باتفاق ، من رجال البخارى ومسلم . والحجاج بن الأسود قال أحمد : ثقة ، رجل صالح . وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم : صالح الحديث ؛ وذكره ابن حبان فى الثقات ؛ ولم يعرفه الذهبى فقال : إنه غير معروف ؛ ورد ذلك الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان بأنه معروف ، روى عن ثابت وجابر بن زيد وأبى نضرة وجماعة ، وعنه جرير بن حزم وحماد بن سلمة وروح بن عباد وآخرون ؛ ثم ذكر عن الأئمة توثيقه الذى قدمناه ، والراوى عنه مستلم بن سعيد من رجال الأربعة ، قال أحمد : شيخ ثقة ، من أهل واسط ، قليل الحديث ؛ وقال النسائى : ليس به بأس ؛ وذكره ابن حبان فى الثقات . ويحيى بن أبى بكير ثقة ، من رجال البخارى ومسلم ، وثقة ابن معين والعجلي ، وقال أبو حاتم : صدوق . وقال على بن المدينى : ثقة ؛ وذكره ابن حبان فى الثقات . وأبو الجهم روى له البخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى صحيحه ؛ وذكره ابن حبان فى الثقات .

فقال رجال هذا الإسناد كما ترى : كلهم ثقات ، فهو صحيح على رأى ابن حبان والحاكم وأمثالهما ، حسن على رأى البخارى وأمثاله . ثم له طرق أخرى أخرجهما البيهقى فى حياة الأنبياء ، وبها يرتفع الى درجة الصحيح المتفق عليه — منها حديث الإسراء الذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبى فى التذكرة ، وابن القيم فى كتاب الروح ، والحافظ السيوطى فى غير ما كتاب من كتبه على أن أحاديث حياة الأنبياء فى قبورهم متواترة ، وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبى : صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء خصوصا بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، الى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون لا نراهم . انتهى .

وقد نقل كلام القرطبى هذا أيضا وأقره الشيخ محمد السفارينى الحنبلى فى شرحه لعقيدة أهل السنة ، الى آخر ما كتبناه فى حياة الأنبياء بشهر صفر من هذه السنة . وقد نص الحاكم والحافظ السيوطى على أن حديث الإسراء متواتر أيضا ، وحديث « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ورد من طرق متعددة كما قدمناه ؛ وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم ، والآنبياء أفضل من الشهداء اهـ . فصاحب المنار خرق إجماع المسلمين ، وعارض ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه بالدليل القاطع .

مناقشة الشيخ رشيد في عبارة المرافقة :

وبعد هذا يحسن أن نتلو عليك شيئاً من عباراته لتعلم ما فيها من جهل وتناقض فنقول : قال تمهيدا لاستنتاجه الفاسد : « إن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم وموتهم » ونحن نقول له : إن سنة الله في الأنبياء والمرسلين ليست كسنته في غيرهم ، بل سنة الله في الصالحين ليست كسنته في الطالحين ، ولهذا أظهر المعجزات على يد الأنبياء ، والكرامات على يد الصالحين ، وخصهم بخصائص ليست لغيرهم في الحياة وبعد الممات ؛ وهل من سنة الله أن يسمع من في المدينة من يكون ببلاد فارس ، كما حصل لعمر مع سارية رضى الله عنهما ؟ وهل من سنة الله أن تضيء العصا لصاحبها كما حصل لأسيد بن حضير وعباد بن بشر لما خرجا من عند رسول الله في ليلة مظلمة ، وهو في البخارى وغيره ؟ بل نقول : وهل من سنة الله الإسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم الرجوع في ليلة واحدة ، بل العروج الى السموات العلا والى سدرة المنتهى الخ الخ ؟ أم هو كلام قائل فاعتر به جاهل ، قياسا على الأعراض البشرية من المرض والقتل والحياة والموت الخ ؟ ! ولماذا لم يساموا السحرة مع صحة حديثه وهو من الأعراض البشرية ؟ أم يحلونه عاما ويحرمونه عاما ؟ ! وقد قال تعالى في حق الشهداء : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، والأنبياء أفضل من الشهداء بإجماع ، فهل يرى أن كل ميزة للأنبياء والشهداء هي مشتركة بينهم وبين غيرهم تحقيقا لما قاله من أن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم ومماتهم ، وإذا لا تكون ميزة ، فهل يقولون هذا ؟ !

ثم انظر الى قول الشيخ رشيد الأمين الثقة بعد ذلك : إنه ورد في غير الصحاح أن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض ؛ وما أدري كيف يحل له أن يقول بعد ما سمعته في تصحيح الحديث : إن ذلك ورد في غير الصحاح ؛ ثم قال حضرته : وأمثلة ما ورد في ذلك حديث أوس بن أوس في فضل يوم الجمعة الذى فيه أن الصلاة عليه صلى الله

عليه وسلم تعرض عليه ، قال أوس : قال يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أُرِمت ؟ يعنى بليت — قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء رواه أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والبيهقي في الشعب ، وفي رسالته حياة الأنبياء وغيرهم ، وقد صححه بعضهم وحسنه آخرون ، منهم المنذرى .

هذا كلامه ، فانظر لذكره هؤلاء الأئمة الذين خرجوا الحديث ثم صحّوه أو حسّنوه ، ثم انظر الى ما سبق له والى ما يذكره من أن الذى تمسك بهذا هم المخرفون ! ثم قال بعد ذلك طاعنا في الحديث ما خلاصته : إن أباحاتم جزم بأن في الحديث علة خفية ، وهى أن راويه حسين الجعفي غلط في اسم جد شيخه عبد الرحمن بن يزيد فسماه جابرا ، وإنما هو تميم ، وابن تميم منكر الحديث ، فالحديث منكر لهذه العلة . هذا محصل عبارته على تحريف وغلط فيها . ثم قال : لكن هذه العلة ردها الدارقطني وقال : إن سماع حسين من جابر (وصوابه من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر) ثابت ، والى هذا جنح الخطيب ، والعلم عند الله تعالى . وهناك أحاديث أخرى تقويه وتشهد له اهـ .

ونقول له : كيف يحل لك بعد ما ذكرت كثيرا من أولئك الأئمة الذين صحّوه ، وبعد ما ذكرت أنت أن الدارقطني رد هذه العلة وقال : إن سماع حسين الجعفي من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثابت وواقفه الخطيب ، نقول : كيف يحل لك بعد ذلك كله أن تجعل القائمين بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء مخرفين ! أقلا تعقل يا أستاذ ما تكتب ؟ أما كان ينبغي لك أن تقول في المقدمات غير ما قلت ، أو تكتب في النتيجة غير ما كتبت ؟ ! ولكن لا غرابة ، فلست من أهل هذا الشأن ، وليس فيك استعداد لأن تكون من أهل المنطق .

وبعد فنقول : إن الدارقطني أثبت في هذا الشأن من أبي حاتم ، ولا أدري كيف يتجه هذا الطعن والحديث في سنن أبي داود والنسائي وغيرهما ، وفيه التصريح بأن عبد الرحمن هو ابن يزيد بن جابر لا ابن تميم ؟ ! .

ولنذكر لك شيئاً مما ذكره علماء المصطلح عن أبي حاتم الذي قدمه الشيخ رشيد على أولئك الأئمة الذين صححوا الحديث جميعاً — قال في شرح التقريب :

- (١) « أحمد » عن عاصم البليخي : جهله أبو حاتم لأنه لم يخبر حاله ، ووثقه ابن حبان .
- (٢) « أبو اليسع » : جهله أبو حاتم وعرفه البخاري .
- (٣) « بيان » بن عمرو : جهله أبو حاتم ووثقه المديني وابن حبان وابن عدي ، وروى عنه البخاري وأبو زرعة وعبد الله بن أبي واصل .
- (٤) « الحسين » بن الحسن بن يسار : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وغيره .
- (٥) « الحكم » بن عبد الله المقبري : جهله أبو حاتم ووثقه الذهلي ، وروى عنه الثقات .
- (٦) « عباس » بن الحسين القنطري : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وابنه ، وروى عنه البخاري والحسن بن علي المعمرى ، وموسى بن هرون الجمال ، وغيرهم .
- (٧) « محمد » بن الحكم المروزي : جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وروى عنه البخاري .

وبعد فما أدري كيف يطعنون في هذا الحديث بتلك العلة التي لا معنى لها بعد أن صرح حسين الجعفي بأنه راو عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لاعتن عبد الرحمن بن يزيد ابن تميم ، وليس من شأنه أن يروى عن الضعاف ، ولا يعقل أن يخفى ذلك عليه ، ولا أن يغلط في شيخه : .

ولنذكر لك شيئاً من ترجمته زيادة على ما تقدم فنقول : هو حسين بن علي الجعفي مقرئ الكوفة وعابدها ومحدثها ، وشيخ أحمد وابن راهويه وابن معين وغيرهم ، ووثقه العجلي وابن معين وابن حبان وغيرهم ، وكان في الورع آية ، وقد خرج له الشيخان وأصحاب السنن الأربعة ، فلن يجد المتطلب معجزاً فيه .

لونه أفر:

وقبل إلقاء القلم نتحفك بشيء طريف يدلك على علم الشيخ رشيد وتحريره وسعة اطلاعه ، وتقول : على عقله الكبير وعلمه الغزير :

جاء في تفسير ابن كثير الذى طبعه الشيخ رشيد هذا الحديث الذى رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَيْكُمْ يَتَابَعْنِي عَلَى ثَلَاثٍ ؟ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ وَفَى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » الخ . قال الحاكم : صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه . فعلق عليه الشيخ رشيد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث . ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدح فى صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا ، والنبي صلى الله عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ؛ وقد جاء التصريح بذلك فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت وفيه : « أَيْكُمْ يَتَابَعْنِي عَلَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ » ثم تلا : (قُلْ تَعَالَوْا) إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ . فانظر الى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائماً على شفا جرف هار ؛ وكمله ولا تباعه من أمثال هذه التعليقات الحمقاء . فرحم الله امرأ عرف قدره ، فلم يتعد طوره . ولعلنا نذكر للقارئ ما يبين خطأه فى المحسوس ، ومقدار أمانته فى النقل بما لا يستطيع أن يمارى فيه . ولعمرك الله ما قرأت عدداً من أعداد المنار إلا وجدت فيه من الجهل والتناقض وقلة الذوق وسخافة التعبير ما لو أردت أن أكتب فيه لكان كثيراً وخطيراً ، ولكن التعليق على المنار أكثر من المنار ، ولكن نريك نماذج منها على سبيل الفكاهة ، وهى تنبئ عما وراءها .

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء بالازهر

العدوى

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر » فهل يفهم من قوله عليه السلام « لا عدوى » أنه لا يعدى شيء شيئاً بمعنى أن المريض بمرض الجرب مثلاً لا يعدى السليم بنقل جرثومة المرض ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل قوله عليه الصلاة والسلام « لا عدوى » يتعارض مع قوله : « فر من المجدوم فرارك من الأسد » ومع قوله أيضاً : « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » ؟ كل هذا ما نرجو شرحه حتى يتبين الرشد من الغي، وتفضلوا بقبول تحياتي

عبد السلام أحمد فضل

مدرس بمدرسة شبرا هارس الازامية

الجواب

روى البخارى بسنده عن سعيد بن ميناء قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ^(١) ولا طيرة ^(٢) ولا هامة ^(٣) ولا صفر ^(٤) وفر من المجدوم كما تفر من الأسد » .

(١) العدوى : اسم من الاعداء كالعدوى والبقوى من الارعاء والابقاء . يقال : أعداء الداء يعديه إعداء وهو أن يصيبه مثل ما يصاحب الداء . (٢) الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن : التشاؤم بالشيء . وهو مصدر تطير يقال تطير طيرة . (٣) الهامة : الرأس . واسم طائر من طير الليل . وقيل هي البومة . وقيل كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك نأره يصير هامة فيقول : اسقوني اسقوني حتى إذا ما أخذ أهله بنأره طارت . وقيل كانوا يزعمون أن روح الميت تصير هامة فتطير ويسمونه العدوى . (٤) الصفر : اسم لحيه العرب أنها في البطن تصيب الانسان إذا جاع وتؤذنه وأنها تعدى . وقيل المراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية وهو تأخير الحرم إلى صفر ويجعلون صفر هو الشهر الحرام .

وروى مسلم رضى الله عنه عن أبي هريرة حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابي : يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها
الظباء فيجىء البعير الأجرى فيدخل فيها فيجر بها كلها ، قال : فمن أعدى الأول ؟ .
وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عدوى » وقال : « لا يورد
ممرض ^(١) على مصبح » . وروى مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وروى مسلم عن ابن عمر أيضاً أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يكن من الشؤم شئٌ حق في الفرس والمرأة والدار » .
هذا بعض ما روى في هذا الباب . وقد رأى الذين لا يتدبرون ولا ينظرون
في الأمور إلا بما تمليه أهواؤهم أن بين تلك الأحاديث تعارضاً ، وأن بين صدر الحديث
الأول وآخره تنافياً ؛ ولو فقه هؤلاء الذين شغفوا بحجب الاعتراض بغير حق إلى
ما في هذه الأحاديث من تثقيف وتعليم ، وما فيها من حكم ، وفطنوا لما كان عليه حال
العرب حين بعثته صلى الله عليه وسلم من اعتقادات باطلة ، وجرى وراء أهوام ووساوس
ما أنزل الله بها من سلطان ، لأعجبوا بتلك الحكم التي اجتثت من نفوس الصحابة
والمسلمين سلطان الأهوام ، وأفهمتهم جميعاً أنه لا مسيطر في السكون إلا الواحد القهار
سبحانه وتعالى ، وأنه يخلق ما يشاء ، وأنه بحكمته قد ربط الأسباب بالمسببات ؛ ولكن
أنى لهم ذلك وقد ران على قلوبهم ما فيها من غل وحقد للدين الاسلامي وتعاليمه
وإرشاداته ! وسنوضح لك في هذه العجالة ما نزيح ستار الأهوام التي عساها تعلق
ببعض الأفهام حتى يتجلى لك الحق ناصعاً :

بعث صلى الله عليه وسلم وحال الأمة العربية من أسوأ الأحوال : كان الفخر
كل الفخر لديهم في سفك الدماء ، وابتزاز القوى مال الضعيف ، وقد استحوذ عليهم

(١) الممرض بكسر الزاء : صاحب الابل المراض . والمصحب بكسر الصاد : صاحب الابل المصحح .

الجهل فقتل قلوبهم ، وفسدت عقائدهم ، حتى عبدوا الأصنام ، واستباحوا الحرمات ؛ وكانت لهم عادات مستهجنة مستقبحة تغلغلت في نفوسهم ، فكان طبيعياً أن النبي عليه الصلاة والسلام يزيل تلك العقائد الباطلة ، ويزيح الشبهات الفاسدة ، ويعلمهم ويرشدهم الى ما فيه خيرهم في معاشهم ومعادهم . ولقد كان صلى الله عليه وسلم دائب الدعوة الى النجاة ، وترك البغى والاستسلام للأوهام ، لا يدع فرصة دون أن يعلم أصحابه أحكام الحنيفية السمحة ، ويرشدهم الى ما هو مستقيح ومبتذل من عادات العرب ، مبيناً لهم أن بعض هذه العادات تتضمن الشرك والكفر ، ومن أول واجب المسلم ألا يجعل لوساوس الشيطان الى نفسه سبيلاً حتى لا يقع في الشرك الخفى .

وكان مما يعتقده العرب - وهو كثير عندهم وشائع لديهم - اعتقاد أن المرض يؤثر بطبعه ، وأن عدوى المريض للصحيح أمر ذاتى لا ينفك ولا يتأتى أن يتخلف ؛ وذلك ناشئ من عدم فهم هؤلاء لربط الأسباب بالمسببات ، وعدم إدراكهم لما يجب لله من كمال ، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم الى أن الواجب أن يعتقد المسلم أن الله سبحانه وتعالى بيده الخلق والأمر ، لا مسيطر على الكائنات سواه ، ولا فاعل غيره ، وأن كل شئ بقضائه وقدره ، وأن عدوى المريض للسليم ليست أمراً حتماً ، ولا لازماً ضرورياً لا ينفك ، لأن الله سبحانه وتعالى قد يخلق في السليم من المناعة والقوة ما يجعله بعيداً عن التأثر بمرض المريض .

جهل هؤلاء كل هذا ، وجهلوا ما هو واقع تحت حواسهم كل حين ، ومشاهد لكل إنسان : من أن المريض لا يلزم أن يعدى السليم ، فكثيراً ما يصاحب السليم المريض ويمكث معه الأزمان الطوال ولا يصاب بأذى ، وأن انتقال العدوى الى السليم أمر ممكن يجوز أن يكون وألا يكون ، وأن ذلك منوط بقدر الله ، فمن شاء الله أمرضه ومن شاء الله وقاه ، كما أن من أراد هلاكه أهلكه ومن أراد شفاؤه شفاه .

خفي هذا على العرب وعلى كثير غيرهم فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى كل ما قدمناه بقوله : « لا عدوى » فأبان لهم أن العدوى وإن حصلت غير لازمة ، وأن ذلك من صنع الحكيم ؛ ولما ناقشه الأعرابي الذي لم يدرك الحقيقة ووقف عند رؤيته بعض الحوادث بقوله : « فما بال الأبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجىء البعير الأجرى فيجر بها كلها » ألزمه صلى الله عليه وسلم الحجة وأبان له حقيقة ما التبس عليه بالدليل القاطع ، فقال : « فن أعدى الأول » ؟ وهى حجة قاطعة لكل شبهة لا تدع للشك مجالاً في أن المرض وانتقاله بقدر الله الذى خالق الداء والدواء .

أرشد صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى أن العدوى ليست أمراً لا يمكن تخلفه ، وأرشدهم في الوقت نفسه إلى أن انتقال المرض من المريض إلى السليم قد يكون وقد يحصل بفعل الله وقدره ، وأن الواجب هو اعتقاد أن العدوى ليست ذاتية ، وليس معنى هذا أنها لا تكون البتة ، بل إذا أراد الله كونها كانت ؛ ولما كانت مخالطة السليم للمريض مما جرت عادة الله بمخالق المرض عنده تخلق الشئع عند الأكل والرى عند الظمأ ، هدى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله وقدره . وبيان ذلك أن مخالطة المجذوم وغيره كالمسؤول من أسباب العدوى عادة ، فربما حصل عند المخالطة أن يصاب السليم بالمرض فيمظن أن ذلك ناشئ من مخالطته ، وأنه لولا المخالطة لما حصل له ما حصل ، فيقع في الشرك ، وقد يدخل في نفسه من الخفيضة على المريض وأهله ما يوجب شراً ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم باجتنب ما قد يكون فيه الأذى لأن ذلك أسكن لقلوبهم وأطيب ، وأبعد لنفوسهم مما قد يستبقي اليها من الفهم الخاطئ الذى يوجب الإثم أو الشرك . يرشدك إلى هذا أنه صلى الله عليه وسلم مع تعليمه لهم ذلك أكل مع المجذوم في إناء واحد وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه » فأرشد بصنيعه صلى الله عليه وسلم إلى أنه إنما أراد إرشاد الناس بقوله : فر من المجذوم إلى الابتعاد عما عساه يكون سبباً في ضررهم ، وأن هذا السبب وهو المخالطة لا تأثير له بطبعه ، بل

بقدر الله وأنه سبحانه وتعالى وإن جعل المرض سببا للعدوى قد يخلق من الأسباب ما يعارض هذا السبب، كالمناعة في الصحيح وعدم استعداد جسمه لفعل جراثيم المرض. ولقد أفاد صلى الله عليه وسلم بصنيعه وقوله للمجذوم: «كل ثقة بالله وتوكلا عليه» أن من أهم الأسباب التي تعارض السبب الأول التوكل على الله، إذ بركة التوكل يبعد الله الضرر، بيد أن التوكل على الله إلى الحد الذي يستطيعه رسول الله ليس في إمكان سائر الناس، لذلك علمهم أن لهم أن يحتنبوا المجذوم، وفعل ذلك بنفسه صلى الله عليه وسلم حيث أرسل إلى المجذوم الذي أراد بيعته «أنا قد بايعناك فأرجع» تشريعا منه لأصحابه وأتباعه. من هذا يتبين بأجلى وضوح عدم التعارض بين قوله صلى الله عليه وسلم: لا عدوى، وقوله: فر من المجذوم كما تفر من الأسد. ومن هذا الذي ذكرناه أيضا يتبين عدم التناقض بين قوله: لا عدوى، وبين قوله: لا يورد ممرض على مصح. ومن هذا القبيل نهيه صلى الله عليه وسلم عن دخول البلد الموبوء والخروج منه، فقصد بذلك إبعاد الناس عن الفتنة، حتى لا يظن أن هلاك القادم إنما حصل بقدمه، وسلامة الفار إنما كانت بفراره، فعلمهم الاحتراز من المكاره وأسبابها، وأن الواجب هو التسليم لقضاء الله عند حلول الآفات. وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: «الطاعون فتنة على المقيم والفار، أما الفار فيقول: فررت فنجوت، وأما المقيم فيقول: أقيمت فتة، وإنما فر من لم يأت أجله، وأقام من حضر أجله».

قدمنا لك أن حال العرب كانت سيئة، وأن لهم من العادات ما هو قبيح ومذموم، فمن تلك العادات المردولة (والتي هي من الشرك) زجرهم الطير والوحش، وركوبهم إلى جماعة العرافين، وهم الذين اشتهروا بإحسان زجر الطير واستنقار الوحوش، فكانوا يقصدونهم لعملية الزجر فيستنفرون هؤلاء الوحش أو يزجرون الطير، فما تيامن منها سموه سأنحا وتقاء لوابه، وما تياسر سموه بارحا وتشاء موابه (وقد يعكس بعضهم الأمر)

وكان العراف يحتكم فيهم وهم يصنعون لقوله ولا يصدرون إلا عن رأيه ، فيصدّم عن حوائجهم ، وقد يأمرهم باتباع غير ما عزموا عليه ، فيأمرهم بالسلم عند إرادة الحرب ، وبالهرب عند إرادتهم السلم ؛ وقد يقصد أحدهم الأمر لمصلحة فينهاه عنه .

اشتهر ذلك بينهم وكثر فيهم ، حتى صاروا يزجرون الطير بأنفسهم دون حاجة الى العرافين ، فكان الرجل منهم يخرج لحاجته فاذا عرض له طير أو شبح تشاءم وقعد عن حاجته ؛ وقد يقصد زيارة صديق فيسمع كلمة من رجل أو غثاء من شاة فيتشأم ويقعد عن غرضه ؛ وقد يتوهم أن صديقه توفى .

استحكم ذلك فيهم واستمروا يفعلونه حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فنفي الطيرة مثبتاً أن لا تأثير لها ، ولا هي موجبة شيئاً مما يتوهمونه عندها ، وأن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء ، فما أراد من خير كان وما لم يرد لم يكن ، وأن على المسلم أن يعتمد على الله في كل أمره ، فلا يصد نفسه عن عمل أو قصد لجرد وسواس ألقاه الشيطان في روعه ، لأن اعتقاد أن ذلك مؤثر شرك مؤد بمعتقدته الى غير طريق السلام .

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا والى ما في الطيرة من ضرر ، فنفي تأثيرها ، وقصد بذلك عليه الصلاة والسلام إفهام صحابته الى أن الطيرة مصدرها الشيطان ، إذ هو يلقى في نفس المتطير أن ذلك مؤثر ، وأن ما ظنه حق لا شك فيه ، وما توجه أمره لا بد واقع ، فأفاد صلى الله عليه وسلم أصحابه بنى الطيرة فوائدها ، لأن من جعل للطيرة والتشاؤم سبيلاً الى نفسه ، وطريقاً الى قلبه ، لا يكاد يصل الى خير ، فإن الشيطان لا يفتأ يوسوس في نفسه فيكدر عليه صفوه ، وينكد عيشه ، ويفسد دينه ، ويجعله تحت سلطان الحوادث ، فيقعده عن العمل رعباً وخوفاً ، وتنجسم لديه الأوهام فتملك له ، فيصبح غير نافع ولا منتفع به ، وتكثر عليه المصائب والآحزن ، وتصيبه البلايا ، فيعيش منكوداً حزيناً ، يعادى محبيه لقول عاداته ، ويصبح في ليل من الشك مظلم .

أما من لا يعبأ بالطيرة ولا يجعل للوساوس على نفسه سلطانا، فلا يضره التطير، لأنه لا يحجبه عن عمل، ولا يصدده عن قصد، ولا يعوقه عن سير، ولا يحول بينه وبين ما يريد أو يقصد؛ وقد ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عنها (الطيرة): «ذاك شيء يجهده أحدكم، فلا يصدقه» وورد أيضا: «إذا تطيرت فلا ترجع» فعامهم عليه الصلاة والسلام أنه لا تأثير للطيرة، وأنها تضر من أشفق منها واستسلم لها، أما من لم يبال بها فلا تضره، لأن خالق الأشياء جميعها هو الخلاق العليم، ولن يصيب المرء إلا ما كتب الله له، وما يتوهمه المتطير إنما هو من كيد الشيطان يجب على المسلم أن يحذره.

إذا علمت هذا وعلمت أن القصد منه هو إفهام الناس أن المؤثر في الكائنات جميعها هو الله، ولا تأثير لما عداه، وأن التطير لا أثر له من ذاته، أممكنك التتقصي بسهولة عما يهول به من لا يفهم، من قولهم: إنه قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الشؤم في الدار والمرأة والفرس» وفي لفظ آخر: «إن يكن من الشؤم شيء حق ففي الفرس والمرأة والدار» لأنه لا منافاة في الواقع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أضاف الشؤم إلى هذه الثلاثة على سبيل التوسيع والتجاوز، لأن الشؤم يقع مقارنا لسكنى الرجل داراً، أو اتخاذه حليمة، أو شرائه فرسا، فأطلق صلى الله عليه وسلم الشؤم عليها توسعا، ولم يقصد أنها عينها توجب الشؤم، بل أراد أن الله خلقه عندها، وقدره فيها كما يخلق الموت عند القتل والرى عند الشرب من غير أن يكون شيء منها تأثير، حتى قال الامام مالك رضى الله عنه حين سئل عن الشؤم في الفرس والدار: «إن ذلك كذب فيما نرى، كم من دار سكنها قوم فهلكوا وأقام بها آخرون فملكوا، ولكن الناس اعتادوا» وهذا منه رضى الله عنه جواب من تتبع الحوادث وعلم الحق في المسألة، وأيقن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن من الناس الشقي ومنهم السعيد، ومنهم الناجي والهلاك، دون تأثير لمكان أو زمان.

ولك أن تخرج عما يتوهم من تعارض في الظاهر بما رآه بعض الأئمة من أن معنى أن الشؤم في هذه الثلاثة أن شؤمها يدرك من تشاءم أو تطير بها، أما من توكل على الله ولم يبال بالوساوس فلا تكون شؤماً عليه؛ ويقرب هذا ما روى عن أنس رضي الله عنه « الطيرة على من تطير » ومعناه أن الله قد يجعل تطير من يتطير سبباً لحصول الضرر والأذى، كما أنه يجعل توكل العبد عليه وثقته به سبباً في نجاته وإبعاد المهلك عنه، كما أن لك أن تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قصد بقوله أن يخبر عن الأسباب المثيرة للطيرة فأبان أن هذه الثلاثة هي المثيرة لها في غرائز الناس وطبائعهم، وقصد صلى الله عليه وسلم أن يحذر أصحابه ذلك بعد أن قرر لهم نفي الطيرة وبطلانها؛ وقد أجاب بعض أئمتنا بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجزم بالشؤم في هذه الثلاثة، بل علقه حيث قال: « إن يكن الشؤم في شيء ففيها » ومعلوم أنه لا يلزم من صدق القضية الشرطية صدق كل واحد من طرفيها، فقد يصدق التلازم بين المستحيلين؛ ويرى أصحاب هذا الرأي أن الراوى غلط وقال: الشؤم في ثلاثة، وإنما الحديث: إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة. وهذا الرأي واضح لا أثر للاشكال فيه.

وعلى الجملة فليس في شيء مما قدمناه لك تعارض أو تنافي، وأن من اعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب الطيرة إلى شيء معين على أنه مؤثرون الله، فقد كذب وافترى وضل ضلالاً بعيداً.

لم يقف جهد النبي صلى الله عليه وسلم في نصيحة قومه عند النهي عن بعض عادات العرب، بل أراد أن يعرف أصحابه كل ما كان عليه العرب من عادات تقرب إلى الشرك أو توقع فيه، فنفي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الهامة والصفر، وقد تقدم لك شرح كل منهما. والله أعلم.

طه مهيوب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

حكم رؤية الرقص والسماع

وورد من حضرة عبد الحفيظ إبراهيم اللاذقي ببيروت ما يأتي :

هل يجوز للإنسان أن يرى ويسمع الرقص والغناء والآلات المطربة كالضرب على العود والبيانو والكمانجة والفنوغراف أو غيرها، من الرجال أو النساء، وتعليم ذلك في المدارس أو غيرها للرجال والنساء أم لا ؟

الجواب

نص علماء الحنفية على أنه لا يجوز أن ينظر الإنسان من المرأة الحرة غير وجهها وكفيها، لقوله تعالى : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) لما في إبدائها من ضرورة الحاجة الى المعاملة مع الرجال والمخالطة ، وذلك كله خوف الفتنة والوقوع في المعصية ؛ وقد ورد « المرأة عورة مستورة » ونصوا أيضا على أنه لا يجوز التأمل في جسدها المستور بالثوب اذا كان يبين حجمها فيه ، ولم يحيزوا النظر لأحد غير الزوج إلا للطبيب ، فإنهم أباحوا نظره الى موضع المرض للضرورة ، حتى قالوا : إنه ينبغي للطبيب أن يعلم امرأة لتنظر مواضع المرض من النساء لأن نظر الجنس أخف ، فإن لم يمكن تعليم المرأة وكان نظر الطبيب لا بد منه ، ستر كل عضو منها سوى موضع المرض ، ثم ينظر الطبيب ويغض بصره عن غير ذلك الموضع ما استطاع ، لأن ما ثبت للضرورة يتقدر بقدرها . اذا علمت هذا يتبين لك واضحا جليا أنه لا يجوز أن يرى الانسان امرأة ترقص لأن ذلك فتنة وأى فتنة ، بل في ذلك مفسدة للدين والخلق جميعا ، لأن جسم الراقصة يبين وواضح وهي تثنى أعضائها وتظهر منها ما لا يجوز النظر اليه بحال ، وكما لا يجوز

رؤية الرقص لا يجوز للرجل بالأولى أن يرقص مع امرأة، لأن في ذلك فوق ما سبق معانقة امرأة أجنبية، وهو أمر غير جائز قطعاً.

وتعليم الرقص سواء في البيوت أو في المدارس لا يحل ولا يجوز، وهو منكر يجب على كل مسلم أن يعمل على منعه. أما الضرب على الآلات المطربة كالعود والبيانو والكمنجة وغيرها، فذهب الحنفية فيه أنه هو غير جائز. أما التغنى فجوابه ما يلي هذا، وأما سماع «الفونوغراف» فسنفرد له كلمة خاصة موعداً بها العدد الآتي، إن شاء الله.

حكم الغناء

الغناء إما أن يكون من رجل أو من امرأة، فإن كان من امرأة وكان بصوت غير مرتفع بحيث لا يسمعه الناس كما يفعله كثير من السيدات في مداعبة أطفالهن ونحوه، فلا مانع منه إذا كان غير مشتمل على أوصاف مهيجة كتعسين خمر أو امرأة معينة حية أو رجل كذلك، وكان غير مشتمل على هجاء شخص معين يكون القصد من الإنشاد هجاءه، فإذا اشتمل على ذلك لا يحل ولو بصوت غير مرتفع، أما إذا كان تغنيها بصوت مرتفع بحيث يسمعه الناس، فحرام، سواء كان على آلة هو أم كان بغيرها، وهذا مذهب الحنفية.

أما الرجل فإن كان تغنيه لدفع الوحشة عن نفسه فباح، بشرط ألا يكون على آلة هو، وألا يسمعه من يخشى عليه الفتنة من امرأة أو غيرها، وألا يسمعه من يستخف به ويستزله، وبشرط ألا يغير اسماً معظماً عن أصل وضعه، وأن يكون ما يتغنى به غير محظور، فإن لم يكن غناؤه مستوفياً هذه الشروط كان مكروهاً تحريماً. وكذلك تغنيه للناس في حادث سرور: مباح إن استوفى ما قدمناه، وكان الاجتماع غير محظور، لا تختلط فيه الرجال مع النساء، وكان على غير آلة هو وأمنت الفتنة.

أما غناؤه في عرس أو غيره على آلة فهو حرام وإن أمنت الفتنة؛ وهو من الصغار .
وعلى الجملة إن كان غناؤه سبباً لمحرّم فحرام . وأما القراءة بالألحان فمباحة إن كانت
الألحان لا تخرج الحروف عن نظمها وقدر ذواتها، وإلا فغير مباحة .

قال في فتح القدير : « إن الغناء في حقهن مطلقاً حرام لرفع صوتهن وهو حرام ؛
وأما الرجل فإن في تغنيته لنفسه لدفع الوحشة عنه خلافاً بين المشايخ — منهم من قال :
لا يكرهه ، إنما يكره ما كان على سبيل اللهو ، احتجاجاً بما عن أنس بن مالك رضى
الله عنه أنه دخل على أخيه البراء بن مالك ، وكان من زهاد الصحابة ، وكان يتغنى . وبه
أخذ شمس الأئمة السرخسى . ومن المشايخ من كره جميع ذلك ؛ وبه أخذ شيخ الإسلام
ويحمل حديث البراء بن مالك أنه كان ينشد الأَشعار المباحة التي فيها ذكر الحكم
والمواعظ ، فإن لفظ الغناء كما يطلق على المعروف يطلق على غيره » إلى أن قال رحمه
الله : « إلا أننا عرفنا من هذا أن التغنى المحرم هو ما كان في اللفظ مالا يحل ، كصفة المرأة
المعينة الحية ، ووصف الخمر المهيج إليها ، والدورات والحانات ، والهجاء لمسلم أو ذى
إذا أراد المتكلم هجاءه ، لا إذا أراد إنشاد الشعر للاستشهاد به ، أو لتعلم فصاحته
وبلاغته » ثم نقل رحمه الله أن أبا هريرة أنشد شعراً ، وقال : لولا أن إنشاد ما فيه وصف
امرأة كذلك جائز ، لم تقله الصحابة . ومما يقطع به في هذا قول كعب بن زهير في حضرة
النبي صلى الله عليه وسلم :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وكثير في شعر حسان من هذا ، كقوله وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم منه
ولم ينكره في قصيدته التي أولها :

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقى الضجيع بيسارد بسام

فأما الزهريات المجردة عن ذلك ، المتضمنة وصف الرياحين والأزهار والياه المطربة ، فلا وجه لمنعه على هذا ؛ نعم إذا قيل ذلك على الملاحى امتنع ، وإن كان مواعظ وحكما ، والآلات نفسها لا لذلك التغنى :

ثم قال : وفى معنى ابن فدان « الملاحى نوعان : محرم وهو الآلات المطربة بلا غناء كالزمار والطنبور ونحوه ، لما روى أبو أمامة أنه عليه السلام قال : « إن الله تعالى بعثى رحمة للعالمين ، وأمرنى بحق المعازف والمزامير » والنوع الثانى مباح ، وهو الدف فى النكاح ، وفى معناه ما كان من حادث سرور ، ويكره غيره ، لما عن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الدف بعث ينظر : فإن كان فى وليمة سكت ، وإن كان فى غيره عمد بالدره . وفى الأجناد : سئل محمد بن شجاع عن الذى يترنم مع نفسه قال : لا يقدح فى شهادته . وأما القراءة بالألحان فأباحها قوم وحظرها قوم . والمختار : إن كانت الألحان لا تخرج الحروف عن نظمها وقدر ذواتها ، فباح ، وإلا فغير مباح ؛ كذا ذكر ؛ وقد قدمنا فى باب الأذان ما يفيد أن التاجين لا يكون إلا مع تغيير مقتضيات الحروف ، فلا معنى لهذا التفصيل ؛ ونقلنا هناك عن الامام أحمد رحمه الله أنه قال للسائل عن القراءة بالتاجين وقد أجاب بالمنع : ما اسمك ؟ قال : محمد ، قال : أيعجبك أن يقال لك : ياموحامد ؟ .

ومن قبيل ما ذكره صاحب الفتح ما قاله الامام عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز : أما أمره (صلى الله عليه وسلم) به (أى بالشعر) فن العلوم ضرورة ، وكذلك سماعه إياه ، فقد كان حسان وعبد الله بن أبي رباح وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصغى إليهم ويأمرهم بالرد على المشركين ، فيقولون فى ذلك ، ويعرضون عليه ، وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك ، كالذى روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب : ما نسى ربك وما كان ربك نسيا شعرا قلته ، قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشدته يا أبا بكر فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلب مغالب الغلاب
وأما استنشاده إياه فكثير، من ذلك الخبر المعروف في استنشاده حين استسقى
فسقى قول أبي طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواصل (الايات)
وعن الشعبي رضى الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال : لما نظر رسول الله صلى
الله عليه وسلم الى القتلى يوم بدر مصرعين فقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى
الله عنه : لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيفنا قد أخذت بالأنامل . قال : وذلك لقول
أبي طالب :

كذبتم وبيت الله إن جدما أرى لتلتبسن أسيفنا بالأنامل
وينهض قوم في الدروع إليهم نهوض الروايا في طريق حلالهم
ومن المعروف في ذلك خبر عائشة رضوان الله عليها : كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كثيرا ما يقول : أبياتك ، فأقول :

ارفع ضعيفك لا يُحرِّبك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يحرِّبك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك لما فعلت فقد جرى
قالت : فيقول عليه السلام : يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده : صنع إليك
عبدى معروفا فهل شكرته عليه ! الحديث .

وفي رد المختار على الدر المختار أن جواز ضرب الدف في العرس خاص بالنساء ، لما
في البحر عن المعراج بعد ذكره أنه مباح في الشكاح وما في معناه من حادث سرور
قال : وهو مكروه للرجال على كل حال ، للتشبه بالنساء . وعن ابن مسعود أن المراد بالهو

الحديث في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) : الغناء . وعن مكحول في قوله تعالى: (مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) قال : الجوارى الضاربات . وعن مجاهد أنه قال فيه : واشتراؤه المغنى والمغنية والاستماع اليه وإليها من الباطل . وعن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » وعن يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الحر ، ويفعل ما يفعل السكر .

وأنت خير بأن هذا محمول على الغناء في غير العرس ، أو فيه ويؤدى الى مفسدة كاجتماع الرجال مع النساء دون أمن الفتنة . ويدخل في هذا تغنى بعض الصوفية في هذا الزمان في المساجد والتكايا وغيرها ، لأنهم يختلطون فيه اختلاطا قبيحا ، ويفعلون ما يفعلون مما لا يجوز شرعا من رقص وتمثيل ينبو عنه الدين ويأباه الذوق السليم . وإذا أضفت الى هذا أنهم يفعلون ما يفعلون باعتقاد أنه عبادة ، كان أشد تحريما من كل تغنى . وروى أن مالكا رضى الله عنه نهى عن الغناء وعن استماعه ، وأنه سئل عما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق . ونقل التحريم عن جمع من الخنابلة ، كما نقل عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : « الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، من استكثر منه فهو سفیه ترد شهادته » وقد أنكر أصحابه على من نسب اليه حله .

وصفوة القول أن غناء الرجل للناس إن كان في حادث سرور كعرس ونحوه ، وكان ما ينشد من القول الجائز ، وكان لا يؤدى الى فتنة من اختلاط رجال بنساء ، ولا الى خروج عن حشمة ووقار ، كان مباحا . أما اذا كان على وصف مما ذكرنا ، أو كان على آلة لهو ، فمكروه تحريما غير جائز . والاستماع يأخذ حكم ما تقدم ، فإن كان الاستماع لما هو مباح كان مباحا ، وإلا فغير جائز .

هذا وللإمام الغزالي بحث جليل في مسألة السماع، وقد خصه في الإحياء بكتاب هو كتاب آداب السماع والوجد، يبين فيه أقوال العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه، وساق ما رآه هو دليلاً على إباحته، وناقش الأدلة المسوقة على التحريم، وقطع رحمه الله بإباحته ونذبه في بعض المواقع، وقال: إنه يحرم بخمسة عوارض:

العارض الأول: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها؛ وفي معناها الأمر الذي تخشى فتنته؛ وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان، فلا يجوز محاورتها ومحدثها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً؛ وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته. إلى آخره.

العارض الثاني: في الآلة، بأن تكون من شعار أهل الشرب أو الخنثين، وهي المزمار والأوتار وطبل الكوبة؛ فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة، كالدف وإن كان فيه الجلال، وكالطبل والشاهين، والضرب بالقضيب، وسائر الآلات.

العارض الثالث: في نظم الصوت وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بالحن وغير الحن؛ والمستمع شريك للقائل؛ وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال. وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز، فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يتافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجي الكفار، وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك. فأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة،

فإن نزله فليُنزل على من يحل له من زوجته وجاريته ، فإن نزل على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغى أن يحتنب السماع رأساً ، فإن من غاب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه ، سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن .

العارض الرابع : فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبية عليه ، وكان فى غيرة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصديق والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر ، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه ، الذى هو حزب الله تعالى . والقتال فى القلب دائماً بين جنود الشيطان وهى الشهوات وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل — إلا فى قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية ، وغاب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغاب عليها ، فتححتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لازعاجها ، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشجيع سيوفها وأستنها ! والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص ، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضره .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً ، ولا غلبت عليه شهوة فيكون فى حقه محظوراً ، وليسكنه أبيع فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا أخذ ديدنه وهجيراه ، وقصر عليه أكثر أوقاته ، فهذا هو السفیه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهوجانية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة : فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام ، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً ، إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولابن حزم رأى فى الغناء لا يوافق عليه كثير من الفقهاء ، لهذا لم يروها لذكركم

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

الربا

وورد المجلة من حضرة السيد مصطفى صبحي الوارنه لى محاسب الخزينة بوزارة المالية بإمارة شرق الأردن هذا السؤال :

أكتب اليكم لا بمجرد خاطر دار بخلدى ، ولا بمجرد هاجس قذفت به النفس أكتب عن أمر أكثر الناس فيه منغمسون ، وهم ما بين مستقبح له ومستحسن . إن ما أخذتموه على عاتقكم من نشر المعارف الدينية والأحكام الإسلامية ، وتنازلكم لإجابة أمثالى ، شجعتنى أن أكتب اليكم مستفتياً ، راجياً التفضل بالإجابة فى أول عدد يصدر بجلتكم الغراء :

ما الحكمة فى تحريم الربا ؟ هل حرمت الشريعة عقود الربا المعنى فى اسم الربا فقط ، فلا يجوز لمسلم الإقدام على عقد يتناول اسم الربا لغة وشرعا واستنباطا ؟ أم حرمت الشريعة تلك العقود لما فيها من الضرر اللاحق بالمدين وأخذ ماله بالباطل بتخيل منفعة وهمية ظنها الذين يتخبطهم الشيطان من المس منفعة حقيقية فقالوا : إنما البيع مثل الربا ، فكأن المدين يزيد فى المال والدائن يزيد فى الأجل معتقدا أن زيادة المال المتحققة المنفعة توازى الزيادة فى الزمن التى لا قيمة لها ثابتة يستحق بها سلب مال أخيه ظلما وعدوانا ؟

فإن كانت هذه هى علة تحريم الربا فلم أباح الفقهاء جميعا بيع الشيء بأكثر من ثمنه وقت البيع من أجل الدين ؟ أليست تلك الزيادة على ثمن المبيع كانت فى مقابل الزمن المحض وإنظار المشتري فى الثمن ؟ أليست علة الربا فى مثل هذا ظاهرة ؟ أليس بإمكان

المشتري لو كان معه مال أن يشتريه بقيمته الحقيقية حين العقد ؟ أمحق لنا أن نستقيح صنع من يتخذ من ظاهر بعض الأحكام معولا يهدم به الدين باسم الدين فيسحق واجبا ويحل حراما ، غير ناظر لأسرار الشريعة وما ترمى إليه ؟ أليس هذا بابا عظيما يلج به نهمة الربا ، ويوصلون من وراءهم باب الرأفة والشفقة وبرة الاقتراض ؟ أليس حديث من باع بيعتين في بيعة فله أو كسبهما أو الربا ، وحديث نهيه صلى الله عليه وسلم عن صفتين في صفقة ، وحديث : لا يحل سلف وبيع وشرطان في بيع ، ونحوها بمجموع رواياتها صالحة لحظر مثل هذا العقد ؟ وإن لم تكن صالحة للحظر ، فهل مثل هذا الكسب يعد كسبا طيبا يقدم عليه من طلب البراءة لدينه ؟

الجواب

إن أحكام المعاملات في الدين الخفيف جاءت متضمنة لمصلحة المجموع الانساني على وجه العدالة والايصاف ، بحيث تكفل دوام التساند والتعاون بين الأفراد والطوائف بعضهم مع بعض . ومعلوم أن الفرد الواحد لا يستطيع أن يقوم بتحصيل جميع ما يحتاجه بنفسه بلا معونة من أخيه الانسان ، بينما يستطيع أن ينتج من بعض الشؤون ما يربو على حاجته وحاجات كثير من أبناء نوعه ، فالزارع ينتج من محاصيل النبات ما يفي بطعامه وطعام الكثير ، بينما هو عاجز عن حياكة ملابسه وخطاطتها ، وبناء داره وأمثال ذلك ، بل هو يقوم بإنتاج بعض المزروعات كالطعوم أو نباتات النسيج ، بينما يعجز عن نبات الفاكية مثلاً ، والصانع مثله : يحيك النسيج أكثر مما يلزم للملابسة ، بينما هو عاجز عن إنتاج ما يطعمه ، وهلم جرا ، فكان لا بد للانسان من التعاون بأخيه الانسان ، وكثيراً ما يقضى النظام أن تكون كل طائفة منحازة الى ناحية ، متفرغة لإنتاج ما ينيط بها من مرافق الحياة ، تنتج لغيرها شيئاً ، وينتج لها غيرها أشياء ، فمن يوصل تلك المنتجات المحتاجين اليها ؟ تلك هي فئة التجار يجلبون من

هنا الى هناك، ويوصلون لكل قوم ما يسد حاجتهم، فالتجارة عمل ضرورى من أعمال التساند الانسانى، وإيها معرضة أكثر من غيرها للفشل، كما أنها قد تؤدي بأسرع ما يمكن الى الثروة الطائلة، ولعله كلما اتسعت ثروة التاجر اتسع نطاق تجارته، وتمكن من تعميم نفعها لبنى نوعه، وإن فشل التجارة ونجاحها منوط بالإقبال على معاملته والإعراض عنها، والإقبال عليه وليد الحاجة الى ما لديه، فأول واجبات التاجر أن يتعرف مواقع حاجات الناس فيجلب لهم ما يروج عندهم، ويتحاشى ما لا حاجة لهم به، ومن للتاجر بأن يوفق دائماً الى اختيار ما يصادف إقبال المشتريين؟ إن التجربة دلت على أنه مهما أوتى من الحظ لا بد أن يخونه الحظ ويخطئه التوفيق في بعض الحالات، فتبور عليه تجارة ربما صرف في سبيل تحصيلا أعز ما لديه، فهو محتاج دائماً الى أن يستعوض ما خسره في هذه بربح في تلك، ربح ينقذه من كبوته، ويعوض عليه بعض خسارته.

هذا قانون محتوم لا يكاد يسلم التاجر من سريان حكمه، فما من تاجر إلا وهو عرضة للخسارة والربح، وللإفلاس والنجاح، وللارتفاع والانحطاط، وللرواج والكساد. ولولا أن يفتح أمامه تعويض صفقة بأخرى، وإنهاض من كبوة بحظ يأتى، لقضى عليه لسنة أو لسنوات، فلهذا أباح الشارع فى الاتجار، الربح المبنى على اتجاه الرغبات، متى خلا من الغرر والغش والتدليس. أباح أن يشتري التاجر شيئاً بعشرة فيبيعه للراغب فيه بمائة أو بألف، ذلك لأنه عرضة لأن يشتري بألف فيمنزل سعر ما اشتراه، أو لا يجد له راغباً حتى يفسد عليه ويذهب هباء، أو تجتاحه آفة سماوية فى نقله أو ادخاره، وهلم جرا، فلا بد فى قانون الإنصاف العام من أن تراعى هذه الاعتبارات التى تتعرض لها التجارة فى كل الأوقات.

كل هذا فى الشيء تنجبه اليه حاجة قوم وتنصرف عنه رغبة آخرين، وتعلق به النفوس فى وقت وتنصرف عنه فى وقت آخر، وينفرد بأداء منفعة فى حين ويطرأ ما يسد مسده فى حين غيره، وذلك فى العروض التى ينتفع بها عينا.

أما الأثمان التي خصصت لجلب أنواع الحاجات ، الأثمان التي قصدت لتحصيل غيرها من المنافع لا يمتنع بها هي ، الأثمان التي لا تتعرض لانصراف الرغبات أو اتجاهها أو ارتفاع قيمتها أو انحطاطها ، الأثمان التي يتساوى جميع الناس في جميع الأوقات في الاحتياج إليها ، الأثمان التي تشابه في عمومها عموم الحاجة المطلقة ؛ وما من امرئ إلا وله حاجة ، وإن تنوعت الحاجات بتنوع المحتاجين ، نقول : أما الأثمان التي هي بالصفة التي شرحناها فليست عرضة لهذه التقلبات ، وليس جلبها من مكان إلى مكان بمسهل للمنافع والأغراض ، فهي في كل وقت وفي كل مكان ولدى كل فئة قيمتها هي : لا ارتفاع ولا انخفاض ، ولا اتجاه ولا انصراف ، بل هي الميزان الذي يبين قيمة الشيء ارتفاعا وانخفاضا .

دعنا مما نسمعه الآن من مثل كلمات ارتفاع قيمة الجنيه أو المارك وانحطاطها ، فليس هذا من ارتفاع قيمة الأثمان أي النقدين ، وإنما هو من باب التعامل ، أصبح بأوراق مالية إذا تأملتها وجدتها وثائق بيدى على جهة معينة ، فكما كانت الثقة بالمدين كاملة كانت قيمة الوثيقة محفوظة ، فإن المدين الملىء المستعد للدفع متى طلبت منه يتساوى في نظرك ما هو عليه لك وما هو معك في يدك ، وبخاصة إذا كان الوثوق به مشتركا بينك وبين كل من تعامله .

وإذا كانت الأثمان ليست عرضة لاتجاه الرغبات حيناً وانصرافها أحياناً ، وليست حاجة فريق إليها بأشد من حاجة فريق آخر ، وليست مما يقصد للارتفاع به عينه ، بل ليتوسل به إلى تحصيل المنافع بالذات ، لم يجعلها الشارع متجراً قابلاً للمرابحة ، بل أوجب أن تكون المبادلة فيها مبنية على التساوى ، فلا يبدل شيء منها بجنسه إلا تماثلاً ، وإذا احتاج بعض الناس إليها لتحصيل منفعه ، وكان لدى بعض آخر ما يفضل عن حاجته منها فقد رغب الشارع في المعاونة بين الناس بالقرض البرئ من الربا ، فمن استخدم فيه

الزيادة فقد طغى على القانون الذى رضىه الحق جل وعلا لتسهيل منافع الناس، فاستحق أن يؤذن بحرب من الله ورسوله .

إذا تدبرت هذا تجلت لك الحكمة الإلهية فى حظر الشارع المفاضلة فى مبادلة النقدين قرضاً، وإباحته الربح فى مبادلة العروض التجارية غير مقيد بحد .

بقى الكلام فى إباحة أن يختلف سعر الأشياء باختلاف حلول الثمن وتأجيله، والأمر فيها ظاهر جلي، فإن التاجر الذى يبيع بئمن مقبوض يتمكّن من تقليب تجارته يجلب بعض أصناف قد تدر عليه ربحاً ينفعه أو يعوضه بعض خسارته، أما الذى يبيع بئمن مؤجل فقد فات عليه هذا الغرض كما خرج من يده الصنف الذى كان ينتظر منه الربح، وربما لو بقي لوجد من يشتريه بأكثر مما يبيع به، فلذا أباح الشارع أن يكون لتأجيل الثمن حصة من الزيادة فيه، وهذا بخلاف القرض، فإنه جعل باباً للتراحم والتعاطف بين الناس، وإدخال الربا فيه مقطعة لصلاتهم، وموهنة لروابطهم . وإنك لتجد من غضاضة من يدفع الربا وتقرّز نفسه ما لا تجد شيئاً منه لدى مشترى صفقة بئمن غال ما لم يكن البائع قد غرر به وخدعه وغشه، فهذا باب فساد آخر حرّمه الشارع . أما من اشترى بئمن غال وهو عارف بخلوه فلا يمتريه ما يعترى ذلك الذى شرّحنا حاله فى الربا .

هذا هو القانون العام، والتشريع فى المعاملات : يناط بما عليه الناس غالباً، ولا يعتمد ما يتحايل به بعضهم فى شذوذ، فيصرفون الأحكام العامة على وفق حالة خاصة كالصورة المسئول عنها، فلو كان هذا مما يمنع أصل الحكم لكانت المفسدات التى تطرأ على كل المعاملات شذوذاً مانعة من إباحتها، فكان البيع يبطل لأنه قد يقصد به صرف الثمن فى بعض الأغراض السافلة أو الشهوات الدنيئة، والإجارة تبطل لأنها قد يراد منها وجود جار مضار لمن يجاور الدار أو الحقل، وهلم جرا، فما من معاملة إلا وهى عرضة لمقاصد غير مشروعة، وذاك لا يؤثر فى مشروعيتها فى نفسها .

نعم تلك المقاصد في ذاتها ممقوتة في نظر الشارع يحازي عليها الشارع الحكيم كما يحازي على كل سيئة وعلى كل حسنة، ولكن هذا لا يقدر في مشروعيتها، فحكمة حل البيع بإطلاق صون باب عظيم من مرافق الحياة من أن يتدهور بالطوارئ والمفاجآت، وذلك الباب هو التجارة الضرورية للعمران، وقد قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) قال ابن عباس: هو البيع.

وحكمة تحريم الربا ما شرحناه هنا وفي مقال سابق. وأما الأحاديث المشار إليها في السؤال كحديث بيعتين في بيعة أو بيع وسلف، فليست مما نحن فيه، فهذا بيع خسب، إلا أنه مع تأجيل الثمن، أما إذا حل الأجل فاتفق المتبايعان على مدة لأجل آخر في نظير ربح، فهو قرض جر نفعاً، وكل قرض جر نفعاً فهو ربا.

وخلاصة الجواب أن هذه المعاملة المسئول عنها صحيحة في نظر الشارع، وإن كان استغلال حاجة المحتاجين، وابتزاز أموالهم، مع العلم بحاجتهم وأمانتهم، وأنهم أهل وفاء غالباً لما كان في ذمتهم، أمراً لا يتفق هو ومحاسن الشريعة، ولا يرضاه الرحمن الرحيم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» والله أعلم.

ابراهيم الجبالي

الظرف والمُلح

قال الحسن وقد سمع متكلماً يعظ فلم تقع موعظته من قلبه ولم يرق لها: يا هذا إن بقلبك لشرّاً أو بقلبي !

الطيرة - والتوبة عن السيئات

وجاء أيضا من حضرة عبد الحفيظ ابراهيم اللاذقي هذان السؤالان :

(١) هل يجوز التشاؤم والوهم أو غيره من الاعداد والسنين والشهور والايام والأوقات أو غيرها ، ولبس ثوب أو دخول بيت أو قراءة سورة أو آية أو ورد أو فائدة أو غيرها بان فاعل ذلك يصاب بضرر كمرض أو موت أو غيره أم لا ؟

(٢) هل تقبل توبة السائب اذا تاب من جميع الذنوب الصغيرة والكبيرة كالقتل والزنى واللواط وشرب الخمر والديون والسرقة والحيانة والكذب والفسخ والظلم أو غيره ولا يعذب في القبر ولا في الآخرة أم لا ؟

الجواب

الطيرة :

لا يجوز التشاؤم والوهم من الأعداد والسنين والشهور والأيام والأوقات ، لأن ذلك من الطيرة التي نفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا طيرة » وقد أشبعنا الكلام عليها في شرح حديث « لا عدوى ولا طيرة » فليرجع اليه من شاء . والإضرار بالناس حرام قطعاً فلا يجوز ، سواء أكان ذلك بقراءة سورة أو آية أو ورد أو فائدة ، بل اعتقاد أن ذلك مؤثر شرك نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

التوبة عن السيئات :

التوبة لغة : الرجوع . وفي الشرع : الندم على المعصية مع العزم على عدم العودة إليها اذا قدر عليها ، فندم الشارب على شرب الخمر لما أصابه من صداع وطيش وإتلاف مال وعرض ليس توبة ، بل الواجب أن يندم على شرب الخمر لأنه معصية . ومن تاب عن معصية لمرض خفيف ، اختلف في قبول توبته ، فمن رأى أن ذلك ليس باختياره فيكون ملجأً لتوبته كإيمان اليأس ، قال بعدم القبول ، ومنهم من رأى القبول .

والتوبة واجبة على العاصي من الكبائر والصغائر فوراً، ولا يجوز تأخيرها، فمن أخرها تكررت معصيته. والجمهور على أن التوبة تصح إجمالاً من غير تعيين الذنب المتوب عنه لا إطلاق النصوص. وهي واجبة بالسمع لا بالعقل، خلافاً للمعتزلة، فإنهم يقولون: واجبة بالعقل، والسمع جاء مؤيداً لها، على معنى أن العقل لو خلى ونفسه لأدرك إيجاب الله تعالى التوبة على العاصي بدون توقف على ورود الخطاب اللفظي. والذنب المتوب منه إما أن يكون بين الله وبين العبد، وإما أن يتعلق بحقوق العباد، فالذنوب التي تتعلق بحقوق العباد كقتل النفس وغصب المال وشمّ العرض، لا بد لصحة التوبة فيها من رد المظالم إلى أربابها أو استرضائهم عنها؛ أما ما يتعلق بحقوق الله سبحانه وتعالى فلا يشترط فيه شيء سوى الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم المعاودة.

التوبة متى وقعت مستوفية شروطها قبلها الله سبحانه وتعالى تحقيقاً لوعده، لا فرق في ذلك بين أن يكون الذنب المتوب عنه كبيرة أو صغيرة؛ ولقد نصوا على أن توبة الكافر مقبولة قطعاً بالسمع، لوجود النص المتواتر بذلك، قال تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) والآيات الدالة على أن الله يقبل التوبة من عبده العاصي كثيرة، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) وقال تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ).

وعلى الجملة فالتوبة متى وقعت مستوفية لشروطها قبلت، وهي تكفر الذنوب جميعها. وقد اختلف العلماء في تكفير السيئات بالقربات، فمنهم من يرى أن الصغائر هي التي تكفرها القربات دون الكبائر، بشرط اجتناب الكبائر، واستدلوا على ذلك بما في الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الحسنة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر» أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة

ولا تكفرها القربات أصلاً، للإجماع على أن التوبة فرض على الخاص والعام، لقوله تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) ولأن الكبائر تشمل حقوق العباد، والإجماع على أن القربات لا تكفرها، وإنما تكفرها التوبة بشروطها.

ورأى بعض آخر أن القربة تمحو الخطيئة مطلقاً، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة واستدلوا بقوله تعالى: (إِنَّ الْأُسْنَاتِ يَذْهَبْنَ أَلْسِنَاتٍ) وقوله عليه السلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» وبما ورد في عدة أحاديث صحيحة: أن الله يغفر للعبد ذنوبه إذا فعل كذا أو كذا. والرأى الأول هو الراجح؛ وقد اختلف القائلون بتكفير الصغائر بالقربات في أن الشرط في ذلك اجتناب الكبائر أم لا — ذهب جمهورهم إلى ذلك ورأى بعضهم أنه ليس بشرط. استدل الأولون بأن ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: «ما اجتنب الكبائر» يفيد الاشتراط، كما يقتضيه «إذا اجتنب الكبائر» الوارد في بعض الروايات. وقال آخرون: الشرط في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير: مكفرات لما بينها إلا الكبائر، قال الطبري: وهو الأظهر. وقد صرح النووي بأن القربات لا تكفر الكبائر. وقالت المعتزلة: إن الصغائر تقع مكفرة بمجرد اجتناب الكبائر، ولا دخل للقربات في تكفير الصغائر أيضاً، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: (إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) لجعل اجتناب الكبائر سبباً في تكفير السيئات؛ والمراد بها الصغائر قطعاً؛ وقد نوقش كل فيما ذهب إليه بما لا مجال لذكره.

ولما كان العبد لا يمكنه الجزم باستجماع توبته للشروط، واستجماع قربته لذلك، فلا يمكن جزمه بأن ذنبه قد محى، وأن سيئته قد زالت، فلا يمكن القول بأن مجرد التوبة تغفر ذنبه بحيث لا يعذب في القبر ولا في الآخرة، خصوصاً إذا لوحظ أن قوله تعالى: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) يدل دلالة قاطعة على أن الله يجوز عقلاً أن يعاقب على الكبيرة بعد التوبة؛ فالواجب على العبد هو التوبة، واستدامة خوفه ووجله حتى في حال التوبة والطاعة، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون مكره طر مبيب

رؤيا

الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية (١)

فنبج الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم :

اتفق العلماء على أن الكذب من أعظم الذنوب وأشد المعاصي ، وأن من أفضله الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ذهب طائفة منهم الى أن تعد الكذب على الله ورسوله يخرج عن الملة — منهم الإمام الجويني ، وهذا فيما لم يكن في تحليل حرام أو تحريم حلال ، أما ما كان من ذلك فهو كفر محض بالإجماع ، لم يختلف في ذلك أحد من أهل العلم .

قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) . وقال سبحانه : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ) . وقال جل اسمه : (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) وقال صلى (٢) الله عليه وسلم : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد فن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . وقال صلى (٣) الله عليه وسلم : « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى (٤) الله عليه وسلم : « لا تكذبوا على فإن الكذب على يوجب في النار » . وقال صلى (٥) الله عليه وسلم : « إياكم وكثرة الحديث

(١) تابع لما نشر في العدد الرابع . (٢) أخرجه مسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم وغيره عن مرة بن جندب رضي الله عنه . (٤) أخرجه ابن ماجه . (٥) أخرجه

ابن ماجه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر ، وذكره .

عني فمن قال عليّ فليقل حقاً أو صدقاً، ومن تقول عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار». وقال صلى^(١) الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل عليّ ما لم أقل».

قلنا: إن وصية هذا الأفاك الجديدة لم تخل مما يجب إنكاره وفضيحة صاحبه، لئلا يشيع ضرره، وتعم بين الناس إذايته، فمن المنكرات في هذه الوصية الجديدة: اشتغالها على أغلاط^(٢) يتحاشى عنها أصغر الكتاب، والشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية ينسبها للنبي صلى الله عليه وسلم بغير حياء ولا خجل، ومع ذلك يوجد في جهال المساميين من يذيع أمرها ويعلقها على الجدران، ويقرأونها لغيره، رغما عن تحذير العلماء لهم من تصديق أمثال هذه الخرافات وإشاعة هذه المخزيات. ومنها قوله: «هذه وصية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية» الخ. وهو تعبير غاية في البشاعة، وأى بشاعة أفظع من أن يقال: إن الوصية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فلان. نسأل الله العافية من الخزي والحفظ من الحرمان. ومنها قوله: «إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة يقرأ القرآن العظيم» لما فيه من التفرير والتضليل، إذ لا يعلم على التحقيق من هو فاعل «يقرأ» أهو النبي صلى الله عليه وسلم أو هو الشيخ أحمد.

ومنها قوله: «يا شيخ أحمد وصية لك ثانية غير الوصية السابقة» لا يهامه أن هذه الوصية سبقتها وصية أولى وهي الثانية، مع أنه سبقها عشرات أو مئات الوصايا كما هو مشاهد لعامة الناس وخاصتهم. ومنها قوله: «هذه آخر وصية لهم» لأنها جملة

(١) أخرجه الطبراني عن وائلة رضى الله عنه. (٢) منها قوله: مات من الجمعة إلى الجمعة تسعون ألف. وقوله: منهم سبعون ألف على الإسلام. وقوله: ونقصوا الكيل والميزان وكثرت المعاصي وقوله: وطلوع الشمس من الغرب لقريب. وقوله: والله العظيم ثلاثة. وقوله: ومن يصدق بها ينجو من عذاب النار. على اعتبار أن إن شرطية كما هو الظاهر.

يكررها هذا الرجل الكذاب في كل وصية ينشرها بين الناس، ثم لا يعتم بعد حين أن يعيد نشرها ويقول : هذه آخر وصية لهم . ومنها قوله : « قال الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة : قال عليه الصلاة والسلام : من قرأها ونقلها من بلد الى بلد كان رفيق في الجنة ، وشفاعتي له يوم القيامة ، ومن قرأها ولم ينقلها كان خصمي يوم القيامة » لأن فيها إسناد حديث الى النبي صلى الله عليه وسلم كذب موضوع عليه لا أصل له في الدين ، ولا يحمل نقله عنه صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين . فالعجب ممن يدعى أنه خادم الحجرة النبوية الشريفة كيف يجرؤ هذه الجرأة ، ويتقول على النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، وما لا يحتج مع أحكام دينه ، وقواعد شريعته ! وهذا وأمثاله يحملنا على أن نظن بهذا الرجل أنه ليس من المسلمين ، بل هو عدو لهم متستر باسم خادم الحجرة الشريفة ، يستهزئ بدينهم وبأحكام شرعهم ، فيجعل جزاء نقل وصية من بلد إلى بلد مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة واستحقاق شفاعته .

يخرج لهذا العمل العظيم الذي يستحق صاحبه عليه هذا العطاء العظيم ، وأهون بدين يكون صاحبه خصما للنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأنه قصر في نقل هذه الأكدوبة ، ويكون طريق النجاة فيه ناشئا عن عمل نافه كهذا العمل ! وأين هذا من قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ) حيث جعل الحق تعالى ثمن دخول الجنة بيع النفس والمال في سبيله ، وخادم الحجرة النبوية الشريفة جعل ثمن دخوله الجنة كما تقدم قراءة وصيته ونقلها ، بل زاد على ذلك فأنعم على قارئها ونقلها بمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، اللهم إن هذا هو الخذلان المبين ، والتلاعب بدينك القويم !

ومنها قوله : « ومن يصدق بها ينجو (كذا) من عذاب النار ومن كذب بها كفر » لأن هذا الوعيد لا يصح أن يكون إلا لكتاب الله تعالى ، وما علم من

الدين الاسلامي بالضرورة ، كأركان الايمان والاسلام ، أما غير ذلك مما لا يجب الايمان به شرعا ، فالتكذيب به ليس كفرا ، كما أن التصديق به لا ينجي من نار ، ولا يمنع من عذاب . ومن هنا يعلم القارئ سخافة عقل هذا الرجل الذي يسمى نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة وجهله وقلة دينه وجرأته على الله تعالى وعلى شريعته ، وأنه — على ما نرجح — متلاعب مستتر بهذا الاسم لا يريد إلا السكيد للمسلمين وإيذاءهم وإعلام رجال الديانات الأخرى أن المسلمين تلاشى أمرهم من الوجهة الدينية بعد أن تلاشى من الوجهة السياسية ، وأن عوامهم بلغوا من الجهل الى حد أنهم يصدقون بكل ما يقال لهم ، بل يصدقون بمثل هذه الوصية السخيفة الكاذبة ، وبأن منزلتها منزلة كتاب الله تعالى ومنزلة ما يجب اعتقاده والايمان به من الدين الاسلامي : من يصدق بها ينج من عذاب النار . ومن يكذب بها يكفر ويخرج من الملة .

ولست أدري من أين استمد هذا الأفك هذه الآراء الفاترة ؟ وكيف يجسر أن ينشر في بلاد الاسلام أمثال هذه المكفرات . وأعجب من هذا أن يجد لثرهاته أنصارا ، ولكفره راجا ، وفي ظننا أن وصيته هذه لو لم يكن فيها غير هذه الأكذوبة الأخيرة لكانت شاهد عدل على فسقه ووجوب التحذير من شره ، وحمل الناس على الإعراض عن نصائحه التي يزعم أنه يريد بنشرها الخير للمسلمين ، وتخويف العاصين منهم ليرتدعوا ويدعوا ما هم فيه من الذنوب ، ولو تفكر لعلم أنه بذلك قد خبط خبط عشواء ، وترك المحجة البيضاء ، وقعد عن سلوك الطريق الواضح ، وتعاى عن اقتفاء أثر السلف الصالح فكان بذلك من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

إن فيما جاء في كتاب الله تعالى ، وفيما صح من الأخبار عن رسوله صلى الله عليه وسلم غنية لكل صادر ، وماء عذبا لكل وارد ، فليدع الأفاكون تلقف الأخبار الكاذبة ، والأقوال الباطلة ، وليقبلوا على الأخذ بما صح من الأخبار الإلهية ، وثبت من الآثار النبوية ، فإن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

دمشق — محمود يس

البغاء الرسمى

وضع حفرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد بن حنيت مفتى الديار المصرية الا سبق مذكرة بين فيها حكم الشارع فى البغاء وأوضح ضرره ووصف الدواء الناجع . وقد تفضل حفظه الله فأرسل إلى المجلة نسخة منها ننشر منها ما يلى :

البغاء الرسمى هو عبارة عن الزنى العانى المرخص به من الهيئة التنفيذية ، وهو محرم فى جميع الأديان ومستقبـح عند كافة العقلاء ، وهو مشكر من أكبر المنكرات إثمًا ، وأخطرها أثرًا ، وأعظمها مفسدة ، وأشدّها ضررًا بالصحة والآداب والأخلاق والأموال والأديان والمجتمعات ، ولذلك كان الدين الاسلامى أشد الأديان إنكارا له وتحذيرا من نتائجه ومقدماته ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم : (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) فسماه فاحشة ، وهى أقبح الذنوب وأبشع المنكرات لما يترتب عليه من المفساد الدينية والصحية والأخلاقية والاجتماعية التى أصبحت من الظهور بحيث لا يختلف فيها اثنان ، حتى تنهت لها الحكومات الأجنبية المسيحية ، فأبطل أغلبها البغاء الرسمى وذلك النظام الفاسد الذى هو معرفة فى جبين الإنسانية ، وسببة فى حياة الأمم الراقية المتشدّنة ، بل لقد أجمعت الأمم على اختلاف أجناسها وتباين نحلها وأقطارها على أن البغاء أيا كان نوعه عامل من عوامل الفناء ، ومعمل من معاول الهدم والتخريب فى كيان الأمم وبناء المجتمع الانسانى .

ولقد تفتن الاسلام لأدواء هذه الفاحشة الكبرى فوضع لها علاجا ناجعا ، وسن لها بتشريع الحكيم عقوبة رادعة للناس ، زاجرة لهم عن التفكير فيها والإقدام عليها

بجرأة وعدم مبالاة ؛ وتلك العقوبة التي تتناسب مع خطورة هذه الجريمة الكبرى إنما هي حد الزنى ، وهو إما مائة جلدة لكل زان غير محصن أو زانية كذلك ، وإما بالرجم بالطوب والحجارة لكل محصن من الزناة أو محصنة من الزانيات ، وذلك بحضور طائفة من المؤمنين تعين عذابهما حتى الموت ، زيادة في التنكيل بهما ، وإرهابا لمن تحدته نفسه الخبيثة باقتراف هذه الفعلة الشنعاء .

ولقد نهانا الله تعالى وهو أرحم الراحمين ، الغفور الكريم ، عن الشفقة والرأفة بكل من الزانى والزانية في حال إقامة الحد ، فقال تعالى : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وذلك تشريع الحكيم ؛ صالح البشر ، الخبير بطبائع النفوس وميل الفطر ؛ ولا غرابة في ذلك لأن كلا من الزانى والزانية عضو في المجتمع الانساني ، مصاب بذلك المرض العضال المعدي ، فيخشى من بقاءه أن ينتقل منه هذا الداء الى غيره ، فيجب بتره إن كان محصنا ، فيرجم حتى يموت ، ويجب أن يجلد مائة جلدة حتى يرتدع إن كان غير محصن كما يفعل مثل ذلك في أعضاء جسم الانسان ، فإنه إذا ابتلى في عضو من أعضائه بداء معد لم يقدر فيه العلاج يجب طبا وشرعا بتره ، وإن أمكن علاجه عولج بما يتأصل هذا الداء .

هكذا وضع الله سبحانه وتعالى الحد الذي فصله في كتابه الكريم دواء لمرض الزنى ، وهو العايح بخلقها كما قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فلا يسوغ لعاقل أن يعترض على الطبيب فيما يضعه للمريض من الدواء بنظريات عقلية ، بل يجب على المريض أن يسلم ويستسلم للطبيب يعالج الداء بما يعلمه من الدواء ، وإن خالف نظرياته العقلية .

ومن يوم أن ترك المسلمون هذا التشريع العادل ، اللبني على الحكمة الشاملة والعلم المحيط الكامل ، اعتمادا على نظريات عقلية ما أنزل الله بها من سلطان ، وتقليداً

للتشريع الأجنبي ، واستبدالا للذى هو أدنى بالذى هو خير ، ساء حالهم ، واضطرب نظام حياتهم ، واختل ميزان تصرفهم ، وتدهورت أخلاقهم ، وضعفت قواهم ، وانحالت روابطهم ، وتعرضوا لغضب الله وحلول بلائه ، وشمول نقمته ، فقد روى البيهقي عن ابن عمر قال : كنا جاوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف أتم اذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأجاع التي لم تكن في أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بنحس قوم الكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المونة وجور السلطان ، ولا حكم أمرؤم بغير ما أنزل الله إلا سلبت عليهم عدوهم فاستنجدوا بعض ما في أيديهم ، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم » . وروى ابن ماجه والبخاري واللفظ له : « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه النور وعلى الرعية الصبر ، وإن جارت الولاة فحطت السماء ، وإن منعت الزكاة هلكت المواشي ، وإذا ظهر الزنى ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا أخفرت الذمم أذبل الكفار » أي كانت لهم الدولة والغلبة على المساكين .

وروى الطبراني والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » ذلك بأن سنة الله في خلقه أن يجعل العقوبة في الدنيا للأثم التي حادت عن صراطه المستقيم وتعدت حدوده ، وظهرت فيها المعاصي ، وفشت فيها الفاحشة علانية دون مبالاة من مرتكبيها أو تغيير وإنكار من عقلائها ، إذ شأن المعصية التي تقع في خفاء أن يقتصر ضررها على فاعلها وحده ، أما اذا ظهرت ووقعت علانية دون أن تغير ، فقد عم ضررها

جميع من وقعت في بيئتهم ووسطهم، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذ أخفيت الخطيئة فلا تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة». وقال صلى الله عليه وسلم: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم».

وها نحن أولاء نكاد نلمس بأيدينا ونشهد بأعيننا أثر غضب الله وسنته في الأمة المصرية بشؤم تلك المنكرات الشائعة، وفي مقدمتها البغاء الرسمي، فقد انتشرت فيها الأمراض السرية المهلكة، كالسيلان، والزهرى، والسل الرئوى، والقرحة الدامية، تلك التى قضت على حياة الكثير من الشبان وغيرهم، والتى سوف تأتى على قوة الأمة الحيوية من القواعد إن لم يتداركنا الله بلطفه، ويلهم المصلحين وذوى الغيرة الدينية وأولى النظر الثاقب والعزم الصادق أن يقضوا على البغاء الرسمي وغيره من سائر المنكرات الظاهرة كالربا وشرب الخمر.

أصل اسلام البوشناق

نشر فى الجزء التاسع من المجلد الثانى من هذه المجلة مقال تحت عنوان «المسامون فى أوربا الشرقية» معرب من كتاب «دليل العالم الاسلامى» المؤلف باللسان الفرنسى، ولما اطلع على هذا المقال حضرة الكاتب القدير البجاعة الأمير شكيب أرسلان كتب مقالا ينبه فيه إدارة المجلة لخطأين وقع فيهما صاحب الكتاب، وغفلت المجلة عند التعريب عن نقدهما، وبعث بهذا المقال الى مجلة الفتح الغراء.

أما الخطأ الأول ففي إحصاء مسلمي يوغوسلافيا، فقد ذكر في المقال المعرب أنهم مليون وثلاثمائة ألف نسمة أو أكثر قليلا، والحقيقة أن مسلمي يوغوسلافيا بحسب الإحصاء الأخير يبلغون مليوناً وسبعمائة وستين ألف نسمة .

وأما الخطأ الثاني فاجاء في المقال من أن أجدادهم كانوا نصارى وأسلموا بحمد السيف ، وقال حضرة الأمير : « أما أجداد أمة البوشناق المسلمين فلم يكونوا نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا فئة يقال لها « بوغوميل » Bugomile كان منها طائفة في بلاد البلغار ، وكان منها نفر في ايطاليا ، ويقال لهم أيضا « باتارين » ومعناه « محبو الله » ولم يكونوا يعتقدون بالتثليث ولا بألوهية المسيح ولم تكن لهم كنائس . وقد رأيت في سياحتي هذه كثيرا من قبورهم فهي ليس عليها صلبان ولا شيء من رموز النصرانية بل هي أشبه بالنواويس . وكانت هذه الفئة تأبى أن تترك عقيدتها هذه فشق ذلك على الباباوات فأخذوا يضطهدونها بواسطة ملوك الجار ، وأخذ هؤلاء يضيقون على هؤلاء « الباتارين » ويجهرونهم على الكشككة ، فنفروا وازدادوا تمسكا بعقيدتهم . ولما كانت هذه العقيدة تشبه الاسلام من جهة سيدنا عيسى عليه السلام مالوا الى الاسلام وأخذوا يدخلون فيه من قبل فتح الأتراك لبوسنه بمدة طويلة ؛ ثم لما جاء محمد الفاتح واستولى على مملكة بوسنه دخل سائر هذه الفئة في الاسلام لأنها فئة كان فيه استعداد خاص للاسلام بسبب تشابه العقيدة ولكون سائر الأمم المسيحية التي كانت تحيط بها كانت تخالفها في الاعتقاد وتضطهدها ؛ ومذ ذاك الوقت أسلم أجداد البوشناق بمتقضى وجدانهم وحسن إسلامهم ، وياليت جميع المسلمين اليوم مثل مسلمي بوسنه والهرسك في مجموع أحوالهم .

والجلة تشكر لحضرة الأمير غيرته على الحقائق الدينية والتاريخية

أسطورة داروين^(١)

وبعدها عن الحقائق الثابتة في التاريخ الطبيعي

يدعى أنصار داروين تأييد القواعد العالمية الثابتة لترهاتهم، وكثيرا ما ترتفع عقيرتهم بأن النتائج التي وصل إليها علماء التاريخ الطبيعي تثبت صحة ما ادعوه من أساطير وخرافات في نشأة الأجناس النباتية والحيوانية وتطورها، زعموا منهم أن الحفريات دلت دلالة واضحة على تسلسلها واشتقاقها من أصل وجنس واحد .

يزعمون أن حافر الحصان الذي يعيش بين ظهرايينا اليوم نشأ عن تحور في الأصبع الوسطى من أصابع القدم الخسنة لحصان العصور الأولى ، وإني لمتحير في تعليل هذا الاستدلال ، فلم لا يكون ذلك هو عين الحقيقة ، وأن الخيول السابقة في العصور التاريخية الأولى كان لها في كل من أقدامها الأمامية والخلفية خمس أصابع كانت تمس الأرض جميعها ، وأنها على مرور آلاف السنوات انبطحت حتى اتصل بعضها ببعض واتخذت شكل الحافر الذي نراه اليوم في خيولنا . ولست نتمكن لا يمكننا بذلك أن نستدل على حل ما ذهب إليه أنصار داروين لأن الخيول السابقة التي يشيرون إليها لا تشبه بأي حال الخيول الحاضرة ، فانها أصغر منها حجما وتختلف عنها في شكل الأسنان وتركيبها إذ كانت أشبه بأسنان القردة ، وكانت لا تزيد في الارتفاع عن ٣٠ سم أي كمتوسط قامة الكلاب في الأجيال الحاضرة ، وإن الخيال الذي يتسع لاحتمال وجود صلة تربط هذه بتلك من حيث الجنس والنوع على بعد الشقة لخيال واسع .

(١) مترجمة عن الألمانية من كتاب الأستاذ الفاضل والعالم الكبير الدكتور « فان هوفنسفلت »

في تنفيذ نظرية داروين .

وفي كتاب الأستاذ « Olhenio Abel » أستاذ علم الحفريات في جامعة « فينا » المسمى (صور حيوية عن العالم الحيواني في عصور قبل التاريخ) رسوم تخطيطية عن خيول أمريكا الشمالية المسماة « Equide » كما يتخيلها العالم الكبير « أوسبورن » .

وقد عثر المنقبون في طبقات الأرض -- التي يرجع عهدها الى عصر « Eocene » التاريخي ويقع في العصر الثلاثي الجيولوجي -- على بقايا حفزية من أنواع الخيول المسماة « Orohippus » و « Eohippus » لها في كل من قدميها الأماميتين أربعة أصابع وثلاثة في كل من قدميها الخلفيتين ، وكان أحد هذه الحيوانات في حالة البلوغ والنمو الكامل لا يزيد ارتفاعه عن ٣٨ سم ، ولا تختلف أسنانها كثيرا عن أسنان أسلافها ذات الجس الأربعة ، كما أنها تقارب في الشكل أيضا أسنان خيول الوقت الحاضر .

وأما النوع المعروف باسم « Mesohippus » الذي وجد في أمريكا أيضا ويرجع الى عصر « Oligocene » -- ويقع في العصر الثلاثي الجيولوجي -- فله في كل من قدميه الاماميتين والخلفيتين ثلاثة أصابع وكانت جميعها تلمس الأرض عند المشي ، كما لوحظ أن الأصبع الوسطى كانت تفوق الأخرى نموا .

كما وجد أن النوع المعروف باسم « Meryohippus » ويرجع الى عصر « Miocene » -- ويقع في العصر الثلاثي الجيولوجي أيضا -- لا يزيد ارتفاعه عن متر ، وله في كل من قدميه الخلفيتين والأماميتين ثلاثة أصابع ، ولم تكن الأصابع الجانبية تلمس الأرض بل ترتفع قليلا الى جانب الأصبع الوسطى .

ووجد في طبقات الأرض التي يرجع عهدها الى عصر « Pliocene » -- ويقع أيضا في العصر الثلاثي الجيولوجي -- بقايا حفزية لنوع من الخيول « Equis » يسمى « Pliohippus » وله حافر واحد ، ولكنه يقل عن الخيول المعروفة الآن حجما .

وجدت جميع هذه الأنواع من الحيوانات في أمريكا الشمالية ولم يثبت حتى الآن وجود أمثالها في أوروبا ، إلا أنه وجد في سهول الإغريق القديمة نوع آخر من الخيول

يسمى «Hiparion» يرجع الى عصر «Pliocene» كثيرة الشبه بالنوع المسمى «Meryohppus» الذى وجدت حفرياته فى أمريكا باقية من عصر «Miocene» السابق ذكره .

ولا يسع الخبير المطلع على التاريخ الطبيعى وعلم الحفريات إلا أن يسلم بأن هذه الحيوانات التى وجدت فى طبقات مختلفة من الأرض وترجع الى عصور متباينة قبل التاريخ، ما هى إلا أنواع متوسطة بين نوعين مختلفين، ولا يمكن بأى حال اعتبارها حلقة من سلسلة حلقات متتابعة ومتوالية كما يتوهم داروين وأنصاره، ولا يمكن اعتبار هذه الاكتشافات دليلاً على ثبوت نظرية التطور المزعومة .

ولو أننا وجدنا عشرات الأنواع المتوسطة بين نوعى «Mesohippus» و «Meryohippus» لكننا أميل الى الاعتقاد برجحان اشتقاق النوع الثانى من الأول، ولكن «الحلقات المفقودة» فى جميع أنواع الحيوانات لم توجد بعد ولن توجد، فأنها لو كانت مفقودة حقاً لا يمكن إيجادها والاهتداء اليها حتى الآن، إذ أن جميع أنواع وأجناس الحيوانات تقريباً معروفة الآن للعلماء والباحثين . «يتبع»

تاريخ بغداد أو مدينة السلام

لحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي

كتاب نفيس من أوسع ما كتب فى موضوعه . عنيت بطبعه مطبعة الخانجي بالقاهرة، والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر، طبعا متقنا على ورق جيد والكتاب يحتوى على اثني عشر جزءا، ولتسهيل اقتنائه جعل قيمة الاشتراك فى كل جزء منه اثني عشر قرشا، فنلفت إليه أنظار أهل العلم ومحبي التاريخ .

a message of Omar Ibn Al-Khattab to Amrou Ibn Al-Ass then viceroy of Egypt:

"There live with you non-Moslems who are given the pledge of faith and whom the Prophet (Peace be upon him) commended to our care, for thus saith the Prophet "whoso unfairly treateth a covenantor or imposeth too heavy a burthen on him, will I be his adversary on the judgment day". "Take heed therefore O' Amrou lest the Prophet becometh thy adversary for whoso contendeth with him will be overthrown".

An authentic Tradition in this connection is the saying of the Prophet (Peace be upon him) "Whoso revileth a non-Moslem (Zimmi), will he be flogged on the judgment day with lashes of fire".

Consider then the great eminence given to covenant by Islam and compare this with treaties in which some powerful nations take upon themselves before the whole world to respect the rights of a Moslem people but once they have reduced it to subjection and gained the upper hand in the administration of its affairs, they forbear not from the destruction of souls and the shameless misappropriation of its wealth. Not content with this, they try their utmost to turn the people from their faith and infuse heresy and disbelief among them. Yet despite such monstrous behaviour, they feign indignation should they be called the enemies of humanity and oppressors of liberty.

The Moslem law-doctors have fully appreciated the great regard and solicitude which the law-giver has lavished on non-Moslem subjects under the protection of Islam.

Rules were elaborated from the fundamental precepts which rendered alike Moslem and non-Moslem. Note-worthy among these, is the institution that a Moslem could lawfully leave or bequeath unalienably a part of his property to a non-Moslem enjoying the protection of Islam. Such will or bequest is considered valid and binding. In interpretation of the Tradition "Man is not to outbid his followmen in purchasing or betrothal once an agreement thereto is concluded", they said that the tradition applies with equal force to the non-Moslem under the protection of Islam just as it applies to the Moslem. Outbidding a non-Moslem in a purchasing or a betrothal agreement are both forbidden.

In the consideration of the manners of fellowship, the Moslem law-doctors lay particular stress on the observation of the rights of non-Moslems under the rule of Islam. They urge to their kindly treatment, to bear patiently any harm on their account, defend them in their absence and repel whomsoever wishes to do them harm.

(to be continued)

other elements of the Moslem nation by bonds of amity, good-will and cooperation. These bonds are referred to in the Koran and the Tradition as well as in the sayings of the Prophet's companions and the learned men who followed them.

The pledge given to the Zimmis (those under the rule of Islam) implies that they should live under Moslem protection enjoying full religious liberty and complete security as regards their own persons, their property and their honour. The following quotation from the pledge of Omar Ibn Al-Khattab to the people of Elia is significant: "He gave them the pledge of security for their persons, their property, their churches and all followers of their creed. Their churches are not to be inhabited, diminished in number or revenue or crosses and they are not to be forced to renounce their faith or subjected to any harm".

As a constitution of Islam, the Koran has left no aspect of social and political life to which it did not ordain some principle to guide its followers in the details thereof. One may consider in this connection the great social and political aspect dealing with the treatment of non-Moslem communities who choose to live peacefully at our side and give no cause for strife and agitation. The Holy Koran may well be quoted here:

«لَا يَنْهَى كُمْ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah does not forbid you to be charitable and to deal justly with those (of the non-Moslems) who have not waged war against you and have not driven you out of your homes; verily Allah loveth those who are just and equitable" (Baidawy's Commentary).

This verse clearly urges to the maintenance of the law of equity in treating the peaceful sections of the non-Moslem communities. It further points to the merit of being charitable and kind to them.

In expressing this, the negative form of speech was purposely used in the verse as it was meant as an answer to what occurs first to the mind that their profession of a different religion detracts from showing kindness to them and respecting their rights.

The great Emirs of Islam have always followed the injunction enjoined by this verse. They were wont to counsel the viceroys to maintain justice in their provinces and they gave particular mention to the treatment of the non-Moslem subjects under their rule. Perhaps the best instance we can give in illustration of this is a quotation from

Islam, he is to be sent back in full security to his own abode of safety, as ordained by the following verse:

«وَمِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

..Should a polytheist come to seek your protection in order to hear the Koran recited and acquaint himself with the truth thereof, grant him protection till he has heard it, then give him a safe conduct if he chooses not to profess Islam, to his abode of safety" (Baidawy's Commentary).

In case when Moslems capture a warrior proceeding from an enemy country and he asks to be given the pledge of security, Islam ordains that no harm should befall him and if it were thought that to interest of the country could be served by granting such pledge, he should be given a safe conduct to his country.

Again should Moslems come across a party of the enemy on the borders of the Moslem dominions and on being questioned they say that they have crossed the borders as traders thinking that as such they go unmolested, we should let them carry on their lawful pursuit or send them back to their own country, unless proofs are otherwise available to incriminate them and point to their evil intentions.

The pledge of security in Islam is a real one, no mere idle talk. It lays particular stress on the safe custody of the wealth and property of those to whom we are bound by treaty. Should the party to the treaty return to his country and leave behind in the dominion of Islam some trust or debt, it is incumbent upon the Moslem authorities to send such to him. Should he die these should be sent to his heirs, and should they not be known, it should be sent to the head of the deceased's community to dispose of it to the next-of-kin.

The sacredness in which the pledge of security was held in Islam is testified to by the saying of Omar Ibn Al-Khattab: "I have been told concerning some of you that on going in pursuit of an infidel warrior who flees to shelter in the mountain and there makes himself unassailable, one of you would shout after him "fear thou not" and as soon as he gets to him he would kill him. By Him in whose hands lieth my soul, should I know of any one who hath done so I would at once put him to death".

As to those who choose to live under the rule and protection of Islam, they are accorded such rights as warrant their complete freedom and render them a living element closely connected with the

forestall the breach of faith by hostile measures, Islam ordains in such case to publicly renounce the treaty and proclaim the termination thereof. The Holy Koran is quite clear on this point:

«وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقل عن الكشاف

"If you feel apprehension of betrayal on the part of the other party of the treaty through signs showing treachery, then repudiate the treaty in plain terms, and wage not war against them while they are under the impression that the treaty is still in force for this would be treachery and God hateth the treacherous" (Al-Kashaf's Commentary).

The pledge of security given to an enemy is not confined by Islam to the sovereign but it is the right of every Moslem whether man or woman. Should a Moslem, man or woman, give their pledge of security to an enemy, such pledge is considered binding and he could depend on the strength of it that no harm would befall him until he reaches his abode of safety.

Nor is it conditional that the pledge should be given by a major or even a Moslem. The pledge of a boy who knows what he says or a non-Moslem under the rule and protection of Islam is just as binding.

Indeed Islam has transcended the limits of tolerance in regard to the question of security so much so that should a Moslem make a hostile sign to warn an enemy of the impending attack and the latter took it for a sign of peace, it is imperative that full security should be vouchsafed him in accordance with what he understood the sign to mean.

Such is the rule in war-time. The security of the enemy who enters a Moslem country with the object of engaging in trade or business rests entirely in the hands of those in authority. Should a member of the public however give his pledge to an enemy who thereby gains admittance into the country for trade and the latter thinks such pledge is binding, full security should be accorded him and if the Wali does not deem it in the interest of the country that such security be given, he had to conduct the enemy back to safety.

Again should an enemy ask for security in order to have an insight into religion and it happens that he finds no satisfaction in

women, children, as well as the old, the insane, the blind, the cripple and the infirm. There are certain law-doctors of Islam who do not sanction the slaying of the blind and the cripple even though they have taken part in drawing the plan of campaign. Nor is the slaying of women permitted even though they were employed to guard fortresses or fling missiles such as stones. In this connection the Koran saith:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلًا عن الألويسي

"Fight to exalt the Religion of Allah and uphold His word only with those who fight with you or are expected to do so, to the exclusion of all others, and transgress not by slaying those who fight not with you" (Alucy's Commentary).

Thus has fighting been ordained only against like fighting.

On finding a slain woman in one of the expeditions, the Prophet (Peace be on him) denounced the act saying "This would not fight, to be thus slain" and warned his followers against killing those who do not fight against them.

If the combatants place women and children in front of them, it is imperative to desist from fighting unless they are used as a means of strategy to overcome the Moslems and the defeat of Moslem arms be feared in consequence.

Islam does not sanction the mutilation of the enemy and the Prophet saith in this connection "Mutilate not the body of the enemy and slay not the child". It strictly forbids the carrying of decapitated heads from town to town or sending them to the Walis (governors) to display them as a sign of victory. Abu Bakr severely denounced the practice and called it "Persian" as being foreign to Moslem codes and traditions.

Provisions were also made for the prisoner of war. Islam ordained that the decision of his case should rest with the Emir who knows best the interest of his side and has the choice to set him free with or without ransom as he deems fit.

Islam resorts to no compulsion to force his enemies to profess it. This applies to both followers of revealed religions and others alike. Imam Malek says in this respect "Tribute should be taken from whomsoever professes a religion other than Islam".

As to those with whom we have entered into a treaty of peace, it is incumbent upon us to fulfil our obligations towards them and treat them fairly as long as they so treat us.

And though it be the practice of some powerful nations when they sense the desire of betrayal from the other party of the treaty, to

TOLERANCE OF ISLAM⁽¹⁾

Should one make a serious study of the principles of Islam and thoroughly acquaint himself with the spirit of its laws, he would straightway realise with not the least shadow of doubt, that it is a divine religion revealed to diffuse true guidance throughout the world and initiate nations into the highest possible and most advanced social systems.

Indeed the banner of Islam continued to fly high in East and West when its fate rested in the hands of men who were imbued with its lofty ideals and sought the right means for its furtherance. I could scarce deal in this article with all the social systems promulgated by Islam, nor could I review all the fundamental precepts which serve to prove that this religion was subject to no human sentiment or racial traits or customs.

I will therefore confine myself to a phase of Islam wherein its fair justice, tolerant attitude and high morals are eminently revealed. This phase is that of certain precepts pertaining to the treatment of non-Moslem communities.

According to Islam, non-Moslems are divided into three categories: belligerents, treaters and those under the rule and protection of Islam.

The belligerents are those who attack a Moslem nation, prepare to assail it or try to usurp some right belonging to it. The injunction of Islam in regard to those is that they should be repelled when they attack, forestalled when they make the move to assault and forced to surrender the usurped right when they transgress.

Yet in permitting to repel the attackers and check the activities of its assailants, Islam has ordained strict observation of the codes of mercy and justice.

The martial policy of Islam is pre-eminently established upon the codes of clemency and Islam forbids to do any harm to those who took no part in actual fighting such as monks, farmers, labourers,

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

judgeship?" "No" said he "unless there be no other substitute in which case coercion should be resorted to". "Would beating and imprisonment be used to force him?" he was asked, "Yes" said he.

Ibn Al-Aghlab, Emir of Al-Qairwan desired Al-Imam Sohnoon to accept the judgeship of Al-Qairwan but he declined, nevertheless the Emir tried for a whole year to persuade him accept the post but still he declined. Driven at last to exasperation by his constant refusal, the Emir sent for him and said "If thou wouldst not take it, I will nominate a non-follower of the Tradition to sit in judgment on the people", whereupon he had to accept the judgeship.

The story of Zaid Ibn Abdul-Rahman fully illustrates the great pride taken by righteous men in learning and their indifference to the high positions of the state. When Caliph Hisham succeeded to the Caliphate of Andalusia, he offered Zaid Ibn Abdul-Rahman a judgeship but he declined. The Caliph then sent his ministers to try to persuade him accept. Zaid could not get rid of them until he said to them "I swear to walk the whole way to Mecca, if you give me the judgeship and any one complains of you, I would take the disputed property in your possession and give it unto him and put the burden of proof on you for what I know of your injustice!" They knew he would carry out his threat and left him alone thereafter.

The great attention given by Islam to the dispensation of justice has rendered it the highest of all ordained duties. Some of the learned people who accepted the office of justice have refused to take any remuneration therefor. Abul-Qasim Hammas Ibn Marwan was one of those. He was nominated by Ziadatullah Ibn Al-Aghlab to the judgeship of North Africa which he accepted but declined to be paid for his services. "His were the days in which truth prevailed, Tradition flourished and justice was truly upheld".

Sohnoon, another judge of North Africa, "took neither pay nor grant from state or sultan and paid his officers and clerks out of the tribute money of the people of the Scripture".

Those who decline to be paid for discharging the duties of justice, will the Lord fully repay them. Should the judge nominated be in good circumstances and no one else among the learned people be as capable as he is, then his appointment would be considered as an ordained individual duty which he has to discharge. Should a rich man be appointed to the office of justice, he is not entitled, as all the law-doctors agree, to any remuneration therefor.

Thus has Islam founded its codes of justice upon efficient and sound basis and succeeded to produce judges who followed, in upholding its cause and enforcing the law, the best possible and most advanced system ever conceived by man.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR

FAIR JUSTICE OF ISLAM⁽¹⁾

(continued)

Sometimes one of the learned people would refuse the judgeship for which the sovereign rightly appreciates his qualities and deems him most capable to discharge its duties. The Emir is then obliged to threaten him with persecution and even inflict corporal punishment on him to force him into acceptance. There were others who have had to accept it under such circumstances. Of those, Issa Ibn Meskeen a learned law doctor of Al-Qairwan, is a prominent example. Emir Ibrahim Ibn Ahmad Ibn Al-Aghlab knew of his complete indifference to high positions even that of judgeship. He sent for him and said "What do you say of a man who is endowed with all good qualities whom I wish to nominate a judge to ameliorate the conditions of this nation thereby, yet he declines?" "It is incumbent upon him to accept the judgeship" said Ibn Maskeen, "But he tries to find excuses" said the Emir. "Force him into it even if you have to flog him" retorted Ibn Maskeen. "Up then, thou art the one!" said the Emir, "But I am not the man you describe" cried Ibn Maskeen and showed signs of reluctance whereupon they seized him by force and put the sword to his neck and thus he had to accept the judgeship.

As the well-being of the nation is closely connected with the right administration of justice, the sovereign may take all measures of coercion which he deems necessary to force the learned and capable ones to accept the office.

Imam Malek was once asked "Should a man be forced to accept

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصَدِّقُهَا مِثْلُهَا لَأَزْهَرُ الشَّرِيفُ

الجزء السابع	رجب سنة ١٣٥١	المجلد الثالث
مدير إدارة المجلة	رئيس التحرير	
عبد المحسن بن عبد العزيز	السيد محمد بن أحمد بن حسين	
المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهري الأعلى	من علماء الأزهري	
سابقاً		
الإدارة	الاستراة	
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١	داخل القطر المصري	٤٠
تليفون : ٨٤٣٣٢	خارج القطر المصري	٥٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	للطباء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذنين	٢٠
	ومعلمي المدارس الأولية والطلاب داخل القطر	٣٠
	ولحفرة المدكورين في خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاع داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

1934 - 21321

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طائفة القاديانية

أو غلام أحمد

بعث محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة واضحة لا يحوم عليها لبس ، محكمة لا تدنو منها شبهة ، وتلقاها عنه رجال صفت بصائرهم ، وتناهت في فهم سبل الخير عقولهم ، فبلغوها كما أمروا ، وجاهدوا في سبيلها حتى انتصروا ، وما زال الدين الحق — ولن يزال — رفيع الدعائم ، محفوظا من أن تلعب به يد الأهواء والمساكيد ، والفضل في هذا الحفظ للكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، فإنهما قد وجدا — وسيجدان — في كل عصر عقولا تنظر فيهما وهي مبرأة من كل عوج ، بعيدة من كل هوى ، فسرعان ما تبصر الحقائق محفوفة بحجج تقطع لسان كل جهول ، وتفضح سريرة كل ختال نفور ، قال الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

وقد دلنا التاريخ الصادق أن الدين الحنيف يبتلى في كل عصر بنفوس نزاعة الى الغواية ، فتتنكب عن الحقائق ، وتمشى في تحريف كله مكبة على وجهها .

وليس هذا الاغواء بمقصود على من يدعون التفقه في الدين ولم يتفقهوا ، وكثير من زعماء الفرق المنحرفة عن الرشيد ، بل يتمدأتم الى فئة تسول لهم نفوسهم ادعاء أنهم مهبط الوحي ، وأنهم يتلقون ما يقولونه بأقوالهم ، من الله تعالى بدون وسيلة كتابه الحكيم وحديث رسوله الكريم .

ومن مدعى النبوة من يذهب فينقطع دابره ، كالخارث بن سعيد الذى ظهر فى أيام عبد الملك بن مروان ، واغتر به خلق حتى وقع فى يد عبد الملك فقتله ، ولم يبق له فى الأرض أثر ، وكأسحاق الأخرس الذى ظهر فى خلافة السفاح ، واتبعه طوائف ، وقتل فانقطعت فتنته .

ومن مدعى النبوة من يبقى لدعوته أثر بعد موته ، كالحسين بن حمدان الخصبي الذى نشر فى جبال حماه واللاذقية النحلة التى يتمسك بها طائفة النصيرية اليوم .
ومن هذا الصنف غلام أحمد مبتدع النحلة القاديانية .

كثيرا ما وردتنا رسائل من البلاد العربية وغيرها كأمر بك يسأل محروها عن أصل هذه النحلة ومبلغ صلتها بالاسلام ، وبالأحرى بعد أن ظهر المقال الذى كشفنا فيه الغطاء عن النحلة البهائية ، ونشرناه فى الجزء الخامس من المجلد الأول من هذه المجلة . ووردتنا رسائل أخرى مطوية على ما يصرح به دعاة هذه النحلة من الآراء ، ويقترح محروها نقد هذه الآراء ، وتحذير المسلمين من الوقوع فى مهالكها ، ولم نشأ التعرض للكتابة فى شأنها قبل اليوم ، إذ لم يكن لدينا من كتب أصحابها ما نطلع به على أساسها ، ونعرف منه حال واضعها .

وقد انساق الينا اليوم من كتب مبتدعها غلام أحمد وبعض دعايتها ما جعلنا على بينة من أمرها ، وهما نحن أولاء نضع أمام حضرات القراء فصولا فيما تقوم عليه هذه النحلة من المزاعم الخاطئة ، ونلقى عليهم كلمات فى نشأة واضعها ، ليكونوا على بصيرة من أنها دعوة زائفة ، ولا يغيب عنهم أن دعايتها الذين يجوسون خلال ديار الاسلام إنما يثيرون فى نفوس شباننا فتنة ، والفتنة أشد من القتل .

غلام أحمد — أصله ، وولادته ، ونشأته :

ساق غلام أحمد نسبه ، فذكر أن آباءه كانوا يسكنون سمرقند ، ثم رحلوا الى الهند ، واستوطنوا « قاديان » وصارت لهم الرياسة فى تلك الناحية ، ثم دارت عليهم

الدوائر ، وانهاالت عليهم المصائب ، وذهبت عنهم تلك الرياسة ، ونهبت أموالهم ، وقال :
« ثم رد الله الى أبى بعض القرى فى عهد الدولة البريطانية » .

ولد غلام أحمد سنة ١٢٥٢ ، ولما بلغ سن التعليم شرع فى قراءة القرآن وبعض
الكتب الفارسية ، ولما بلغ العاشرة من عمره ، تعلم اللغة العربية ، ولما بلغ السابعة عشرة
اتصل بأستاذ ، فتلقى عنه النحو والمنطق والفلسفة ، وقرأ على أبيه كتباً فى علم الطب .
أما العلوم الدينية فلم يدرسها على أى معلم ، وإنما كان له ولوع بمطالعتها ^(١) .

وعند ما قطع مسافة فى التعلم كانت السلطة البريطانية قد امتدت على الفنجاب ،
وكان الشبان يطمحون الى المناصب ، فاندفع غلام أحمد يبحث عن وظيفة ، فذهب
الى « سيلكوت » وتقلد وظيفة فى إدارة نائب المندوب السامى ، ثم استقال منها بعد
أربعة أعوام إجابة لرغبة أبيه الذى رأى نفسه فى حاجة الى مساعدته له فى إدارة
شؤونه الخاصة .

وفى سنة ١٨٧٦ م ^(٢) مرض أبوه ، فزعم غلام أحمد أنه نزل عليه وحى من الله بأن
أباه سيموت بعد الغروب ، وكان هذا الإخبار فى زعمهم أول وحى نزل عليه ، وأخذ
بعد هذا يصرح ببعض آراء زاعمها أنه يتلقاها من طريق الوحي ، وكان المسلمون يلاقون
هذه المزاعم بالإلكار الشديد ، فرحل الى بلدة « لودهيانة » وأذاع منشوراً أعلن فيه
أنه المسيح المنتظر ، فقام فى وجهه علماء الشريعة بالإلكار ، ومن بين هؤلاء العلماء
مولوى محمد حسين صاحب جريدة « إشاعة السنة » ودعا مولوى محمد حسين كثيراً
من العلماء الى « لودهيانة » لمناظرة غلام أحمد ، ولكن الوالى « الكوميسر » فى هذه
الناحية كان فى جانبه ، فنع من عقد المناظرة ، وأرغم مولوى محمد حسين ومن معه
من العلماء على مغادرة البلد فى اليوم نفسه .

(١) كتاب بالسان الانكليزى لحدود بن غلام أحمد اسمه « أحمد رسول آخر الزمان » .

(٢) نستعمل التاريخ الافرنجى لانه الوارد فى كتبهم التى ننقل عنها هذه الحوادث .

ثم انتقل غلام أحمد الى « دهلي » داعيا الى مصلحته ، فواجهه العلماء بالانكار ، وطلبوه للمناظرة فيما يدعوا اليه ، وقرروا أن يتولى مناظرته مولوى نظير حسين أستاذ الحديث ، فلم يجب غلام أحمد للمناظرة ، ولكن - كما يقول أتباعه - دعا مولوى نظير حسين الى المباهلة : بأن يحلف هذا الأستاذ على أن عيسى بن مريم عليه السلام لم يزل حيا ، واذا حلف ولم ينزل عليه في خلال سنة بلاء ، يكون غلام أحمد كاذبا في نبوته ، ولكن مولوى نظير حسين ومن معه من العلماء أبوا أن يسلكوا مع غلام أحمد هذه الطريقة بدل ما دعوه اليه من المناظرة .

وبعد هذا دعا أهالى دهلي مولوى محمود بشير من مدينة « بهوبال » لمناظرة غلام أحمد ، حكى هذا محمود بن غلام أحمد ولم يزد على أن قال : وطبعت هذه المناظرة . وفي سنة ١٨٩٢ ذهب الى « لاهور » أيضا ، فجرت بينه وبين مولوى عبد الحكيم مناظرة ، ذكر هذه المناظرة أيضا محمود بن غلام أحمد ، ولم يتعرض لوصفها أو لمن كان له الفوز في نهايتها . وفي سنة ١٨٩٦ عقد مؤتمر الأديان في « لاهور » وحضره ممثلو ملل كثيرة ، ويقول محمود بن غلام أحمد : إن غلام أحمد هو الذى اقترح عقد هذا المؤتمر وغرضه من هذا الاقتراح تعريف العالم بحقيقة رسالته ، وقالوا : إنه كان عند ما شرع فى كتابة المقال الذى أراد إلقاءه فى المؤتمر أخذه إسهال عنيف ، ثم أتمه ، وزعموا أنه أوحى اليه بأن مقاله سيفوق كل ما يلقى فى المؤتمر ، ولا ينتظر منهم بعد هذا إلا أن يقولوا : إن مقاله فى المؤتمر كان فوق كل مقال ، وذكروا أن أتباعه لذلك الحين لا يزيدون على ثلاثمائة شخص .

وفى سنة ١٨٩٧ دعا حسين كاشى سفير تركيا فى الفنجاب غلام أحمد للاجتماع ، فلم يجب ، فذهب اليه بنفسه وسمع منه ما يدعيه من نزول الوحي ، وبعد انصرافه عنه نشر فى صحف « لاهور » مقالا أنكر فيه ما يدعيه غلام أحمد أشد الانكار ، وكان لهذا المقال أثر فى ازدياد حنق المسلمين على غلام أحمد فى تلك البلاد .

وفي تلك السنة نشر غلام أحمد تحت عنوان «الصلاح خير» خطابا لعلماء الاسلام يدعوهم فيه أن يكفوا عن معارضته والتشنيع عليه مدة عشر سنين ، فاذا كان كاذبا فسيصادفه ما يظهر كذبه ، واذا تبين صدقه ، فستكون هذه الهدنة سببا لمعرفتهم للحق ونجاتهم من العقاب الذي ينزله الله على من يناوئونه .

ولم تجد هذه المكيدة عند علماء الاسلام غباوة ، فرفضوا هذا الاقتراح ، واستمروا على تنفيذ آرائه ، وتحذير الناس من السقوط في ضلالته .

وفي هذه السنة قصد غلام أحمد الى التخليص من حملة المنكرين عليه ، فاجأ الى حاكم الهند العام وقدم له مطالبا ، قال فيه : إن أصل اضطراب الهند هو المشاغبات الدينية ، فيجب وضع قانون يسوغ لأتباع كل دين إظهار حقائق دينهم ، ويحميهم من تعرض غيرهم لهم .

وفي سنة ١٨٩٨ وضع لأتباعه قانونا هو أن لا يزوجوا بناتهم لمن لم يكن مصدقا بنبوته . وفي هذه السنة أسس مدرسة بقاديان لتعليم أبناء شيعته حتى يشبوا على مبادئ نحلته .

وفي سنة ١٩٠٠ بنى مسجدا بقاديان ، ولكن أقاربه الذين ساء بهم الله من نزغاته بنوا أمام هذا المسجد جدارا جعل أشياعه لا يصلون الى المسجد إلا بعد أن يمشوا مسافة طويلة ، فرفع غلام أحمد عليهم دعوى ، فقضت المحكمة بإزالة الجدار .

وفي هذه السنة ألقى على طائفته الخطبة التي يسميها «الخطبة الإلهامية» وأتباعه يعدونها من معجزاته ، وسنقل فيما بعد شيئا من هديانها وضلالاتها .

وفي سنة ١٩٠١ أمر أتباعه بإحصاء عددهم ، وتقعيد أسمائهم في سجل ، قال ابنه محمود بشير : وكانت هذه السنة مبدأ التفريق بينهم وبين المسلمين .

وفي سنة ١٩٠٢ أصدر مجلة لنشر مذهبه سماها مجلة «الآديان» وهي تنشر باللغتين : الأوردية والانكليزية ، وكان يكتب فيها بعض مقالات بنفسه ، وفي هذه السنة أقام

عليه السيد كريم الدين قضية ادعى فيها أنه تناوله بالقذف ، واستدعى غلام أحمد الى المحكمة ببلدة « جهلوم » وحضر لدى المحكمة فقضت ببراءته .

وفي سنة ١٩٠٣ قتل أحد دعاة مذهبه وهو سيد عبد اللطيف بمدينة « كابل » بحجة مروقته من الدين ، وفي هذه السنة كتب غلام أحمد مقالا خرج فيه الى شتم السيد كريم الدين حتى قال عنه : إنه كذاب لئيم ، فرفع عليه السيد كريم الدين قضية قذف ثانية ، واستدعى غلام أحمد الى المحكمة ببلدة « جُردَسبور » فقضت عليه المحكمة بغرامة قدرها ٥٠٠ روبية ، فلستأنف القضية لدى محكمة « امرتسر » وكان القاضى انجليزيا ، فنقض الحكم الأول وقضى ببراءته .

وسافر بعدُ الى « لاهور » و « سيلكوت » ليخطب داعيا الى مذهبه ، فأصدر العلماء هناك منشورا ينصحون فيه للناس بأن لا يستمعوا الى خطبه ، وخطب مرة واحدة فثار الناس عليه بالانكار وحاولوا رميه بالحجارة ، ولكنه كان كما هو شأنه في هذه المواقع محاطا بالشرطي (البوليس) فحموه حتى ركب القطار هاربا .

وفي سنة ١٩٠٥ أسس مدرسة دينية عربية في قاديان لتخرج دعاة عارفين بمقاصد نحلته ، وفي هذه السنة سافر الى « دهلي » فقام العلماء في وجهه ولم يتمكن من الخطابة في محل عام ، إلا أنه دعا طائفة الى المنزل الذي يقيم فيه ليبحث بينهم مبادئ مذهبه ، فلقى من بعض الحاضرين معارضة وإنكاراً ، فغادر المدينة خائفاً .

وعند عودته من دهلي مر على بلد « امرتسر » وعزم على إلقاء خطبة في قاعة المحاضرات ، وجاء العلماء يحذرون الناس من الاستماع إليه ، ولما دخل قاعة المحاضرات ، وأخذ يخطب ، قدم له أحد أتباعه قدح شاي ، وكان الاجتماع في نهار رمضان ، فأخذ منه الرشقة الأولى ، فصاح الحاضرون بالانكار عليه ، فأجاب بأنه مسافر وقد رخص للمسافر الفطر في رمضان ، ووقع عقب هذا هياج ، فانقطع عن الخطابة ، وانصرف في حماية الشرطي (البوليس) واضطر الى مغادرة المدينة .

وفي سنة ١٩٠٥ زعم أنه أوحى إليه أن أجله قد قرب ، وكتب الكتاب المعروف عندهم بالوصاية ، ولكن أجله امتد بعد هذا نحو ثلاث سنين . وفي هذه السنة زعم أنه أوحى إليه بإنشاء مقبرة خاصة لأتباعه ، وفرض على من يريد الدفن فيها أن يهب خزينتهم عشر ماله .

وفي سنة ١٩٠٧ قامت حركة وطنية في « الفنجاب » فأنحاز غلام أحمد الى جانب الحكومة ، وأذاع منشوراً دفاعياًه أتباعه الى موالاته الحكومة ومساعدتها على إخماد الحركة الوطنية ، ففعلوا .

وفي هذه السنة انعقد مؤتمر الأديان في « لاهور » وحضره مندوبو الديانات ، وبعث غلام أحمد مقالا ليقراً في المؤتمر ، ولما قام أحد أتباعه لقراءته قابله جماعة من الحاضرين بالازدراء ، ورموه بكلمات الاستهزاء .

وفي سنة ١٩٠٨ ذهب الى « لاهور » وعند ما وصل إليها أنكر المسلمون مجيئه ، وصار العلماء يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر في براح حول منزله ، ويلقون خطباً يحذرون فيها الناس من الاغترار بمزاعمه .

وكان غلام أحمد مبتلى بأسهال مزمن ، فاشتد عليه وهو بلاهور ، ومات في مايو من هذه السنة ١٩٠٨ الموافقة لسنة ١٣٢٦ هجرية ونقل الى قاديان ودفن بها ، وانتخب أتباعه لرياسة المذهب حكيم نور الدين حتى مات سنة ١٩١٤ فاتتعت الرئاسة الى بشير الدين محمود ابن واضع هذه النحلة غلام أحمد ، وهو رئيسهم لهذا العهد .

ادعاء غلام أحمد الوحي والنبوة والرسالة :

يزعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحي ، ومما قال في الخطبة الإلهامية : « هذا هو الكتاب الذي ألهمت حصه منه من رب العباد ، في يوم عيد من الأعياد » ثم قال :

« بل هي حقائق أوحيت إلى من رب الكائنات » ثم قال : « وقد أوحى إلى من ربي قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

ولم يدع أحد من الصحابة ولا من السلف الصالح أنه يأتيه الوحي من الله ، ولو اقتصر غلام أحمد على دعوى الوحي لقلنا : لعله يريد من الوحي الإلهام ، كما قال تعالى : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا) ويبقى النظر فيما زعم من الإلهام ، فإن كان موافقا لنصوص الدين أو أصوله سكتنا عنه ، وإن كان مخالفا لشيء منه ، ردناه عليه ، ولكنه يصرح في كتبه بأنه نبي ورسول ، قال في الخطبة الإلهامية : « أرايتم إن كنت من عند الله ، ثم كذبتُموني فما بالكُم أيها المكذبون » وقال : « وإنكم ترون كيف تنصّر الناس وارتدوا من دين الله ، ثم تقولون ما جاء مرسل من عند الله ، ما لكم كيف تحكمون » وقال : « فأَنعم الله على هذه — يعني أمة الإسلام — بإرسال مثيل عيسى وهل ينكر بعده إلا العمون » وقال : « وكان عيسى علما لبني إسرائيل وأنا علم الكُم أيها المفرطون » .

وفي منشور لأصحابه عنوانه « شرائط الدخول في جماعة الأُحمدية » ما نصه : « إن المسيح الموعود — يعني غلام أحمد — كان مرسلا من الله تعالى ، وإنكار رسل الله تعالى جسارة عظيمة قد تؤدي إلى الحرمان من الإيمان » وقال أحد دعاةهم أبو العطاء الجلندهرى : « كلم الله أحمد — يعني غلام أحمد — بجميع الطرق التي يكلم بها أنبياءه ، لأن الأنبياء في وصف النبوة سواء ^(١) » .

يدعى غلام أحمد النبوة والرسالة غير مبال بالقرآن والسنة وإجماع الأمة ، ففي هذه الأصول الثلاثة حجج على أن المصطفى صلوات الله عليه هو آخر النبيين والمرسلين . أما القرآن ففي قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

(١) البشارة الإسلامية الأُحمدية .

وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ) فعلى قراءة « خاتم » بكسر التاء يكون وصفاً له عليه الصلاة والسلام بأنه ختم الأنبياء، أى لا ينال أحد بعده مقام النبوة، فمن ادعاه فقد ادعى ما ليس له به من سلطان، وقراءة « خاتم » بفتح التاء ترجع الى هذا المعنى، فإن الخاتم بالفتح كالخاتم بالكسر يستعمل بمعنى الآخر، ذكر هذا علماء اللغة، وجرى عليه المفسرون المحققون وجاءت السنة الصحيحة لمدينة لهذا المعنى، ففي صحيح الامام البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى ».

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة » قال: « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وفى رواية مسلم عن جابر رضى الله عنه: « فأنا موضع اللبنة جئت ختمت الأنبياء » وروى الامام أحمد بسنده الى أبى الطفيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: « الرؤيا الحسنة » أو قال « الرؤيا الصالحة » الى غير هذا من الأحاديث وآثار الصحابة الصريحة فى أن النبوة انتهت بنبوته عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين، وأصبح بمنزلة المعلوم من الدين بالضرورة، قال الامام ابن كثير عند تفسير « وخاتم النبيين »: « وقد أخبر الله تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب أفاك دجال مضل » وقال الألوسى فى تفسيره: « وكونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعى خلافه ».

وما كان لمسلم أن يؤول القرآن والسنة الصحيحة تأويل من لا ينصح لله ورسوله ليجيب داعية هوى فى نفسه، وانظروا الى غلام أحمد وطائفته كيف نخبطوا فى تأويل

« وخاتم النبيين » وما يبينها من الأحاديث المحكمة ، ولا داعي لهم الى هذا التخييط إلا أن رجلا من « قاديان » استحب الهوى على الهدى ، فادعى أنه نبي مرسل ، وملاّ فيه باللغو وقول الزور والتلق لغير المسلمين .

وليس الوحي عند هذه الطائفة بمقصود على زعيم نحلتهم ، بل يدعون أن أتباعه أيضا ينزل عليهم الوحي ، ومما رأيناه في منشور وضعه رئيسهم لهذا العهد ، وعربه عبد المجيد كامل ، وطبع في مصر « أن طريق الوحي لا يمكن أن يسد في وجوه الناس » وفي هذا المنشور « أن المهدي والمسيح قد ظهر في الهند بمحل يقال له « قاديان » وأنه يوجد الآن آلاف من حواريه يستمعون الوحي الإلهي » ومما زعم غلام أحمد أنه أوحى به اليه « وإني جاعلك للناس إماما ينصرك رجال نوحى اليهم » .

بأي لسان يدعون الوحي وهذه مقالات غلام أحمد ورسائله طائفة بأقوال منقطعة عن الحكمة عارية عن الصدق ، والمعقول منها قد قاله أناس أو قالوا مثله أو خيرا منه ولم يخطر على بالهم ادعاء أنه وحى كلمهم به الله تعالى ، أو نزل عليهم به الروح الأمين : . ومن خطله المكشوف أنه يأتي الى آيات أو جمل من القرآن المجيد ، فينقلها كما هي ، ويضم بعضها الى بعض في صحائف ، ويزعم أنها وحى نزل عليه .

ينكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ويوردون على هذا شبهها لا تزن عند أولى العلم جناح بعوضة ، كما استدلوا بقوله تعالى : (اللَّهُ يُصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) متشبهين بأن قوله (يصطفى) فعل مضارع ، والمضارع للاستقبال . ودفع هذه الشبهة أن الفعل الواقع في الماضي قد يعبر عنه بصيغة المضارع لمقتضيات بلاغية ، منها أن يكون المعنى موضع غرابة ، فإن المضارع من جهة دلالة على الحال يتوسل به المتكلم البليغ الى إخراج الحادث الغريب في صورة الواقع في الحال ، ليبلغ تعجب المخاطب من وقوعه مبلغ تعجبه من الصورة البديعة في حال مشاهدتها ، وعلى

هذا الوجه ورد قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال: «فيكون» والموضع في الظاهر الماضي، لأن وجود إنسان من غير أب حادث غريب، فخاله يقتضى أن يعبر عنه بالمضارع لإحضاره في ذهن المخاطب حتى كأنه مشاهد له.

ومن دواعي التعبير عن الماضي بصيغة المضارع الإشارة الى استمرار الفعل وتجدده فيما مضى حيناً بعد حين، فإن الاستمرار التجددى يستفاد من المضارع على ما جرى عليه استعمال البلغاء، وصيغة الماضي لا تعرج على هذا المعنى، فالتعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) يدل على معنى زائد على أصل الاصطفاء الذى يدل عليه الماضي ويقف عنده، وذلك المعنى هو أن اصطفاء الرسل كان يتجدد ويقع مرة بعد أخرى، والقرينة الشاهدة بأن (يصطفى) مراد منه الاصطفاء الواقع قبل نزول هذه الآية هي آية (وخاتم النبيين) والأحاديث المستفيضة في إغلاق باب الرسالة والنبوة.

فاستعمال المضارع موضع الماضي في كلام البلغاء خارج عن حد الإحصاء، وآيات الكتاب يفسر بعضها بعضاً، كما أن السنة تبين الكتاب. ويزعم غلام أحمد أنه رسول وأنه هو المراد من الحديث الوارد في نزول ابن مريم حكماً عدلاً، وأخذ يمشى في تأويل ألفاظ الحديث على عوج، على أنه حاول في الخطبة الإلهامية صرف الناس عن العمل بالأحاديث النبوية، وحرّف كثيراً من آيات القرآن المجيد على زعم أنها نزلت لتخبر بظهوره، وتنوّه بشأنه، منها قوله في آية (وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) : «هذه بشارة بأنه سيكون في هذه الأمة الإسلامية رجل في درجة مريم الصديقة ثم ينفخ فيه روح عيسى فاذا مريم يخرج منه عيسى، أى أن الرجل ينتقل من صفاته المريمية الى صفاته العيسوية، فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم» !

ولا نريد أن نكثر في هذه المجلة من ذلك اللغو والهزل ، إلا أن تدعو الحاجة الى زيادة الكشف عن فضائح هذه النحلة من بعد .

زعمه أنه له آيات على صدقه :

قال غلام أحمد في الخطبة الإلهامية : « وإن تعدوا دلائل صدقي لا تحصوها » ولم نقف على شيء من هذه الدلائل ، إلا ما يشابه براءته من قضايا القذف التي كانت تقام عليه ، أو نجاته من أذى العامة حيث يكون محاطا بالشرطي محروسا من الحكومة بقوة الحديد ، وأراد أن يجعل دليل صدقه رواج دعوته عند طائفة من الغافلين عن سبيل الحق ، فقال في الخطبة الإلهامية : « ولو كان هذا الأمر والشأن من عند غير الله لمزق كل ممزق ، ولجمع علينا لعنة الأرض والسماء ، ولأفاز الله أعدائي بكل ما يريدون » .

وقد لقي كثير من الدعاوى المزورة مثلما لقيت دعوته أفرادا ضربت في نفوسهم الجهالة ، فلا يقدرّون مقام النبوة والرسالة ، ولا يفرقون بين من يدعيها حقاً ومن يدعيها وهو لا يرجو الله وقارا ، ولو كان رواج الآراء بين طائفة من البشر دليلاً على أنها حق ، لكانت البهائية من المذاهب الرشيدة ، والقاديانيون يعدونها كما يعدها المسمون نحلة غاوية ، وإن للباطل لصولة ، حتى إذا أخذ أهل العلم بيد الحق ، وأحكموا أساليب الدفاع عنه ، تضائل الباطل ، فإما أن ينقطع أثره ، وإما أن يبقى شعار فئة كان لله في إشارها الظلام على النور حكمة بالغة .

يذكر غلام أحمد في مؤلفاته المباهلة ، ويزعم أنها تجري بينه وبين بعض المنكرين عليه ، فيكون الظفر له ، ولسوء حظه سلك هذه الطريقة مع الأستاذ أبي الوفاء ثناء الله ، ففسرت مباهلته ، وتركها آية تنادى بخذلانه ، ولكن بعض المكبين على الباطل في صمم فهم لا يسمعون . ضاقت الأرض على غلام أحمد عند ما نهض الأستاذ ثناء الله

لا بطل نحلته ، ورمى دعاويه بالحجج الدامغة ، فكتب دعاء طويلا خاطب فيه الشيخ ثناء الله ، ومما قال فيه « إن كنت كما تزعم كذابا مفتريا ، هلكت في حياتك ! وإن لم أكن كذابا ومفتريا ، وكنت مخاطبا بكلام الله ، وكنت مسيحا موعودا ، فأرجو أن لا تنجو من سنة الله في المكذبين » وصدر هذا الدعاء في أول يوم من ربيع الأول سنة ١٣٢٥ (١٥ ابريل سنة ١٩٠٧) وقد مات غلام أحمد بعد هذا الدعاء بنحو سنة ، أما الأستاذ ثناء الله ، فهو ما زال يتمتع بالسلامة لهذا العهد ، وما زال يعمل للذود عن الدين الخفيف ، والكشف عن فضائح تلك النحلة المزورة .

غروره ونفضيد نفسه على بعض رسل الله الاكربين :

ملك غلام أحمد الغرور والتعاضم ، فانهال يحشو لنفسه من الاطراء ما شاء ، ومما أورده في كتاب الاستفتاء على أنه خطاب له من الله تعالى : « أنت منى بمنزلة توحيدى وتفريدى ، أنت منى بمنزلة عرشى ، أنت منى بمنزلة ولدى » وقال فى مقال له ورد فى كتاب « أحمد رسول العالم الموعود » : « فالواقع أن الله القدير قد أبلغنى أن مسيح السلالة الاسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية » ويعنى بمسيح السلالة الاسلامية نفسه ، فغلام أحمد يزعم أنه أفضل من عيسى عليه السلام ، ومما ادعى أن الله خاطبه به « إني خلقتك من جوهر عيسى وإنك وعيسى من جوهر واحد وكشىء واحد ^(١) » . ووقع فى يدى كتاب لغلام أحمد نقله أحد أتباعه الى العربية فوجده قد تحدث فيه عن الوحي ، ثم ذكر مقاما « يشافه الله فيه العبد بالكلام وينطق فى باطنه ويتخذ من جنانه عرشه ، ويعطيه كل نعمة مما كان قد أعطاها الأولين » ثم قال : « إبنى لا تكون قد ظلمت بنى نوعى إن لم أعلن لهم فى هذه الساعة أننى على ذلك المقام الروحى الذى وصفته هذا الوصف ، وأن الله قد أعطانى من المكاملة المرتبة التى ذكرتها بالتفصيل » .

(١) حمامة البشرى له .

وذكر الشيخ ثناء الله جلا صدرت من غلام أحمد مأخوذة من كتبه ، وله مؤلفات بالأوردية والفارسية ، ومن هذه الجمل قوله : « اتركوا ذكر ابن مريم فإن غلام أحمد خير منه » ومنها قوله : « ما أعطاه الله لكل نبي واحدا واحدا أعطاه لي جميعا » ومنها قوله : « قال الله لي إن أمرك إذا أردت شيئا أن تقول له كن فيكون » ومؤلفاته مملوءة بمثل هذه الجمل الطاغية .

نكفيره لمن لا يؤمنونه برسالة :

يجعل غلام أحمد المسامين الذين لا يقبلون دعوته كفارا ، ويمثلهم في كتبه باليهود ، ومما قال في الخطبة الإلهامية « فإن نبينا المصطفى كان مثيل موسى ، وكانت سلسلة خلافة الاسلام كمثل سلسلة خلافة الحكيم عليه من الله السلام ، فوجب من ضرورة هذه المقابلة والمائلة أن يظهر في آخر هذه السلسلة مسيح كسبح السلسلة الموسوية ، ويهود كاليهود الذين كفروا عيسى وكذبوه » وكرر هذا المعنى وهو تمثيل نفسه بعيسى عليه السلام ، وتمثيل المسامين الذين ازدروا دعوته باليهود في كتبه كثيرا .

وفي نشرتهم « شرائط الدخول في الأحمديّة » التصريح بأن المسامين الذين يكذبون غلام أحمد أحط درجة من المنافقين ، ونص عبارتهم : « وكذلك لا يجوز لأحمدي أن يصلي على غير أحمدي ، فكأنه بفعله يشفع الى الله لمن أصر على مخالفة المسيح وإنكاره ومات عليه ، مع أن الله يمنع أن يصلي على المنافقين ، فكيف على من كفر بأمور من الله » وقد يصف غلام أحمد المسامين بأنهم أعداء لأهل مذهبه كما قال في مقال^(١) يخاطب فيه أتباعه : « فاذكروا دائما أن الحكومة الانكليزية هي رحمة وبركة لكم ، فهي الدرع التي تقيكم ، إن الانكليز خير ألف مرة من المسامين الذين هم أعداؤكم » .

ويرى « رسول آخر الزمان » غلام أحمد بعهده من المسامين نعمة تستحق التشكر ، كتب الدكتور زكي كرام من برلين الى جريدة حضر موت بجاوة مقالا تحدث فيه عن

(١) ورد هذا المقال في كتاب لهم يسمى « أحمد رسول العالم الموعود » .

القاديانية في برلين ، ونشرته في العدد الصادر يوم السبت ٨ المحرم سنة ١٣٥١ ومما قال في هذا المقال : أنه زار هو والأمير شكيب أرسلان إمام الجامع الذي بنته هذه الطائفة ببرلين ، فأطلعهم الامام على كتاب لغلام أحمد نفسه ، فنقل منه الأمير جملاً ، ومن هذه الجمل أنه أي غلام أحمد « يحمد الله حيث ولد تحت راية انكليزية وبعيدا من المسلمين » .

القاديانية ورفقائه :

كانت القاديانية في أيام غلام أحمد وأيام خليفته نور الدين مذهبا واحداً ، غير أنهم في آخر حياة نور الدين ابتدأ شيء من الاختلاف يدب فيما بينهم ، وعند ما مات نور الدين انقسموا الى شعبتين : شعبة « قاديان » ورئيس هذه الشعبة محمود بن غلام أحمد ، وشعبة « لاهور » وزعيمها محمد علي مترجم القرآن الى اللغة الانكليزية ، أما شعبة قاديان فأساس عقيدتها أن غلام أحمد نبي مرسل ، وأما شعبة « لاهور » فظاهر مذهبها أنها لا تثبت النبوة لغلام أحمد ، ولكن كتب غلام أحمد مملوءة بادعاء النبوة والرسالة ، فماذا يصنعون ؟

ولشعبة « لاهور » ضلالة يبثونها في كتبهم هي إنكار أن يكون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ، وزعيم هذه الشعبة محمد علي يصرح بأن عيسى عليه السلام ابن يوسف النجار ، ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذه العقيدة ^(١) .

ونشرت مجلتهم « المجلة الاسلامية » التي تصدر في « وكنج » بانكلترا مقالا للدكتور « مركوس » وفي هذا المقال « أن محمداً عليه السلام يصرح بأن يوسف أبو عيسى عليه السلام » ولم يعلقوا على هذه الجملة كلمة لأنها جاءت على وفق نجلتهم . وكذلك كان محمد علي في ترجمته للقرآن يذهب مذهب الترجمة الحرفية ، ثم يضع في أسفل الصحيفة حواشي يؤول فيها ما ترجمه حرفياً ، ويرتكب في تأويلها وجوها

(١) انظر كتابه « عيسى ومحمد » ص ٧٦

يُحَذِّوْهَا حَذُو نَحْلَتِهِمْ ، كَمَا فَعَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (اِنِّى اَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ طَيْرًا بِاِذْنِ اللّٰهِ وَاُبْرِئُ الْاَكْمَهَ وَالْاَبْرَصَ وَاَحْيِ الْمَوْتِ بِاِذْنِ اللّٰهِ) فَقَدْ نَحَا فِي تَاْوِيلِهَا نَحْوَ مُنْكَرِى الْمَعْجَزَاتِ ، وَتَصَرَّفَ فِي مَعَانِيهَا تَصَرَّفَ مَنْ لَا يَدْرِى اَنْ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ بِلسَانِ عَرَبِيٍّ مُّبِيْنٍ .

وهوب مقاومهم والتحذير من دعايتهم :

للقاديانية حركة نشيطة في الدعوة الى نحلتهم ، ولما كانوا يقيمون هذه النحلة على شئ من تعاليم الاسلام ، أمكنهم أن يدعوا أنهم دعاة للاسلام ، ولا سيما شعبة لاهور التي تعلن أن غلام أحمد مصلح ومجدد لا نبي ، وقد أصبح الناس الذين لا يعرفون هذه النحلة يعتقدون أنهم دعاة للاسلام بحق ، وربما أثنوا على سعيهم ، وعاتبوا من يكتب في تحذير المسامين من أباطيلهم ، ولواقتصرت هذه الطائفة على نشر دعوتها بين قوم غير مسلمين ، خلف علينا خطرها ، وآثرنا الاشتغال بجاهدة غيرها من المضللين والملاحدين ، ولكنهم طمعوا في أخذ الشعوب التي تدرس القرآن والسنة وتستضيء بهدایتهم ، وراموا صرفها الى الاعتقاد برسالة غلام أحمد وما يتبعها من ضلالات ، فبعثوا بدعائهم الى سورية وفلسطين ومصر وجدة والعراق وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقد وجدت دعائهم على ما فيها من سخف أحداثا فرط أولياؤهم في تربيتهم على أدب الدين ، فقبلوها غرورا .

يذكر القاديانيون أن لهم دعاة في الصين ، والهند ، والعجم ، والعراق ، وجدة ، وسوريا وفلسطين ومصر ، وقرأنا في كتاب لهم مطبوع سنة ١٩٢٢ أن داعيتهم في مصر الشيخ محمود أحمد في شارع كذا ، وقد رأيت علماء الهند كيف قاوموا هذه الفئة ، وما زالوا يقاومونها ، ومن وصلتنا آثارهم في مقاومتها علماء سوريا ، فقد كتبوا الرسائل في الرد عليها وإيقاظ المسامين لما يثبونه من آراء تقوض بناء العقيدة ،

وآراء تربي نفوس الذئب، على الرضا بالاستكانة، والانقياد لكل يد تقبض على زمامهم
انقياد الأعمى .

وهنا نحن أولاء قد كتبنا هذا المقال ليحذر مسامو مصر وغيرها من الأقطار
الاسلامية فتنة هذه الطائفة حذرهم من فتنة الطائفة البهائية ، ولنا الأمل في علمائنا
ووعاظنا أن يقعدوا لدعاة هاتين الطائفتين كل مرصد، ويعالجوا كل قلب اعتل بشيء
من وساوسهما (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) . محمد الحضر حسين

الظرف والملح

قيل للأحنف بن قيس : إن المختار بن عبيد يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : صدق ،
وتلا : وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم م

وقدم الأحنف الكوفة في أيام مصعب بن الزبير ، فرآه رجل أعور قصيرا دميما
أحنف الرجلين ، فقال له : يا أبا بحر بأي شيء بلغت في الناس ما أرى ؟ فوالله ما أنت
بأشرف قومك ، ولا أجودهم ! فقال : يا ابن أخي بخلاف ما أنت فيه ! قال وما هو ؟
قال : تركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عنك من أمري ما لا تتركه ! .

النفس

سورة النور

٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْزَاقِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وهذا حكم من أحكام صيانة الألبضاع، وحفظ الأنساب، وحيطة أواصر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء، وإحكام الروابط من أن تعبت بها يد الفساد .

أجل : فالنظر رسول الشهوة ، وبريد الزنى ، ورائد الفجور ، ورب نظرة كانت بذرة لا خبث شجرة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

ولله من يقول :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظره ما ضرر خاطره لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

لقد طال الجدل ، وكثر المقال في هذا الموضوع ، حتى أصبح الكلام فيه كالحديث المعاد ، بل لقد ظفر نصراء السفور وأعداء الحجاب بنتائج خطيرة في سنوات قليلة ما كانوا يحلمون بها . ولا غرو فقد نبهوا يقظا من الأهواء ، واستثاروا متلهفا متشوقا من نفوس متعطشة للشهوات ، فسرعان ما لبث النداء ، وهبت تتسابق ركضا لإجابة ذلك الداعي الذي يدعوها الى ما طال اشتياقها اليه ، فما هو إلا أن احترقت أول حجاب حتى هوت في أعماق هاوية ، فاما أحست شدة الانحدار أخذت تصيح مستغيثة ولا مغيث ، وتصرخ متندمة ولات ساعة مندم !

لقد زين أولئك الدعاة أمر السفور بشتى الوسائل ، حتى أخذوا يتلمسون له أدلة من الدين الحنيف ، وما كان أمر الدين في الحقيقة ليشتغل من بالهم كثيرا أو قليلا ، ولكن ليهونوا على البسطاء ممن لا يزال للدين أثر قوى في نفوسهم أمر الانحدار معهم فيما انحدروا فيه ، وهم مهما لوّنوا في دعايتهم وأكثروا من حججهم فلن تعدو داويعهم أمرين :

الأول : تمسك حب التقليد للأمم الغربية من نفوسهم ، ذلك الحب الذي شوه في نظرهم قديم مجدهم ، وزين لهم السوء في قبائح غيرهم ، وهذا داعية أصحاب النية الحسنة .
والأمر الثاني : إجابة نزعات نفوس نزاعة للشهوات ، فهي تريد أن تحترق تلك الحجب حتى لا يعوقها عائق عن نيل رغائبها والوصول الى مشتهياتها ، وذلك شأن الغالبية الكبرى من تلك الطائفة المارقة .

وبالشديد الحسرة من تلك الصيحات والولولات التي انبعثت هذا العام من شواطئ
رمل الاسكندرية ، وبخاصة تلك المنطقة المسماة « ستانلى باى » فلقد انفرط العقد
وتردت الأسر فى قرار الهاوية ، وليت شعرى هل لهذه الهاوية من قرار تقف عنده ؛
إن أكبر الظن أن لا قرار لها ، وأنها كبر لا نهاية له ، فكلما انحدر الواقع فيه الى حد
تطلبته حدود بعده هى أعمق منه ، ومتى وصل أحد أولئك المستهترين فى الشهوات
الى درجة ، أصبحت عادية ، وأصبح طعمها نافها ، فتطلعوا الى طعم حريف مستغرب
يرضون به شهواتهم المتعطشة دائماً ، ويحيون بها أذواق أمتها تتالى الطعوم الحريفة ، ولذلك
لا يفتر دعاة تلك الشئون عن ابتكار أبواب جديدة من الفجور تعجز عنها الأبالسة .
سمعنا تلك الصيحات المنبثقة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وضجت
الجراند اليومية أعلى ضجيج ، حتى أقضت المضاجع ، وأزعجت من بأقصى البلاد ، منذرة
بالويل والثبور ، وانحلال كيان الأمة إذا بقى شئ من هذه المنكرات العلنية ، والفضائح
التي لا يستحي منها أصحابها .

تطالعنا صيف هذا العام الجراند اليومية ، والأنباء الشفوية ، بأخبار فى تلك
الجهات تسيل من الغيورين أحر العبرات ، وما يدريك فاعلمها تسيل لعاب الأهواء
والشهوات من المستعدين لها من فتیان وفتيات ، فيطم الكيل ويعم السيل ! اللهم رفقا
بالأمة ، اللهم لطفا بالعباد ، فإنك لطيف بعبادك ! .

لقد بدأت تلك الطائفة الطاغية على محاسن العادات ومكارم الأخلاق ومحاسن
الدين ، بدأت حملتها بهنات هينات ، فعملت على براقع كانت ضعيفة ضئيلة ، فشوهت
أمرها ، واتخذت من ضعفها سلاحاً لإزالتها ، وبينت أن تلك البراقع لا تستر زينا ، ولا
توارى شينا ، فتعجب إزالتها ؛ ثم قالت : إن عزلة الجنسین أحدهما عن الآخر مضیعة
لكليهما ، مزيل لتمام التساند بينهما المبني على التعارف والتآلف ، مزيج لنصف العالم عن

أن ينتفع به مجموع العالم، وهكذا دواليك من سموم مغطاة بأنسجة من حلوى؛ وأخذوا يقارنون بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية، مجردين الأولى عن كل صفة كمال، مفرغين على الثانية كل حبل المجد والفخر، فعموا أو تعاموا عن اللهام التي تقوم بها المرأة الشرقية من الأمور التي لا بد منها للحياة الاجتماعية: من تدير منزل، وتربية أطفال، وعكوف على إصلاح شئون داخلية لا تستغنى الأسرة عن معالجتها والسهر عليها، ناظرين بعين واحدة إلى الأناقة والرشاقة والمتناظر الجذابة التي تتحلى بها المرأة الغربية، معروضة للأنظار، متفنتة في اصطلياد العقول والألباب؛ فلم يحسوا أن للكرامة والصيانة والعفاف وحفظ الأنساب من تطرق الشكوك والريب أقل نصيب من العناية، ولا أنه حفظ من الاهتمام. ولقد ساعد على ذلك ما وقر في نفوس البشر قاطبة من تطمع المغلوب لمحاكاة الغالب، وولع النفوس وبخاصة نفوس المترفين بالاستغراق في اللذائذ والمشتبهات فبجحت أصوات المحذرين والمندرين، وتعرضوا للشتم والتبكيك، والرمى بالجمود، ومعاوكة الإصلاح، والوقوف في سبيل الترقى، وهلم جرا، حتى انتهى الأمر بهم أن يقول قائلهم: اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد؛ واليوم وقد تبينت العاقبة الوخيمة فصيح أن يقول:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وما كان يروع إذ ذاك إلا زعم زاعمهم أنه لا حجاب في الإسلام، فكأنما ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فلم يفقهوا ولم يسمعوا الآيات والنذر، ولم يبصروا ذلك النور المتلألئ الذي بثه الله في سورة، فلم يقرأ أحد منهم قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) (الح).

ولنبداً ببيان الحكم الشرعي في عورة الرجل والمرأة في الصلاة وخارجها حسبما استنبطه الأئمة من الكتاب والسنة، ومراعاة المعنى الذي من أجله شرع الله الحكم ليقاس عليه ما شاركه في معناه، ثم نعود الى تفسير الآية الكريمة ببيان ما فيها من دلالة وإرشاد ونور يضيء لمن كان له عينان يرى بهما، أو قلب يفقه به، والله ولي التوفيق :

أما عورة الرجل في الصلاة التي يجب سترها متى قدر عليه وتبطل الصلاة بتركه فهي ما بين السرة والركبة، ومثله في ذلك الأئمة. وأما عورة الحرة فماعداهما وجهها وكفها. ويرى مالك أن قدمي المرأة في الصلاة ليستا بعورة. وأما خارج الصلاة فإما أن يكون الكشف مدعاة للفتنة مثيرة للشهوة فهو حرام، والنظر اليه محرم كذلك لمن خشى الفتنة أو أثرت بالنظر شهوته، ما لم تكن النظرة الأولى التي تجيء عفواً بلا قصد فلا حرج فيها؛ ولا فرق في الحرمة حينئذ بين عورة المرأة مع الرجل أو مع المرأة، وعورة الرجل مع المرأة أو مع الرجل.

وأما إذا أمنت الفتنة فالعورة أربعة أقسام، لأنها إما عورة المرأة بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة، وإما عورة الرجل بالنسبة للمرأة أو بالنسبة للرجل، فأما عورة المرأة بالنسبة للرجل، فالمرأة إما أن تكون أجنبية، أو ذات رحم محرم، أو محل استمتاع أي زوجة أو أمة، فالأجنبية عورتها جميع بدنها إلا الوجه والكفين، حيث أمنت الفتنة كما سبق؛ ومع كون الوجه والكفين ليسا بعورة، فإنه لا يجوز تكرار النظر إليهما إذا لم يتعلق بالنظر غرض صحيح، كالمبايعة، وتحمل الشهادة، والخطبة؛ فإذا تعلق بالنظر غرض من تلك الأغراض، جاز النظر بمقدار تحصيل ذلك الغرض؛ وإذا لم يكن غرض جازت النظرة الأولى ولم يجز التكرار؛ ومع كون ماعداهما الوجه والكفين عورة، يجوز النظر اليه إذا دعت الضرورة، كما نقاذاها من غرق، أو كنظر الطبيب للعلاج، فإنه يجوز ويتقدر بقدر الضرورة.

هذا كله اذا كانت المرأة حرة ، فإن كانت أمة فعورتها ما بين السرة والركبة ، وقيل عورتها ما لا يبدو عند مزاولة الأعمال المنوطة بها كالساقين والساعدين ، أما البطن والظهر على هذا فهما عورة منها ، بخلافهما على القول الأول اذا كنا فوق السرة وما يسامتها .

وأما عورة المرأة مع الرجل المحرم فهي ما بين السرة والركبة ، وقيل ما لا يبدو عند المهنة ، وأما مع الزوج أو السيد الذي له حق الاستمتاع بأن كانت أمة مملوكة له وحده غير متزوجة ، فلا شيء من بدنها بعورة — إلا أنه يكره النظر الى الفرج ، بل يكره نظر المرء الى فرج نفسه .

وأما عورة الرجل مع المرأة ، فإن كان محرما فعورته ما بين السرة والركبة ، وإن كان زوجا أو سيداً له حق الاستمتاع ، فلا شيء من بدنه بعورة إلا كراهة النظر الى فرجه كما مر في عورتها معه ؛ وإن كان أجنبيا فليل عورته ما بين السرة والركبة ، وقيل ما عدا الوجه والكفين ، كمورته في الصلاة — إلا أنه لا يجوز لها تكرار النظر اليه بدون حاجة ، لما قد ينشأ عنه من فتنه لم تكن في حسابها . والفرق أن الرجال منوط بهم من الأعمال ما يشق معه الاحتجاب ، بخلاف ما ينطأ بالنساء .

أما عورة الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة ، فابين السرة والركبة في الجانب والعورة المغلظة وهي الفرجان في المحارم . وحيث قلنا : لا يجوز النظر ، فلا يجوز للمس أيضا من باب أولى ، لأن الضرر في الملامسة أشد منه في النظر ، ولذلك حكموا بأن الإزال بمجرد النظر لا يفطر الصائم ، بخلاف الإزال باللامسة فإنه يفطر ؛ وكذلك تحرم المضاجعة في فراش واحد ، ولو بين رجلين أو امرأتين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد » .

هذا وللاحكم تفصيلات واختلافات بين الفقهاء محل استيفائها كتب الفقه ، وقد بسط الكلام فيها فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب في موضع آخر .

وبعد هذا نرجع الى تفسير الآية الكريمة :

قال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) .

قد عرفت ما بين هذا الحكم والأحكام السابقة من سبب متين وصلة قوية ، فلا يزال الكلام فيما يكفل صون الأنساب وحفظ الأعراس ، وفي توسيع الحرم الذي يصون تلك الحرم المقدسة عن أن تتمهن أو تقترب من الامتهان ، وكلما عظم خطر الشيء حسن توسيع حرمه وتقوية حماه . وقد شرحنالك ما يترتب على النظر من عظيم الضرر . وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه من باب هيمنة الربى على الربى ، فقد يقرط من المرء من ذلك بعض المنهيات وهو غافل ، فالهوى يقطان دائماً ، والعقل قد تغفله الشهوات ، فكان الأمر بحاجة الى هيمنة البعض على البعض ، وبخاصة متى كان للبعض حق الهيمنة العامة ، وذلك شأنه صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ؛ ويلحق به كل من له الإشراف ، بل المؤمنون في مثل هذا بعضهم على بعض رقيب ، فذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فهذا من الأساليب المقوية للتماسك بين جماعة المؤمنين ، وكأنها تجعل بعضهم في كفالة بعض .

وتخصيص الحكم بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين ينتظر منهم الامتثال تديناً ، وللإشارة الى أن وصف الإيمان من حقه أن يحمل على اتباع هذا الهدى ، وليكون لقوله : « ذلك أزكى لهم » موقع المناسبة التامة ، وإلا فالكفار اذا وقع منهم هذا ، استوجب ذلك عقوبتهم فوق عقوبة الكفر ، على رأى من يقول إنهم مخاطبون بفروع الشريعة ، وإن كان لا يقبل منهم الامتثال المثاب عليه إلا بعد الإيمان .

وقوله : (يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) مجزوم في جواب الأمر ، كأنه قيل لهم : غضوا بضعوا ، أى إن قلت لهم ذلك غضوا من أبصارهم ، كما تقول : عامه يستفد ، وأكرمه

يتبعك . والغض : الكف ، ودخول « من » للمشعرة بالتبويض ، لأن غض البصر جملة متعسر شاق ، فالمراد أن يكفوا من أبصارهم ما يتجاوز حد الاباحة ، لا أن يغمضوا أعينهم تماما . وتقديم الأمر بغض البصر على المقصود بالذات من الأمر وهو حفظ الفرج ، من باب تقديم الوسيلة على المقصود ، وفيه فضل تقرير للأمر بحفظ الفرج ، فإنه حيث علم أنه قد أمر قبل حفظ الفرج بسد الطريق التي قد تقضى الى امتنائه ، علم أن له فضل عناية عند الأمر . وحفظ الفروج : أى عن أن تقع في الفجور والمنكر . وقيل : المراد هنا سترها ، وأن هذا المعنى خاص بهذه الآية ، وأن كل ما ورد في القرآن من الأمر بحفظ الفروج معناه حفظها من الزنى ، إلا هذه الآية فالمراد الستر ، ولكن الظاهر أن المراد في الجميع واحد ، وهو حفظها من الوقوع في منكر : من كشف ، أو لمس ، أو زنى ، أو ما مائل ذلك ؛ وكأن تلك المنكرات متلفة لها ، فصورناها عنها حفظ لها من التلف والفساد .

وقوله تعالى : (ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ) أى أوجب لطهارتهم من دنس الريبة ، أو أنفع لهم في الدين والدنيا . والأيان بصيغة أفعل قد يكون للمبالغة في الطهارة أو النفع ، لا على معنى التفضيل على شئ آخر فيه ذلك ، بل على معنى أنه يوجب من الطهارة حظا وافرا .

وقوله جل شأنه : (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) من أحسن الاختتمات وأنسبها بهذا المقام ، فإن جولات الأبصار لا يحيط بها إلا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؛ وقد يسارق الشخص النظر الى ناحية وهو متظاهر بالتوجه الى غيرها ، وكذلك أمر الفروج لا يخفى أن من يريد مخالفته يعمل كل جهده في إخفاء ذلك عن جميع الناس ، فجاء قوله جل شأنه : (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) ليسد طرق الحيلة على من تحده نفسه أن يتحايل على إخفاء شناعته عنه ، بتفهيمه أن الله خير بكل ما يصدر

منه وإن خفي . يقال : إن رجلا راود امرأة فلما اقترب منها انتفضت ، فقال لها :
 هم تخافين ولا يرانا إلا السكواكب ؟ فقالت له : فأين مكوكبها ؟ ففر منها . وحقا قال
 الله تعالى : (وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيهُ تَنَفُّعُ الْمُؤْمِنِينَ) .

وأما قوله تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)
 فإنه أعيد الحكم مع المؤمنات مع أن أغلب الأحكام ترد في شأن المؤمنين فتشمل
 المؤمنات تغليبا ، أو مقايضة ، لأمرين : (الأول) أن خطر الأمر في هذا الموضوع
 بالنسبة إلى النساء أشد ، فهن أصل البلاء في هذا الباب . و (الثاني) أن الحكم يستدعي
 مزية تفصيل هو الآتي بعد ، وهو قوله : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) الخ .

والزينة المراد بها ما تتجمل به المرأة مما يتصل بجسمها أتم اتصال ، كالتمكحل
 والاختضاب ، أو ما يلبسه ، كالخلى ، والثياب . وقال بعضهم : بل هو كل ما عاد عليها
 بالحسن والجمال حتى خلقها ؛ وسواء أكان هذا أم ذاك فالزينة قاصرة على ما اتصل
 بجسمها ، فلا حرج في الزينة أن ترى إذا لم تكن ملبوسة ، وإذا كانت متصلة بجسمها
 فالحرمة في الحقيقة واردة على جسمها لا على نفس الزينة ، وإنما أوردتها على الزينة
 للمبالغة في صون محلها عن أن يرى ، فكأنه قيل : إذا كانت الزينة قد نهى عن إبدائها ،
 فكيف الحال في المزدان بها ؟ أو هو من باب الكناية ، وهو الشأن في المواضع المبينة
 على الستر ، فقد جرت العادة أن يكنى عنه لا أن يصرح به ، وكأن ذلك من باب ستره
 أيضا حتى عن السمع أن يطرقه ، فما بالك بالبصر أن يلمحه ؟ .

والمراد بما ظهر منها ما جرت العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة ذلك ، وذلك هو
 الوجه والكفان ، لأنه لا غنى عن كشفهما غالبا ، ويلتحق بهما القدمان عند بعضهم .
 وقيل المراد بها الثياب والجلباب ، ويشهد له قوله تعالى : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ
 كُلِّ مَسْجِدٍ) فإن المراد ما يستتر به من الثياب .

وقد اختلف في هل المراد نفس الزينة أو محلها، ولكن لم يقل أحد إن الزينة المنفصلة عنها يحرم النظر إليها، وإنما الكلام في المتصلة كما سبق، فمن قال: إن المراد المحل، يكون المراد: ولا يبدن شيئاً من جسمهن مما هو موقع للزينة. واختيار هذا الأسلوب في التعبير للتنبيه على علة الحكم وهو الصون لما ينبغي أن يضمن به. وأما من قال: المراد نفس الزينة، فيقول: إن الأمر بسترها مبالغة في الأمر بستر المواضع، فإنه إذا أمر بستر ما يتصل بالشئ، كان ذلك أبلغ في الدلالة على الأمر بستر نفس الشئ. وأياً ما كان فالذي يظهر عادة هو ما اتصل بالوجه أو باليد: من نحو كحل، أو خاتم، وخضاب، والذي لا يظهر عادة ما اتصل بعضد أو ساق، كدماج وخلخال.

وقوله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ خِطْمُهُنَّ عَلَىٰ خِيُومِهِنَّ) (إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض المواقع التي كانت العادة جارية بظهورها، فتخصيصها بالذكر مع دخول المستور بالخمر حينئذ في قوله: ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها، لاقتلاع تلك العادة التي كانت متفشية فيهم، فكان الآية تشير إلى أن النحور والصدور وإن كانت مما اعتيد ظهوره عندكم، ولكنهما ليسا مما تقضى الضرورة بكشفه كالوجه واليدين، فلا يدخلان في قوله: إلا ما ظهر منها.

والخمر: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، مأخوذ من الخمر بمعنى السترة، وكان من عاداتهن أن يضعن الخمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية. والجيوب: جمع جيب، وهو فتحة في أعلى الثوب يبدو منه بعض الصدر. والضرب بالخمر على الجيوب معناه إلصاقها بهذه الحال وجعلها ملازمة لها كضرب الخيمة في المكان.

قال تعالى: (وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) (الح).

هذا إعادة للحكم، زيادة في تقريره بالتكرير وتربية العناية، وتوطئة للاستثناء، استثناء آخر، وذلك أن المستثنى في الأول كان من جنس المستور، والمستثنى في هذا من جنس

من يطلب الستر عنهم، فلمستثنى منه هنا محذوف، وفيما سبق مذكور، كأنه قيل هنا: ولا يبدن زينتهن لأحد إلا لبعولتهن. وقد بدأ بالبعولة أى الأزواج لأنهم أحق الطوائف ألا يستر عنهم شيء، ولأنه يباح لهم النظر لجميع البدن، والمماسه كذلك، وإن كره بعضهم النظر الى الفرج فليس لأنه عورة في حقه، بل لأن محاسن الآداب تنبوعه، والنفوس ينبغي أن تصان عن مثل هذا التغلغل في الشهوات التهمية، وقد قيل إن النظر إليه يورث الطمس، والعياذ بالله.

وقوله: (أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ) المراد به ما يشمل الأجداد، سواء أكانوا أجدادا لأب أم لأم. وقوله: (أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ) كذلك: المراد به ما يشمل الابن وابن الابن وابن البنت وإن نزلوا.

وقوله: (أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ) الإخوان والأخوات لافرق فيهم بين الأشقاء، وأولاد العلات أى الإخوة لأب، وأولاد الأخياف، أى الإخوة لأم، وبنوهم وبنوهن يشمل الابن المباشر وابن الابن أو ابن البنت وإن نزل. ولعل في مغايرة التعبير في الأبناء تارة بلفظ الأبناء وتارة بلفظ بنى، أن لفظ الأبناء يقال في الكثير للأشخاص الذين يتفقون في صنف القرابة، ولفظ بنى يقال فيما هو أوسع من ذلك، فيقال مثلاً: بنى تميم ولا يقال أبناء تميم، فلما كانت الإخوة والأخوات فيها من السعة ما ليس في أبنائهن ولا في أبناء بعولتهن لأن تعدد الإخوة والأخوات أكثر عادة من تعدد البعولة، عبر بالأبناء في الأول، وبنى في الثانى.

ولم يذكر في الآية الأعمام والأخوال، وألحقهم أكثر الفقهاء بالمذكورين لأنهم محارم. وقيل: بل الأخوال إلحاقهم بالأجانب. وهذا الحكم كما يجرى في محارم النسب يجرى في محارم الرضاع، فلها أن تبدى زينتها لأبيها من الرضاع، أى زوج مرضعتها، وكذا ابنها وأخوها من الرضاع، وهلم جرا.

وقوله تعالى: (أَوْ نِسَاءً مِنْهُمْ) المراد به النساء الحرائر المؤمنات، فهن اللاتي يسمين نساءهن، أى المختصات بهن من النساء، أما الإماء فسيأتى دخولهن فيما ملكت أيمانهن. وأما المرأة الكافرة فقليل: هى من المسلمة كالأجنبية، وقيل: تنظر ما يبدو عند المهنة، وقيل: بل هى معها كالمسلمة، وعلى هذا يكون تخصيص النساء بهذه الإضافة، كأنه لما أن الحل فى النظر أولا وبالذات إنما يصح أن يختص بالمؤمنات، فإذا أبيض شئ، من ذلك للذميات فمن باب رفع الحرج أو نحوه، أو الإضافة ليست للتخصيص، بل هى معممة، وكأنه قيل: النساء اللاتي هن من جنسهن، فلا حرج.

وقوله: (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) قيل إن ذلك خاص بالإماء، فلا يحل للعبد أن يرى من سيده، وقيل بل لعبدها أن يرى منها ما يراه محرماً. واستدل أصحاب هذا القول بأن عائشة رضى الله عنها كانت تمتشط بحيث يراها عبدها، وبأنه صلى الله عليه وسلم أهدى غلاما لفاطمة رضى الله عنها فأخذت تستتر فقال عليه السلام: ليس عليك من بأس إنما هو أبوك وغلامك. أى إنما الحاضر أو الناظر هما الاثنان، ولا بأس عليك من رؤية أبيك ولا من رؤية غلامك. واحتج الآخرون بقوله عليه السلام: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث إلا مع ذى محرم. والعبد ليس بذى محرم منها أيضا، فلك المرأة للعبد ليس كلك الرجل للأمة، فلا يحل ما كان محرما قبل الملك.

وقوله تعالى: (أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ) هم المسنون الضعفة الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل طعامهم، أو البله الذين لا يفهمون من أمور النساء شيئا، أو المسوحوون الذين قطعت مذاكيرهم جميعها.

وقوله جل شأنه: (أَوِ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) فيه كلمة يظهر، إما بمعنى يفهموها ويعرفوا من أمرها ما يعرف الرجال، من قولهم: ظهر على كذا أى اطلع عليه وعرفه، وإما بمعنى يقدرُوا عليها ويصلوا الى درجة معالجتها

من قولهم : فلان ظهر على فلان أى تفوق عليه وقدر عليه ، ومعناه الذين لم يقدرُوا على
الجماع ، فالعنى الأول يقتصر على من لم يميز ، والثانى يشمل ما عدا المراهق المشتبه .

قال تعالى : (وَلَا يَضُرُّنَا بِأَرْجَائِهِنَّ لِيُعَلِّمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) ما أجهل
إتباع هذا الحكم لما قبله ! فقد سد على المتصنعات طريق الحيلة ، وأبان لهن أن الله محيط
بما يحاولن من التطلع لخرق هذا الحجاب الذى هو فى مصلحتهن ، وبه صونهن ، وعليه
يتوقف أمر الرغبة فيهن ، والاتجاه الصحيح نحوهن ، وأنهن اذا تعجلن الوصول الى الرجال
باختراق هذا السياج ، حرمن من غايتهم التى سعين لها ، وانقلب سعيهن وبالاً عليهن .
ولا يفوتنا أن نشير الى ما ابتليت به الأمة فى زماننا هذا من إعراض الرجال
وبخاصة الشببية المتعلمة عن الزواج ، بل تحاميمهم الوقوع فى هوته السحيقة ، مما ضج
بالشكوى منه كل ذى أسرة .

وإن السبب فى هذه النكبة التى حلت بالأمة لا يعدو ما تدهور فيه النساء من ذلك
التبرج الممقوت ، الذى جر الى ما لا تستبيح الأقلام أن تخوض فيه ، فكان أن ساءت
ظنون الرجال بأغلب النساء ، وكان أن خدّم ميل الرجال إليهن ، وصدق عليهن قول الشاعر :

عرضنا أنفساً عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض بهان

قال جل شأنه : (وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .
هذا أحسن ما يحتم به مثل هذا الحكم الذى مهما بالغ المرء فى امتثاله فلا يكاد
يسلم من مقارفة شيء منه ، وولو فى حال الذهول عن نفسه ، وداعى الهوى يقظان
دائماً ، فقد يفرط من المرء فى غفلته ما يفرط ، فلا يتنبه إلا وقد سبق السيف العذل ،
وهذا شأن النفس البشرية ، ولا سيما فى مثل هذا المقام ، فجاء الأمر بالتوبة للمؤمنين
جميعاً تلافياً لما عساه أن يفرط ، وعقب بأن التوبة مما يرجى معه الفلاح الذى هو
نهاية المقاصد ، وبالله التوفيق .
ابراهيم الجبالي

السُّنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمْرًا مِنْ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ ، قَالُوا : إِنَّا لَسَمَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّ أَتَقَامُكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَنَا) رواه البخاري .

تقدم في الأعداد الماضية شرح الحديث الجامع لأصول الدين : من عقيدة ، وأعمال ، وإتقان لها ، وذلك هو الإيمان والإسلام والإحسان ؛ وسبق فيه أن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ وقد بينا هذه الحال وما تستدعيه من صاحبها من المواظبة على مراقبة الله عز وجل في السر والعلن ، فإنه جل شأنه لا ينام ولا يغفل (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وهو دائماً أقرب إلى المرء من نفسه التي بين جنبيه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأنه قد أحاط العبد بقدرة مرهوبة ، ونعمة تتوالى عليه كل آن ، وتحيط به من كل نواحيه (وَإِنْ كَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا) فمن كان هذا شأنه لو أنفق العبد من قواه ما لا يزيد عليه ، واستغرق كل أوقاته في شكره والتقرب إليه ، وانقطع إليه عن كل شأن من شئون حياته ، ما كان ذلك بكثير ، بل كان ذلك نعمة جديدة هي نعمة الشكر ، وهي أيضاً تستوجب الشكر ، والله من قال :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة على له في طيها يجب الشكر
فكيف وفاء الشكر إلا بفضلها وإن طالت الأسباب واتصل العمر

ومع هذا فقد اقتضى لطفه ورحمته ، وهو اللطيف بعباده ، الرؤوف الرحيم ، أن يجعل عبادتهم له على قدر ما تطيقه قواهم ، ولا تتقطع بهم دونه الأسباب ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم بعمل — وهو لا يأمرهم إلا عن أمر ربه — أمرهم من الأعمال بما يطيقون المداومة عليه ، ولا يصل بهم إلى الإرهاق والسآمة ؛ وكان هذا مظهرا من مظاهر استجابة دعاء المؤمنين الذى حكاه عز وجل عنهم في خواتيم سورة البقرة بقوله جل شأنه : (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفَ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

فع كون درجة الإحسان التى أثنى عليها الحق في غير مكان ، تستدعى أن يراعى المرء ما هو حق ومعلوم يقينا من رؤية الله إياه ، وتكون مراعاته له أقوى مراعاة ، بمنزلة الشهود والرؤية الحسية ، وإن هذه الحالة من شأنها ألا تجعل المرء مفرا عن دوام الطاعة وملازمة العبادة — مع هذا كله كانت الحكمة التشريعية سالكة السنن الذى يضمن الدوام ، وذلك هو سنن اليسر والسماحة ، وعدم الإرهاق والإغناء (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) .

قد كان الصحابة رضى الله عنهم ممتلئى القلوب بنور الإيمان ، متعطشى النفوس الى ما يضمن لهم رضا الرحمن ، يستسهلون كل صعب ، ويستحلون مر المذاق في سبيل إحراز هذه المنزلة السامية ، منزلة أن يكونوا ممن يحبهم الله ويحبونه ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وكانوا ينظرون الى ما يفرط منهم من هفوات أو تقصير نظر الحذر الخائف ، يتعلق خوفه وحذره بأقدس مقصد وأعظم مطلوب ، فكانوا يريدون أن يعوضوا ذلك بالإيفال في صنوف العبادات والطاعات ، فتمهم من كان يريد أن يظل

دهره صائماً ، ومنهم من كان يحاول أن يقوم الليل كله ، ومنهم ومنهم ، ولكن للنفوس حد فيما تطيق المداومة عليه ، وقليل دائم خير من كثير منقطع ، فليس أضّر على النفوس السائرة من أن تسأم المسير فتنقطع عنه ، فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يجعل أمر التكليف أمماً ، وجاء (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى) ومعنى المنبت : الذي يكلف مطيته من السير ما لا تطيق ، فيضر بها وهو في وسط طريقه فيهلكها قبل الوصول الى مقصده ، فيخسر الظاهر الذي يركبه ، ويضيع عليه الوصول الذي يطلبه .

فلما دفعهم الحرص على إحراز أعظم منزلة في الزلفى الى الله ، وأحاط بهم الخوف من أن يحيق بهم جرم تقصيرهم وهفواتهم ، استأذنوه صلى الله عليه وسلم في الزيادة على ما أمرهم به من صنوف الطاعات ، محتجين بأنهم عرضة للعقاب ، ولم يجوزوا تلك الفضيلة العظمى التي أنعم الله بها على نبيه ، وذلك غفران كل ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، حسبما ذكر الله في كتابه الحكيم (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فكأنهم يرون أنه قد وصل الى حالة لا يخاف فيها على نفسه ، فقد ضمن الله له المغفرة فيما سبق وفيما يأتي ، فكان صلى الله عليه وسلم يغضب لذلك . والغضب معنى يداخل النفس لحصول ما تكرهه ، وليس كل الغضب مذموماً ، بل متى كان غضباً للحق لم يسرف صاحبه في متابعة ثورانه فهو غضب محمود ، ومنه ما هنا ، وقد كان غضبه عليه السلام من عدم مسارعتهن للامتثال ، والوقوف عند الحد الذي حد لهم ممن هو أعلم بمصالحهم منهم ؛ ومن توهيمهم أنه عليه الصلاة والسلام قد اطمأن الى هذا الوعد الكريم اطمئناناً يؤثر في تقواه وخشيته أمر ربه ، كيف ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؛ فأرشدهم عليه الصلاة والسلام الى أن شأنه من ربه أنه أتقاهم له ، وأحذرهم من بطشه ، وأنه أعلمهم بجلاله وعظمته ، وما يجب له ، وبحقوقه عليه ، وأن المغفرة الموعودة لا تحل بتقواه ، ولا تطفى على علمه بحقوق سيده ومولاه .

ومن هنا تعلم فساد تلك النزعات التي يأوى إليها بعض الملحدين الذين نزع الله من قلوبهم الإيمان والإذعان لأحكام الشريعة الغراء، ممن يزعمون أنهم دخلوا في التصوف وتصفية القلب إلى حيث تنقطع عنهم التكاليف، تلك التكاليف التي ما كانت إلا لغاية توصيل قلب العبد إلى ربه ليعرف له حقه، ففتى وصل المرء إلى عرفان ربه حق معرفته فقد حصل المقصود من التكاليف، فلا حاجة للعبد بها.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا! فلو أن قرب العبد من ربه يسقط عنه التكليف لكان أحق الناس بهذا المقام، المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالأعمال الصالحة ترقى بصاحبها إلى الدرجات العلى، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، وغاية أمر هؤلاء أنه خذلان زينه لهم الشيطان ففرقوا في بحر العصيان، وهم يحسبون أنهم أوغلوا في الإيمان والإحسان.

وإن من عرف قدر الصحابة وما بشروا به من دخول الجنة، ورأى حرصهم هذا يستصغر ما يكون منه من طاعة؛ وكذلك من علم أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل خلق الله وأكرمهم عند الله، لا يزال هو الأتقى والأشد حذراً والأكثر عملاً لما يقيه غضب ربه، يجب أن يحذر الغرور، وما غرور الإنسان إلا من الشيطان. وقوله: «أتقاكم» راجع إلى معنى العمل «وأعلمكم» راجع إلى صفة العلم.

وقبل أن نختم هذه الكلمة الوجيزة ننبه إلى أن الحديث ورد بروايتين - الأولى: بتكرار لفظ أمرهم، والثانية: بالإتيان بها مرة واحدة، فعلى الرواية الأولى تكون «أمرهم» الثانية جواب إذا، ويكون لفظ قالوا مستأنفاً، فالمعنى كان إذا أمرهم بأمر، أمرهم بالمقدار الذي يطيقونه، فلما رأوا ذلك قالوا الخ. وعلى الرواية الثانية يكون لفظ قالوا جواب إذا، أي أنهم كانوا إذا أمر بعمل يطيقونه، رأوا في أنفسهم أنهم أحوج للمزيد فقالوا الخ.

هذه حالهم فهل نحن منها في شيء؟! اللهم إنا نسألك التوفيق لصالح العمل، والمعونة على عمل الخير، فإن الأمر منك وإليك، والخير كله بيدك: **م** إبراهيم الجبالي

شبهة ملحد

ورد إدارة المجلة الخطاب الآتي :

حضرة صاحب العزة مدير مجلة نور الاسلام الغراء .

أرجو تبليغ تلك الشبهة الى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى ، ونشر ذلك المقال بأول عدد يصدر من مجلتكم نظرا للأهمية :

يا صاحب الفضيلة ! بينما أنا جالس في المسجد قرب صلاة العصر أعظ الحاضرين وأذكّرهم بالكثير من أحكام الدين حسب قوتي ، إذ حضر رجل في أثناء ذلك وقال : أيها الشاب ! فسر قول الله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) فقلت له : يخرج الحي وهو الانسان ، من الميت وهي النطفة ، فقال : أربك يكذب ؟ فقلت : حاش لله ، فقال : وما تعمل اذا ظهر كذب تفسير هذه الآية ؟ فقلت له : أنا رأيت ذلك التفسير في كتاب الجلالين وغيره من كتب التفسير ، فقال : ليس هذا بكلام الله وإنما هو من افتراء نبيكم محمد ! فاقشعرت يا صاحب الفضيلة أجسامنا عند سماع تلك الكلمة وهذه الإهانة لنبينا في أثناء وجودنا في بيت من بيوت ربنا ، وتصيب العرق من جوهنا عند سماع تلك الإهانة من رجل كنا نعتقده حسب ادعائه مساماً ، وعمدنا الى ضربه وأردنا إخراجه بالقوة من المسجد ، ولكن كان معه رجل آخر قال لنا انتظروا فسيفسر لكم أخي محمد تلك الآية تفسيراً متقناً ، وقال له : يا محمد قم وبيّن لهم هذه الآية فقال : إخواني : من منكم يخدم الانسانية ويتبرع باحضار نطفته يأخذ مبلغ خمسين قرشاً ، وأعطى ذلك المبلغ الى رجل ، وقام الأخير وغاب مدة وجيزة وحضر بالنطفة فوضعها محمد هذا في كأس نظيف غسلناه بأيدينا وطهره بالكحول ، وأخرج من بين

ملا بسه منظارا معظما ونظر النطفة في الكأس ، ثم أخذنا المنظار ونظرنا فيه فوجدنا في الكأس دودا يسبح في النطفة ، فدهشنا أى دهش عند سماعنا من هذا الملحد عبارات التكذيب لقانوننا السماوى .

والحق أن الحظ ساعده لعدم وجود أمثالكم بالمسجد حتى يفسر له الآية تفسيراً يلائم أفكاره ، ولم يعثر على مناقش أثناء ذلك إلا من طالب في ابتدائى بمعهد طنطا ، فتشكك الحاضرون في المسجد ، وعهدوا الى أن أبلغ هذا الحادث الى أكبر عالم يجيد الإفتاء ، فوقع اختيارنا على فضيلتكم نظرا لما عرفتم به من أصالة الرأى وحسن الدراية والقيام بالواجب نحو الاسلام ، فأرجو أن تتفضل بالرد فى أول عدد يصدر من مجلة نور الاسلام . والاسلام يا صاحب الفضيلة يرجوك الرد حالا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام م
السيد محمد متولى حماده
بمعهد طنطا

الجواب

يخزننا كثيرا انتشار أولئك الملحدين الذين تزبوا بى الاسلام وما هم منه فى قليل ولا كثير ، وأكبر ظنى أن هذا الغمر الواقع من المبشرين الذين افتنوا فى وسائل التبشير وإن لم يكن منهم فهو صنيعتهم . يخزننا أن يعيشوا فى الأرض فسادا بلا زاجر من حياء ولا احترام للأمة التى يعيشون بين أظهرها ، ولا خوف من الحكومة التى دينها الإسلام . وإنى أعتب كل العتب على أولئك المساهمين الذين كانوا مجتمعين عند ما قال كلمته الشنعاء أمامهم ، محتقرا إياهم ، هازئا بدينهم ، مكذبا لتبليهم ، ولو كان للدين فى تلك النفوس الضعيفة الخوارة ما للوطنية أو الحزبية ، لكان منهم ما يقمع أمثال أولئك المارقين الذين أصبحوا يهاجمونهم فى مساجد طمعاً فيهم واستهانة بهم ، مع أن القانون يحظر ذلك ويعاقب عليه لو أبلغوا ذلك لأولى الأمر ، ولكن ما تفعل القوانين اذا

فسدت النفوس ، وضعفت القلوب ، وقصرت العقول ، وتفككت عرا الوحدة
الاسلامية ! ولعمرك الله لقد ذهب أولئك الذين يجهلهم الله ويحبونه أدلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين ، وخلف من بعدهم خلف كغناء السيل أعزة على المؤمنين أدلة على
الكافرين ! ولندع هذا كله آسفين باكين :

وليل طال بالأنكد حتى ظننت الليل ليس له نهار
لما لا والتقى حلت عراه وبان على بنيه الانكسار
ليبك معي على الدين البواكي فقد أضحي مواطنه قفار

ولتشرع في الجواب مستعينين بالله فنقول : إن هذا الملحد من أجهل الجاهلين
فإن الحى لا بد أن يخرج من الميت بالبرهان العقلى ، لأن أول حى قد خرج من
الميت لا محالة ، وإلا لم يكن أول حى ، وقد فرضناه أول حى (هذا خلف) . أو نقول :
لو كان كل حى خارجا من حى للزم الدور أو التسلسل ، وهما محالان كما هو معروف ، وقد
كان ذلك العالم الطبيعى الذى يقول : « إن الحياة فلتة من فلتات الطبيعة ، ولا بد أن يردّ
الحى الى أصله الميت » أعقل من هذا الأحمق ، فإنه لم يسهل عليه أن يقول بالتسلسل
الى غير النهاية ، بل جعل لها أولاً هو ذلك الأصل الميت ، فلم يقل بالتسلسل غير
المعقول ، وإن كان ما قاله أيضا فلتة من فلتات العلم .

ثم نقول : إن صح ما زعمه هذا الملحد فى الانسان (مع أنه غير صحيح فى الانسان
الأول كما عرفت ، ولا فى الانسان المتولد من النطفة كما ستعرف) فإذا يصنع فى حبة
القمح أو نواة النخلة ، والنخل أقرب أنواع النبات الى الحيوان ، بل كاد يصل الى أفقه ؟
فهل يقول : إن فيها شيئاً حياً يرى بالمكروسكوب فيه خصائص الحياة ومميزاتها ؟
وإنى أخشى أن يقول كما قال بعضهم : إن الحبة أو النواة حية بالقوة ، فليعلم هو وأمثاله

أن معنى الحياة بالقوة هو الاستعداد للحياة ، وأن الحى بالقوة ميت بالفعل كما قرره العلماء ، وأن الاستعداد للشيء والإعداد له ينتهيان بوجود ذلك الشيء ، فهذا طور وذلك طور آخر ، ومن الذى تستبه عليه الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة ؟ فهذا ما يقرره العلم ويقتضيه العقل ، فلا بقاء للوسيلة مع الغاية ، ولا وجود للغاية مع الوسيلة ، فإن قال : إن النواة مستعدة للحياة التى ستحلها وتخرج منها شجرة حية وثمره شبيهة ، كان ذلك صحيحا ، وليست تحمل الحياة إلا فيما هو مهيا لها ومستعد لظهور آثارها ؛ وإن قال : إن النواة حية أو فيها شيء حى بالفعل ، كان ذلك جهلا وكذبا .

ثم نقول بعد ذلك : إن ما زعمه من أن الانسان هو من الحيوان المنوى الحى الذى يرى فى منى الرجل — باطل من وجوه عديدة :

أولا — أن ذلك الحيوان الذى اغتر به لا بد أن يرجع الى أصل ميت ، وإلا لزم الدور أو التسلسل كما قلنا .

ثانيا — أن هذا الحيوان لا بد أن يموت قبل خلق الانسان ، فالانسان إذاً ما خرج إلا من ميت ، وذلك أنهم صرحوا بأن التلقيح إنما يكون برأس الحيوان فقط ، وهو لا يبقى حياً عند انفصال رأسه ، فسنة الحيوان جارية فيه ، فتى انفصل رأسه مات ، وقد حصل المقصود من حياته وحركته وهو الوصول الى البيضة التى يلقحها ذلك الرأس عند وصوله اليها .

ثالثا — أنه يمتزج بهذه البيضة امتزاجاً يجعلهما شيئاً واحداً ، فلا معنى لبقائه حياً تلك الحياة الحيوانية مع هذا الامتزاج والاتحاد .

رابعا — أن هذه البيضة قد يتولد منها جنينان أو أكثر ، والمرأة لا تفرز إلا بيضة واحدة فى كل شهر ، والمعروف أن التلقيح إنما يكون بحيوان واحد ، وقد صرح بذلك بعض الاختصاصيين ، فكيف يكون الحيوان حياً باقياً على حالته المرئية

التي شبه بها الملحد على الناس ، ثم يتولد منه جنينان أو أكثر؟ ! وكأن ذلك الجاهل يظن أن هذا الحيوان المنوى قد كبر ونما حتى صار إنسانا ، وما أجهل من يظن ذلك وما أغباه !

خامسا — على أن الانسان لم يخلق من هذا الحيوان فقط ، بل خلق من أشياء كثيرة ، وتغذى بأشياء كثيرة يعسر تبيينها على الحقيقة ، وقد قال بعضهم : إن علم الأجنة لا يزال جنينا حتى الآن ، ولا يزال سبب انقطاع الحيض زمن الحمل مجهولا ، وإن كانوا يتكلمون في غايته لا في سببه ، ولذلك ترى كثيرا منهم يعدون الشديين من أعضاء التناسل ، ويقولون : اذا قطع ثديا المرأة لم تلد ، ولا يستطيعون أن يعللوا ذلك تعليلا شافيا ، الى غير ذلك مما لا يمكننا شرحه ولا الإفاضة فيه ، فليرجع الى الاختصاصيين المبرزين في هذا . فإن اعتبر الاستعداد للحياة والتهيؤ لها حياة ، كان الخلاف بيننا وبينه لفظيا ، وكذلك النمو والانقسام ، فإننا لا نعتبر الحياة إلا بالحس والحركة ، ولا فرق عندنا بين كلة حي وكلة حيوان ، والحيوان هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة ، فإن اعتبر الحياة أوسع من ذلك كان اصطلاحا ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، فيكون الخلاف بيننا وبينه في العبارة لا غير .

وإن شئت قلت : إنها حياة تشبه حياة النبات ، ونحن نريد الحياة الحيوانية لا النباتية ، ولو أخرج الله من الشجرة إنسانا لقانا : إنه أخرج الحى من الميت ، وليس يقل ما بين الانسان والشجر من الفرق عما بين الشجر والحجر من الفرق ، وقد رأينا المعادن تربي وتنمو في بطن الأرض ولها مدد مختلفة في نموها وتربيتها ، فالملح والشب والكبريت لا تحتاج إلا لمدة سنة أو أقل ، والحديد والرصاص والفضة تحتاج الى مدة طويلة ، والعقيق والياقوت يحتاجان الى مدة أطول من ذلك كله ، مع أنها لا تعتبر أحياء بذلك النمو ، فإن قالوا : إن هذه حياة ، كانت تسمية اصطلاحية ، وكلامنا معهم في معان لا في ألفاظ .

وبعد فالأمر واضح لا مربية فيه ، ولكنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، اللهم فانصر دينك ، وقوّ حزبك ، واكبت أعداءك الضالين المضلين ، فإنك على ذلك قدير ! اللهم إنا نعلم أن ذلك لا يضرّك شيئاً ، ولكن نسألك أن تحذلهم بقوتك القاهرة رحمة بنا يا أرحم الراحمين !

الخصومة :

(١) واختلاصة أن لك أن تقول : إن المراد الحي الأول ، والحي الأول خارج من الميت لا محالة ، ولا بد أن تنتهي سلسلة الأحياء ، وإلا لزم الدور أو التسلسل .

(٢) ولك أن تقول : إذا شاهدنا الحيوان المنوى في المنى فإننا لم نشاهد شيئاً حياً في النواة مع خروج النخلة منها ، وهم يعرفون بحياتها لا محالة ، فقد خرج الحي من الميت لا محالة .

(٣) ولك أن تقول : إن المراد في الآية الانسان المتولد من النطفة ، وما تخلق الانسان من ذلك الحيوان المنوى إلا بعد انفصال رأسه وامتزاجه بالبيضة ، فهو إذ ذاك ليس حياً ، فما خرج الانسان إلا من شيء ميت .

(٤) ولك أن تقول : إن الانسان قد تخلق من أشياء كثيرة من الأب والأم بل غالب تغذيته وتكونه من الأم بواسطة أشياء عديدة ، ومنها دم الحيض ، وهذه الأشياء التي تكون منها ليست حيوانات بالضرورة ، فإذا يكون قد خرج الحي من الميت ، فإن هذه أشياء ميتة لا محالة .

(٥) لو تنزلنا غاية التنزل وقلنا : إنه خلق من ذلك الحيوان ، وإن الحيوان لم يمت وإنه ليس هناك أشياء ميتة أخرى يخلق منها الانسان ، لو قلنا ذلك كله وافترضنا صحته مع أنه غير صحيح ، لكان ذلك الحيوان نفسه خارجاً من الميت لا محالة ، فإنه متخلق من الأغذية الميتة لا محالة ، أو راجع الى أصل ميت لا محالة .

ولنتقصر على هذا ، وقد فرغنا من الايمان بصدق الرسول وعصمته التي قامت عليها الآيات البينات والبراهين الواضحات (وَقُلِ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) .

وطالما سمعنا أمثال هذه الترهات والتمويهات ، فلما عرضناها على محك النظر الصحيح وجدناها كسراب بقية يحسبه الظآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا . وكثير من الناس عندنا لم يأخذوا من العلم إلا قشوره ، ولا من الأشياء إلا ظواهرها ، بلا بحث ولا تحييص ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويسرون وراء كل داع ، ولو دعا الى خيال أو خيال ؛ ولسنا في اضطرار بعد ما سمعت ذلك كله الى أن نقول ما يقول بعض المجددين : إن المراد بالحي : العالم ، أو الميت : الجاهل ، الى أمثال تلك التأويلات التي هي شعبة من شعب المادية .

وبهذه المناسبة نقول لمن يريد من المجلة أن تترك خطتها فتؤول ما ورد في الكتاب والسنة من النصوص الصريحة لأقل هيعة تسمعها من مخرف في الغرب أو الشرق : لا سبيل الى هذا ، والمجلة لا تنفك تصدع بالحق حتى يرجع الناس الى دينهم الصحيح الذي بدله هؤلاء المتشدقون اتباعا لأهوائهم ، ومن اتبع هواه ضل عن سبيل الله وكل ميسر لما خلق له .

وما أنشئت المجلة إلا لمحاربة هؤلاء وأمثالهم ، فكيف توافق آراءهم أو تتابع أهواءهم ، وفي الحديث « لا تقوم الساعة حتى يتكلم الروبضة ^(١) » وقد وطنّا أنفسنا على ذلك عالين به من يوم إنشاء المجلة ، ومحال أن يجتمع الضدان ، أو يتفق النقيضان ، فليكتب الجاهل ما شاء ، أو فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع فإينظر هل يذهبن كيده ما يعيظ ؟ ! وأكبر ظني أن هؤلاء لا يؤمنون بحياة الأنبياء ولا بما ورد

(١) الروبضة : الرجل التافه الحقيير يتكلم في أمر العامة .

في عالم البرزخ، وإلا لم يكونوا عصريين ولا مجددين، فإن التجديد عندهم هو رد ما جاء في الشريعة الى ما تعرفه العلوم الطبيعية، ولسكنهم يخافون من الا نكار الصريح فيدورون هذا الدوران .

وإني أستحلفهم بشرفهم الذي زعموه لأنفسهم، وحريةهم التي يتبعجون بها أن يصارحونا القول فيما يعتقدون من حقائق ما ورد في عالم البرزخ وعالم الآخرة حتى نشهد لهم بالشجاعة والصراحة، وإلا فلا يغشوا الناس ولا يلبسوا عليهم بهذه الشقايق الباطلة وذلك العلم المزيف (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) م

يوسف الدجوي

من هيئة كبار العلماء بالازهر

الظرف والمِلح

قال أبو زيد : دخلنا على أبي الدُّقَيْش وهو شاك فقلنا له : كيف تجدك ؟ قال :
أجدني أجد ما لا أشتهي ، وأشتهي ما لا أجد ، ولقد أصبحت في شر زمان وشر أناس :
من جاد لم يجد ، ومن وجد لم يجد !



وقال بعض الأجواد : إنا لنجد كما تجد البخلاء ، ولسكننا نصبر ولا يصبرون .

الفتاوى والأحكام

ورد من حضرة صاحب التوقيع الأسئلة الآتية :

(١) هل يجوز شرب الخمر على سبيل التداوى أولاً؟ وهل الصرف منه والمخلوط سواء أولاً؟

(٢) هل (السبرتو) نجس أو طاهر؟ وإذا كان الأول فهل يعفى عنه لكثرة الحاجة الداعية الى استعماله، ولأنه مما يشق الاحتراز عنه؟ وما حكم الكولونيا والروائح العطرية الأفرنكية المستعمان على صنعها (بالسبرتو) هل متنجسة أو طاهرة؟ وإذا كان الأول فهل يعفى عنها أولاً؟

(٣) ما حكم النظر الى المرأة الأجنبية بواسطة المرأة؟

(٤) ما حكم قراءة القرآن والأذكار أمام الجنائز وخلفها؟ وما الذى كان عليه العمل فى تشييع الجنائز فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين؟ وهل ذلك جائز أولاً؟

(٥) هل يجوز بيع وشراء الصور المصنوعة من الخاوى فى أيام المولد النبوى الشريف أولاً؟

(٦) هل أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على الغيب؟ وهل كان صلى الله عليه وسلم يعلم الحس المذكورات فى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) الآية؟.

(٧) اعتاد بعض أهل الطريق الذكر بلفظ « أه » ويسمونه اسم الصدر ، فهل هذا اسم من أسمائه تعالى أو لا ؟ وما حكم الذكر بهذا اللفظ ؟ وهل أسمائه تعالى توقيفية أو لا ؟ .

(٨) هل فيه تفاضل بين آيات القرآن وسوره أو لا ؟ وإذا كان فيه تفاضل فما حكمته ؟

(٩) يتضمن الاستعلام عن اجتماع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد والمنازل ، وعن حكم تلاوة الدعاء في تلك الليلة ، وهل ثبت نسبة الدعاء الى عبد الله ابن مسعود أو لغيره من الصحابة ، وهل المراد بأمر الكتاب علم الله القديم أو اللوح المحفوظ ، وعلى كل فهل يتعلق بهما أو بأحدهما المحو والإثبات من حيث السعادة والشقاوة وزيادة الرزق والعمر أو لا ، وإذا كان الجواب بالإيجاب فكيف التوفيق بين ذلك والأحاديث الواردة في الصحيحين بأنه لا محو ولا إثبات ، وإذا كان بالسلب فكيف التوفيق بين ذلك وما أورده السيوطي عند قوله : (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ) ؟ .

(١٠) هل الحلق داخل الجلد وفي عرق الشريان تفطر الصائم أم لا ؟ .

محمد أحمد عمارة

تلا — منوفية

الجواب عن السؤال الأول

الجر : العصير من ماء العنب اذا غلى واشتد وقذف بالزبد . وهي حرام لعينها ، قليلها وكثيرها سواء في الحرمة ، وهي نجسة نجاسة مغالطة يحد شاربها ويكفر مستحلبها ، ويحرم الانتفاع بها على أى صفة كان الانتفاع ، ولا يجوز شربها إلا لمن ظمى ظمًا شديدًا وخاف الهلاك من هذا الظم ولم يجد ما يزيله به غير الجر ، ومثله من غص ولم يجد

ما يزيل الغصة إلا الخمر، ففي هذه الحالة يجوز أن يتناول منها بقدر ما يزيل عنه الهلاك لأن ذلك ضرورة، حتى لو زاد على ما تندفع به الضرورة كان ذلك غير سائغ.

ولو خلطها بالماء، فإن كان الماء مساوياً أو أقل، حذ بالشرب، وإن غلب الماء لا يحذر إلا إذا سكر، ومن هذا يعلم أن الصرف منها والمخلوط سواء في التحريم. ولا يجوز التداوى بها على المعتمد من مذهب الحنفية، ويرى بعضهم جواز التداوى إذا أخبره طبيب مسلم أن شفاؤه فيه ولم يحذر من المباح ما يقوم مقامه. وقد علمت المعتمد.

والفرق بين حالة الاضطرار وحالة التداوى حيث سوغوا في الأولى دون الثانية أنه في حالة الظأ المتلف للنفس والمهلك لها يكون نفع الشرب محققاً، ولذا يأثم بتركه لأنه إهلاك للنفس. وأما حال التداوى فحالة ظن لا قطع فيها. ومذهب المالكية والحنابلة يوافق مذهب الحنفية، وقد أفتى الامام الحافظ ابن تيميه حين سئل عن جواز التداوى بالخمر بما نصه: وأما التداوى بالخمر فإنه حرام عند جماهير الأئمة، كمالك وأحمد وأبي حنيفة، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي، وأنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الخمر تصنع للدواء فقال: إنها داء وليست بدواء. وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الدواء الخبيث (والخمر أم الخبائث) وذكر البخاري وغيره عن ابن مسعود أنه قال: «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها» والذين جوزوا التداوى بالحرم قالوا ذلك على إباحة المحرمات كالميتة والدم المضطر. وهذا ضعيف لوجوده، منها أن المضطر يحصل مقصوده يقينا بتناول المحرمات، فإنه إذا أكلها سدت رمقه وأزالت ضرورته، وأما الخبائث بل وغيرها فلا يتيقن حصول الشفاء بها، فما أكثر من يتداوى ولا يشفي. إلى آخر ما قاله.

وتتمياً للبحث نقول: إن نجاسة الخمر اتفق عليها الأئمة الأربعة رحمهم الله، ولم يخالف فيها إلا بعض المحدثين وبعض الفقهاء والظاهرية وشيخهم داود. وقد ذهب

الشوكاني من المتأخرين الى القول بطهارتها ، كما ذهب الى ذلك صديق حسن خان في كتاب « الروضة البهية » ذاهبا الى أن الأصل الطهارة فلا ينقل عنها إلا ناقل صحيح . الى آخر مقالته . وقد انبرى للرد على القائل بعدم النجاسة العلامة المرحوم السيد أحمد بك الحسيني في رسالته « إعلام الباحث بقبح أم الخبائث » ولولا خشية الإطالة لنقلنا ما ذكره .

وأما باقي الجور الأخرى وهي المتخذة من غير العنب كالشعير والتين والعسل ، فالذهب المفتى به عند الحنفية ، وعليه الأئمة الثلاثة — أن قليلها وكثيرها حرام ، وأنها نجسة .

ومن هذا يتبين حكم استعمال (السبرنو) ، وقد رأى بعضهم أنه قاتل لا مسكر ، فيكون كبقية السوموم : غير نجس . والله أعلم .

الجواب عن السؤال الثالث

لا يجوز للرجل أن ينظر من المرأة الحرة الأجنبية إلا وجهها وكفيها ، وهذا لا يجوز النظر اليهما بشهوة ، فمن نظر اليهما كذلك كان آثما . أما النظر الى المرأة الأجنبية بواسطة المرأة ، فالذى يؤخذ من كلام الفقهاء عند الكلام على حرمة المصاهرة أنهم فصلوا بين ما إذا كان المرئى في المرأة هو مثال الأصل وهو ما يعبر عنه بالانطباع ، وبين ما إذا كان المرئى هو الأصل ، ففرعوا على الأول أن النظر الى موضع العفة في المرأة لا يثبت حرمة المصاهرة .

قال الكمال رحمه الله ما خلاصته : كأن العلة — والله أعلم — أن المرئى في المرأة مثال لا أصل ، وهذا ينفي كون الإبصار من المرأة بواسطة انعكاس الأشعة ، وإلا لرأى الأصل ؛ بل الإبصار بانطباع مثل الصورة ، بخلاف المرئى في الماء ، فإن البصر ينفذ فيه إذا كان صافيا ، فيرى نفس ما فيه ، وإن كان لا يراه على الوجه الذى هو

عليه . ويتفرع على الرأى الثانى وهو أن المنظور هو الأصل عكس الحكم السابق بناء على أن الرؤية تكون بواسطة الشعاع الخارج من الحدقة الواقع على سطح الصقيل ، وأنه ينعكس من سطح الصقيل الى المرئى ، فيكون المرئى حينئذ هو الأصل لا المثال . وعلى هذا الأساس إن قلنا بأن المرئى فى المرأة هو الأصل ، كان حكم النظر الى المرأة الأجنبية من المرأة هو حكم النظر المباشر من غير مرآة ، وقد علمته ؛ واذا كان المرئى هو المثال لا الأصل يكون النظر والحال هذه ليس المرأة بل للمثال والصورة .

والذى تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب هو أن النظر الى المرأة الأجنبية إنما كان محرماً بسبب أنه داع وذريعة الى الوقوع فيما هو أشد منه حرمة ، وهو الوقوع فى المعصية الكبرى . وعليه فالتنظر الى المرأة الأجنبية المعينة بواسطة المرأة بقصد الشهوة غير جائز ، لأنه ذريعة الى محرم ، وكل ما كان كذلك فهو حرام ، سواء أكان ذلك مباشرة أو بواسطة المرأة .

الجواب عن السؤال الرابع

كان العمل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى تشييع الجناز أن عليه الصلاة والسلام يحمده الله ويسترجع ، وكان من هديه تغميض عيني الميت ، وتغطية وجهه وبدنه والإسراع بتجهيزه الى الله ، فيغسل ويكفن فى الثياب البيض . ومن هديه ترك المغالاة فى الكفن ، وكان يصلى على الميت خارج المسجد إلا لعذر ، واذا أخذ فى الصلاة عليه كبر وحمد الله وأثنى عليه ودعا للميت . ومما حفظ من دعائه للميت : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ووسع مدخله وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » وكان يصلى على الطفل ويقول : « صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم » .

وكان اذا صلى على ميت تبعه الى القبر ماشياً أمامه ، وسن لمن تبعها إن كان راكباً أن يكون وراءها ، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها ، وكان يأمر بالإسراع بها ، واذا

تبعها لم يجلس حتى توضع على الأرض ، وأمر بذلك ، وكان اذا وضع الميت في القبر قال : « بسم الله وعلى ملة رسول الله » فاذا فرغ من دفنه قام هو وأصحابه وسألوا له التثبيت ، وكان يعزى أهل الميت ، ولم يجتمع لقراءة قرآن لا عند القبر ولا غيره ، وأمر الناس أن يصنعوا لأهل الميت طعاما يرسلونه إليهم ، ونهى عن النعي ، وقال : هو من عمل الجاهلية .

هذا ما كان عليه هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده رضوان الله عليهم . أما ما تراه اليوم في تشييع الجنائز : من اتخاذ من ينشد أمامه ، أو من يقرأ قصيدة البردة أو اليمانية ، أو يصيح بالدكر ، وما الى ذلك مما تراه من اتخاذ بعضهم ييارق ورايات ، فلا أصل له في الدين ، ولا هو جائز شرعا ، بل هو بدعة غير حسنة تنافي الخشوع الذي ورد أنه مطلوب ، وتنافي العظة والاعتبار بالموت . أما ما يفعله فوق هذا جهلة الناس : من إحضار موسيقى تعزف ، والسير بالابل أو البقر والجاموس ، والتفنن في تزيين جنازة الميت وهي الخشبة ، فكلها أمور منكرة يجب على كل مسلم العمل على منعها ، حتى لا تقشو البدع ، ويكون المسلمون سخرية تضحك عليهم الأجانب ، وقد ورد « إن الله يحب الصمت عند الجنازة » .

الجواب عن السؤال الخامس

نص علماء الحنفية على أن اقتناء صورة ذى الروح الكبيرة التي تبدو للناس بدون تأمل ، وهي كاملة الأعضاء التي لا تعيش بدونها ، مكروه تحريما ، فيجب إزالتها شرعا . ومن هذا يعلم أن بيع وشراء الصور التي تباع في الموالد بقصد إدخال السرور على الأولاد ، لا مانع منه شرعا ، لأن هذه الصور وإن بدا بعضها للناس بدون تأمل ، إلا أنها ليست كاملة الأعضاء ، لأن أغلبها مثقوب ثقبا لا يعيش معه ، ولأن مثل هذه الصور لا تعبد ولا تعظم ، ولأن القصد منها إدخال السرور على الصبية ، وهو أمر سائغ ، والله أعلم .

الجواب عن السؤال السادس

اعلم أن مما يجب اعتقاده على المسلم أن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة يعلم كل شيء : من عظيم ومقابلة ، ودقيق وجليل ، وصغير وكبير ، جزئى وكلى ، لا يخفى عليه شيء ، فى الأرض ولا فى السموات ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأن علمه سبحانه بالأشياء كلها علم إحاطة وشمول ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وأن أحدا من خلق الله لا يعلم شيئا من الغيب إلا أن يعلمه الله تعالى به ويطلع عليه ، قال تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُولٍ) .

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى أطاع أصفياه وأولهم رسوله على بعض الغيب ، وأطلع حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم على ما لم يطلع عليه غيره من الغيب . ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الغيب فكان كما قال صلى الله عليه وسلم .

إذا تقرر هذا فاعلم أن من جملة الغيب الأمور الخمسة المبينة فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية ، وهذه الخمس قد وردت فى الآية الكريمة ما يفيد استئثار الله بعلم بعضها ، قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى خفيت على أهل السموات والأرض ، وقال تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) وقال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) وتدل الأحاديث على استئثار علم الله تعالى بهذه الخمس ، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : متى الساعة ، فقال للسائل : ما المسئول عنها

بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراتها : اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الإبل بهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية . ووردت أحاديث كثيرة تدل على مثل ما دل عليه هذا الحديث من استئثار الله سبحانه وتعالى بعلم هذه الخمس .

غير أنه قد ورد ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم علم شيئاً من الخمس ، وهو وقت قيام الساعة ، كما يدل عليه ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين » لأن هذا ظاهر في أنه صلى الله عليه وسلم علم وقت قيامها . وقد نوقش هذا القائل في استدلاله بأن الحديث إنما يدل على علمه صلى الله عليه وسلم بقرب الساعة ، وفرق بين معرفة أن الشيء يكون قريباً ومعرفة وقته على التحديد . وقد قال بعض المحققين : إنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تحديد وقت الساعة نص أصلاً . على أن من لاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سائر الخلق ، وأطلعهم على ما لم يطلع عليه غيره من باقي الأنبياء ، لا يعتوره شك في إمكان أن الله يطلع رسوله عليه الصلاة والسلام على بعض الخمس أو كلها إجمالاً ، ووقوع هذا الممكن على هذا الوجه لا ينافي ما تقدم من دلالة الأحاديث على أن الله استأثر بعلم هذه الخمس ، لأن ما استأثر الله بعلمه هو العلم على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منها على الوجه التام ، وما يعلمه لرسوله من ذلك يكون على وجه الإجمال .

هذا ومن المعلوم أنه لا يصح الاستدلال على شيء من العقائد الدينية إلا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قرر علماء الصوفية أنفسهم أن كل شيء لم يستند إلى الكتاب والسنة فهو باطل ، وقرروا أن كشف الولي إذا لم يستند إلى الكتاب والسنة فهو كشف غير صحيح ، لأن الولي غير معصوم ، وقد علمت ما يدل عليه الكتاب وما تفيدته السنة . والله أعلم .

الجواب عن السؤال السابع

المختار أن أسماء الله تعالى المأخوذة من الصفات والأفعال ، وهى ما دل على ذات كلفظ الجلالة ، أو دل على الذات باعتبار الصفة كالعالم والقادر — توقيفية ، أى تعليمية يتوقف جواز إطلاقها عليه تعالى على الإذن من قبل الشارع للاحتياط ، احترازاً عما يوم باطلاً ، خلافاً للمعتزلة حيث قالوا : إذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة وجودية أو سلبية ، جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها ، ورد إذن أو لم يرد . والمراد من إذن الشارع إذنه فى خصوص الاسم ، فلا تكفى المادة ، فلا يلزم من جواز إطلاق « وهاب » جواز إطلاق « واهب » .

ويرى بعض أهل السنة أن كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى يجوز إطلاقه عليه بغير توقيف ، ما دام إطلاقه لا يوم ما لا يليق به سبحانه وتعالى . ومن هذا منع إطلاق لفظ مثل عارف وفقهه ، لأن المعرفة قد يراد بها علم تسبقه غفلة ، والفقه فهم غرض المتكلم من كلامه ، وهذا يشعر بسبق الجهل . وقد علمت أن المختار أنها توقيفية للاحتراز عما يوم باطلاً ، لعظم الخطر فى ذلك ، ولا يجوز الاكتفاء بمداركنا فى عدم إيهام الباطل ، بل لا بد من الاستناد الى إذن الشارع ، وقد اشتهر من أسماء تعالى تسعة وتسعون اسماً ، كما ورد التوقيف بغيرها فى الكتاب والسنة .

أما الذى ذكره ولغة : الحفظ ، والشئ يجرى على اللسان ، والدعاء ، والصلاة لله تعالى . وقد ورد الأمر به فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) وقال : (وَأُذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) ووعد الله الذى كرين بحسن الجزاء ، فقال تعالى : (وَالَّذَا كَرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذَا كِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) وتوعد من لها عنه فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَاهِكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ) وحض عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحاديث ، وقد عني كثير من الصوفية ببيان آدابه من خشوع وخضوع ، وأنواعه وما كان يذكر به صلى الله عليه وسلم .

قال ابن القيم : إن الذكر ثلاث درجات ، أعلاها ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان ، ويليه الذكر بالقلب وحده ، ويلى هذا الذكر باللسان المجرد ، وهو في الدرجة الثالثة . وقد اختلف العلماء في جواز الذكر بالاسم المفرد : فذهب كثير منهم الى أنه لا بد في الذكر من الجملة لأنها هي المفيدة ، ولا يصح الذكر بالاسم المفرد مظهرا أو مضمرا ، لأنه ليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ، ولا أمر ولا نهى ، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأئمة ، ولا شرع ذلك رسول الله ، والشرعية إنما ورد بها من الأذكار ما يفيد بنفسه ، فقد ورد « أفضل الذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وأطال أصحاب هذا الرأي في الاحتجاج برأيهم وتزييف رأي غيرهم .

ورأى آخرون من العلماء أن ذكر الله كما يكون بالجملة يكون بالاسم المفرد ، قال العلامة البناني في شرحه على صلاة القطب ابن مشيش : اعلم أن ذكر الاسم المفرد المعظم مجردا عن التركيب بجملة ، وهو قول « الله الله » مما تداولته السادات الصوفية واستعملوه بينهم . الى أن قال : وفي الصحيح « لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من يقول : الله الله » وهو شاهد في الجملة بذكر هذا الاسم وحده ، لا سيما على رواية النصب ، ولا نزاع في التلفظ بالاسم الكريم وحده (أى في جوازه) فأى مانع أن يكرره الانسان مرات كثيرة ؟ وكونه لم ينقل عن السلف لا يقتضى منعه ولا كراهته ، وكما أشياء لم تكن في عهد السلف مع أنها جائزة . الى أن قال رحمه الله : فلا ينبغي التوقف في ذلك ولا التشغيب بإنكاره .

ومن هذا يتبين أن الذكر باللفظ المفرد لا مانع منه شرعا ، اذ لم يرد نهى عنه من الشارع يفيد كراهته أو تحريمه .

وأما لفظ « أه » فلم يثبت بسند صحيح أنه اسم من أسمائه تعالى ، وقد علمت أن أسماء سبحانه وتعالى توقيفية ، فلا يجوز الذكرك به ، وما يروى من أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضا كان يئن ، وأن أصحابه عليه الصلاة والسلام نهوه عن الأنين ، وأنه عليه السلام قال لهم : دعوه يئن فإنه يذكر اسماء من أسمائه تعالى ، لم يرد في حديث صحيح ولا حسن كما قرره الثقات . وما قيل في بعض الحواشي من أن لفظ « أه » هو الاسم الأعظم لا سند له . وقد أفتى المرحوم فضيلة الشيخ الجليل محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر في هذه المسألة فقال رحمه الله ما نصه : « إن هذا اللفظ المسئول عنه « أه » بفتح الهمزة وسكون الهاء ليس من الكلمات العربية فى شيء ، بل هو لفظ مهممل لا معنى له مطلقا ، وإن كان بالمد فهو إنما يدل فى اللغة العربية على التوجع ، وليس من أسماء الذوات ، فضلا عن أن يكون اسما من أسماء الله الحسنى التى أمرنا أن ندعوه بها » الى أن قال رحمه الله : ولا يجوز لنا التعبد بشيء لم يرد الشرع بجواز التعبد به ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » الى آخر ما قرر رحمه الله .

الجواب عن السؤال الثامن

إن ظاهر الأحاديث يدل على التفاضل بين آيات الكتاب العزيز ، ولكن هذه المفاضلة إنما هي باعتبار عظم الثواب ومضاعفته ، ويرى بعضهم أنها باعتبار ما يتضمنه اللفظ ، فإن ما تضمنته سورة الإخلاص مثلا — من الدلالة على الوحدانية والصفات الإلهية ليس موجودا فى سورة « تبت » مثلا .

ومذهب الحنفية فى هذا هو ما نص عليه الامام الأجل الزاهد شمس الأئمة ونفر الاسلام أبو بكر محمد بن أبى سهل السرخسى من كتاب الحيل حيث قال : إن

مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفضيل آية أو سورة على غيرها هو الثواب عند التلاوة ، فإن القرآن كله كلام الله تعالى ، غير محدث ولا مخلوق ، ولا تفاوت بين السور والآي مع هذا ، ولكن يجوز أن يقال إن القارئ ينال من الثواب على قراءة سورة ما لا يناله على قراءة سورة أخرى . بيانه : أنه بقراءة سورة الإخلاص يستحق من الثواب ما لا يستحق بقراءة تبت ، من حيث إنه في قراءة سورة الإخلاص قراءة القرآن ، والإقرار بوحداية الله تعالى ، والثناء على الله تعالى بما هو أهله ، وفي قراءة سورة تبت قراءة قرآن ، ولكن ليس فيها ما بيننا من المعاني الأخر . وما نقل في هذا الباب من الآثار من نحو ما روى أن من قرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات فكأنما ختم القرآن ، ومن قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن ، تأويله ما بيننا . انتهى .

ولا تفاوت بين آي القرآن وسوره في البلاغة ، لأن القرآن بلغ حد الإعجاز لما اشتمل عليه من حسن التأليف والفصاحة ووجود الإعجاز ، لأن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومعلوم أن الإطلاع على كمية الأحوال وكيفيةها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات لا تمكن الإحاطة بها على وجه التمام لغير علام الغيوب . وبديهي أن كل آية أو سورة قد روعي فيها الاعتبارات المناسبة على وجه التمام ، فلا يمكن والحال هذه أن تكون آية أبلغ من آية أو سورة أبلغ من سورة ، لأن كل آية بلغت حد الإعجاز ، لما قدمنا من أن كل آية من آيات الكتاب المجيد روعي فيها المطابقة لمقتضى الحال ، وأن كتاب الله بلغ من علو درجة البلاغة وسمو مكانتها حدا لا يستشرف إليه إنسان كائنا من كان ، ولا يستطيع معارضته إنس ولا جان ، لأنه كما يقول الامام عبد القاهر الجرجاني : بهر العرب أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبهه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا

انساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما والتثامنا وإتقاننا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حك ييا فوخه السماء - موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القرون فلم تملك أن تصول .

الجواب عن السؤال التاسع

سبق أن أجاب فضيلة رئيس تحرير المجلة عن احتفال المسلمين بإحياء ليلة النصف من شعبان ، وبما يتلى من الدعوات ، ويصلى من الركعات بين المغرب والعشاء بنية طول العمر ودفع البلاء والاستغناء عن الناس ، في العدد السابع من المجلد الثاني الذي صدر في غرة رجب سنة ١٣٥٠ هـ فيمكنكم الرجوع إليه .

أما الدعاء المعروف وهو ما يدعو الناس به فلم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن فيه جملا لا يجوز الدعاء بها ، لأن فيها ما يفيد تجويز البداء على الله ، والبداء عليه سبحانه وتعالى محال ، لأنه عليم بالكائنات : عظيمها وحقيقها ، صغيرها وكبيرها كلها وجزئها ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وما علمه لا يتبدل ، وإلا انقلب العلم جهلا ، وهو محال . وأما المراد بأم الكتاب فهو أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه . والحكمة في هذا أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل . واللوح المحفوظ ليس محلا للمحو والإثبات ، إنما محل المحو والإثبات هو الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق . وقيل المراد بأم الكتاب هو علم الله تعالى ، وليس هو أيضا محلا للمحو والإثبات ، لأن علمه تعالى منزّه عن التغيير .

من هذا يتبين أنه سواء أريد بأم الكتاب اللوح المحفوظ أو علم الله - أنه لا شيء منهما محل للمحو والإثبات ، وأنهما في ديوان الحفظ ، وهو الكتاب الذي يكتبه الملائكة في ديوان الخلق . وبما أنه قد تبين أن اللوح المحفوظ ليس محلا للمحو

ولا للإثبات، فهو يحمل الأحاديث التي وردت بنفي المحو والإثبات، وأن الذي هو محل المحو والإثبات هو كتاب الملائكة، وهو يحمل ما أورده السيوطي وغيره من أن هناك محو وإثباتا، يعلم أنه لا تنافي ولا تعارض، لأن من نفي المحو والإثبات فقد نفاهما عن علم الله أو اللوح المحفوظ؛ ومن قال بالإثبات والمحو إنما أراد أن الله يحو ويثبت من كتاب الملائكة (راجع الألويسي والفخر).

الجواب عن السؤال العاشر

قال في الهداية: ومن احتقن أو استعطأ أو أظفر في أذنه أفطر لقوله صلى الله عليه وسلم: الفطر مما دخل. وفي فتح القدير عليه ما نصه: روى أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا أحمد بن منيع حدثنا مروان بن معاوية عن رزين البكري قال حدثتنا مولاة لنا يقال لها سامى من بكر بن وائل أنها سمعت عائشة رضى الله عنها تقول: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عائشة هل من كسرة؟ فأتيته بقرص فوضعه على فيه فقال: يا عائشة هل دخل بطنى منه شيء؟ كذلك قبلة الصائم، إنما الإفطار مما دخل وليس مما خرج» ولجهالة المولاة لم يثبت به بعض أهل الحديث، ولا شك في ثبوته موقوفا على جماعة، ففي البخارى تعليقا: وقال ابن عباس وعكرمة: الفطر مما دخل وليس مما خرج. وأسنده ابن أبي شذبة فقال: حدثنا وكيع عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: الفطر مما دخل وليس مما خرج، وأسنده عبد الرزاق إلى ابن عباس رضى الله عنهما وقال: إنما الوضوء مما خرج وليس مما دخل، والفطر في الصوم مما دخل وليس مما خرج. وروى أيضا من قول على رضى الله عنه، قاله البيهقي.

وقال في الهداية: ولو داوى جائفة أو آمة بدواء فوصل إلى جوفه أو دماغه أفطر عند أبي حنيفة رحمه الله، والذي يصل هو الرطب. وقالوا: لا يفطر لعدم التيقن بالوصول لانضمام المنفذ مرة واتساعه أخرى كما في اليابس من الدواء. وله أن رطوبة

الدواء تلاقى رطوبة الجراحة فيزداد ميلا الى الأسفل فيصل الى الجوف بخلاف اليابس لأنه ينشف رطوبة الجراحة فينسد فيها . قال في الفتح : قوله : فوصل أى الدواء الى جوفه ، يرجع الى الجائفة ، لأنها الجراحة في البطن ، أو دماغه ، يرجع الى الآمة ، لأنها الجراحة في الرأس ، من أمتته بالعصا ضربت أم رأسه وهى الجلدة التى هى مجمع الرأس ، وحينئذ فلا تحرر في العبارة لأنه بعد أن أخذ الوصول في صورة المسئلة يمتنع نقل الخلاف فيه ، إذ لا خلاف في الإفطار على تقدير الوصول ، إنما الخلاف فيما اذا كان الدواء رطبا ، فقال : يفطر ، للوصول عادة ، وقال : لا ، لعدم العلم به ، فلا يفطر بالشك . الى أن قال : وأكثر مشايخنا على أن العبرة للوصول ، حتى اذا علم أن اليابس وصل فسد ، وإن علم أن الطرى لم يصل لم يفسد الخ ما قاله .

وفي البدائع ما خلاصته أن ما وصل الى الجوف أو الى الدماغ من المخارق الأصلية كالأنف والأذن بأن استعط الصائم أو احتقن أو أفطر في أذنه فوصل الى الجوف أو الى الدماغ ، فسد صومه . وأما ما وصل الى الجوف أو الى الدماغ عن غير المخارق الأصلية بأن داوى الجائفة والآمة بدواء يابس ، لا يفسد ، لأنه لم يصل الى الجوف ولا الى الدماغ ، ولو علم أنه وصل يفسد الخ ما قاله .

من هذا يتبين أن المناط الذى ينبئ عليه الحكم بالفطر هو وصول الشيء الى الدماغ أو الجوف ، فتنى تحقق الوصول أفطر الصائم ؛ ولا شك في أن الحقنة التى تعطى تحت الجلد أو فى العضلات أو فى الوريد أو فى قناة النخاع الشوكى تصل الى الجوف ، لأنها تصل عند إعطائها الى الدورة الدموية ، وهذه توزعها أجزاء الى الجسم كل بحسب طلبه .

وعلى هذا يتبين أن الحقن التى يعطيها الأطباء للصائمين فى نهار رمضان مفسدة لصومهم ، واذا لوحظ أن إعطاءها قد يكون للتغذية وللتقوية وإكثار الدم ، ولتخدير الأعصاب ، وأن الأطباء أنفسهم يقررون أن هذه الحقن تمتصها الأوعية المفاوية

ومنها الى الدورة الدموية ثم توزعها هذه الأخيرة الى أجزاء الجسم كل بحسب طلبه
ففي حقن التقوية ينال الكبد الجزء الأوفر، وهكذا ينال الجزء المصاب أكبر مقدار
من الأملح العلاجية، ويقررون أيضاً أن حقن الزرنيخ يحقق إفرازها بالأمعاء،
وأن حقن الكافيين والاستركنين والمورفين والكوكايين والهورين يؤكد وصولها
الى المخ، يتضح جلياً أنها مفسدة للصوم. هذا ما يمكن أخذه من مذهب أبي حنيفة
في هذا الموضوع. أما مذهب المالكية والشافعية فهو ما يأتي :

أما مذهب المالكية فهو أن الصوم يفسد عندهم بوصول مائع الى الحلق من
الفم أو الأنف أو الأذن أو العين، وإن لم يصل الى المعدة. وبوصول جامد الى المعدة
من منفذ عال، فلو ابتلع الصائم حصاة ووصلت الى المعدة، فسد الصوم، ويفسد
بوصول دواء الى المعدة أو الأمعاء بواسطة الحقنة اذا جعلت في منفذ واسع. أما اذا
كان المنفذ غير واسع لا يمكن وصول شيء منه الى المعدة فلا.

ومن هذا يؤخذ أن الحقنة تحت الجلد إن وصل الدواء المجمعول فيها الى المعدة
أو الحلق أو الأمعاء أفطر الصائم، وإلا فلا، والمعدة عندهم ما تحت منخفض الصدر
الى السرة.

وأما مذهب الشافعية، فوصول عين الشيء قليلاً كان الواصل أو كثيراً، ما كولا
أو غير ما كولا الى الجوف من منفذ مفتوح كحلق ودماع وباطن أذن وبطن وإحليل
ومثانة، مفسد للصوم، ومنه يعلم حكم الحقنة تحت الجلد، وقد علمت أنها تصل الى
داخل الجوف قطعاً، والله أعلم.

طه هبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية

سابقاً

فى كلية أصول الدين

فضيلة شيخ الكلية يلقى خطاب الافتتاح

.....

افتتح العام الدراسى بكلية أصول الدين ، فاجتمع بساحة الكلية حضرات أساتذتها وطلابها ، وألقى عليهم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ الكلية الكلمة الاتية مؤذنا بافتتاح الدراسة ، وهى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العلى الأعلى ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وآله وصحبه
الهداة المطهرين .

بإيموانى وأبنائى :

أحييكم أطيب تحية من قلب عرف الجليل فأخلص لكم ، ولسان صدق أنطقه
بالثناء عليكم شريف خلالكم ؛ وأحيى فيكم صفات العلماء العاملين ، والطلبة النابهين
والتلاميذ المجتهدين . يسرنى أن أصارحكم القول شكراً لكم وتشجيعاً :

جاء فى كلمة افتتاح العام الدراسى الأول لهذه الكلية المباركة التى سمعتموها منى
فى هذا المكان يوم الافتتاح — أن الغاية التى من أجلها أنشئت هذه الكلية هى مهمة
القيام على أصول الدين وآدابه ؛ ولقد طلبت إليكم أن تجعلوها نصب أعينكم
وتتخذوها دليلاً فى سيركم نحو غرضها الأسمى ، وأن تفهموا أن هذه المهمة ليست
مقصودة على أداء عمالنا بين جدران هذا المكان ، بل إنها أوسع من ذلك نطاقاً

وأبعد مدى . وقد سرنى أن حققت الظن بكم ، فوفقتم للغرض بما قسم به من جلائل الأعمال وأداء الأمانة على الوجه المطلوب منكم طلابا وعلماء .

أما الأساتذة فقد داوموا العمل ، وحرصوا على نفع طلابهم ، فاستخلصوا الموضوعات العلمية من مصادرها المعتمدة ، كما علمت ذلك جليا من زيارتي المتتالية لفصول الدراسة . ومن اطلاعى على المذكرات التى جمعت بإخلاص فى شتى العلوم ، فجاءت من خير التأليف التى أخرجت للناس فى مختلف الفنون قديمها وحديثها . وزاد اغتباطى ما شاهدته من الاتحاد الذى يبشر بحسن العاقبة ، عاقبة النجاح الذى هو ثمرة الاعتصام بمجبل الله القوى المتين ، فأحمد الله على ذلك .

قلنا فى تلك الكلمة : إن الجهل والدعاية الى الخروج على أصل الدين هما أصل الفساد وشيوع الرذيلة التى لم تكن معروفة بين المسلمين بسبب عقيدتهم الحقة ، واستمضنا همكم للعمل على تثقيف العقول ونشر الفضائل فى الخارج ، فإلى ندائى منكم حضرات الأساتذة الذين نهضوا لإرشاد العامة بإلقاء المحاضرات الدينية الإصلاحيية فى دار جمعية نشر الفضائل الإسلامية التى أشرف عليها ، والتى أرجو أن تكون نواة صالحة للدعاية الدينية .

وإنى أؤمل أن يكون لنا فى هذا العام داخل مكاننا هذا متسع لإلقاء المحاضرات النافعة فى كل العلوم ، فوق ما نقوم به من الأعمال الدراسية ؛ وأرجو أن يكون من همكم خير معين على هذه الفكرة الإصلاحيية المباركة إن شاء الله ، فتنتفع بكم الأمة ويظهر لعملكم الإصلاحي أثره فى الداخل والخارج .

وأما الطلاب فقد كانوا فى سيرتهم على أكمل ما يرجى أن يكون عليه طالب العلم خلقا وعملا ، فما رفعت الى شكاة من أحدهم فى حق أخيه ، وما سمعت عنهم من الناحية الأخلاقية إلا ما أقر عيني ، وحقق عندى اليقين بحسن مستقبلهم . ولقد كانوا

من حيث الطلب وواجب التلميذ على خير ما يرجى من طالب علم في أى مدرسة نظامية دينية وغير دينية . كانت تخلفاتهم عادية تكاد لا تكون إلا لضرورة ، وكان حرصهم على كرامة أنفسهم واحترامهم لأساتذتهم مما يغتبط به بدرجة أرجو الله أن يكونوا فيها على الدوام قدوة حسنة لغيرهم .

وأما العمل الإدارى فقد كان على ما شاهدتم من النظام ، بقدر المستطاع ، بفضل الله ، وإخلاص العاملين ، وصدق معاونتكم ، حيث عرفتم الواجب فأديتموه بنية صادقة دون أن تجمعوا للأحقاد على نفوسكم سلطانا ، أو أن تتخذوا الشهوات والشخصيات غمما عليها تحول بينكم وبين الحق والإنصاف ، فرضيتم بما وجه إليكم تنفيذه من الإجراءات عن طيب خاطر ، وكنتم في سماء النصيح هداية . فلكم جميعا منى الثناء ، ومن الله الثواب .

لى كلة أقولها الآن فاسمعوها وعوها ، واذا وعيتم فاعملوا بها :

أطلب اليكم دوام تلك الصفات ، وأنبهكم الى زيادة الجد في العمل . ظن بعض الناس أن الجديد هو كل شئ في حياة الأمم ، وأنه لا نفع للقديم فيها ، فقطعوا الصلة بينهما ، وعارضهم آخرون فنصروا القديم بما أوتوا من قوة ، وأخذ الجدل بين الفريقين مأخذاً ذهب بالحقيقة وأضاع المصاحبة ، لذلك نرى أن الإنصاف في التوسط بينهما .

نحن نرحب بالحديث ، ونحترم القديم ، ونربط بينهما ، فنغذى تراث القدماء بما ابتكرته عقول أبنائهم ، من تجارب ساقها اليهم رقى الفكر ، وتطور الحال ، وكثرة الحاجة لنستخلص من القديم والحديث عملاً صالحاً للحياة والبقاء معاً .

لدينا ثروة علمية يقرب أن تكون مفقودة عند غيرنا ، فما بالنا لا نتخذ منها عدتنا للحياة ، وكلها سلاح لمحاربة الفساد ، وفيها الهداية والصالح في كل مكان وزمان ! مالنا لا نضم الى كنوزها نفائس الحديث على ضوء العقل والروية ، دون ميل الى

الغرض والشهوات التى زين للناس حبها ، فنخرج من بينهما مزيجاً إصلاحياً خالصاً
سائغاً شرا به !

أطلب إليكم أن تحققوا تلك الغاية فتكونوا فى قديمكم أزهرين ، ومحدثكم عارفين
والحقيقة من بينهما مستخلصين ، حتى لا يوجه الينا سهم الملام ، ولا نرمى بالجمود ، وما
كننا لنجمد وديننا هو دين العدل الذى فك عقال الفكر ، وماتنا هى الخيفية السمحة ،
وهى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم . وإنكم ستجدون منها فى كل شئ ،
ما يثبت أن الدين الاسلامى هو أخو العلم ، فهو تنزيل الحكيم العليم بأسرار كونه .
ولو شئت لضربت لكم الأمثال ، ولكنى أدعها لعالمكم ، فأنتم وأنا فى هذا المضمار
سواء . إنما رجأئى منكم أن يكون عملكم فى هذا الضوء ، وفى ظل القانون الذى وضع
لتحقيق تلك الغاية . طلبة اليكم أن تكونوا فى الحق بناء لهادمين ، وهداة لامضلين ،
وبذلك يرضى عنكم خالقكم ، وتحقق فيكم رغبة جلالة مليكننا المحبوب مولانا الملك
المعظم أحمد فؤاد الأول ، حامى حى العلم والدين .

وإنا لنختتم القول برفع أ كف الضراعة الى الله أن يحفظه نصيراً لدينه ، وأن
يديعه ملجأ يأوى اليه القانع والمعتز من رعيته ، وأن يفسح له فى أجله ، مع تمام
الصحة وعز الملك وقوته ، وأن يقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ،
ولى عهد الدولة المصرية المحبوب ، وباقى حضرات أصحاب السمو آنجاله الكرام ؛



الاسلام (١)

حاضره ومستقبله

المحاضرة الاولى

الهيئة المسائل الاسلامية - امضاء المسلمين - انتشار الدين الاسلامي

إن جمعية الأساتذة « في كلية فرنسا » عند ما أولتني عظيم الشرف بدعوتها الى الكلام عن الاسلام فانما كلفتني أن أحادثكم في موضوع من أهم الموضوعات في الوقت الحاضر .

وفي واقع الأمر قلما توجد مسائل لها من الأهمية والجلابية بقدر ما للمسائل التي تمس الاسلام - ونستطيع أن نقول - ولا سيما في دولة عظمى مثل فرنسا التي تعتبر من أكبر الدول المستعمرة للبلاد الاسلامية، فبريطانيا العظمى وهولانده والمانيا (سابقا) هن الدول الوحيدة والجمهورية الفرنسية اللاتي تضم مستعمراتهن كثيرا من السكان الذين ينتمون الى الاسلام ويعدون بالملايين من الرعايا - إلا أن اهتمام حكومات تلك الدول برعاياها المسلمين يظهر بمظاهر مختلفة ، فسلمو الهند الانكليزية ومسلمو الهند الهولندية ومسلمو المستعمرات الفرنسية الافريقية المختلفون ، كل أولئك يمكن تقسيمهم إجمالا الى ثلاثة أقسام : الهنود والمالايويين ، والأفريقيين ، ويمتاز كل قسم

(١) مترجم عن الفرنسية من مجموعة المحاضرات التي القاها الأستاذ ادوار مونتيه مدير جامعة جنيف

أمام جمعية الاساتذة « في كلية فرنسا » في باريس سنة ١٩١٠

منهم بصفات مختلفة، والاسلام الذى يدينون به جميعا يمتاز فى كل قسم بسميزات خاصة، ويترتب على ذلك أن العلاقات التى تنشأ بين الأهالى المسلمين وبين الحكومات الحاكمة تكون متباينة وتثير مشا كل مختلفة تتطلب حلولاً خاصة .

ولن نتكلم فى هذه المحاضرات إلا عرضاً فى المسائل الحكومية التى يثيرها الاسلام فى الهند وجاوه وصومطرا أو فى غيرها، ونقصر بحثنا من الوجهة الاستعمارية الفرنسية على المسائل التى يثيرها الاسلام فى داخل المستعمرات والبلاد التى تحت الحماية والمناطق التى ليس بها سوى نفوذ فرنسى وحيث يظهر عمل فرنسا . وهذه هى الوجهة التى لا تزال حاضرة فى ذهننا الى الآن منذ أن كلفنا منذ سنين قليلة برحلة لدراسة جماعات الطرق الدينية الاسلامية حيث جلنا فى قسم من مراكش تحت رعاية الحكومة الفرنسية .

وقد عقدنا العزم على أن نأتى فى هذه المحاضرات على بيان حال الاسلام الحاضرة من الوجهة الدينية على الأخص ، ونبحث فى حدود الممكن أى مع كثير من الحيلة والتحفظ عما سيؤول اليه فى المستقبل . وعلى ذلك نرانا مضطرين الى أن ندرس الاسلام ككتلة واحدة ، وإثبات هذا القول — الذى هو ضرورى فى مثل هذا البحث الذى آلينا على أنفسنا أن نعالجه اليوم — هو نظرى بحث ، إذ الاسلام فى الواقع — كما سنرى فى محادثتنا القادمة — هو أبعد شئ من أن يكون كتلة واحدة ، فاسلام البربر مثلاً له مميزاته وصفاته الخاصة به ، وكذلك الحال فى إسلام العرب وإسلام الفرس وإسلام الهنود وإسلام الصينيين وإسلام المالايين . وكذلك نرى هذا الاختلاف فى المسيحية التى تعتبر نظرياً ككل لا يتجزأ ولكنها فى الواقع تتباين تبايناً غريباً حسب المناطق فى أوروبا وأمريكا وأفريقية وآسيا .

وإتنا اذا أخذنا الاسلام فى جماعته نرى أنه يحتل بلاداً شاسعة الأرجاء ، إذ يحتل جزءاً عظيماً جداً من آسيا ، وكذلك جزءاً عظيماً مثله فى أفريقية وقسماً من مساحة

عظيمة جدا من بلاد الملايا، ذلك هو حصر إجمالى للبلاد التى تسود فيها سلطة الاسلام الدينية فى أنحاء العالم، مع أننا لم نذكر ضمنها أوربا التى سلطة الاسلام فيها أبعد من أن تكون مهمة، كما أننا لم نذكر أمريكا.

وهل فى الاستطاعة معرفة عدد المسلمين المنتشرين فى أقسام المعمورة الخمسة؟ إنه من الصعب جدا الاجابة على هذا السؤال مع شئ من الدقة. يكاد يكون الاختصاصيون فى فن الاحصاء متفقين على جعل تعداد المسلمين فى أنحاء العالم من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مليونا تقريبا، ونرى هذا العدد يتراوح عادة فى النشرات ذات المصادر والميول المختلفة جدا والتى يكتبها الاختصاصيون فى المسائل الاسلامية وفى كتب المبشرين المسيحيين. وعلى أى الوثائق تستند تلك التقديرات؟ إنها ترتكن الى معلومات متباينة وذات قيمة متغيرة. فعندنا معلومات رسمية دقيقة كفاية عن المستعمرات الفرنسية والانكليزية، وقد حصلت عليها من تقويم « جونا » لسنة ١٩١٠ وهى نشرة كما تعلمون تستقى أخبارها بطريقة شبيهة بالرسمية.

أما سكان أفريقيا الفرنسية فانا نجد عدد سكانها يبلغ مجموعهم ٢٣,١٠٨,٠٠٠ نسمة وإذا طرحنا من هذا العدد العناصر الغير الاسلامية الموجودة فى جزيرة مدغشقر وجزيرة ريونيون وغيرهما والموجودة فى القسم الأوروبى من بلاد الجزائر وتونس، وكذلك عبدة الأصنام الموجودين فى أفريقية الغربية — اذا طرحنا كل هذه العناصر من ذلك المجموع يمكن تقدير عدد المسلمين — على ما أعتقد — بنحو ١٤ الى ١٥ مليون نسمة

أما الهند الانكليزية فقد دل آخر إحصاء حصل فى سنة ١٩٠١ (وبرجع قدمه الى نحو ١٠ سنوات ماضية) على أن عدد المسلمين بها يبلغ ٦٢,٤٥٨,٠٠٠ نفس، والتعداد الذى سبقه بعشر سنوات دل على أنهم كانوا يبلغون ٥٧,٣٢١,٠٠٠، فمن المحتمل أن عددهم يبلغ فى إحصاء سنة ١٩١١ للقبل من ٦٧ الى ٦٨ مليون نسمة.

وأما بلاد الهند الهولندية فيبلغ مجموع سكانها على العموم ٣٨ و ٩٣٨ و ٠٠٠ نفس منها ٣٠ و ٩٨ و ٠٠٠ ببلاد جاوه ، ويقدر عدد المسلمين فيهم بنحو ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، وقد يكون هذا المجموع أقل من الحقيقة فإن هارتمان قد قدر عددهم في كتابه بنحو ٣٣ و ٦١ و ٧٠٠ مسلم . هذا وقد أكد على عالم شاب أقام أخيراً مدة طويلة في جاوه بأن عدد المسلمين في جاوه وحدها بلغ في سنة ١٩٠٥ نحو ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

أما بلاد الصين فيقدر عدد المسلمين بها بنحو ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ، أما «داربي ديتريسان» فقد ذكر في أبحاثه القيمة التي ظهرت في سنة ١٨٧٨ بأن عدد المسلمين في داخل بلاد الصين يبلغ ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مليون نفس ، وذلك حسب أقوال مسلمي الصين أنفسهم . أما الممالك الإسلامية مثل تركيا ومصر وبلاد العجم فإن المعلومات التي لدينا عن عدد المسلمين بها فتباينة كثيراً ، فقد أحصى عدد المسلمين بدقة عظيمة إذ يبلغ عددهم ١٠ ٢٦٩ و ٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم ١١ ١٨٩ و ٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٠٧

أما في تركيا فإن بعض التقديرات بعيدة عن الدقة إلى درجة لا تعتبر معها إلا أنها تخمينات تلي جزافاً ، فتتلا يقدر عدد سكان طرابلس الغرب بمليون نسمة ، وسكان كل بلاد العرب بنحو ١ ٠٥٠ ٠٠٠ ، فاقومة هذه الأرقام ؟ لا أدري ، لكنها لا تبعث في نفس أية ثقة بها . إن مثل هذه الأرقام الاجمالية ليس لها قيمة كبيرة في موضوع الاحصاء ، فمجموع عدد سكان دولة تركيا يبلغ على ما يقال ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة أغليتهم العظمى من المسلمين . وأما في بلاد العجم فيبلغ عدد سكانهم ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، منهم أغلبية كبيرة جداً من المسلمين .

وأما البلاد الإسلامية الأخرى فإن المعلومات عنها لا تنقصنا بالكلية حسب بل إننا لا ندرى على أي أساس نستطيع أن نبني تقديراتنا كما هي الحال في مراکش مثلاً .

فرا كش كما تعرفون بلاد شاسعة الأرجاء تعادل في مساحتها ثلاثة أرباع مساحة فرنسا، وحدودها الجنوبية مترعزة كل الترزع حسب امتداد هذا القسم الجغرافي بين وادي درعة والساقية الحمراء، وإذا اطلعتم على تقويم جونا لسنة ١٩١٠ لوجدتم أن قسما عظيما من هذه البلاد تعلوه جبال شامخة (جبال الألب في اوروبا) يبلغ ارتفاع ذرواتها من ٤ الى ٥٠٠٠ متر تحترقها وديان عديدة، وأن قسما آخر منها لا يقل عنه اتساعا تكتنفه عدة هضبات وسهول، الكثير فيها غنى بخصوبة أرضه، ويبلغ عدد سكانها من خمسة ملايين الى ثمانية ملايين نسمة، وبعض النشرات الاخرى تقدر عددهم بأحد عشر مليوناً، وذهب البعض الى أن عددهم يبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠ ان لم يكن ٤٠٠٠٠٠٠٠ عند حلول القرن المئتم العشرين، إلا أن كل تلك الاحصاءات من أقفا الى أكثرها لا تستند الى أى أساس للتقدير، فحكومة المخزن المراكشية ليست على بينة من عدد رعاياها، حقيقة أن هذا العدد يتغير تغيراً مدهشاً في كل سنة، بل وفي كل شهر حسب السلاطين الذين يتولون عليها

ولما تجولات في تلك البلاد فيما بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠١ لم أستطع قط أن أحصل من السلطة المراكشية على أية معلومات خاصة بسكان مديرية أو مدينة، وفي مرا كش العاصمة التي أقيمت بها أمكنني بالسؤال من اليمين ومن الشمال وبالتقاطي المعلومات من بعض الأهالي الموثوق بهم والاوربيين المقيمين بالبلاد منذ عدة سنين في تلك العاصمة، أمكنني أن أصل الى فرض مقبول وهو أن عدد سكانها يبلغ ٥٠٠٠٠٠ نسمة، وقد يبلغ عدد سكان فاس الضعف. ومن بين القواد الذين كنت أستعلم منهم وجدت واحدا فقط وهو قائد مازاغان، استطاع أن يعطيني معلومات محتملة عن عدد سكان ولايته وهم الدوالة. وهذه المقاطعة التي تجولات فيها من جميع جهاتها ولاحظت أنها أهلة كثيرا بالسكان وأنها كثيرة الخصوبة، يقول عنها ذلك القائد: إن بها من الخيام ٩٠,٠٠٠ أى نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، ويخيل الى أن هذا التقدير قريب من الحقيقة.

والنتيجة التي نستخلصها من كل تلك الملاحظات أنه — عند القول بأن عدد مسلمي العالم يبلغ من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مليون نسمة — قد يكون هذا العدد أقل من الحقيقة، كما يكون أكثر من الحقيقة، لكنني بالأحرى أميل من جانبي الى الاعتقاد بأن هذا التقدير أقل من الواقع. هذا ومن جهة أخرى فإنه مهما يكن أمر هذه الجهود التي تبذل لوضع إحصاء جدّي فإنه لا يزال من المؤكد أن الاسلام قد احتل بلادا شاسعة الأرجاء ما فتئ ينتشر لا في أنحائها فحسب، بل ويتدفق منها ويفيض كما يفيض وعاء الزيت اذا أفعم

ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة، وقلما توجد ديانات كانت تنتشر ولا تزال تنتشر بمثل هذا الانتشار، وإن ما صادفنا من النجاح من أول عهده كان عظيما وباهرا حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التي وطدت سلطة محمد (عليه السلام) وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب. لقد كرروا ولا يزالون يكررون الى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع الى العنف والى قوة السيف في عهد محمد وعهد الخلفاء الأولين. لكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع، فهي لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها.

ويلوح لي أن لا شك في أن الإصلاح الاسلامي كان في أول عهده دينيا محضا ومحمد كان نبيا بالمعنى الذي كان يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان بدافع عقيدة خالصة أن قطع كل صلة بالوثنية، وأخذ يسعى لا تتشال مواطنيه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرّة، وليخرجهم من حالة من الأخلاق والمدنية المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن نشك لا في إخلاصه ولا في الحمية الدينية التي كان قلبه مفعبا بها، فتلك هي الافكار والعواطف التي أثارت في نفسه حب الدعوة الى الإصلاح التي قام بها في مكة ثم في المدينة. ولكن عند ما انتقل مركز دعوته الى هذه المدينة الأخيرة لم يلبث أن دخل

عنصر جديد في رغبته الإصلاحية، وهذا العنصر الجديد كان الشعور الوطني العربي وفكرة الوحدة السياسية لبلاد العرب التي كانت ابتدأت تتولد في ذهنه، ومن ذلك الحين كانت عنده فكرة الإصلاح الديني مرتبطة تمام الارتباط بفكرة جمع قبائل العرب تحت نفس سلطة واحدة دينية وسياسية، ومن هذا نرى أصل اتحاد السلطين الدينية والمدنية الذي كان من مميزات الحضارة العربية والذي كان سبب عظمتها ومجدها، كما كان في نفس الوقت داعياً ومفسراً لسقوطها وانهارها.

ونستخلص من هذه الملاحظات أنه في أول عهد انتشار الاسلام يجب علينا أن نفرق بين الدعوة الى القرآن والانقلاب الديني وبين الفتح الحربي وتوحيد العالم العربي سياسياً، وهذا التفريق الأساسي والضروري لا يدهش من يتعمق في دراسة تاريخ الديانات. فالمؤرخون الذين كتبوا عن إصلاح لوتر وكالفان يستطيعون أن يبينوا لنا هنا الدور العظيم الذي لعبته السياسة في انتشار البرتستانتيّة. حقاً إن كبار مصاحي القرن السادس عشر كانوا من ذوى الضمائر والأخلاق القويمة والأفكار الدينية من الصنف الأول إلا أنهم كانوا مدفوعين بالتيار السياسي الذي كان سائداً في زمانهم وعملوا على أن يدفعوه في اتجاه يساعد على نجاح عقائدهم الدينية. وإتنا نجد في تاريخ البابوية كثيراً من الأمثلة الظاهرة والشواهد القاطعة — في طريق تطور الإنسانية — على ارتباط المصالح الروحية بالمصالح السياسية، والاعتبارات الدينية بالاعتبارات ذات الصبغة العملية والمادية، وقد أورد بعضهم تفسيرات أخرى لهذه الحقيقة وهي سرعة انتشار الاسلام في أول عهده، إلا أنهم ذهبوا على ما نظن الى البحث عنها بعيداً، بينما أنه يكفي — كما سبق أن أوضحنا — أن ننظر إلى الظروف العامة والطبيعية إلى حياة كل هيئة إنسانية، فقد ظن البعض أن انتشار الاسلام بمثل تلك القوة يرجع الى مهاجرة الجنس العربي أخيراً للخروج من بلاده التي لم يجد فيها جميع الأسباب متوافرة لرقيه وتقدمه.

وزيد البعض الآخر على هذه الاعتبارات زاعمين أن السبب الأول لمهاجرة العرب الذي أدى في القرن السابع المسيحي الى اعتناق قسم كبير من الشرق للدين الاسلامي - أن السبب الأول لا بد وأن يبحث عنه في التحول البطيء لبلاد العرب في خلال آلاف السنين ، ذلك التحول الذي كان من نتيجته الجفاف التدريجي لشبه جزيرة العرب الذي تعادل مساحته ثلاثة أرباع أوربا ، إلا أننا نخشى كثيرا أن يذهب بنا هذا التغيير الجوى التام الى ما قبل التاريخ ؟
(يتبع)

منتهى آمال الخطباء

هو الديوان الثالث لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المرشد الشيخ مصطفى أبي سيف الحماي خطيب المسجد الزينبي ومدرسه . وهو مشتمل على أكثر من مائتي خطبة جامعة لشتات الفضائل كاشفة عن مساوي الرذائل .

وقد تعرض فضيلة المؤلف لموضوعات شتى ، وعالج بحكمته أمراضا خلقية عديدة ، فكان الديوان مجموعة خطب قيمة نادرة المثال . وهو مطبوع طبعا متقنا على ورق جيد . فنحن أهل العلم ولا سيما الوعاظ والخطباء على اقتنائه ، ويطلب من مكتبة الشيخ مصطفى والسيد عيسى الحاي ومن فضيلة المؤلف ، وثمن النسخة ذات الورق الجيد ١٠ قروش وذات الورق الأجود ١٢ قرشا .

they scattered and he said: "Who hath done this? Cursed be he who hath done it for the Prophet (Peace be on him) had cursed whoso seteth a living thing for a target."

Other traditions are cited of the Prophet (Peace be on him) relating to the credit accruing from feeding and watering animals. Such acts are regarded as acts of charity that merits the favour of the Lord. The Prophet (Peace be on him) says :

"No Moslem is there who soweth a plant or tree from which eateth bird or man or beast but will he be rewarded the reward of charity."

The Prophet (Peace be on him) is cited in an authentic Tradition to have related the following story :

"As a man was going along a road he became thirsty and finding a well, he descended it and quenched his thirst. On climbing out of it, he found a panting dog that was licking the dust out of thirst. The man said : "This dog has suffered as much as I did" and down the well went he again. He filled his shoe, held it by the mouth till he clambered out and gave the dog to drink, whereupon the Lord did praise him and forgave his trespasses."

On being asked by some of his followers : "O, Messenger of God, are we recompensed for (treating) animals ? the Prophet replied : "A recompense there is for (treating) every tender liver" (i.e. animals).

Their question as to whether there was a recompense for treating animals shows how little they thought of animals and how they believed that charity thereto is not equivalent to charity to man on which recompense is merited. Unfortunate indeed is the lot of an animal that has fallen in the hands of those who believe there is no recompense or punishment for kind or cruel treatment thereof.

The Prophet (Peace be on him) is cited in an authentic Tradition to have said :

"A woman is chastised in hell-fire on account of a cat which she fed or watered not, nor did she leave to eat of the insects of the earth."

The threat of hell-fire for so doing shows that ill-treatment of animals is strictly forbidden. Indeed no one would have imagined ere this that the ill-treatment of a mere cat could involve such a sin that whoever commits it will be liable to hell-fire.

The Moslem law-doctors have declared it obligatory to attend to the watering and feeding of an animal by supplying it with fodder and giving it personal care or trusting the care thereof to someone else even though he has to be paid. On this point, they all concur. A party of them declared however that a man should be forced by law to do so and if he would not carry out the ordinance of the law, the animal should be sold and should not be allowed to suffer the pangs of starvation at its cruel owner's hands.

(to be continued)

them away from the truth and rouse in them vain desires and bid them slit the ears of animals, and most assuredly I will bid them alter the creation of Allah and render it different from its original form."

(Alucy's Commentary).

Animals are treated still by their owners just like any other chattel which they are free to do what they like with. Should any kindness be accorded them, it would be merely the outcome of the human instinct to keep what one possesses and derive benefit therefrom for as long as possible. But Islam has pointed out that the animal is in itself worthy of compassion, and has inspired general kindness to it in the hearts of men. Such kindness Islam regards as a truly good act with which wrongs are expiated and the favour of the good Lord secured.

Islam has permitted killing harmful animals as rabid dogs and vermin, it has ordained such killing to be done in the best and least painful manner.

The Prophet (Peace be on him) says in his connection :

"Allah hath ordained the good performance of everything, if ye therefore kill animals, then do ye the killing well."

The slaughter of particular animals is permitted by Islam so that men may enjoy the good meat thereof and the Prophet (Peace be on him) says :

"If ye slay then do ye the slaughter well and whet ye your knife and spare the slaughtered animal all unnecessary pain."

It might occur to some that the permission to kill or slaughter animals leaves it to man's discretion to use whichever way he chooses to kill the animal, but the Lord ordains the adoption of the best and least painful way to kill or slaughter an animal. It is not permitted to burn or mutilate animals even though we are permitted to destroy them.

The learned people cite certain manners elicited from the fundamental principles of Islam relative to animals.

Omar says :

"It is charity not to drag the slaughtered animal to its slayer."

Rabiah says :

"It is charity not to slay an animal with another looking on."

It is also said : "It is desirable for him who slayeth an animal not to whet his knife before its eyes and not to throw it violently down to the ground."

The hunting of animals by falconry, arrows or nets is also permitted. Islam forbids to set an animal as a target for arrows or the like. A tradition of the Prophet (Peace be on him) says :

"Set ye not for target anything in which a spirit abideth."

In Sahih Muslim, the following incident is cited :

"Ibn Omar once passed by some Koreishite youths who have set a bird for target and were aiming their arrows at it. On seeing Ibn Omar

Another is the "Wasilah" which means that when a ewe produces twins a male and a female, the female is said to have joined the male and the latter was not to be slain out of regard to the female.

Another is the "Hami" which is a he-camel whose offspring proves fruitful ten times. Such a camel is said to have protected its back and Arabs were forbidden to ride or make use of it in carrying loads.

Yet another is the "Bahirah" which is a she-camel that had produced five young ones, the last of which being a male. Arabs used to have the mother's ear slit and were forbidden to ride or milk it.

On the advent of Islam, such idleness of otherwise fit and strong animals was forbidden as the outcome of ignorance and superstitious beliefs :

” مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ”

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“Allah hath not ordained anything concerning a Bahirah (she-camel with the ear slit), a Saibah (she-camel vowed to be set free), a Wasilah (the female twin of a ewe), and a Hami (camel whose offspring is fruitful ten times), but those who disbelieved invent falsehood against Allah by forbidding the use of these animals and ascribing the ordinance to Him, and most of them do not understand the lawful and the unlawful, the permissible and the forbidden.”

(Baidawy's Commentary).

Among other evil practices which the Arabs used to the great suffering of animals, was to tie down the camel of a departed chief by his grave and there leave it without food or drink till it dies out of thirst and starvation.

Another evil practice of the Arabs was the slitting of animals' ears as they were wont to do with the "Bahirah" described above.

The Koran has pointed out the evils of these practices and regarded them as the bidding of satan.

” وَقَالَ لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا تَضْلِهِمْ وَلَا مَنِيَّتَهُمْ
وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيَتَّبِعْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ ”

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

“And satan said most assuredly I will tempt a certain assigned portion of Thy servants who worship Thee, and most assuredly I will lead

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ
وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

“And Allah hath given you tents of the hides of cattle, which is different to your usual places of abode, and which you will find light and easy to carry on the day you depart and the day you halt for a stay. And of the wool of sheep and hair of camels and goats hath He given you household articles and goods which will endure for your lifetime.”

(Baidawy's Commentary).

Thus has the Lord bestowed upon men such goods as were made of the wool, hair and skins of cattle and food stuffs made of their milk and flesh and has given them animals for carrying their loads. All of these advantages are essential for the well-being of man.

In another verse, the Lord saith :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

“God hath created among other animals, horses, mules and asses that ye may ride and make use thereof for pageantry, and other things which ye know not doth He create.”

(Alucy's Commentary).

In this verse the purposes for which horses, mules and asses were created are detailed. Riding and the attendant comfort thereof as well as the speedy travelling from place to place are no doubt great advantages which contribute to the maintenance of good health and the saving of time.

In granting men the use of cattle, horses and other animals, God has called the attention to their beauty and pleasing appearance. This signifies that the enjoyment of these advantages could only be possible through kindness and good treatment as their abuse whether by overworking or giving them insufficient food would naturally render them of little use and rob them of their beauty and pleasing appearance.

In pre-Islamic days Arabs had certain customs which deprived them of making use of some particular animals that were well-fitted for service. Of these, the “Saibah” is an instance. It is a she-camel which a man vows to set free should he come safely back from a journey or recover from an illness. It was set at liberty to pasture on its own and was not to be ridden or milked.

ISLAM AND KINDNESS TO ANIMALS ⁽¹⁾

The guidance of Islam is established on a solid foundation of mercy and judiciousness. While mercy inspires the souls of men to kindness and charity, judiciousness keeps it within reasonable bounds which, if overstepped, will turn mercy into weakness or even stupidity. And thus steering a middle course, has Islam established the manners and rules pertaining to the treatment of animals.

It has permitted the eating of certain animals and has, through this permission, called the attention to the mistaken notion of those who refrain from slaying or eating it out of compassion or self-denial.

It has also permitted the employment of animals in such purposes as riding, tillage and carrying of burdens. In the Holy Koran men were granted the benefit of all these kinds of reasonable enjoyment as detailed in the verse :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِإِشْقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

“God hath created camels, cows, sheep and goats for your benefit; from them you procure clothings and coverings to give you warmth; and you derive from them many advantages including milking, riding and tillage; and of them do you eat meat and fat. And withal they are pleasing to you when you drive them back home in the eventide and when you send them forth to pasture in the morn. And they carry your heavy loads to such places which you could never reach, had it not been for them, except with great difficulty and distress of soul. Verily your Lord is merciful and compassionate to thus bestow upon you His great favours and render the difficult tasks easy unto you.”

(Alucy's Commentary).

(1) Translated from the very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hus-sain's editorial in Nour-El-Islam Review.

that Islam is by no means a religion which induces to antagonism and debars kindly intercourse and co-operation in life.

Islam totally disapproves of a Moslem adopting, in addressing non-Moslems, the attitude of those fanatics who revile whomsoever question the truth of their beliefs. In this connection, the Lord's sayings are significant :

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

“Dispute ye not with the Jews and Christians except in a better manner, meeting their rudeness with kindness, their passion with patience, their clamouring with good counsel and their violence with tolerance.”

(Alucy's Commentary).

and

« وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

“Argue with their disputants in the best and kindest manner of argument and chose the easiest way unto thee to subdue their passion, for the Lord knoweth him best who hath deviated from the path which He ordainend, and He knoweth best those who were guided thereto.”

(Alucy's Commentary).

In fine, Islam has been instrumental in the enlightenment of its followers through the spirit of tolerance which pervades its teachings. They have learned from its kindly manners how to treat amicably the followers of other religions and live with them in peace and harmony co-operating to serve the national interests of the country they live in.

Often on reading the news of those whom Allah has pleased to guide into Islam, we find them give particular mention to the spirit of forbearance, kindness and charity of this Faith towards non-Moslems, among the reasons of their guidance.

The Moslem law-doctors differ however as to whether the Moslem governor should judge between the litigants if the case is submitted to him, or whether he should refer it to the head of their creed. The Malikites say that should the case involve a sin which all laws agree to forbid such as assault or murder, the Moslem governor should settle it according to the dictates of justice, but should the laws differ on the point, the litigants are given the choice of having the case judged according to the Moslem Law or referring it to the head of their creed for judgment. The Malikites give the following Koranic verse to substantiate this view :

“ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ”

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الكشاف

“Should the followers of the Scriptures come to thee for settlement of differences which arose between them, then judge thou between them according to the Law of Islam or send them away to the head of their creed for judgment.”

(Al-Kashaf's Commentary).

Imam Abu Hanifa on the other hand says that should the litigants submit thier case to the Moslem governor he had to judge between them and he is not free to decline the case. In proof of this view, the Imam cites the following Koranic verse :

“ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ”

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسی

“Judge thou between the followers of the Scriptures according to what the Lord hath revealed unto thee for it is the truth and follow thou not their false desires.”

(Al-lucy's Commentary).

And asserts that the decisive injunction contained in this verse abrogates the choice permitted in the previous one

“ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ”

Islam has permitted the marriage of a Moslem to a Jewish or a Christian provided the observance of Moslem rites and laws. It conferred upon her the same matrimonial rights as those of the Moslem wife and as established by the Moslem Law. Such marriage constitutes a bond of affinity and this in its turn involves a tie of sanguinity. This in itself amply shows

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

TOLERANCE OF ISLAM ⁽¹⁾

(Continued)

In the consideration of manners of fellowship, the Moslem law — doctors lay particular stress on the observance of the rights of non-Moslems under the rule of Islam. In his book "Al-Furuq," Shehabudine Al-Qarafy says :

"The pledge of faith made to non-Moslems involves certain obligations towards them as our neighbours and protégés and as being in the trust of God, His Holy Prophet and Islam. Whoso wrongeth them be it by evil word or slander or any other sort of injury, or by abetting in so doing, will be betray the trust of God, His Prophet and Islam."

In his book "Maratebul Ijmaa," Ibn Hazm says :

"Should the enemy come to attack those under our protection, it is incumbent upon us to set out in full arms to repel them and even die in the attempt to protect those who are in God's trust and His Prophet's for it would be a breach of faith on our part to surrender them to the enemy."

Islam has further made binding the judgment of their chiefs. They are free to submit their cases for judgment before the heads of their creeds.

(1) Translated from the very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hus-sain's editorial in Nour El-Islam Review.

قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مِنْ تَحْتِ أَنْفِهِ رُحُومًا لَهُ خُزُنُ الْعِلْمِ وَمِنْ فَضْلِهِ يُعْطَى
وَيُخَوِّضُهُمْ فِي الْفُلْجَانِ إِلَى التَّوْبَةِ إِنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بُحْثُ الْأَسْئَلَةِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكومية

تصدرها مئيشخة الأزهر الشريف

تظهر غمرة كل شهر عربي

الجزء الثامن		شعبان سنة ١٣٥١		المجلد الثالث	
مدير إدارة المجلة		رئيس التحرير			
عبد المحسن بن عبد العزيز		السيد محمد الحنين			
المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى		من علماء الأزهر			
سابقا					
الإدارة		الاشتراك			
شارع محمد مظلوم بإشراق ١		داخل القطر المعري		٤٠	
تليفون : ٨٤٣٣٢		خارج القطر المعري		٥٠	
الرسائل تكون باسم مدير المجلة		للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذنين		٢٠ {	
		ومعلمي المدارس الأولية والطلاب داخل القطر		}	
		ولحفترات المذكورين في خارج القطر		٣٠ ...	
نمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه					

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشریعة الاسلامیة (۱) صالحه لكل زمانه ومكانه

سـد الذرائع

من أعمال الإنسان أو أقواله ما يشتمل على المفسدة بنفسه ، كالغصب محرم الإنسان من الانتفاع بماله ، وكالقذف يلوث عرض البريء ، ويسقط مكانته من النفوس .

ومن الأعمال أو الأقوال ما لا تنشأ عنه المفسدة مباشرة ، بل يكون وسيلة إلى عمل أو قول فيه مفسدة ، كمنافاة السكين لمن يسفك بها دما معصوما ، فالمنافاة في نفسها عارية عن المفسدة ، وإنما هي وسيلة إلى ما فيه المفسدة ، وهو سفك الدم بغير حق ، وكدلالة الظالم على مكان شخص بريء يريد الظالم أن يناله بأذى ، فليس في نفس الدلالة مفسدة تقع بوقوعها ، وإنما المفسدة فيما كانت الدلالة وسيلة إليه ، وهو إصابة النفس البريئة بالأذى . ويدلّك على أن مثل منافاة السكين ، ودلالة الظالم على مكان البريء ، لا تحمل في نفسها مفسدة ، أنها توجد في بعض الأحيان دون أن تنشأ عنها

(۱) هذا مقال سابع يتصل بست مقالات نشر خمس منها في الأجزاء : ۱ ، ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۵ ، ۶ ، ۷ من المجلد الأول ونشر سادسها في الجزء الثالث من المجلد الثالث .

في الخارج فساد ، كأن يقوم مانع من استعمال السكين في معصوم الدم ، أو ينصرف الظالم عن أذية من دل على مكانه ؛ وتُخالفُ المفسدة عن الوسيلة لعارض لا يرفع الإثم عن فاعلها ، لأن الإثم منوط بفعل الوسيلة مع العلم بما شأنها أن تفضي إليه من فساد .

ومن حكمة التشريع الاسلامي أنه لم يقصر النظر على ما يحتوي المفسدة بنفسه ، بل وجه نظره الى وسائل ما فيه المفسدة ، فنعها ؛ والنصوص الواردة في الكتاب والسنة للنهي عن وسائل ما تقع المفسدة بوقوعه ، غير قليلة . ومن شواهد هذا قوله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فالأمر بغض البصر من ناحية أنه يثير الهوى ، والهوى يدفع الى ارتكاب مفسدة هتك الأعراض واختلاط الأنساب .

ومن هذه الشواهد قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا) : منع المسلمين من أن يقولوا (راعنا) مع قصدهم الى طلب الرعاية ، سداً لباب كان اليهود يدخلون منه الى سب النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ يستعملون هذه الكلمة ، ولا يقصدون منها طلب الرعاية ، وإنما يقصدون بها معنى اسم الفاعل المأخوذ من الرعونة .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) فقد نهى عن سب معبودات المشركين وهم يسمعون ، وأشار الى أن وجه النهي عن هذا السب إفضاؤه الى ما فيه المفسدة ، وهو إطلاق ألسنتهم بسب الله تعالى . ويضاهي هذا الشاهد قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه »^(١) فجعل الرجل شاتماً لوالديه ولم

يصدر منه شتمها، وإنما تعاطى وسيلة هذا الشتم، وهو شتمه لأبي الرجل الأجنبي أو أمه، فدل على أن فاعل الوسيلة بمنزلة فاعل ما يتبعها.

وفي الشريعة أحكام كثيرة تقوم على إعطاء الوسائل حكم ما من شأنه أن يوجد بعدها من ضروب الفساد: تراها قد منعت نكاح المرأة قبل أن تنقضى عدتها حذرا من اختلاط الأنساب، ثم منعت خطبة المعتدة باللفظ الصريح لأنها تفضي إلى تسرع المعتدة بالإجابة وادعاء انقضاء العدة قبل انتهاء أجبائها؛ وقبول الهدية مأذون فيه، ولكنه يحرم على المقرض قبول هدية من المقرض كراهة أن تتخذ الهدية طريقا للربا؛ وكذلك القاضى لا يجوز له قبول الهدية حذرا من أن تتخذ وسيلة لموبة الارشاء، قال ربيعة: «إياك والهدية فإنها ذريعة الرشوة».

وإذا أقبل القاضى على أحد الخصمين دون الآخر وبش في وجهه، انكسر قلب خصمه، وضعف بيانه عن إقامة الحجة، فيضيع حقه، فيحرم هذا الإقبال لأنه وسيلة إلى ضعف البيان الذى هو سبب ضياع كثير من الحقوق.

وقد تلقى تبعة الضمان على فاعل الوسيلة إذا أفضت إلى ما فيه المفسدة، كربان السفينة يخرج في تصريفها عن المعتاد، ويسير بها في خطر وهو قادر على اجتنابه، فإنه يضمن ما يضيع بغرقها من الأموال والنفوس وإن لم يقصد إلى إغراقها. وجاء في فتاوى علمائنا أن من حفر بئرا في طريق شخص قاصدا هلاكه، فوقع فئات، كان جزاؤه القصاص.

ولا تختص الذرائع التى يجب سدّها بالأفعال، بل يعدّ في قبيلها ترك الأفعال التى تحمى بها نفوس أو أموال، فن وجد رضيعا بمكان خال، وتركه بحاله وهو قادر على إنقاذه عالم بأن تركه يفضى إلى موته، فئات، عدّ تركه للطفل في موقع التهلكة جريمة، إذ كان من وسائل الفساد التى يجب سدّها ومعاقبة من يرتكبها. وجاء في فتاوى

الفقهاء أن من منع فضل مائه مسافرا وهو عالم أنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، فماتت حقت عليه عقوبة القصاص ؛ وكذلك الحارس ينال اختيارا في غير الوقت الذي اعتاد فيه النوم ، فيضيع ثي ، مما أقيم لحراسته ، فانه يضمن ماضاع ، وليس نومه إلا تركا للحراسة ، وكان هذا الترك وسيلة الى ضياع المال .

لم يختلف العلماء في أن سد الذرائع من أصول الشريعة ، وإنما يختلفون في بعض الفروع يذهب بها بعضهم نحو سد الذرائع ، ويرجع بها آخرون الى أصل غير هذا الأصل ، قال أبو إسحاق الشاطبي : « إن سد الذرائع أصل شرعي قطعي متفق عليه في الجملة وإن اختلف العلماء في تفاصيله ، وقد عمل به السلف بناء على ما تكرر من التواتر المعنوي في نوازل متعددة دلت على عمومات معنوية ، وإن كانت النوازل خاصة ولكنها كثيرة » يريد الشاطبي أن السلف جروا في تفصيل بعض الأحكام على أصل سد الذرائع ؛ ومستندهم في تحقيق هذا الأصل ما ورد في الكتاب والسنة من الأحكام العائدة الى هذا الأصل ، وهذه الأحكام وإن كان كل واحد منها متعلقا بنازلة خاصة ، قد بلغت من الكثرة مبلغ ما يدل على قصد الشارع الى سد ذرائع الفساد ، فتكون هذه الأحكام الكثيرة بمنزلة قول عام يرد في القرآن أو السنة مصرحا ببناء الأحكام على سد الذرائع .

والذرائع ثلاثة أقسام :

(أحدها) ما أجمع العلماء على سده ، وهي الوسيلة التي تفضي الى ما فيه مفسدة على وجه القطع أو الظن القريب منه ، كإلقاء السموم في الأظمة ، وحفر الآبار في الطرق ؛ وإلقاء السم في الطعام يفضي على وجه القطع أو الظن القريب منه الى موت من يتناول الطعام ، كما أن حفر الآبار في الطرق يفضي الى وقوع السائرين بها في غفلة أو ظلام .

ومن هذا القسم صنع الخمر والاتجار بها ، فانه يفضى الى مفسدة تعاطى شرها قطعاً أو ظناً غالباً . وبدلكم على وجوب سد هذه الوسائل حديث أنس فيما رواه الترمذى (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وآكل ثمنها) وللاحكام المسلم أن يمنع بمقتضى هذا من زرع المخدرات والاتجار بها ، ويضع على ذلك عقوبة رادعة .

(نانياً) ما أجمعوا على إلغائه وعدم الالتفات اليه ، وهى الوسائل التى يكون إفضاؤها الى المفسدة نادراً ، ومثال هذا زرع العنب ، فإنه يكون وسيلة الى اتخاذ الخمر وتناولها شرباً ، ولكن هذه المفسدة نادرة بالنسبة الى الانتفاع بالعنب من حيث إنه ثمرة طيبة ، فلا تمتد الحرمة من تعاطى الخمر الى وسيلته التى هى زرع العنب ، بل تبقى منوطة بنحو تحويله الى خمر أو تعاطى ما أسكر من عصيره .

وقد يكون اتخاذ الخمر من العنب فى بعض البلاد كثيراً ، ولا تقتضى هذه الكثرة المنع من زرع العنب ، فإن فى هذا المنع حرماناً للناس من منافع الطيبة ، وقد جعل الشارع لمؤبقة الخمر عقوبة متى تولى القيام عليها حازم رشيد ، طهرت البلاد من خبث المسكرات ، وباهت سائر البلاد برجال لا يخالط عقولهم كدر ، ولا يمس نشاطهم كسل ، ولا يدنو من جدهم هزل .

وإذا فرض أن أمة تبلغ فى السفاهة أن يكون اتخاذ الخمر هو الغالب على أعينها بحيث يكون انتفاعها من العنب فى غير هذا الوجه نادراً ، كان للعارف بأصول الشريعة وسياستها النظر فى هذه الحالة ليقرر لها حكماً مطابقاً لها .

وفى صناعة الطب مصالحة الشفاء من أمراض كثيرة ، وقد تكون المداواة وسيلة الى إتلاف بعض النفوس ، وهذه الحالة نادرة بالنسبة الى ما تقتضى اليه من الصحة والسلامة ، فتلغى الحالة النادرة ، وتبقى المداواة مأذوناً فيها بإطلاق ، وليس على الطبيب ضمان ما أتلّف إلا أن يتبين تفريطه وعدم نصحه فى العلاج .

وفي تسيير السفن في البحر منافع لا تحصى ، وقد يفضى تسيير السفينة الى غرقها وهلاك ركابها ، ولكن الغرق نادر بالنظر الى السلامة ، فتلغى الحالة النادرة ، ويبقى تسيير السفن مأذونا فيه بإطلاق ، وليس على ربان السفينة متى غرقت من ضمان ، إلا أن يتصرف فيها على وجه يتبين فيه تفريطه .

ويلحق بهذا الضرب اتخاذ السيارات والطائرات والغواصات ، فإنه قد ينشأ عن استعمال هذه المخترعات إتلاف بعض النفوس البريئة ، ولكن هذا الضرر قليل بالنسبة الى ما يترتب عليها من نحو مصلحة الدفاع وقطع المسافات البعيدة في أقرب زمان ، فلا تمتد الحرمة من إتلافها لبعض النفوس الى أصل استعمالها ، بل تبقى الحرمة مقصورة على استعمالها بدون روية واحتراس ، وهو المفضى الى نحو إهلاك النفوس أو الأموال .

(ثالثها) ما يتردد بين أن يكون ذريعة الى مفسدة ، وبين أن لا يكون ، وهذا موضع اختلف فيه أهل العلم ، فمنهم من قال بالمنع من هذا القسم نظرا الى ما قد يفضى اليه من المفسدة ، ومنهم من ذهب الى الإغماض عنه وعدم عده في الذرائع التي يجب سدها ، ومثال هذا استناد القاضى في الحكم الى ما يعلم من حال القضية ترفع اليه ، فمن أهل العلم من منعه ، وأوجب على القاضى الرجوع الى البيّنات والوقوف عندها ، مخافة أن يتخذ القضاة الذين لم تشرب قلوبهم التقوى الاستناد الى العلم ، ذريعة الى الجور في القضية ، فيفصل فيها اتباعا للهوى ، بزعم أنه يعلم منها ما لم تعلمه البيّنة .

فالاستناد القاضى الى علمه متردد بين أن يكون وسيلة الى حفظ الحق ، وأن يكون ذريعة الى مفسدة الجور في القضاء ؛ والمحققون على سد الذريعة في مثل هذا الفرع ؛ والقاضى الذى يعلم من القضية خلاف ما قامت عليه البيّنة ، يصرف الحكم فيها الى غيره ، ويشهد لديه بما يعلم ، فتجرى عليه أحكام الشهادة ، فإما أن يقبل وإما أن يأنى .

ومما يساق في الحديث عن هذا القسم أن الشريعة تحرم على الانسان أن يقرض آخر عشرة دنانير — مثلا — على أن يردها اليه خمسة عشر دينارا ، فإن هذه العقدة

هى الربا بعينه ، ولو باع زيد سلعة لعمرو بخمسة عشر مؤجلة ، ثم اشتراها منه بعشرة نقدا ، لكان مآل هذا البيع والشراء الى أن زيدا دفع الى عمرو عشرة نقدا ، وأخذ منه بعد أجل مسمى خمسة عشر ؛ ومثل هذه الصورة قد يقصد فيها زيد وعمرو الى البيع والشراء على وجه البت ، ثم يبدو لزيد أن يشتري ما باع ، فيكون هناك عقدان كل منهما مستقل عن الآخر ، فيفارق هذا البيع والشراء عقدة الربا .

فإن قصدا من البيع والشراء إعطاء عشرة ليؤخذ بدلها خمسة عشر عند الأجل فقد جعلنا هذه المعاملة وسيلة الى ما حرم من الربا ، لأنها وإن جرت بألفاظ البيع والشراء ، تشتمل على معنى الربا من جميع أطرافه .

ومن كبار الأئمة من يمنع هذه المعاملة حيث يكثر قصد الناس فيها الى القرض بمنفعة ، ويستند في هذا المنع الى قاعدة سد ذرائع الفساد .

وقد بلغ بعض الفقهاء في مراعاة سد الذرائع أنه كره فعل بعض المندوبات إذا كان إظهارها والمواظبة عليها وسيلة الى اعتقاد العامة سنيّتها أو وجوبها ، وكان الإمام مالك رضى الله عنه يكره المجيء الى بيت المقدس خيفة أن يتخذ الناس ذلك سنة ، وقال سعيد بن حسان : كنت أقرأ على ابن نافع فلما مررت بحديث التوسعة ليلة عاشوراء ، قال لى : حرّق^(١) عليه ، قلت : ولم ذلك يا أبا محمد ؟ قال : خوفا من أن يتخذ سنة ؛ وقد ذكرنا فيما سبق أن الامام مالكا كره إتيان رمضان بصوم ستة أيام من شوال مخافة أن يعتقد العامة أنها فى حكم صوم رمضان ؛ ومن لا يجيزون ترك المندوب لخوف اعتقاد وجوبه أو سنيّته ، يعتمدون على أن من واجب العلماء تبين أحكام الشريعة وآدابها للناس ، وإزاحة ما يحوم بأذهانهم من الأوهام الباطلة ؛ وهذا هو الوسيلة التى يكفى بها شر اعتقاد العامة لسنية الأمر المندوب أو وجوبه .

وكما نظر الشارع الى وسائل الفساد فسدها ، نظر الى وسائل ما فيه صلاح ففتحها بالإذن فيها والحث عليها ؛ ومثال هذا تسعير ما يباع فى الأسواق من نحو الأقوات

(١) كذا فى الاعتصام للشاطي . ويطاق التحريق بمعنى الحك والبرد بالبرد .

فإنه ذريعة الى حماية العامة من أن يغبنوا ويُغلى الباعة عليهم ما يحتاجونه في كل يوم ، فالإذن في التسعير يفتح ذريعة الى مصلحة اقتصادية لا يستهان بها ، فلولى الأمر أن يجمع وجود أهل السوق ، ويحضر غيرهم استظهارا على صدقهم ، فيسألهم كيف يشترون ، وكيف يبيعون ، ويضع للحاجيات أثمانا محدودة ، فيها ربح للباعة ، ولا تُجحف بالعامة . ونرى الشريعة تأتى الى الأمر يكون له وجه من الضرر ، فتأمر به حيث يكون ذريعة الى ما فيه مصلحة أكبر من ذلك الضرر ؛ ومن هذا القبيل بذل المال لفداء الأسرى ، فللمال المبذول للعدو يزيده قوة ، وحرام على المسلمين أن يمدوا عدوهم ولو بوزن ذرة من ذهب أو فضة ، ولكن هذا البذل ذريعة الى مصلحة يصغر في جانبها ضرر البذل ، والمصلحة هي إنقاذ المسلمين من أيدي أسومهم سوء العذاب أو الهوان .

وفي حلف الشخص بالله كاذبا إثم كبير ، ومقتضى هذا أنه لا يجوز لصاحب الحق — متى أنكر المدعى عليه — أن يطالبه باليمين ، لأنه يدفعه الى ارتكاب الإثم الكبير ولكن الشارع الحكيم أذن لصاحب الحق في تحاييف المنكر ، مع علمه بأنه سيحلف بالله كاذبا ، إذ كان التحليف ذريعة الى ظهور الحق في كثير من الأحيان ، حيث يحمل المدعى عليه على الإقرار لأول الأمر ، أو على الرجوع إليه بعد الإنكار . فهذه المسئلة من المواضع التي أغمض فيها الشارع عن وجه الفساد ، وفتح بها الذريعة الى مصلحة ذات شأن خطير .

وملخص المقال أن الشريعة الاسلامية قد بنت كثيراً من أحكامها المنطوق بها في الكتاب والسنة على رعاية سد الذرائع ، وقد استخلص الفقهاء من هذه الأحكام الكثيرة أن من أصول الشريعة سد ذرائع الفساد ، واستمدوا من هذا الأصل أحكاما حالوا بها بين الناس وبين ما يفضى الى كثير من مواقع الفساد . فقاعدة سد الذرائع قاعدة محكمة ، وفيها شاهد واضح على أن الشرع الإسلامى صالح لكل زمان ومكان .

محمد الخضر حسين

النفس

سورة النور

١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (وَأَنكِحُوا الْأَيَاتِ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ
إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي
آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مُحْصَنَاتٍ لِيَتَبَغَوْا عَرْضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَقَدْ أَنزَلْنَا
إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) .

لقد مضى الكلام آيات تلو آيات في التحذير من قربان الزنى وشرح مضاره ،
وما يتصل بذلك من الأحكام اتصالا قريبا أو بعيدا : من الأمر بغض البصر ، وإخفاء
الزينة ، والاستئذان عند دخول المنازل ، ومن صون الأعراض عن أن تنالها الألسنة
بسوء من هذا القبيل ؛ فأخذ من مجموع ذلك أن لهذه الفاحشة من الآثار السيئة ما لا
يقبل الهوادة في العلاج ، ولا التسامح في المظان ؛ فطبع له بذلك في النفوس صورة من

أقبح الصور وأوجبها للبعد . ولا تكاد تجد الشارع الحكيم حذر على الناس أمرا مما تميل اليه الطباع البشرية إلا عوضهم عنه ما هو خير منه ؛ فبعد إشباع القول في الزجر عن الزنى يحىء الكلام في العوض الذي هو خير منه استمتاعا ، وأثبت أصولا ، وأنى ثمرة ، ذلك هو النكاح ، إذ يصل المرء الى بنيته المنشودة وهو هادئ النفس مستريح البال لا يزعج ولا يزعج ، ولا تحده نفسه بأنه آذى أو تعرض للأذى ؛ وتجد الحياة بينهما مستقرة مبناها تبادل الحب الصادق ، وتعاون الطرفين على مصالحة الطرفين ، فينتج من بينهما بنون وبنات يقدمون على أبويهما بالسعادة والهناء ، فيتلقياهم بالبشر والترحاب والفرح العظيم ، لا كذلك القادم على السفاحين نذيرا يهدم الذات ، وتفريق الجماعات ، وتنغيص العيش ، والتذكير بمقبي الطيش ، فيتلقى كما يتلقى الغريم ، بل ينظر إليه كأنه الشيطان الرجيم ، وكأنه يقول لهما : فضحتكما وهتكت ستركما ، فأين تفران هني اليوم ولات حين مناص ، ولا ينفعكما الندم ؛ وهنا تدور تلك المعركة الطاحنة المشؤمة ، وكثيرا ما تقضى على ذلك النذير الضعيف ، فيقتلانه عمدا وهو فلذة كبدهما ، وقطعة من حشاشتهما ، فياهول المنظر ، ويا لبؤس تلك النفوس ، ويا لو خز الضمير !

وتصور كيف ينقلب النعيم إذ ذاك جحima ، وكيف يتحول ذلك القلب الرحيم شيطانا رجيا ؛ وأي مظهر من مظاهر الشيطان أشنع من أن يبطش المرء بنفسه منقوسة لم تجن ذنبا عليه ولا على غيره فتقتلها ، وتراها صريعة أمام عينها تسألها : ما ذنبى الذى استحققت به بطشك ، ثم تذهب الى ربها بريئة مظلومة ، تشكو اليه ظلم أقرب الناس اليها ، ومن كان طريق اندراجها فى هذه الحياة مكتفية بترديد قول القائل :

هذا جنناه أبى علىّ م وما جنيت علىّ أحد !

وفكر بعد ذلك فى لحظات يقوم ذاك الجانى من نومه مذعورا ، إذ يبدو له شبح جريمته ، ويتمثل له شخص فريسته ، يذكره بما صنع به ، فيشرّد عنه النوم ، ويمزق عنه

لباس الراحة والهدوء، ويطرده عن مخيلته فلا يطرده، ويبعده عن ذاكرته فلا يبتعد —
أفتراه بعد هذا كله تتجه نفسه الى تلك النفس التعسة التي شاطرته هذه الجزية فيحبها
ويتصل بها؟ أم أنه يراها مبعوث الشقاء وأصل الداء، فيصب عليها اللعنات وهي تقابله
بالمثل، فما أشبههما بأهل النار: كلما دخلت أمة لعنت أختها! ومن يكون من أهل
النار اذا لم يكن هذان المجرمان أحق بها وأهلها؟ فلا معنى للشبه هنا، وإنما هما من
عماد أهلها.

هذا اذا قوي على الفتك بمحبتهم وثمره قلبهما، فاذا أدركهما الخور واكتفيا بإبعاده
عنهما، فقد عرّضاه للعار والشنار والاحتقار، وتربى سبة على نفسه وعلى شقيين متواربين
تنزل عليهما اللعنات وهما يستمعان ولا يجرؤان أن يعترضاه على لاعنهما، ولا أن
يقتصا لأنفسهما؛ كلا، بل لا يقدران على التظلم والشكوى. وقد بريانه ويعرفانه
كما يعرفان أبناءهما، ولكنهما يفران منه أشد الفرار.

تأمل هذا، وما خفي فهو أعظم، وقارنه بما تقرأه في قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)
فجعل الصلة بين الزوجين وما تضمنت من أسباب السعادة آية من آيات الله، إذ
ضمنت حكمة أنها من أنفسهم، وأنها تطمئن إليها النفوس وتسكن الخواطر، وبزول
عن المعيشة أسباب الاضطراب والتقلقل؛ وقد حفهما جل شأنه بشعار المودة
والحبة، وقرب بين نفوسهما بالحببة الصادقة الثابتة، وأسدل عليهما ستائر الرحمة
تكتنفهما، فيحوط كل منهما صاحبه بما يحوط به نفسه، ويرى حياته رهن حياته،
وسعادته صنو سعادته، وهنائه قرين هنائه، صدق الله العظيم: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

من هذا يتجلى لك بأعظم وضوح تناسق هذه الآية الكريمة مع ما سبق . يقول تعالى : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ) - النكاح : هو عقد بين الزوجين يحل به الاستمتاع بينهما . وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطاء . وأصله بمعنى الضم ، يقال نكح النعاس عينه إذا أغمضها . والأيامى : جمع أيم ، فقيل أصله أيام على وزن فياعل كما هو قياس جمع فيعل ، فدخله القلب المسكاني ، أى قدمت الميم على الياء وفتحت لتصير ألفا . وقيل وزنه فعالي من أول الأمر ، وهو جمع شاذ ولا قلب فيه . والأيم من لا زوج له ذكر أو أنثى ، سبق له زواج أم لا ، كان خلوه من الزواج بموت أو غيره . وقيل من فقد زوجه بموت أو طلاق ، فلا يقال للبكر أيم . وقيل خاص بالأنثى . واستدل له بما روى : « الأيم أحق بنفسها والبيكر تستأذن » . والمعنى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرار (وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) والمراد بالصلاح الصلاح الشرعى ، وهو القيام بحقوق الله الواجبة عليه : من امتثال أوامره ، واجتناب منهياته . وإنما خص بالصالحين في الأرقاء وأطلق في الأحرار لأن الصالح من الأرقاء هو الذى يستحق أن يطلب من سيده تزويجه ، على ما فيه من تفويت بعض منافع السيد والتزام بعض النفقات . وأما الأيامى من الأحرار فنفقاتهم على أنفسهم ، فالتزويج فى تزويجهم محمول على إطلاقه ، وكثيراً ما يحماهم الزواج على استقامة السير وتعديل العوج . والأمر هنا لمطلق الطلب لا للوجوب ، إذ لم يقل أحد إنه يجب على السيد أن يزوجه عبده ، فلا وجوب فى الثانى اتفاقاً ، فلو حمل الأول على الوجوب لكان اللفظ الواحد مستعملاً فى معنيين متغايرين دفعة واحدة ، وهو مما لا يقول به الكثير من أئمة اللغة . وأيضاً فقد استفاد فى عصره صلى الله عليه وسلم ومن بعده وجود الأيامى بدون نكير . نعم قد يجب فيما إذا تآقت نفسه ، ووجد مثونة النكاح ، وظن الوقوع فى الزنى لو لم يتزوج ، فهذا من الوجوب لعارض . أما إذا لم تتحقق هذه الصفات فقد

يكون مندوبا، كما إذا تافت نفسه ووجد مشقة في زجر نفسه ووجد النفقة؛ وقد يكون مكروها كمن خشي التفريط في بعض ما يجب عليه بالزواج، أو تقويت غرض صحيح تعين عليه القيام به؛ وقد يكون حراما كمن تحقق بالزواج ارتكاب محرم كسرقة نفقته أو تضییع زوجه، أو نحو ذلك؛ وقد يكون مباحا فيما إذا تعادلت المقتضيات والموانع، أو فيمن يقدر على النفقة ولا يجد عنده توقاناً له، ولكنه قادر على القيام بحقوق الزوجة. أما العاجز فقد قيل بكرهه التزوج له، لأنه قد يمسك الزوجة ولا يعفها فربما تعرضت للعصية. وعلى الجملة فاستيفاء الأحكام الشرعية في هذا الباب، وبيان أيهما أفضل: التزوج، أو التخلي للعبادة، موضعه كتب الفقه.

والأمر هنا موجه للأولياء والسادة بالنسبة للأرقاء، أو موجه لجميع الأمة ويكون معنى الأمر بالإكاح الأمر بالمعاونة عليه، والتمكين منه، والتوسط فيه، كأنه أمر للأمة بمجموعها أن تسهل طريق أمر الزواج في بنيتها، وهذا هو الأظهر.

قال تعالى: (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) — سد باب التعلل في تعطيل النكاح، ولا تكاد تجد معطلا للنكاح إلا وهو يتعلل بضيق ذات اليد، فرد عليهم هذا التعلل بأن الغنى والفقر بيد الله، فلا خوف من التزوج، فقد يكون الزواج مدعاة للغنى كما وعد جل شأنه. وإن فيما تجرى به العادة من حث الزوجة زوجها على السعى والعمل، ونفخها فيه روح الهمة والعزيمة، وشعوره من ناحيته بأنه صار مكلفا بغيره ومسئولا عن راحة ومثونه من معه، وأنه على وشك أن يكون له أولاد يتطلبون كلنا كثيرة، وما يملأ قلبه بعد التزوج من النخوة والحمية، واستنكاف التضعضع والانهزام، كل أولئك ينأى به عن الكسل والبطالة، ويدفعه طوعا أو كرها لأن يغامر في سبيل الحياة ويكدح لها كما يكدح أمثاله وهو طريق عادي من طرق تحقيق الله وعده بالنى لمن يتزوج. ولقد كان يلتمس الغنى بالزواج، ويلتمس المجد بالزواج، وتلتمس الاستقامة

بالزواج . ولقد يُضيع الأيم من المال ومن فرص إحراز المال بسبب الانغماس في شهواته الدنيئة مالمو احتفظ به لكان من الموسرين .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَاطِمٌ) تقرير لهذا الوعد الكريم ، فسعة فضل الله لا تضيق برزق هذين بعد اجتماعهما وقد وسعتهما حال افتراقهما ، فلا نفاد لنعمة ، ولا حدّ لقدرة ، وإنما اختيار الوصف « بعليم » دون كريم مثلا — ليبين لنا أن ما يجريه جل شأنه على الزوجين من غنى أو فاقة إنما هو بحسب مشيئته وواسع حكمته ومقتضى علمه ، فهو مدبر الكائنات بعلمه ، ومنظمها بمشيئته ، وسع كل شيء علما . فربما كان من مقتضى حكمته أن يبقيا على فاقتهما ، أو أن يشتد فقرهما ، فلا اعتراض على حكمه ، ولا تعرض لمشيئته ، ولا نقض لما أبرم ، ولا دفع لما حكم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . لا يقال : إن الغنى بالمشيئة للأيم والمزوج ، فما الذى أفادته هذه الآية ؟ لأننا نقول : إذا لا تخش من الزواج فقرا ، ولا تبتعد عنه لهذا السبب فلا يصاح مانعا ، بل إذا جعلته سببا لسعة الرزق على ما فصلناه فذلك صحيح منك ، غاية الأمر أنك لا تغالى فى سببيته وتجعله وحده الكفيل يجلب الرزق ، فإن ذلك منوط بعلمه تعالى وحكمته ، فاسلك سبيل العمل المتقن ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا فرق بين عمل الدنيا وعمل الآخرة .

وإذ كان تسبب الغنى عن الزواج هو بهذه المثابة من أنه مظنة لمن سلك سبيله لا أنه من الموصل جزما ، فلا تعارض بين الآية وبين قوله تعالى : (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ) فلكل حالة حكمها فى علم الله تعالى ومشيئته ، ويتبين أيضا حسن موقع قوله تعالى : (وَلَيْسَتَعَفُوفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فإنها لدفع غرور من يتوهم أن هذا هو الباب المضمون للوعود به الوعد الجازم ، كلاً فذلك إنما هو المظنة ، أو على الأقل إزاحة التعلل به فى طريق إيقاع الزواج لمن يجد أصل المكنة .

ومعنى وليستعفف : ليطالب العفة بالعمل على ما يحققها : من ضبط النفس ، وحفظ الجوارح والحواس عن الاسترسال في طريق الشهوات ، ومنعها من الاشتغال بتذكر تلك اللذات ؛ وقد جاء « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى من وجد ما يقدر به على تحصيل المستمتع فليتزوج فإنه أحسن لدينه ، ومن عجز عن وجدان وسائله فليقطع عنه شواغل الشهوة بالصوم ، فإنه بتواليه مضاعف لهذه الشهوة التي لا يثيرها إلا الامتلاء . ومعنى « لا يجدون نكاحا » لا يجدون وسائله الموصلة اليه ، فعبر بعدم وجدانه وأراد عدم وجدان الوسائل الموصلة اليه .

وقوله : (حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فيه وعد لمن كف عما يجب امتثالا لأمر ربه أن يمكنه الله من نيله متى صدقت نيته ، وذلك من فضله لمن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ومن هنا أخذ بعض الفقهاء أن الاشتغال بالعبادة لمن تاقته نفسه للزواج ولم يجد ما ينفقه ، أفضل . ورأى بعضهم أن الكد لتحصيل أقل ما يلزم للزواج أفضل . وليس هذا محل استيفائه .

هذا وليس من الاستعفاف المطالب في الآية ما يفعله بعض الحمقى من استعمال أدوية تزيد عنهم هذه القوة ، فذلك غير جائز ؛ وقد تزول الأسباب الداعية اليه فيحاول عودة ما ذهب فلا يجد اليه سبيلا .

قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَا تَبُوهُمْ إِنَّا عَلَّمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) .

تقدم في الآية السابقة الأمر بتزويج الأيى الأحرار ، والصالحين من العباد والإماء ، وجاء في تلوها ما يفيد أن الله تكفل لهم بالغنى ، وشرحنا في وجه ذلك الأسباب العادية التي تصل بالمرء متى سلكها سلوكا صحيحا الى باب الغنى وسعة الرزق ،

وهذا أمر خاص بالأحرار جزما ، ومسدود في وجوه الأرقاء ، إذ العبد وما ملكت يدها لسيده ، فهو ما دام رقيقا لا سبيل له إلى الغنى ، ولكن تلك الأسباب التي قدمناها : من حفز الهمة ، وإحياء الشعور ، وتقوية العزيمة ، واستنهاض المواهب الكامنة في النفس ، أمر لا يخص الأحرار وحدهم ، بل مثلهم في ذلك الأرقاء ، فالناس متساوون في أصل الخلقة ، وما كانت الظروف التي قضت على واحد أن يكون رقيقا لتغير من جبايته ولا أصل خلقتة ، فلماذا تعطل في العبد مواهب قد تكون ذات أثر محمود ؟

إن الشريعة التي جاءت لإصلاح شؤون البشر عامة ما كانت تهمل هذا القانون الإلهي في خلقة البشر ، وما كانت تنزله سنة الله في خلقه ، بل تؤيدها وتنميها ، ولكن هل معنى ذلك أن يجبر السيد على ترك حقه في رقة العبد بلا مقابل لأنه زوجه ، فيكون قد جنى على نفسه بتزويجه إياه ؟ كلا لا شيء من ذلك ، إنما هو العدل في المعاملة ، والفضل في المعاشرة ، والإحسان في العمل ، وبين العدل والفضل والإحسان لا يضيع حق ولا تهمل مواهب . فأيها السادة ! ستجدون في بعض عبيدكم من تتوسمون فيهم الخير ، وترون أنفسهم تتحضر لأرقى مما هم فيه ، فيدفع بهم انتفاعا أوسع ، فيطلبون منكم أن يشتروا أنفسهم منكم بمال تمكنونهم من جمعه ، فمُطلقون أيديهم في الكسب مع امتلاك رقابهم — وأكثير ما يكون ذلك إذا شعر العبد بنوع سيادة ، وذلك عند تزوجه ، أو شعرت الأمة بنوع استقلال في الحياة عند تزوجها ، ولعل هذا هو السر في الإتيان بالآية الكريمة المتعلقة بأمر الكتابة بين هذه الآي المتعلقة بأمر الأبضاع — فإذا وجدتم فيهم ذلك وجاءكم مما ملكت أيما نكم من يبتغي الكتاب منكم ، فكتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . والكتاب والمكاتبة : مصدر كاتبه إذا عقد بينه وبين عبده ذلك العقد ، وهو أن يتعاقدا على أن يؤدي له مالا فيعتقه على هذا المال ، فقد ضمن للسيد عوضا عن ملك يده ، وهو ما يؤدي إليه . وإفترض

أنه باعه وضمن للعبد خلوص رقبته من الرق متى جدّ في الاكتساب حتى حصل ما يطلب منه .

ولحرص الشارع الحكيم على تحرير الرقاب أمر أن يعطى المكاتب ما لا يستعين به على أداء ما عليه ليحرر رقبته . والتعبير عنه بمال الله لتقرير الباعث على الامتثال ، أى فذلك مال الله ، وهو الذى رزقكم إياه ، وقد طلب اليكم أن تؤتوا بعضا منه شكرا له على إيتائه إياكم كله . وهل لو أنعمت على واحد بمائة وطلبت اليه أن يعطى فلانا منها عشرة ، يسهه أن يتأخر عنك ؟ هذا في إعطائك وهو إعطاء مجازى ، فكيف بأمر من له النعمة والفضل ، وهو وحده المعطى الوهاب ؟

والآية لتقرير حكم المكاتبه كما علمت ، وقد اتفق على طلبها ، واختلاف في وجوبها إذا طلبها العبد وكان أهلا للوفاء في نظر السيد . والأمر بالإيتاء في قوله : (وَأَتَوْعْمَ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) قيل موجه للسادة فيجب على السيد أن يحطّ عن عبده شيئا من المال المتفق عليه ، فقيل : الربع ؛ وقيل : العشر ؛ وقيل غير ذلك ؛ وقيل موجه لجماعة المسلمين ، أى عاونوا المكاتبين على تحصيل مال المكاتبه تحقيقا لمراد الشارع من تحرير الرقاب ؛ وقد فرض لهم نصيب في الصدقات في قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ) .

ومعنى «إن علمتم فيهم خيرا» أى أمانة وقدرة على أداء ما كاتبتموهم عليه . وللفقهاء كلام في وجوبها حينئذ أو نذبا ، وفي وجوب تنجيمها أى تأجيلها على نجوم وأقساط ، أو جواز تعجيلها ، وفي وجوب حطّ شيء عنهم من مال الكتابة أو عدم وجوبه ، وليس هنا محل استقصائه .

قال تعالى : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) .

هذا كلام عن حال كانت ذائعة في الجاهلية وحصلت في الإسلام ، ولكن على يد

من ادعى الإسلام وهو منه براء، ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين . وقيل حصلت من اثنين أحدهما هو . وتلك الحال كانت في نظرهم من فروع العلاقات بين السيد وما ملكت يمينه ، وهي عائدة على أمر ملك اليمين مما يرجع الى التصرف في الأضباع وهي أشنع ما كانوا يعملون في هذا الباب . فلما قرر أمر تزويج الصالحين من العباد والإماء ، وأتبعه بأمرهم بالإفضال على الأرقاء بالعتق ولو في مقابلة المال اذا أنسوا منهم الخير ، وذلك يكون غالباً عقب زواجهم ، وإن كان الحكم فيه أعم ، أردف ذلك بالزجر عن تلك العادة القبيحة التي كانت موجودة في الجاهلية وتسربت بعض تسرب الى جماعة ممن انتسب الى الإسلام ، فعبر في النهي عنها بعبارة تبرزها في أشنع صورة وأقبحها وأبعدها عن الذوق الصحيح والطبع السليم ، فقال : (وَلَا تُسْكِرْهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) . روى أن عبد الله بن أبي — قيل : وآخر — كان له إماء يكرهن على البغاء ابتغاء أخذ الأجر على عهرهن ، وابتغاء امتلاك من يلدن من هذا السفاح ، فلما نزل تحريم الزنى امتنعت إحداهن فضرها فشكت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لأبي بكر ، فأبلغ شكواها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية . وروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر بقبضها إليه فقبضها ، فصاح ابن أبي : من يعذرنا من محمد (صلى الله عليه وسلم) يغلبنا على مما يسكننا ، فنزلت الآية .

وترى في أسلوب الآية ضرباً من التشنيع على سوء فعلهم ، فقد نهاهم عن الإكراه والإكراه أكبر شناعة من الإباحة لهم ومن أمرهن ، وعبر عنهم بالفتيات وهن في هذه السن أميل للفجور ، وأبعد عن تقدير محاسن الأمور ، وأضافن إليهم ، وإن من عنده أدنى ذرة من مروءة ونخوة لا يرضى أن يس هذا الفحش أحداً ممن يحويه بيته ، فكيف يأمر به ويكره عليه ؟ والتعبير بالبغاء الذي هو زنى النساء خاصة — لمزيد الشناعة ، فلا يدعو أحد امرأة تنتسب إليه لأن ترني بغيره إلا اذا عدم حاسة الشرف بالكلية .

وقوله: (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصَّنًا) أكبر وأعظم في التشنيع، فإذا كنَّ هنَّ وهنَّ نساء ناقصات لا يقدرن الشرف والمروءة والغيرة قدرها، وفي سن الشباب حيث تشتعل الشهوة ويهيمن الطيش على الجوارح، قد أردن التحصن، فكيف بكم وأنتم رجال تزعمون أن لكم مجدا وكرامة، تكونون أنقص منهم، وليس بعائد عليكم شيء مما يشعرون به من لذة ضحيتها وأعرضن عنها! وفي التعبير عن رغبتهن بالإرادة التي هي الميل المصمم الجازم مزيد تنويه بمسلكهن. ثم في كلمة التحصن مغزى دقيق، وهو إبرازهن بصورة من يجعلنكم حصنا لهن يدرأن به عن نفوسهن العوادي، فهل يكون حصنهن هو الذي يجني عليهن ويسلمهن لما يكرهنه! وهو استفزاز للنخوة والحمية لا تجده في التعبير بدلها بكلمة «تعقفا» مثلا. ثم قوله بمد ذلك: (لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ) كشف للقناع عن غايتهم من التدهور في هذه المخازي، وذلك أخس غاية وأحقر غرض. وهل يبلغ امرؤ بالقدح في آخر أ كثر من أن يقول عنه: إنه قواد ليأخذ دريهمات؟ ففي التنصيص على غرضه من تلك السوأي أكبر تقييح وتعبير فطيع. وإذا قد علمت أن الآية مسوقة للنهي عليهم، وتقييح فعلتهم، والمبالغة في تفتيح مسلكهم، وتصويرهم بأشنع الصورة، علمت فساد ما يتوهم من أن الآية خصت النهي عن الإكراه بحالة ما إذا أردن تحصنا. فلو كان مفهوم المخالفة معمولا به لاقتضت قصر النهي على هذه الحال؛ وذلك لأن من يقول بمفهوم المخالفة يخصه بما إذا لم يكن للقيد المذكور فائدة إلا إخراج الصورة التي فقد فيها القيد عن الحكم، أما إذا كان للقيد فائدة كما هنا وهي مزيد التشنيع على عملهم، فلا يعمل بمفهوم المخالفة.

ومعنى مفهوم المخالفة أن يأتي المتكلم بحكم يقيده بحالة، فيكون من ليس فيه هذه الحالة خارجا عن الحكم، كما إذا أعطيت مالا لأحد ليتصدق به على الفقراء، وقلت له على المرضي منهم، فليس له أن يعطى فقيرا سليما. وللمسألة مزيد بسط في كتب الأصول.

ومحصل معنى الآية : أبها السادة الرجال ، المالكون لرقاب العبيد والإماء ، كيف قبلت نفوسكم أن تقبلوا ذلك العار الكبير والدنس العظيم على من تحويه بيوتكم ويخالط نساءكم ، ولا تنفروا منه ، مع نفرة أولئك الضعاف الأذلاء المحقورين منه ، على صغر نفوسهن وصغر سنهن ؟ ثم هل تقبلون هذه المخازي من أجل عرض الحياة الدنيا والعرض ظل زائل ومتاع ذاهب ! بل هذه الحياة دنيا بالقياس الى الحياة الحقيقية العليا ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان .

(وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فالوبال بعد هذا الإكراه قد حاق بالمكروهين ، وسلم من شره أولئك المكرهات ، فقد باءوا بإثمهن ونجوت من سوء فعلهن ، فالتقدير : غفور رحيم لهن لا لهم . ولما كان هذا المقدر ظاهرا واضحا ، وهو « لهن لا لهم » استغنى عن ذكر الضمير العائد من جملة الجزاء ، وهى جملة « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » على اسم الشرط وهو مَنْ فى قوله : « ومن يكرههن » . ويرى بعضهم أن هذا ليس جواب الشرط ، بل الجواب محذوف والمذكور علة له دالة عليه ، والتقدير : ومن يكرههن فقد باء وحده بإثمهن ونجوت من العذاب ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم . وقيل للجميع بعد التوبة . وتعليق المغفرة والرحمة بالإكراه فى قوله : « من بعد إكراههن » حيث لم يكتف بقوله : « ومن يكرههن » لدعوة أولئك الفتيات الى التمسك بما أردن ، وألا يقعن فيما أكرهن عليه إلا كارهات ، وذلك أنهن عرضة للميل أثناء هذا الفجور الى مطاوعة الرغبة البشرية .

هذا والإكراه فى الزنى متصور فى المرأة قطعا ، وأما فى الرجل فتد قالوا لا يتصور وقوع الزنى من الرجل إلا عن اتجاه رغبة ، والإكراه لا يحرك من نفسه تلك الداعية التى يقوى بها على الزنى .

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) أى والله لقد أنزل إلينا آيات مبينات ، والآية هي العلامة فكل آية نزلت فهي ناطقة بأنها تنزيل من حكيم حميد ، شهادة بصدق من بلغها وهو الرسول الكريم ، متضمنة من المنافع والإرشاد ما يدعو سامعها الى أخذها بقباب سليم ، فهي آيات ، وهي بينة واضحة ، وهي مبينة للمصالح والأحكام . فلفظ مبيّنات إما مأخوذ من بيّن اللازم بمعنى تبين ، كقولهم : قد بيّن الصبح لذي عينين ، وإما من بيّن المتمدى لأنها بينت لنا الحدود والأحكام ، وأنارت لنا طريق السعادة في الحياتين ، وهدتنا إلى مآلوا اتباعه حتى اتباعه لعشنا في أسرنا وفي جيراننا ومعاشرينا وأمتنا أهناً معيشة ، وحيينا أهدأ حياة ، فلقد بينت الآيات السابقة أحكام الحياة البيئية ، والعشرة بين الناس وحدودها على أكل وجه وأجله .

وقوله : (وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ) — المثل القصة العجيبة التي تماثل غيرها ، وذلك متجلى في آيات الإفك السابقة ، فإنها تماثل ما حصل ليوسف عليه السلام إذ رمت امرأه العزيز بتلك الخيانة الشنيعة ، فبرأه الله ، وكان فضل الله عليه عظيماً ، فقد رمت به بأنه خان من اشتراه ومن هو في بيته ؛ ودعوى النساء في مثل هذا يكاد يصدقها الناس بمجرد ادعائها : لا يطلبون عليها بيعة ولا شهوداً . وكذلك تماثل ما حصل لمريم عليها السلام حين جاءت به قومها تحمله ، فقالوا ما قالوا ، ورموها بالإفك حتى رآها الله تعالى وكانت من القاتنين .

وقوله : (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) هي ما تجلّى في تضاعيف تلك الأحكام من الحكم البالغة والآداب الجملة . أجل : لقد من الله علينا بهذه الآيات والأمثال والمواعظ ، وذكرها امتناناً ليعين مقدار النعمة فيها ، وأكد ذلك بالقسم في قوله : (واتقوا) فاللام لام القسم ، كل ذلك لنعرف قدر نعمته ، فنقوم له بحق شكرها . نسأله تعال قدرته أن يوفقنا لواجب الشكر ، فالأمر منه واليه ، وهو نعم المولى ونعم النصير : ما

ابراهيم الجبالي

السُّنَّةُ

سُنة النبي محمد ﷺ

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) رواه البخارى . وفى رواية (قَالُوا : أَى الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ) .

ما أكثر ما يدعى الانسان ما ليس فيه ، ويظهر بغير ما يبطن ! بل ما أكثر ما يخدع المرء نفسه فيزعم لها ما لم تتحقق به على الوجه الأتم ، فيرضى عنها وهي ليست أهلا للرضا ، ومن رضى عن نفسه كثر الساخطون عليه ؛ وإن أكثر ما يصاب الناس بذلك من اكتفائهم بالمراسم والحدود الشكلية ، وغفلتهم عن مراقبة بواطنهم ، وامتحان سرائرهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والصحيح من الزائف ، قال تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) وما كان الله بحاجة فى العلم الى الابتلاء ، وما كان علمه حادنا عن جهالة ، حاش لله ! وإنما هو أنه يتبين الأمر لذى عينين ، فلا يخدع امرؤ نفسه ، ولا يبتغى لخدوع أو خادع حجة . ومثل ذلك قوله تعالى : (أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آتَيْنَاهُمُ لَآ يُفْتَنُونَ) أى فما كانت دعوى الإيمان وحدها مقبولة حتى تؤتى ثمرها ، وتستتبع أثرها ، وهذا إنما يكون فى حال المحنة واشتداد الفتنة ، كما يقول القائل :

إذا اشتبكت دموع في حدود تبيين من بكى ممن تباكى

ولقد عرفت أركان الاسلام ، وأصول الايمان ، ومراتب الاحسان ، في شرح الحديث الذى سبق المجلة شرحه ؛ وتبين من حديث بعده ما كان يتوخاه صلى الله عليه وسلم في أمر المسلمين بالأعمال : من أنه لا يعمد الى العنت والمشقة ، ولا يخرج بهم عن حدود الطاقة ، فإن الأعمال يقصد منها تهذيب النفوس وتربيتها ، لتبلغ في الكمال والفضيلة المرتبة اللائقة بها .

وإن هذا الحديث الذى سقناه باب من أبواب الامتحان واختبار النفس في قولها : « أسلمت وجهي لله رب العالمين » أى تركت هوى نفسى وميولى وما أحب ، وجعلت ذلك كله تابعا لمرضاة الله الذى أسلمت له وجهي وذاتى ؛ وإن رضاه أحب الى من والدى وولدى ومن نفسى التى بين جنبي . اذا تم للمسلم ذلك فقد تم له أنه أسلم وجهه لله رب العالمين إسلاما صادقا لا مواربة فيه ولا خداع .

وإن من أجلى مظاهر ذلك ضبط نفسه حين يثور غضبها ، وتمسكها الفرصة من البطش بخصمها ، وتستطيع إزال الأذى به وهو غير قادر على دفعها . فاذا استطاع المسلم ضبط نفسه في هذه الحال حقيقة ، فقد أتى إسلامه ثمره ، واستتبع أثره ، وصح أن يوصف بأنه مسلم حقا . فالسلم الذى أثمر الاسلام في نفسه وأتبع ، هو من ملك الاسلام عليه جوارحه ، وقيّد بأحكامه تصرفاته . هو من لا يطاوع نزعات نفسه ، ووساوس شيطانه ، وثوران غضبه ، بل يطرح كل ذلك تحت قدميه ، ويقول : قد أسلمت نفسى وقواى لسيدى ومولاي ، لله رب العالمين ، فلا أتصرف فيها إلا بما يرضى مالئكمها ، وقد كبحتى وزجرنى ونهائى أن أقترف مع مسلم أذى ، فاذا لم أقف عند حدود أمره ونهيه فما أنا بإصديق في دعواى أنى أسلمت نفسى له .

على هذا تعرف أن ما أفادته المجلة من حصر المسلم فيمن هذه صفته وإفادتها نقي الاسلام عن لم يتحقق بهذه الصفة ، هو من باب الحكم بتنى الحقيقة التى تنتج ثمرتها

المقصودة منها. وأمثال ذلك في الكلام الفصيح كثير — تقول: ليس برجل من لم يدفع الضيم عمن التجأ إليه، وليس بعالم من لم يعمل بعلمه، وليس بابن من لم يحم بواجب برى وليس بمسلم من لم يكفّ أذى عن المسلمين، وليس من الأسرة من يسعى في ضرر أفرادها، وهلم جرا. وعلى هذا لا يقال: هل من آذى المسلم يكفر؟ ولا يقال: هل من سلم المسلمون من لسانه ويده ولو لم يأت بأركان الإسلام يعدّ مسلماً؟ لا يقال هذا ولا ذلك، لأن الكلام ليس في تحديد معنى المسلم وبين الضابط الذي يجمع أفراده ويستوفي ماهيته ويخرج ما عداه، كلاً، بل المعنى: أيها المسلمون! إن بكم أن تحتبروا نفوسكم وتهموها فيما قد تلبس عليكم فيه، وذلك بأن ترقبوها حين يتعارض هواها مع رضا ربها وأخص ذلك حال الغضب وثوران النفس مع إمكان القدرة على الأذى، فإن وجدتموها كفت عن شرها وكظمت غيظها ابتغاء مرضاة ربها، فقد سامت لها دعواها، فاشكروا لله نعمته؛ وإن رأيتموها تبادت في الطغيان ومتابعة الشيطان، فتنهوا لما أصابكم في أعز ما تفقدون، فالدين المعاملة، والصلاة عادة، والصوم جلادة، فلا تنقضوا بمجرد ذلك حتى يكون هوى نفوسكم تابعاً لما جاء به نبيكم.

والى هذا ينحو ما جاء في الرواية الأخرى، وهي سؤال «أى الإسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده» فكانتا الحالتين حالة إسلام، ولكن هذا إسلام أثمر وهذا إسلام أخف وأجذب، ولا يسوى بين المشر والمخلف. والسلامة من اللسان هي السلامة من الهمز، والاستهزاء، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وغير ذلك من المضار التي قد تأتى على الحرث والنسل، وتهلك النفوس، وتخرب البيوت.

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فرب كلة أهلكت قبيلة، ودمرت مدينة، بل رب كلة أفسدت ملكاً كبيراً. وبهذا يتبين سر تقديم اللسان على اليد، فخطره أشد، والتحذير منه أكد. والسلامة

من اليد يدخل فيها السلامة من القتل، والسرقه، والنهب، والضرب، وأمثالها .
وعلى العموم فإن أنواع الأذى قد تعورف فيها أنها دائرة بين القولى والفعلى، ومظهر
القولى غالبا اللسان وإن جرت به اليد، كالكتابة والإشارة، ومثابها العين فى إشاراتها
وغمزاتها؛ ومظهر الفعلى غالبا اليد، فهى مظهر القدرة عادة، وإن جرت الأذى
الفعلية فى بعض الأحيان بغيرها، كالركل بالرجل . ومن الأذى الفعلى استيلاء
اليد المعنوية، كغصب الدور والعقار، بمظهر القوة بلا استعمال يد، بل بنحو إصدار
أمر لا تباعه؛ وأمثال ذلك، فذلك كله من الأذى الفعلى الداخلى فى قوله: «ويده» .

والتعبير بالمسلمين ليس بقيد، بل مثاهم المسلمات، ومثاهم الكتائبون الذين لهم
مالنا وعليهم ما علينا، إنما التعبير به لأنه الغالب الذى يعتبر مظهرا لتأثير الاسلام
فى تربية النفس وتهذيبها، وتعويدها الضبط على مقتضى أحكام الدين . ومن كف عن
أذى المسلمين الذين تكثر المعاملة معهم عادة - وهى مدعاة التعديات - وكان كفّه
امتنالا لحكم إسلامه، فهو كاف أيضا عن غيرهم، حيث نهاه دينه عن أذاهم . والمراد
الأذى بغير حق، فليس من الأذى المنهى عنه إقامة الحدود والتعزيرات، فهى نفع
وإرشاد لا أذى .

قال صلى الله عليه وسلم: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) .

لقد كان للهجرة فى صدر الاسلام مقام رفيع عظيم الخطر، وكانت عنوان
شرف ومجد لمن هاجر من المسلمين، نود بها القرآن الكريم فى غير ما آية . فلما فتحت
مكة وأمن الناس فى ديارهم على الاستمسائك بدينهم، لم يبق موجب لتحصيلها، فخرج
لذلك المسلمون الذين فاتهم تحصيل هذه الفضيلة فى وقتها، فجاءت هذه الجملة الجامعة
مبينة أن الفضل فى الحقيقة ليس راجعا الى مغادرة مكان الى مكان، وإنما المقصد الحقيقى

هو الفرار من الافتتان، والهرب من الوقوع في مغالب الشيطان، بمعاشرة من تغلب
فيهم الكفر والعصيان، فلا يزال هذا الباب بحسب سره ومقصده الحقيقي مفتوحاً،
وإن فات مظهره المحسوس، فالمسلم في كل حالاته عرضة لفطنة الشيطان، ووسوسة
النفس، ومنازعة الهوى، وكل هذه جنود سوء تحاول أن تستولى عليه حتى تقسد
عليه دينه، فمن انتزع نفسه من تلك الجنود المحيطة به تحاول أن ترديه وتهلكه، وفرّ
منها إلى ربه، فمجد هجر ما أحاط به مما ألفه ألفه المرء لوطنه وخلانه. وهل ترى فرقاً بين
انتزاع المرء نفسه من هوى متغلب عليه ونفس متسلطة وشيطان متحكم، وبين انتزاع
جسمه من الأوطان والأتراب والخلان؟ إن المجاهدة هي المجاهدة، والمشقة في الحالين
واحدة، والمقصود الحقيقي هو السعي لسلامة النفس مما يوقعها في غضب الله وسخطه.
وأصل المهاجرة من الهجر، وهو الترك، فهي إما على غير بابها، لأن الهجر من
جانبه وحده، وإما مفاعلة من الجانبين، كأن وطنه وخلانه ومعاشرته قد هجروه كما هجرهم
أو قد هجرهم هجراً يحماهم على أن يقابلوه بهجر مثله. وكذلك فيما معنا هنا قد هجر دواعي
هواه وبواعث شهواته هجراً قطع فيه كل سبب يوصل ما بينه وبينها، حتى كأنه حمل
تلك البواعث على أن تغادره وتقطع صلتها به كما قطع صلاته بها.

إخالك بعد أن تنعم النظر فيما جاوناه لك من محاسن هذا الحديث الشريف قد
تجلى لك ما فيه من جوامع الحكم ولوامع الهدى. نسأله تعالى أن يحقق نفوسنا بهداه
وأن يجعلنا ممن اتخذ إليه هواه — إنه سميع مجيب؛

ابراهيم الجبالي

حديث

ما من مولود الا يولد على الفطرة

جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع :

سيدي الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الرمهي .

السلام عليكم ورحمة الله - لم يسبق لي شرف التعرف بكم، ولكن سبق لي كثيرا الانتفاع بآثاركم وبعلمكم الغزير واطلاعكم الشامل في ذلك الموضوع الذي يهمني كثيرا، وكذلك كل من يعنى من أساتذة علم النفس بمعرفة إحساسات الطفل . وأملى كبير أن أجد روح الدين الاسلامي في الخلقة وفي طبيعة البشر حينما أمتدى بواسطة جوا بكم الشافي الى أن الاستعداد الموجود في الطفل يتفق كليا أو جزئيا مع تعاليم الاسلام الحنيف . لذلك أرجو التكرم ببيان هذا الحديث (كل ابن آدم يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) من غير أن يذكر الحديث « أو يسلمانه » . فمنطوق الحديث يفيد أن الاسلام أصل وطبيعة وأن ما عداه طارئ، فما وجه ذلك وما سره ؟ أرجو أن تبينوا ذلك بيانا شافيا يتفق وما نعرفه من علم النفس مما تهدي إليه التجربة وترشده للمشاهدة .

ثانيا : ما المراد بالفطرة هنا : هل الفطرة هي الاسلام أم هي الاستعداد لقبوله ؟
ثالثا : أجرد أن الانسان إنسان أو ابن آدم كاف في أن يعرف الاسلام بحيث لو نشأ في شاق جيل - كاصطلاح الفقهاء - أو بعيدا عن كل تعاليم، أمكنه أن يتوصل

الى دين والى دين هو الاسلام بنوع خاص ؟ أو أنه لا بد من التعاليم والتهذيب ، وإذا
يكون الدين أو الخلق من تأثير الوسط وتأثير الجماعة ؟

أرجو أن تفيض فى الموضوع بما يشفى الغليل ، حتى يلتقى البحث العملى بالبحث
الدينى ، ويصدق الأول الثانى أو يهدى الثانى الأول . وإنى منتظر جواب فضيلتكم

ابراهيم سلامه

مفتش بالمعارف وعضو بعثتها بفرنسا

الجواب

مصر : -

إن هناك أموراً بدھية لا يختلف فيها الصغير والكبير ، فهى عند الطفل كما هى
عند الرجل ، وإن ما جاء به الاسلام من وجود الصانع ووحدته وعدم مماثلته خلقه
هو من وادى هذه البدھيات التى توجد فى كل فطرة إنسانية ، وليس المراد تفاصيل
الشريعة ، بل المراد الأصل الأصيل الذى يتحقق به الاسلام . ولنيين هذا الإجمال
فتمول : إن الطفل لديه علوم ضرورية غرسها الله فى فطرته لحكمة كبرى .

ولتذكر لذلك أمثلة :

(١) فمن ذلك أنه يدرك بالفطرة أن الجزء أقل من الكل ؛ ولذلك إذا أعطيته
نصف تفاحة مثلاً فبكى فأعطيته النصف الثانى ، سكنت ورضى ، وما ذاك إلا لكونه
يعلم علماً فطرياً أن الجزء أقل من الكل ، وأن الكل أعظم من الجزء ، وإن لم ينتبه
لذلك تنبهاً فكرياً ، ولا يمكنه الإفصاح عنه ، فإن البدھيات مركوزة فى الفطرة فلا
تحتاج الى عمل من العقل ولا حركة من الفكر ، فلذلك تصدر منه هذه الأشياء فى حين
أنه لا يعرف تحديدها .

(٢) ومن ذلك علمه بأن النقيضين لا يجتمعان ، ولذلك تراه يبكي إذا رأى حيوانا أو طفلا دخل البيت لا يحب وجوده فيه ، فإذا أخرجت الحيوان أو الطفل سكنت واطمأن ، وما ذاك إلا لسكونه يعلم علما فطريا أن الحيوان أو الطفل لا يكون داخل البيت وخارجه في وقت واحد ، فالعلم إذاً بأن النقيضين لا يجتمعان ، أو نقول بعبارة أخرى : ان الشيء لا يوجد في مكانين في آن واحد ، هو علم بدهي مركزوز في فطرة الطفل غير محتاج الى نظر وفكر .

(٣) ومن ذلك اذا أمرته مداعبا أن يأتي بشيء من نافذة مثلا وهو قصير لا يصل إليه ، قال لك بلسان حاله أو مقالة : إنه لا يدركه ، أو طالب منك شيئا يطول به ككرسي مثلا ، وذلك مبني على إدراك فطري هو الفرق بين الطويل والقصير .

(٤) ومن ذلك أنك إذا قلت له : هات كذا ، ذهب مسرعا إليه ، فكأنه يعلم أن المسافات المحدودة ذات النهاية تقطع بالعدو ، وأن الذي لا يقطع إنما هو غير المنتهى .

(٥) ومن ذلك تفرقه بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، فإنك إذا أخبرته بشيء تريد أن تخدعه ، فتراه لا ينخدع ولا يسارع الى التصديق ، فإذا أخبره شخص آخر بذلك وتضافرت لديه القرائن على صدق الخبر ، قبل وصدق ، وما ذاك إلا لتفرقه بين الصدق والكذب ، والحق والباطل ، فهو يسكن الى الحق دون الباطل ، والى الصدق دون الكذب .

(٦) ومن ذلك علمه أن الحوادث لا تكون إلا في زمان ، فإذا أخبرته بشيء قال لك : متى كان هذا ؟ وإن قلت له : لم قلت هذا ؟ قال لك : متى قلته ؟ علما منه بأن الحوادث لا بد لها من وقت تقع فيه .

(٧) ومن ذلك أنه يعرف أن للأشياء طبائع وحقائق تقف عندها ولا تتجاوزها ، فتراه إذا رأى شيئا لا يعرفه قال : أى شيء هذا ؟ فإذا عرفته به سكن واطمأن وفرح بذلك .

(٨) ومن ذلك علمه بأنه لا يكون فعل بلا فاعل ، فإنه إذا رأى شيئاً مع طفل آخر قال له : من أعطاك هذا ؟ وإذا ضرب به شخص من ورأه التفت : فهماً منه أن الفعل لا يكون بغير فاعل ، وأن الأثر لا يوجد بدون مؤثر .

(٩) ومنها إدراكه أن هناك أشياء قبيحة وأشياء حسنة ، وأن ما يعود على النفس بالثناء والمدح ينبغي فعله ، وما يعود عليها بالنقص والذم ينبغي تركه ، ولذلك تشجع الأطفال وتثار فيهم رغبة فعل الحسن بمدحهم والثناء عليهم ، وينفرون من فعل القبيح بذم من يفعله وتهجينه عندهم .

فهذا كله ونظائره مشاهد في الأطفال من أول نشأتهم ؛ وهذه الأشياء الفطرية كلها صحيحة مركوزة في أفراد النوع الانساني صغيرهم وكبيرهم ؛ ولا يشك أحد في شيء منها ، إلا من أصيب عقله بأفة غيّرت فطرته . وقد قال بعض الحكماء : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصير غير إنسان » وفساد الانسانية إنما هو بفساد هذه الفطرة .

المقصود :

إذا تمهد هذا فاعلم أن الاعتراف بالصانع وتوحيده هو من تلك الأمور الفطرية فإنه راجع الى أن الأثر لا يوجد بدون مؤثر ، وأن الفعل لا يحدث بدون فاعل ؛ وهو مركوز في نفس الطفل كما بينا . فالاسلام يقول للناس : آمنوا بأن لكم إلهاً واحداً عظيماً ، ويستدل على ذلك بهذا الدليل الفطري ، فيقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَلْخَالِقُونَ) فهذا أنت ذا ترى هذا الدليل فطرياً يعرفه كل أحد ، فإن وجود الأثر بدون مؤثر محال في إدراك الفطر الانسانية ، حتى عند الطفل كما شرحنا (وكذلك يستحيل عندها وجود النظام بدون منظم) كما أن إيجاد الانسان نفسه محال في الفطر ، فإن الصانع لا بد أن يكون متقدماً على صنعيته ، ولا يصح في بداهة العقول أن يتقدم على نفسه .

ثم نقول : إن من تلك العلوم الفطرية أيضا أن المثليين لا بد أن يثبت لأحدهما ما ثبت للآخر ، وإلا لم يكونا مثليين ، وبذلك العلم الفطري .

نقول : إن الله تعالى مخالف لنا ، لأنه لو مائلنا لكان حادثا مثلنا ، وعاجزا مثلنا ، ومتغيرا مثلنا ، وفانياً مثلنا ، إلى آخر ضروب المماثلات ؛ وهو دليل واضح لا يحتاج إلى كبير تأمل ، لأنه راجع إلى ما هو مركز في الفطر من أن ما ثبت لأحد المثليين ثابت للآخر . فهذا هو ما جاء به الاسلام في أبسط تعاليمه وأول أصوله . وقد علمت أن الفطرة تشهد له وتنطق به ، إلا أن تصاب بأفة تغيّرها عن خلقها فتتحرف بها عن الجادة ، وتميل بها إلى منعرجات الطريق ، وماتويات الشعاب ، وسحيقات الأودية . وتلاحظ أن الفطرة الانسانية في غاية الصفاء والطافة ، فلاجل لطافتها المتناهية ، واستعدادها الواسع ، وقابليتها غير المحدودة بمقتضى إنسانيتها وما أراد الله بها ، لأجل ذلك تراها قابلة للخير والشر ، والنفع والضرر ، والكمال والنقصان ، والكفر والإيمان ، والجهل والعلم ، والضلال والهدى ، إلى آخر المتضادات والمتقابلات . وبهذا صار الانسان قابلاً لأن يكون أرفع المخلوقات على الإطلاق ، وأحطها على الإطلاق . وقلماً يوجد في باقي الحيوانات إلا استعداد محدود ، فلا تراه مبرّزا إلا في شيء واحد بخلاف الانسان . فاذا اشتاقت نفسك أن ترى مخلوقاً يمثل الأسود في سطوتها ، والأرانب في ضعفها ، والعقارب في أذيتها ، والخنازير في دنسها ، والدّب في شهوتها ، فذاك هو الانسان .

فاذا نظرنا إلى الاسلام وجدناه جاء بتلك الأصول التي تشهد لها الفطر قبل فسادها ، والبصيرة قبل انطماسها بسبب وجود الانسان في تلك البيئات الفاسدة ، وهاتيك الأجواء الموبوءة . فاذا وجد الانسان بين أبوين غير مسلمين ، انحرفا به عن الجادة ، وأخرجاه عن حدود الفطرة ، وأبعداه عن حرمها المقدس ، ووضعها الإلهي ،

فنفقشاً في نفسه أن الله يماثل خلقه : فله زوجة أو أم تسمى مريم ، وله ولد يسمى المسيح كما تقول النصارى ، أو عزيزاً كما تقول اليهود ، وأنه يحل في البشر كبقية الأشياء المادية التي يجوز عليها الحلول والاتصال والانفصال ، فهو إذاً كغيره لا محالة ، فإن ما ثبت لأحد المثليين يثبت للآخر (ولذلك أثبتوا له القتل ، والصلاب ، والتحقير والتسمير ، وكل أنواع الإهانة ، على نحو ما يذكره النصارى) وأن اليهود فعلوا ذلك مع إلههم (إله الكل ، ضابط الكل ، خالق الكل ، الى غير ذلك) !

فانظر رعاك الله هل ترى الفطرة السليمة تسلم هذا في رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين ، الذي يجب أن لا يماثله أحد من مخلوقاته ، كيف ولو ماثلاً لكان حادثاً مثلاً (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ولكن الاسلام يقول في وصفه تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويقول نبيه صلى الله عليه وسلم : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) فقل لى بعيشك أى دين من الأديان الثلاثة جاء بما تقتضيه الفطرة قبل أن يفسدها الأيوان وتقضى عليها (الأوساط) الموبوءة ؟ أهو الاسلام ، أم اليهودية والنصرانية !

هذا والحديث مروى في صحيح البخارى في مواضع متعددة ، ولفظه من رواية أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ؟ ثم يقول أبو هريرة : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل خلق الله ذلك الدين القيم » و « جمعاء » في الحديث : معناها تامة الخلق . و « جدعاء » معناها مقطوعة الأذن والأنف . والحديث انتهى عند كلمة « من جدعاء » أما ذكر أبى هريرة للآية فهو استشهاد لما في الحديث .

والفطرة في الحديث وفي الآية المستشهد بها معناها قبولهم للحق واستعدادهم للدين الصحيح متمكنين من إدراكه على وجهه . أو هو الاسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه من سلامة الفطرة لاختاروا الاسلام على غيره من بين الأديان ، لأن نقاء هذا الدين وحسنه يتلاقى مع الفطرة السليمة ، ويتلاءم هو وطهارتها ، ولا يعدل عنه الانسان إلا بأفة من الآفات البشرية كالتقليد للأبوين ، والتأثير للبيئة التي يعيش فيها . وتجد هذين المعنيين في تفسير الفطرة قد ذكرهما كثير من العلماء .

فصاحب الكشف قال في تفسير الآية (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) ما نصه : الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله . . . أى خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام لكونه على مقتضى العقل والنظر الصحيح حتى إنهم لو تركوا وطباعهم لما اختاروا عليه ديناً آخر اه .

والقسطلانى شارح البخارى ذكر في معنى الفطرة أنها الجبلة السامية والطبع المتهيئ لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومه ، لكن تطراً على بعضهم الأديان الفاسدة اه تجمد هذا في شرحه للبخارى في كتاب التفسير من هذا الصحيح في باب « لا تبديل لخلق الله » . وذكر هذا المعنى في شرحه أيضاً للبخارى في كتاب الجنائز في باب « إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه » وكذلك في كل موضع من البخارى يذكر فيه الحديث تجمد الشراح يذكرون هذا المعنى .

والمعنى الثانى لفطرة الذى هو الاسلام هو رأى كثير من السلف ، وهو ليس ببعيد من الأول ، لأنه كنتيجة لازمة له .

وهناك معنى ثالث للفطرة ، وهو العهد ، أى عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) المذكور في سورة الأعراف . وأظنك تعرف أن كثيراً من العلماء قرروا في معنى هذا العهد أنه عبارة عن الأدلة التي أقامها الله في أنفسنا وفي الآفاق ، والتي تدل على وجود الله

وربوبيته، مع ما وضع فينا من الاستعداد والتمكن التام لفهمها (إذ لا يمكن الاستدلال إلا مع سلامة الفطرة ونقائها مما يفسد طرق الاستدلال) فهذا المعنى هو والمعنيان السابقان يلتقيان في نقطة واحدة .

أما كون الحديث لم يذكر «أو يسامانه» فيمكنك أن تجيب عنه بما قدمناه من أن الاسلام جاء بما هو مركز في الفطر، فهو غنى عن التعليم والتلقين، بخلاف تلك التعاليم المعوجّة التي تنحرف بصاحبها عن الطريق السوي الى تلك الوسوس والخيالات، ولذلك قال كثير من علمائنا: إن الانسان مكلف بالتوحيد وإثبات الصانع ولو لم ترسل الرسل لأن العقل كاف فيه، والفطرة شاهدة به، والآثار دالة عليه. وقد يقول قائل: إن اليهودية والنصرانية في نقائهما وسلامتهما هي الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، من حيث العقائد والأصول العامة، كما قال تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) وكما في النداء الذي خاطب به الرسل كل في زمنه وحكاه إجمالاً في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ). وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) وفي كثير من آيات القرآن ما يدل على هذا .

والجواب عن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يحدث في هذا الحديث عن هذين الدينين بعد أن تقطعت الأمم أمرهم بينهم زبراً، وبعد أن اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، وبعد أن آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وبعد أن كتموا الحق وهم يعلمون، وبعد أن اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وبعد أن حرفوا الكلم عن مواضعه، وبعد أن قالوا في الإله ما شاءت لهم أهواؤهم: من أنه ثالث ثلاثة، وأن المسيح ابن مريم إله أو ابن إله، حتى كان رسولنا مأموراً بأن يدعوهم الى كلمة سواء بيننا

وبينهم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .
ويؤيد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَوْ يَجَسَّاهُ) فقرن اليهودية والنصرانية
مع المجوسية في سلك واحد هو سلك الانحراف والزيغ ، ولو بقيا على طهارتهما الأولى
لما ساء أن يسوّى بين هذين الدينين والوثنية ، على أنهما قبل التبديل هما الاسلام
بعينه في أصوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) .

وقد سألت عن كون الحديث يفيد أن الاسلام أصل وطبيعة وما عداه طارئ ،
فيستطاع أن يجاب على هذا السؤال بما قدمنا ، فإن الاسلام لما كان مرادفاً للحق
الذي تهيأت له الفطر واستعدت لقبوله ، كان أصلاً وغيره طارئاً . وكذلك كل الأديان
في سلامتها الأولى تسمى إسلاماً ، والفطر متهيئة لها قابلة لمبادئها بخلافها على صورها
الأخيرة المتبدلة ، فإنها طارئة على الفطر متنافرة معها .

وقد سألت : ماذا يعنى الحديث بالفطرة : هل هى الاسلام أو الاستعداد
لقبوله ؟ فاختر ما تشاء منهما فإن المعنيين يتصالحان .

وسألت ثالثاً : هل مجرد كون الانسان إنساناً كاف في أن يعرف الاسلام بحيث
لو نشأ في شاق جبيل أم يمكنه أن يتوصل الى دين والى دين هو الاسلام بنوع خاص ؟
ولقد لفتناك الى هذه النقطة أولاً ، وقلنا : إن بعض علمائنا يقررون أن وجود الصانع
وتوحيده ، وكذلك كل العقائد العامة ، يكفى فيها العقل ، ولا يخرج من عهد هذا
التكليف مثل الناشئ في شاق جبيل (وأصحاب هذا الرأي المعتزلة والماتريدية) .
ورأى الأشاعرة أنه لا بد في التكليف بالأصول والعقائد العامة من رسالة رسول يلفهم
الى هذه العتائد على وجهها الصحيح ، وإن كان هذا الرسول غير مرسل الى الأمة التى
منها الشخص الذى يكلف بالعقائد ، فيكفى سماعه برسالة أى رسول ولو غير مرسل اليه
والى أمته ، وأنت خير بأنه يوجد في الغالب علم برسالة رسول . وهذان الرأيان يختلف

أصحابهما في فهم قوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)، فالرأي الأول يقول بكفاية رسالة العقل والفطرة، أو يقول: إن المراد عذاب الاستئصال في الدنيا لا عذاب الآخرة. والآخرون يفهمون الرسالة والرسول على الاصطلاح المعروف، وأن الرسول هو المرسل بالوحي. وهذا خلاف إنما هو بالنظر للعقائد والأصول العامة، كوجود الصانع ووحدته وعلمه. أما الفروع وما هو ليس من العقائد فلا بد فيها من التعليم والتهذيب بالإرشاد والأسوة الحسنة.

والخلاصة أن هناك أموراً عامة يكفي في الوصول إليها سلامة الفطرة واستعدادها الذي خلقت عليه، وأن ما عدا هذه الأصول لا بد فيها من تعليم وتهذيب وبيئة صالحة. وبهذا الفرق يمكن الجواب عن باقي سؤالك الثالث. «ونسأل الله تعالى أن يزيدك هدى».

برسيف الدميوي

من هيئة كبار العلماء بالأزهر

طائفة البهائية

وصل الى ادارة المجلة خطاب من أحد أهالي الاسكندرية، يذكر فيه أن طائفة تدعى «البهائية» لها اجتماع خاص، وذكر الساعة واليوم والمنزل الذي يقع فيه الاجتماع، وأورد شيئاً من مزاعمهم الفاسدة، وطلب تحذير الناس من تضليلهم. ونحن نجيب حضرة الكاتب الفاضل بأن هذه الطائفة من الطوائف الخارجة على الاسلام، العاملة على هدمه وإفساد عقائد المسلمين. وقد كتبنا في شأنها مقالاً بسطنا فيه أصل نشأتها، والغرض من دعايتها، وما تشتمل عليه من ضلالات وإلحاد، ونشر هذا المقال بالجزء الخامس من المجلد الأول من هذه المجلة.

الفتاوى والأحكام

ترتيب القرآن

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

نزلت آى القرآن الكريم بمناسبة الحوادث ، وكان بعضها مكيًا وبعضها الآخر مدنيًا . هذا أمر معلوم ، ولكن كيف رتب القرآن على صورته الحالية ؟ وما أساس هذا الترتيب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وما السر فى جمع آيات ذات مناسبات مختلفة لتكوّن السورة الواحدة ؟ ومن الذى قام بهذا الترتيب ؟ وما الحكمة فى وجود آيات مدنية فى بعض السور المكية وبالعكس ؟

كفر شكر — جوده محمد السعدنى

المدرس بالمدرسة الازامية

الجواب

قال السيوطى رحمه الله فى الإتقان ما خلاصته : إن الإجماع منعقد على أن ترتيب الآيات توقيفى ، وكذلك النصوص متضافرة على ذلك ؛ أما الإجماع فنقله غير واحد — منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته ، وعبارته : ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين ، وأما النصوص فمنها حديث زيد : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن

من الرقاع . ومنها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عهستم الى الأنفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان اذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا — الحديث .

ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان : (وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ أو تدعها ! قال : يا بن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه . ومنها ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : أنانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الوضع من هذه السورة : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) الى آخرها .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورا عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف وقد أفلح والروم والهم تنزيل وهل أتى على الإنسان ونّ والرحمن والنجم واقتربت والجمعة والمنافقون والصف . فكل هذه الأحاديث تدل على أن ترتيب الآيات توقيفى ، وأن الصحابة لم يرتبوا شيئاً من آيات الكتاب باجتهادهم ، وإنما رتبوها حسبما سمعوها أو علموها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأئمة : إن كلمة الأمة مجمعة على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله ، هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شئ ولا زيد فيه ، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر

منه مقدم ، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب أى كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة .

أما ترتيب السور فقد اختلف العلماء فيه ، والمذهب المنصور أنه توقيفى كترتيب نفس آيات السورة ، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن كله الى سماء الدنيا ، ثم فرق فى بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فانساق السورة كانساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم القرآن . ونقل السيوطى عن الكرماني ما نصه : ترتيب السورة هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه ، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين ، وكان آخر الآيات نزولاً : (وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدّين .

ومن قال بأن ترتيب السور باجتهاد الصحابة وإجماعهم ، لم يرد أن ذلك بمحض رأيهم ، بل أراد أن ذلك كان منهم برمزه إليهم حيث علموا أسباب النزول ومواقع الكلمات ، فليس اجتهاداً ، لأن الاجتهاد الاستنباط من الأدلة ، وأما هنا فبحث عن الدليل وهو إشارته ، فرجعهم فيه رمزه وإشارته ، فالترتيب توقيفى . وبهذا لا يخالف صاحب رأى الأول . وعلى الجملة فترتيب الآيات وترتيب السور توقيفى كما قدمنا .

وننقل لك هنا ما قاله المؤرخون والمفسرون فى كيفية جمع القرآن :

قال العلامة النيسابورى فى تفسيره : روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وإذا عنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استمر بقرء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن

كلها فيذهب قرآن كثير ، وأرى أن تأمر بجمع القرآن . قال : فقأت : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لى : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى له فرأيت فيه الذى رأى عمر ، قال زيد بن ثابت : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نههك ، قد كُنت تكتب الوحى لرسول الله ، فمتبّع القرآن فاجعه ، فمتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب والخاف ، ومن صدور الرجال ؛ وكانت الصحف عند أبى بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند حفصة مدة ، الى أن أرسل عثمان الى حفصة : أن أرسلنى الى بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها عليك ، فأرسلت الى عثمان ، فأرسل عثمان الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فأمرهم أن ينسخوا الصحف فى المصاحف ، ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم . قال : ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن أن يحرق . قال زيد بن ثابت : فرأيت أصحاب محمد يقولون : أحسن والله عثمان أحسن والله عثمان ! وقال على : لو وئيت لفعلت فى المصاحف الذى فعل عثمان . الى أن قال : فكان أول من أمر بجمع القرآن فى المصحف أبابكر ، مخافة أن يضيع منه شئ ، غير أنه لم يجمع الناس عليه . وكان الناس يقرءون بقراءات مختلفة على سبيل ما أقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى وقت عثمان ، ثم إن عثمان جمع الناس على مصحف واحد وحرف واحد ، ولذلك نسب المصحف اليه ، وجعل ذلك إماماً ، وأعلموا أن القرآن كان مجموعاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما أنزل آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا ، ولا نزلت سورة إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

الكاتب أن يضعها بجانب سورة كذا . روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا . وعن أنس قال : جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد . قيل لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى . غير أنهم لم يكونوا جمعوا لها فيما بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها ، وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ثم خرج فى سرية فنزلت فى وقت معين سورة ، فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتتبع ما فاتته على حسب ما يتسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه ، وقد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب على ما كان من عادة العرب فى حفظ أنسابها وأشعار شعرائها من غير كتابة ، ومنهم من كان كتبها فى مواضع مختلفة من قرطاس وكنف وعسب ، ثقة منهم بما كانوا يعهدون من جد المسلمين فى حفظ القرآن ، فلا يرون بأكثرهم حاجة إلى مصحف ينظر فيه ، فلما أن مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبيله ، وجند المهاجرون والأنصار أجنادا تفرقوا فى أقطار الدنيا ، واستمر القتل فى بعضهم كما مر ، خيف حينئذ أن يتطرق إليه ضياع ، فأمروا بجمعه فى المصحف . انتهى من النيسابورى .

مما سبق يتبين :

- ١ — أن ترتيب القرآن على صورته الحالية توقيفى بتعليم جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعليم المصطفى لكتبة وحيه وأصحابه رضوان الله عليهم .
- ٢ — إذا علمت أن الترتيب توقيفى من عند الله سبحانه وتعالى لم يبق محل للسؤال عن أساس الترتيب ، لأن الأساس هو أمر الله سبحانه وتعالى : (إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وليس في إمكان أحد أن يدرك ما أراد الله من المناسبات لهذا الترتيب قطعاً، وكل ما يمكن هو إدراك بعض المناسبات في أسباب النزول من الحوادث على ما يرى مفصلاً في كتب التفسير .

٣ — كان الترتيب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه لما كان رسول الله موجوداً لم يكن هناك حاجة الى كتابة القرآن جميعه في صحيفة واحدة ، لأن السهل يرجع الى الرسول عند النسيان أو الاختلاف في القراءة . أما بعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى وجاور ربه فقد كان الحفظة من الصحابة كثيرين ، وما كان ليخشى من ضياع شيء من القرآن — غير أنه حدث بعد ذلك أن تفرق المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، والتحم القتال بينهم وبين من يعارضون دعوتهم الى التوحيد ونشر الاسلام ، وكان كثير من الحفظة ممن خرجوا للقتال ، وقد حمى وطيس الحرب ، وكثرت القتل منهم في الواقعة التي ذكرت قبل ، وهى واقعة اليمامة ، لما وقع ذلك خشى عمر رضى الله عنه فرأى — ورأيه الموفق — أن يجمع القرآن المحفوظ في صحيفة واحدة ، فأشار على أبى بكر بما سبق بيانه ، وكتب القرآن وجمع في صحيفة واحدة ، وبقي عند أبى بكر مدة خلافته ، وبعده عند عمر ، وبعده عند حفصة ، الى آخر القصة السابقة .

هذا وقت الترتيب للناس جميعاً : الحافظ منهم وغير الحافظ ، وهو ترتيب توقيفى . ومن هذا يعلم الجواب عن سؤال (ومن الذى قام بهذا الترتيب ؟) .

أما السؤال عن السر في جمع آيات ذات مناسبات مختلفة لتكوّن السورة الواحدة ، فلا محل له بعد أن الترتيب من عند الله ، وأنه هو الذى علمه الرسول بالوحى ، وأن الرسول علمه لأصحابه كما أنزل عليه . وقد سبق القول بأن المناسبات يّنها بقدر جهدهم المفسرون . كما أن السؤال عن الحكمة في وجود آيات مدنية في بعض السور المسكية

وبالعكس ، لا محل له أيضا . على أنك اذا علمت أن المسكى هو ما كان قبل الهجرة والمدنى ما كان بعدها ، وعلمت أن القرآن نزل منجبا حسب الحوادث ، لم يصعب عليك أن تفهم أن السورة مكية ، أى نزل أغلبها قبل الهجرة ، أو أن تلك مدنية أى نزل أغلبها بعد الهجرة . ولا خفاء في أن العبرة للغالب ، وأن للأكثر حكم الكل . والله أعلم ؟

طه هبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

شد الرحال لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وورد من حفرة صاحب التوقيع عدة أسئلة منها السؤال الآتي :

هل تشدد الرحال لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدم نية زيارة

مصطفى احمد الرفاعي اللباني

المسجد النبوي ؟

مراقب جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية باسيوط

الجواب

اعلم أن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو زيارة قبره عليه السلام مستحبة بإجماع الأئمة ومن بعدهم ، قال السكال ابن الهمام في شرح فتح القدير ما نصه : المقصد

الثالث في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم - قال مشايخنا رحمهم الله تعالى : من أفضل المندوبات .

وفي مناسك الفارسي وشرح المختار أنها قريبة من الوجوب لمن له سعة . وقال أيضا : والحج وإن كان فرضا فالأحسن أن يبدأ به ثم يثنى بالزيارة ، وإن كان تطوعا كان باختيار ، فإذا نوى زيارة القبر الشريف فليؤم معه زيارة المسجد أى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال ، والأولى فيما يقع عند العبد الضعيف تجريد النية لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم . الى أن قال : وإذا وصل الى المدينة اغتسل بظاهرها قبل أن يدخلها ، أو توضأ ، والغسل أفضل ، ولبس نظيف ثيابه والجديد أفضل ، وما يفعله بعض الناس من النزول بالقرب من المدينة والمشى على أقدامه الى أن يدخلها حسن ، وكل ما كان أدخل في الآداب والآل جلال كان حسنا ، وإذا دخلها قال : بسم الله رب أدخاني مدخل صدق - الآية - اللهم افتح لى أبواب رحمتك وارحمنى ياخير مسئول وارزقنى من زيارة رسولك صلى الله عليه وسلم ما رزقت به أولياءك وأهل طاعتك . وليكن متواضعا متخشعا معظما لحرماتها ، لا يفتر عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، مستحضرا أنها بلدته التى اختارها الله تعالى دار هجرة لنبيه ، ومهبطا للوحي والقرآن ، ومنبعا للإيمان والأحكام الشرعية .

وقال رحمه الله : فإذا دخل المسجد فعل ما هو السنة في دخول المساجد من تقديم اليمين ، ويقول : اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ، ويدخل من باب اليمين أو غيره ، ويقصد الروضة الشريفة وهى ما بين المنبر والقبر الشريف فيصل الى تحية المسجد مستقبلا السارية التى تحتها الصندوق ، بحيث يكون عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن إن أمكنه ، وتكون الحنية التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قيل قبل أن يغير المسجد ، ويسجد لله شكراً على هذه النعمة

ويسأله تمامها، ثم يأتي القبر الشريف فيستقبل جداره ويستدير القبلة على نحو أربعة أذرع من السارية التي عند رأس القبر في زاويته، ثم يقول في موقفه: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك ياخير خلق الله. الى آخر ما قاله رضى الله عنه.

وقال الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي ما خلاصته: إن الحاج إذا أشرف على مدينة النبي قبل الحج أو بعده استحب له أن يغتسل، فإذا دخل المسجد بدأ باليمنى وقال: بسم الله والصلاة على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك. ثم يأتى الروضة بين القبر والمنبر فيصلى بها ويدعو بما شاء، ثم يأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويقف متباعدة كما يقف لو ظهر فى حياته: بخشوع وسكون، منكس الرأس، غاض الطرف، مستحضرا بقلبه جلاله الموقف، ثم يقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. الى آخر ما نقله من قوله: إن سائر كتب شيخه ابن تيمية ذكر فيها ابن تيمية استحباب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر القبور ولم ينكر زيارتها فى موضع من المواضع ولا ذكر فى ذلك خلافا إلا نقلا غربيا ذكره فى بعض كتبه عن بعض التابعين. وقال فى موضع آخر: إن شيخ الاسلام ابن تيمية لا ينكر الزيارة الشرعية ولم يكن ما سئل فيه وأجاب عنه خاصا بالسفر الى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذا السفر على هذا الوجه مشروع مستحب باتفاق المسلمين، ولم يقل أحد من المسلمين إن السفر الى زيارة قبره محرم أو مكروه مطلقا.

وقد نص علماء الحنابلة على أن المسافر فى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم يقصر الصلاة، وما ذاك إلا لأن سفره لا معصية فيه. وقال القاضى عياض فى الشفا: زيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسامين، تجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها. ونقل عن أبى عمران أن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد المطى الى قبره صلى

الله عليه وسلم ، قال القاضي : يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيـد
لا وجوب فرض ، وحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ،
ومسجدي ، والمسجد الأقصى » لا يعارض ما قلناه ، ولا دلالة فيه على منع شد الرحال ،
لأن الحديث — كما قال الحافظ في الفتح — معناه لا تشد الرحال إلى مسجد لذاته إلا
إلى الثلاثة مساجد ، لأنه ليس في الأرض بقاع لها فضل بذاتها شهد الشرع باعتباره
ورتب عليه حكماً شرعياً حتى يسافر إليها غير تلك المساجد ، أما غيرها فلا تشد إليها لذاتها
بل للزيارة أو غيرها من المقاصد الفاضلة ، لأنه لا سبيل إلى المنع لا فضاءه إلى سد باب
السفر لطالب العلم وصلة الرحم وغيرها من مهمات الأمور . وقد التبس ذلك على البعض
فزعم أن شد الرحال لزيارة من في غير تلك الأماكن داخل في المنع مع أن المقصود
اللزوم لا المنع .

من هذا الذي ذكرناه لك تعلم أنه لا نزاع في استحباب زيارة صلى الله عليه وسلم
وأنها — كما قال القاضي عياض — سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغـب فيها .
وغير خاف أن من سافر لتحصيل الأمر المندوب إليه المستحب يكون سفره طاعة
وقربة ، سواء أكان ذلك السفر سعياً على الأقدام أو بشد الرحل والمشي . ومن الذي ينكر
على المسلمين شد الرحال لقيامهم بأعظم قربة ، وهي زيارة أعظم الخلق على الإطلاق ؟ !
من هذا يظهر جلياً جواز شد الرحال لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم . وقد علمت
أن ابن الهمام — وقد بلغ مرتبة الاجتهاد — يرى أن الأولى تجريد النية لزيارة قبره
صلى الله عليه وسلم . وما كان إنكار ابن تيمية شد الرحال لزيارة القبور إلا إنكاراً
على من يقصد زيارة القبور قصد حج وعبادة . أما زيارة القبور للقيام بشعيرة وسنة
فبعيد كل البعد أن ينكره ابن تيمية ، والله أعلم .

طه مهيـب

عضو المحكمة العليا الشرعية

سابقاً

القرآن

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الاتي :

ما الدليل العقلي على أن القرآن نازل من عند الله ؟

المغربلين — محمود محمود

الجواب

القرآن كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، وهو المعجزة الكبرى على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم . ولا يخفى أن المعجزة هي ما يقصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من عند الله ، وأن من شروطها أن تكون فعلاً لله أو ما يقوم مقامه ، لأن التصديق به تعالى لا يكون بشيء ليس من قبله ، وأن المعجز ينزل من الله منزلة قوله : صدق عبدى فيما أخبر به عنى . ودلالة المعجزة على صدق مدعى النبوة هي إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة ، وهي دلالة قطعية يشهد بها الوجدان ولا يمكن للعقل إنكارها .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده . أما أنه أرسل وادعى النبوة فلا مجال للشك فيه ، بل هو معلوم علماً يقيناً لتواتره تواتراً أحقّه بالعيان والمشاهدة .

وأما ظهور المعجزة ، فمعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة ، أهمها القرآن ، فقد تحدى به ولم يعارض ، فكان معجزة ، ولا شبهة في أنه تحدى العرب بالقرآن ، وأن ذلك متواتر ، وآيات التحدى كثيرة ، مثل قوله تعالى : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) وقوله :

(فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) وقوله : (قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ) الآية . وأما أنه لم يعارض فلا أنه لو عورض لتواتر لتوافر الدواعي على نقله .

قال القاضي عياض في الشفا : فلم يزل يقرّ عنهم صلى الله عليه وسلم أشدّ التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحطّ أعلامهم ، ويشنت نظامهم ، ويذمّ آلهتهم وإياهم ، ويستنتج أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجّمون عن مخالفته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والاغراء بالافتراء ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يثر ، وسحر مستمر ، وإفك افتراء ، وأساطير الأولين ؛ والمباهة والرضا بالنيئة كقولهم : قلوبنا غلف ، وفي أكمة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ؛ والادعاء مع العجز بقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ وقد قال الله لهم : ولن تفعلوا ، فما فعلوا ولا قدروا ؛ ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كسيامة كشف عواره لجميعهم ، وسابهم الله ما ألقوه من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل البز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ، ولا جنس بلاغتهم ، بل ولوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين ، من بين مهتد وبين مفتون ؛ ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الآية ، قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ؛ وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ (فَأَصْدَحْ بِمَا تُوَمِّرُ) فسجد وقال : سجدت لفصاحته . وسمع آخر رجلاً يقرأ (فَلَمَّا أَسْتَبَيَّسُوا مِنْهُ خَاصُّوا نَجِيًّا) فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . إلى أن قال رحمه الله : وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ؛ فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ؟ الخ ما قاله رضى الله عنه .

أما وجوه إعجازه فكثيرة ، وقد اختلف الناس فيها على مذاهب : فقليل : هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب والأسلوب العجيب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعته ومقاطعته وفواصله ، أى آواخر الآية التى هى بمنزلة الأسجاع فى كلامهم ، فإن هذه الأمور المذكورة وقعت فى القرآن على وجه لم يعهد فى كلامهم وكانوا عاجزين عنه .

وقيل : إن وجه إعجازه كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، لأن من تتبع القرآن وجد فيه فنون البلاغة بأسرها : من إفادة المعانى الكثيرة باللفظ القليل ومن ضروب التأكيد وأنواع التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، وحسن المطالع والمقاطع وحسن العوامل ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل اللائق بالمقام ، وخلوه عن اللفظ الركيك والشاذ الخارج عن القياس ، والشارد النافر عن الاستعمال ، الى غير ذلك من أنواع البلاغة ، بحيث لا يرى المتصفح للقرآن وتراكميه نوعا من تلك الفنون إلا وجده فيه أحسن ما يكون ، ولا يقدر أحد من البلغاء الواصلين الى ذروة البلاغة من العرب العرباء وإن بذل طاقته فى تزيين كلامه إلا على نوع أو نوعين من فنون البلاغة ، ولو رام الزيادة عنهما لا يوفق . يعرف ذلك من كان أعرف بالعربية وفنون البلاغة .

ويرى بعضهم أن وجه الإعجاز مجموع الأمرين المتقدمين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة العليا من البلاغة . وقيل : وجه إعجازه إخباره عن الغيب نحو (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَائِبِهِمْ سَاعٍ مُبِينٍ) وذلك كثير يعرف بتتبع القرآن ؛ وإخباره عن الأمور المستقبلية الكائنة على وفق ما أخبر .

وصفة القول أنه ما من وجه من أوجه الإعجاز التى تقدمت إلا وهى موجودة فى ذلك الكتاب العزيز الذى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) وإن إعجازه دليل ساطع على أنه من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، والله أعلم .

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

حكم التلهي ببعض الالعاب

وجاء من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

ما حكم لعب السيجة ، والطاولة ، والدمنيو ، مع مراعاة أن لعب كل ذلك للتسلي فقط ؟
قوس - الخطارة محمود خليفة سعد الله

الجواب

قال الحنفية : كره تحريما اللعب بالنرد والشطرنج ، وكره كل لهو وعبث ، فلا يجوز لعب السيجة ولا الطاولة ولا الدومينو ، كما لا يجوز تضييع الوقت في غير الشيء النافع . وأجاز الامام الشافعي وأبو يوسف رحمهما الله اللعب بالشطرنج بشرط ألا يكون للهو وألا يقامر عليه . وقد نصوا أيضا على عدم جواز الرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار : من الطنبور ، والبربط ، والرباب ، والقانون ، والمزمار ، والصنج ، والبوق . هذه الأمور جميعها مكروهة تحريما ، والمكروهة تحريما كالحرمان يستوجب فعله العقوبة بالنار . وإنما كان الحكم كذلك لأن هذه الأمور من شأنها أن تلهي الانسان عن العبادة والطاعة ، وأن تمنعه عن مباشرة عمله مباشرة دقيقة .

ولو فقه الذين يلعبون هذه الألعاب الى ما فيها من ضياع وقت كبير يستطيع أن يتعلم فيه الانسان علوما جمة ، وأن يستفيد فوائد عظيمة ، ما وسعهم أن يفعلوها . على أن في فعل البعض منها ما هو مسقط للسروة ، كالرقص والسخرية والضرب بالدف دون حاجة الى ذلك ، وفيما أباحه الشارع من الأفعال الموجبة للسرور ، والمفيدة

للشجاعة، كركوب الخيل، والسباحة، والفروسية، وتعلم ضرب السلاح، وما الى ذلك مندوحة عن هذا الصنيع الذى لو تأملت بعض التأمل فيه لوجدت حكمة الشارع فى كراهيته واضحة جليلة .

أنظر أنت الى ما تجده فى الأسواق الآن من جماعات يجتمعون زرافات مكبين على لعب الطاولة والدومينو مضيعين أثنى الأوقات فى ذلك، وقد يكون أحدهم أحوج ما يكون الى جزء من هذه الأوقات يسعى فيه لتحصيل رزقه ورزق عياله . وتأمل قليلا فيما تجده بين هؤلاء من مشاحنات ومشاجرات تنجم عن هذه الألعاب الخبيثة التى قد تدعو لاعبيها الى أن يقامروا بها فيخسروا أموالهم فوق خسران أوقاتهم . على أن الذى يدعى أنه إنما يلعب للتسلية لو فطن الى أن التسلية بالمباح وبما يجلب النفع خير ألف مرة من التسلية بأمثال هذا الذى يطلبه، لما قال ما قال : من أنه يلعب للتسلية . ولو أن هؤلاء عملوا فى تلك الأوقات لتكميل أنفسهم ولما ينفع أمتهم، لما كان هذا حالنا اليوم من تأخر عن بقية الأمم الناهضة ! فليترك الله المسامون، ويستيقظوا ويعملوا على ما فيه خيرهم، خير من ضياع الأوقات فى مثل هذه السخافات التى لا تجدى نفعا، بل تجلب ضررا .

النظر والملاح

قيل لأبى عمر بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها .

اسلام أميرة انكليزية

نشر بعض الصحف في القاهرة خبر اسلام الأميرة الانجليزية ديانج مودا أميرة سرواك من بضعة شهور ، وقد أرسل الى مجلة نور الاسلام حضرة الدكتور خالد شلدراك الذى كان اسلام هذه الأميرة على يديه عدة نسخ من رسالة انجليزية تضمنت سبب اسلام هذه الأميرة وبعض مقالات أخرى ، ومما جاء فيها عن سبب إسلامها ما ترجمته :

لماذا اتخذت الاسلام ديناً ؟

يقول ناشر الرسالة : إن صاحبة السمو الأميرة الانجليزية ديانج مودا أميرة سرواك زوجة ولي عهد الراجا بروك دخلت في الاسلام يوم ١٩ فبراير الماضى (سنة ١٩٣٢) أثناء سياحتها في طيارة في منتصف الطريق أثناء اجتياز البوغاز الانجليزى ، وقد أبانت في خطابها المذاع في أجواز الفضاء باللاسلكى بياناً واضحاً السبب الذى دعاها الى اتخاذ الاسلام ديناً قالت :

سئلت مراراً عن سبب مفارقتى الكنيسة الكاثوليكية والدخول في الاسلام وها أنا ذا اليوم أتحدث إليكم عنه بواسطة اللاسلكى بناء على طلب شركة الراديو الاستعمارية فأقول :

لما زرت بلادى سرواك لأول مرة منذ عدة سنين ، وهى بلاد تبلغ مساحتها ٥٢,٠٠٠ ميل مربع أو مثل مجموع مساحة انجلترا وويلز تقريباً ، أتاحت لى هذه الزيارة فرصة لدراسة معيشة الطوائف الدينية المختلفة المقيمة في هذه البلاد ، فإن في سرواك

٨٠,٠٠٠ مسلم ضمن سكانها الذين يبلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ ألف نفس يوجد بينهم أيضا بوذيون وبرهانيون ووثنيون ومسيحيون . وقد جذبتني كثيراً لرعايا المسلمين أحوالهم الخلقية ، وأدركت لأول مرة جمال هداية الاسلام .

ليس في الدين المسيحي عماد للروح من الوجهة الخلقية

إني ولدت بروتستانتية ، غير إني لم أجد لنفسى عمادا خلقيا في هذه العقيدة الباردة وبعد أن درست علم الديانة المسيحية مدة ، خطوت خطوة جريئة ودخلت في المذهب الكاثوليكي ، ومنعني قداسة البابا جلسة خاصة ، ولكنني ما لبثت أن شعرت بأنني لم أخلق لهذه الديانة ، ولو أنني كنت كثيرة الإعجاب بالعمل العظيم الحسن الذي قامت به كنيسة رومة للحضارة ، ذلك لأن فيها أموراً يصعب على نفسى كثيراً قبولها ، ولبثت في الكشلكة سنتين بذلت في خلالها جهوداً صادقة لتفهم تعليمها الشاق .

على أنني شعرت بأن المسيح لم يحرم على أحد مطلقاً أن يناجى ربه بلا واسطة ، ولا أمر أحداً أن يحشو في قفص الاعتراف حيث لا يقول الحق من المعترفين إلا قليل .

وفي أثناء ذلك الزمن كان لى اهتمام كبير بالأبحاث العظيمة التي كان يباشرها الأستاذان : فصطان ، ودوباو ، من أجل تجديد وتحييض تاريخ الأثر الاسلامي البديع الذي في حياتي ، والذي قد عرف أمره في جميع أنحاء الدنيا ، وأنه من المؤكد أنه قميص النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فهذه الأبحاث البالغة من الأخذ بالأبواب مبدعاً عظيماً حدثني الى دراسة تاريخ بلاد الاسلام والهداية العظمى لمحمد عليه الصلاة والسلام دراسة أدق مما سبق .

الفرآن دعاني لاتباعه

قد دهشت لما في هذا الدين من الطهارة والحكمة واليسر ، وشعرت بأن قلبي كله وروحي جميعها مغروران بهذه الهداية التي هي في غاية اللامعة للبشر والعقول . وقد

دعاني القرآن لاتباعه باعتبار أنه خطاب الله الصادر منه مباشرة الى رجل هو خاتم الأنبياء، وإننا لعلنا علم بحياة هذا الرجل من أولها الى آخرها، وبمقدار الخير الذي أداه دينه الى العالم. وقل من الناس من يعلم أنه بينما كانت أوربة غارقة في ظلمات القرون الوسطى المخيفة، كانت الحضارة الاسلامية تنشر نورها فتتقدم به العلوم والفنون والآداب تقدما مجيدا. وإذا كانت أوربة قد استطاعت أن تجد لها طريقا الى التجديد فانما الفضل في ذلك يرجع الى خلفاء أسبانية المسامين المستضيئين بنور العرفان. ومن المؤسف أن لا يعلم برقي الشعوب الاسلامية في بلادها إلا النزر اليسير بين غيرهم وإني آنس من نفس الثقة بأن هذه البلاد سيكون لها في المستقبل القريب عمل ذو شأن في التاريخ وهذا السبب مشقوعا بميل الى البلاد الاسلامية هو الذي دعاني الى إصدار مجلة في مدينة باريس تسمى مجلة الأخبار الاسلامية « Information Musulmanes ».

هذه هي المجلة الوحيدة المستقلة الموجودة التي تخبر عن رقي البلاد الاسلامية وحياتها أخبارا صادقة، وقد تلقاها بالترحاب الشديد جميع الذين يعينهم العلم بأحوال هذه البلاد الحقيقية.

ورجائي أن هذه الصحيفة المتجردة للمعنويات ستؤدي خدمة كبرى لالمسلمين وخدم بل للعالم كله.

مجاهدة الإلحاد

كلنا يعلم أن أساس الحياة الخلقية قد تداعى لتأثير الإلحاد الشديد، ولهذا كان حقا علينا من أجل التمكن من وقف تأثيره المفسد أن نقيم في وجهه مثالا أعلى من الأخلاق العالية والآداب الرفيعة. وسينقل الشرق الى بلاد الغرب قيس الاسلام الذي يؤسفنا أننا كدنا أن نطقه، وعلينا أن ندرس هدايته الحسنة. وقد قال برنارد شو وأنا موافقة له تمام الموافقة فيما قال: إن الاسلام هو دين المستقبل.

وقبل أن أختم مقالى أود أن أقول : إنى اغتبطت بإعلان إسلامى فى طيارة تسبح فوق متن الرياح أمام الدكتور خالد شلدراك رئيس الجمعية الغربية الاسلامية المعروف بجهوده الذى قضى عمره كله فى خدمة هذا الدين الذى هو المثل الأعلى المجيد للأديان كلها .

وأرجو أن أسافر الى ألمانيا بعد بضعة أسابيع لورود عدة كتب منها تتضمن ما يشعر به أهل هذه البلاد من الاهتمام بالأثر المقدس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد طلب منى أن أذهب الى إنجلترا فى الشهر الآتى ، وفى آخر فصل الصيف أرجو أن أذهب الى أمريكا مع الدكتور خالد لبيان هداية النبي صلى الله عليه وسلم البالغة فى الحسن مبلغا عظيما ، وسأخذ معى أثره المقدس الذى سأريه لكل من تنطاب نفسه الاطلاع عليه . وإنى مرسله أحر تحياتى لجميع إخوانى وأخواتى فى الاسلام الذين يستمعون قولى خصوصا أهل سرّواك

الطرف الملح

ذكر عتبة بن أبى سفيان كلام العرب فقال :

إن للعرب كلاما هو أرق من الهسواء ، وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهّم أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طابت . هم اللطيف فهمهم ، النافع علمهم ، باغتهم نزل القرآن ، وبها يدرك البيان ، وكل نوع من معناه مبين لما سواه ، والناس الى قولهم يصيرون ، ويهديهم يأتون . هم أكثر الناس أحلاما ، وأكبرهم أخلاقا .

الإسلام (١)

حاضره ومســـــــــــــــــتقبله

المحاضرة الاولى

- ٢ -

أهمية المسائل الإسلامية - أممءاء المسلمون - انتشار الدين الإسلامى

فإذا كننا رأينا من المفيد أن نأتى بهذا البيان الوجيز عن أسباب سرعة انتشار الإسلام فى أوائل زمن الهجرة فذلك لأن هذا الدين ما فتى ينتشر فى الوقت الحاضر ولأنه فى حركة تقدمه المستمرة هذه التى تسوقه دائماً الى الأمام نجد أن السببين الجوهرين اللذين بينهما فى أول نشأته لا يزالان العاملين الفاطعين لدواعى نجاحه .

وإننا لنجد فى سير الإسلام الممتد وانتشاره فى خلال القرن العشرين هذين النوعين من الأسباب مجتمعة : الأسباب الدينية البحتة ، والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولنتكلم أولاً عن الأسباب الدينية :

ولنبداً بالتساؤل عما اذا كان فى الإسلام إرساليات تبشير حقيقية كما هو الحال فى المسيحية . إن المسيحية تنتشر فى الخارج بواسطة جمعيات تبشيرية وبواسطة أفراد

(١) مترجم عن الفرنسية من مجموعة المحاضرات التى القاها الاستاذ ادوار مونتيه مدير جامعة جنيف

أمام أساتذة «كلية فرنسا» بباريس سنة ١٩١٠

مبشرين عند البروتستانت ، وبواسطة أعضاء الاكايروس (آل الكهنوت) العلمانيين وأعضاء الجمعيات الدينية عند الكاثوليك ، فهل يوجد شيء من هذا القبيل في الاسلام ؟ نعم ، ولا .

يوجد بعض الرابطين (مشايخ الطرق) - في أفريقية مثلاً - الذين هم في الواقع مبشرون ، ويوجد كذلك جمعيات دينية من برنامجها الدعوة لانتشار الاسلام (وسنتكلم عن هذه الجمعيات في غير هذا المكان) ولكن الاسلام في واقع الأمر ينتشر نوعاً ما من تلقاء نفسه . أريد أن أقول إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسلم في البلاد الوثنية هو مبدئياً رسول لدينه .

فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، وربما كان أقوى إيماناً كلما كان أقل تعليماً بله جاهلاً ، وتلك خاصية من خاصيات الاسلام : أن يستحوذ تماماً على نفس المؤمن بكليته وجزئيته . وإنه إن وجد عدد من المسلمين فأتى العزيمة أو من غير المباين فان الحمية من الصفات المميزة للمدين الاسلامي ؛ وإني أكرر أن المسلم غالباً يحمل في جسمه أنسجة المبشر ، فهو يقوم بالتبشير الاسلامي كما كان يبشر بالمسيحية في القرون الوسطى أهالي « البجوا » و « فوه » في نفس الوقت الذي كانوا يقومون فيه بصناعاتهم أو بيع تجارتهم ، إلا أن الفرق بين أولئك الهراطقة الأقدمين وبين مسامي اليوم هو أن الأول وإن كانوا يلجأون كذلك الى هذه الطريقة الملتوية لنشر مذاهبهم ، إلا أن اضطرابهم للتستر خشية ما كانوا معرضين له من الاضطهاد كان يجعلهم على إخفاتهم كقبهم المقدسة ومؤلفاتهم الدينية في صناديق بضائعهم .

فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التي تذهب للتجارة في البلاد الوثنية أو التي تعبد فيها الأصنام .

فرسل الاسلام - ففهم الغيرة للتبشير الى الالتجاء الى الوسائل المختلفة والملائمة لكل حالة خاصة في البلاد وفي الشعوب التي يقومون فيها بأداء عملهم الديني ، وهنا نرى العامل الديني يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعى والاقتصادى .

وهكذا أنشأ المبشرون المسلمون القرى التي أسكنوها بمن أدخلوهم في دين الاسلام واستحضروهم اليها من الخارج ، إذ قد انتهزوا فرصة الفتح الذي كان يفتك بمقاطعة الوانيكاس على حدود الزنجبار ليعرضوا دينهم تحت اسم الاحسان وعمل الخير ، وبذلك استفادوا مرات عديدة من تحرير الرق لنشر مذهبهم كما حصل في وادى ، فقد حدث أن قافلة من الرقيق من أهل وادى انقض عابها رحالة من البدو فسلموها متاعها على حدود طرابلس الغرب ومصر ، فأمر سيدى محمد بن على السنوسى بشراء رجالها وإعطائهم التعاليم الضرورى في زاويته وأعتقهم ، ثم لما وجدهم أهلا للقيام بالتبشير أعادهم بعد بضع سنتين من تعليمهم الى بلادهم لنشر الاسلام بها .

أما في البلاد المتحضرة ولدى الشعوب المتنورة فإن دعاة الاسلام يقومون بنشر دعايتهم بشكل آخر ، اذ يحاولون بفضل تعاليمهم الراقى وبواسطة علومهم أن يكتسبوا ودّ الشخصيات ذات المراكز البارزة وبواسطة هذه الشخصيات يؤثرون على رأى العام ، حتى إنهم يخضعون بمهارة الى بعض العادات المحلية ولبعض المزايم الدينية وإقامة الشعائر الوثنية ، ففي الصين مثلاً حيث يستطيع المسلمون أن يتطلعوا الى الوظائف العامة نجدهم لا يشيدون مساجد أعلى من بقية المعابد الأخرى فلا يقيمون عليها المآذن ، وينصحون الى مشايخهم بالاختلاف الى الحفلات الشعبية التي لها دائماً صبغة دينية قومية ، وهم أنفسهم إذا ما التحقوا بالوظائف العامة نراهم يؤدون الشعائر الدينية المقررة قانوناً ، وإذا ما تناقشت مع المتعالمين منهم تجدهم يعرضون عليك الاسلام بأن هو دين الفطرة المتفق مع تقاليد آبائنا الأولين والمجرد من المغالاة والمستحدثات المزعومة التي أعدها عليه ديانة « كونهشيوس »

وهناك وسيلة فعالة (جدا) لنشر الدعاية الاسلامية وهى « المدرسة » فالمسلمون عند ما يدخلون بلدا جديدا و يقيمون به يكون أول عمل يوجهون اليه اهتمامهم هو تشييد مسجد وياحقون به مدرسة ، ففى البلاد الأفريقية التى تعبد فيها الأصنام نجد المسلم الذى يأتى إليها من الخارج فيه من الكفاءة والتفوق ما يجتذب به الأهالى الى مدرسته ، فهم يريدون أن يكونوا مثله فى التعليم والتربية والنظام .

ونرى كذلك أن المسلمين القائمين بالدعوة الى الاسلام ياجأون لدى بعض العشائر (مثل عشيرة البيجا) التى تقطن فيما بين النيل الأزرق والجبال التى تمتد من الهضبة الحبشية حيث المرأة هناك تفوق الرجل ذكاء وتفكيراً ، فى تلك البقاع ياجأ دعاة الاسلام الى تعليم المرأة على وجه الخصوص ، وهذا ما فعله كذلك السنوسيون إزاء زنجيات طوبو ، وهذه الطريقة فى التبشير تستلقت النظر كثيرا بقدر ما نرى تعليم المرأة فى البلاد الاسلامية مهملا على وجه العموم .

والاسلام ينتشر كذلك بواسطة التزاوج ، فالمسلم يتزوج بسهولة من الأجناس الأخرى : الأفريقية والصينية وغيرها ، إلا أن المسلم فى الصين إذا رغب فى التزوج من امرأة صينية فانه يأبى أن يزوج بناته من رجال صينيين غير مسلمين .

وأيضا ينتشر الاسلام بشراء أبناء الوثنيين الذين يربون فى حضانة الديانة المحمدية فقد رأينا فى الصين بعض المسلمين المتحمسين للاسلام يشتررون من الأطفال الى ما يبلغ ١٠٠٠٠ طفل ويدفعون ثمنهم نقداً إبان القحط الذى اغتال مديرية شان تونج الصينية .

وإننا إذا بسطنا هنا الاسباب الدينية لانتشار الاسلام فاننا ندخل فعلا فى شرح الاسباب ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الاسباب ذات الصبغة السياسية ، وكل هذه الاسباب مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا محكما ومتصلة كذلك اتصالا تاما بقدر ما أن كل شئ فى الاسلام مصبوغ بصبغة دينية .

ولنبحث الآن على حدة هذه الاسباب من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولابد لنا هنا أن نقف لنستعرض أولاً بعض الملاحظات العامة التي يحيل إلينا أن لها أهمية كبرى .

فالاسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها ويمتد نفوذه — وإنني أقصد بها أفريقية — ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية من أرقى الحالات ، وتباعاً يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقى .

والاسلام في الواقع هو — كما هي الحال في المسيحية — حضارة قائمة بنفسها ، حضارة ترجع أصولها الى قديم الزمن ، ومعنى ذلك أنه تدرج طويلاً ومضى بعهد تطور بطيء .

وبلغت تلك الحضارة أوج مجدها في الشرق والغرب في الزمن الغابر ، ثم أخذت في الهبوط والانحطاط ولكنها لم تنعدم قط في وقت ما ، بل وسنرى في قسم آخر من هذه الأبحاث ، كيف أن هذه الحضارة أخذت تستعيد نضارتها وتسترد نشاطها فهذه الحضارة في المقاطعات الأفريقية الوطنية التي دخلت فيها قد ظهرت بدرجة عالية من الرقى والتقدم من الوجهة الادارية والاجتماعية كما هي كذلك من الوجهة الفكرية والخلقية والدينية .

وهذا صحيح حتى إن أحد النقاد المحايدین استطاع أن يجاهر بالقول — عند المفاضلة بين نتائج الاسلام في أفريقية الغربية وبين نتائج تصديرها أو بالأحرى بين نتائج صبغها بالصبغة الأوروبية ، وهو يريد أن يقول : بين تأثير عمل الاسلام وتأثير عمل المسيحية في تلك البلاد من جميع الوجوهات — استطاع أن يجاهر بقوله : « اننا بمقارنة مجموع النتائج التي تسببت عن دخول الاسلام وبين نتائج النصرانية ، ليس فقط من وجهة عدد المعتنقين للدين — لأنه من هذه الوجهة نجد ضعف عمل المسيحية واضحاً

كل الوضع - بل ومن جهة التأثير الفكرى والخلقى والاجتماعى على الجماعات وعلى الأفراد، إذا قارنا بين كل تلك النتائج نجد بدون أى شك أن المقارنة فى مصاحبة الاسلام. فإذا كان الاسلام بداعى سموه له تأثير راجح فى أفريقية فإنه يجب علينا أن نثبت كذلك - وهذه هى ثلثي ملاحظتنا العامة - أن الاسلام يمتاز بخاصية الملاءمة لذكاء الشعوب الأفريقية (الشعوب السودانية) ذلك الذكاء الوقاد .

وفى الواقع يشتمل الاسلام على بعض المبادئ التى تتفق تمام الاتفاق مع أصول المبادئ الضرورية للحالة الاجتماعية التى يعيش عليها الشعوب السودانية . وأريد أن أتكلم هنا عن تعدد الزوجات والرق، وعلى الأخص عن بساطة المعيشة، تلك البساطة المدهشة عند كثير من المسلمين .

فهذه البساطة فى المعيشة هى قوة للاسلام، هى قوة تشبه له تأثيره على السود، قوة شخصية لتربية النفس بالنفس، ولتقوية الارادة والشجاعة عند المسلم الذى يختار لنفسه تلك الحياة البسيطة، وهذه البساطة فى الحياة يعجب بها حقاً وهى الى حد عظيم تحقق لناك المثل الأعلى للحياة البسيطة التى اقترحها علينا أخيراً بعض المسيحيين البارزين فى أوروبا وأمريكا .

وإن من بين الأسباب المديرة للبائع الدينى والى سردها سبباً خاصاً بأفريقيا يستحق الاهتمام به ألا وهو السبب السياسى، فهذا البائع لاعتناق الاسلام يختلط فى أكثر من حالة بضرورة المحافظة على المركز أو على النفوذ أو على السيطرة سواء أكان ذلك خاصاً بفئة ذات مركز اجتماعى أو بقسم من عشيرة أو من قبيلة أم خاصاً بالأفراد على حدتهم .

وهذا السبب السياسى الذى كان داعياً قاطعاً لاعتناق الاسلام، كان حقيقة أكثر تأثيراً قبل التقسيم النظرى والفعلى لبلاد أفريقية بين دول أوروبا العظمى ؛

ولما كان الاسلام عبارة عن نظام سياسى وإدارى فمن السهل أن ندرك لماذا أن الشعوب السوداء أو قبائل مجذافيرها ارتضت الاسلام ديناً ذلك الدين الذى أنالها به المسلمون القادمون من الخارج نجاء لها بقوة قيمة لا يستهان بها لحفظ كيائها بصفاتها حكومات مستقلة أو هيئات اجتماعية حية وغنية ، وبذلك توطد الاسلام بلا نزاع فى عدة مواقع من افريقية الوسطى والغربية .

وإن تاريخ المسمى سامورى يبين لنا بوضوح جلى الدور الذى كانت تلعبه المصاحبة السياسية لاعتناق الاسلام ، فقد كان سامورى فى العهد الأول من حكمه أى فى العهد السابق لاستيلائه على مدينة « فنقان » يتذبذب من الوجهة الدينية حسبما تقتضيه مصالحه السياسية ، فقد كان أولاً من عبدة الأصنام ثم اعتنق الاسلام مدة خدمته عند صورى ابراهيم تلميذ « محمدو » مؤسس مملكة طيديدان التى استقلت وأبقت تحت إمارتها القونيا والجنقوما والطوروقوتو ، ثم عاد بعد ذلك يعبد الأصنام ، وانتهى باعتناق الاسلام إبان حرب القونيا ، وقد كان يحضر على ألفا عثمان أحد مرابطى جلوفوتا جالون والمنتمى للطريقة القادرية والذى على أثر سماعه للدواعظ التى كان يلقيها الحاج عمر جاء وأقام فى هذه البلاد بمدينة ليلينكو ، ومنذ ذلك الحين كان يتبعه فى جميع فتوحاته ، وقد كان — بناء على إيعازة — أن تلقب سامورى بلقب « المسمى » بعد حصار فنقان .

ولكن من الواضح جداً أن المصلحة السياسية التى كانت تدفع الوطنيين الى اعتناق الاسلام كانت تقاوم بشدة من جانب استقرار سلطة الدول الأوربية ، فلم يجد السود أنفسهم فى حاجة بعد الاعتماد على الاسلام لمقاومة أسباب التلاشى التى كانت ترمى الى إفناء قبائلهم وإضعافهم أمام خصومهم — لم يجد السود أنفسهم فى حاجة لذلك — عند ما رأوا أنفسهم قد أصبحوا ضمن ممتلكات الدولتين المستعمرتين العظيمتين : فرنسا وإنجلترا .

وهذا الواقع أى دخول الأوربيين فى أفريقيا كان من نتائجه حسب بعض المناطق إبطاء فتوحات الاسلام وإطالة بقاء الديانات الوثنية ، وكذلك العودة فى بعض الأحوال من الاسلام الى عبادة الأصنام . فقد حدث أن قسما أصله من مقاطعة قايس من السوننكة أو الماركا ، الذى كان يدعو الى الاسلام وجاء الى هذه البلاد حوالى سنة ١٨٣٠ وأقام فى شمال باما كواغتنى واقتنى عددا عظيما من الرقيق — ان هذا القسم أخذ يهجر الاسلام ويعبد آلهة بامبارا ، وعلى أثر الاحتلال الفرنسى وعند إلغاء الرقيق لاسيما فى سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦ عاد عبيد السوننكة أو الماركا الى بلادهم الأصلية ، وهذا ما حمل جزءا من الماركا على أن يهجروا المدينة ويأووا الى الريف للاقامة به وفلاحة الأرض بأنفسهم التى كانوا يأمرؤن عبيدهم بزراعتها واستغلالها ، ومن هنا رأينا عددا من بينهم يعود الى عبادة الأصنام على ما يظهر .

ويذكرون أمثلة أخرى من هذا القمىل فى العودة الى الوثنية حيث كانت المصالحة السياسية — ويجب ملاحظة ذلك تماما — التى أشرنا إليها آنفا بأنها كانت من أسباب اعتناق الاسلام ، ان هذه المصالحة كانت كذلك عاملا عكسيا فى دفع الناس الى عبادة الأصنام ، وفى الواقع أنها هى نفس المصالحة التى كانت تعمل فى طريقين متضادين ، وهى مصالحة المحافظة على حقوق وامتيازات الجنس .

ونخيل إلينا كثيرا أن الدافع السياسى لا يعمل عمله فى أفريقيا اليوم فى مصالحة انتشار الاسلام إلا من الوجهة المحلية البحتة ، فاننا نرى مثلا فى بعض العشائر الوطنية غير الاسلامية التى يوجد بينها بعض المساهمين الذين هم من أصل أجنبى وقد يكونون كثيرى العدد ولهم من حسن السمعة وعلو الجاه إن لم يكن من النفوذ مالا يجعلهم أن يخضعوا بسهولة لزعمائهم — إننا نرى فى بعض تلك العشائر أنه ليس من النادر أن يعتنق هؤلاء الزعماء الاسلام علنا وبصفة رسمية : ومن الجلى أن هذا اعتراف بعلو كعب الاسلام بصفته ديننا وبصفته عاملا من عوامل الحضارة .

ونستخلص من الوقائع التي أسلفناها : الاحصائيات ، ووسائل الدعاية ، والأَسباب المختلفة لاعتناق الاسلام — أن الاسلام ينتشر ويتقدم وحتى يشغل السكان الأول بين مجموعة الديانات التبشيرية ، وهذا الاثبات هو خلاصة بحثنا الأول .

إن أمثلة العود الى الوثنية والردة من الاسلام التي أشرنا اليها ليس لها إلا أهمية ضئيلة ، فالتلك الأمثلة شبيهة في الديانات الأخرى ، وهذا لا يمنع من أن الاسلام كالمسيحية لا يزال منذ عدة قرون في عهد تقدم مستمر . بل ومن الجائز أيضا أن يأتي زمن وبتأثير أحوال لا نستطيع أن نتنبأ بها نرى أن أحد تلك الأسباب التي دعت الى اعتناق الاسلام وسبق أن نوهنا عنها — أن أحد تلك الأسباب يقوى ويتسع بشكل غير عادي حتى يجعل باستيلاء الاسلام على بعض أنحاء الكرة الأرضية كما حصل ذلك في خلال تاريخ الاسلام ، ومهما يكن من أمر ما يخبئه لنا المستقبل فإنه مما لا شك في ثبوته أن الاسلام فضلا عن أنه بعيد عن حالة الركود والخبود فإنه في تقدم مستمر ويزداد دائما عدد معتنقيه .

ويروى عن عقبه بن نافع أنه في سنة ٦٢ من الهجرة (٦٧٨ م) عند ما قام بتجريدة جديدة في المغرب الأقصى وبعد أن اخترق بلاد مراكش ووصل الى شاطئ بحر الظلمات ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده في لجة اليم ، ولما بلغ الماء صدر جواده نادى ربه قائلا : « يا إله محمد إن لم تكن أوقفتنى أمواج هذا البحر المتلاطمة لكنت ذهبت الى أقصى البلاد فأجمل ذكر اسمك المجيد الى مملكة ذي القرنين ، وأحارب في سبيل الدين وأقضى على من لا يؤمنون بك » .

إلا أن عمل الاسلام وتأثيره كانا أعظم مما قال هذا القائد المتحمس المختال الذي فاه بتلك الأقوال السالفة . فالاسلام قد عبر المحيطات ونشر في كل مكان العقيدة المحمدية .

(يتبع)

العلوم والآداب

أسطورة داروين^(١)

وبعدها عن الحقائق الثابتة في التاريخ الطبيعي

سبق لنا التنويه في الجزء السادس من المجلد الثالث من هذه المجلة عن مبلغ ما وصل إليه أنصار داروين في نظرية النشوء والتطور من سخف القول وبطلان الدليل ، حتى في أبسط الأمثال التي اتخذوها لإقامة دعامة صرحهم ، وكشفنا عن اغوهم فسقطت حججهم بانهميار بنائمهم المتداعى الأركان الضعيف الأساس .

وهكذا يدعون في أجناس الحيوانات الأخرى المختلفة ما سبق أن تقولوه في الخيول وأمثالها ، ولو أنهم في هذه الحالة أو تلك لم يستندوا إلى أدلة أو براهين قاطعة يقبلها المنطق السليم أو يؤيدها العلم الصحيح الثابت . ومما يستدعى العجب ويوجب التشكك أن « الحلقات المفقودة » التي يزعمونها لم يُهتدَ إليها حتى الآن في جميع عشرات آلاف الحيوانات المعروفة لنا ، كأن القاعدة التي جرى عليها التطور والتزمها التسلسل في نظرهم الأخرق هي أن تبقى تلك « الحلقات المفقودة » مفقودة إلى الأبد .

ولعمري فإنه لو لم يكن لدينا دليل موجب آخر سوى سقوط هذا الزعم وعدم ثبوت هذا الافتراض لكفى ذلك لإسقاط حججهم وزلزلة أركان بنائمهم المتداعى ،

(١) مترجمة عن الألمانية من كتاب الاستاذ الفاضل والعالم الكبير الدكتور « فان هوفستات » في تنفيذ نظرية داروين .

وأصبحنا على بينة من عقيدتهم الزائفة المزعزعة وتفكيرهم الضعيف، وأقننا بذلك دليلاً لا يخالطه الريب في أن الخالق سبحانه وتعالى هو وحده المسيطر على الإيجاد والإعدام. وقع أمثال هؤلاء العلماء في خطأ في التقدير أدى بهم إلى طريق سُدت عليهم فيه جميع السبل والمسالك، فلم يهتموا إلى ملجأ يأوون إليه أو منفذ يخرجهم من الظلمات إلى نور الهدى واليقين، وهم في إقامة حججهم يتخبطون في طرقهم الملتوية على غير هدى فيعودون إلى حيث يبدأون: فيفترضون المطلوب إثباته ثم يحاولون إقامة البرهان على سابق فروضهم.

إن الاستكشافات الأخيرة على كثرتها وتعدد أنواعها آلاف فصائل الحيوانات الحفربة كانت كفيلاً بأن تربك أذهان العلماء والمفكرين في العصر الحديث وتخلط عليهم الأسباب بالنتائج وتدفعهم إلى الاعتقاد في نظرية النشوء والتطور، فداخلتهم الوسواس في أن عدم الاهتداء إلى «الحلقات المفقودة» بعد لا يحتم فناءها، ووجدوا أنه من السهل الأخذ بالرأى القائل بأن حافر الحصان نشأ في آلاف السنين العديدة عن تحوير في الأصبع الوسطى في كل من نوعي «Eohippus» و«Erohippus»، ولكن ذلك يمكن قبوله كتفسير منطقي، ولا يمكن اعتباره برهاناً ثابتاً بأي حال من الأحوال.

يذهب الداروينيون في غلوائهم إلى أن التطور جرى في المملكة الحيوانية من حيوانات ذات خلية واحدة (أميبيا) حيوانات متعددة الخلايا (ميتازون) حيوانات نباتية، ثم إلى ديدان حيوانات ذات جلود شوكية حيوانات رخوة، ثم أخيراً إلى الحيوانات ذات الأعضاء المختلفة والحيوانات الفقرية. ثم قسموا الحيوانات الفقرية إلى سبعة أقسام أهمها الأسماك والطيور والحيوانات الثديية، ويفترضون أن الطيور نشأت من الزواحف الطائرة وأشباهاها، وأن مبدأ التطور كان الطائر الأول المسمى «Archaeopteryx lithografica» الذي كان له في كل من جناحيه مخالب وله ذنب طويل مثل أذنا الزواحف مغطى بريش الطيور، ولا بد أن هذا الطائر الأول كان

من الحيوانات ذات الدم الساخن . ومما لا يمكن تفسيره أن أحد الحيوانات ذات الدم البارد مثل الزواحف يتطور على مدى الأحقاب حتى يصير من الحيوانات ذات الدم الساخن . وقد عثر المنقبون حديثا في تراكيب الأرض التي يرجع عهدها الى العصر الثلاثي الجيولوجي على بقايا حفريّة لأحد أنواع الطيور المنقرضة المسماة «Pseudosuchier» وهو من أسرة الطائر الأول ، «Archaeopteryx» ولكننا لم نتمكن حتى يومنا هذا من إقامة الدليل الكافي على أن هذا الطائر الأخير يمت بأي علاقة — من حيث الاشتقاق — للطائر الأول .

يقولون على إحدى أنواع السحالي المائية المعروفة باسم «Ceratodus» بأنها إحدى حلقات التسلسل بين الحيوانات المائية والحيوانات التي تعيش على اليابس ولكنها في الحقيقة — كما ثبت ذلك حديثا لكبار علماء الحفريات — نوع قائم بذاته مستقل بكيانه يتوسط نوعين مختلفين في طبيعتهما . ولو أن هذا النوع المذكور من السحالي المائية الذي كان يعيش في أقدم عصور قبل التاريخ كان أحد حلقات التطور كما يدعى داروين وأصحابه ، فلم لا نراه اليوم يعتريه أى تغيير في شكله أو ظاهره وما زلنا نجده في بعض نهيرات استراليا ؟ ولم لا يزال محافظا تمام المحافظة على نوعه المتوسط بين الأسماك والأفميبيا (الحيوانات التي تعيش في الماء واليابس) ؟ .

فلو أن هناك تطورا كان وما زال يسيطر بأحكامه على المملكة الحيوانية ، لكن من المنتظر أن يعتري مثل هذا الحيوان الدنى أى تغيير بالغاما بلغ من التفاهة ، إلا أن هذه الأحياء البسيطة أمثال «Amoeba» (الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة) و «Ceratodus» (السحالي المائية) و «Drosophila» (نوع من أنواع الذباب) أثبت أن تكون عمادا لأصحاب أسطورة الذئوة والتطور الحيوانى .

عجز الداروينيون عن إيجاد أى دليل بسيط في المخلوقات يستندون اليه في إثبات التطور ، بعد أن أعوزتهم الحيل المنطقية في تمويه حججهم الواهية في إثبات

« الحلقات المفقودة » . ويوجد على ظهر الأرض حتى الآن أنواع وأجناس عديدة من الحيوانات التي يمكن وضعها في عداد أنواع وأجناس حيوانية ونباتية أخرى كانت تعيش في العصور التاريخية الأولى ولم يطرأ عليها أى تغيير أو يعتريها تطور ، مثل أشجار الماموث التي توجد بكاليفورنيا ، والسحالي الضخمة في الصين واليابان ، والحلقة ذات الخياشيم التي تقطن مغائر « Adelsberg » وغيرها .

كما ثبت للجهابذة علماء النبات أن أنواع الأزهار وأوراق الشجر والفواكه والحلطة والحشائش التي وجدت بداخل مقابر الملوك المصرية بأهرام الجيزة لم تتغير عن نظائرهما في الزمن الحاضر بعد انقضاء ما لا يقل عن ٤٠٠٠ سنة .

وفي العصر الجليدي كانت تقطن أوروبا وآسيا (خصوصا في سيبيريا) حيوانات الماموث وانقرضت جميعها ، إلا أننا تمكنا من استخراج ما يقرب من عشرين جثة في حالة جيدة بقيت محفوظة بالأراضي المتجمدة في سيبيريا ، وهي من أسرة الفيلة التي تقطن أفريقيا وآسيا في الوقت الحاضر ، ولو أنها تختلف عنها كثيرا في تركيب جسمها وأسنانها وشعرها ، ولم يتمكن أحد من أتباع داروين من إثبات اشتقاق النوع الثاني من الأول ، وأن حيوانات الماموث انحدرت من الحيوان المعروف باسم « Mastodon » ولم يتمكنوا من إيضاح نوع الحيوان الذي تطور منه هذا الأخير .

كذلك الحال في كل من الدب والنمر والأسد الأول التي كانت تقطن المغارات في العصور التي قبل التاريخ ، فكان دب الغار « Ursus spelaeus » يزيد حجما عن الدب العادي « Ursus arctus » ويختلف عنه في تكوين الجمجمة ، وكذلك أسد الغار « Felis spelaea » كان يزيد في الحجم عن الأسد المعروف لنا الذي يقطن غابات أفريقيا بمقدار مرة وثلاث ، وبالرغم من عدم وجود أى تماثل يحمل الإنسان على الاعتقاد بأن هذه الحيوانات التي تعيش اليوم على ظهر الأرض ترتبط بصلة ما من وجهة نظر التطور الصحيح بتلك التي كانت تقطن المغارات في العصور التاريخية الأولى ، فإن أتباع داروين ما فتئوا يرددون أسماءها على أسننتهم من أمثلة التطور المزعوم .

وفي الفترة الأخيرة من العصر الثلاثي الجيولوجي كانت تعيش بعض أنواع النمرور المنقرضة المسماة « *Smilodon Californicus* » وكانت ذات أنياب جانبية طويلة حادة ولذا أطلق عليها اسم (النمرور السيفية) لشدة شبه أنيابها بالسيوف التي كان يبلغ طولها ثلاثة أضعاف أنياب النمرور الحالية التي تقطن هضاب آسيا، ويضع علماء الحيوان تلك النمرور المنقرضة في مرتبة الحيوانات المعروفة علميا باسم « *Machairodontinae* » ولكنه لم يثبت لأحد مبلغ صحة اشتقاق تلك النمرور المنقرضة أو الأخرى التي لا زالت عائشة حتى الآن من أسرة النمرور « *Felinae* » من الفصيلة الحيوانية المعروفة باسم « *Machairodontinae* » ولكن المعروف أن جميع هذه الحيوانات إنما هي أنواع متوسطة مستقلة من فصيلة واحدة، ولا يمكننا عدّها حائقات في سلسلة واحدة حيث لم يقدم الدليل الكافي لإثبات اتحادها في الأصل والنشأة.

وفي العصر الطباشيري والعصر الجوراسي (وهو العصر الذي تكونت فيه جبال الجورا وبعض البحيرات العذبة) وكذلك في العصر الثلاثي الجيولوجي كانت توجد الزواحف على اختلافها بكثرة فئمة وكانت متسمة إلى أسر عديدة مثل « *Chelonier* » و « *Ichthyosaurier* » و « *Dinosaurier* » و « *Pareisaurier* » وخلافها، وكانت هذه الأسر يختلف بعضها عن بعض اختلافا يبيننا حتى إنه لا يمكن لإنسان ذي بصيرة وعقل راجح أن ينسب إحدى هذه الأسر إلى الأخرى، كما أنه يتعذر تصور اشتقاق أو تطور أحد فروع الأسرة الواحدة من فرع آخر.

اتفق علماء الحفريات من أتباع داروين على أن الحشرات التي تمتص المواد السكرية كانت معدومة في العصر الجوراسي بانعدام الأزهار المعسولة، وليس هذا القول ببعيد فإنه وجدت بطبقات الأرض الجوراسية بقايا حفرة لاحدى أنواع الفراش المسماة « *Limatodius mesozoicus* » لم يكن لها أداة لامتنصص المواد السكرية النباتية،

ولكن هذا النوع من الفراش لم ينقرض ، فكثيرا ما تصادف اليوم من هذه الفصيلة عددا ليس باليسير ، فمن المحتمل جدا أن ذلك العصر الجيولوجي كان خلوا من الأزهار السكرية ، ولكن ذلك لا يكفي للاستدلال على أن سنة التطور هي التي جعلت من النباتات زهورا تحمل مواد سكرية وللحشرات أعضاء لامتناس السكر النباتي ، كما يتوهم داروين وأصحابه بالرغم من ضعف الدليل ووهن الحجة .

كان الأحرى بجماعة المفتونين لو أنهم استعملوا الحكمة والمنطق السليم وبعثوا عن أهوائهم وطرقوا السبيل المستقيم أن يعلّموا أن العناية الإلهية هي التي خصت كلا من المملكة الحيوانية والنباتية بخصائص ومميزات تختلف باختلاف الأقاليم والعصور التاريخية المتباينة .

المرجو من القارئ الكريم تصحيح الكلمات الآتية :

صفحة	سطر	خطا	صواب
٥٢٠	٩	أنه يثير	أن النظر يثير
٥٢٨	٨	المسفاحين	المسافرين
٥٢٨	٢٠	يقوم ذلك	يقوم فيها ذلك
٥٣٩	١٠	وحدودها	وحدودها
٥٥٧	٢١	قد استهر	قد استهر
٥٥٧	٢١	أن يستهر	أن يستهر
٥٥٩	١٤	واسته	واسته

It is significant that societies of prevention of cruelty to animals were founded in Europe a little over a century. Many ignorant people who are wont to judge religions rather by the conduct of those who profess it than by the intrinsic value of its precepts, have deemed Islam oblivious of the claims of animals to kindness and wrongly accord the honour to Europe for the institution of those charitable codes. Suffice it to say that the first society of prevention of cruelty to animals was founded in England in 1824 while Islam has urged to kind and merciful treatment of animals thirteen and half centuries ago.

In concluding this article, it should be pointed out that if man, despite his ability to express himself and defend his own rights, stands in need of protection, the dumb animal stands, in this respect, in a far greater need of someone to solicit mercy on its part and defend it against the cruel treatment of people.

It is earnestly hoped that societies of prevention of cruelty to animals, should be established throughout Moslem lands to carry on the great traditions of Islam and supervise the conduct of people as regards the treatment of animals so that they may do all that lie within their power to put an end to the abuse and cruelty which dumb animals suffer at the hands of their cruel owners.

NOTICE

Readers are kindly requested to make the following corrections in the previous issue of this Review :

Page 17	line 10	be should read he
Page 18	line 27	And should read He
Page 19	line 2	debars should read debars from
Page 19	line 4	question should read questions
Page 24	line 24	animals should read animal
Page 24	line 33	forbiden should read forbidden

camel, felt annoyed with it and cursed the animal. The Holy Prophet (Peace be on him), who happened to overhear the woman's curse said :

“Unharness the camel and set it free for it is a cursed one.”

The Prophet (Peace be on him) had ordered this as a punishment to the woman.

In another citation of the Tradition, the Prophet is cited to have said :
“No cursed camel should accompany us.”

It may thus be seen that the way adopted by the Holy Prophet, constitutes a severe warning against the cursing of animals. For it was his practice to point out something which the people thought to be of no consequence and forcibly warn against it until they leave it off altogether. The prohibition of cursing animals has a healthy and purifying effect upon men inasmuch as it preserves the tongues from the utterance of evil. When men refrain from cursing dumb animals to which curses are meaningless and unintelligible, they are more likely to refrain from so doing to their fellow-beings.

These are only a few instances of what Islam has ordained as regards kindness to animals. That these precepts had a far-reaching effect on the souls of faithful followers, is abundantly shown by the following incident :

Sheikh Abu Ishaq Al-Shirazy (1) was once on a journey in company of one of his friends. As they were going along a road, a dog crossed their path and the friend shouted at it in an attempt to drive it away. The Sheikh severely censured the act and said :

“Are you not aware that the road is common unto us both” meaning thereby that it is as much the dog's as it is his !

Thus has Islam striven hard against cruelty to animals and ordained such laws relating to the treatment thereof as were established on a basis of mercy and kindness. It may be seen from what has already been detailed in this article that Islam has given the lead to the societies of prevention of cruelty to animals and has supplied a sound basis on which they can build up their charitable work. Indeed, there could be no soul or society which preaches a certain aspect of good but will it find in this Religion a strong support and true guidance to help it through when turmoil and confusion prevail.

(1) Sheikh Abu Ishaq Al-Shirazy is a famous Moslem Law-doctor.

Prophet (Peace be on him) has forbidden the incitation of animals against one another.

Nor is this all. The following incidents will convince the reader of the true love and kindness which Islam bears for animals.

Abu Daoud cites on the authority of Abdul-Rahman Ibn Abdullah (1) who, in his turn, cites on the authority of his own father the following incident :

"We were in company of the Prophet (Peace be on him) on a journey. The Prophet had gone in search of something and we caught sight of a lark with its two young ones which we managed to take from the mother. The lark hovered round us beating its wings frantically against its sides. On coming back and realising what had taken place, the Prophet (Peace be on him), said : "Who hath bereft this mother of its young ones ? Give them back to her."

Once on the same journey, he came across an anthill which we had burnt down, "Who hath burnt this" ? inquired the Prophet. "We did," we answered. "No one is entitled to chastise with fire save the Lord of fire Himself" (2) said he.

The learned people have declared it a sin to allow a child to play with a bird in such a way as to cause it pain.

As to what is cited in the Tradition concerning a weaned child of Ommou Saleim (3) playing with a bird, it is presupposed that such play involved no torture to it as in the case of the bird being inside a cage or in the case of such play being in the presence of one of the child's parents who knows full well the sin involved in the abuse and torture of animals.

The least that could be said as regards abusing and cursing animals, is that it is definitely a folly which could only be committed by someone who is in the habit to hurl curses and abuses without stopping for a moment to think of their meaning or the purpose that they could possibly serve.

Traditions are cited which strongly warns against the cursing of animals. It is cited in "Sahih Muslim," "that a woman who was riding a

(1) Abdul-Rahman Ibn Abdullah, a Moslem Traditionist.

(2) Cited by Abu-Daoud.

(3) Ommou Saleim is the mother of Anas Ibn Malek one of the Prophet's companions.

The Prophet (Peace be on him) says in this connection :

"If you journey through fertile land, let ye the camels graze thereof" and in another citation of the Tradition : "And pass ye not the halting places."

It is cited in the authentic Tradition that the Prophet (Peace be on him) said :

"No band of bowstring or otherwise should there be round camel's neck but should it be severed and dispensed with."

Some of the learned people have rightly interpreted this Tradition as conducive to kindness to animals. Their argument was that the bands round the camel's necks were ordered to be cut and dispensed with for fear that the animal might, when ridden at full gallop, be strangled thereby as such bands make it inconvenient for it to breathe or graze freely. Moreover it may be feared that the band round the animal's neck might get entangled in a tree and possibly cause the animal to choke or hinder it on its onward career.

It is forbidden to stand upon the back of an animal as this is inconvenient to the animal and necessarily entails a good deal of pain. In this connection, the following Tradition is cited :

"Beware of making use of the backs of your animals as platforms to stand thereon for Allah hath only given them unto you in order to convey you to a place which you could never have reached except with strife and distress of soul." (1)

Al-Ghazali mentions that the pious people of old, never stood upon the backs of animals for any length of time to spare them the pain and inconvenience involved in such act.

Among the ways adopted by the cruel-hearted to torture animals, is the incitation of one animal against another such as takes place between rams, cocks, etc. This so-called sport is forbidden by the Moslem Religion as it involves a great deal of torture and exhaustion to the animal for no useful end whatsoever.

In "Sunnan Abu Daoud and At-Termethy," (2) it is cited that the

(1) Cited by Abu-Daoud.

(2) At-Termethy, a famous Traditionist.

on one occasion three people riding a mule. "Let one of you dismount for the Messenger of Allah (Peace be on him) hath cursed the third," said he.

At-Tabary (1) cites regarding Ali Ibn Abu Taleb that he said :

"If you see three people riding an animal, stone ye them until one dismounteth." This is in case the weight of the three persons overburdens the animal but if it can stand it as for instance when a camel is ridden by a man and two boys, then it is permissible particularly if it is ridden over a short distance.

This was done by the Prophet (Peace be on him) when he came to Mecca mounting a mule and was met by some boys of Beni Abdul-Muttalib. He permitted one to ride in front of him and another behind.

It is kindness to animals not to hurt them with severe beating or inflict wounds upon them.

The mark made on camels meant to be given away to the poor at pilgrimage time, was no more than a small incision made in the hump of the camel with a lancet or the like to mark it off as one of the camels given away to the poor.

The stabbing of a camel with spears or other implements which pierces the skin of the animal to the flesh is only done by ignorant folks and all learned people are unanimous in the condemnation thereof.

Castration of animals is forbidden. Ibn Omar (2) cites that "the Prophet (Peace be on him) had forbidden the castration of camels, oxen, rams and horses." (3)

On the strength of this Tradition, some of the learned-people definitely forbid the castration of any male animal. Others however, hold such castration to be permissible when it is deemed beneficial as for instance when the animal is given to biting. But should there be a way other than castration to bring about the desired change in the animal, the learned people do not differ as to forbidding it on account of the pain involved.

It is kindness to the animal not to continue riding it on a long journey which is bound to exhaust it.

(1) Ibn Jarir At-Tabary the famous Moslem historian and Commentator.

(2) Ibn Omar, son of Omar Ibn El-Khattab.

(3) Given in Al-Tahawy's "Ma'ani Al-Aathar."

only when they are sound of body and eat them only when they are fit for eating." (1)

Islam forbids the ill-treatment of animals by overloading them with heavy burdens which they are unequal to carry. The companions of the Prophet knew from their constant association with him that "whosoever overloadeth an animal will be called to account on the Judgment Day".

It is related of Abul-Dardaa, a companion of the Prophet that he addressed a dying camel of his thus :

"Complain me not to thy Lord, for I have never overloaded thee beyond what thou couldst bear."

In speaking of kind treatment of animals and urging to avoid overloading them beyond their endurance, al-Ghazali (2) says :

"The howdah (3) of two equal sides is beyond what animals could bear and sleeping on their backs is both painful and heavy for them."

In another part Al-Ghazali says :

"Never did the pious people sleep on animals' backs except for a doze while sitting up."

The loading of animals is only permissible when the animals loaded are meant for carrying burdens as in the case of camels, asses and mules. It is not permissible to load animals which are meant to serve other purposes such as the cow. In this connection, Ibn Al-Arabi (4) says :

"There is no difference of opinion as regards the cow being exempt from carrying loads. Several learned people have even forbidden its being ridden on the ground that it is unequal to such a task. But cows could be made use of in such purposes as tillage and watering of plants for which purposes they are well-fitted."

It is kindness to the animal not to be ridden by three persons whose weight will overburden it.

Ibn Abu Shaiba (5) cites on the authority of Zathan (6) that he saw

(1) Cited by Abu Daoud.

(2) Al-Ghazali is the famous Moslem philosopher.

(3) A howdah is a seat fastened to the animal's back said to be first used by Al-Hadja Ibn Youssef Al-Thaqafi.

(4) Abu Bekr Ibn Al-Arabi was a famous judge of Seville, Andalusia.

(5) Ibn Abu Shaiba, a famous Moslem traditionist.

(6) Zathan was a contemporary of certain companions.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM AND KINDNESS TO ANIMALS ⁽¹⁾

(Continued)

The Moslem law-doctors have declared it obligatory to attend to the watering and feeding of an animal by supplying it with fodder and giving it personal care or trusting the care thereof to someone else even though he has to be paid for his services. On this point, they all concur. Some of them however, declare that a man should be forced by law to do so and if he would not carry out the ordinance of the law, the animal should be sold and should not be allowed to suffer the pangs of starvation at its cruel owner's hands.

We read in the authentic Tradition that on passing once by an emaciated camel whose back almost touched its stomach, the Prophet (Peace be on him) said :

"Fear ye Allah in the treatment of these dumb animals, ride them

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammed Al-Khidr Husain's editorial in Nour-El-Islam Review.

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ وَضَوَاءَهُ يُسِيلُ النَّارَ
وَيُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِمْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ

بُشْرَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَكْبَرِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء التاسع | رمضان سنة ١٣٥١ | المجلد الثالث

رئيس التحرير
السيد
محمد الخضر
من علماء الأزهر

مدير إدارة المجلة
عبد المجيد بن
المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى سابقا

الاشتراك
داخل القطر المصري ٤٠ ...
خارج القطر المصري ٥٠ ...
للمعلمين غير المدرسين وأئمة المساجد
والسأذنين ومعلمي المدارس
الاولية والطلاب ...
داخل القطر ٢٠
خارج القطر ٣٠

الإدارة
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١
تليفون : ٨٤٣٣٢
الرسائل تسكون باسم مدير المجلة

من الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل شهر رمضان

كان هذا الشهر مظهر الكتاب الذي هو منار الهداية ومطلع السعادة ، كما قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) وإن شهرا ينزل فيه كتاب يملأ المقول حكمة ، والقلوب طهارة ، لذو طلعة مباركة ومقدم كريم .

ومن مزايا هذا الشهر أنه الشهر الذي فتحت فيه مكة المكرمة ، ذلك الفتح الذي علت به كفة الاسلام في البلاد العربية ، وعلى أساسه قامت الفتوح الاسلامية في الشرق والغرب .

فقد جمع هذا الشهر بين مرتبتين عظيمتين : (أولاها) أنه الزمان الذي أنزل فيه القرآن الى سماء الدنيا جملة ، أو ابتدئ فيه نزوله الى الناس ، ثم تواردت آياته على حسب ما تقتضيه الحكمة ، و (ثانيتهما) أنه كان مظهر الفتح الذي استوثقت به عرى دولة الاسلام حتى مدت سلاطنها العادل ، وساست الأمم بشريعة تلاءم مصالحة كل زمان ومكان .

واقترضت حكمة الله تعالى أن يكون للناس من بين سائر الشهور شهر يقضون بياض نهاره في عبادة الصوم ، واختار أن يكون شهر رمضان هو الشهر الذي تؤدي

فيه هذه العبادة ذات الحكمة السامية والثواب الجزيل ؛ ولِعَظُم ما يترتب على الصيام من إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق ، جمعت فريضته في القواعد التي يقوم عليها الاسلام ، والدليل على أن القصد من الصيام الإصالح والتهذيب ، لا تعذيب النفوس بنحو الجوع والعطش قوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه ^(١) وشرابه) ، وليس معنى هذا الحديث أن من يقول زورا ويعمل به ، ليس له من صيام ، وإنما القصد منه التنبيه على أن الصيام لا يتقبله الله تعالى بقبول حسن إلا إذا اجتنب صاحبه قول الزور والعمل به .

أمر الشارع بالإِنْفَاق في وجوه البر ، وورد في السنة ما يدل على أن للإِنْفَاق في هذا الشهر فضلا على الإِنْفَاق في بقية الشهور ، يظهر هذا من حديث ابن عباس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ^(١)) وفضيلة التأسي به عليه الصلاة والسلام تدعو الى بسط اليد بالمعروف في هذا الشهر أكثر من بسطها فيما عداه من الشهور ، حتى يجد الفقراء من إحسان الأسخياء راحة بال ، فيقبلوا على الصيام والقيام بنشاط .

أمر الشارع بتلاوة القرآن تمكيناً لحجته ، واستضاءة بنور حكيمته ، وجاء في السنة ما يرشد الى الاستكثار من تلاوته ، يظهر هذا من حديث ابن عباس في لقي جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا الحديث (وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ^(١)) والدراسة القراءة ، وما زال أولو الألباب من الناس يعملون لشهر رمضان نصيباً من تلاوة القرآن أكثر من نصيب كل شهر .

والتهجد في جزء من الليل ، قربه يبعث عند الله مقاماً محموداً ، ونهت السنة على أن من جزاء القيام في ليالي رمضان غفرانا يتحو الذنوب السالفة ، قال صلى الله عليه

وسلم : (من قام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه) وظاهر الحديث أن هذا الغفران المترتب على قيام رمضان ، يأتى على الذنوب السالفة جميعاً فيسقطها ، ولكن أهل العلم قصره على صغائر الذنوب دون كبائرها ، ورأوا أن فضل العمل الصالح لا يبلغ أن يسقط الكبائر من المعاصي وصاحبها لم يتب عنها ، أو لم تقم عليه العقوبة المقررة على من يرتكبها . يقولون هذا وهم يُسمّون أن لشئنة الله تعالى سلطاناً قد يفعل في كبائر الذنوب ما تفعله التوبة الخالصة ، أو إقامة الحدود .

ومما استندوا إليه في تقييد المغفرة في هذا الحديث بصغائر الذنوب أحاديث وردت في فضل أعمال أخرى وقيدت فيها مغفرة الذنوب باجتناب كبائرها .

وكان صلى الله عليه وسلم يتهجد في ليالى السنة بأسرها ، وورد في الصحيح أنه خرج في إحدى ليالى رمضان من جوف الليل ، فصلّى في المسجد ، وصلى رجال بصلاته جرى هذا ثلاث ليال ، ولم يخرج في الليلة الرابعة ، وقد ضاق المسجد على الحاضرين ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ، ثم قال : (أما بعد فإنه لم يخف على مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفترض عليكم ، فتمعجزوا عنها ^(١)) والخوف من اقتراض هذه الصلاة قد يكون من جهة أن الله تعالى جعلها في حقهم من الأمور المندوب إليها ، ولم يأمرهم بفعلها في جماعة على نحو الصلوات المفروضة ، وفقاً بهم ، فإذا تظاهروا بالقوة عليها ، وساروا بها سيرة ما افترضه الله عليهم من الصلوات ، كانوا قد شددوا على أنفسهم في أمر جعل الله لهم فيه يسراً ، فمن المحتمل أن يكون ما أخذوا به أنفسهم من الشدة سبباً لأن ينزل الوحي بفرض هذه الصلاة ابتلاء لهم حتى يظهر عجزهم عن إقامتها ، ويدركوا العسر الذى راعاه الشارع في عدم إيجابها والتأكيد في الاجتماع لها ، ومتى كان القصد من فرضها تنبيههم لوجه الرفق بهم في عدم فرضها

(١) صحيح الامام البخارى .

أولاً ، لم يلزم استمرار هذا الفرض حتى يقال كيف يأمر الشارع الناس بما يعجزون عن المداومة عليه ، وقد رأينا الشارع يسن أحكاماً لمقاصد سامية حتى إذا أحس الناس بما فيها من عسر عاد الى ما يقتضيه أصل التشريع من الرفق والتيسير ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قصد بعدم خروجه لصلاة التراويح في المسجد قطع أمر من المحتمل أن يكون وسيلة لتسكيف يثقل عليهم القيام به ويظهر عجزهم عنه .

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن الناس يجتمعون في صلاة القيام برمضان على إمام واحد ، وبقوا على هذا الحال الى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأقام أبي بن كعب إماماً لهذه الصلاة ، وجمع الناس على الاتِّمام به ، قال عبد الرحمن القارئ : « خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان الى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد ، لكان أمثل ، ثم عزم فجمهم على أبي بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، قال عمر : نعم البدعة ^(١) هذه » .

فالذي فعله عمر بن الخطاب إنما هو جمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا يصلونها فرادى وجماعات في المسجد متفرقة ، فعلَ هذا لأن الأمر الذي ترك من أجله رسول الله صلى الله عليه وسلم إقامة المسجد في جماعة ، وهو خوف الافتراض قد انقطع بالوحي ، فعمر بن الخطاب استند فيما فعل الى عمل النبي صلى الله عليه وسلم مع تحقيق النظر في الوجه الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تركها من أجله ، وأراد بالبدعة هيئة اجتماع الناس على إمام واحد ، وسمّاها بدعةً تشبهاً لها بعد أن تركت سنين ، بما أحدث على غير مثال سابق .

وتفضل الله تعالى بليلة جعل العمل فيها خيرا من العمل في ألف شهر ، وهى ليلة القدر ، وجهود أهل العلم على أنها تكون في رمضان ، أخذاً بظاهر أحاديث أرشدت الى التماسها في هذا الشهر ؛ ومن ذهب من الساف الى أنها تكون في ليلة من السنة غير مقيدة بشهر ، حمل تلك الأحاديث على التماس ليلة القدر في رمضان من تلك السنة خاصة .

وهذه الأعمال الصالحات التي جعلها الشارع عمارة شهر رمضان من نحو الصيام ، والقيام ، وتلاوة القرآن ، وبسط اليد بالمعروف ، شأنها أن تهذب النفوس ، وتجبب اليها التقوى ، وتعودها على السباحة واحتمال المسكاره ، وتهيئها للثبات والمواظبة على صالح الأعمال في سائر أيام السنة ، فن اتقى في شهر رمضان بعض المحارم ، ورأيت يه يصوم مع الصائمين ، ويصلي مع المصلين ، حتى إذا انقضى هذا الشهر ، جعل يتباطأ عن أداء الواجبات ، ويبادر الى ما كان يتقيه من المحرمات ، فذلك الذي أقام أعماله على غير إخلاص ، ولم يخاط قلبه بشاشة الاستقامة على ما أمر الله .

فضل شهر رمضان بما وصفناه من المزايا ، فاستحق اليوم الذي يلي آخر يوم منه أن يتخذ عيداً ، لأنه يوم تمتلئ فيه قلوب الناس ابتهاجا بما عملوا في هذا الشهر من خير ، وأى نعمة يصيبها الإنسان في هذه الحياة تساوى نعمة أداء ركن من أركان الاسلام محفوفا بضروب من أجل الطاعات وأشرف الآداب ، وأى ارتياح يساوى في نظر أولى الألباب ارتياح النفس عند ما تشعر بأنها اتقت الله ما استطاعت ، وإنما ارتياحها لما تراه من رضا الخالق وما يتبعه من عزة في الدنيا ، وسعادة في الآخرة .

محمد الحضر حسين

النفس

سورة النور

١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

إن من يقرأ الآيات السابقة ويتأمل ما فيها من المواعظ البالغة ، ويستجلي ما تضمنته من حكم صادقة ، ويكرر النظر فيما احتوته من مصالح عظمى وإرشادات نافعة ، ويرى مساس ذلك بحياة الأمرة التي هي أول مراتب الاجتماع وأساس درجات الارتباط ، سيجد نفسه وقد انطلق لسانه ممتلىء القلب باليقين (اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

أجل : فلقد شرع لنا في تلك الآي المتقدمة من الأحكام الرشيدة والحكم البالغة ما لو استضأنا بمصباحه في سبيل حياتنا البيتية لسلكنا أقوم سبيل ، وحينما حياة هي المثل الأعلى في راحة النفوس وطمانينة القلوب . شرع لنا هذه الأحكام على يد رسول

منا، نشأ حيث نشأ قومه، تحيط به وبهم عادات منكورة، وتتحكم فيهم مألوفات شنيعة من شأنها أن تحول بين النفوس وتلمس الطرق النيرة، فانبثاق هذا النور الصافي من نفس واحد منهم دليل بنفسه على أن مصدره هو القوى الأعظم المهيمن على كل ما في الوجود علوى وسفلى. هذا الإرشاد العظيم إنما هو صنع الإله الحكيم العليم، فهو نور يصح أن يقول فيه من أشرق على قلبه بعد تلك الظلمات المستحكمة: الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، فمن ذا الذى يهدى لهذا النور إلا الله.

ترى بهذا مواقع الحسن فى اتصال هذه الآية الكريمة بمجموع الآيات السابقة وبخاصة بعد أن أردفت تلك الآى بما يرجع النظر إليها جملة من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) فإنها من شأنها أن تدعو الى استحضارها جملة، وتمثل ما احتوت عليه من فوائد وإرشادات وأحكام وحكم، فتتجلى أنوارها دفعة واحدة، وتظهر منافعها جملة، فتنتطق الألسنة بالحمد، وتهز القلوب والجوارح بالشكر، وتحمل على الاعتراف بأن هذا النور والهدى إن هو إلا نور إلهى مصدره هو من بسط النور العام فى أرجاء السموات والأرض.

والنور هو هذه الظاهرة الفائضة على الكون التى يكون بها الإبصار والاهتداء والإدراك. وكما تطلق على هذا النور الحسى الذى هو واسطة الإدراك بالبصر، قد تطلق على النور المعنوى الذى هو واسطة الإدراك بالبصيرة، كظاهر الاِقتان والإحكام الشاهدة بعظيم اقتدار الصانع. وكذا تطلق على القوة التى فى العين والتى فى القلب، كما يقال: ازداد نور عينيه أو نقص نور عينيه، وكما يقال: فلان بصيرته نيرة، وهو نير العقل ونور عقله صاف، وهلم جرا، وعلى العموم قد تعورف فيما به الاهتداء والإدراك، وإن كان أصله اسما للنور الحسى. ولعلك ترى أن الاهتداء الذى سببه النور هو الأصل

الأصيل في تصحيح كل عمل من الأعمال وإيتائه ثمره ، وكل عمل على غير هدى ولا نور فلا صحة له ولا ثمرة ولا اعتداد به ، حتى لو فرض أن عملا عمله صاحبه جزافا على غير بصيرة منه فاتفق أن ترتب عليه ثمرة لم تكن له على بال ، ما زاد ذلك من قيمة العمل ولا شرف صاحبه ، بل كانت تلك الثمرة من باب ما يخلقه الله بلا واسطة من ناحية العبد ولا مدخلة له . وإذا كان النور والهدى أصل الاعتداد بالأعمال كلها جليها وحقيرها ومنشأ إيتائها ثمرها ، وجب أن يجعل في الصف الأول في كل باب من أبواب الحياة وكل أثر من آثارها ، وما عداه تابع له في النتيجة والاعتداد . من أجل هذا اتسع الاستعمال في لفظ النور وأطلق على كثير من المعاني التي تعتبر أساسا لغيرها في الثمرات وإيتاء النتيجة ، فيقال : فلان نور البلد ، إذا كان مدبر نظامها ومرتب شؤونها على وجه تام ، ويقال للنظام نفسه والتدبير المحكم ، نور ، فتقول : قد بنى هذا العمل على نور ، وهذا الأمر يتجلى نوره واضحا ، وذلك الأمر لا نور فيه ، تشير بذلك الى ما حوى من نظام وإحكام .

وعلى هذا تجد التعبير في الآية الكريمة (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) من التعبير المستفيض في مجازي العقول ، ولا يمكن أن يفهم منه أن الله هو النور الحسى الذى هو واسطة الإبصار ، بل إما أن يكون معناه مدبرها على هذا النظام والإحكام والمفيض عليهما من كمال الصنعة وإتقانها ما به يصح أن يقال عنه إنه نورهما ؛ وإما أن يكون نور بمعنى منور أو ذو نور ، كما يقال : فلان كرم وجود ، وكما قل القائل : « وأنت لها نور وغيث وعصمة » . والإخبار عن الشيء بمصدر الصفة كثير مبالغة في اتصافه بها كأنه صار إياها . ويستأنس لهذا بقراءة : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بصيغة الفعل الماضى . ومعنى تنويره لها إما إفاضة النور الحسى عليهما ، وإما إتقان صنعتهما وإكمال نظامهما حتى صارا يشهدان شهادة نيرة لا إبس فيها ولا غموض أن مبدعهما كامل

التدرة والعلم والحكمة؛ وإما نور السموات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء والشرائع .
وإذ لا تضاد بين هذه المعاني فالأكل أن يكون المراد بالنور ما يشدّل هذه الأمور
كلها، فقد أثار السموات والأرض بالنور الحسى ، وبث فيها من كمال النظام ما يجعلها
منيرة السبيل لمن تفكر فيها ، وأكمل ذلك بالنفوس العالية وما أناها من شرائع
وهداية ، وفطر السموات والأرض لأنهما هما الخلقان العظيمان اللذان يملآن قلوب
المخاطبين روعة وجلالا ، وتألها مداركهم حسا ومعنى ، وإلا فهو نور لجميع العالم مما
رأينا ومما لم نر .

هذا وقد حاول الامام الغزالي رحمه الله أن يحمل النور في الآية الكريمة على
حقيقته فقال ما ملخصه باختصار : إن النور اسم لما يكون ظاهرا بنفسه مظهرا لغيره ،
وتقابله الظلمة ، فهي الأمر الخفى الخفى ، وأحق الأشياء بالظهور الوجود ، وأحق
الأشياء بالخفاء العدم ، فكما كان الأمر أكل وجودا كان أظهر وأجلى ، والممكنات
إذا نظرت إليها في ذاتها لا تجد لها وجودا إلا ما تستمد من المبدع الأعظم ، فهو
صاحب الوجود الذاتى وما عداه عدم لولاه ، فأحق المعانى بأن يسمى نورا هو أَدْخاها
فى الوجود ، وذلك هو الموجود لذاته ، فهو نور الأنوار جميعها ، ومظاهر الكائنات
كلها ، ولولاه لكانت مظلمة في ظلمات العدم ، فهو النور على الإطلاق .

وإنك لتلمح فيه المسلك الصوفى أكثر مما ترى فيه التفسير اللغوى العربى ،
إلا أن أرجعته الى معنى مفىض الوجود والنظام والإيقان وبسط النور فى أرجاءهما ،
حينئذ يرجع الى ما قدمناه .

والخلاصة أن النور هنا لا يصح أن يراد به تلك الظاهرة المحسوسة التى هى واسطة
الإبصار ، فالمراد بالنور إما الهداية ، والمعنى أنه صاحب النور والهداية : هدى أهل
السموات والأرض بما أودع فى نفوسهم من قوة وبما نصب لهم من أدلة ؛ وإما معنى

التدبير وإجراء سننهما في شئونهما على مقتضى الحكمة ؛ وإما بمعنى إبداعهما في خلقهما على أكمل صفة ؛ وإما بمعنى منيرهما بالسكوا كب نورا حديا ، وبالشرائع نورا معنويا ، أو منير السموات بالملائكة والأرض بالأنبياء ؛ وبكل معنى من هذه قال فريق .
ولك أن تجمع المعاني كلها في كلمة نور كما سبق ، فهو المدبر لما يجري فيهما ، وهو المبدع لخلقهما ، وهو باث النور الحسى والمعنوى في أرجائهما ، وهو منزل الشرائع ، وباعث الملائكة بوحيه ، وهاديهم لعبادته ، جل شأنه ، وتبارك اسمه ، ولا إله غيره .

وبعد فهذا انتقال من تقرير الأحكام الفرعية التشريعية الى تقرير حكم الايمان بالله ودينه ، وبيان شأن الدين في ظهوره واستنارته ووضوحه ؛ وسيأتى إردافه بصفة الأديان الباطلة وأنها خيال لا قرار له ولا حقيقة في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) وهذا الأسلوب العجيب مما يكاد يكون مختصا بالذكى الحكيم ، فان بيان الفروع على وجه يحل فى النفس خير محل ويتمكن منها فضل تمكن ، مما يصح أن يعتبر نبراسا يهتدى به الى أن مصدر هذه الإرشادات لا يكون إلا الحق المبين . والتمهيد له بقوله : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) مما يهتدى العقول لقبوله والاعتراف به ، مع أن المعتاد أن يؤخذ صحة الأصل دليلا على صحة الفروع ، ولكنه التنويع فى الهداية الربانية ، كأنه يقال لك : إن كل المسالك أمامك نيرة ، فاذا نظرت الى فروع الأحكام وما فيها من صحة وسداد وفائدة ورشاد ، عرفت أنها لم تنبت إلا من شجرة طيبة ، فطيب الثمر دليل على طيب الشجر . وإذا نظرت الى أصل الايمان وما قام عليه من متين البرهان ، علمت أن الأحكام المتفرعة عن هذا الأصل الصحيح لا تكون إلا خيرا عظيما ونفعا عميما .
(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) .

المثل معناه الصفة ، ولا يكاد يستعمل المثل في الصفة إلا حين إرادة التنويه بشأنها وتفخيم أمرها . ولذا يقولون : المثل الصفة العجيبة ، كأنهم أبرزوها في ثوب ما يتمثل ويتخذ مثلاً يضرب لغيره . ومنه قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) ويصح أن يلاحظ فيه معنى التمثيل والتصوير ، كأنه يقال : إن تصوير نوره بمثال يحاوه لك وتمثله به هو كشكاة فيها مصباح الخ . والنور هنا هو الهداية التي بسطها للعالمين من أدلة عقلية وسمعية ، وأحكام صحيحة وإرشادات نافعة . والمشكاة : السكوة غير النافذة . والمصباح : السراج الضخم الثاقب . كأن أصل أخذه من الصبح لما فيه من الضوء . والزجاجة : القنديل الشفاف الصافي . والكواكب : الأجرام السماوية المضيئة . والدرى : قرى بالضم والتشديد نسبة الى الدر لصفائه وتلألؤه ، وقرى بالكسر والهمز على وزن سكين ، من الدر بمعنى الدفع ، كأن نوره يدفع بعضه بعضاً لشدة لماعته وتألّق نوره . والمباركة : النامية . والزيتون معروف . ومعنى لا شرقية ولا غربية أنها ليست شرقى شئ كجبل أو حائط يحجب عنها ضوء الشمس آخر النهار ، ولا غربى شئ كذلك يحجب عنها شمس أول النهار ، فهي صاحبة لضوء الشمس ومرور الهواء ، وذلك أكل لنضجها وأطيب لثمرها ، فإن الشجر المحجوب عن الشمس والهواء يكون ضعيفاً عادة .

وقد ترى ما في هذا التصوير من إبراز النور على أكل وجه وأشدّه أثراً في النفس ، فقد جعل النور نور مصباح ، وذلك أشد أثراً في النفس وتمثلاً لمعنى النور وتقدير له من كل أنواع النور ، ذلك أن نور الشمس وإن كان أقوى الأنوار المعروفة المألوفة إلا أنه لموم بسطه على الأرجاء لا تجده في النفس من تمثيل معنى النور ما تجده للمصباح يوقد في وسط الظلام فيبده في مقره مع بقاء الظلام في غير هذا المكان يذكر بمعنى النور ويشيد بشأنه . وإنك لتجد لنور المصباح في الظلام من التمثيل

أمام العين وانجذاب البصر إليه ما لا تجده في الضوء العام الشامل، فإنه بشموله يصير كأنه أمر طبيعي مفروغ منه لا يحرك من النفس ما يحركه النور الخارق للظلمات . وإن شئت أوضح من هذا فاعتبر بالعمان البرق في وسط دجى الظلمات كم يكون لمفاجأته من روعة وتمثيل لا تحسه النفس في ضوء الشمس وهو أشد منه . والسر أن وجوده في وسط الظلام الشامل يرفع من قيمته باعتباره نورا ويجعل له في النفس قيمة كبرى . ومن جهة أخرى فإنه أشد انطباقا على نور الهدى وسط ظلمات الشك التي تحيط بنفوس الكثير من الناس . وأما ذكر المشكاة فلأنه كما كانت الأشعة منعكسة عن قرب كان ضوءها أشد ، وكأن جوانب المشكاة تعكس الأشعة بعضها على بعض عكسا متكررا فيزيد في مضاعفة النور . وكذلك جعل السراج في زجاجة مما يزيد لمعانه وصفاءه ، وكيف وقد وصفت الزجاجة بما يدل على مزيد صفائها وقوة تألقها في ذاتها ، وذلك أنها كالسكوب المتلألئ الذي ينسب إلى أصفى ما عهدوا وهو الدر واللؤلؤ ، أو السكوب المتألق الذي يتموج شعاعه فيدفع بعض نوره بعضا . وبعد أن استوفى تصويره باعتباره ما يحيط به أخذ في صفة مادته التي تغذيه ، وكان أعظم ما يرفون من مادة الاستصباح الزيت ، وأجوده زيت الزيتون ، فوصف الشجرة بالنمو والبركة وإن منبتها يساعد على ذلك إذ لم يحجبها حاجب عن شمس أو هواء ، ثم عاد إلى وصف الزيت بأنه قد صقّ حتى كاد يضىء بدون مس النار .

تأمل في هذا التصوير تجدد نفسك أمام نور قد استجمع كل مظاهر النور ، وتجلي في وسط ظلمة زادته بهاء وظهورا ، فإن شأن المصباح ألا يشعل عادة إلا في الظلام ويضدها تميز الأشياء . ثم انظر إلى سلسلة التعبير ورقته ومهولة التصوير تجد أنك قد تجلى أمامك نور على نور ، وهذا شأن هداية الله لعباده ، فإنك من أى النواحي أتيتها ، وجدت نورها ظاهرا ، وضوءها باهرا ، فلا يسمعك إلا أن ينطق لسانك بالحمد لله والشكر للمنعم .

والموصوف بأنه نور على نور هو نور الهداية الممثل بذلك النور الحسى ، فإنه هو ما سيق الكلام لبيان صفته . والمراد بقوله : نور على نور ، أنه نور متضاعف يزداد كلما نظرت فيه وتأملتته ، وليس المراد أنه نوران ، بل المراد المضاعفة السائرة مرارا وتكرارا ، فما أشبهه بقول القائل :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وكان هذه الجملة خلاصة للوصف والتصوير السابق .

هذا وإذا عرفت أن هذا من باب التمثيل الذى هو تشبيه هيئة مركبة بأخرى كذلك ، بدون التفات الى الأجزاء التى حصل منها التركيب ، عرفت أن لا داعى الى ما يسلكه بعضهم من التفصيل فى التشبيه ، كأن يقال : شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقابه بالمصباح ، والمعارف التى تغدق عليه بالزيت ، وهكذا . فإن هذا إنما يكون فى التشبيه المفرد لا فى التمثيل الذى يراعى فيه الهيئة المركبة .

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) :

بعد أن صور النور الإلهى والهدى الدينى بهذه الصورة الآخذة بالأبصار التى لا يجهلها من عنده أقل ذرة من إدراك وبصيرة ، كان هنا محل سؤال واستشراف البتة : إذا كان النور الإلهى فى أمر الايمان والدين بهذه المثابة من الظهور والوضوح فما بالنا نرى الكثير من الناس قد ضل سواء السبيل ولم يهتد الى هذا النور الباهر ؟ فكان الجواب تقرير هذه الحقيقة الساطعة ، وهى أن المرجع النهائى إنما هو مشيئة الله وإرادته ، فمن يضل الله فإله من هاد ، ومن يهد الله فإله من مضل ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . فعناية بعض الناس حتى لم يبصروا هذا النور البالغ الغاية فى الظهور لم يكن

منشؤها نقصا في نفس النور، وإنما هو نقص في المدارك واعوجاج في الفطر وطمس في البصيرة، وهو غير ناقص من وضوح النور شيئا.

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر
قل إن الهدى هدى الله، والأمر كله لله. وليس هذا بقتناع للاختيار الذي منحه
الله للإنسان، فإن الكافر ما كفر قهرا عنه، ولكنه اختار الكفر على الإيمان، والمؤمن
ما آمن مكرها، وإنما اتجهت نفسه إلى اختيار الإيمان، فكلُّ يعمل باختياره، وذلك
تنفيذ لإرادة سابقة أزلية لا تعلم للناس ولا يشعرون بها ولا يبنون أعمالهم عليها،
ولكن بعد حصول الشيء نعلم بالبرهان أن هذا الذي حصل في الكون ما كان مجهولا
للمكوّن، ولا كان قهرا عن المدبر، فلا يقع في ملكه إلا ما يشاء، ومن ضمن ما يشاء
أن يقع إيمان هذا المؤمن عن إرادة ورغبة منه، ويقع كفر هذا الكافر عن إرادة
ورغبة منه، وكلُّ ميسر لما خلق له.

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : يبصرهم بما خفي عليهم بإظهاره في صورته
ما عرفوا وما عهدوا حتى يتبين لهم الأمر جليا ويلتحق المعقول بالمحسوس، فلا يبقى
شيء من الدين خفيا، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) من معقول ومحسوس، من ظاهر وخفي، من نفوس
يليق بها الكرامة فيهديها إلى الإيمان، ونفوس علم فيها غير ذلك نخفها بما شاء، فهو
أعلم حيث يضع هدايته، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو العليم بطرق الهداية
وأفانيتها المختلفة، فيخاطب المكلفين بما ينفعهم منها ويفيدهم، ويحذرهم مما يهلكهم
أو يضرهم، فمن نكث فأنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا
عظيما، والله أعلم

ابراهيم الجبالي

السُّنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخارى .

لقد سبق لنا فى شرح حديث (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أن هذه وسائل لاختبار المرء نفسه فى دعواها الايمان ، فكثيرا ما تكون النفس خداعة لصاحبها تصرف نظره عن مواطن النقص منها حتى يرضى عنها وينصرف عن معالجة أمراضها ومن رضى عن نفسه كثر الساخطون عليه . فى هذا الحديث الذى نسوقه اليوم كما فى الحديث المتقدم إرشاد للمرء الذى يعنيه تقويم معوجه والتحرى عن عيوب نفسه ، وامتحان صدق دعاويه ليعلم الصادق الواضح من الكاذب المداس ، ويتبين الصحيح من الزائف .

ذاك أن المرء مولع بحب نفسه ، مفلطور على الميل لنفعها ، بل الميل الى الاستئثار بكل ما هو حسن جميل ، وبكل ما هو خير ونافع . وإذا ما شاركة فى صنوف الخير أحد تطلعت نفسه الى أن يكون هو صاحب الحظ الأوفر والنصيب الأكبر .

هكذا شأن النفوس التى أرسلت على سجيتها ، وتماكتها نزعات الأهواء ونزوات اللذائذ والشهوات ، وأهملت تربيتهما وتهذيب ملكاتها .

ولو عَقَّتْ الأمور على وجهها لوجدت أن خيرها الصحيح هو في مشاركة غيرها ممن تجمعها بهم جامعة التعاون على الخير، والتساند في أسباب النفع. ذلك أن الفرد مهما أوتي من قوة وإحاطة علم بصنوف ما يحتاج إليه، فحال أن يستكمل شئون حياته بنفسه، سواء في ذلك شئون الحياة الدنيوية وشئون الحياة الدينية، فهو في كل باب من أبواب الحياة محتاج إلى من يعينه ويساعده. وإذا كانت الحياة مقتضية للتساند والتساعد، فالنظر الصحيح قاض بأن الواجب على كل فرد أن يسعى في تقوية من يساعده ويسنده، ليتكون من بينهما جسم كامل الاتصال، متين الأوصال، قوى الحياة في الأجزاء التي منها تركيبه، محكم الارتباط بين تلك الأجزاء.

ليس كل النفوس بواصلة إلى إدراك هذا المعنى على أتم وجوهه، وإن كان منها ما يسمو إلى أن يدرك أن معزته مرتبطة بمعزة أبيه أو أخيه أو ابنه أو قريبه، أو أفراد أسرته وعشيرته، أو من يجمعه به جامعة بلد أو إقليم، أو أمثال ذلك من روابط قريبة أو بعيدة، لا تخرج عن الأنانية الضيقة أو الواسعة كبير خروج. أما أن تسمو النفس إلى إدراك الأخوة والتساند بأوسع معانيهما، وتفهم حقيقة احتياج كل فرد إلى أخيه فيما يسنده في حياته الدنيوية والدينية، فقليلا ما يكون.

ولقد جاء الدين يجمع إلى تربية الفرد تربية المجموع، ويضم إلى تكوين النفوس تكوين الأمة، فجاء قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ). وجاء قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ). وجاء قوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في ت معاملتهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى». وجاء قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». وعلى هذا النسق جاء هذا الحديث الشريف الذي هو رأس مقالنا هذا يقرر أن الإيثار الذي هو كالشجرة المثمرة إنما يكون قد ثبت أصله، وزكا فرعاه، واطمأنت النفوس إلى أنها أخذت حظها منه إذا كان قد آتى ثمره وأنتج أثره، وأنه ينبغي لكل مؤمن

أن يتمتع إيمانه فيما عسى أن تكون النفس لم يدركها التهذيب فيه، وأخص ذلك ما رجع إلى أهوائها وميولها وغرائزها الوحشية، وطبائعها البهيمية، وكان لا يزال خاضعا للنظر القاصر الذي لم يفتق الدين بصيرته، ولم يصقل التهذيب قوته، وأخص مظاهر ذلك الانانية الممقونة، فمن شاء أن يختبر إيمانه ويتجن نفسه، فليعرض عليها محابها، وليتأمل في ميولها نحو نفسها ونحو إخوتها، فإذا كانت لا تزال قصيرة النظر تود الاستئثار بما يمكنها الاستئثار به، فليرجع إليها يحاسبها في دعواها، ويردها عاينها حتى يرجعها إلى صوابها، وليعرض عاينها حكم الايمان ومقتضاه، وليأخذها بأدابه، وليشعرها بحكمه ومزايده وفوائده، فإذا ما وصلت إلى إدراك هذه الحقيقة الناصعة وعلمت أن حياتها وسعادتها منوطاة بحياة بقية من شاركها في وصف إيمانها، وأنها بانضمامها إلى بقيتهم وارتباطها بالمتين بهم تكون كتلة قوية وتربي أسرة واحدة متينة، بل تربي جسدا واحدا يشعر كل عضو منه بما يشعر به غيره من لذة وألم، فقد آتى الايمان ثمره، وكان غرسا صالحا، وإن لم يصل إلى هذه الرتبة، عاد إليها بالعلاج الناجع حتى تطمئن إليه النفس.

هذا وغنى عن البيان أن المعنى : يجب لأخيه مثل ما يجب لنفسه من صنوف الخير، لا أن ينقل شخص المنفعة إلى أخيه مع حرمانه منها، فإن هذا وإن دخل في باب الإيثار المذكور في قوله تعالى : (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) فليس هو المراد من لفظ الحديث، وإنما المقصود أن ما يكون فيه من نعمة، يجب أن يكون لأخيه مثلها، أو أن يكون نوع النعمة العام مشتركا بينهما. وظاهر كذلك أن ليس بداخل فيه أن المرء يجب أن يكون ممتازا عن غيره، فاضلا عليه في المحاب، فكيف يجب لأخيه مثل ذلك، مع أن التفوق على الغير مما لا يقبل التماثل، فانه لو ماثله في ذلك ما كان متفوقا، ظاهر دفع ذلك، لأن الغرض محاربة مثل هذه الأحوال، ونهى المؤمن عن أن يجب لنفسه أن يكون متفوقا على كل الناس.

وليتنبه الى أنه ليس المعنى دفع النفوس عن الإغراق في طلاب الخير والنفع وبذل ما لديها من قوة في إعلاء شأن نفسها ، لا ، وإنما المراد أنك أيها المؤمن مهما بلغت مما تريد فاحذر أن يدركك ما يدرك تلك النفوس ، التي يسوءها أن ترى أحدا في نعمة ، وتود أن تزول عنه لكي لا يمتاز عليها أو يشاركها فيما وهبها الله من نعم . بل احرص على أن يكون حب الخير للغير في نفسك كحبك الخير أن يصل إليك فإذا استطعت أن تعاونه فيه وتساعد على إدراكه ، فقد قت بما يجب عليك نحوه .

بهذا وبما سبق في شرح الحديث الذي يماثله تعلم أن الكلام من باب تنزيل الشيء الذي لم يثمر ثمرته المنتظرة منزلة العدم ، حثاً على أن تكون الصفات الخيرية منتجة للخير ، وأن يكون الغرس مثمراً حقاً ، حتى يكون الدين كما قالوا في تعريفه : « الدين وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة الى ما هو خير لهم بالذات » والله أعلم .

وبعد فلقد منّ الله على المؤمنين بنعمة الايمان ، ووحد بين قلوبهم بشعار الأخوة الذي أفاضه عليهم ، ووجههم الى وجهة واحدة رمز لها بتوجيههم في العبادة الى قبله واحدة ، ودعاهم جميعاً الى التماسك والتساند ، فلو أنهم قدروا هذه النعمة واستشعروا أحكامها وواجباتها وتمسكوا بحقوقها ، لكان لهم من القوة ما يرفع الرأس ويعلى الشأن ، ولكنهم استبدلوا بها ألقاباً أشعرتهم بالفرقة بدل الاجتماع ، وبالتشتت بدل الوحدة والانضمام . فلو لا حل مؤمن ومؤمن محل شامي ويمني وحجازي وعراقي ومصري وأمثال ذلك ؛ إذاً لسادت بينهم المحبة ، وكملت لهم الرابطة ، واستغنوا عن ابتكار علاج يزيلون به هذا التناكر والتباعد ، وكانوا إخواناً متساعدين ، وكان حقاً مثلهم في تعاطفهم وتوادم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحي والسر ، وكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . نسأل الله أن ينعم على المؤمنين بهذه النعمة حتى يعزوا في الوجود ، وينتفع بعضهم ببعض في هذه الحياة والحياة الأخرى ،

الصوم

الصوم لغة : الإمساك عن الطعام أو الكلام أو غيره . وفى لسان الشرع : الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر الى الغروب مع النية . وهو فرض قطعى لازم على كل مكلف ومكافاة . وهو أحد أركان الاسلام الخمسة . وقد فرض على المسلمين فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة . وتأخير فرضه الى ما بعد الهجرة لأنه من أشق العبادات وأصعبها ، لأنه منع النفس عن مألوفاتها وشهواتها . وابتداء الناس بما هو شاق يدعو الى النفرة ، فلما توطنت النفوس على التوحيد وألفت الأوامر والنواهي ، وتدرجت فيما علمها الله على لسان رسوله ، شرع الله الصوم بعد ذلك ليكون تلقينه سهلاً على النفوس .

والأصل فى فرضه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) فرض الله على الناس الصيام بهذه الآيات وأبان أهم أحكام الصيام ، ولزمين ذلك على وجه الإجمال : قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) أى فرض عليكم الصيام كما فرض على

الذين من قبلكم من أهل الملل السابقة ، فلم يفرض عليكم وحدكم بل أنتم ومن سبقكم
سواسية في أصل الوجوب . فرض عليهم كما فرض عليكم هذا النوع من العبادة ،
وهذا منه سبحانه وتعالى تسهيل لأمر الصوم على المسلمين ، لأن الأمر الشاق إذا
كان عاما سهل تحمله . ولم يقص الله علينا ماذا كان صيام من قبلنا ، ولا عدد الأيام التي
كانوا يصومونها ، وهل كانوا يمسون عن الشهوات التي أوجب الله علينا الكف
عنها أو كانوا يمسون عن أمور معينة .

وقد ورد في كثير من الكتب الدينية مدح الصوم والصائين وورد أن سيدنا
موسى عليه الصلاة والسلام صام أربعين يوما كما ورد أن السيد المسيح عليه السلام
صام نفس الأيام التي صامها السيد الكليم وروى : خير الصيام صيام داود عليه السلام
وصفة القول أن الصوم معروف لدى الأمم السابقة على الإسلام وقد نذبت إليه
جميع الديانات وجاء الدين الإسلامي فأقر مديح الصوم وفرض على كل مكاف صيام
أيام معدودات هي شهر رمضان ونذبت إلى صوم غيره من الأيام وقد كان الرسول
عليه الصلاة والسلام لا يمضي عليه شهر غير رمضان دون أن يتقرب إلى ربه بصوم
أيام منه .

وقد أبان القرآن أن الفصد من الصوم هو نفع الصائم بإعداد نفسه للتقوى ، وأن
الله غنى عن الناس صومهم وصلاتهم ، فقال تعالى : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أى تعدون
أنفسكم للتقوى بالصوم الذى هو ترك محبوبات النفس من الشهوات ، لأنه يردع النفوس
عن الفواحش ، ويهون لذات الدنيا ، ومتى هازت لذة الدنيا تحققت أسباب التقوى .

(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) هي شهر رمضان على ما بينه سبحانه وتعالى في الآية الثانية ،
وقد أبهم الأيام أولاً ، ثم أبان أنها شهر رمضان ثانياً ، لحكمة عظيمة هي أن الإيهام
إذا صادف النفس أولاً شعرت بالقلّة فتخفف عليها مشقة التكليف ، ولم يقف الأمر

هنا عند الإيهام بل صحبه ذكر حكمة الصوم من الإعداد للتقوى . وحيث استقر في النفوس أنه خير ، وأن من شأنه ما وصفه الله ، جاء البيان بمد هذا والنفس متشوقة اليه ، رغبة فيه ، فلا جرم أنها تتلقاه بالقبول والرضا .

ثم قال : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) بين الله في الآية الأولى أن المقيم الذي لم يعرض عليه سفر ولا مرض يحكمه لزوم الصوم عليه في الأيام التي أزمه الله بصومها ، ثم شرح في هذه الآية حكم بعض العوارض التي تعرض للانسان ، فبين حكم عارض المرض كما بين حكم عارض السفر ، فقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والمرض معروف ، وقد اتفق الفقهاء على أن المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي الى ضرر في النفس أو زيادة في العلة ، إذ لا فرق في الفعل بين الشيء الذي يخاف منه والشيء المؤدى الى ما يخاف منه ، فالمحموم اذا خاف أنه لو صام تشتد حماه ، جاز له الفطر وعليه القضاء .

أما المريض الذي لا يضره الصوم فقد اتفقت كلمة الأئمة على أنه لا يرخص له في الإفطار ، فالرخصة إنما هي لمن خاف المرض المؤدى للضرر أو زيادته أو تأخر البرء . ولا يمكن القول بأن كل مرض يترخص به ، لأن من الأمراض ما ينقصه الصوم ، ومنه الحمل والإرضاع ، فكل من الحامل والمرضع اذا خافت على نفسها الهلاك أفطرت وعليها القضاء ، فقد روى أن الامام مالكا رضى الله عنه قال : إن أهل العلم يرون في الحامل اذا اشتد عاها الصيام الفطر والقضاء ، ويرون ذلك مرضا من الأمراض ، ومثلها المرضع . هذا حكم المرض الذي رخص الله من أجله الفطر والقضاء . وأما المسافر فقال أصحابنا (أى الحنفية) : إنه من قصد مسيرة ثلاثة أيام بسير متوسط وهو سير الإبل وسير الأقدام في أقصر أيام السنة . وعند الامام الشافعى يوم وليلة . والمعتبر في البحر أن ينظركم تقطع السفينة الشراعية في ثلاثة أيام اذا كانت الرياح مستوية معتدلة ، فيجعل

ذلك هو المقدار ، كما أن المعتبر في الجبل أن ينظر الى كم يقطع المسافر بالسير المعتاد في ثلاثة أيام ، فمن قطع هذه المسافة (أى التي تقطع في ثلاثة أيام) في يوم أو ساعة أو أقل كن سافر في قطار سريع أو في طائرة ووصل الى المقصود في ساعة أو أقل من ساعة ، كان له أن يترخص . كما أن من سافر في محفة ووجد من أسباب الراحة والرفاهية شيئا كثيرا له أن يترخص ، لأن الله سبحانه وتعالى أناط الرخصة بالسفر ، لأنه الوصف المناسب المنضبط الذي يصلح معروفا ، والحكمة هي ما ينطوى عليه السفر من المشقة ، وغير خاف أن المشقة يعسر ضبطها لاختلاف مراتبها بحسب الأشخاص والأحوال والأمكنة والأزمنة ، وليس كل قدر منها يوجب الترخص ، وتعيين القدر الذي يوجب متعذر لعدم ظهوره وانضباطه ، فجعل الله سبحانه وتعالى رحمة منه وفضلا أمر الرخصة منوطا بالسفر ، حتى ولو كان المسافر عاصيا بسفره . ولبعض الناس آراء في السفر غير هذا ، غير أن المعتبر هو ما قدمناه لك ، والضابط فيه أن كل إمام من الأئمة رضوان الله عليهم قال : إن السفر الذي يباح فيه الفطر هو السفر الذي يجوز فيه قصر الصلاة . فوضح بهذا قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) لأن معناه من كان مريضا أو مسافرا فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام آخر إن ترخص .

والخلاصة أن من صام فقد قام بالواجب عليه ، ومن ترخص وأفطر جاز له ذلك ووجب عليه القضاء . وهذا ما كان عليه النبي وأصحابه ، فقد ورد أنهم كانوا يسافرون معه صلى الله عليه وسلم ومنهم من يترخص فيفطر ، ومنهم من يأخذ بالعزيمة فيصوم . ولا عبرة بغير ذلك لأنه مخالف لما كان عليه النبي وأصحابه .

أما قوله تعالى : (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) فقد بين به سبحانه الحكم فيمن لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة وعسر شديدين وهم الشيوخ والفانون والشيخات الفانيات ، فأبان سبحانه وتعالى أن هؤلاء حكمهم جواز الفطر

والفدية ولا قضاء عليهم، لأن الطاقة اسم للقدرة مع الشدة والمشقة، كما أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على وجه السهولة، فالمعنى: وعلى الذين يصومون مع الشدة والمشقة فدية. أو أن الفعل من أطاق الشيء إذا بلغ غاية طوقه، قال شيخنا: إلا طاقة أدنى درجات الممكنة والقدرة على الشيء، فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة، فالمراد بالذين يطيقونه الشيوخ الضعفاء. وقد روى البخاري أن ابن عباس حمل الآية على الشيخ والشيخة، فقد روى عنه أنه قال: رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه. وقد روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قرأت «وعلى الذين يطوقونه» وهو ظاهر في أن المراد الذين لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة وعسر شديدين. وقد جرت أئمة الحنفية (والسادة الشافعية) على هذا فقالوا إن الآية مسوقة لبيان حكم الشيخ الفاني وهو الذي لا يستطيع الصوم إلا بجهد ومشقة، فإن له أن يفطر ويفدى ولا قضاء عليه، غير أن الحنفية شرطوا استمرار عجزه عن الصوم إلى الممات، أما لو قدر واستطاع قبل الموت فإن عليه قضاء ما قدر عليه. أما أصحاب المهن الشاقة وهم الذين لا يستطيعون الصوم، فهم من أصحاب العوارض التي تبيح الفطر، وعليهم القضاء بعد زوال العذر لظهور النرق بينهم وبين الشيخ الفاني. ثم قال تعالى: (فَنَ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكم من عرض لهم المرض أو السفر من المكلفين وحكم الشيخ الفاني، أفادنا سبحانه وتعالى حكماً آخر فقال: (فَنَ تَطَوَّعَ خَيْرًا) من المرخص لهم مرضى كانوا أو مسافرين أو شيوخاً عاجزين بأن زاد المريض والمسافر أياماً أكثر من الأيام التي لزمه قضاؤها، أو زاد الشيخ الفاني على القدر المذكور في الفدية، أو أطعم مسكينين أو ثلاثاً، فهذا الصنيع من كل منهم خير له، لأن فيه زيادة الثواب،

أما اذا تحمل هؤلاء جميعا المشقة وأخذوا بالعزيمة وصاموا ، فالصيام خير لهم ما لم يكن فيه إهلاك محقق ، لما فيه من مضاعفة الثواب للصائم الذي هذا حاله ، لأن عمله يدل على قوة الإيمان (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ما في الصوم من فضيلة ولا تصوموا لمجرد الجوع والعطش أو اتباعا لعادات اعتدتم عليها .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) : قد أوضحنا فيما تقدم الحكمة في إيهام الله الأيام أولاً ، ثم بيان أنها شهر رمضان ثانياً ، ونريد أن الله سبحانه وتعالى أراد — والله أعلم — بيان الحكمة في وجوب شهر الصوم بأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن الذي هو هدى للناس ، فلا عجب أن يمتاز بالصوم الذي هو من أفضل العبادات ، لأنه الشهر الذي بدأت فيه الفتوحات الإلهية والفيوضات الربانية حيث كان مبدأ نزول القرآن فيه ، فتذكراً لهذه النعمة الجليلة ، وشكراً لتلك المنة العظمى والهبة السامية ، أوجب الله الصوم على عباده . قال الأستاذ الإمام : وصف الله القرآن بأنه هدى في نفسه لجميع الناس ، وأنه من جنس الكتب الإلهية ، ولكن الله الجنس العالى على جميع الأجناس ، فانه آيات بينات من ذلك الهدى السماوى ، وكتب الله كلها هدى ، ولكنها ليست في ضيائها كالقرآن ، إذ ضياء الحق والهداية في غيره ليس ساطعاً سطوعه من القرآن .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) : من الشهود وهو الحضور ، إما ذاتاً أو عاملاً . والمعنى : فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه ، أو من علم هلال الشهر وتيقن به فليصم ، فلا وجوب على من شك في رؤية الهلال . (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : إعادة منه سبحانه وتعالى لبيان حكم الرخصة خوف أن يتوهم من تعظيم أمر الصوم في نفسه أن صوم الشهر حتم لا تتناوله الرخصة التي سبق

بياتها، وأراد من الإعادة تمكين أمر الرخصة حتى لا يتقيها أحد. (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ) رَأْنَةُ مِنْهُ وَرَحْمَةً حَيْثُ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الرِّخْصَةِ مَا سَمِعْتُمْ.
هكتمه مشروعية الصوم :

قهر النفس بمنعها عما تشتهيه وتجنبه، سواء في ذلك الأكل والشرب وغيرها من
بقية الشهوات المنافية للصوم، فترتاض النفس ويصفو القلب من الكدر، وتستعد
النفس للتقوى التي هي المقصد الأسمى من شرعية الصوم، حيث قال تعالى : (لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ) إذ لا يخفى أن الصوم يعد النفوس للتقوى، لأن من راض نفسه على ترك
الشهوات المحببة إليه بالطبع امتثالاً لله وخضوعاً لسلطانها، راغباً عن أغزالأشياء وأحبها
إليه، مع أنه حر في نفسه ليس عليه رقيب إلا مولاه الذي يلاحظ في تركه ما يتركه
الخوف من بطشه، ويراقب أن من لا يعزب عن علمه شيء رقيب عليه بصير به، فاذا هو
بأشهر شهوة من الشهوات لا بد مطلع عليه عالم بما يعمله سرّاً كان أو جهراً — من لا حظ
في صومه وعبادته هذا لا شك تنمو عنده ملاحظة مولاه العليم الخبير، وتكبر لديه
مراقبة سيده الرقيب البصير، فلا يابث إلا والمراقبة مأكدة في الصوم والحج والصلاة
وغیرها من العبادات وسائر المعاملات . ومن كان هذا شأنه أهله هذه الملكة لكل
أعمال الخير، وأبعدته عن الشرور صغيرها وكبيرها عظيمها وحقيقها، فلا يتخذ ولا
ينش ولا يكذب ولا يمارى ولا يرائى، ولا يظلم ولا يهضم حقاً ولا يقول إلا صدقاً،
وبفضيلة الصدق لا يتم ولا يسعى في الفساد بين الناس، ولا يؤذيههم . وصفوة القول
أنه يسعى جهده للفضائل وينأى بكل قواه عن الرذائل، ويصبح وقد تخلق بأخلاق
صاحب الرسالة واهتدى بهديه .

ومن الحكم التي شرع لها الصوم أنه يربي في الإنسان ملكة الصبر وقوة الإرادة
والوفاء بالعهد، كما ينمي فيه عاطفة الرحمة، فإن من ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات

ذكر من هذا حاله في عموم الأوقات فرق عليه بسرعة، وبواسيته بما أمكنه من المواساة.

ومن السهل عليك بعد الذي تقدم أن تفهم أن من صام رمضان على هذا النوع من الرقابة، وعلى هذا الوصف من الرعاية، بالقيام بما هو مأمور به حق القيام، يكون قد قام رمضان إيماناً واحتساباً. وقد ورد أن من قامه كذلك غفر له ما تقدم من ذنبه. وأنت خبير بأن الصوم على الوجه الذي ذكرنا لا يمكن أن يتحقق بمجرد الجوع والعطش، بل لا بد في تحققه من الإمساك عن الشهوات ظاهرة وباطنة، بغض البصر عن كل ما يذم ويكره، وعن كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله، ولا يكون هذا عادة إلا بحفظ اللسان عن الهذيان، والبهتان، والغيبة، والفحش، والخصومة بغير حق، وكف السمع عن الإصغاء إلى المحرم والمكروه، وكف بقية الجوارح عن الآثام، وكذفها عن النهم في الطعام، محاطاً بذلك جميعه برضاء الله في قبول العبادة عليه يتقبل صومه فيجزبه به الجزاء الأوفى.

ولا يخفى عليك أن الصوم لا يترتب عليه هذا الأثر من الإعانة على التقوى وغيرها من الفضائل إلا بالنية، حتى يكون العمل على قصد العبادة، تميزاً له عن العادة لتتحقق الرغبة في الخير، وعن هذا قال الأئمة رضوان الله عليهم: إنه لا بد في الصوم من النية. وبدهى أن حسن النية في العمل وقصد الله به يجعله سبباً في العادة لفتح أبواب السعادة، وبه ينال العابد ثواب عمله لأن الأعمال بالنيات. ولما كان الصوم ترك الشهوات من أجل المعبود جل شأنه، وكان ابتعاداً عن محبوب النفس من اللذائذ محبة في الله ورغبة في مرضاته، وهذا أمر خفي لا يطاع عليه إلا علام الغيوب، كان الصوم لرب العالمين، وهو الذي يجزى به وهو معنى قوله جل شأنه في الحديث القدسي: «الصوم لى وأنا أجزى به».

هدى الرسول في الصوم :

لما كان هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في الصوم أكمل هدى ، وكان السير على هديه يحصل المقصود إن شاء الله ، أردنا أن نلم في هذه العجالة بشيء من هديه صلى الله عليه وسلم ، ليكون نهجا وسننا نسير عليه ، لنا من زيف الشيطان فنقول :
كان من هديه صلى الله عليه وسلم في رمضان الإكثار من العبادات ، فكان جبريل يدارسه القرآن ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ، ومع أنه عليه السلام كان أجود الناس ، كان أجود ما يكون في رمضان : يكثر فيه من الصدقة والإحسان ، وتلاوة القرآن ، والذكر ، والاعتكاف ، وكان يواصل الصوم فيه أحيانا ، حتى إن بعض أصحابه اقتدى به فنهائم عن الوصال رحمة منه بهم ، وأفهمهم في لطف أنهم ليسوا مثله ، لأنه عند ربه يطعمه ويسقيه ، أى يغذيه بالمعارف ، ويفيض على قلبه من لذة المناجاة والقرب منه التي هى غذاء القلوب ونعيم الأرواح .

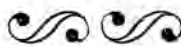
وكان من هديه أن لا يدخل في صوم رمضان إلا برؤية هلاله رؤية محقة ، أو بشهادة ولو كانت شهادة واحد ، فقد صام صلى الله عليه وسلم بشهادة ابن عمر رضى الله عنه ، وصام مرة بشهادة أعرابي ، ولم يكلف الشاهد لفظ أشهد ، واكتفى في رمضان بخبر واحد ، فاذا لم تكن رؤية ولا شهادة ، أكل عدة شعبان ثلاثين يوما ، ولم يكن يصوم يوم الشك ولا أمر به ، بل أمر أن يكمل عدة شعبان ثلاثين يوما ، وعن هذا قال الحنفية : ينبغى للناس أن يلتمسوا الهلال في اليوم التاسع والعشرين من شعبان ، فإن رأوه صاموا وإن غم عليهم أكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما . وينبغى لمن رأى الهلال أن يسارع إلى القاضى ليخبره بما رأى ، فاذا كان بالسما علة اكتفى بخبر الواحد العدل رجلا كان أم امرأة حرا كان أم عبداً دون اشتراط لفظ الشهادة ولا مجلس القضاء ، وإذا لم يكن بالسما علة لا تقبل شهادة الواحد إلا إذا أتى من خارج البلد أو كان على مكان مرتفع

فيها، فإذا لم يكن الأمر كذلك اكتفى بشاهدين خصوصاً في هذا الزمن الذي قعد الناس فيه عن التماس الأهلة. ولما كان المفهوم المتبادر من رؤية الهلال هو الرؤية ليلاً أى عند عشية آخر كل شهر، كان المعتمد عند الحنفية أن لا عبرة برؤية الهلال نهائياً يوم الشك.

هذا وقد اختلفت أقوال العلماء في الأخذ برأى علماء الفلك في ثبوت الأهلة. وقد نقل صاحب الفنية من الحنفية أقوالاً منها ما نقل عن القاضي عبد الجبار من أنه لا بأس من الاعتماد على قولهم، ومنها ما نقل عن ابن مقاتل أنه كان يسألهم ويعتمد على قولهم إذا اتفق عليه جماعة منهم، وهذا القول وجيه خصوصاً إذا لاحظنا أن نظريات علم الفلك قلما تخطئ في الحساب، ولوحظ مع هذا أن الصوم فرض على من لا يرى الهلال عدة أشهر وهم الفاطميون في الجهات التي تمكث فيها الشمس ستة أشهر أو أقل من ذلك، لأن سقوط العلامة لا يوجب سقوط نفس الأوقات على ما رآه المحققون من الحنفية.

وكان من هديه عليه السلام أنه حين سافر في رمضان صام وأفطر وخير أصحابه بين الأمرين، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا (قربوا) من عدوهم، ليكون الفطر أقوى لهم على القتال، ومن هديه صلى الله عليه وسلم إسقاط القضاء عن أكل أو شرب ناسياً لأن الله سبحانه هو الذي أطعمه وسقاه. والله أعلم.

طه حبيب



حكمه الصوم

كان من عادة حفرة صاحب النضيلة الاستاذ القاضي الشيخ محمد سلمان وهو يقضى في الأقاليم أن يحتفل بمجلس الشرع ينظمه لاثبات هلال رمضان ، وفيه يحطّب الحضور خطبة مناسبة للمقام ، ففي سنة ١٣٣٧ هـ ألقى خطبة جامعة بدأها بحكمة الصوم وتطرق منها الى الكلام في حال المسلمين الاجتماعية التي كانت وقتها ، فرأينا أن نثبت الشق الاول من خطبة القاضي هنا في حكمة هذا الركن العظيم من قواعد الاسلام — قال :

أبرها الاخوانه :

نحتفل اليوم برؤية الهلال هلال رمضان المبارك كي نبتدى نحن المسلمين صومنا الواجب المقدر في هذا الشهر المفضل . وهكذا يتناوب عباد الله صومهم له تعالى خاشعين خاضعين متبتلين إليه بغير النفس البشرية التي طغت وبنت وكادت من كبرها تنسى أصلها حتى قابت العالم رأسا على عقب . كذلك وقد فرض الله الصوم على من كان قبلنا من لدن آدم الى عهدنا ، حتى روى المفسرون أنه لم تخل أمة من افتراض الله الصوم عليها ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) . وقد فرض الله على المسلمين صوم رمضان في الآية الشريفة (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) الخ . وكان ذلك لعمر خلون من شعبان في السنة الثانية من الهجرة بعد أن تدرج بهم في فروض الاسلام من الصلاة الى الزكاة الى الصيام ، لأن الصوم أشق التكاليف على النفس ، إذ هو منع لها

عن طبيعتها، وكبح لشهواتها ورغباتها، فقتضت الحكمة الإلهية أن يبدأ في التكليف بالأخف وهو الصلاة تمرينا للمكف ورياضة له، ثم يثني بالوسط وهو الزكاة لأنها في المال، ويثالث بالأشق بعد ذلك وهو الصيام.

والصوم عندنا ربيع الايمان بمقتضى قوله عليه الصلاة والسلام: «الصوم نصف الصبر» و «الصبر نصف الايمان» وهو الركن الرابع من قواعد الاسلام الخمس التي ترمز لها دوله على رايانها وشاراتها بالنجمة ذات الأُطراف الخمسة. ولو كان هذا الدين من أديان الرموز لقال الربانيون فيه إن تقويم الانسان بأطرافه الخمسة رمز لتلك القواعد المقدسة. واختص من بين العبادات بباب في الجنة يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون، فاذا دخلوا منه أغلق فلم يدخل منه أحد. ويميزه الله تعالى بنسبته إليه في الحديث القدسي عن سيد البشر: يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم فهو له: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه» وبلغ من فضل رتبته وعظيم منزلته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقسم بالذي نفسه بيده خلوفاً فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وقال وكيع في قوله تعالى: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) إنها أيام الصيام، إذ تركوا فيها الأكل والشرب، وفي قوله تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قيل كان عملهم الصيام لأنه من الصبر، وقد قال تعالى: (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا لا يدخل تحت وهم ولا تقدير. وهذا شأن العطاء الإلهي إذا أضيف إلى جانبه الكريم، لأنه تعالى نسب الصوم له وجعل جزاءه من عنده خارجا عن جزاء الحسنات. ومع أن العبادات كلها لله إلا أن الصوم يميز من بينها بهذه المناسبة القدسية تشريفا له عليها. وقد بين الامام الغزالي حكمة هذا النسب

في معنيين قال : « أحدهما أن الصوم كفٌ وتركٌ ، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد ، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل ، فإنه في الباطن بالصبر المجرد . وثانيهما أنه قهر لعدو الله عز وجل ، فإن وسيلة الشيطان — لعنه الله — الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالآكل والشرب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها : داومي قرع باب الجنة ، قالت : بماذا ؟ قال : بالجوع . فلما كان الصوم على الخصوص قعماً للشيطان وسداً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل . . . الخ »

وقد قسم الأستاذ الصيام إلى ثلاثة أقسام : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة البهيمية ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية اهـ . وإذا لم نطمع في صوم خصوص الخصوص — ندعو الله تعالى ألا يجرمنا منه — فلا أقلّ من الوسطى ، لأن صوم العموم لا قيمة له مع الحديث الشريف « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » تفسيره أنه صام عن الطعام وأفطر على الآثام . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

الصوم — أيها السادة — تخاق من العبد بخاق من أخلاق الرب تعالى وهو الصمدية التي يلزم من معناها الاستغناء ، لأنه إذا امتنع عن أسباب الشهوات من المآكل والمشرب والمناكح فقد استغنى عن جل أسباب الدنيا ، وهو اقتداء بالملائكة

في الكف عن الشهوات بقدر الإمكان، إذ أن مرتبة الإنسان بين البهائم والملائكة رفعه عن الأولى نور العقل، وحطه عن الثانية ظلمة الشهوة، وقد ابتلى بمجاهدتها فكلمنا انهمك في الشهوات سفلى والتحق بغمار البهيم، وإذا قعها علا وتعلق بأفق الملائكة وهم من الله مقربون، فمن اقتدى بهم وتشبه بأخلاقهم قرب من الله قربه، فان الشبيه من القريب قريب. وهذا سر من أسرار الصوم أوضحه الغزالي في ربيع المهلكات من كتاب الإحياء، قال: «أما بعد فإن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذلل والافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلتا منها فبذبت لهما سوءاتهما، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرج وشهوة الشبق الى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في المال والجاه الذين هما وسيلة الى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشيع والامتلاء. ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم ينجر به ذلك الى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا» اهـ.

وهذا التناسق الأخلاقى الإيجابى فى الشرور الذى بناه الامام الغزالي على الشيع جمعه الله تعالى فى كلمة واحدة (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ) وعلماء النفس يقولون إن الأخلاق بنات الأخلاق، وإذا كانت الأشياء التى فى الدنيا محدودة

معروفة بفواصل مبينة، فإنه لا حدود بين الأخلاق التي من شاكلة واحدة ولا فواصل، فالحقد والبغض والحسد والنفاق والرياء أخلاق لا يمكن أن تفصل بينها ونقيم الكل منها حداً، بل هي متداخلة بعضها في بعض كما نشأ بعضها من بعض وسرى منه ووجد به، فليس بعجيب ولا غريب هذه النظرية الحقة، ولكنها الواقعة المذهول عنه. ولهذا المعنى العظيم قال صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه» إذ منه نتجت هذه الشرور الكبار.

يقابل الشبع وما ينتج عنه من الشرور الجوع وما ينتج عنه من الفضائل، فن أعظم مزاياه كسر النفس وذلها، وزوال بطرها وأشرها، وهو مبدأ طغيانها وانبعاثها في جرائمها ولا تذلل النفس بشيء يمثل ما تذلل بالجوع وتقعده عن العظام التي إن همت بها فلا تجد فيها قوة عليها ولا منة لا تبيانها، وإذ ذلك تسكن لربها وتخضع له بعد أن وقفت على عجزها من لقمة طعام فاتتها وشربة ماء ما أتمها. وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه لا يشاهد عز مولاه، لأن الاضطراب ياجئه إليه ويقفه ببابه ويذكره به، فاذا تذكره انتهى عن الفحشاء والمنكر، وانبعث لما يرضيه ويأمر به. وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا تتحرك عليه شهوة فضول الكلام، فيتخلص به من آفات اللسان، ولا يكذب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها لأنها من بنات شهوة البطن. تلك فضيلة الجوع عمود الصيام، وهي أسمى الفضائل لأنها سبب الشرور وتذكير العبد بالرب، منهية عن المنهيات ومبعدة للواجبات، وهو تعالى لا يأمر بالفحشاء إنما يأمر بالعدل والإحسان (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) إلى آخر الآيات الشريفة في هذا الباب. ولفضيلة الجوع هذه كان مطلب الأنبياء والصديقين والشهداء ومدار وصاياهم لتلاميذهم وأوامرهم لأتباعهم، حتى

روى أنه ما لاقى نبي ربه إلا على جوع . وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتلى قط شعباً ، وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع » وقال سيدنا عيسى عليه السلام : « يا معشر الخواريثين ، أجيئوا أكميادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل » . وفي التوراة : « اتق الله ، وإذا شبعت فاذاكر الجياع » وقال سهل بن عبد الله التستري : « لم ير إلا كياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا » . وقال : « وضعت الحكمة والعلم في الجوع ، وضعت المعصية والجمل في الشبع » وقال أبو طالب المكي : مثل البطن مثل الزهر — وهو العود المجوف ذو الأوتار — إنما حسن صوته خلفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ . فكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام ، وأقل للنمائم .

للصوم — أيها الإخوان — فوائد شخصية وفوائد اجتماعية . والشخصية تتم الأدينية والجسدية ، فقد انتظمها قوله عليه السلام : « صوموا تصحوا » إذ أن الأمراض من كثرة الأكل وحصول فضلات الأخلاط في المعدة والعروق . ولذلك جاء في الأثر « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء » وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من طريق وهب بن منبه قال : « أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت » فالصوم يذهب الرواسب العصبية والفضلات المعدية والأخلاط المعوية ، وهو يطيل العمر ويقوى الجسد ويريح الآلات الجسمية من عناء أعمالها في عامها ، إذ كل آلة لا بد لها من راحة ، فالصوم في العام راحة الآلات ، وهذا معنى الحديث « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الجوع » أي أنه مظهرة للجسد وعون له على البقاء .

أبهرها الاخوانه :

لم نر طبيباً فيما وصف إلا ويقدم في وصفته الحمية ويجعلها أصل التذاكر المحفوظة . ماذا كم إلا أنه تطابقت حكمة الأديان مع طب الأبدان .

ومن أعظم الفوائد الشخصية أدبا وسموًا أن الصوم يصفى الفكر وبوقد القريحة وينفذ البصيرة وينير النفس البشرية لتتلاقى الفيوضات القدسية والإشراقات الربانية. ولهذا المعنى اللطيف كره العارفون أن يفسد الصائم في ليله ما استفاده في نهاره، يشبع بالليل فيضيع ما انتفع به من جوع النهار، إذ الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار في الدماغ حتى يحتوى على القوى المفكرة فيثقل العقل عن الجريان في الأفكار وسرعة الإدراك، بل جرب ذلك في الصبيان إذا كثروا الأكل قل حفظهم وبطؤ فهمهم.

فالصوم مرقة تورانية، ومشكاة لمن أراد أن يستنير عوالم الملكوت. ولما واعد الله موسى ثلاثين ليلة كان الأجل لكي يصفو موسى للقاء ربه بالصوم، قال البيضاوى: « إن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل بمصر أن يأتيهم — بعد مهلك فرعون — بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة كئنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة » وطوى بعض الزهاد الإشراقيين ستين يوما، وهذا من الرياضة وحمل الجسم على الروح، وتغذيته بقوتها وإرادتها أن يعيش معها، وإن هذا الإشراق مدرك عال جداً فيما وراء المادة ثابت بالقطع لا ينكر، يضاف إلى تلك الصحة وهذا الصفاء فضل الاقتصاد، فبالصحة استغنى عن الأدوية والأطباء، وبكف النفس توقرت حاجياتها، وأثمان الزائد عن ضرورتها، واكتسب من هذا الاقتصاد ثواب البر بما يضعه في وجوه الخير إن كان من الموسعين، أو عز القناعة إن كان من المعوزين.

ومن فوائده الأدبية أيضا إحساس النفس بألم الصوم، فتتذكر به ألم العذاب فترتدع عن المعاصي، وألم الناس فتنبعث إلى ما يخففه، وكل غريب للغريب نسيب.

وأكبر فوائده كسر شهوات المعاصي كلها ، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصي الشهوات والقوى ، ومادتها بإعطاء النفس رغباتها ، فإذا صمت عنها أضعفها فملكك نفسك ، وإن وانيتها قويت فملكك نفسك .

وفوق هذه الفوائد الفائدة الاجتماعية العظمى : من إحساس الصائم بإحساس الفقراء والمساكين ، والقانعين والمعتزين ، فيتذكروهم ويتعهدهم ، ويعلم أن ما بهم به ، وأن ما فيهم عليه زواله ، فلا يعلم الشوق إلا من يكابده ، والأسى يبعث الأسى ، وفي هذا مادة الزكاة والصدقة ركن الاجتماع الأعظم . أما فائدة الفوائد فهي أن الصائم الكامل المتمسك بالصوم الحقيقي الجزئى ، إنما هو فرد فاضل ، والمجتمع من أفراد ، فإذا كانوا فضلاء كان بلا شك فاضلا ، وهذه غاية الغايات ، وكل هذه المعاني والحكم التي يستطاع الزيادة فيها جمعها القرآن في كلمة ختم بها آية الصوم (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) فالصوم لحكمة اجتماعية عظيمة مقصود بها تكون هيئة فاضلة خيرة . ولعل من أطفح المناسبات لتخصيصه برمضان ، أن هذا الشهر أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . وقد أنزل من بيت العزة ، ومهبط الحكمة ، ومشرق النور الصافي . والصوم يصعد بالصائم الى هذا المستوى العالى القدسي ، فكان من المناسب أن هذا الشهر النوراني في علوه ، ينبغي أن يكون نورانيا في سفله أيضا ، وأن يصعد بالسفل الى العلو فيكون السكال الكامل والصفاء النوراني الشامل .

الفتاوى والأحكام

الرضاع

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي :

ما قولكم دام فضلكم في رجلين تزوجا ورزقهما الله بولدين يكبر أحدهما عن الآخر بسنة ، ورزق الله هذين الرجلين بنات ، ويريد الولد الصغير أن يتزوج بأخت الكبير الصغيرة ، ولكن أم الولد الكبير التي هي أم للصغيرة قالت إنها أرضعت الولد الصغير ليلة كاملة مع ابنها الكبير ، مع العلم بأن في الدار معها ناسا من أقربائها لا يعلمون بهذا الرضاع أصلا وينكرونه على تلك المرأة التي هي أم الولد الكبير وأم البنت الصغيرة . فما هو الحكم الشرعي مفصلا في هذا الباب ؟ .
(أحد القراء)

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الرضاع يحرم ما حرم النسب ، قال صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . والرضاع عند المالكية يتحقق بوصول لبن المرضعة لجوف الرضيع ولو مصة إذا كان في مدة الحولين من ولادته ، قال تعالى : (وَأُولَٰئِكَ تُحَرِّمُ الرِّضَاعُ) .

يُرْضَعْنَ أَوْ لَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ إِمَّا أَنْ يُرَضَّ الرِّضَاعَةُ (فدية الرضاع الكامل سنتان ، وألحق المالكية بهما شهرين من السنة الثالثة لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه . ومن أرضعت ولدا فبناتها وبنات زوجها ما تقدم وما تأخر أخوات له ، ويثبت الرضاع عندهم بإقرار أم الولد غير الرشيد ذكرا كان أو أنثى على الراجح في المذهب اذا كان إقرارها بالرضاع قبل العقد . وعلى ذلك فإقرار أم البنت في الحادثة المسئول عنها معتبر عند المالكية متى كانت البنت غير رشيدة بأن كانت صغيرة أو سفية ، فإن كانت رشيدة فإقرار الأم بالرضاع لا يحرمها على من يريد تزوجها . نعم يندب له أن لا يتزوجها احتياطا وتورعا ، كما أنها اذا أقرت بالرضاع ثم رجعت عنه فلا عبرة بإقرارها . والله ولى التوفيق .

بوصف الدهوى

الصلاة خلف جزار

وورد أيضا السؤال الا تى :

ما حكم صلاة من صلى خلف جزار يزاول المهنة بيده ويقوم بعاف البهائم وخدمتها فيصيبه رشاش الدم وفلذات الدهن وقذارة الأرواث ويتصاعد من مجموعها رائحة كريهة تؤذى القريب منه والبعيد ؟ وهل يصلى بالناس من يجهل مع حضور من يعلم ؟ وهل يصلى بالناس من يبغضه الناس ؟ إنا منتظرون إجابة اللثام عن حكم من نصب مثل هذا الرجل إماما .

محمد الشريف كساب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فاعلم أيها المستفتي أن الجزار ونحوه من أصحاب المهن التي لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعني عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون في درئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْ عَائِيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالحنيفية السمحة » ويستحب لهم إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة الجزار بتيابه التي يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها . وأما إمامته فمكروهة لمن ليس مثله ، أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره أن يكون إماما له . وأما رائحة ثيابه فهي مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى غيره ، فعليه أن يخلعها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله فضلا عن أن يكون إماما للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وأما إمامة الجاهل ففيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر في صحة صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو الاغتسال من الجنابة ، أو ترك فرضا من فروض الصلاة كالطأ نينة فصلاته باطلة فضلا عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر في صحة الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا كان يعتقد أن في الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » فتى كانت الصلاة مستوفية لجميع ما يعتبر في صحتها شرعا فهي صحيحة والافتداء أيضا صحيح . نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذي تصح إمامته .

وإما إمامة من يكرهه أهل بلده ففيها تفصيل أيضا : فإن كانت الكراهة لأمر ديني فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم ، فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا ، حرمت إمامته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله من أمّ قوما وهم له كارهون » والله أعلم .

يوسف الدهموي

صلاة جارك المسجد

في بيته مع زوجته

وورد ادارة المجلة السؤال الآتي :

رجل يجوار المسجد يتخلف عن صلاة الجماعة مكتنفيا بأنه يصلي في بيته مع
زوجه جماعة، فهل عليه في تخلفه شيء (أم أن جماعته في بيته كجماعته في مسجده) ؟
نرجو من فضيلتكم التكرم بالجواب ولكم الشكر ومن الله الأجر .

سعد السيد المنهوري

الجواب

إن صلاة الرجل مع زوجته يحصل بها فضل الجماعة الوارد في قوله صلى الله عليه
وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بسبع وعشرين درجة » وأقل
الجماعة اثنان ولو رجلا وامرأة، ولذلك نص المالكية على أن من صلى إماما لامرأة فلا
يطالب منه إعادة الصلاة في جماعة لحصول فضائها بصلاته مع المرأة . نعم صلاة الفرائض
في المساجد أفضل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصلاة صلاتكم ببيوتكم
إلا المكتوبة » يعني الفريضة، وما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتركون الجماعة
في المساجد اكتفاء بالصلاة مع أزواجهم .

يوسف الدجوي
من هيئة كبار العلماء

عذاب القبر

وورد من حضرة الشيخ مصطفى أحمد الرفاعي مراقب مكارم الأخلاق بأسيوط
السؤال في عذاب القبر .

الجواب

اتفق أهل الحق على أن للنفس الناطقة حياة بعد هذه الحياة تنال فيها ما أعده
الله لها من ثواب أو عقاب ، وأن الله يخلق في الميت نوعا من الحياة قدر ما يحس به الألم
ويستشعر به النعيم ؛ أما كنه هذه الحياة وحقيقتها على أى وجه تكون ، فلم يقصه
الشرع علينا . والواجب اعتقاده على كل مسلم هو اعتقاد أن الميت يسأل في قبره ،
وينعم إن كان من أهل النعيم ، ويدب إن كان من الفاسقين أو الكافرين . وليس
بلازم أن يكون ذلك بإعادة الروح الى الجسد فى القبر على الوجه المعهود فى الدنيا .
وما يتوهم من أن الحياة لا تتصور بدون رد الروح الى الجسد على ما نعهد فى هذه
الحياة لا أصل له ، وإنما ذلك فى الحياة الكاملة التى يكون معها القدرة على الأفعال
الاختيارية ؛ وحياة القبر لا يلزم أن تكون كذلك ، بل هى نوع من الحياة على الوجه
الذى قدمناه .

وهذا القدر من ضروريات الدين التى لا يجوز للمسلم إنكارها ، لأنه أمر ممكن
فى ذاته ، وقد نطق به الكتاب ، وأخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، قال
الله تعالى : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وعرضهم على النار إحراقهم بها ، من قولهم : عرض الأسارى

على السيف ، أى قتلوا به . وقوله : « ويوم تقوم الساعة » دليل على أن العرض قبل ذلك اليوم ، وليس غير عذاب القبر بالاتفاق على ورود الآية في حق الموتى .

وقال الله تعالى في حق قوم نوح : (أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا) وقال تعالى : (رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) وهى الإمارة الأولى قبل مزار القبور ، ثم الإحياء فى القبر ، ثم الإمارة فيه ، ثم الإحياء للحشر ، فأحدى الحيأتين هى حياة القبر على الراجح . وقال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) الآية .

والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر كثيرة ، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والمهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار » الحديث . ومنه ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار — يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، وأما الآخر فكان لا يمشى إلا بالنيمة » .

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل — لمحمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً

من الجنة ، فيراهما جميعا ويفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملاً عليه خضرة الى يوم يبعثون ، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ويضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن قوله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) نزلت في عذاب القبر » الحديث .

وعلى الجملة فإن الأحاديث الواردة في عذاب القبر متواترة المعنى ، فالآيات والأحاديث متفقة على أن عذاب القبر حق . وقد أنكر عذاب القبر الروافض وقوم من السفهاء المعاندين للحق ، متمسكين بشبه لا قيمة لها ، مثل قولهم : إن الميت جماد لا حياة له ولا إدراك فتعذيبه محال . ومثل قولهم : إن اللذة والألم والمسألة والتكلم ونحو ذلك لا تتصور بدون العلم والحياة ولا حياة مع فساد البنية ، وإنا نرى الميت أو المقتول يبقى مدة من غير حركة وتكلم ولا يرى عليه أثر التلذذ والتألم ، وقد يدفن في صندوق أو لحد ضيق لا يتصور فيه جلوسه ، وقد تأكله السباع أو يحرق بالنار فيصير رماداً ، فكيف يعقل حياته وعذابه وسؤاله وجوابه ؟ وهي شبه كما ترى لا قيمة لها ، أما على أن العذاب للروح فلا إشكال فيه أصلاً ، وكذلك لا إشكال على القول الأول وهو أن ذلك للبدن مع الروح ، لأن هذا الاتصال أمر ممكن ، فيجوز أن يخلق الله تعالى في جميع أجزاء الانسان أو بعضها نوعاً من الحياة قدر ما يدرك الألم ، وهذا لا يستلزم إعادة الروح الى بدنه إلا إعادة المعهودة في الدنيا ، ولا أنه يتحرك أو يضطرب أو يرى أثر العذاب عليه ، حتى إن الزريق في الماء أو الماء كؤل في بطون

الحيوانات أو المصابوب في الهواء يعذب وإن لم نطاع عليه ؛ وعدم مشاهدته لا ينفيه ؛ وقد أخفاه الله تعالى لحكمة لا اطلاع لنا عليها ، وما تعلمه أنت في أمر النائم من أنه قد يرى في نومه أنه في معركة يضرب ويشج رأسه ويرى قوما يسبونونه ويشتمونه ، كما أنه قد يرى أنه في مزرعة أو بستان ومع قوم يكرمونه ويجلونه ويتحدثون إليه ويتحدث اليهم ، كل ذلك يدركه النائم من نفسه وينعم أو يتأذى به كما يتأذى به اليقظان ، وأنت ترى ظاهره ساكتا لا يجعلك في شك من أن شبه القوم لا قيمة لها .

وصفوة القول أن جميع ما ذكره المنكرون استبعادات لا تنفي الإمكان ولا خوارق العادات ، قال السعد : « ومن تأمل في عجائب ملكة تعالى وملكوته وغرائب قدرته وجبروته ، لم يستبعد أمثال ذلك فضلا عن الاستحالة ، كيف وقد دلت عليه الآيات والأحاديث الصحيحة ؟ والله أعلم »

طه مبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سائقاً

النظر في الملح

قال الحسن البصري رحمه الله في يوم وقد رأى الناس وهياًتهم :

إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضمراً خلقه ، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فاعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحزنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومسيء بإساءته ؛

دفع شبهة عن مقال النار

سبق أن بينا في مبحث الزار تعريف الجن والجان ، وأن منهم العاصي ومنهم المطيع ، ونزيد على ما تقدم أن المؤمن منهم يثاب ، وأن العاصي يعذب في جهنم كما يعذب العاصي من الإنس ، قال الله تعالى : (وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) فأبان الله في هذه الآية ثواب المؤمنين بقوله : (تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى توخوا رشدا عظيما لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب ؛ وذكر عقاب القاسطين بقوله : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) .

ويظهر أن الأمر اشتبهه على كثير من الناس فأخذوا يسألون : إذا كان الجن مخلوقين من النار فكيف يعذبون بالنار ، وكيف يكونون حطبا للنار ؟ وهذا اشتباه لا محل له ، لأن خلقهم من النار وكون النار عنصرا أصليا فيهم لا ينافي أنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا على كيفية أخرى تشعر باللذة والألم والعذاب والنعيم ، فيعذبون بالنار كغيرهم من بقية الخلائق . ومن هذا الاشتباه ما اشتبهه على بعضهم من أن كون الجن أجساما نارية ينافي أن يمس الجن الآدمى إذ لو مسه لاحترق ، وهو سهو عن أن العنصر الأصيل المكون منه الجن أو الآدمى لا يجعله نارا تتأجج ، كما أن كون الإنسان من طين لا ينافي أنه على تلك الصورة العجيبة من لحم ودم وعظام وعروق وما إلى ذلك من بقية أجزاء الجسم .

ولو تفتن المشتبهون لأنفسهم لما وقعوا في هذا الاشتباه ، إذ أنهم لو سمعوا من شخص أن كون الإنسان من طين يجعله ملوثا لما يمس من أجسام أخرى

لضحكوا من هذا وظنوه سخرية؛ ولقد يكون ضحكهم أكثر إذا قيل لهم: كيف يكون الانسان من طين وهو يستجم بالماء ويعمس نفسه فيه ومع ذلك لا يذوب ولا يتأثر الماء بأثر من آثار الطين؛ ولو أن شخصاً قال لآدمي: جعلت عقوبتك أن أركسك في الطين، هل يكون غير معاقب له بناء على أن أصل الآدمي من طين فلا يتأثر من أن يدرس في الطين؟..

والحاصل أن كون الانسان من طين وكون الجن من نار لا ينافي أن كلا منهما أصبح على حال أخرى غير الطين والنار، وأن كلا منهما يتأثر بالطين وبالنار وغيرهما، ويكفي لهؤلاء المشتبهين نظرة واحدة فيما يقع تحت حواسهم من المركبات الكيميائية فإن الجسم المركب من جملة عناصر يكون له من الصفة والأحكام ما ليس لكل جزء مما هو مؤلف منه. ولقد أخفى الله كيفية خلقه لما خالق سبحانه عن عباده، فقال تعالى: (مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) ومن هذا يتبين أن كون الجن من النار في الأصل لا ينافي أن يعذب بالنار، كما أن كون أصله من النار لا ينافي أن يمس الآدمي على أي نوع من أنواع اللس ولا يحترق الآدمي من ذلك، فلا محل بعد هذا البيان الى التمسك بتلك الشبهة. والله أعلم ^{طه حبيب}

الطرف والملح

قيل لبعض الحكماء: أي وقت الطعام فيه أفضل؟ قال: أما لمن قدر فاذا جاع وأما لمن لم يقدر فاذا وجد.

العلوم والآداب

الشعر (١)

مقدمة - وسائل البراعة فيه - الارتياح له

تحلى العلماء به - التعبير فيه

الكلام إما نثر ، وهو ما يلقى من غير قصد الى تقييده بوزن ، ولا يلزم بناؤه على حرف معين تنتهى به جملة ، وإما منظوم ، وهو الكلام الذى يصاغ فى أوزان خاصة ، وتبنى قطعه على حرف خاص يختاره الناظم ويتزمه فى آخر كل قطعة منه ، وهذا هو فن الشعر .

ورأى بعض الأدباء أن من المنظوم ما لا يختلف عن الكلام العادى إلا بهيئة الوزن والتزام القافية ، فلا يحسن أن تجعل ميزة الشعر شيئاً يعود الى مقدار الحروف وأشكالها والتزام حرف منها فى آخر كل قطعة منه ، دون أن تكون له خاصة تميزه عن غيره من جهة المعنى ، فزادوا فى بيان قولهم : من شأنه أن يحجب الى النفوس ما قصد تحييده اليها ، ويكره اليها ما قصد تكريهه اليها ، وتحبيبه الأشياء أو تكريهها بوسيلة ما يشتمل عليه من حسن التخييل .

فالكلام الموزون الملقى الذى يحجب الى النفوس شيئاً ، أو يكرهه اليها ، بوسيلة الحجة التى يصوغها العقل ، وتجري عاينها قوانين المنطق ، لا يسمى شعراً على وجه الحقيقة ، لأنه خال من روح الشعر الذى هو حسن التخييل .

(١) ألقى محاضرة فى نادى جمعية الهداية الإسلامية .

والحق أن الشعر ما يقصد به حمل النفوس على فعل الشيء أو اعتقاده، أو صرفها عن فعله أو عن اعتقاده، من جهة ما يشتمل عليه من حسن التخيل أو براعة البيان، ومن هنا دخل في النمنون الجميلة، ولا جمال في المنظوم إلا أن يكون في معناه غرابة، أو في تركيب ألفاظه براعة. فالكلام الموزون المقفى إنما يكون حقيقاً باسم الشعر متى بدا فيه وجه من حسن الصنعة، بحيث يكون هذا الحسن زائداً على أصل المعنى الذي يقصد بالإفادة أولاً، ولا فرق بين أن يكون أثر البراعة في التخيل أو أثر البراعة في ترتيب المعاني وإيرادها في ألفاظ مؤلفة سنيمة.

ولا ننسى أن للنفس عند سماع الكلام الموزون حالاً من الارتياح غير حالها عند سماعه منشوراً، يدل لهذا الجمل البليغة المرسلة إذا تُصرف فيها بنحو التقديم والتأخير حتى وافقت وزناً من الأوزان المألوفة، فإن ارتياح النفس لها بعد هذا التصرف يكون أوفر.

ومن أمثلة ما جرى فيه التخيل البارع قول أبي زيد عبد الرحمن الفندقي الأندلسي من قصيدة ألقاها بين يدي إدريس بن يحيى أحد أمراء الأندلس:

ومصاييح الدجى قد طفئت	في بقايا من سواد الليل جون
وكأن الظل مسك في الثرى	وكأن الطل در في الغصون
والندى يقطر من نرجسه	كدموع أسكبتهن الجفون
والثريا قد هوت من أفقها	كقضيبي زاهر من ياسمين
وانبرى جنح الدجى عن صبحه	كغراب طارعن بيض كنين

فلو تحدث الشاعر عن انجلاء الليل، وطلوع الصبح، وانبساط الظل، ونزول الطل وتساقط الندى، وهوى الثريا من أفقها، بالعبارات المجردة عن مثل هذا التخيل، لما اهتزت النفوس لها هذا الاهتزاز البالغ.

ومن أمثلة الشعر الذي جاءه الجمال من حسن ترتيب معانيه وبراعة نسجه، قول أبي العلاء المعرى:

كم بودرت غادة كعوب وعُمرت أمها العجوز
أحرزها الولدان خوفاً والقبر حرز لها حرز
يجوز أن تبطل المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

فعانى هذه الأبيات يستوى في معرفتها القروي والبدوي، ومن الذي لا يدري أن داعي الموت كثيرا ما يبادر الفتاة، ويدع أمها وهي عجوز، وأن المنايا قد تبطل عن بعض الأشخاص فتطول أعمارهم، وأن الخلود في الدنيا غير مطموع فيه؛ ولكن الشاعر صاغ هذه المعاني في سلك التناسب، وأبرزها في ثوب قشيب من الألفاظ العذبة والنسيج الحكيم، فكان لها وهي في ابتلافها، وزخرف أثوابها، وقع ما يتبجح له النفوس ابتهاجها لمعان جديدة لم تخطر لها من قبل على بال.

ومن الشعر ما هو باطل، وهو الذي وصف الله تعالى أصحابه بقوله: (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَضَعُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) الآية. ومنه ما هو حق، وهو الذي أشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: (إن من الشعر حكمة) وسنخص البحث عن تأثير الشعر في الأخلاق والاجتماع بإحدى محاضراتنا الآتية، إن شاء الله تعالى، وكل آت قريب.

وسائل البراعة في الشعر:

لا يطوع الشعر البارع إلا لمن يردد نظاره على كثير من الأشعار البليغة، ويملاً منها حافظته، ثم يأخذ قريحته بالتمرين على النظم الفينة بعد الفينة، فهذان ركنان تربية ملكة الشعر وترقيتها، فإذا أتبع للشاعر مع هذا جودة هواء المنازل التي يتقلب فيها وحسن مناظرها، ووثق بأن في قومه من يقبل على الشعر، ويقدر مراتب الشعراء، لم يلبث أن يأتي بما يسترق الأسماع، ويسحر الألباب.

وشأن من يزاول العلوم ذات المباحث العميقة ، والقوانين الكثيرة ، أن لا يبلغ الذروة في صناعة القريض ، ذلك أن الناشئ الذي يقبل على طلب العلوم إقبال من بروم الرسوخ في فهمها ، والغوص على أسرارها ، لا يجد من الوقت ما يصرفه في حفظ المقدار الكافي من أشعار البلغاء ، وفي تمرين قريحته على النظم تمرينا يصعد بها الى الذروة ، وإذا صرف من وقته في الحفظ والتمرين ما فيه الكفاية ، وجد من قريحته المعنية بالبحث عن الحقائق العلمية ما يبطل به عن اختراع معان خيالية بديعة .

ونظر ابن خلدون في وجه قصور العلماء عن التناهي في صناعة الشعر ، وأبدى أن السبب ما يسبق إليهم من حفظ المثلون العلمية ، فان عبارات هذه المثلون وإن كانت على وفق العربية ، لا يراعى فيها قانون البلاغة ، وامتلاء الذهن من الكلام النازل عن البلاغة ، لا يخلو من أن يكون له أثر في النظم ، فيقصر به عن المرتبة العالية من الفصاحة ، فلو انبعثت قريحته في فضاء واسع من الخيال ، واستطاعت اختراع صور غريبة ، لحدثت تلك المحفوظات ملكة فصاحته ، فيخرج الشعر وفي ألفاظه أو في نسج جملة ما يتجافى عنه الذوق ، فلا تتأق تلك الصور بالارتياح وإن كانت في نفسها غريبة . فالتوغل في العلوم يضايق ملكة الشعر ، وأشد ما يضايقها العلوم النظرية ، كالمنطق ، والكلام ، والفلسفة ، والفقه ، ولا سيما ما يعنى صاحبه بالبحث في طرق الاستنباط ، ويتعلم كيف يطبق الأصول على الوقائع الخارجية .

وعلوم النحو والصرف والبيان ، معدودة في وسائل إحكام صناعة الشعر ، ومتى درست على طريقة التوسع في مسائل الخلاف ، ومناقشة الآراء والأدلة والعبارات ، أصبحت في خدش ملكة الشعر كالمباحث الفلسفية أو الفقهية .

وقد يكون في الرجل قوة الشاعرية فيمجرها ، فتضعف حتى لا تواتيه عند ما بهم باستدرارها ، قال أبو القاسم الأندلسي : جرى ذكر الشعر بمحضرة أبي على

الفارسي وأنا حاضر ، فقال : إني أغبطكم على قول الشعر ، فإن خاطري لا يوافقني على قوله ، على تحقيق في العلوم التي هي مواده ، فقال له رجل : فما قلت قط شيئاً منه ؟ قال : ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب ، وهي قولي :

خضبت الشيب لما كان عيباً وخضبت الشيب أولى أن يعاباً
ولم أخضب مخافة هجر خل ولا عيباً خشيت ولا عتاباً
ولكن المشيب بدا ذمياً فصيرت الخضاب له عقاباً

فهذه الأبيات تدل على أن في أبي عليّ الفارسي مبدأ نظم الشعر ، وعدم موادة الشعر له عند ما بهم بنظمه ، ناشئ من عدم إقباله على هذه القوة بانترية وتهذيب .

الارتياح للشعر :

ترتاح النفس لصور من المعاني يصنعها الخيال ، أو تخرج في ثوب قشيب من حسن البيان ، ذلك الارتياح لذة الشعر الذي هو صنع الألفية المتلاثلة ، والخيال الواسع ، والذوق الصحيح . ولا أظن أن في الناس من لا يلذ الشعر البديع متى أحسن معانيه ، ووقعت في ذهنه بادية الوجوه كما كانت في ذهن مصورها ، وإنما المشاهد أن الناس يتفاوتون في الارتياح للشعر على قدر تفاوتهم في صفاء الذوق ، وتقدير ما في معانيه من غرابة وحسن التثام ، أو تقدير ما في أنماظه من حسن السبك وجودة التركيب .

فاذا رأيت الرجل يسمع الشعر البارع ، ولا تلوح عليه أمارة الارتياح لسماعه ، فلا أنه لم يحسن ما فيه من إبداع وجودة صنعة ، وكثيراً ما يعيب الناقد صورة معنى خيالي حيث لا يحسن الناحية التي فعل فيها الخيال البارع فعلته . أورد بعض السكاكين في الأدب قول الشاعر :

كالطيف يأتي دخول الجفن منفتحاً وليس يدخله إلا إذا انطبقا

وعابه بقوله : إن الطيف لا يدخل الجفن ، وإنما يتخيل الى النفس . ولو اعتاد
هذا الكاتب النظر الى الصور الخيالية من مسالكها اللطيفة ، لما اتعب فكره
في البحث عن الباب الذي يدخل منه الطيف المتخيل للنفس في صورة المرئي رأى العين .
يصنفو الذوق فيحس براعة الشعر ولطف مسلكه ، فتأخذ النفس من شدة
الاعجاب به حالة ربما عبروا عنها بالإغماء ، أنشد أبو عمرو بن سالم المألقي في مجلس
أبي محمد عبد الوهاب أبياتاً لبعض الأندلسيين ، منها :

ورأوا حصى الياقوت دون نجومهم فتقلدوا شهب النجوم عقودا
فأخذ أبا محمد حال من الإعجاب بهذه الأبيات حتى تصبب عرقا ، وقال : إني مما
يقهرني ولا أملك نفسي عنده الشعر المطبوع ، وروى حماد بن إسحاق أن أباة قال له :
كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئا استحسنته أطرفني به ، وأفعل معه مثل ذلك ،
فجاءني يوما ووقف بين البابين ، وأنشد لابن الدمينه :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجد
الخ الأبيات ، ثم ترخ ساعة وقال : أنطح العمود برأسي من حسن هذا ! فقلت : لا ،
أرفق بنفسك .

وكان سعيد بن المسيب ماراً ببعض أزقة البصرة فجمع منشدا ينشد قصيدة
لمحمد بن عبد الله النيرى ، يقول فيها :

تضوّع مسكا بطن نيمان إذ مشت به زينب في نسوة خفرات
يُجَبِّن أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل معتجرات
فضرب سعيد برجله الأرض ، وقال : هذا والله يلد سماءه .

وصام أبو السائب الخزومي يوما ، فلما صلى المغرب وقدمت له المائدة خطر بقلبه
بيتا جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشالاً بعينك لا يزال مَعِينَا
غِيضَن من عبراتهم وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا
فاشدد ارتياحه لهما ، حتى حالف أن لا يفطر في تلك الليلة إلا على هذين البيتين .
وكثيرا ما يكون ارتياح الأُمير لبیت واحد سببا في إغناء الشاعر ودفع مظالمته ،
نقرأ في أخبار ابن شرف أن أحد عمال المعتصم ناقشه في قرية له ، فورد ابن شرف على
المعتصم شاكيا هذا العامل ، وأنشد بين يديه قصيدة في الغرض ، ولما بلغ قوله :
لم يبق للجور في أيامهم أثر غير الذي في عيون الغيد من حور
قال له المعتصم : كم في القرية التي تحرث فيها من بيت ؟ قال : فيها خمسون بيتا ،
فقال له : أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقّع له بها ، وعزل عنها كل وال .
وكيف ترى ابتهاج أبي عمرو بن العلاء حين سمع قول بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
روّحى عنى قليلا وألمى أننى يا عبد من لحم ودم
إن في بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

لا شك أن ابتهاجه لسماعه كان بالغاً ما يمكنه أن يبلغ ، ينبئك بهذا أنه سئل عن
أبرع الناس بيتا ، فقال : الذي يقول « لم يطل ليلى » وأنشد الأبيات الثلاثة .

العلماء والشعر :

في العلماء من يلذ استطلاع الحقائق الى حد أن يستغرق أوقانه في البحث العلمى
ويرغب عن أن يصرف في صناعة الشعر أو تذوّق بلاغته ولو ساعة من شهر ، حكى
المقرئ أنه أنشد بحضرة العلامة محمد بن ابراهيم الأبلّى قول ابن الرومى :
أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكجله الأحياء والبصراء

فاذا مررت رأيت من عميانه جمعا على أمواته قراء

قال : فاستعداني الأبيات ، حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله الى الشعر ، ثم قال : أظننت أني استحسنيت الشعر ؟ إنما تعرفت منه أن العميان كانوا في ذلك الزمان يقرءون على المقابر ، فاني كنت أرى ذلك حديث العهد ، فاستمعدت التاريخ .

وفي العلماء من يأخذ الشعرُ البارِعَ بجامع قلبه ، ويجد في نفسه قوة على نظمه ، فيضرب مع الشعراء بسهم ، ليزين علمه بهذا الفن الجليل ، وسبقُ الشعراء المتجربين للشعر وحده في هذه الحلبة ، لا يثنى العلماء عن تعاطيه ، نظرا الى أنه فن من فنون الأدب الجليلة ، وقد يتخذ وسيلة الى جلب خير أو دفع أذى .

والتاريخ يحدثنا أن في أعلام العربية من كانوا يجيدون صناعة القريض ، كابن دريد الذي كانوا يصفونه بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، ومن مختارات شعره الأبيات العينية التي يقول فيها :

ومن لم يزرعه لبَّه وحيأوه فليس له من شيب فوديه وازع

ومثل الامام النحوى أبي الحسين علي بن أحمد بن حمدون ، ومن جيد شعره :

تناءت ديار قد ألفتُ وجيرة فهل لي الى عهد الوصال إياب

وفارقت أوطاني ولم أبلغ المنى ودون مرادى أبجر وهضاب

مضى زمنى والشيب حل بمفرقي وأبعدُ شيء أن يُردَّ شباب

ويحدثنا أن في رجال الفقه من يجيد التخيل ، ويحسن صياغة الكلام المنظوم ،

كالقاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي الذي قال فيه أبو العلاء المعري :

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا التأى والسفرا

اذا تفقه أحيا مالكا جدلا وينشر الملك الضاليل^(١) إن شعرا

ومن نظم هذا القاضى:

مضى تصل العطاش الى ارتواء اذا استتقت البحار من الركيا
ومن يثن الأصغر عن مراد وقد جاس الأكارى فى الزوايا
وإن ترقع الوضعاء يوما على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأصغر والأعلى فقد طابت منادمة المنايا

ويحدثنا بأن فى علماء الحديث من يجيد صنع الشعر، مثل الحافظ سليمان بن موسى السكلاعى، فإن له من الشعر ما يشبه أن يكون عربيا مطبوعا، ومما قال:

أحنّ الى نجد ومن حل فى نجد وماذا الذى يغنى حنيني أو يجدي
وقد أوطنوها وادعين وخلفوا محبهم رهن الصباية والوجد
وضاقت على الأرض حتى كأنها وشاح بخضر أو سوار على زند

ونجد للقاضى عياض وهو من علماء الحديث والفنقه شعرا ذاهبا فى التخيل الى حد بعيد، ومما قال:

انظر الى الزرع وخاماته^(١) تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

ويحدثنا أن فى علماء المنطق والرياضيات من يصنع صورا خيالية، ويبرزها فى ألفاظ عذبة رقيقة، مثل أبى بكر بن الصائغ الأندلسى، ومن نظمه البديع قوله:

ضربوا الخيام على أقاحى روضة خطر النسيم بها ففاح عيرا
وتركت قلبى سار بين جمولهم دأبى السكوم يسوق تلك العيرا
لا والذى جعل الغصون معاطفا لهم وصاغ من الأقاح ثغورا
ما مرّ بى ريح الصبا من بعدهم إلا شهقت له فعاد سعيرا

(١) الخامة: الشعبة الرطبة من النبات.

يبرع بعض العلماء في الشعر ، ولكن خول الشعراء من غير العلماء يكون جيد
أشعارهم أكثر ، ونفسهم في الشعر أطول ، وقرائحهم الى المعاني الغريبة أسرع .
التجدير في الشعر :

يجرى على ألسنة المحاضرين ، وأقلام الكتّاب حديث التجديد في الشعر ،
واسمنا ممن يتجافى عن رأى التجديد ، إذ التجديد سنة من سنن الشعراء النابغين ، ولا
سيما شعراء ينشئون أو ينزلون في بلاد عامرة بمظاهر المدنية ، وإنما نريد بحث ما يعنى
بكلمة التجديد ، حتى نصل الى ما فيه إصلاح الشعر ، ونتجاضى هدم ناحية من نواحي
اللغة الفصحى .

للشعر مقاييس ، وقواف ، ومعان ، وألفاظ ، وأساليب ، وفنون .
أما المقاييس فقد نظم العرب في ستة عشر مقياسا ، وهى المدونة في كتب العروض
وما زال الشعراء يصوغون أشعارهم على هذه المقاييس الى عهد الدولة العباسية ،
وفى ذلك العهد حدثت موازين خارجة عن الموازين السالفة ، ووجدت كما تجد الأزجال
فى هذا العهد من يعجب بها ، ويلذ سماعها . ومن الموشحات الأندلسية ما يختلف فيه
أشطار القصيدة بالطول والقصر اختلافا بينا ، كقول أبى الحسن بن سهل :

كلُّ الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر فى حبل خضر من البطاح

ومن هذا القبيل موشحة ابن الوكيل التى دخل بها على أنجاز قصيدة ابن زيدون :
أضخى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ومما يقول فى الموشحة :

يا جيرة بانث عن مغرم صب

العهد خانت من غير ما ذنب
ما هكذا كانت عوائد العرب

لا تحسبوا البعدا يغير الهدا إذ ظالمنا غير النأي الحيينا

وإذا كان الأدباء في العصور الماضية لم يقصروا شعرهم على المقاييس المعروفة فأحدثوا مقاييس جديدة ، فلا نكره لأديب أن يصوغ الشعر في مقياس محدث متى وثق من موافقته لأذواق الناس وارتياحهم لحركاته وسكنته .

وأما القافية فقد التزمها العرب على النحو المعروف في أشعارهم ، حتى اخترع الأدباء الموشحات ، فأخذت القافية هيئة غير هيئتها الأولى ، كما رأيتها في المثل التي أوردناها آنفا .

وفي التزام القافية على الوجه الذي اختاره العرب سابقا ، أو على نحو ما أحدثه الأدباء من بعد ، دلالة على البراعة ، ومحافضة على وجه من الوجوه التي يمتاز بها المنظوم على المنثور .

وأما المعاني فالشاعر أن يذهب فيها كل مذهب ، وله أن يأخذ في نحو التشبيه والاستعارات كل مأخذ ، فيرسل خياله فيما احتوته الحافظة من المعاني القديمة والحديثة والطبيعية والصناعية ، ويؤلف منها ما شاء من الصور الخيالية ، مراعى أذواق الطوائف التي يربد إثارة عواطفها نحو الشيء أو صرفها عنه .

وما زال فحول الشعراء في كل عصر يبتكرون المعاني ، ويتزعمون من مظاهر المدنية المتجددة صورا يبرعون في صنعها ، فلشعراء العصر العباسي بالشرق ، أو شعراء الأندلس بالغرب ، معان وتخييلات لم يطرقتها الشعراء في الجاهلية ، أو في صدر الاسلام ، أو في عهد الدولة الأموية . وقع هذا التجديد من فحول شعرائنا ، وكانوا على شعور من الحاجة اليه ، ونبه أدباؤنا على هذا الشعور فيما كتبوا قديما ، قال ابن سعيد يفاخر

أهل القيروان بشعراء الأندلس : « وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتألف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خلقه ^(١) في الأسجاع الجديدة ، وكليله في الأفكار حديدا ، فأغرب أحسن إغراب ، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إغراب » ؟ .

وإذا لم تجد قرائح شعراء عصر أو بلد بعمان جديدة ، ورأيناهم لا يزيدون عن أن يرددوا معاني أسلافهم ، فلضعف ملكاتهم الشعرية ، وقصورها عن أن تخرج للناس ثمرا جديدا .

وأما الألفاظ ، فخطها أن يراعى فيها ما ثبت عن العرب ، وما تقتضيه قوانين الصرف ، وما تضعه المجامع العلمية على حسب ما تدعو إليه حاجة التعبير عن الممانى الحديثة .

والألفاظ الجديدة بأن يصاغ منها الشعر هي الألفاظ التي لا يخفى المراد منها على أكثر من يقصد استعمالها عواطفهم إلى الشيء أو صرفها عنه ، ولا يكفي لجواز استعمال اللفظ في القصيدة خلوه من تنافر الحروف ، وموافقته للوضع العربي ، ووجوده في كتب اللغة القريبة التداول ، إذ ليس كل لفظ يتحقق فيه شرط الفصاحة ، يصاغ للشعر ، بل وراء الفصاحة شيء آخر هو مراعاة حال قراء الشعر ، فيصاغ لهم في الألفاظ تطرق أسماعهم ، فتحضر معانيها في أذهانهم ، فلو هجرت ألفاظ في عصر من العصور أو قل استعمالها بحيث لا يصل السامع إلى معانيها إلا بعد الرجوع إلى كتاب من كتب اللغة ، وشاعت ألفاظ ترادفها ، بحيث تكون أسرع بالمعنى إلى ذهن المخاطب ، كان من حق الشاعر اختيار الألفاظ التي يكون بها المعنى أقرب إلى الذهن ، ولا سيما ألفاظ تساوى الألفاظ المهجورة أو النادرة الاستعمال في خفة النطق بها ، وحسن تأليف حروفها .

(١) باليه .

فطبيعة الشعر تستدعي التجديد في الألفاظ على النحو الذي وصفنا، فالشاعر المجيد لا يحمّد على الألفاظ التي استعملها الشعراء في عصور ماضية، ثم قل دورانها في كلام البلغاء من بعد.

وإذا لم يكتب الشاعر في خدمة اللغة بحفظ مذاهب بلاغتها، وفنون بيانها، وأراد أن يكون له نصيب في إحياء ما هجرته الألسنة من كلماتها العذبة السائغة، فني استطاعته أن يأتي إلى الكلمة التي تخفي معانيها على أكثر القراء، وبوردها حيث لا يفوتهم فهم المراد من البيت، والارتياح لما فيه من حسن التخيل.

فلو أصبحت كلمة «امتشق» مثلاً — غير جارية في استعمال الشعراء في عصر، لما كان على شاعر أراد إحياءها من حرج في استعمالها حيث ينبه مساق الكلام على المراد منها، كما استعملها العزّازي في قوله :

والبدر نحو الغروب أسرع كهارب ناله فرق
والبرق بين السحاب يلمع كصارم حين يمتشق

ومن ذا يسمع هذا البيت ولا يفهم أن القصد تشبيه حال البرق عند لمعانه بحال السيف عند تجريده من قرابه ؟

وأما الأساليب فيراعى فيها قوانين النحو والبيان المسماة، فلا نقبل من الشاعر أن يقدم خبر «إن» مثلاً — عابها، فيقول «كاتب إن زيدا» بدعوى التجديد في الأسلوب، ولا يحسن منه أن يتكئ على علة التجديد، ويسقط حرف العطف في نحو «لا ورحمك الله» أو يدع الكلمات والجل التي توضع في أثناء الكلام فتكسو البيت لطفاً، وتدفع عنه أوهاماً يفقد بها المعنى قوته، أو ينقلب بها إلى غير مراد، إلى ما يشاكل هذه التصرفات التي تخرج بالشعر العربي عن حدود البلاغة وحسن البيان.

وللشاعر أن يتخذ من الأساليب بعد رعاية قوانين النحو والبيان ما يشاء، وقد اختلفت أساليب الشعراء في دائرة قانون اللغة الصحيح اختلافاً واضحاً، حتى إن الأملح

الدارس لأشعار الفحول من الشعراء في عصور متعددة ، يكاد يعرف من أسلوب القصيدة الشاعر الذي قالها ، أو العصر الذي قيلت فيه .

وأما فنون الشعر أعني الأغراض العامة التي يتوجه إليها الشاعر بالنظم ، نحو تهذيب النفوس ، وإصلاح الاجتماع ، والحماسة والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والوصف ، والنسيب ، والاستعطاف ، والاعتذار ، فقد نظم فيها العرب كثيرا ، وسلكوا فيها طرقا بديعة . ومن الشعراء من يبرع في فن أو فنون ، كما برع عمر بن أبي ربيعة في فن الغزل ، والمتنبي في إرسال الحكمة . ومن المصنوع ما يشيع فيه بعض فنون الشعراء أكثر مما سواه ، كالعصر الذي يحمي فيه وطيس الحروب ، فإنه يغلب فيه الحماسة والفخر ، والعصر الذي يشيع فيه الفسوق يغلب فيه النسيب ووصف الجور . وإذا غلب فن من الفنون وجد رواجا حتى عند من لا ناقة له في ذلك الفن ولا جمل ، فتسمع الحماسة مثلا - في شعر الجبان الذي « إذا رأى غير شيء ظنه رجلا » وتسمع الغزل ممن لم يحمل قلبه صبا ، ووصف الجور ممن لا يعرف للخمر رائحة .

أما عصرنا هذا ، ففيه إباحية وإلحاد ، فلا عجب أن نرى من الشعر الرقيق ما تنبذ مجالس أهل الفضل ، ولا عجب أن نرى من الشعر المارق من الدين ما يلقى بالمستضعفين في تهلكة ، وإننا اليوم في حركة علمية اجتماعية ، تنادى كل طائفة منالاً أن تسعفها بما لديها من قوة ، ولكثير من شعرائنا في تقوية هذه الحركة مواقف محمود ، وأما أن يكون الفن الذي يُعرف به الشعر في هذا العصر ، فن استنهاض الهمم والصعود به إلى ذروة العزة والمجد ، فن تقويم الأخلاق ، وإصلاح الحياتين : العلمية والمدنية .

مجلد الحضر حسين

رد فرية قاديانية

نشر أحد الأحداث التابعين لمذهب القاديانية ورقات يحاول بها ترويج هذا المذهب الخارج عن الاسلام ، وذكر فيها أن حضرة الأستاذ الشيخ أحمد الفاروقى الملقب بالمجدد للألف الثانية رحمه الله ، يقول بصحة نزول الوحي وظهور نبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما اطاع على هذه الورقات حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد صادق المجددى الوزير المفوض لدولة الأفغان ، كتب لنا كتابا ينكر فيه ما نسب الى جده الاستاذ الفاروقى من القول بنزول الوحي وظهور نبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وينفى عنه هذا القول نفيا قاطعا ، وأورد فى الكتاب عبارات للشيخ الفاروقى صريحة فى إنكار ظهور نبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، منها قوله : « وبما أن شريعة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليم ، مصونة من النسخ والتغيير ، جعل الله تعالى علماء أمته بمثابة الأنبياء ، وفوض إليهم الأمر فى تقوية الشريعة وتأييد الأمة » ومنها قوله : « فأول الأنبياء هو آدم عليه السلام » وآخرهم وخاتم نبوتهم هو رسول الله سيدنا محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم » وقال معترفا بنزول عيسى عليه السلام « وحين ينزل عيسى من السماء على نبينا وعليه الصلوات والتسليمات يتابع شريعة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليمات » . نعم يعترف السيد المجدد بالإلهام وهو إلقاء الكلام فى روع الأولياء العظام ولكن لا يدخل له فى الحل والحرمه أو إثبات الفرض والسنة .

ونحن نقدم لسعادة وزير الأفغان المفوض خالص الشكر على هذا الرد الذى كشف عن تزوير ذلك الحدث القاديانى ، ونصر الحق على الباطل (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) .

الاسلام في السودان^(١)

تقتصر الأبحاث الآتية على الاسلام في بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكمرن ومنها الى الحدود الغربية للوادي في اتجاه شمالي شرقي ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولو أن نفوذ قبائلي « الهوسا » و « الفولبا » في شمال بحيرة تشاد أقل أثراً ، إلا أن اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحي بحيث لا يمكن التفريق بين مقاطعتي « بورنو » و « باجيري » وبين المقاطعات الأخرى الغربية .

يصعب جدا تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد في بلاد السودان ، من حيث مساحة الأراضى أو من حيث عدد المسلمين ، فإن عدد السكان على العموم لم يحص إحصاء دقيقا لأن في هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم إحصاء عدد التابعين لكل دين بالمرّة ، وذلك لصعوبة التفرقة في كثير من الأحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، إذ أنه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه ، مثل قبائل « تيمبوس » و « كانوس » وبين عبيد الغابات التي تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أى معرفة ، إلا أنه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات في صالح الاسلام وليس في صالح الوثنية أو الأديان الأخرى .

(١) مترجمة من الألمانية عن مقال للأستاذ « ديريش وستمان » في مجلة « العالم الاسلامي »

وبما أن الاسلام دخل الأراضى السودانية من الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاما من باقى البقاع ، ويحتل المسلمون أغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو أنهم جالسوا خلالها فى كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى السواحل ، ويعتبر العرب فى هذه البلاد أشد القبائل إسلاما وغيره على دينهم ويلبهم مباشرة الحاميون : المغاربة « والفولبا » و « التواريج » و « الهوسا » ، ولو أننا نسمع من حين لآخر عن وجود بعض الوثنيين فى قبيلة « الفولبا » ولكن ذلك يرجع فى الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، ويوجد كذلك القليل من الوثنيين الآن بين من يتكلم بلغة « الهوسا » ولكنهم ليسوا من أفراد « الهوسا » الحقيقية .

أما فى أفريقيا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتهد على إحصائيات دقيقة ، فى السنغال مثلا يمش ٧٨٥٠٠ من « الفولبا » و ١٥٨٠٠٠ من « الدكرور » وكل من الفريقين خفور معتز بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جدا ، وأما « الولوف » و « اليولوف » وهم أكبر عنصر فى المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفى الوثنية بينهم على عكس قبيلة « السير » وعدد ١٩٠ ألفا وهم خليط بين « الفولبا » و « الولوف » فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل « السوننكة » التابعون « للماندينجو » فشديدو الغيرة على إسلامهم . وكذلك أصبح عدد الوثنيين قليلا جدا بين قبائل « المالنكة » .

أما فى غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين « الفولبا » حوالى ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألفا من « المالنكة » وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقى السكان فثمة ٣٨٥ ألفا من « الجالونكة » وكانوا فى الأصل يقطنون فى الجهات الشمالية فى « فوتاجالون » فأغلبهم من الوثنيين ، إلا أن الاسلام يتقدم بينهم تقدما مريعا بفضل مجهود قبائل « الفولبا » ، وباقى الأهالى من قبائل « تننا ومتدا ونالو وتوما وكيسى » يكادون يكونون جميعا وثنيين .

ويبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالى ٢ مليون نسمة ، منهم ٢٤٢ ألف «مانداجولا» من المسلمين «والسينوفو» وأغلبهم وثنيون ، وباقي الأهلىن يكاد لا يكون للإسلام بينهم أثر ، وكذلك الحال فى « داهومى » التى يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفا ، ولا يزيد عدد المسلمين بها عن ٧٠ ألفا ، وأما المقيمون على شواطئ نهر « نيجر » ويطلق عليهم اسم « دندى » فهم شديدو التمسك بالدين الاسلامى ، وكذلك قبائل « الفولبا » الرحل الذين يقيمون فى مقاطعة « باربا » بجوار قرى الوطنيين ، وأما الأهالى الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغا بعيدا ، فى سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل « البامبارا » الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، إلا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين السكان على وجه العموم . وكذلك الحال فى مقاطعة « موسسى » التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هو دين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبعون العادات والتقاليد الوثنية .

ويبلغ عدد سكان سنغال الأعلى من ٥ الى ٥ ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن ٢ مليون .

وعلى العموم يمكن القول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج « وداهومى » وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدىن فى تقاليدهم وعباداتهم .

وأما فى المستعمرات الانجليزية فلا نكاد نحصل على معلومات بالمرّة عن عدد المسلمين ، ويضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضا .

ويبلغ عدد سكان « سيراليونا » مليوناً و ٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لا يتبع الاسلام فيها غير القليل من « الفولبا » من سكان الجبال الشمالية وغالبية « الماندينجو » ، وأما قبائل « تنسا ومندا » فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضا .

وفى المدن الساحلية يغلب عدد الأهالى المسلمين ، فى « بورت لوكوه » سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريبا من المسلمين ، وفى « فريتون » توجد ٥ مدارس إسلامية حكومية بها ما لا يقل عن ٧٦٠ تلميذا مع أن عدد السكان لا يزيد عن ٣٤ ألف نسمة .

فالحال إذن فى « سيراليونا » هى أن الاسلام جاءها من داخل البلاد الى الشواطىء حتى عمّ جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنياتها .
وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مايونا وستمئة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، إلا أن الاسلام تقدم بينهم تقدما سريعا ، فانه لا توجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس إسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينة « تامالا » وهى عاصمة المقاطعات الشمالية ما لا يقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوما بعد يوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشارا هى « الهوسا » و « الماندينجو » الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد .

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحي ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بما لا يقل عن مائة ألف نسمة ، وقد أصبح الآن بدون منالاة لا يقل عن ضعف هذا العدد ، وأكثرهم فى المقاطعات الشمالية .

وقد لا توجد جهة أخرى فى البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام فى الفترة الأخيرة مثل « نيجيريا » ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٦ مايونا ، خصوصا فى الأقاليم الجنوبية التى كانت حتى زمن قريب تعتبر موطننا للوثنيين ، وأما فى شمال نيجيريا وهى البلاد التى فتحتها قبائل « الهوسا » و « الفولبا » فإن الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التي تقطن جنوب نهر « النيجر » « والبنوى » وعلى امتداد الشواطئ الشمالية والشرقية من نهر « النيجر » فأغلبها من الوثنيين . وفي شمال « نيجيريا » ما لا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، إلا أنهم في طريقهم الى الدخول في الدين الاسلامي بفضل مجاورتهم للأغلبية الإسلامية الساحقة هذا فضلا عن أثر ثقافة الاسلام فيهم .

وأما في جنوب « نيجيريا » فان المسلمين لا يكونون شعبا موحدا رغما عن التقدم الباهر الذي أحرزه الاسلام بين الأهالي في السنوات الأخيرة ، خصوصا في المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية في هذه النواحي ، حتى إن سكان مدينة « لاجوس » - وهي مركز رئيسي للتبشير المسيحي - يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامي ، وكذلك يتقدم الاسلام في باقي البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة . وفي مستعمرة « غامبيا » أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها عن ١٦ الف نسمة .

أما الحال في المستعمرات الألمانية السابقة فان « توجو » تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ الفا من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لا يذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة . وفي « الكامرون » يوجد شعب إسلامي موحد لا يستثنى منه غير سكان جبال « المندرا » الوثنيين والذين هم في عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضا بالرغم من ذلك . وفي « اداماوه » تدين البقاع التي احتلتها قبائل « الفولبا » كذلك بالدين الاسلامي ولو أن الوثنية تعم النواحي الجنوبية .

وبلاحظ أن تقدم الاسلام قد وقف قليلا في هذه النواحي منذ زالت دولة « الفولبا » ، وإن كانت التقاليد التي ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسلافهم المسلمين

لا زالت متبعة ومحبوبة عندهم ، وقد تقدمت قبائل « الهوسا » المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطىء في المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيرا ، وعلى الجملة فإن الاحصائيات الأخيرة تدل على أن ما يقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية .

الاسلام دين البشر

جاء في رسالة انكليزية مطبوعة صدرت في رجب سنة ١٣٥١ (نوفمبر سنة ١٩٣٢) عنوانها « الاسلام دين البشر » ما ترجمته :

« الاسلام وحده هو الدين الحق »

كتب حضرة الشاب المسلم خالد (كونراد) سمبسون وهو ابن أخى صاحبة السمو الأميرة ديانج مودا أميرة سراواك الذى دخل في الاسلام حديثا يقول : « إني اسعيد ومغتنب أن أجدنى قادراً على القول بأنى مسلم ، فإن مخالطتى للدكتور خالد شلدراك لم تلبث أن أقنعتنى بأن الاسلام وحده هو الدين الحق ، وأن رسالته بسطت للبشر رواق الأمل فى الحياة على حين أن غيره من الأديان ينهار اليوم ويتداعى للسقوط ، وقد اغتنبت صاحبة السمو عتي الأميرة ديانج مودا أميرة سراواك لما علمت أنى تأسيت بها فى الدخول فى الاسلام على يد الدكتور خالد شلدراك ، وإنى أمل أن أصبح به فى طوافه المقبل فى بلاد الشرق ، وأن أتمكن بذلك من لقاء إخوانى مسلمى هذه البلاد » .

الكهرباء

في المقاومة :

قد رأينا فيما تقدم أنه إذا أمطرت السماء انحدر المطر على جانب النبل وتهافت إلى خنادق صغيرة يتصل بعضها ببعض فتستحيل خنادق كبيرة، ويتكون من الخنادق الكبيرة خنادق أكبر منها يجري فيها الماء بدلا من جريه على سطح الأرض، لأن الخنادق لا ترده بل تكون مجرى له .

كذلك الشأن في التيار الكهربائي، فبعض المعادن أو المواد تتمكن من الجريان فيها أيسر من غيرها . على أن في كل معدن أو مادة ميلا لمقاومة مروره فيها أو رده إلى حد ما كما تقاوم حافات الخنادق ميل الماء إلى الخروج منها .

في الأوم :

من الضروري للتمكن من المقارنة بين مقاومة معدن أو مادة لجريان التيار الكهربائي بمقاومة معدن آخر أو مادة أخرى أن يوجد لفظ يعبر به عن هذه الخاصية كما يستعمل لفظ إيهام أو قدم في التعبير عن طول شيء من الأشياء .

واللفظ المصطلح عليه في علم الكهرباء المقارنة بين مقاومة مادة لجريان التيار الكهربائي فيها، وبين مقاومة مادة أخرى له هو «الأوم» .

وعلى ذلك نقول إن المقاومة في آلة تنويع المقاومة (ريوستات) في عدة الترسيل النضائي (الراديو) المرسومة في الشكل (٦) هي ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ أومًا، ومعنى هذا

أن الآلة التي من هذا النوع إذا كان فيها من المقاومة لجريان التيار الكهربائي بمقدار

٢٠ أو ٣٠ أوماً، تكون مقاومتها له ضعف

مقاومة آلة أخرى أو ثلاثة أضعافها إذا

كانت قوة مقاومتها عشرة أومات فقط .

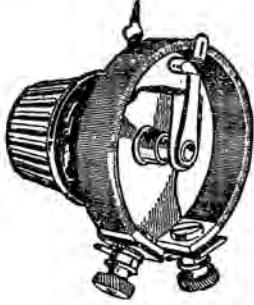
فاذا رأينا في مؤلف كهربائي كلمة « أوم »

حضر في ذهننا معنى المقاومة لأن هذه

الكلمة تستعمل في التعبير عما في أية مادة

أو شيء من الأشياء من القابلية لمقاومة

التيار الكهربائي أو منعه ، وكلما اشتدت المقاومة اشتدت قوة المنع .



شكل : (٦)

عدة تنويع المقاومة للترسل للنضائي لطلعت شركة هربوب
وفروست بشيكاغو بأعدادها إلينا

في الموازل والموصلات :

إذا سكبت سجلاً^(١) من الماء في فجوة من كوم قطع صخرية أو حصاً كبيرة

كالمرسوم في الشكل (٧) ، رأيت الماء يتسرب رويداً خلال الشقوق الصخرية ثم يغيب

سريعاً جداً . فاذا سكبت السجل في تقرة من كثيب رمل رأيت الماء يغيب بطيئاً



شكل : (٨)

سكب الماء في كتلة طين



شكل : (٧)

سكب الماء في كوم صخر

فأما إذا سكبته في فجوة من كتلة طينية كالمرسومة في الشكل (٨) فانك تراه يمتد

(١) السجل : الدلو الكبير .

فيها يوماً أو يومين قبل أن يغيب في الطين ، ويتضح لك من ذلك أن الطين يبدى من المقاومة لمرور الماء خلاله أكثر مما يبدىه الحصى والرمل . « يتبع »

استحالة المعية بالذات

وما يضاهيها من متشابه الصفات

تأليف فضيلة الأستاذ المحدث الشيخ محمد الخضر الشنقيطي .

وهي رسالة جليلة تكلم فيها المؤلف على الآيات والأحاديث المتشابهة ببيان مذهب السلف والخلف في التأويل والتفويض ، والرسالة فريدة في بابها وفيها فوائد جمة ، وتشتمل على مقدمة عظيمة ذات أربعة فصول قيمة وعلى عشرة أبحاث مهمة وخاتمة .

قام بتصحيحها فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المدرس بكلية أصول الدين ، وتباع بمكتبة محمود صبيح وثمن النسخة ذات الورق الأبيض ١٢ قرشاً وذات الورق الأصفر ١٠ قروش .

رجاء

ترجو إدارة المجلة من حضرات المشتركين الذين لم يدفعوا قيم الاشتراك المستحقة في ذمتهم إلى الآن أن يبادروا إلى دفعها لحضرات وكلائها في الجهات أو لحضرات أصحاب الفضيلة الوعاظ الرسميين بالمراكز واعتماد الوصول غير الرسمية التي يسلمونها إليهم مؤقتاً حتى تصلهم القسائم الرسمية أو إرسالها إلى إدارة المجلة مباشرة ، ورجاؤنا في أريحيهم أن لا يحوجونا إلى تكرار المطالبة ، فإن السنة الثالثة للمجلة قاربت الانتهاء .

This fact has been admitted by many European writers some of whom we quote below acknowledged their sense of fairness and equity.

Doctor Maurice of France writes in a laudatory article on the Koran published in « La Presse Française Romane » :

« We venture to say that the Koran is the greatest book which eternal Providence has revealed to a prophet of mankind. It contained songs for their happiness far sweeter than those of the philosophers of Greece, and included praise to the Creator of heavens and earth, and glorification of a beneficent God ».

“The Koran may well be regarded as an academy of science for scientists, a lexicon for etymologists, a grammar book for grammarians, a prosody book for poets and an encyclopædia of laws and legislation. Indeed no other book anterior to the Koran could be held equal to a single chapter thereof.”

In his book “Islam and Mohammad,” De la Vinisette writes :

“The Koran is the basis on which devolves the affairs of this world and the hereafter. Jurisprudence, oneness of God, principles of rights and retribution, social systems and codes of justice are all detailed in the Koran. In other words, the Holy Koran is the charter and constitution of the Moslem Faith which affords the most adequate means for securing the welfare of men in this world and ensuring their salvation in the next.”

Many are the testimonies volunteered by European writers in favour of the Koran and it would indeed be a lengthy process should we wish to quote such testimonies in detail.

In fine, there could be no more fitting description of this Holy Book than the Lord's saying concerning it :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

« It is an incomparable Book which yield to no abrogation or distortion, and unto which no falsehood could find a way from whatever side be it of the past or future events mentioned therein. It is the word of the Wise Lord to whom praise is due for the bounties He bestowed upon men.”

(Baidawy's Commentary)

This may perhaps be the significance of the Prophet's saying (Peace be on him) that "the Koran has an apparent as well as an inner meaning". It should be remembered however, that both apparent and inner interpretations include an indication of the Lord's greatness, His oneness and the marvels of His creation, whatever the interpretation may be.

It is for this reason that people of all times have benefited in varying degrees of the Koran. For indeed it is impossible for any one, no matter how learned or skilled he may be, to interpret rightly the whole text of the Koran. At most he could give the right interpretation so far as the subject in which he excels is concerned, but he would fail to do so as regards other subjects in which he does not reach the same standard of excellence. The spiritualist will deal fully with it from the spiritual standpoint while the writer will elucidate its fine points of style and eloquence. The physician will deal with its medical verses and disclose the secret of what was made lawful and unlawful of foods and drinks.

The jurist will interpret the laws and principles given therein while the moralist will deal successfully with the verses of conduct and so on, to every scientist or man of learning his allotted sphere.

The fair critic will therefore reject the idea that this incomparable book in the effort of a genius or the work of a talented writer. For man could only excel in but a single art or subject particularly if the subject happens to be one of those which the Koran has treated at length and of which the backward Arab nation was in absolute ignorance.

It is not conceivable that the Arabs should inquire, at the time, into such subjects, much less that they should excel in them.

The uncivilised and backward state of the Arabs then is too well-known to dwell upon. The sphere of description in the Arab environment was necessarily a very limited one. Indeed the wild imagination of the Arab could only find expression in such themes as a large beautiful eye, a fierce raid, a deep thrust or a piled-up trencher, etc.

How far removed these themes are from the subjects discussed in the Koran which include such themes as the oneness of the Creator, investing Him with attributes of greatness and perfection, preaching indifference to the world and urging to kind treatment and the purging of souls of the taints of wickedness, etc., etc.

The votary of this Book had been brought up under the least favourable circumstances in a backward state of civilisation and among a people who were steeped in stygian darkness of ignorance and superstitions. The effect of environment could not be overestimated. In the ordinary way, no mortal could have escaped the dire influence of such environment but Mohammad's soul remained uncontaminated throughout.

To the sound reason, this could only have been due to a benign influence from on high; and the Koran which Mohammad gave to the world could be no other than the word of Allah revealed to him for the salvation of mankind.

The Koran has inculcated all manners of social behaviour and encompassed every human concern. It has set before us the last word compatible with sound reason, in matters of beliefs, in dealing with men, in conduct and in matters of private and public life. Indeed it left no single concern of man without dealing with it in full detail and prescribing the right means for the conduct thereof.

The culture of the Koran is by far the best culture the world has ever known since the beginning of creation. Every good feature of the Western civilisation has long been inculcated by Islam. Those features of the Western civilisation which were not taken from Islam are of indifferent value and Islam could offer higher and better codes in comparison thereto.

One may easily put this theory to the test and he is sure to find that it holds good in every instance he may choose to take.

It will be sufficient for the critic to read the history and civilisation of Islam in its early days to be convinced of the truth of this assertion. The behaviour of the Moslems and their fair dealing at the time, leave no room for improvement so much so that they were thus addressed in the mankind."

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »
ترجمة تفسیر هذه الآية نقلا عن الألوسی

"You are the greatest people that were ever raised for the benefit of men."

(Alucy's Commentary).

I would like to say here that the translations of the Koran into foreign languages should not be considered dependable nor be regarded in any way as a true representation of the Koran. They fall ignominiously short of the original and at best, they are no more than a mere approximation thereto. The eloquence and style of the Koran are inimitable and no translation could ever convey the same impression to the reader's mind and soul as the Koran does. It is even the case with commentators on the Koran to fail, as they do in many instances, to give all the possible meanings of certain verses. This may be due to the fact that the verses dealing for instance with medicine, astronomy and other subjects could only be rightly interpreted by those who are well-versed in these matters provided they are not swayed by commentators' opinions or by what they heard from the learned people regarding the verses in question.

It is natural that every one can discuss a given subject only to the extent to which his knowledge permit, or to which contemporary sciences has reached.

Suffice in this connection to quote his description of Zulqarnain (1) and the regions which he invaded, a description which tallies with the geographical description of those regions.

The Holy Koran says :

« حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ،
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسی

“Until when Zulqarnain reached a westward point of the earth he found the sun goes down into black muddy waters.”

(Alucy's Commentary)

Geography gives the meaning of “Tundra” as muddy tracts of water which, in summer, covers the lower parts of the basins of the rivers Ob, Yenisei and Lena in Siberia and are transformed in winter into a great ice plain. No other region in the world is known to answer this description except that one, nor of this magnitude which reaches such an extent that the sun appears to the onlooker to sink there save that part of the world.

The eloquence and beautiful style in which the Koran was couched captivated the senses of the Arabs who were the acclaimed masters of eloquence and resulted in the conversion of many of them, a fact which is no less than a miracle in itself.

The Koran says in this connection :

« قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسی

“Were men and djinn, those supernatural beings who have the power to perform wonders, assemble to produce anything equal to the Koran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under my circumstance, produce anything like unto it even though they may include in their numbers the purest Arabs of the progeny of Ishmael who are masters of rhetoric and oratory. Nay, they could not do it even though they unite together for the purpose and support one another all they can.”

(Alucy's Commentary).

(1) Zulqarnain a great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a true believer.

bidden, and the teachings concerning certain devotional rites followed by our forefathers, have been provided, thanks to the progress of medicine, with a clear and reasonable explanation.

No less amazing are the astronomic facts contained in the Koran, facts which only expert astronomers could hope to know, but are necessarily beyond the ken of commentators.

Again the establishment by the Koran of a spiritual world which was once regarded by the enemies of Islam as mythical and absurd, has now become, through the development of science, an established fact.

Nor do ethical, social, philosophic questions lack corroboration. Recent researches have fully borne out the concepts of the Koran.

From the ethical point of view the Koran inculcates the noblest traits of conduct which are held to be the acme of human perfection.

As far as the social side is concerned, the Koran offers its followers the most efficient social systems which are only now being expounded by the philosophers of Europe, who strongly urge their people to its adoption thus unconsciously coming nearer and nearer the True Faith every day.

It is a wonderful feature of Islam that there is not a single controversial question arising between sociologists as for instance the question of marriage and divorce, or between moralists as the question of independence and freedom of woman, or between economists as the question of usury, or between jurists or historians, but has Islam given the last word on the subject and the learned people have to revert in the end to the ruling of Islam after long controversy and research.

Should one take into consideration the era of the Prophet (Peace be on him), the condition of his country and the people to whom he was sent and compare this with the great mass of knowledge and information contained in the Koran, one would be strongly impelled by both reason and conscience, not to regard the foretelling by the Prophet (Peace be on him) of future events as the only miracle testifying to the truth of his prophethood. One would be compelled to admit that the principles of civilisation expounded by him is no less than a social miracle, that the noble conduct which he preached is equally an ethical miracle and that the establishment of scientific facts by him who was no psychologist, physicist or explorer that he would thus establish the fertilisation of plants by the wind, or the classification of plants into male and female species where these facts were only lately discovered, is no less than a scientific miracle.

The astronomic facts which he established and was taken by some to point to the rotation of the earth and other planets, is no less than an astronomic miracle.

The true history which he revealed, yet he was illiterate and never read a book nor had a tutor is no less than a historical miracle.

medium of speech and through which thoughts could be expressed; and so too has birds as the Lord saith through the Prophet Solomon in the following verse :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ 'عَلِمْنَا' مَنُطِقَ الطَّيْرِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“O men ! we have been given the knowledge of the significance of birds' voices as a miracle to urge you believe.”

(Baidawy's Commentary)

Commentators, despite their great precision and meritorious efforts, could only establish such natural phenomena referred to in the Koran as were only in accordance with the knowledge and scientific standards recognised in their times. They could only reveal very little of the mysteries contained in the Koran. Their efforts were mainly directed to showing the flawless style and eloquence of the book thinking that this constitutes its inimitability and provides the proof of its authenticity and truth, yet the inner meanings of the Koran are even far greater and more stupendous than the outer form. The following verse is an example :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

“And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius (1) worshipped in the days of yore to the exclusion of the Lord.”

(Alucy's Commentary).

We were not aware of the magnitude of the Sirius to which the Koran refers in this verse until the natural sciences have disclosed that the sun is greater than the earth a million and three hundred thousand times and that the Sirius is many times greater than the sun and that the light of the sun is but one fiftieth of the light of the Sirius. But owing to the great distance which separates it from the earth, we could hardly see it except with powerful telescopes.

Thus is it that the progress of science has provided an interpretation of the Koran and incidentally a fresh proof of its divine origin and truth.

The medical miracles of the Koran concerning the lawful and the for-

(1) The Dogstar or Canicula, the brightest star in the heavens, situated in the constellation of Canis Major or the Great Dog.

“We will shew the unbelievers Our signs in remote regions of the earth through the conquests and victories achieved by the Prophet, the Caliphs and their companions as well as in themselves through the wonders wrought in the creation of man which imply perfect omnipotence on Our part. That We will shew them till it becomes clear unto them that the Koran is the truth.”

(Baidawy's Commentary)

Some commentators interpret certain verses of the Koran as merely metaphorical. The following verse was so treated :

« حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

“Until when the hosts of Solomon came to the Valley of Naml (1), an ant felt them coming and hissed something which Solomon understood to be a warning to other ants to enter their dwellings lest he and his hosts unknowingly crush them.”

(Alucy's Commentary)

We are told by the entomologists of the ingenious and ordered ways of ants and of astounding feats which they perform, facts which highly delight the heart of every Moslem to thus find them established in his Holy Book long before science had revealed them to the world.

Another verse is :

« وَمِمَّا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ »
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

“No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth with its wings in any clime, but are communities like unto you, whose functions and conditions of life are ordained from on high, and whose interests are maintained and controlled by judicious laws in accordance with the Lord's ministrations.”

(Alucy's Commentary)

Every community has necessarily a language which is used as a

(1) The Valley of Naml is a valley abounding in ants and is situated between Jibrin and Asqalan in Syria.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE HOLY KORAN (1)

The Holy Koran is the word of Allah revealed to His Prophet Mohamad to proclaim unto the world and lead mankind to salvation in this world and the hereafter. It is a standing miracle which will never cease to provide wonders to amaze the keenest intellects of the world nor fade away as time goes by. Some book there may be that does not fit with the modern ideals of civilisation or touch, even incidentally, on new discoveries avoiding the treatment of social sciences and throwing no light upon modern philosophy.

Not so the Koran, but clearer and clearer it becomes with the development and progress of science while new discoveries pile proof on proof in testimony of its divine origin and truth, that thus saith the Lord :

« سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

(1) Translated from the very Reverend Sheikh Youssef EL-Digwy's Book "Messages of Peace."

قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ كَرِيمٌ يُذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَاهُمْ وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَسْوَطَ الْغُلُظَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المجلد العاشر



بَيْتُ الْأَزْهَرِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكومية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غمرة كل شهر عربي

الجزء العاشر	شوال سنة ١٣٥١	المجلد الثالث
مدير إدارة المجلة	رئيس التحرير	
عبد المحسن بن عبد السلام	السيد	
المستشار بمحكمة الاستئناف	محمد الخضر حسين	
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى	من علماء الأزهر	
الإدارة	الاشتراك	
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١	داخل القطر المصري	٤٠
تليفون : ٨٤٣٣٢	خارج القطر المصري	٥٠
الرسائل تكون باسم مدير المجلة	للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد	داخل القطر ٢٠
	والمأذونين ومعلمي المدارس	خارج القطر ٣٠
	الاولية والطلاب ...	
تتم الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه		

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

الاجتماع - والعزلة

خلق البشر لحكمة سامية، هي عبادة مبدع الكائنات وحده، والعبادات عقلية كالإيمان بالخالق، وبدنية كالصلاة، ومالية كالزكاة، ومركبة من مالى وبدنى كالجهاد، فالعبادات لا تقام على وجهها إلا بوسائل هي صحة الفكر، وسلامة البدن، وذات اليد، ولهذه الوسائل وسائل تسبقها، كالزراعة والصناعة، والتفقه في الدين، وبعض العلوم النظرية كالمنطق، أو الكونية كالطب، وليس في استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الاستقلال بهذه الوسائل، فاحتاج الناس بمقتضى فطرتهم وما خلقوا من أجله إلى التعارف والتعاون، ولا تعارف ولا تعاون إلا بالاجتماع.

فالاجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة، وبه تنتظم العلوم، وتبلغ المدنية الفاضلة أشدها، فيتنبأ للناس أن يعبدوا الله على بصيرة، ويتقربوا إليه بضروب من الأعمال الصالحة لا تحصى.

يظهر إشار الإسلام للاجتماع على العزلة في كثير من الأحكام والآداب، فانظروا إلى ما دعا إليه على وجه التوكيد من إقامة الصلوات الخمس في جماعة، ثم ما فرضه من الاجتماع لصلاة يوم في الأسبوع، وهي صلاة الجمعة، وعين للحج وقتا في السنة، فكان من حكمة هذا التعيين التقاء أمم من بلاد وأقطار مختلفة على صعيد واحد، وشرع ليوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى صلاة تؤدي في جماعة، وتوصل بوعظ وإرشاد.

وشرع إقامة الولائم في مثل عقد النكاح، أو البناء، ويوم سابع الولادة، وحث على إجابة الدعوة، حتى إن عبد الله بن عمر كان يجيب الدعوة في العرس وغيره وهو صائم.

دعا الى الاجتماع في أوقات السرور كأيام الأعياد ، ودعا الى الاجتماع في أوقات
المكاره والشدائد ، كالاجتماع لصلاة الكسوف ، والاجتماع للصلاة على الميت وتشيع
جنازته ، حتى يكون الاجتماع مائلا لمواطن السرور والحزن ، ولا يبقى للعزلة الجافية
مظهر في حال .

ومما يوصى الى اختيار الاجتماع قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فان من
مقتضى الأخوة الائتلاف والاجتماع في أوقات كثيرة ، وقال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ
بَيْنَهُمْ) وكيف يتسنى للمبتعد عن الجماعة في ناحية أن يعرض عليهم آراءه ، أو يستطلع
منهم أمثالها ، فضلا عما تقتضيه الشورى من مناقشة الآراء ، وقال تعالى في وصف
ما يدعو به المؤمنون الفاضلون : (وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) وكيف يصلح المفارق للجماعة
أن يكون مثالا كاملا للهداية ، يشهد الناس سيرته فيما يفعل أو يذر ، فيسيرون على أثره
مقتدين . ومما يوصى الى اختيار الاجتماع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :
(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضه ^(١)) وليس المعتزل من الناس بالبينة المرصوفة
في الجدار تمسك لبنة ، وتمسكها لبنة ، وما مثله إلا اللبنة تخرج عن الصف المستقيم
في البناء ، ولا يزال اتصالها بالبناء يضعف حتى تهوى ساقطة الى الأرض .

دعا الاسلام الى الاجتماع ، وشرع للاجتماع أحكاما عادلة ، وآدابا فاضلة ، كالحث على
القرض ، والمهاداة ، وقضاء الحاجات ، والإحسان لأولى القربى ، واليتامى والمساكين
وابن السبيل ، وتحريم الربا والميسر ، ووضع عقوبات للاعتداء على النفس والأموال
والأعراض ، الى ما يشاكل هذا من الأحكام القضائية والنظم السياسية ، والآداب
التي تحمي الاجتماع من كل تقيصة ، وتجعله مصدر خير وسعادة .

فشرعية الاسلام مُشربةٌ روح الاجتماع ، ومن ثم ترى علماءها يخوضون في المجامع يقولون طيبا ، ويعملون صالحا ، وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « خالط الناس ودينك لا تنكلمنه » وإذا تقل عن بعض من عرفوا بالتمدبر في القرآن والسنة آثار تدل على إشارهم العزلة على الاجتماع ، فانما هي حال خاصة تعرض للشخص ، فتجعل الاعتزال في رأيه أرجح من الاجتماع ، ولا يصح حملها على أنهم يقصدون الى جعل العزلة مذهبا يسع كل الناس ، وانظر الى ما يحكى عن الامام مالك من أنه كان يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ، ويعطى الإخوان حقوقهم ، ثم ترك ذلك في آخر حياته ، وإنما ترك مالك هذا النوع من الاجتماع لحالة خاصة عرضت له ، ويدلك على أنه رأى العذر في ترك تلك الحقوق قائما ، قوله حين سئل عن ذلك : لا يهيبا للمرء أن يخبر بكل عذر له . فانظر كيف جعل العزلة من الشئون التي لا يجنح لها الانسان إلا لعذر ، واكسبه كره ذكر العذر الذي حمه عليها ، وإذا ثبتت استقامة رجل كالامام مالك ، وعرف بالمحافظة على آداب الشريعة ، ثم روى عنه ترك شيء من هذه الآداب الثابتة ، حمل تركه لها على قيام عذر ، ولا يكون هذا الترك موضعا للاقتداء ، وكيف يرى مالك للرجل — ولا سيما العالم — أن يخلد الى العزلة ، وهو الذى يقول : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم أن يدخل على كل ذي سلطان ، يأمره الخير ، وينهاه عن الشر ، حتى يتبين دخول العالم على غيره » .

في الاجتماع مزايا دينية ومدنية لا يدركها المعتزلون ، فالمعتزل للناس يفوته العلم إن كان في حاجة الى أن يتعلم ، ويفوته فضل التعليم إن كان فيه كفاية لأن يعلم غيره من الجاهلين ، والمعتزل يفوته ما يقف عليه المشاهد لأحوال الناس من التجارب التي يباغ بها العقل أشده ، ويفوته كسب المال أو نماءؤه ، والمال وسيلة العفاف وصيانة ماء الوجه ، وهو المرقاة التي تصل بها الأمة الى قمة المنعة والعزة والسيادة ، وفي الاجتماع

لذة روحية هي الاستئناس لمعادنات المصطفين من العلماء والأدباء ، وإلى هذا الاستئناس يشير القائل :

وما بقيت من اللذات إلا مجالسة الأديب إلى الأديب

ثم إن معظم خصال الشرف والحمد التي يفضل بها الإنسان على سائر الحيوان ، إنما تبلغ كلها ، ويعظم أثرها فيمن سيرته الاجتماع ، فسيرة الاجتماع هي التي يتجلى فيها خلق السخاء إذ يشهد صاحبها حاجات الأفراد أو الجماعة ، فتثور في نفسه الشفقة أو الاشفاق فيبسط يده إلى سدها جهد المستطاع . وسيرة الاجتماع هي التي يظهر بها خالق الحلم والأناة حيث يصادف صاحبها طبقات من غير أولى الكياسة ، فيقابل خشونة ألسنتهم باللين ، وغلظة قلوبهم بالرفق ، وسيرة الاجتماع هي التي يستبين بها فضل الشجاعة الأدبية ، وهي خالق يهون عليك أن تقول للمخطئ : إن الصواب في غير ما نطقت ، أو تقول للمبطل : إن الحق في غير ما رأيت ، أو تقول للمفسد : إن الخير في غير ما أتيت . وسيرة الاجتماع هي التي يتبين بها الناس كيف تُحدث فتصدق ، أو كيف تعد فلا تخاف ، أو كيف تؤمن فلا تخون .

قد يخطر بالبال أن في العزلة تخلصاً من نحو القبح في الأعراض ، والسعي بالنيمة ، والتنازع بالألقاب ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة ، والواقع أن الذي يعلم عاقبة وزر الغيبة والنيمة وما يشاكلها من الأضرار التي قد يسوق إليها الاجتماع ، يجد في نفسه زاجراً عن ارتكاب شيء منها ، وفي يده أن يسدي النصيحة لمن يحوم بها ، أو يلوث صحيفته بلمطخ من أقذارها ، فإن لم يجد للنصيحة في مجالس سامعا ، تركه إلى مجلس أبعد عن اللغو ، وأبرأ من الإثم ، وأما مسارقة الطبع ، فن الاجتماع ما يقتبس منه الطبع آداباً سامية ، ومن الاجتماع ما يمكنك أن تقيض عليه من حكمتك نورا ، ومن إرشادك ماء طهورا ، فينقأ ليله صبحا ، ورجسه طهرا .

ومن ذا يرضى لك وأنت سليم القلب نقي العرض أن تتردد على مجامع بضاعتها أقوال لا خير في سماعها، أو تسكث من لقاء وجوه لا يغبطك أهل الفضل على لقاءها، ومن ذا يجهل أن الوقت ذهبٌ، فيزيّن لك أن تبدله في غير حق، أو تشتري به ما ليس بحمد.

وإذا قلنا: إن الاجتماع خير من العزلة، لا نقصد إلى أن يصرف الانسان أوقاته في التردد على البيوت، وغشيان المجالس، والتعرض للقاء كل من يجري اسمه على الألسنة، كما يفعل بعض من لم يقدروا الوقت حق قدره، فيبدرونه تبذيرا، فانه لا بد للانسان من أوقات يخلو فيها بنفسه، ليؤدى واجبا أو يتقرب الى الله بنفل، أو يحفظ علما، أو يحقق مسألة، وذلك معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «خذوا حظكم من العزلة» ونقرأ في تراجم كثير من أهل العلم أنهم كانوا يجعلون من اليوم والليلة نصيبا للتقرب من الخالق بصلوات أو ذكر أو تلاوة قرآن، ويقبلون في جانب عظيم منهما على العلم تأليفا ودراسة، ويصرفون طائفة من الوقت في قضاء حقوق اجتماعية، فإن قال الراغب في العزلة: أريد أن أفضى أوقاتي في عبادة، قلنا: في حضور مجالس العلم مفيدا أو مستفيدا، عبادة، وفي عيادة المريض عبادة، وفي زيارة الإخوان أكيدا لمودتهم، أو تهنئة بنعمة، أو تعزية على مصيبة، عبادة، وفي إرشاد الناس الى الخير عبادة، وفي مد يد المعونة على ما يسد حاجتهم أو تقوى به شوكتهم عبادة.

وليس ببعيد أن يكون ما يعزى الى بعض أهل العلم من إشار العزلة مرادا به صرف معظم الوقت في علم أو عبادة خالصة، حتى اذا أحس واجبا بدعوه الى الاجتماع أجاب داعيه في نشاط، ووضع يده في أيدي العاملين بإخلاص.

وقد يخطر بالبال أن الشر في هذا العصر أصبح مستطيرا، وأن للضلال والفساد دعاة لا يملون، وجنودا لا يتهقرون، فمن فئة غلبت عليهم أهواؤهم فاتخذوا اسم

الدين وسيلة الى مآتهوى أنفسهم، ومن قوم نبذوا الدين وخرجوا يدعون الى الإباحية والإلحاد علانية، ومن جماعات يرسلون الى بلادنا، ويقيمون معاهد ليتصلوا فيها بأبنائنا، ويحاولوا صرفهم الى ملة غير ملتنا، ومن طوائف ابتدعوا نحللات خاسرة، وانتموا بأفواههم الى الإسلام وقلوبهم تجحده، ولا شأن لهم إلا اصطلياد الغافلين ومن لم تسبق لهم تربية رشيدة، كما يصنع الفرقتان المدفوعتان الى تقويض أركان الإسلام واستدراج شعوبه الى احتمال الذلة والهوان، وهما البهائية والقاديانية، ومن فرق لا شأن لها سوى أن تضع أمام أعين الشبان مناظر اللهو والخلاعة، فتصرفهم عن الطريق السوى، وتمشى بهم في عوج، فلا يدركوا ما يدركه أولو الجد والعفاف والشهامة من مجد وكرامة. قد يخطر كل هذا ببال الرجل فينحدر في غم ويضل سبيل التفكير، فلا يرى طريقا للخلاص من هذا الغم سوى البعد عن المجتمع والعيش في عزلة لا يسمع فيها صوت الباطل، ولا يبصر فيها منظرا من مناظر الإباحية المتهتكة.

ربما نسمع مثل هذا الخاطر من بعض من نشأوا في رشد وصلاح، وقد يكون هذا الخاطر وليد سريرة طيبة، ولكن العمل عليه يزيد الضلال صولة، والفساد جولة، ويجمع المجتمع الذي تستمد منه الأمة حياتها، ظلاما لا يخلفه ضياء، ودنسا لا يغسله ماء.

أما أصحاب الأهواء والدعايات الزائفة، ففي أيدينا مقاومتهم بالحجج التي تكشف عن تمويههم، وتنقذ الناس من مصارع باطلهم، وأما المحترفون بترويج الخلاعة، فحتى قامت التربية على دعائم الحكمة والحزم، خملت سوقهم وكسدت بضاعتهم، ومن أبقى يده في أيدي الجماعة قام بنصيبه من الجهاد في هذا السبيل، ومن خطر على باله العيش في عزلة، فليستعذ بالله من اليأس، ويدع العزلة الى اليوم الذي يلتحق فيه بأصحاب القبور.

وإذا هان اعتزال من لا يرجوه الناس لعلم أو رأى أو معونةٍ على عمل اجتماعي، فإن عزلة العالم أو المجرّب للأُمور أو المستطيع لأن يعمل مع الجماعة خيراً، ذاتُ خطر كبير، وبالأحرى حيث تظهر المنكرات، أو تكون الأُمة غارقة في جهالة، أو تبثلي بملمات اجتماعية.

واعتزال العالم للجماعة قد يكون له أثر في قلة إصابته فيما يتعرض له من الفتاوى فان للنظر في الوقائع من ناحية ما يترتب عليها من خير أو شر، دخلاً في إصابة الحق. ولا يستقيم النظر في الوقائع من تلك الناحية إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ في معرفة أحوال المجتمع، وكيف يدري هذه الأحوال من هو غائب عنها، بعيد من مصادرها ومواردها.

وإذا انصرف بعض أهل العلم أو الرأي عن الاتصال بالجمهور أيام كانت راية الاسلام تحفّق في الشرق والغرب، وكانت النفوس في اطمئنان سائد، فإن الحال في هذه العصور يدعو الى بذل كل عناية في التعارف والبحث عن علل ضعفنا، ثم عن الدواء القاطع لهذه العلل، وماذا ينفع البحث عن العلل وأدويتها إذا لم نهض الى تركيب الأدوية وتنمطها على الوجه الذي يُوفّر نشاطنا، وتشهد به سواعدنا، ويجري به دم الحياة والحماسة في صغارنا وكبارنا.

لا يليق بالفرد أن يعتزل الجماعة، ولا يليق بالجماعة أن ترى نفسها في ذنى عن الاتصال بباقي جماعات الأُمة، وإذا كان اتصال أفراد الجماعة باللقاء والتعاون على حاجات بلدهم، فاتصال الجماعات المتباعدة الأوطان يكون بوسيلة أفراد يرحلون فيدلّون على مبلغ ثقافتها ويستطيعون أن يصفوا كمالها أو حاجاتها، وهؤلاء هم الذين يصلحون لأن يؤكّدوا الروابط بين الجماعات حتى تكون كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً.

محمد الخضر حسين

النفسي

سورة النور

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (فِي يُمُوتِ أذنَ اللَّهِ أَن تُرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

لله ما أبدع وما أروع ! لقد تسلسل النظم الكريم على أقوى ارتباط وأمتن إحكام ، فتراه على تنوع فوائده وتعلقها بشئون شتى من فنون الهداية قد ارتبطت أجزاءها بعضها ببعض ، حتى لتكاد تراها كوني هيكلا سويا قد أخذ أعضاء بعضها بسبب من بعض ، فقد بنيت السورة على إفادتنا الأحكام التي نحيا باتباعها حياة سعيدة سواء في حياة الأسرة المنزلية أو حياة العشرة والمخالطة المدنية واتصال الناس بعضهم ببعض اتصالا طاهرا صافيا غير منغص ولا مبغض ، وأعطانا التعليم الإلهي من ذلك ما اذا تأملناه علمنا يقينا أن مصدره لا يكون إلا النور الإلهي ، وأن هذا الهدى الكامل ناطق بمنشئه شاهد على مبعثه ، فكان حقا أن تردف تلك الأحكام بما ينوّه

بِعَظِيمِ قَدْرِهَا وَيُوجِبُهُ النَّظَرُ إِلَى اسْتِجْلَاءِ مُحَاسِنِهَا وَاجْتِنَامِ فَوَائِدِهَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ النَّفْسُ حَظَهَا مِنْ اسْتِجْلَاءِ تِلْكَ الْأَنْوَارِ وَشَمَلِهَا ضَوْءُهَا وَكَانَتْ جَدِيرَةً بِأَنْ تَتَعَرَّفَ مَصْدَرُ ذَلِكَ النُّورِ الْأَعْظَمِ ، أُرْدِفَتْ بِتِلْكَ الْآيَةِ الَّتِي تَرشدها إِلَى مَا تَبْتَغِيهِ ، وَتَبَيَّنَ لَهَا مَصْدَرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكُبْرَى لِتَزْدَادَ النَّفْسُ لَهَا إِكْبَارًا وَإِجْلَالًا ، وَلِتُمَثِّلَ تَعَالِيمَهَا امْتِثَالًا ، فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وَمَثَلُ لُغْوِهِ الْمَعْنَوِي بِأَقْوَى مَا يَعْرِفُ إِذْ ذَاكَ مِنْ مَظَاهِرِ النُّورِ الْحَسِيِّ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ فِي مَنْزِلَةِ أَقْوَى الْأَنْوَارِ الَّتِي تَجْذِبُ الْأَبْصَارَ ، ثُمَّ أُرْدِفَهَا بِمَا يَفِيدُ أَنَّ النُّورَ وَقُوَّتُهُ وَالضَّوْءُ وَسَطْوَعُهُ وَالْأَمْرُ وَظُهُورُهُ لَا يَفْنَى عَنِ الْمَرَّةِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، فَالنُّورُ مُتَحَقِّقٌ لِلْجَمِيعِ وَلَكِنَّ الْإِهْتِدَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِ شَاءِ اللَّهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) فَهُوَ الْفِعَالُ لِمَا يَشَاءُ (فَتَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ) وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، فَيَضَعُ الْأُمُورَ فِي نَصَابِهَا ، وَيَزِنُهَا بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ تَكُونُ الْمُهَادِيَةُ صَالِحَةً ، وَأَعْلَمُ حَيْثُ تَكُونُ النَّفْسُ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِهَا إِلَّا الْغَوَايَةُ وَالضَّلَالُ . نِظَامٌ وَحِكْمَةٌ ، هُوَ الْعَلِيمُ بِحَسَنِ مَوَاقِعِهَا ، وَهُوَ السَّيِّدُ الْمَالِكُ ، لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ .

وَعَلَى حَسَبِ كَمَالِ مَلِكِهِ وَإِطْلَاقِ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى قَسَمَيْنِ : فَتَهْمُ كَافِرٌ ، وَمِنْهُمْ مُؤْمِنٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ حَسَنُ الْمَوْقِعِ وَجَمَالُ الْأَسَاوِبِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، ثُمَّ قَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

من هذا تعرف أن الجار والمجرور في قوله : « في بيوت » متعلق بقوله « يسبح » الآتية ، وإعادة ذلك بقوله « فيها » لا يمنع منه ، فهي للتوكيد كقوله تعالى : (فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ويصح أن يتعلق بمحذوف يؤخذ مما بعده ، أي سبحوا في بيوت والجملة استئناف يشرح هو وما بعده مقتضى المشيئة التي في قوله تعالى : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) .

وذكر بعض المفسرين أنه متعلق بقوله « يوقد » السابق أو صفة لقوله « كمسكاة » معنيين بأن المسكاة التي في بيوت بهذه الصفة تكون عادة أضواً وأضخم ، أو بأنها في تلك البيوت ضمت انشراح النفوس بطهارة تلك الأمانة الى ما حوت من نور حسي وأمثال ذلك ، ولسكننا نراه بعيداً ، فقد انتهى المثل المضروب للنور وتم عند قوله « نور على نور » ثم أردف بما ينشأ عنه ويترتب عليه ، وأخذ الكلام شأن آخر ، فتعاليق قوله « في بيوت » بهذا يدعو الى تفكيك النظم الكريم ، ولو وقع مثل هذا في كلام الناس لعدّ مفككا ، فكيف وهو في أبلغ كلام وأحكمه ؟ !

والبيوت التي أذن الله أن ترفع هي المساجد وما يلتحق بها من دور العلم والذكر ، وكل ما ينبه القلوب الى عظمة الله تعالى . والإذن أصله الإباحة في مواضع يظن فيها المنع ، والمراد هنا الأمر ، وإنما عبر عنه بالإذن لتصوير المأمور به بصورة أن المأمور أتجه اليه ، وتطلعت نفسه اليه ، مترقباً التصريح له به والإذن فيه . ومعنى ذلك أن رفعة البيوت وذكر الله فيها من حقه أن تتشوف اليه النفوس وتتطلع ، فإذا جاء الأمر فكأنما هو إذن منتظر .

ومعنى « ترفع » تعظم ويُعلى قدرها ، وذلك بصونها عن الإتهان والالغط ، وتجنبيها الصبيان ومن في حكمهم ممن لا يميز ولا يضبط أمره ، واجتناب الجنب ومن في معناه دخولها ، وعدم تنجيسها أو تلويثها بمستقذر ولو طاهراً ، وعدم اللغط فيها أو اتخاذها

محلا للهو ولو مباحا، أو غشيانها بثياب ذات رائحة كريهة يتأذى بها من فيها، وأمثال ذلك مما ذكر في كتب الفقه مما حكم بعضه الكراهة وحكم بعضه التحريم. ومن رفعها صونها عن التصاوير وما يشغل العابد عن عبادته. ومن رفعها إضاهاة وفرشها بما يحبب في التردد إليها والمكث فيها.

وقوله تعالى: (وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ) - المراد ما يعم جميع أنواع الذكر: من الصلاة، وقراءة القرآن، والوعظ، والإرشاد، والتعليم الذي يعود على المتعلم بتمجيد ربه وإدراك آثار رحمته في خلقه، فكل ذلك مما يجعل الألسنة تلهج بذكر ربها، والقلوب تتذكر عظمتها وجلاله.

وقوله: (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ) - التسبيح: التنزيه والتقدیس، يتمدى بنفسه كقوله تعالى: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وباللام كما هنا، وكقوله تعالى: (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وأصله من سبج في الماء إذا عام فيه وأبعد، ومنه قولهم: فرس سبوح: سريعة الجرى سهله؛ وقوله تعالى: (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) أى متصرفا ومتقابلا لا تنقيد بشئ، وكأن المسبِّح يبعد بربه عما لا يليق به من ضد أو ند أو شريك أو شبيه. والمراد هنا كل أنواع التنزيه سواء أكانت في صلاة أو في اتعاظ أو ذكر أو تفكير في المسموك أو غير ذلك. وتقريده بالغدو والآصال لا يقصره على الصلاة كما قال بعضهم زاعما أن ذلك في صلاة الغداة وصلاة العشي وكاننا مفروضتين قبل الصلوات الخمس وزيد عليهما. كل ذلك لا نزاع، بل لا نرى ذكر الغدو والآصال من باب التقييد، بل من باب الدلالة على تكرار التسبيح منهم بتوالي الأوقات، فهو كقولك: أزوره صباحا ومساء أي متواليا. هذا وقد قرئ «يسبِّح» فرجال فاعل، وقرئ «يسبِّح» بصيغة المبنى للمفعول فنائب الفاعل هو الجار والمجرور في قوله «له» أو «فيها». وقوله «رجال» الح جملة

مستأنفة، كأنه قيل: من الذى يسبح؟ فقيل رجال، أى يسبح رجال، أو المسبح رجال. وفضل هذا التعبير أنه ذكر فيه التسبيح مرتين تنويعاً بشأنه، فكأنه قيل: يقع في تلك البيوت التسبيح لله بالغدو والآصال، والمسبح هم رجال الخ. ونظير ذلك في استعمال التخاطب الجارى قولك: اذا وصلت الى جهة كذا أكرمت أبلغ إكرام، ثم تقول: أصدقاؤك وزملاؤك والذين سمعوا بفضلك وكثير ما هم. ألا ترى في هذا التعبير تقرير الإكرام بما ليس في قولك: أكرمك أصدقاؤك وزملاؤك؟

والغدو هنا: جمع غداة وهى أول النهار. والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار، أو جمع أصل كمنق، وأصل جمع أصيل عند من يرى أن فعلاً لا يجمع على أفعال. وأصحاب القول الأول يقولون إنه كشریف وأشراف. ولعل في تقديم صفة البيوت على صفات المسبحين أى الرجال مع أنها هى المقصود بالذات حكمة الحث على التوجه الى تلك البيوت وحفز النفوس الى غشيانها فتقبل على العبادة والتأسي بمن فيها. وغير خاف ما للبيئة من التأثير القوي في عامة الناس، وإن الرجل يكون متراوح النفس بين الخير والشر فاذا صادفته بيئة صالحة انتفع بها، واذا غمرته بيئة خبيثة أفسدت عليه أمره، وهذا لا يمنع أن بعض النفوس توغلت في الخير أو في الشر حتى لا يكاد يثنيها أمر عن غيها أو رشدها. قال بعضهم: الناس أربعة: اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما، واثنان أنت منهما على تجربة، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما فصالح بين فجار وفاجر بين صالح، فلو كان للصالح أو للفجور الى نفس هذا أو ذاك سبيل السكّن في بيئته ما يساعده، وأما اللذان أنت منهما على تجربة فصالح بين صالح، وفاجر بين فجار، فاعمل أحدهما لو نشأ في بيئة غير بيئته لكان غير ما تراه. وقوله تعالى: (لَا تُأْخِذْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) صفة مدح لرجال أكد ما في التنوين من التعظيم والتفخيم المستفاد من السياق والمعنى أنهم اتجهوا

بقاوبهم الى عبادة ربهم فلا يلوبهم عن ذلك شاغل ولا يلهمهم مقصد ، وقد أتى بأثم ما يشغل الناس عادة وهو التجارة والبيع ، ذلك لأن ذا العمل المستقل الذي لا يرتبط بغيره يجد نفسه حراً في تقسيمه على زمنه ، ولكن التاجر عرضة لأن يخطر الشيطان بين جوانحه فيوسوس له بأنك اذا انصرفت عن تميم صفقتك ضاعت فرصتك ، فهو يتلهى بعمل يتاوه عمل حتى يضيع عليه وقته . وذكر البيع بعد التجارة وإن كان داخلا فيها ، لأنه أثم ما يحرص التاجر على إنجازه ، فقد تحذره نفسه بأن يرجى أمر الشراء ليتروى ، ولكن إذا حانت له فرصة البيع التي يتيقن فيها الربح حرص على المبادرة اليها حتى لا تفلت منه ، أما الشراء فانه تحذره نفسه أنه ربما كان في الإرجاء والمهلة شيء من هزأعصاب البائع فيتسامح في بعض الثمن أو نحو ذلك . يعرف ذلك من راقب نفس من يزاول البيع والشراء .

والمراد بذكر الله كما سبق جميع أنواع الذكر . وتخصيص إقام الصلاة بالذكر بعده مع دخولها في ذكر الله أزيد الاهتمام بشأنها ، نهى كقوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) ويصح أن يكون المراد بذكر الله تحميده وتمجيد ، فيكون مغايراً لإقام الصلاة ، وهو ظاهر . وإنك لتجد أكثر ما ترد الصلاة في القرآن معبرا عنها بالفظ الإقامة ، وذلك لبيان أنه ينبغي في أداء الصلاة أن تقوم أركانها وتوفى ما يطلب فيها . وقوله : (وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ) ذكر هنا مع أن الزكاة ليست مما يطلب فيه أن يفعل في المساجد ، لأن الشارع الحكيم قد راعى أن تكون الزكاة من الصلاة بمنزلة الثمرة من الشجرة ، حتى لا تكاد تذكر الصلاة إلا ويذكر معها الزكاة ، وكأن الصلاة في نظر الشارع اذا لم تؤثر في قلب المصلي حتى تهون عليه أن ينخاع عما أحرزته يده — وهو في الحقيقة مستحق لمن فرضت له الزكاة — كانت صلاته شبحاً بلا روح ، وكان ساهياً عن صلاته التي فعلمها رياء ومجرد حركات وسكنات ، وكان مستحقاً للويل

في قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَنْمَعُونَ الْمَاعُونَ).

وقوله تعالى: (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) انتقال في الوصف من شرح أعمالهم وحركات جوارحهم الى شرح صفات قلوبهم وخوارق نفوسهم ، فقال : إنهم يفعلون ما يفعلون اتقاء ليوم يجعل الولدان شيباً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، يوم تتردد فيه النفوس بين الخوف والرجاء فتتقلب القلوب متجهة الى الرجاء تارة والى الخوف تارة أخرى ، وتتقلب الأبصار متجهة الى البين وإلى الشمال لا تدري من أين تؤخذ أو من أين تؤتى كتبها أبايمين أم بالشمال . أو المعنى تتقلب فيه القلوب والأبصار أو تهاع القلوب وتزيغ الأبصار فلا يستقر منها شيء في مكانه ، كقوله تعالى : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَآغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَكُفُّوا نَافِثَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ الظَّنُّونَا) فكيف لا يخاف هول هذا اليوم من يؤمن تمام الإيمان بهذا اليوم ؟ ! وإنما كان من شأن هؤلاء الرجال ما كان (لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ) هذا تعليل لقوله « يسبح » أو قوله « لا تلهيهم » أو قوله « يخافون » أو هو تعليل للفعل محذوف جامع لهذه كلها وهو : يفعلون ما ذكر من التسبيح والخوف وعدم اللهو ليجزيهم الله . وفعل « يجزى » يتعدى للشخص المجزى بنفسه ، وللفعل المجزى عليه بعلی أو عن ، وللأمر المجزى به بالباء أو بنفسه ، تقول : جزيته على عمله وعن عمله وبعمله أحسن جزاء أو بأحسن جزاء ، وقد وقع هنا متمديا في الظاهر للفعل المجزى عليه بنفسه ، إذ يقول : (لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) فن المفسرين من يرى أنه على حذف الجار ، والمعنى ليجزيهم على أحسن ما عملوا أو بأحسن ما عملوا ، ومنهم من يرى في الكلام حذف مضاف بتقدير أحسن جزاء ما عملوا ، فالمدنى على الأول أنه يجزيهم على أحسن أعمالهم

ويتجاوز عن سيئاتهم، فإن الحسنات يذهبن السيئات، ولو شاء لحاسبهم حساباً عسيراً فأحصى عليهم سيئاتهم، بل لأحصى عليهم لهوهم المباح وغفلتهم عن ذكر ربهم، ولكنّه — فضلاً منه ورحمة — إنما يجزيهم على أحسن الأعمال ويعفو عن السيئات. والمعنى على الثاني: ليحزيهم أحسن جزاء أعمالهم، وذلك بالمضاعفة حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها. وإن المكافأة ولو بالمثل فضل من الله، إذ ما كانت الطاعات من العبد إلا بإقدار الله وتوفيقه، فما بالك بالمضاعفة والمضاعفة إلى عشر أمثال كما في قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) والمضاعفة إلى سبعمائة ضعف كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) ! اللهم إن هذه هي التجارة الربحية، وهذا هو الجزاء الأوفى، بل الفضل العظيم، فكانوا بذلك يجزون أحسن جزاء لما عملوا.

وانظر إلى آثار رحمة الله: لم يقصر الأمر على الجزاء وأنه أحسن الجزاء، بل زاد عليه الفضل بقوله: «ويزيدهم من فضله» فجعل الأمر مكافأة ومجازاة مع أنه هو صاحب الفضل والتوفيق في الأولى والآخرة، وزاد في الجزاء تلك المضاعفة العظمى، ثم وعد بالمزيد من الفضل والله ذو الفضل العظيم. والفضل هنا: الإعطاء بلا مقابل، كأن ما عملوا أصغر من أن يقع موقعا مما ينالهم من رحمة ربهم، فإذا صح أن بعض ما نالهم يسمى جزاء مستحقاً فإن بقيته أعظم من أن ينسب إليها ما قاموا به من عمل مهمّاشق. وماذا يقع عمل العبد مع ضعفه وعجزه من ثواب الله مع قدرته وسعة رحمته، وبخاصة إذا روعى أن الشكر ليس إلا بتوقيفه كما سبق! والله من قال:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً علىّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف ينال الشكر إلا بفضله وإن طالت الآجال واتصل العمر

ولقد أردف هذا الوعد الكريم بما يقرره في النفس فضل تقرير، ولا يسع نفساً تؤمن بالله وقدرته أن تنكره، وهو قوله: (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

فقد وفر في النفوس التي تتقلب في طلب وجوه الرزق أن سعيهم وتقابهم ليس وحده
 مناط ما يرزقون مهما أوتوا من الخدق والمهارة ، بل كل امرئ يشعر بأن هناك أسبابا
 للتوفيق والنجاح يصادفها من إ شاء الله ويخطئها من يشاء ، فلا تسكاد تجدي ساعيا مهما
 كابر وعاند إلا وهو خاضع من قرارة نفسه لهذا الحكم إن طوعا وإن كرها ، فمن شذ
 وملكه الغرور والاعتداد بقوته وحدها لا بد أن تصدمه الكوارث صدمة يفوق بها
 من غفلته ويعترف قهرا عنه أن الأمر كله بيد الله ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .
 نسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق بطاعته ، وأن يجزينا أحسن ما علمنا ، ويتجاوز
 عن سيئاتنا ، ويزيدنا من فضله — إنه سميع مجيب كريم رحيم ! إبراهيم الجبالي

الظرف والمِلح

قال الأصمعي : مررت بأعرابية وبين يديها فتى في السِّياق^(١) ثم رجعت ورأيت
 في يدها قدح سويق تشربه ، فقالت لها : ما فعل الشاب ؟ فقالت : واريناه ، فقلت :
 فما هذا السويق ؟ فقالت :

على كل حال يأكل القوم زادهم على البؤس والبلوى وفي الحدثن

(١) السِّياق : نزع الروح ، كان روحه تساق لتخرج من بدنه .

السُّنَنُ

مثل البخيل والمنفق

نَسْرُ الدِّينِ الْجَرَّالِ الْخَمِيرِيُّ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رُجُلَيْنِ عَايَهُمَا جُبَّتَانِ ^(١) مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتِ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَهْفُوَ آثَرُهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَاقَّةٍ مَسْكَنَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ) (رواه البخاري .

تفسير :

أُثْرِبَتِ النُّفُوسُ حُبَّ الْمَالِ وَتَعَلَّقَتْ بِهِ تَعَلُّقًا تَغَاغُلُ فِي جَمِيعِ مَشَاعِرِهَا فَلَا يَكَادُ يَشُدُّ مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ الْبَابُ الْمَوْصِلُ إِلَى نَيْلِ الْحَاجَاتِ وَإِحْرَازِ الرِّغْبَاتِ مَعَهَا تَنْوَعَتْ (وَحَاجَاتُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي) .

وَلَا تَسْكَدُ تَجِدُّ حَاجَةً تَعَاصَتْ عَلَى الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ إِذْ يَدْعُوْنَهَا ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْغُرَفَاءِ مَشْطَرًا الْبَيْتَ الْمَشْهُورَ :

(١) الجبة من أسماء الدرع من الحديد . وقد روى جنتان .

(إذا كنت في حاجة مرسلًا) وأنت بها هائم مغرم
(فأرسل حكيمًا ولا توصه) وهذا الحكيم هو الدرهم

أسباب السُّح :

غير أن الناس في حبهم المال قد يتطوِّحون فيتجاوزون العلة التي من أجلها غرس حب المال في النفوس ، وهي أنه الباب الموصل الى نيل الرغائب ، وينتقلون الى حب المال لذاته فيشغلهم جمعه ويؤلمهم صرفه ولو في الإنفاق على أنفسهم ، وفي إدراك ما هم إليه بأشد الحاجة ، وفي تحصيل أعم ما يعود عليهم بالنفع ، فهؤلاء يقضون حياتهم في جمعه وادخاره وكنزه لا يباليون بما فاتهم في طريق جمعه من عظيم الفوائد ، ولا يعبأون بما حرموا في سبيل ادخاره واكتنازه من جليل المنافع ، هؤلاء قد اتوى عليهم القصد وضل بهم الطريق فحسبوا الوسيلة غاية والمقصد الحقيقي أمرًا تافهاً ، فتراهم يتهافتون على إحراره واكتنازه ، ناسين في سبيل ذلك كل مقصد ، ومفوتين على أنفسهم كل منفعة ، ومحرومين من كل لذة ، ومضيعين كل سعادة وهناءة ، أفترام يصنعون كل ذلك حرصاً على المال وخوفاً من الفقر فهم من خوف الفقر في الفقر ، أم هم صرعوا بحبه حتى لا يلذ لهم إلا مشاهدته وعدّه وإحصاؤه وعبادته ، فتكون قد أصابتهم حمى الذهب كما يقولون ؟ ! أولئك قوم طمس الله على بصائرهم فأشقام بما جعله سبباً في سعادة الناس ، وحرّمهم التعميم في الحياتين بالسبب الموصل الى نعيم الحياتين . هذا هو الضلال المبين ، بل هو عمى القلوب وهو العمى الحقيقي ، كما قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

شبهة الاشياء واقنطاعها :

وإن من أعجب شأن هؤلاء أنهم يزعمون أو يزعم الناس فيهم غالباً أنهم من أهل الكياسة والحزم ، ويبررون ما طبعوا عليه بل ما طبع على قلوبهم به بحجة هي عليهم

لو عقلوا لآلهم حسبما غفلوا ، ترى لسان حالهم يقول : إن هذا مال جمعه وحدي وبذلت فيه جهدي وكدي ، فمن العدل أن أنعم به وحدي ! ونحن نجاريه في استدلاله ونقول : نعم تعبت في جمعه وحدك فمن العدل أن تنعم به وحدك ، ولكنك بعملك هذا قد عمدت أن تتعب بجمعه وحدك وتشقى به بعد ذلك وحدك وينعم به غيرك بعدك ، ذاك أنا إذ ندعوك الى الاتفاق لا ندعوك أن تحرم نفسك من نعيم أباحه الله لك لا في مأكل ولا ملبس ولا مسكن ولا مركب ولا ما يتصل بها (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) وإنما ندعوك أنك كما انتفعت به في هذه الحياة تنتفع بجزء منه قليل جدا في حياة هي أرقى وأدوم ، ونعيمها أو عذابها أكبر وأعظم ، ذاك الجزء هو ربع العشر أو ٢٥٪ كما يقول أهل الحساب ، فإن زدت فذاك خير لك ، ستجده البتة يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وإن نقصته أو منعته فستلحق الجزء العادل يوم يحاء بالذين يكسزون الذهب والفضة فيلقون العذاب الأليم الذي بشروا به وهم ما يكون أمر أنفسهم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكسزون .

وقد يكون وارثك من بعدك نعم بها حيث تشق أنت ، وربما كان الد أعدائك في حال الحياة ، وقد يكون وارثك من بعدك قد شقى بها وعادت عليه بأفطع المصائب وأتسع أنواع الشقاء ، وربما كان أعز الناس عليك في حياتك . فانظر أيها المحتج بالسخف كيف انقابت عليك حججك فكنت بهذا الجمع والا كنتاز سببا في حرمان نفسك في الدنيا والتعذيب الشديد في الأخرى ، ونعيم من يكون لك عدواً بانفراده بما تعبت في جمعه وحدك ، أو تعاسة من قد يكون عزيزا عليك فمكون قد ضاعفت السيئات ! وإنك لو نظرت يمينا وشمالا لما يجري حولك من حوادث لا متلات اقتناعا

بتكرّر هذه النتائج العاجلة، وأما الآجلة ففي كتاب الله تعالى ما يكفّيك إذا كنت من المؤمنين .

قارن هذا الحرمان وشدة بطشه بعظم الإحسان في الإنفاق ، وانظر الى قوله جل شأنه : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) أليس معنى هذا أن ربح هذه التجارة يصل الى أن ترجح المائة سبعين ألفاً ٧٠٠٠٠ / . وما موعد الدفع ؟ هو أشد أوقات اضطراك الى ما قدمت يداك ، يوم يعرض الظالم على يديه ، ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا ، يوم يقول المفرط حسرة وندما : « رب ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت » أفترى أصالح من هذا موعدا للدفع حيث يتحقق النفع ؟ إن أعجب العجب أن يزعم الرجل أنه يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأنه من أهل الكياسة والحزم ، وأنه حريص على نفع نفسه بل استشاره بالنفع وحده ، ثم هو يوقعها في أشد الوبال ويفوت عليها أعظم المنافع . أفذاحق هذا بالصبي الساذج تصل يده الى بيضة الدجاجة فيحرص عليها وتحاول أمه أن تأخذها من يده لتنضجها له فيشح عليها بها حتى تنكسر في يده فتلوث ثيابه وتضر به أمه وقد فانت عليه منعمة ما كان يحرز ؟ أما إنه لأشبه شيء به ، لولا أن الصبي يعترف بقصور عقله وهذا يشمخ بالمباهاة بأصالة رأيه وبعد نظره .

أما أن المال نعمة من الله فنعم ، وأما أنه يجرّ الى نعم في الدنيا والآخرة فنعم ، وأما أن النعم تنقلب في يد الأحمق نقما تعود عليه بالوبال فنعم ، وأما أن المال من حيث هو مال يجمع ويكسب نعمة فلا ولا .

تصوير الحديث لمرزء الحال :

لقد صور لنا الحديث الشريف حال الرجلين ينعم الله عليهما بنعمة المال لينتفعبا به فيعود على أحدهما بالخير وعلى الثاني بالشرر : فضرب لذلك مثل الرجلين يلبسان جبة

أو جنة من حديد ليقيا بها أنفسهما من الضرر ويحميها من الأذى فتتسع لأحدهما وتسبغ عليه حتى تستره وتتجاوز أطرافه فتسبغ على بنانه وهي أطراف أصابعه أي أطراف أطرافه وتعفو أثر سيره لأنها تجر وراءه فتستر حتى أثر مسيره فينتفع بها أيما انتفاع، والآخر تلصق جيبته أو جنته عليه ما بين ترقوته وثديه فتكون حينئذ قد غأت يديه وحبستهما عن أن يدافع بهما عن نفسه، واليدان مصدر القوة والدفاع عن النفس فضلا عن أنها أبقّت سائر جسمه ومقائله عرضة للأذى والفتك به، فلا هي التي سترته وحمته ولا هي التي أبقته طليق اليدين يستطيع بعض المدافعة عن نفسه، فكان ضررها الذي أتت به فوق نفوسها الذي كان ينتظره، فلو لم يابسها لكان على الأقل قادرا على الدفاع عن نفسه بيديه المطلقتين، وقد زاد في تصوير ذلك بما شغله من شأنها فهو يريد أن يوسعها فلا تتسع، فهو منها في علاج ومشاعل، بينما صاحبه قد استكمل بها الستر وأطلقت منه اليدين وسهل باتساعها انزلاقها وجمعها فاشرها كيفما أراد.

وقد روى «جبتان» و«جنتان» والجنة بالضم: هي ما يجتن به ويستتر، وعرفت فيما يتحصن به من الضرر. والجبة: الثوب المعروف، ووصفها بأنها من حديد يرجعها إلى معنى الجنة. وكلمتا «سبغت أو وفرت» متقاربتا المعنى، فمعنى سبغت امتدت وغطت وسترت، ومعنى وفرت انبسطت واتسعت. وأول لشك من الراوى، وتلك عادتهم في تحرى اللفظ الذي نطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم، فلا يكسفون بلفظ يؤدي معناه، إذ قد يستفاد حكم من لفظ يقصر عنه لفظ آخر، ولذلك جاء الحث على تحرى الأداء مثل ما سمع في قوله صلى الله عليه وسلم: «نصر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع» أو «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» وقوله «تعفو أثره» مضارع من عفاه يعفو إذا محاه وستره، وقد يأتي عفا لازما فيقال عفت الديار وعفا الأثر.

وقوله : « وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها » روى بدل لزقت غاصت ، وروى قلصت ، والمعنى متقارب ، وهو انقباض حلقاتها ووقوف كل حلقة مكانها . وتصوير البخيل بأنه يريد أن ينفق فلا ينجز هو التصوير الصحيح ، فإن البخيل مهما اشتد بخله يريد أن يتمتع بلذة المحمدة وحسن السمعة ، ويدرك ما في الإنفاق من مجد ونفخار ، ولكنه حين تمتد يده إلى المال ليحرز به ذلك الفخار تغلبه شقوته ويمثل له المال محبوباً لا يعوض فترجع يده مغلولاً إلى عنقه ، فهو يهيم ولا يفعل ويكاد ولا ينجز كما قال القائل :

يحب المديح أبو مالك ويفرق من صلة المادح
وكما قال الآخر :

أثم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وما الذنب لليالي ولكن الطباع هي المذنبه :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب
وفي الحقيقة المرجع كله إلى توفيق العزيز الحكيم . نسأل الله أن يمن علينا بتوفيقه
لعمل الخير وخير العمل إنه سميع مجيب :
أبراهيم الجبالي

النظر والمُلاح

نظر الحسن البصري إلى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاחקون ، فقال : الله المستعان ! إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تقبل ، فما هذا محل الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يقبل ، فما هذا محل الخائنين .

ذِكْرُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ

قِصَّةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا يُؤْتِيهِمْ مِنْهَا

(لَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

يَبْدَأُ فِيمَا كَتَبْنَاهُ فِي قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِمَا يَقْصُهُ عَلَيْنَا مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ نَعْتَبِرَ بِمَا فِيهَا مِنْ حِكْمٍ جَايِلَةٍ، وَفَوَائِدٍ رَفِيعَةٍ، وَتَعْلِيمٍ إلهِيٍّ، وَإِرْشَادٍ رَبَّانِيٍّ، يَنْبِذُ لَنَا طَرِيقَ الْهَدْيِ وَمَنْهَاجَ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، بِحَيْثُ يَكُونُ لِلنَّاسِ نَبْرَاسًا يَسْتَضِيئُونَ بِهِ فِي كِلْتَا الْحَيَاتَيْنِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا اسْتَخْرَجَ الْحُكَمَاءُ الرِّبَانِيُّونَ مِنْ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ مِمَّا ابْتَهَجَ بِهِ عُلَمَاءُ الْجَمَاعِ وَدَهَشَ لَهُ أَسَاتِذَةُ عِلْمِ النَّفْسِ وَأَسَاطِينُ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ. وَالْقُرْآنُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي ارْتَفَعَ بِهِ سَافَ الْأُمَّةِ إِلَى أَوْجِ الْعِزِّ وَالْفَخْرِ، فَكَانُوا أَرْفَعُ الْأُمَمِ وَأَعَزَّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ بِمَا أَفَادَهُمْ مِنْ تَعَالِيمٍ أَوْرَثَهُمْ عِزَّ الْمُلُوكِ وَطَهَارَةَ الْمَلَائِكَةِ.

وَلِنَقْصِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ قِصَّةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِلْمٍ جَمٍّ وَحِكْمَةٍ عَالِيَةٍ وَسُنَنِ كَوْنِيَّةٍ وَأَسْرَارٍ رُوحَانِيَّةٍ. وَلِتَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ جِدَّ الْاِخْتِلَافِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدَادِهِمْ (وَالْإِمْدَادِ عَلَى قَدْرِ الْاسْتِعْدَادِ) وَأَنَّ مِنَ النَّفُوسِ مَنْ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الشَّرَّ وَلَا يَفْهَمُ إِلَّا الشَّرَّ فَهِيَ تَقْلِبُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى الشَّرِّ كَالْإِنَاءِ الْخَبِيثِ الَّذِي اتَّخَذَ مِنْ مَعْدِنٍ خَبِيثٍ فَاتَّهَى بِقَابِ كُلِّ مَا يَوْضَعُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي إِلَى طَبْعِهِ الْخَبِيثِ

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ، وكأن الله يشير الى ذلك بقوله : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

قواعد القصة وما يؤخذ منها :

(١) يؤخذ من عموم القصة بالإجمال أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم الثوابات ، وفي ذلك الحث على انتهاج سبيل المتوكلين والاقتداء بزهد الزاهدين ، والدلالة على الانقطاع الى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد ، كما يؤخذ منها الكشف عن أحوال الخائنين وقيح طرائق الكاذبين ، وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع اللطاف والمنن ، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك وحالهم مع رعيّتهم ، الى غير ذلك .

(٢) يؤخذ من قوله تعالى : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّمِهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) التنبيه على ما للأرواح الانسانية من الاستعداد للاطلاع على عالم المغيبات وما يكون في المستقبل بواسطة ملها من الصفاء الذاتية والفيض القدسي والإلهام الرباني . وقد ذكرنا أن أحوال المكشفين أوائلها المنامات ، فاذا قوى الحال تصوير الرؤيا كشفا ، فيكون عليه السلام قد سلك به نحو ما سلك برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَتَّبِعُوا دُورَ الْفِتَنِ عَلَى اخْوَتِكُمْ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

يؤخذ منه أن الحسد متأصل في الانسان ، فهو غريزة لا يكاد يخلص منها أحد حتى الصالحون ، وأن الشيطان واقف للانسان بالارصاد ، فتى وجد نفسه تحركت بمقتضى غريزة من غرائز الشر تجده يحب ويضع ويسرع في كل ما يوقد النار ويحجب الدمار .

(٤) ثم نأخذ من القصة وما صنعوه من السكيد الذي تفننوا فيه وما كان بعد ذلك من العاقبة الحميدة ليوسف عليه السلام أن ما أمره الله تعالى لا يد منه ، فقد ذهب كيدهم هباء ، وتم له من الرتب القعساء ما جعلهم يخضعون له خجلين معتردين .

(٥) (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) : يؤخذ منه عظيم احتيال الإنسان على ما يريد ، فإنهم جاءوا عشاء لئلا يظهر أنه تباكٍ كاذبٌ وليس بكاء حقيقياً ، فكانوا أجراً في الظلمة على الاعتذار لأبيهم ليوهموه أن ذلك بكاء حقيق لا تباكٍ ، فإنهم لو جاءوا ضحى لافتضحوا . فلنحذر من أفراد نوع الإنسان الذي يتلونّ تلون الحرباء ، ويتفنن في أنواع السكر والدهاء .

(٦) يعلمنا قوله تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) حكاية عن يعقوب عليه السلام أنه يلزم الإنسان السكون تحت مجارى الأقدار سرا وعلنا وإن فدح الخطب وعظم المصائب ، تسليماً لله وثقة بحكمته وخضوعاً لربوبيته .

(٧) (وَرَأَوْنَهُ أَتَىٰ هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنْ نَفْسِهِ) : يؤخذ منه وجوب اليقظة والاحتياط في خلطة الرجال بالنساء ، ولزوم تنبيه السادة لبيوتهم وخدمهم ، وفيه تنبيه على أن الخلطة غير مأمونة ، وأن من النساء من لا يحفظن العهود ولو كان لزوجها من الدعم عليها ما يجعلها في أكرم منزلة « إنهن يكفرن العشير » .

هذا ويؤخذ من امتناع يوسف عليه السلام وهو شاب له من قوة الشباب ما للشبان ، وأمامه امرأة حسناء مهدت له السبيل ، فغدت تطالبه لنفسها وتلح عليه وهي في محل السيادة والهنز ، وقد استعمات معه كل أنواع الترهيب والترغيب والوعد والوعيد ثم يمتنع منها ويفر هارباً الى الباب — ما يعرفنا مبلغ النفوس الشريفة من الطهر ورفعة الإحساس ، وما تثمره التقوى لذويها من مخافة الله في الخلاوات والجلوات ،

ففي القصة حدثاً على الاقتداء به عليه السلام ، وإرشادنا الى الاحتياط في أمر النساء ،
وبيان مكرهن وكيدهن ، ووصول الأمر الى غايته فيهن مهما كان حالهن :

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

وبعد : فن الآثار السيئة للمدينة قلة الغيرة ، وقد كانت الحضارة في مصر بالغة
حدها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس
وغيرها ، وكل أمة تساوى رجالها بنسائها في جميع الشؤون فلا بد أن يخرجن عن
حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزناً كبيراً ، فهذا من مساوى المدنيات القديمة
والحديثة ، حيث يسود الترف وينغمس أهلها في الشهوات واللذائذ . وإنك لتلاحظ
في غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الإسلامية أثرها
الخبث ، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن
في أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة .

الخلاصة :

وخلاصة المقام أن محبة الرجال للنساء والنساء للرجال أمر غريزي متغلغل في طبيعة
تكوين الفريقين ، لأمر اقتضته حكمة الحكيم العليم : من بقاء النوع ، وسوق كل
منهما بذلك السائق القاهر الى الازدواج ، وتحمل ما يترتب على ذلك الازدواج من أثقال
يطول شرحها وأعباء ينوء المرء الشديد بحملها ، ولا يكاد يضبط نفسه عند ثوران ذلك
الميل الغريزي القوي السلطان إلا من عصم الله وقليل ما هم . ولهذا حرمت الشريعة
الغراء خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية وسدت هذا الباب سدا محكماً ، علماً منه تعالى بما
جبلت عليه النفوس (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ومع هذا فلا ننكر
أن أفاضل الرجال وفضائلات النساء لا يستطيع سداً ذلك الميل مهما كان قوياً أن
يستعبداهم ، فالحكم لدى أرباب السكال من الجنسين إنما هو للدين والعقل والآداب .

وانظر الى السيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وما كان منها مع ذلك الجبار الذى أراد منها السوء فارتد خاسئاً يكاد يتميز من الغيظ ، وقد وهب لها السيدة هاجر إذعاناً بفضائها وكملها .

وانظر الى السيدة مريم حيث تقول : (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا) . وقد قالت السيدة هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان : « هذا شيء نستقبحه حلالاً أفنفعله حراماً » ؟ ! فما أرفع ذلك إلا حساس وما أرق ذلك الوجدان ! فكلامنا السابق إنما هو فى تقرير قواعد عامة نريد أن يأخذ بها الجمهور الذى يتنادى لسلطان النفوس ويخضع لسيطرة الشهوات ، وأما أولئك الذين تربوا فى حجر الآداب العالية والفضائل السامية ، وفى حمى الشريعة الغراء من أرباب العقول الكبيرة وذوى النفوس الفاضلة ، فهم فى محل الاستثناء من الرجال والنساء ، وكَم من سيدة بذت الرجال ووصلت الى محل السكالم حتى قيل :

ولو كان النساء كمثلى هذى لفضلت النساء على الرجال

(٨) يؤخذ من قوله : (لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أن الإنسان لا يشق إلا بمن كان مراقباً لله عارفاً بالله خائفاً من الله ، وأما سواه فيجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى .

(٩) (وَاسْتَبْتَمَا الْبَابَ) : يؤخذ منه أنه يجب الفرار من محل الخطر ومواطن الهلكة ، فلا يتربث ولا يقتصر على المدافعة النسبية وإقامة الأدلة النظرية والبراهين المنطقية ، فإن ذلك لا يفيد عند ثوران الشهوة الطبيعية واستحكام الأهواء البشرية ، فلا بد من الفرار الحسى وعدم الاقتصار على الحوار النفسى .

(١٠) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الى قوله : (إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ) :

يؤخذ منه شدة حرصهن على ما يُردن من الرجال واحتيالهن في هذا الموضوع بكل ضروب الحيلة ، فإنهن إذا ابتاین بالحلب أظهرن ما يعجز عنه إبليس ، مع مساعدة الطبيعة للميل إليهن ، وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن ، كما يشير إليه قوله تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ، فإني العالم بفتنة أضر على الرجال من النساء ، فلنعرف ذلك ولنحذر منه .

(١١) (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) : يؤخذ منه أن الانسان قد يصل من المحبة الى مقام لا يحس فيه بألم ، استغراقا في المحبة ، فلنحذر من تلك المحبة التي تصيرنا عبيداً ، ولنجهتد في محبة الله ورسوله التي تصيرنا ملائكة أطهارا .

(١٢) (قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) :

يعلمنا سبحانه وتعالى أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله ، والتضحية بكل شيء في سبيله ، ولو أدى ذلك الى السجن والهوان ، وقوله : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) يغرس فينا ملكة الرجوع الى الله في كل شيء ، موقنين أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين برهيم وإحاطته التي لا يخرج عنها شيء .

(١٣) (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) : يؤخذ منه أن أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنة لا تحت ظل العمل والسعي .

(١٤) (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْكَ بِمُتَقَرَّرُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

دعوة للتوحيد على أنهم وجه وأحسن أساليب ، فإلينا أن نسالك ذلك في الإرشاد والدعوة وإقامة الأدلة .

(١٥) (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ
الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

يعلمنا الثاني في الأمور وعدم العجلة فيها مهما كان أمرها ، فإنه عليه السلام
لم يحمله الفرح بطلب خروجه من السجن الذي لبث فيه بضع سنين أن يبادر الى ذلك
قبل أن تظهر براءته على أتم الوجوه ، حتى لا يكون هناك شك ولا ريبه .

(١٦) (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) :

إشارة الى أن النفس بطبيعتها كثيرة الميل الى الشهوات ، وقد قال بعضهم : النفس
ظلمة كلها وسراجها التوفيق .

(١٧) وبعد : فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى ، وهي امتحان من
يريد اصطفاؤهم واجتباؤهم حتى يخلصهم من ضرر النفوس وظلمة الهوى الذي يضل عن
سبيل الله وينحرف بهم عنه الى ما سواه ، فإنه يريد منهم أن يلتجئوا إليه ولا يعولوا
إلا عليه ، وقد قال بعض عشاق الجمال الطيبي :

أبى القلب إلا حب ليلى فبعضت الى نساء ما هت ذنوب

فما بالاك بأولئك الروحانيين الذين محبتهم أرق وأصفى ، ومحبوبهم أعلى وأسمى ! وقد
قالوا : إن النعيم الروحاني يفوق النعيم الجسماني ، كما أن العذاب الروحاني أشق من
العذاب الجسماني .

(١٨) (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) :

يعلمنا أن الانسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع الى الكبير المتعال ،
وإلا يعول على شيء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الايتان
بأداة الحصر ، فشكل من انتقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه ، وما أحسن
قول بعضهم :

فإن رحالنا حطت رضاء بحكمك عن حلول وارتحال
وقول الآخر :

إذا ما تني الناس روحا وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا

(١٩) (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) : يعطينا درسا من مكارم الأخلاق ،
فالكريم إذا قدر عفا « والعدر عند كرام الناس مقبول » قال بعض المحققين : من نظر
الى الخلق بعين الحق لم يعبا بما يكون منهم ، ومن نظر إليهم بغير ذلك أفنى أيامه
في مخاصماتهم ، ألا ترى يوسف عليه السلام لما علم مجارى القضاء كيف عذر إخوته
وقال لا تريب عليكم !

(٢٠) (أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا) :

يفيد أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفا فيها على تلك النواميس المادية
التي قدسها الجاهلون ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلم ذلك أو يفهمه أولئك
المتشدقون الواقفون عند الظواهر وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة
والأرواح الطيفة ؛ فهو يفتح لنا بابا من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

(٢١) (قَالَ أَبُوهُمْ إِنَِّّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَن تَفَنَّدُونَ) :

الأصفياء تارة يكشف لهم عن اللوح المحفوظ ، وتارة لا يعرفون ما تحت أقدامهم ،
وانظر كيف وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة أيام ولم يجد ذلك عند ما كن في الجب
وليس بينه وبينه إلا ساعة من نهار ، ولكن المسألة موقوفة على الإذن الإلهي
والحكمة الربانية .

(٢٢) (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) :

يعلمنا أنه ينبغي للداعي الى الله تعالى أن يكون عارفا بطريق الهدى وسبيل

السعادة، ونعرف من هذا حال أولئك الجاهلين /التشدين الذين هم في ضلالة مدهمة ومهامه يحار فيها الخريت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وربما عدنا الى القصة مرة ثانية إن شاء الله ، فإن فيها عبرا وحكما تنفع في الدين والدنيا ، لما فيها من سير الملوك والممالك والعلماء ، ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، وحسن التجاوز عنهم بعد القدرة عليهم ، وغير ذلك مما سمعت وستسمع .

(٢٣) وفيها فوق ذلك كله بيان كثير من الأسرار الروحية التي لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة : منام يوسف عليه السلام ، ومنام صاحبي السجن ، ومنام الملك ، ومثل وجدان ربح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، وردّ بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه ، وما أجدرها أن توصف بأنها سورة الروحانيات ، أو سورة الصبر والتتوى . ونرجو أن نوفق لبيان ذلك على ما نحب ويحب القارئ الكريم إن شاء الله

يوسف الدموي

ترجمة

مقال « حقوق الزوجين »

الى اللغة الماليزية

نشرت هذه المجلة في الجزأين ٩ و ١٠ من المجلد الثاني مقالا في حقوق الزوجين لفضيحة الأستاذ الشيخ محمود ياسين أحد العلماء الفضلاء بدمشق ، ولما اطلع على هذا المقال حضرة الأستاذ السيد علي بن عبد الله السقاف العلوي المقيم بجاوة ، نقله من العربية الى اللغة الماليزية ليطلع عليه الشعب الأندونسي ، وليدرس بالأقسام المختصة بالبنات بالمدارس الجاوية ، واستأذن فضيحة الأستاذ صاحب المقال في طبع الترجمة ونشرها فأذن له بذلك ، والمجلة تشكر لحضرة السيد علي السقاف على هذا العمل الجليل .

الحج

الحج لغة : القصد الى معظم ، وهو في الشريعة : قصد البيت الحرام (الكعبة) لأداء ركن من أركان الدين هو الطواف والوقوف بعرفة بما يلا بهما من إحرام وسعى وما الى ذلك من بقية الأعمال المكتملة للحج . وقصد البيت الحرام للزيارة والطواف قديم في الناس ، فقد كانت العرب تحج الى الكعبة قبل الاسلام لاعتقادهم أنها بيت الله ولقد كانوا يعظمونها لذلك فلم يعبدوها منهم أحد ، كما أن أحدا منهم لم يعبد الحجر الأسود مع اشتهار الوثنية وكثرة عبادة الأصنام قبل البعثة ، بل كان تعظيمهم للحجر لأنه منسوب لله ، حتى اعتقد كثير منهم أنه نزل من السماء .

وقد أوجب الله الحج على المساهين الأحرار العقلاء البالغين الأصحاء القادرين على الزاد والراحلة متى كانت تلك المقدرة بعد أداء ما لا بد لهم منه انفقة فيهم ومساكنهم وكان الطريق الى البيت مأمونا . وقد فرضه الله على كل مسلم على الوصف الذي سبق في العمر مرة . وفرضيته ثابتة بالكتاب العزيز ، قال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) وثبتت الفرضية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « بني الاسلام على خمس » الحديث . وقد حج صلى الله عليه وسلم . أما أن الحج فرض مرة واحدة فلما أخرجه الامام أحمد في مسنده والدارقطني في سننه والحاكم في المستدرک عن ابن عباس ، ولفظه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يأياها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أتى كل عام يارسول الله ؟ قال : لو قلتها لوجب ولم تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فن زاد فتطوع . وقد اشتمل الحج على جملة أفعال سنيها ونبيها وحكمة مشروعيها .

الحكمة في وضع البيت واتخاذ قبلة - نفى الشرك والزور والبهتان والافتراء :

إن من تدبر فيما يحيط به من الكائنات العلوية والسفلية لا شك يشعر بروعة تقع في قلبه كل موقع وتملك عليه حواسه ولبه ، فالجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار العظام وقبة الفلك وما هي عليه من نظام ، والسحاب بين الأرض والسماء يحمل من ماء يرسل الى الأرض الموات فيحييها والى النفس فيرويهها والى النباتات فينميها ، والرياح العواصف تدفع الماء آونة والصواعق أخرى ، كل هذا يدفع بالإنسان الى التفكير في ذلك النظام البديع المرتب أحسن ترتيب وأحكمه ، يدفعه الى البحث في أن ذلك النظام لا يتصور أن يكون موجودا مصادفة بل لا بد له من مبدع أنشأه وأبدعه ، وأن ذاك المسيطر لا بد أن يكون ذا قدرة فوق القدر وعلم لا يوازنه علم ، وألا يكون له شريك يدانيه أو يقرب منه ، إذ لو كان ذلك ممكنا لما كان هذا النظام الذي وضع فيه كل شيء موضعه ، فالكواكب تسير على نسب معينة ونظام محكم لو خرجت عنه لاختل نظام العالم ، والحيوانات أعطى كل منها ما يحتاج اليه في تقويم وجوده ، ووهب له من الأعضاء ما لا بقاء له بدونه ، ووضعت الأعضاء فيه على ترتيب لو وضعت على غيره لهلك ، وقد ألهم استعمال تلك الأعضاء فيما يجلب نفعه ويدفع ضرره (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) .

وإذا كان التفكير الصحيح يهدي الى الرشداً والى الإيمان بواجب الوجود والى أنه الخالق الرازق المعطى الوهاب المنعم بجلال النعم ودقائقها ، فهو أيضاً يهدي المتأمل الى أن ذلك الخالق البارئ يستوجب الشكر ، وأن على الإنسان أن يعبدته شكراً له على تلك النعم الباطنة والظاهرة ، غير أن العقل اذا اهتدى الى ذلك يحار في كيفية عبادة الرحيم الرحمن ، إذ لا يستطيع أن يدرك ما يليق به من تعظيم ، إذ كيف يستطيع العبد الضعيف المحتاج الى مولاه في وجوده وبقائه إدراك ما يناسب ذلك المنعم من خشوع وخضوع ،

والى ما يناسب العظمة التى لا نهاية لها من تعظيم وثناء ، الى ما يصح فى حقه من توسل ومناجاة ، كيف يستطيع أن يصل الى شئ من هذا والمولى جل وعلا وجوده مطابق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر فى جهة ولا يحده زمان ، فالى أى جهة يتوجه فى عبادته لاشك تعمور الانسان الحيرة فى أداء ما هو واجب عليه نحو الذى خلقه فسواه وأنشأه وعلاه وهده وأرشده ، ولا يخفى مع هذا أن الانسان عاجز عن التوجه الى موجود لا يستطيع إدراكه

فخروا من تلك الحيرة من الله على عبادته فعين لهم مكانا سماه بيته وأضافه الى نفسه تنزّل فيه رحمته ويتجلى فيه رضاه ، وجعل التوجه اليه كافيا فى عبادته ، بعد أن طهر مكانه من الرجز والأوثان ، وطلب اليهم التوجه فى عبادتهم اليه ، وأن يقصده من استطاع اليه سبيلا فى العمر مرة ، وكان ذلك منه سبحانه دفعا للحرج عن الخلق لأنه لو كلفهم بعبادته وقد دهم بالعقل والشرع على أنه ليس كمثل شئ دون أن يجعل لهم مكانا يكون توجههم اليه كتوجههم الى ذاته ، لتحيروا كيف يتجهون .

ولا يخفى عليك أن القصد الأول من إرسال الرسل هو دعوة الناس الى الايمان بأن الله واحد لا شريك له ، وأن ذلك هو المقصد الأعظم من بعثهم صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان من أول تعاليمهم هذه الدعوة ومن تعاليم ديننا الحسن أن الله تنزه عن المكان والجهة ، فلا خوف بعد ذلك على المؤمن من توهم حلول ذات الله فى مكان ، لأن ذلك محال عنده ، فنسبة البيت إليه وطلب التوجه الى ذلك البيت المعظم لم يكن إلا لما قدمناه : إخراجا للناس من الحيرة ، وجما لقلوبهم فى التوجه الى جهة واحدة ، توحيدا للقصد وإفرادا للغاية وإرشادا لهم الى أن المراد التوجه الى الله لا الى ذات المكان . وإذا كان الإيحاء الى ابراهيم عليه السلام باتخاذ البيت كان مقيدا بنفى الشرك ، قال تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) وكان أول

ما طلب إليه هو تطهيره ليكون معبدا يعبد الله فيه عبادة صحيحة : (وَنَهَدْنَا إِلَىٰ
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) كان
 توهم الحلول أو تعظيم غير الله بعيدا كل البعد لا يخطر ببال ، وكيف يتوهم هذا والله
 سبحانه وتعالى يقول : (وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) أى معبدا تعبدون فيه
 ربكم ورب البيت ، ويقول : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْإِلْهَادِ
 يُضْلِمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ . وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي
 شَيْئًا) ويقول فى آية أخرى فى محكم كتابه : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
 وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
 مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) وفى آية أخرى
 (فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْمَاؤُا وَبَشَرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
 قُلُوبُهُمُ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) .

إذا كان وضع البيت قد أحيط بكل هذا فوضع أساسه على نفي الشرك واجتناب
 الرجس وعبادة الأوثان والإقلاع عن قول الزور ، فكيف يكون بعد هذا محل اتوهم
 متوهم أن فى الحج أو فى بعض أفعاله أو فى التوجه الى السكبة شائبة لغير طهر أو عبادة ؟
 إن هذا لا يخلج فى نفس إنسان ، وإذا أنت وقفت على ما كان عليه الناس وقت وضع
 البيت وأنهم لطول الفترة التى كانت بين الرسل خلطوا ابتداء بين عمل سىء وآخر
 صالح : فكان منهم من تمسك بتعاليم الدين ، ومنهم من مال الى الزيغ ، ناسيا أو متناسيا
 ما أمر به وكلف باجتنابه ، وما زال ذلك حالهم حتى تفشت فيهم أضراب وأباطيل الوثنية
 وخيمت ظلماتها على العقول ، فأخذت ترهاتها بالألباب ، وتغلغلت سخافاتهما فى نفوس

كثير من البشر ، والتوى بهم جميعا القصد ، فكان فريق يعبد الشمس لما يراه فيها من نظام بدیع ، وآخر يعبد النار لزعمة أنها قديرة ، وفريق ثالث يعبد الأ حجار لزعمة أنها مادة هذا الوجود ، إذا أنت وقفت على ذلك جميعه لم يعتورك شك في أن الله سبحانه وتعالى أراد تطهير الخلق من أدران الوثنية ، فأرسل الخليل عليه السلام . ولقد قص الله علينا ما كان منه عليه السلام مع من أرسله الله إليهم : من دعوتهم الى نبذ ما يعبدون من الأوثان ، وأنه عاب آلهتهم وكسر أصنامهم ودعاهم الى عبادة الواحد الذى لا شريك له ، وأنه ترك قومه وهاجر الى مدين ، ومن ثم أمر بالهجرة بولده إسماعيل الى بلاد العرب ، الى واد غير ذى زرع ، وهناك أمره الله باتخاذ بيته فيه ، وأنه جعل ذلك البيت مثابة للناس وأمنا وهدى للناس ورحمة ، إذا أنت وقفت على هذا لم يعتورك شك في أن أساس وضع البيت هو نفي الشرك وإبادة الوثنية .

ولا أدل على أن وضع البيت إنما كان لما قدمناه من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخوله الكعبة ، حيث أمر بإزالة ما عليها من الأصنام ، وهوى بقضيبه على ما صادفه منها . ولقد كان للصارى ومشركى العرب صور وتماثيل وأصنام بالكعبة خارجها وعلى سطحها ما يبلغ ثلاثمائة وستين أزالحا كلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فاتحا .

عظمة البيت :

حسب المرء فى عظمة البيت قول الله سبحانه وتعالى فى شأنه : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا الْبَيْتَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) فأضافه سبحانه الى نفسه ، والتابع يشرف بشرف المتبوع ، والمضاف يشرف بشرف المضاف إليه ، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وذلك بأن خلق فى قلوب الناس ميلا الى حبه والتوجه

إليه آونة بعد أخرى ، وبث في نفوسهم من احترامه وتعظيمه وعدم سفك الدماء فيه ما كان به أمنا لهم من المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب ، وعهد إلى إبراهيم وإسماعيل ومكانتهما مكانتها فأوصاهما وكلفهما بالتخاذ البيت ، وجعلهما إياه مكانا للعبادة الصحيحة ، ولا تنس ما قدمناه لك من أن نسبة الله هذا البيت إلى نفسه إنما كان لجعله إياه معبدا يعبد فيه وهو المنزه عن صفات الأجسام ، ليس لخصوصية في موقعه ، ولا في أحجاره ، وإنما كان لجعله رمزا لله يبود بحق وهو الله ، فلا إضافة لهذا لا شيء سواه .

وحسبك أيضا في تعظيمه أن الله أمر رسولين من رسله برفع القواعد ، وما ذاك إلا تشريفا لهذا البيت الذي بنياء لعبادة الرحيم الرحمن في هذه البلاد التي كانت الوثنية منتشرة فيها . ولمناسبة ذلك البناء نذكر لك أن الكعبة ما زالت على بناء إبراهيم عليه السلام حتى بنتها العاليق ثم جرهم ، ولما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب هدمها وبناها فأحكم بناءها وسقفها بحشب الدوم وجزوع النخل . ولقد حصل قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين أن هدم السيل الكعبة فبنتها قريش ، فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا في أي القبائل تخص بشرف وضعه في محله ، وكاد الأمر يفضى إلى القتال ، فارتضوا رسول الله عليه الصلاة والسلام حكما ، فطالب رداء وضع الحجر فيه وأمر القبائل فأخذت كل قبيلة بطرف من الرداء ورفعوه حتى إذا وصل إلى مكانه وضعه بيده الشريفة ، وهذا أيضا من تشريف الله للبيت وتعظيمه .

وقد قصرت بقريش النفقة فبنتوا الكعبة على ما هي عليه الآن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها : لولا أن قومك حديثو عهد بشرك هدمت الكعبة فألرقها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر^(١) ولقد بناها ابن الزبير بعد ذلك على قواعد إبراهيم ، ولما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها إلى أسفائها وكساها بالديباج ، غير أن

عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة هدم ما جدد ابن الزبير وأمر بإعادتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كانت الكعبة قبل الاسلام ذات منزلة سامية عند جميع العرب لا فرق بين أهل الكتاب منهم والوثنيين ، وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب الى بلاد الهند حتى اعتقد بعضهم تقديس الحجر الأسود ، وكانت الصابئة (عباد الكواكب) يعتقدون أن الكعبة من البيوت السبعة المعظمة عندهم . ومما يدل على عظمتها في نفوسهم أنهم جميعا يعتقدون أنها بيت الله المقدس ويحترمونها لهذه النسبة ، وكانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها في أشهر الحج وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة ، وكانوا يحرمون الشهر الذي فيه الحج وهو ذو الحجة ، والذي قبله لأنه وسيلة إليه ، والذي بعده لأنه تابع له ، ولم يرد أن أحدا من العرب عبد الكعبة أو عبد الحجر الأسود مع أنهم عبدوا النجوم في أشخاص أصنام . ويروى بعض المؤرخين أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء ابراهيم لها ، وعلم ذلك بعضهم بأنه ربما كان هناك معبد قديم ثلاثي أمرد قبل وصول ابراهيم عليه السلام الى تلك الجهة ، ومن هذا الاحترام الذي كان لمكان الكعبة ذهب بعض المؤرخين الى أن سيدنا ومولانا آدم عليه السلام بناها قبل ابراهيم ، وذهب قوم الى أن الملائكة بنتها قبل آدم ، والذي نجزم به هو ما قصه الله علينا من أن الذي وضع قواعد البيت هو ابراهيم واسماعيل ، أما ما حكاه المؤرخون فالله أعلم به .

ومما يدل على سمو مكانة الكعبة أن الفرس قبل الاسلام والاسرائيليين أيضا كانوا يعتقدون حرمة الكعبة ، وكذلك المسيحيون ، وهذا لم يتبع له نظير في الوجود وهو برهان ساطع على الشرف والعظمة ، لأن إجماع الناس على اختلاف نحلهم وملاهم على عظمة هذا المكان دليل على شرفه وعلو منزلته . وحسبك دليلا على شرفه أيضا ، أن الله سبحانه وتعالى جعله حرما آمنا يأمن فيه الانسان والحيوان بل والنبات ،

وجعل له مواقيت^(١) لا يجوز لمسلم أن يجاوزها إلا محرماً ، وهي المواقيت التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوجب الدين على من يصل الى هذه المواقيت أن يتق ما نهى الله عنه من الرجز ، والفسق ، والجدال ، وقتل الصيد والإشارة اليه ، بل والدلالة عليه .

ومن دلائل عظمة البيت (الكعبة) اهتمام الملوك من قبل البعثة بقرون بكسوته فقد كساها (تبع) ملك حمير قبل الهجرة بمائتين وعشرين عاماً ، كساه بالبرود المقصبة وعمل له باباً ومفتاحاً ، وكان خلفاؤه من بعده يكسونه بالجلد والقباطي المصرية ، وتبعتهم الناس في ذلك حتى كثرت الكساوى وصارت توضع فوق بعضها . وفي زمن قصى كانت القبائل تكسوها ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها ، وكستها والددة العباس بن المطلب ، وقد كساها أشرف الخلق على الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، والخلفاء العباسيون كانوا يبالغون في كسوتها ، وكساها ملوك اليمن كما كساها ملوك مصر .

حكمه مشروعية الحج :

علمت مما قدمناه لك عظمة البيت وأنه موضع الشرف والعظمة ، وقد فرض الله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً في العمر مرة واحدة ، وهذه الفرضية لحكم عدة ترجع للحاج من أول الشروع فيه الى أن ينتهي منه - منها السفر ، ولا يخفى ما فيه من الفوائد الجلّة ، وما يترتب عليه من المعارف ، وما يصحبه من الربح والكسب الماديين والأدبيين ، فتد يكسب مريد الحج اذا هو أبحر مكاسب لا يحصل عاينها في وطنه ومحل إقامته ، ولم يحظر الشارع الاتجار ما دام القصد الحج وقد جاء هو تبعاً وقد يكون مريضاً فيشفى بتغير المناخ وما يحصل له من الأُنس والانشراح بما يقع

(١) المواقيت جمع ميقات ، والميقات : الوقت المضروب للفعل والوضع وهو المراد هنا .

نظره عليه من بلدان وبحار وخاجان ، ويكون السفر سببا في ذهاب وحشة لحقته ؛ توت قريب أو زوج أو ولد ، وناهيك بما يستفيد من يقصد الاستفادة العلمية ، فقد يلقى من يفيد عالما وأدبا فينزل له عصم العلوم ويبين له ما شرد عنه من منطوق أو مفهوم ، وقد يروى عنه في سفره كتابا أو كتباً سواء كانت في الحديث أو في غيره من علوم الرواية ، وقد يفيد هو غيره مسائل لم يكن يستطيع إفادتها للناس لولا سفره للحج ، وقد بطلع على نظم في التدريس أو في القضاء أو في جباية الخراج تفيدته وتفيد أمتة فوائد جمة لم يكن ليحصل عاينها لولا الحج ، وقد يشيد الناس الذين يلقونه بذكره فيعظم شأنه وشأن البلاد التي أنجبته ، وقد يترتب على هذا من الفوائد المادية والأدبية الشيء الكثير ، أضف الى ذلك ما يستفيدة من تجارب الأمم حيث يلقى أشخاصا عدة لهم من سعة الاطلاع والعلم الشيء الكثير ، واذا حسبت المسافرين قائدا من القواد العظام أو عالما من علماء تقويم البلدان أو عالما من علماء النجوم (الفلك) سهل عليك فهم مقدار ما يجنيه لأمتة ووطنه من الفوائد العظمى التي نجمت عن سفره للحج ، وما السفر للحج إلا سياحة وضرب في أرض معينة يستفيد السائح فيها ما يستفيدة السياح ، وفوائد السياحة أظهر من أن تذكر . هذه إحدى حكم فرضية الحج الظاهرة والتي كادت تكون محسوسة ، أما الفوائد الدينية فأليك بعضها منها ، وسند كرها مرتبة على الأفعال التي رأى الشارع أنه لا بد منها في الحج :

الأصرام :

قال بعض المؤرخين : إن سليمان عليه السلام لما بنى هيكل بيت المقدس أحاطه بحرم ، وقضى بالآي دخله أحد غير قوم معينين ، وقال أيضا : إن الناس فيما تقدم من الزمن كان يحيطون معابدهم بحرم لا يطوّه الغرباء ، وكانت العرب تفرّب الحى لمراعيها وتجعل له حدودا لا تتعداها القبائل الأخرى ، وكان العزيز منهم يتخذ له متسعا من الأرض

يجعله حي له ، الى أن جاء الاسلام فأبطل عليه الصلاة والسلام كل حي إلا حي الله ورسوله . ولقد علمت مما سبق شرحه أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لبيته حرماً ومواقيت لا يتعداها من يريد الدخول الى الحرم إلا اذا كان على وصف معين وهو أن يلبي ناويا للحج ، والتلبية أن يقول : لبيك اللهم لبيك ، الى آخر الذكر المعروف ، ويأتي بالأفعال التي تسكفت كتب الفقه ببيانها .

أما حكمة مشروعية الإحرام فتظهر مما يلي ، ذلك أن الحج عبادة الغرض منها القرب الى الله والوصول الى ما أعده سبحانه وتعالى للنفس المحسنة من حسن الجزاء ، ولا يكون ذلك عادة إلا بتجريد النفس عن شهواتها ، وخروجها عن مألوفاتها ، وكفها عن لذائذها ، وقطع علائقها بالأغيار ، وابتغائها حي مولاهم الواحد القهار . ومظهر هذا الاقتصار على الضروريات للحياة والتجرد لله سبحانه وتعالى في جميع الحركات والسكنات ولا يخفى أن الشأن في كل من أراد الإقدام على ملك من الملوك أن يجتهد فيما يوصله الى مقصده من الوصول الى حضرة الملك والمثول بين يديه ، فمن أراد الوصول الى علام الغيوب بزيارة بيته ودخول حرمة ، وجب عليه أن يتجرد عما سواه من نعيم الحياة إلا بالقدر الذي يستطيع به مواصلة العمل الذي قصده ، فينخلع مدة الزيارة عن كل أنواع الزينة ، ويندرج في سلك المنقطعين لله انقطاعاً تاماً ، فيترك الجدل والخصومة ، وينتهي عن كل ما نهى الله عنه ، مجتنباً كل ما من شأنه أن يبعد عن الحظيرة القدسية ، مؤاتياً كل عمل يقربه من الحضرة الإلهية .

وبدهى أن من قصد شيئاً قصده من الطريق الموصل اليه ، وبما أن قصد الحاج زيارة بيت الله فليبه أن يأتي البيت من بابه ، ولا يتأتى له ذلك إلا بكوفه على ما شرطه الله لزيارة بيته ، وذلك بموالاته التلبية والدعاء والخضوع لمولاه الذي يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ، ومن قصده ، وبما أنه قادم على بيت الله العزيز الذي ذلت له الجبابرة ،

وخضعت له الأ كاسرة ، فعليه أن يستكين ويخضع ويذل ذل العبيد ، ليكون ذلك أدعى الى قبوله وإجابة سؤله ، لأن عطف الملوك إنما ينال بعمل ما يطلبون ، والانصياع الى ما يأمرون ، والطاعة والخضوع الى ما به يشيرون .

الطواف - السعى - رمى الجمار :

قدمنا أن القصد من الحج نيل رضا الله والتمتع بنعيمه والعمل على كل ما يوصل الى تلك الغاية العظمى ، ولا يخفى أن نيل الدرجات لدى الملوك والحصول على عطفهم إنما يكون بامثال أوامرهم والابتعاد عما يبغضونه ، وأن الخطوة عندهم تتفاوت مراتبها بحسب طاعة العبد وعمله على رغبات مولاه ، فن امثل مجانباً البحث وقام بما أمر به دون جدل وبغير بحث في الأسباب والعلل التي دعت الى الأمر ، كان أقرب من غيره وأكثر حظوة عند سيده ، وكلما بالغ في الإخلاص نال من الدرجات أسماها ، وإذا أمر بأمر ولم يعرف حكمته ولا السبب الباعث اليه فامثل ، كان مثالا أعلى في الخضوع ونال رضا مليكه ، كذاك - من غير تمثيل - يأمر الله عبيده بأنواع من العبادات لا يعقلون كنهها ولا يمكنهم الاهتداء الى معانيها ولا الى فهم الحكمة الداعية لشرعيتها لضعف مستوهم العقلي عن فهم الحكمة ، فن امثل وأطاع وذل وخضع واستكان لمولاه واسترق لمن أنشاه ، استحق الرضاء التام ، وينال العفو الشامل ، ويبلغ منزلة المصطفين الأخيار ودرجة المقربين الأطهار ، ومن أعرض ونأى بجانيه وتوانى ، كان من المبعدين عن الحضرة ، المحرومين من الخطوة ، واستحق السخط .

هذا النوع من الأوامر يشرع اختباراً للناس ليكونوا شهداء على أنفسهم بأن من خالف نفسه وهواه وخضع لأوامر مولاه استحق رضا ودخل حظيرة قدسه ، فنال من حسن الجزاء ما كتبه الله للعابدين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته واستولى عليه الشيطان واسترق لنفسه

الأمانة بالسوء ، بآء بالخسران وكان حقيقاً بالحرمان . هذا النوع من العبادات معيار الطاعة ، ومنه أكثر أفعال الحج كالطواف والسعى ورمى الجمار ، شرعها الله ولم تقف على حكمة مشروعتها ، ابتلاء لعباده واختباراً . فمن جد في القيام بما أمر به وعمل صالحاً كانت له حظوة قبول ضيافته على مولاه بدخول بيته ، وجوزى الجزاء الحسن وأكرمت وفادته ، ومن قصر أو توانى عن العمل لم يك في عداد المحظوظين ولم ينل رضا رب البيت وشيع باللعنة والسخط (وهذا معنى معروف لدى البشر أنفسهم في معاملة ملوكهم وكبرائهم) فإن من دخل بيت الملك فلم يعمل بالنظام الموضوع للمقاييس أو اعترض على نظام التشريفات ، كان من المغضوب عليهم ولم يقات من العقاب ، ومن قام بما فرض من النظام وحافظ على تنفيذه بدقة ، نال العطف وحظي بالمكافأة .

على مثال هذه المثل التقريبية شرعت أعمال الحج . وإذا كان هذا حال العبيد مع ملوكهم فأحرى بالجميع أن يكون هذا حالهم مع سيد الجميع وملك الملوك ، العزيز التدبير ، عالم الغيب والشهادة ، الفاهر فوق عباده ، الذى من عرفه حق معرفته أيقن بأن كل فعل من أفعاله جل وعلا للحكمة ، وأن العجز عن إدراكها لا ينافي ثباتها وتقررها ، ومن فطن لهذا فقد فطن للخير أجمع ولم يجعل للشيطان عليه سبيلاً يحسن له الوقوع فى المهواة بدعونه الى البحث عن علل وحكم لا يصل مستوى عقله الى درجة فهمها ، يسول له ذلك ليكون ذريعة لدعوته الى ترك ما يؤمر والوقوع فيما يجب عليه اجتنابه ، حتى اذا وقع قال إني برىء منك ، وكانت النتيجة المحتمة استحقاقهما معا عذاب النار .

شرع الله الكثير من أفعال الحج ، وأمر الناس بها أمراً تعبدياً لحكمة علمها جل شأنه ، وقد جهد الناس فى تلمس حكم لهذه العبادات فقالوا عن الطواف وقد سماه رسول الله صلاة غير أنه أباح الكلام فيه : إن السر فيه التشبه بالملائكة الحاقين حول العرش ، وكانت الأشواط سبعة لما فى السبع من الحكم التى لا يحيط بها إلا عالم الغيوب ،

فقد جعل الله الأيام سبعا ، والأفلاك سبعا ، والسموات سبعا ، والأرضين سبعا ، كما التمسوا حكما لغير ذلك من أفعال الحج تعلم من مراجعة كتب الفقه .

الزهرى - القربان :

التقرب الى الله بقربان القرابين أمر معروف لدى البشر من وقت بزوغ فجر التاريخ فقد بما قرب ولدا أبى البشر عليه السلام قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر وكان ما كان بينهما بما قصه الله علينا ، وقد جرى الناس على أثرهما فقربوا القرابين الى الله فى معابدهم . وقد قص علينا القرآن ما كان من أمر الله لخليله بذبح ولده وفدائه إياه بعد بذبح عظيم ، وقد عرضت الديانات المعروفة جميعها للقربان واستقر فيها ، وجاء الاسلام فأقر أمره وأبان أنه مشروع ، قال تعالى : (وَالْبُدْنِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) أى من أعلام دينه ، وبين أن من يعظم شعائر الله كان له أجر كبير ، لأن منشأ تعظيمها وصدوره تقوى القلوب . وقد أرشد الاسلام الى أن الغرض من الهدايا ما يترتب على نحرها وذبحها من نفع الفقراء البائسين ، فتمسد خلتهم ، ويكفون حاجتهم ، ويشاركون أولى النعمة فيما أنعم الله عليهم ، وأما الحضرة العلية والذات الصمدانية فهى غنية عن العالمين لا ينالها منها شئ ، وإنما تجازى المحسن بقدر ما يحسن من عمل ويقدم من طاعة وعبادة ، قال تعالى : (وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) وقال تعالى : (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَائِسَ الْفَقِيرِ) وفى الآية الأخرى : (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) ولعلك بعد هذا فهمت الحكمة فى مشروعية الهدى والأضحية ، وأن الغرض منه نفع الفقراء وسد حاجة المحتاجين . ولقد أهدى رسول الله الى الحرم مائة من الإبل نحر بعضها بنفسه وأتاب عليها كرم الله وجهه فى نحر الباقى ، كما أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين ذبحهما بنفسه .

الوقوف بعرفة :

الركن الثاني من أركان الحج هو الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجة ، وحدث عن مزايا هذا الوقوف ما شئت أن تحدث ، فهو المؤثر العام لجميع المسلمين من أى مكان يجتمع فيه الهندي والسندي والعراقي والجاوي والمكي والمدني والشامي والمصري ، تجتمع فيه سائر وفود الأقطار الإسلامية فيقفون في صعيد واحد كأنهم بنيان مرصوص يدعون الله ويحجرون بالتلبية ، هذه الطوائف من الخلق مع اختلاف مشاربهم وتباين لغاتهم واختلاف أجناسهم اتحدت وجهتهم فوقفوا يسألون الواحد التواب غفران الذنوب وستر الخطايا والعيوب . هذا الموقف الذي يتساوى فيه العظيم مع الحقير والكبير مع الصغير كل يسأل الرحمة ويطلب المعونة . هذا الموقف الذي تظهر فيه المساواة بين الناس أعظم مظهر ، ويمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها ، تقف فيه الوفود خاضعة خاشعة ذليلة تستدر الرحمة وتستندى البركة في لباس أقرب الى لباس الأموات منه الى لباس الأحياء ، خرجوا وقد جردوا نفوسهم من أردية الباطل وثياب التوهم وأخلصوا النية لربهم . قوم هذا شأنهم وذاك وصفهم جديرون بأن الله يتقبل دعاءهم وينياهم مبتغاهم ، ونادوه جميعا مخلصين له الدين بصوت يصعد من القلب الى عنان السماء :
 لبك اللهم لبيك ، قوم يقصدون واجب الوجود الملك المعبود فينفرون وهم جازمون بقبول سؤلهم ونيابهم متمناه ، فاستقر الفضيلة في نفوس من وقف لقبول الحج .
 وحسبك هذه الفضائل في مشروعية الحج وفائدته ، فاذا أضفت الى هذا أن اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها في مكان واحد أمر فيه المصلحة كل المصلحة لهم لأن التفافهم ببعضهم يقربهم من بعضهم ، وبه يتعرف كل منهم حاجيات صاحبه وما هو عليه فإن كان خيرا استزادوا منه وإن كان اثما عملوا على إزالته وفكروا في الخروج منه . وهذا تصلح الأم الإسلامية وتتوحد كلمة المسلمين في العمل للخير والخير العمل ، وتلك فضيلة كبرى من فضائل الحج لو لم يكن إلا إياها لكفت في حكمة مشروعيته .
 وحسبنا هذا ، فإن هذه العجالة لم تتسع لأكثر منه ، والله اعلم . طه ميب

رابطة الثقافة الإسلامية

بقية —————

ورد إدارة المجلة ما يأتي :

تأسست رابطة الثقافة الإسلامية في فيينا في ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٢ بعد تصريح الحكومة النمساوية بإنشائها طبقا للقانون المدني النمساوي . وتتأخص أغراض الرابطة فيما يلي :

- (١) نشر الثقافة الإسلامية وبث الدعاية لها في الغرب .
 - (٢) حماية الاسلام والدفاع عنه ضد المطاعن التي يوجهها اليه المتعصبون وغير المنصفين من الكتاب الغربيين ، وتقنين مزاعم دعاة الاستعمار .
 - (٣) تنوير أفكار الأوربيين عن حقيقة الاسلام وثقافته ومدنيته .
 - (٤) توثيق عرى الإخاء والمودة وتبادل المنفعة بين الجاليات الإسلامية في مختلف الأقطار الأوربية ، والعدل على صون حقوقهم وترقية شئونهم الدينية والاجتماعية .
- وقد انتخب البارون عمر رولف أيرنفلز المسلم النمساوي والكتاب الشهير رئيسا للرابطة ، والأستاذ أحمد الحفنى بك وكيل ، والدكتور زكى على مؤسس الرابطة سكرتيرا عاما ، والسيد محمد على البنى من التجار أمينا للصندوق . وكذلك انتخب المسلم المجاهد الدكتور خالد شلدريك رئيس الجمعية الغربية الإسلامية بالجمهورية رئيس شرف للرابطة ، وكان ذلك في اجتماع الرابطة في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٢

« مجلة نور الاسلام » :

يسرنا أن تتألف في فيينا رابطة إسلامية تعمل لهذه الأغراض النبيلة ، ونذكر حضرات رئيسها وأعضائها بالاحتراس من الفرقتين الخارجيتين على الاسلام : البهائية والقاديانية ، فإن اتصال الرابطة باحدى هاتين الفرقتين ، يفسد عليها أمر دينها ، ويزرى بمكانتها ، وينحرف بها عن سبيل رشد ها ، ونرجو للرابطة بعد هذه النصيحة التوفيق والنجاح .

الاسلام في السودان^(١)

انتهينا في الجزء الماضي من المجلة بإيراد الإحصائيات الأخيرة عن المسلمين في البلاد السودانية ، كما كشفنا عن مستقبل الديانة الاسلامية في هذه النواحي النائية من المعمورة . ونحصر اليوم أبحاثنا في أسباب انتشار الاسلام في هذه الجهات وأثره في حياة أهلها من النواحي الاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

لا يحتاج الباحث الى جهد أو عناء كبير لاكتشاف المزايا العديدة التي أوجدها الاسلام في سكان هذه البقاع التي جمعت من يدينون به من أصحاب الساطان والنفوذ في الهيئة الاجتماعية ، هذا وإن القبائل الأكثر حضارة واستعدادا للثقافة هي التي تُقبل على الدخول فيه ، فأننا نرى جميع الحاميين من أنصار الديانة الاسلامية بدون استثناء ، ولا زالت الأخبار ترد عن إسلام الأذكيا ، من غيرهم الذين بدخولهم يكونون قدوة للقبائل الأقل حضارة والبعيدة عن العالم المتمدن .

إن مزايا الإسلام واضحة أمام الأهالي الوطنيين وضوحا تاما ، كما أن هناك عوامل كثيرة مختلفة ساعدت على تعبيد طريق انتشاره ، بل كان من المنتظر أن تلاقى من النجاح أضغاث ما تراد اليوم .

انتشر الإسلام في الأراضى السودانية من تلقاء ذاته وبدون أى مجهود يذكر ، وبكاد يكون انتشاره في جميع الجهات والأزمان نتيجة تطورات أخرى رئيسية ، إما سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، هذا الى أن فتح الاسلام كان في آونة نهضة فكرية

(١) مترجمة عن الألمانية نقلا عن مقال للاستاذ «ديدريش وسترمان» في «مجلة العالم الاسلامي» الألمانية .

اتجهت فيها الأذهان الى المطالبة بديانة ثابتة الدعائم صحيحة الأصول، ولم يتمكن الباحثون من معرفة أصل نشأة هذه الحركة الفكرية، ولكن التطورات المستمرة كانت تدل دلالة واضحة على أغراضها .

وكانت غالبية غزاة السودان من البربر والفلولبا المسلمين الذين ساعدوا على انتشار الاسلام بين قبائل السود الوثنية بفتوحاتهم الباهرة، حتى تجلت الأهالي الامتيازات الكثيرة التي يتمتع بها المسلمون من حرية وإخاء ومساواة، فكانت سببا في أن نفر أغلبهم من عبادة غير الله، ولكن لسوء الحظ كانت هناك بجانب تلك الفتوحات العظيمة بعض الحروب الدنيوية تشن على الأهالي الوطنيين الوثنيين باسم جهاد ديني ولكن الدافع الأصلي لها هو الحصول على العبيد للتجارة فيهم، فمثل هذه الغارات كانت تنفر الأهالي من الاسلام حتى إنها لو خضعت له في كثير من الأحوال هربا من الوقوع في تجارة الرقيق، فانهم لا يلبثون أن يعودوا الى وثنياتهم في أول فرصة تسنح لهم، كما أنها كانت سببا في تقوية العقيدة الوثنية في كثير من القبائل الوثنية القوية القائمة على نظام وتاريخ قديم، خصوصا وأن قوة الفاتحين كانت تضعف أمام تلك الأغراض الدنيوية حيث تتفرق وحدتهم طمعا في المال وحباً في الاستئثار بفوائد تلك التجارة الراجحة، فكان كل كبير من الفاتحين ينتهز فرصة لانزلاخه من الوالي حتى يستقل في عمله غير مبال بنشر الدين الذي قد يكون عائقا له في عمله من حيث تحريم تجارة الرقيق بين المسلمين .

أما في الجهات الأخرى التي دخلها الاسلام بقواعده الصحيحة وتعاليمه الدينية العالية ونظمه الاجتماعية الثابتة وظهرت ميزات العقلية والسياسية، فكانت قوة تأثيره في الأهالي بالغة حتى لقد دخل فيه الوثنيون والكفار بإيمان صحيح وعقيدة ثابتة لا تنزع، فهضمت العزائم واستنارت العقول وظهر طور تقدم في كل شئون الحياة

مثل ماتم في سكان الماندينجو القدماء وأهالي بورنو وياجيري ، ولو لم تقع تلك الأقاليم بعد ذلك تحت حكم الاوربيين لما عاق انتشار الاسلام عائق ولكن للاسلام شأن آخر في البلاد السودانية أكثر وأقوى مما هو عليه اليوم .

ومن العوامل السياسية التي ساعدت على انتشار الاسلام وتقوية دعائمه في تلك الأقاليم تدخل القبائل الاسلامية في الأوساط الوثنية بطرق سامية ، كما تم لهم ذلك في السودان الغربي حيث دخل المهاجرون البربر من الشمال وأقاموا شعائرهم الدينية وتقاليدهم الاسلامية في روعة وبهاء ، حتى دخل الأهالي الوثنيون في دين الله أفواجا . وبنفس الطريق دخل الاسلام في كثير من الجهات الأخرى بواسطة أعراب التوارج والفولبا وخصوصا بواسطة الآخرين فإنهم بذلوا مجهودا كبيرا في الدعاية للاسلام ونشر تعاليمه .

أما العوامل الاجتماعية التي ساعدت على نشر الديانة الاسلامية في تلك الأقاليم فكانت أقوى حجة وأنجح أثرا ، إلا أنها لا تعتبر سببا أوليا مثل العوامل السياسية حيث إنها كانت تعمل على انتشار الدين بطرق بعيدة ، ولكنها كانت في كثير من الأحوال تأتي بنتائج أنجح من العوامل السياسية الأولى ، فان الاسلام كان ولا يزال في نظر أهالي السودان يعتبر مرتبة عالية من الثقافة والتحضّر بالنسبة لعبادتهم القديمة ، حتى من جهة الاعتبار الجنسية ، فان رافعي لواء الاسلام من أصل أقدم حضارة من الجنس الأسود ، فإنهم قدموا الى بلادهم ولهم دراية بفنون الحرب والزراعة وتربية المواشي والطرق التجارية ، ومن خصالهم الشجاعة والكرم والأمانة ، ومن عوائدهم النظام وسياسة البلاد والعدل بين الناس ، والكثير منهم يجيد الكتابة والقراءة ، وآخرون جابوا البلاد الأجنبية ، وعلى اتصال وثيق بتجار أجنبية يتبادلون معهم البضائع الغريبة التي لم يسبق لهم بها معرفة ودراية ، فزادت بها خيرات

البلاد وساعدت على زيادة الرخاء والرفاهية واستكمال أسباب الراحة والطمأنينة . كل هذه الميزات جعلت المسلمين هناك مثال التقدم والحضارة ، فارتاحت إليهم الأهالي ، وأحبت معاشرتهم ، وأخذت عنهم الكثير من تقاليدهم وعوائدهم ، وتعلموا عنهم فرائض الدين بعد أن احتقروا عباداتهم القديمة .

وكان من طبيعة التجارة في قلب أفريقيا أن التاجر المسلم من الماندينجو أو الهوسا الذي يتعامل مع الأهالي لا بد له من الإقامة في أوساطهم والاختلاط الكلي بهم فيظهر تفوقه عليهم من نواح حيوية متعددة في مأكله وملبسه ومسكنه وطرق عبادته مما جعل الأهالي ينظرون إليه نظرة احترام ومحسبون حسابه في كل مقام ، فكان التاجر الفطن والعالم الديني يلقى الإكرام الزائد في بيوت رؤساء القبائل الوثنية ، وكانوا يظهرون علمهم وتجاربهم في الحياة لتعزيز شوكتهم وتقوية مصرا كزهم ، فأصبح وجودهم في تلك الديار مما يعود على أهاليها بالمنفعة العظيمة ، وبذا تمكنوا من مساعدة من يلوذ بهم ويلجأ إلى حمايتهم ويشاركهم في عقيدتهم الدينية ، فعانت كبتهم وزادت سلطتهم وارتفعت منزلتهم وخشيتهم الصغار والكبار وخجل الأهالي من القيام بشئائر دياناتهم الوثنية أما هم ، وبدءوا يشعرون بميل وعطف نحو الديانة الإسلامية خصوصا بعد زيادة اختلاط المسلمين بهم بالتزاوج والمصاهرة مما جعل كثيرا من أسر الوثنيين وأقاربهم وأولادهم من بعدهم يدخلون في الديانة الإسلامية بعد أن ظهرت لهم محاسنها وتجلت أمام ناظرهم أغراضها ، فانتقلوا إلى طور جديد من الحضارة بدأ بتغيير أزيائهم ثم باتباع بعض قواعد الديانة وأصول العبادة .

كثير التزاوج بين رجال المسلمين والنساء الوثنيات في كل النواحي التي زحف إليها الفاتحون للتجارة ، خصوصا وأن أغلب المهاجرين كانوا من الرجال ، ولو أنه باديء ذي بدء كانت تقوم بعض الصعوبات أمام إتمام مثل هذا الزواج ، إلا أنها أخذت

تتضاءل وتزول بعد فترة قصيرة من المباشرة، وبسبب رغبة الأسر الوثنية في تحسين حالتها المادية والاجتماعية .

وقد ساعدت الفتوحات العظيمة كذلك في انتشار الاسلام بسرعة فائقة في داخلية البلاد، حيث كان الوالى يقسم الأراضى على الضباط الفاتحين والموظفين المالكين لزراعتها وإدارة شئونها الداخلية وجمع الخراج، كما كان يخص كلا من هؤلاء الضباط والموظفين بعدد كبير من الأهالى الوطنيين للقيام بخدمة الأرض واستغلال مواردها الطبيعية، فكان شأنهم مع كبيرهم شأن الوالى مع أسيادهم: يتزانون إليه ويتربون منه جهد طاقتهم ولا سبيل لهم في ذلك إلا بدخولهم في دينه . واقدر تمكن ٥٠ ألفا من الفولبا المسلمين من جعل ما لا يقل عن ٢٤٥ ألفا من العبيد الوثنيين يدخلون في الاسلام في فترة قصيرة، انسلمتهم إليهم في الحكم من جهة، وطردوا من الآخرين في تحسين أحوالهم المادية والاجتماعية من جهة أخرى .

على أن الاسلام كان له اليد الطولى في تحرير قبائل كثيرة وتخايصهم من الرق والاستعباد، فان التنازع بين الطبقتين: طبقة العمال، وطبقة أصحاب الأعمال قديم في أفريقيا مثل قدمه في الممالك المتحضرة، وكثيرا ما أفاد إرشاد الوعاظ المسلمين في الطبقات العاملة في إطاعة أولى الأمر منهم، وفي رد الملاك عن غوايتهم، وقد كملت أعمالهم في كثير من الجهات بالإنجاح، فتمكنوا من توحيد كلمة المزارعين من قبائل اليولوف لمقاومة المتعسفين من الطبقة المالكية، وأحدثوا انقلابا اجتماعيا خطيرا، وتولوا الزعامة فيهم، وقادوا الفلاحين المهضومى الحقوق، حتى تمكنوا من تحسين أحوالهم واستعادة حقهم من رؤسائهم الوثنيين الذين ضاعت سلطتهم وقلت مواردهم وزالت دولتهم، وبذا كسبوا محبة الأهالى الزراع واستولوا قلوبهم، فزاد بهم عدد المسلمين زيادة مطردة، واضطر الرؤساء الباقيون الى الدخول في الدين الاسلامى خوفا من انقراض سلطانهم وانضوب مواردهم .

وقد نسج الوعاظ المسلمون على هذا المنوال في نواح متعددة لإرشاد الطبقات المهضومة الى حقوقها الاجتماعية ، وأوضحوا لهم السبل بالتعاون والإخاء ، فاكثبوا بذلك جماهير غفيرة لدينهم ، وساعدوا في توطيد حياة اجتماعية راقية .

أما الدعاية الدينية البحتة للإسلام فلم يكن لها نصيب كبير في السودان مثل ما كان للعوامل السياسية والاجتماعية ، فانها كانت نادرة في أحوال وجهات كثيرة ، وإذا وجدت فانها كانت غير منظمة وعلى غير اتصال مركزي وثيق ، ولا يمكن اعتبار ما يصادفه الانسان من حين لآخر من وعظ وإرشاد حركة دعائية منظمة للإسلام مثل حركات التبشير المسيحية بأى حال من الأحوال ، ولقد بدأ بعض أقطاب المسلمين هناك منذ بضع سنين في تنظيم الدعاية لدينهم ، ولكن الهيئات المشرفة على هذا العمل الكبير يعوزها التجربة والمال بحيث لا يرجى لعملهم التوسع ، بل يكتفى عليه في جهات متعددة من عدم الاستمرار والبقاء .

وقد يصادف الانسان من وقت لآخر بعض أغنياء المسلمين المهتمين بنشر الدين ، فيقومون بالوعظ في الجماعات الصغيرة في مناسبات مخصوصة ، أو يهتمون بتشيد مسجد جديد أو تعمير آخر قديم أو انشاء مدرسة لتعليم القراءة والكتابة العربية وتحفيظ القرآن ، ولكن ذلك لا يتعدى المجهودات الفردية ، فلا ينتظر لها ثمر كثير .

وأما التوسع في الفقه وأحكام الشريعة فيكاد لا يخرج عن المنتديات الضيقة على شكل مناقشات وجدل بين العلماء ، ولا يتعدى ذلك الى الكتابة والنشر مثلاً ، ولذا كانت معلوماتهم وروايتهم الأدبية من هذه الناحية قليلة ولا تقاس بها في البلاد الاسلامية الأخرى .

وقد يكون لمركز المسلمين الاجتماعي من حيث نفوذهم عند رؤساء القبائل وعند الأوربيين المستعمرين الفضل الأكبر في دخول الكثير من الأهالي في دينهم ،

لأن المجهود الذي يبذلونه للدعاية الدينية البحتة لنشر الاسلام يكاد لا يذكر له أثر في إقناع الوثنيين للأسباب السالف التنويه عنها، بعكس ما يظهر لهم من مركز اجتماعي سام وجانب سياسي عزيز يترك أثراً ظاهراً في الوثنيين ويحميهم على تقايدهم والدخول في زميرتهم .

ولقد نشطت أخيراً حركة الدعاية الدينية للإسلام عند بدء الاستعمار الأوربي في السودان ، الذي قضى على العوامل السياسية في نشر الإسلام وأصبحت الدعاية الدينية والعوامل الاجتماعية هي الوسائل الوحيدة التي يمكن أن يباهر بها المسلمون في أعمالهم لتوسيع مدى سلطانهم الديني ، بله ما يتوهمون به سرا من أعمال سياسية لنشر ديانتهم .

ولقد قضى الاستعمار الأوربي على التنافس الدائم بين الملاك والمزارعين العمال الذي كثيراً ما استغله المسلمون لمصالحهم في نشر الدين ، فانه جعل الجميع سواء أمام القانون وأزال امتيازات أصحاب الأعمال والملاك ، ولقد عرف المسلمون كيف ينتفعون من هذه الحال بأن بدءوا دعايتهم للدين في السلم والسكون ، وساعدتهم على ذلك تحسن حالة التجارة منذ ذلك الحين على يد الأوربيين ، فكانوا أول من انتنع بالمزايا الإدارية التي أدخلها المستعمرون .

ولقد عنى المستعمار الأوربي بالمسلمين عناية خاصة من هذه الوجهة ومنحهم امتيازات عديدة لمساعدتهم له في تنفيذ الأحكام وضبط الإدارة ، فكان ذلك مما حجب الكثير من الأهالي في الدخول في الدين الإسلامي .

كما أن اعتراف الحكام الأوربيين بالدين الإسلامي والسماح لأهله بالقيام بشعائر ديانتهم واحتقارهم للوثنية وإغفالهم شأنها : كل ذلك جعل الأهالي يقبلون على الاسلام ليمتتعوا بامتيازاته الكثيرة ، ونرى أثر ذلك في ظاهرتين هامتين ، هما أولاً - اعتبار

أعياد المسلمين أعيادا وطنية . وثانيا - تشييد المدارس الإسلامية والصرف فيها من الإيرادات العامة ، يشترك فيها الوثني مع المسلم في دراسة الديانة الإسلامية ويتأقن تعاليمها فلا يلبث أن يهجر ديانته القديمة المألوفة ليصم إلى الدين الإسلامي الممتاز .

تتضح لنا من كل ما سبق ذكره أن أهم العوامل التي ساعدت على نشر الدين الإسلامي بين الأهالي الوطنيين في الأقاليم السودانية في أواسط أفرقيتها هي العوامل الاجتماعية ، فإن الأهالي كانت تعتقد الآمال الجسام على التحرير السياسي والائتلاف بدخولهم في الإسلام ، إلا أن السبب للمهم والدافع الأول لهم على ذلك كان طمأنينهم في تحسين حالتهم الاجتماعية ، وهذا الرجاء كان ولا يزال أهم العوامل التي تساعد على حمل الأهالي على تغيير عقيدتهم الدينية خصوصا بعد عهد الاستعمار الأوربي الذي جعل الأمل في ذلك كبيرا كما سبق لنا تفسيره .

وقد ظهرت منذ عهد الاستعمار الأول حركة جديدة بين الأهالي ترمي إلى طمأنينهم إلى تغيير حالتهم بعد أن ظهر لهم تفوق الأجناس الأخرى عليهم ، فبدءوا يتململون من تلك الأجناس الممتازة ، حباً في مجارات التيار العالمي الحديث والانتعاش به . وبديهي أن أول من اتجهت إليه أنظارهم للأخذ عنه كانوا هم الأوربيين الذين هم أصل نشأة الانقلاب والتطور الجديد ، فعملوا جهد طاقاتهم للاتصال بهم والأخذ عنهم وتقليدهم في كثير من أمور الحياة ، ولذلك كان الطابع الأوربي ظاهراً في الجهات التي لم يتمكن الإسلام منها مثل المقاطعات الساحلية في السكرون ونيجيريا وتوجو وساحل الذهب ، وكذلك في بعض جهات سيرا ليونا وغامبيا ، فقويت هناك حركة التبشير المسيحي وزاد أتباعه ، خصوصاً وأن حكومات الاستعمار ساعدت في تقدم الدعاية والتبشير ، وفي تلك النواحي بدأت تذبل الثقافة الإسلامية ويضعف أثر الإسلام أمام المزاحم الجديد .

أما في الجهات التي تقدم فيها الاسلام تقدما محسوسا وزاد عدد أتباعه ووصل الى درجة من السلطة والنفوذ يصعب لديانة جديدة مزاحمته فيها ، فإن الحال لم تتغير في تلك المناطق بالرغم من الاستعمار الأجنبي ، خصوصا وأن الدول الحاكمة كانت تعنى بالمسلمين في هذه البلاد عناية خاصة لأنهم يكوّنون الطبقة المتعلمة التي كانت تساعد في إدارة الشؤون الداخلية والتجارة والتعليم كما سبق لنا ذكره آنفاً ، وكان ذلك من دواعي تعاقي الأهالي بالاسلام والمسلمين والاقبال على دينهم للتمتع بالازايا العديدة مثل التعام في المدارس الدينية والانتفاع بالقضاء العادل والمساواة في المعاملة والاشتراك في الأعياد الأهلية الاسلامية .

ومما ساعد على انتشار الاسلام في بلاد السودان بهذه السرعة الفائقة أن هذه الديانة دخلت الى بلادهم وهي ليست غريبة عنهم ، دخلت اليهم في ثوب إفريقي لا يستهجنونه ، فالأعراب حاملو لواء الاسلام أقرب اليهم من الأوربيين براحل ، خصوصا وأن طرق معيشة المسلمين وحالتهم الاجتماعية وديانتهم توافق فطرتهم تمام الموافقة .

هذا فضلا عن أنهم بدخولهم في الدين الاسلامي يصبحون مباشرة أعضاء في الهيئة الاجتماعية الراقية ، مثاهم مثل المسلمين الأصليين سواء بسواء : لهم من الحقوق وعايهم من الواجبات ما للآخرين وعليهم بدون تفرقة ، فيشعرون بدخولهم في طور جديد من حياة راقية ، ويزدادون ثقة واحتراما لأنفسهم ، لانضمامهم الى ديانة عالمية لها مركز يباهون به أمام الأوربيين ، وهذا ما لا يصلون اليه إذا هم اعتنقوا الديانة المسيحية الغربية عنهم من المبدأ الى النهاية ، فانهم لا يشعرون بانضمامهم الى الغربيين كأعضاء أسرة واحدة ، بل يقعون غرباء مهما طال عهدهم بديانتهم ، لأن المبشرين المسيحيين لا يعرفون كيف يدخلون عليهم العقيدة الجديدة بانسجام يوافق فطرتهم وطبيعة أميالهم ، بل إنهم يجهلون في استئصال القديم من جذوره وغرس الجديد على علاته ، وبذا يجهلون منه

صورة ممسوخة للأوربي الذي لن يتيسر له الاندماج معه في الحياة الأدبية والاجتماعية ، في حين يعمل الاسلام على ترقية مداركه ورفع مستوى تفكيره مع محافظته على إفريقته ، ولهذا الأسباب كلها فاننا نجد اليوم أن أغلب الأهالي الذين اعتنقوا النصرانية ، يميلون بفطرتهم الى العادات الاسلامية ، أو يهجرون ديانتهم المسيحية للدخول في الدين الاسلامي ، شعورهم بالمساواة في الحياة الاجتماعية مع المسلمين ، ولن يجدوا تلك المساواة والاعتبار في الأوساط الأوربية المسيحية . « يتبع »

شكر عالم غيور

وردت إدارة المجلة رسالة من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبي النصر مبشر الطرازي^(١) الموظف بالترجمة والتأليف في دار التحرير الشاهي (الديوان الماسكي) والعضو الافتخاري للجمعية الأدبية في « كابل » عاصمة الأفغان ، وضم فضيلته الى الرسالة قصيدة بليغة ، وعزز القصيدة بكلمة في الثناء على خطة مجلة « نور الاسلام » واستنهاض العلماء للقيام بمهمتهم الدينية وهي إرشاد الأمة الى ما فيه عزها في الدنيا وسعادتها في الآخرة ، فتشكر فضيلة الأستاذ على غيرته الخالصة ونصيحته الغالية .

(١) كان الأستاذ عضوا للوفد الافغانى الى الحجاز سنة ١٣٤٩ ومدرسا في المدرسة الاكاديمية للحديث والعقائد والمحاورة العربية ، والتفسير والادبيات العربية .

كتاب جديد عن الاسلام^(١)

أهدانا حضرة الأستاذ الدكتور « ج . كامبفاير » المستشرق الألماني الشهير كتاب « مصير الاسلام » . عن يجمعه الأستاذ « ه . ا . ر . جيب » أستاذ اللغة العربية بجامعة « لندن » . وهو بحث في اتجاه الأفكار الحديثة في العالم الاسلامي . ويشتمل على مقدمة وخمسة فصول : (الأول) عن أفريقية : للأستاذ « لويس ماسيدون » بجامعة باريس . و (الثاني) عن مصر وآسيا الغربية : للأستاذ الدكتور « ج . كامبفاير » بجامعة برلين . و (الثالث) عن الهند للقائمقام « لفتننت كيرنل » م . ل . فيرار . من كبار ضباط الجيش الهندي المتقاعدين . و (الرابع) عن أندونيسيا : للأستاذ « س . س . بيرج » بجامعة ليدن . و (الخامس) عن مصير الاسلام : للأستاذ « ه . ا . ر . جيب » بجامعة لندن . وهي محاضرات قام حضرات الأساتذة المشار إليهم بإلقائها بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن في نوفمبر سنة ١٩٣١ . وقد رأينا أن ننقل لقراء « مجلة نور الاسلام » بعض ما جاء في هذه المحاضرات ، ونبدأ اليوم بمحاضرة الأستاذ الدكتور « كامبفاير » عن مصر وآسيا الغربية :

قامت في العالم الاسلامي أخيرا حركات أخذت في الانتشار لم تكن معروفة بتاتا حتى السنوات الأخيرة ، فقد تنهت به عوامل خلقية ودينية كثيرة لاندحة من الوقوف عليها والإحاطة بها . وإننا كلما أمعنا في استكناه حقيقة هذه العوامل وقوتها بعد درس الحقائق المتعلقة بها دراسة تفصيلية ، كلما زدنا أهلية للحكم على التطور

الذى يحتمل أن تبلغه والأثر الذى قد يكون لها فى المستقبل . وان بحثاً علمياً من هذا القبيل لا يخلو فى الوقت عينه من فائدة عمالية .

أما البلاد التى سيشملها بحثى فهى :

مصر ، وبلاد العرب ، والعراق ، وفلسطين ، والشام ، تركيا ، فارس ، الأتغان ولكل من الثلاثة البلاد الأخيرة صفات خاصة يختلف فيها بعضها عن بعض وعن باقى البلاد المذكورة من قبل ، فلغة كل منها قلما تفهم فى الأخرى أو فى باقى بلاد العالم الاسلامى ، كما أنه ليس بهذه البلاد نهضات إسلامية تجتذب إليها البلاد الأخرى أو أى بلد من بلاد الاسلام ؛ والحال على النقيض من ذلك تماماً فيما يختص بمصر وبلاد العرب والعراق وفلسطين والشام ، فهذه البلاد لها صفة هامة تشترك فيها جميعاً .

فالربية هى لغة التخاطب فيها كلها ، كما أنها اللغة التى يتكلمها سكان شمال أفريقيا وكثير من الجاليات العربية المنتشرة فى أنحاء العالم . هذا الى أن العربية من حيث هى لغة الاسلام الخاصة تدرس فى العالم الاسلامى ، وتفهم فى بلاد من الاطالانطيق الى الهند وجاوة الى حد كبير مما يسهل انتشار الأفكار الروحية الى ما وراء حدود البلد التى نشأت بها .

ويساعد على انتشار الأفكار الروحية هذه عوامل مختلفة ، وأقوى هذه العوامل الصحافة العربية الراقية ، وعلى الخصوص صحافة القاهرة المركز الفكرى للعالم الاسلامى . كذلك يقوم الحج بنصيبه فى الاتصال الروحى بين بلاد الاسلام المختلفة . وفضلاً عن نشاط الصحافة فيما يساعد بصنعة خاصة على نمو التطور الاسلامى العام والأمانى الاسلامية فى بلاد الشرق الأدنى المتكاملة بالعربية : أو على التحديد — للمساحة التى تشغلها مصر ، وبلاد العرب ، والعراق ، وفلسطين ، وسوريا — مجاورة هذه البلاد بعضها لبعض ، وتقدم طرق المواصلات . فاذا ما قامت بإحدى هذه البلاد حركات إسلامية خطيرة ، فمن السهل أن يتصور الانسان مبلغ أثرها وما قد يكون لها من أهمية .

وإني أريد بادئ ذي بدء توجيه النظر الى الحركة التي قامت بمصر وهي تصور الحالة الفكرية الحاضرة - ليس في مصر فحسب - بل وفي جزء كبير من العالم المتكلم بالعربية ، خير تصوير .

وقد بدا لي أنه من المجدى أن أقف الجانب الأكبر من كتابتي على بيان مختصر شامل بقدر الإمكان عن جمعية الشبان المسلمين لما يلقيه ذلك من النور على المسألة التي نحن بصدددها ، وهنا أتى الأستاذ الكاتب على نظام هذه الجمعية وشروط العضوية العاملة بها ، وتكلم عن رئاسة الجمعية ومجالس إدارتها وأعضائها ، وأشار الى المنزلة الكبيرة التي لأعضاء مجالس الإدارة ، وأنهم يمثلون نواحي هامة من نواحي الحياة المصرية القومية : فيديهم موظف بوزارة المعارف ، وممثل للصحافة المصرية ، ومدرسون من مدرستي المعلمين والحقوق وجامعة الأزهر الشهيرة ، وثلاثة من الشبان يعرفهم الكاتب معرفة شخصية تلقوا العلم بجامعات أوروبية : أحدهم بلندن ، والثاني بجنيف ، والثالث بفينا ، ويمثلون العلم الانجليزي والفرنسي والألماني . ثم تكلم الكاتب عن أغراض الجمعية وأشار الى التقدم العظيم الذي بلغته والى أثر هذه الحركة وأهميتها في الوقت الحاضر والمستقبل ثم عطف على مجلة الجمعية التي تعبر عن آرائها ، وأتى على بعض مقالاتها ، وأفاض في ذكر أعمال الجمعية ونشاطها في مصر وخارجها ، ثم تساءل الكاتب عما إذا كانت الجمعية حركة فردية أو أن هنالك اتجاهها قويا يتفق ونزعات الجمعية ويتيح له (للكاتب) الكلام عن الاتجاه العام الأفكار الاسلامية بمصر ، وقال في النهاية : إن ذلك هو الواقع .

ثم انتقل الكاتب الى الكلام عن الاسلام بمصر فقال :

إن الاسلام محتفظ بمنزلته الكبيرة في مناحي الحياة العامة بمصر ، وفي أحكام القانون الأساسي للدولة (الدستور) ، وفي الحياة النيابية ، وفي التشريع ، وفي التعليم وفي كل مظاهر الأُممبال الاجتماعية - ومن خاصيات هذا التطور - إذا اعتبرناه

يجملته - أنه قد توفر به شيئان : أحدهما التمسك بكل ما هو أساسى فى الاسلام ، والآخر اتساع فى مدى الأفكار يسلم بضروريات الحياة الحديثة ويكشف عن استعداد لقبول الإصلاح المعقول .

فقد نصت المادة ١٤٩ من القانون الأساسى المصرى بتاريخ ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ على أن الاسلام دين الدولة ، وقد غير هذا القانون واستبدل به آخر بتاريخ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، ولكن المادة ١٤٩ لم يتناولها التعديل كما حصل لمثل هذه المادة بالقانون الأساسى التركى .

وقد تناقش أعضاء مجلس النواب المصرى فى تعديلات بعض جزئيات الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأوقاف ، وقررت الحكومة البعض الآخر بطريق التشريع ، ومن هذا التعديل قانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ الخاص بإعادة تنظيم الأحكام بالمحاكم الشرعية وتحديد اختصاص القضاة ، والافتصاص على قضايا الأحوال الشخصية والموارث ، كما سنت الحكومة بعض نظم فيما يتعلق بالزواج كرفع سن الزواج للزواج الى ١٦ سنة وللأزواج الى ١٨ سنة ، ولكن على الرغم من هذه الإصلاحات فإن نظام الأحكام الدينية (الشرعية) محتفظ به كما هو محتفظ باليمين الشرعى الذى يرجع الى التنزيل السماوى .

وقد لقيت مبادئ الإسلام فى مناقشات مجلس النواب عن نظم الإسلام الشرعية كل تجلّة واحترام من النواب ، وقد انبرى من بينهم مدافعون متحمسون عن هذه المبادئ كلما أتاحت لهم الفرص ذلك .

هذا وهناك دائرة التعاليم العام ، فقد عنيتُ عناية خاصة حينما كنت بمصر عام ١٩٢٨ بنوع التعليم ، واطاعت بوزارة المعارف على مناهج المدارس العامة ، وزرت شخصيا أنواع هذه المدارس : من روضة الأطفال ، وابتدائى ، وثانوى للبنين والبنات ، وحضرت

الدروس التي تلتى ، وقد أعجبت كثيرا برقى مستوى هذا التعليم وبالغيرة التي تبذلها الحكومة والأساتذة والطلبة فى هذا التعليم وبالتأنيج التي وصلت اليها .

كذلك أفرد جزء من التعليم للألعاب الرياضية ليشب الجيل الجديد قويا سليما . ويجدر أن نلاحظ أن الحكومة تعمل تدريجيا على تعميم التعليم الإلجبارى فى أنحاء البلاد . فليت شعرى ماذا تكون حالة الحياة القومية المصرية عندما يزداد نشاط العقول الذكية المواهب الأدبية التي أوتيها المصريون برقى التعليم العام على النحو الذي وقفت عليه عام ١٩٢٩ .

وفوق ذلك فتمت الحركة الخاصة بتعليم المرأة وحقوقها ، يستعمل القائمون بها كل حصافة وفطنة . ثم استطرد الكاتب الى الكلام عن أهمية تعليم المرأة فقال : إن أهمية تعليم المرأة من الأمور المسلم بها بمصر لما لها من الأثر فى العائلة ؛ وقد بحثت جمعية الشبان المسلمين هذا الموضوع كثيرا ؛ على أن هناك معارضة لقيام التنافس بين الجنسين واختلاطهما المطابق صونا للأداب .

وقد سمح للبنات بالدراسة بالجامعة المصرية ، ولكن لا يصرح للجنسين أن يتلقيا الدروس سوية أو يختلط كل منهما بالآخر سواء فى الجامعة أو فى المدارس العليا الأخرى .

فنحن نرى من ناحية أن التعليم تحميه عناصر الأمة الرشيدة الى المحافظة على الدين والآداب وصحة الأبدان ، ومن ناحية أخرى نرى أن المعاهد الدينية آخذة فى توسيع نطاق أعمالها ومناحي نشاطها ، فهناك إصلاح جامعة الأزهر الشهيرة ، وهناك مجلة « نور الاسلام » التي أنشأها الأزهر منذ سنتين لغرض درس تعاليم الاسلام والمسائل المامية والخلقية والتاريخية والحكمية المتعلقة بهذه التعاليم دراسة جديدة للوصول الى حكم صحيح فى هذه المسائل . وقد أنشئ لهذا الغرض قسم خاص لتتبع تقدم العلوم والفنون

والقيام بترجمات للمجلة من اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية . وبهذه الطريقة تقوم المجلة بتبادل الآراء مع العالم الاسلامي .

ونحن اذا ألفينا النظر على المؤلفات العربية المصرية في وقتنا هذا وجدنا كتابات كبار المؤلفين خالية من السفساف خلوا تماما ، وجدنا أذهانا متفتحة للثقافة الغربية كثيرا ما تكون مقرونة بالعاطفة الدينية ، وشعورا عميقا بالحاجات والمطالب الخلقية والاجتماعية ، وإحساسا متزايدا بالشخصية المصرية والشرقية .

وهنا تناول الكاتب بعض الكتاب المصريين بالبحث ، وأشار الى نزعات كل منهم ، ثم استطرد الى الكلام عن الروح الاجتماعية فقال : « ليست الروح الاجتماعية — وهي إحدى مظاهر جمعية الشبان المسلمين الهامة — قاصرة على الجمعية فحسب ، بل لقد عم انتشارها اليوم في مصر وفي بلاد أخرى من الشرق الأدنى المتكلم بالعربية » وهنا ساق الكاتب الحادثة الآتية تبينا لانتشار هذه الروح :

بعد وفاة الملك حسين (الذي توفي في ٦ يونيو سنة ١٩٣١) جعت أموال لإقامة نصب بعمان عاصمة شرق الأردن لرعيم الاستقلال العربي المتوفى ، ونشر رئيس تحرير جريدة بالقاهرة — وهو مسلم غيور ومؤيد لاستقلال العرب — نبذة من خطاب تلقاه من عمان جاء فيها :

ولكن يا إخواني هل يرضى شيخ قريش في لحده بإقامة نصب له بيننا هناك في الأمة العربية أناس يمشون حفاة الأقدام ولا يجدون الى دخول المدارس والتعليم سبيلا لفقرهم المدقع ، وبيننا تدخل الآلاف مستشفيات المبشرين لعلاجهم من الأمراض ؟ لماذا لا يكون نذكار فقيدنا العظيم مستشفى في عمان أو مدرسة في القدس الشريف ينتفع بها الناس ؟!

ونحن كثيرا ما نأتى على أمثال هذه الآراء فى الصحافة العربية اليوم .

ثم تكلم الكاتب عن المجلات والجمعيات الخيرية فقال :

وهناك مجلات مختلفة وجمعيات خيرية تشترك فى الحركة الدينية الخلقية الاسلامية بمصر ، فن المجلات : « الفتح » و « الزهراء » و « المنار » ومن أهم الجمعيات « جمعية الهداية الاسلامية » و « بعثة الفيضيين الاسلامية » وقد ترى أعضاء الجمعية الأخيرة فى عربات السكة الحديد بين مصر والاسكندرية وغيرها يوزعون على المسافرين من أهالى البلاد نشرات دينية تنشرها الجمعية بالعربية . هذا الى أن الجهودات لترقية الصناعات والمشروعات الوطنية التى يمثلها بنك مصر خير تمثيل سائرة بكل نشاط .
وهناك أمثلة عديدة اظهر هذه النهضة يستغرق سردها وقتا طويلا .

وفى غضون العشرين السنة الماضية كان يخشى أن يفقد المصريون شخصياتهم لاحتمكا كهم بالمدنية الغربية ، ويصرموا ما بينهم وبين ماضيهم ، وما بينهم وبين الدين والأخلاق ، ويستسلموا لساوى المدنية الغربية بغير استفادة من محاسنها ، ولكن يظهر أن هذا الخطر قد زال ، فقد قويت الروح الوطنية وبعُد غورها ، وقويت مع هذه الروح معرفة مطالب الأمة والشرق الحقيقية .

الطرف والملاح

هرب أعرابي ليلا على حمار حذارا من الطاعون ، فبينما هو سائر إذ سمع قائلا يقول :

لم يُسبق الله على حمار ولا على ذى منعة طيار

أو يأتى الحتف على مقدار قد يصبح الله أمام السارى

فكرّ راجعا وقال : إذا كان الله أمام السارى فلات حين مهرب :

كيف انتشر الاسلام^(١)

إن جماعة المسلمين في عهد الخلفاء الذين جاءوا بعهد محمد (صلى الله عليه وسلم) مباشرة كانت سائرة في طريق انتقالها من جماعة دينية مؤلفة بمكة (المكرمة) ثم من هيئة سياسية قائمة بالمدينة (المنورة) الى دولة عالمية، وذلك بسبب توطد مركزها في الداخل وامتداد سلطانها بالفتوحات في الخارج. فند كانت تنشأ في موطن الاسلام الأصلي وفي الولايات التي افتتحها المسلمون أحوال جديدة تستدعي تنظيمها وكان لا بد من وضع أصول للحكم.

وسنبحث هنا أولا في بعض المقتضيات العملية الخاصة بالحياة المادية : فما لا شك فيه أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وضعوا من التعاليم ما كان وافيا بالحاجات الملحة، ولنا أن نصدق بالحديث القائل بأن النبي (عليه السلام) قد وضع في حياته أساسا لجباية الأموال، إذ في زمنه قد أظهرت الأحوال أنه كان لا بد من رفع قيمة الزكاة من حالتها الأولى التي كانت عليها من حيث هي صدقة مستحقة لجماعة المسلمين الى جعلها ضريبة حكومية منظمة ومحددة بقيمة مفروضة.

وكانت توضع مثل تلك النظم تدريجيا حتى أخذت المكان الأول بعد وفاة النبي (عليه السلام) وذلك بسبب ضرورتها الذاتية. أما المحاربون الذين اشتتوا في الولايات النائية ولا سيما الذين لم يكن أصابهم من المدينة (المنورة) ذلك المركز الديني فانهم لم يكونوا على دراية تامة بالواجبات الدينية في أول الأمر.

(١) عن الفرنسية من كتاب « العقيدة والشريعة في الاسلام » لمؤلفه جولدتزيهر والمترجم الى الفرنسية ليفليكس أوران .

فالحروب المستمرة والفتوحات التي كانت تمتد شيئاً فشيئاً كانت تتطلب وضع قواعد للقانون العسكرى ووضع أحكام تتعلق بضمان الحقوق العامة للشعوب التي أخضعت ، وللمحافظة على الحالة الإدارية التي نشأت عن الحكم الجديد .

وكان أول من وضع النظم الثابتة للمسائل السياسية والاقتصادية هو الخليفة المقدم عمرو بن العاص (رضى الله عنه) الذى يعتبر بحق مؤسس الدولة الاسلامية بسبب فتوحاته العظيمة فى سوريا وفلسطين وفى مصر .

وليس مما يعيننا أن نتوسع فى سرد هذه النظم للوصول الى غرضنا ، إذ يكفي أن نعلم على الجمل أن بسبب الحملات العامة أخذت الشريعة الاسلامية تنتشر عقب وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) مباشرة ، على أنه لا بد لى أن أبين جانباً من تلك التفاصيل لماله من الأهمية فى توضيح حالة ذلك العهد الأول ، إذ لا يسع أحداً أن ينكر أن أول الأوامر التي فرضت على المسلمين الفاتحين إزاء الأمم المغلوبة والتي كانت تدين بديانات أخرى لم تكن مصبوغة بصبغة التسامح فى العهد الأول لا انتشار الشريعة .

والذى نراه أيضاً فى أيامنا هذه قريباً من خلق التسامح الدينى ، العادات السياسية للحكومات الاسلامية ، وهى مظاهر من القانون العام فى الاسلام التي كثيراً ما يرد ذكرها فى مؤلفات السائحين فى القرن الثامن عشر ، وهذا منشؤه المبدأ الذى وضع منذ النصف الأول من القرن السابع (الميلادى) وهى حرية الاعتقاد لغير الموحدين .

وإن فكرة التسامح فى العهد الأول للإسلام مبنية على قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (سورة البقرة آية ٢٥٦) وهى فكرة استند اليها فى الأزمنة المتأخرة وفى بعض الحالات لا يقف تطبيق العقوبات الصارمة ، حماية لمن ارتدوا عن الاسلام وقد كانوا أكرهوا على اعتناقه .

وإن المعلومات التي لدينا عن الاسلام في سنيهِ الأولى تورد لنا كثيراً من الأمثلة عن التسامح الديني عند الخلفاء الأولين في حق أبناء الديانات الأخرى . ولقد كانت العمليات والنصائح التي كانت تسدى لقواد الجيوش قبل قيامهم للحرب من أبلغ النصائح وأفضل ما يقتدى به ، ومثال ذلك المعاهدة التي عقدت بين النبي (صلى الله عليه وسلم) ومسيحي نجران التي ضمنت احترام الأوضاع المسيحية . وكذلك كانت خطته لمعاذ ابن جبل عند ذهابه الى اليمن : ففيها جاء بالأزرعج يهودى في يهوديته ، وفي هذا المستوى عقدت جميع معاهدات الصالح التي منحت للمسيحيين الخاضعين للدولة البيزنطية ، اللهم إلا أن إقامتهم علنا لحفلاتهم الدينية كانت مقيدة بعض التقييد .

وعلى العكس من ذلك فانه مما يجب ملاحظته ما جاء في بعض النقد التاريخي لبعض المصادر أن طائفة من القيود المنسوبة لتلك الأزمنة القديمة لم تنفذ إلا في العصور المتأخرة التي كان نسب اليها التعصب الديني .

وكما أن المسلمين استرشدوا في اتباع دينهم بروح التسامح كان حتماً عليهم أيضاً فيما يتعلق بمعاملتهم لغيرهم في المسائل المدنية والاقتصادية أن يعاملوهم بالرفق والإنصاف ، فكان كل ظلم يقع على غير المسلمين الخاضعين للحكم الاسلامي (أهل الذمة) يعتبر في نظر المسلمين ذنباً يداقب عليه . ومن أمثلة ذلك : أنه لما عامل والى لبنان الأهليين بالقسوة حينما ناروا بسبب ظلم محصل الضرائب ، أرسل الى ذلك والى الإنذار التالى الذى نقل أنه حديث شريف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو : « إن من ظلم ذمياً خاضعاً لحكم الاسلام وكلفه بما لا طاقة له به فإنى خصيمه يوم القيامة » (أو كما قال) .

وفي أيامنا هذه أيضاً قد اطلعنا بالقرب من « بوسترا » على المكان الذى كانت مشيدة عليه « دار اليهودى » الذى روى عنه « بورتير » (Porter) في كتابه المعنون باسم « خمس سنين في دمشق » القصة التالية :

« إن في هذا المكان كان بنى مسجد فأمر عمر بهدمه لأن عامله كان استولى على دار اليهودى قسرا لينبى المسجد مكانها » .

وإن تكون الأراء القانونية الخاصة بعلاقات المسلمين الفاتحين مع الأمم المغلوبة كان لها المكان الأول فى وضع القوانين الجديدة ، ولكن كان لا بد من جهة أخرى من تنظيم جميع فروع الحياة الداخلية والدينية والشرعية المسلمين .

وكان لا بد من وضع قاعدة ثابتة للمحاربين الذين تشتتوا فى أنحاء البلاد قبل تحديد الشعائر الدينية نهائيا فى البلدان النائية التى يرتبط بعضها ببعض برباطة الدين ، وذلك لى يستطيع أولئك المحاربون أداء جميع واجباتهم الدينية وإقامة جميع شعائرهم المتعلقة بها ، وكذلك كان لا بد من إعطائهم قاعدة ثابتة — وهذا ما كان أشد صعوبة بكثير — لتحديد العلاقات القانونية التى بقى معظمها الى ذلك الوقت مجهولا عند الفاتحين الذين نزحوا من بلاد العرب ، فى سوريا ، ومصر ، والفرس ، كانوا يلجئون الى استقصاء العادات القديمة المحلية المؤسسة على الحضارات الغابرة ، وأحيانا الى التوفيق بين القوانين الوراثة وبين القوانين المكتسبة حديثا . وقصارى القول أنه كان لا بد من تقييد المسلمين فى معاملاتهم الشرعية بنظام من الوجهة الدينية ومن الوجهة المدنية ، فكانوا يتوسلون بالتقاليد الى حل المشاكل التى كانت تنشأ يوميا ، وفى الأحوال التى يختلف فيها الرأى كان يكفى فيها بلا شك حسن السياسة — وأخشى أن أقول كذلك — تعسف القضاة .

وهذا لم يكن ليرضى الأتقياء من الناس الذين كانوا يرمون الى توجيه الحياة الجديدة نحو قانون شرعى أراداه المولى (سبحانه وتعالى) ومتفق مع ميعول النبي (صلى الله عليه وسلم) . فكان لا بد فى كل الأمور من البحث عن إرادة الرسول (عليه السلام) واعتبارها كبدأ يسترشده فى الحياة العملية .

وإن أحسن مصدر يمكن أن يستقى منه العلم كان الصحابة، وهم جماعة من الناس عاشوا في صحبة النبي (عليه السلام) ورأوه وسمعوه يحكم، وعليه فانه كلما كان المرء قريباً من صحابي كلما كان في استطاعته أن يستخلص من أخباره مقتضيات الحياة الدينية وتفاصيل الشريعة الإلهية، ولما انقضى هذا العهد (عهد الصحابة) كان لا بد من أن نقنع بالمعلومات التي أمكن الحصول عليها في بعض المسائل التي كانت تطرح على بساط البحث في الأحوال المختلفة — كان لا بد أن نقنع في هذه المسائل بالمعلومات التي نتلقاها (من التابعين) ممن جاءوا بعد الصحابة والذين كانوا اتصلا بهم، وهكذا جيلاً بعد جيل حتى إلى أقرب الأزمنة إلينا، فكان يعتبر أي عمل من الأعمال أو حكم من الأحكام صحيحاً وحلالاً إذا أمكن إسناده إلى حديث صحيح متصل اتصالاً مسلسلًا غير منقطع بصحابي كان شاهداً أو سامعاً له من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعه عن رأيه (عليه الصلاة والسلام).

وإنه بمثل هذا الحديث الذي وضعت على أساسه تفاصيل المذهب والشريعة أمكن تدوين هذه التفاصيل بصفحتها الأعمال التي اتبعها قادة الإسلام وأول معتنقيه على مرأى وبموافقة الرسول (عليه السلام)، وهي السنة، أو الأعمال التي اعتادها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وإن الشكل الذي تدونت عليه يسمى «الحديث» وليس الحديث عبارة عن مجموعة مبادئ متشابهة، وإنما الحديث هو الوثيقة التي تضمنت السنة، فهي تثبت بواسطة سلسلة من الرواة الثقات الذين يروون جيلاً بعد جيل الرواية المرادة عما كان يعتبره الصحابة المبدأ الصحيح الوحيد في مسائل الدين والشرع، مستمدين في ذلك إلى إقرار هذا المبدأ من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذي يصبح بذلك القاعدة الواجب اتباعها في الحياة العملية.

ولما كانت السنة هي عبارة عن مجمل عادات وآراء أقدم طائفة من المسلمين، فإنها تعتبر أوفى تفسير للقرآن، وهناك مثال يبين ما للسنة من القيمة الكبيرة وهو ذلك

القول المنسوب للإمام عليّ (رضي الله عنه) الذي قيل إنه وصية أسداها الى عبد الله ابن عباس عند ما أرسله لمفاوضة العصاة، إذ قال له فيه: « لا تجاهبهم بالفرآن فإنه يمتثل تفاسير مختلفة وعدة وجوه، بل جاهبهم بالسنة فهي لا تترك لهم منفذا يخرجون منه ». ولا نبحت هنا عن صحة نسبة هذا القول لعليّ، وإنما هو على أي حال قول معروف من قديم الزمن ويعبر عن حقيقة عقلية المسلمين في ذلك الزمن .

هذا وإننا لا نريد أن ننكر كلية أنه لا يزال يوجد في الأحاديث التي نقلتها إلينا الأجيال اللاحقة بعض المواد القديمة التي إن لم تكن نقلت من نفس فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) فهي على الأقل منقولة عن الجيل الأول من زعماء الإسلام . ولكن من جهة أخرى فمن السهل أن ندرك أنه كلما بعد المرء من حيث الزمان والمكان كلما كان يخشى الإنسان من أن يكون قد صنعت بعض الأسانيد على شكل أحاديث صحيحة تماما في ظاهرها، ونرجع الى أعظم مصادر الإسلام : الى النبي (صلى الله عليه وسلم) والى الصحابة، وذلك لتعزيز بعض المبادئ من الوجهة النظرية أو التي يراد منها أن تتبع في الحياة المادية .

وفعلا قد حدث على أثر ذلك أن كل رأى وكل فريق وكل ممثل لمذهب من المذاهب قد اتخذ هذه الطريقة، وعلى ذلك قد وضع من القواعد ما كان منافيا لبعضه البعض بسبب هذه الطريقة، ولكن هذا لم يكن ليعزب عن يقظة المسلمين المتمسكين بدينهم، وفتحائهم الذين هم أول من وضعوا قاعدة عامية من أقوم القواعد العامة وأعمها فائدة، وهي علم « نقد الحديث » الذي كان الغرض منه التمييز بين الحديث الصحيح والحديث المشكوك فيه عند احتدام الخلاف، فكانت النتيجة النهائية لهذه الحركة النقدية هي الاعتراف في القرن السابع عشر بأن المؤلفات الستة التي جمعها بعض الفقهاء منذ القرن الثالث عبارة عن مجموعة للقواعد الشرعية؛ وقد اعتبرت هذه الكتب بأنها

المصدر الصحيح الأكد لسنة الرسول (عليه السلام) . ومن بين هذه المؤلفات يوجد اثنان رسميان (وسميا بهذا الاسم لأنه محظور رسميا المناقشة فيما اشتملا عليه) وهما البخارى (٢٥٦هـ/٨٧٠م) ومسلم (٢٦١هـ/٨٧٥م) ويعتبران أعظم مصادر سنة النبي (عليه السلام) وألحق بهما كتب أبى داود (٢٧٥هـ/٨٨٨م) والنسائى (٣٠٣هـ/٩١٥م) والترمذى (٢٧٩هـ/٨٩٢م) وابن ماجه (٢٧٣هـ/٨٨٦م) .

ويحل هذا المسكان الأخير مع بعض الاعتراض ، وقبل ذلك كان مالك بن أنس جمع عادات المدينة وطن السنة ، إلا أن رأيه لم يتفق مع جامعى الحديث . وبذلك قد ظهر بجانب القرآن مجموعة جديدة لمراجع الدين المكتوبة ، وهى مراجع من أهم المراجع التى يرجع اليها فى تفهم الاسلام والحياة الاسلامية . (يتبع)

أعظم طى فى هذا الجزء

صفحة	سطر	خطا	صواب
٦٩٥	٢١	فى وجود	فى وجوده
٦٩٩	١١	وجزوع	وجذوع
٧٢٣	٦	المواهب الأدبية	والمواهب الخلقية
٧٢٣	٧	عام ١٩٢٩	عام ١٩٢٨
٧٢٤	٤	خلوا تماما	خلوا تاما

dead from the living by the generation of animals from matter and matter from animals; and thou givest sustenance to whomsoever thou pleasest beyond all measures.”

(Baidawy's Commentary).

We should like to point out here that present-day physicists know more of the theory of the generation of life from matter than the commentators of the Koran knew.

WARNING AGAINST GOD'S WRATH.

To the ungrateful people who invoke the Lord in distress and forget Him in prosperity, the Koran saith :

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَجَاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَلَمْ تَنْتَهُوا أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أُمِنْتُمْ أَنْ
يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ تَتَّبِعَا

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

“And when distress afflicteth you out at sea and ye fear drowning, ye remember none of those whom you invoke except Allah to whom ye turn for deliverance; yet when He saveth you from drowning and bringeth you safely to the land, ye turn aside in thanklessness, for man is ever ungrateful.

What ! do you then feel secure that Allah will not turn the land upside down with you on it or that He will not send upon you a whirlwind that smiteth you with gravel ? Then ye shall find no protector to protect you therefrom.

Or do you feel secure that Allah will not cause you to put back to sea another time for some pressing need, and then send upon you a fierce gale and thus drown you on account of your thanklessness ? Then ye shall find no helper against Us.”

(Baidawy's Commentary).

THE END.

مُرْسَلٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“Whatever mercy Allah sendeth unto men as prosperity, peace, health and knowledge, there is none to withhold it; and whatever He withholdeth, there is none to send forth after His keeping it back, He is the Mighty with whom no one can dispute, the Wise who doth nothing except with perfect knowledge.”

(Baidawy's Commentary).

وَنَحْنُ قَسَمْنَا لِيَنفِهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۝

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“It is We who distribute among men their livelihood in this world's life wherefore they are unable to secure it for themselves though it is their personal concern; and We have exalted some of them by grades above others, and distinguished between them in livelihood.”

(Baidawy's Commentary).

CONTROL OF CREATION.

۝ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“Say : O Allah, Possessor of all power, thou givest of this power what thou wilt to whomsoever thou pleasest and takest away power from whomsoever thou pleasest; and thou exaltest in this world and the next, whomsoever thou pleasest extending thereunto thy favour and support; and thou abasest in this life and the hereafter, whomsoever thou pleasest imposing thereon failure and ignominy; in thine hands lieth all good and verily thou hast power over all things. Thou causest the night to pass into the day, and thou causest the day to pass into the night through the succession thereof; and thou bringest forth the living from the dead and the

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ
وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“And with Him are the repositories of unknown things, none knoweth them but He, He knoweth their set times and the wisdom of expediting or delaying their occurrence : He knoweth whatever is in the land or sea; and so great and comprehensive is His knowledge, that there falleth not a leaf but He knows it, neither a grain in the darknesses of earth, nor a green or sere thing but it is all in the Book of Decrees.”

(Baidawy's Commentary).

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَاعْلَمْ مَا تُسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“And certainly We have created man, and We know what passeth in his mind, and are more informed of his state than any one as close to him as his life-vein.”

(Baidawy's Commentary).

FINALITY OF HIS WILL.

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ
فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

“And if Allah should afflict you with misfortune as sickness or poverty, then there is none to lift it but He; and if He willeth you any good as health and prosperity, there is none to stop His favour; He will bestow His grace on whomsoever He pleaseth among His servants, and He is the Forgiving the Merciful, whose mercy is extended to those who obey His commands, and His forgiveness to those who never despair of His pardon.”

(Baidawy's Commentary).

« مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا

and its people think they are able to reap its harvest, Our behest to destroy it, cometh to it by night or by day and We render it mown down as though it had never teemed with fertility only yesterday. Thus do We make clear our signs to a people who reflect for they benefit thereby."

(Baidawy's Commentary).

GOD'S OMNIPOTENCE.

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

"Verily the way of Allah when He willeth aught, is but to say to it, Be, and It Is. So glory be to Him, He is above what the unbelievers say; He holdeth sway over all things and to Him shall all men, believers and unbelievers, be brought back."

(Baidawy's Commentary).

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

"And Allah is Almighty and Supreme over His servants; and He is wise in His ways and ministrations, and is cognisant of the secret state of His servants."

(Baidawy's Commentary).

HIS OMNISCIENCE.

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

"And you shall not be engaged in any affair, nor do you recite concerning it any text of the Koran, nor do you pursue any work, great or small, but We are witnesses over you and cognisant thereof when you are engrossed in it; and not the weight of an atom in the whole existence lieth concealed from thy Lord, nor is there aught smaller or greater than that, but it is recorded in the Preserved Tablet (Book of Decrees).

(Baidawy's Commentary).

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوي

“And as for those who disbelieved, they find that their deeds which they have deemed acceptable unto Allah, are void and disappointing in their results, like the mirage in a barren plain (desert) which the thirsty, in his great need, deems to be water; until he cometh to what he thought to be the place thereof, he findeth naught of what he imagined, and there findeth Allah to reckon with and is fully paid by Him in recompense of his deeds, for swift is the reckoning of Allah.”

“Or (Their deeds) like utter darkness in a deep sea covered by billows riding upon billows, above which are clouds that hide the stars and their light : layers of utter darkness one upon another, that when he reacheth forth his hand he could scarce see it ! And whomsoever Allah depriveth of guidance, will he have no light to guide him.”

(Baidawy's Commentary).

VICISSITUDES OF TIME.

Yet another striking parable showing the way of the world and the changes to which men are subject, is the following verse :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْتَوَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوي

“Verily the strange way of this world's life, in its rapid elapsion, its short-lived prosperity and its deluding of men, is like unto the water which We send down from heaven, and which causeth the herbage of earth, such as vegetables and grass, of which men and cattle eat, to grow luxuriantly and entwine together, till the earth putteth forth its beauteous raiment and is decked out in all the glory of plants and flowers of different hues,

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ،

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah, besides whom there is no God worthy of worship, the eternal, the self-subsistent by whom all creation subsisteth; slumber overtaketh Him not nor doth sleep; His, whatever is in heavens and whatever is on earth. Who there is, in heavens or earth, that can intercede with Him without His permission for none is equal or like unto Him. He knoweth men's future and past, yet nought of His knowledge can they grasp save what He willeth them to know. His knowledge extendeth over the heavens and the earth, and the preservation and control of both burdeneth Him not; He is the Most High, the Great, none to compare with Him."

(Baidawy's Commentary).

WORSHIP OF GODS OTHER THAN ALLAH.

To those who worship gods other than Allah the Koran saith :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"O men ! a parable revealing a strange case is set forth unto you, wherefore hearken attentively unto it. Surely the idols whom ye invoke to the exclusion of Allah, cannot create a fly, small as it is, even though they should all assemble for its creation ! And should a fly carry off aught from them, they cannot resist and are unable to recover what is taken from it. Weak indeed are they both (worshipper and worshipped or idol and fly).

(Baidawy's Commentary).

STATE OF UNBELIEVERS.

Of those who disbelieved, the Koran saith :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ «

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

“The unbelievers say that the Beneficent Allah hath begotten issue (1); glory be to Him for He is above what they say. Nay the angels are but his honoured servants created by Him and are not His issue. They speak not except what He ordaineth and never do they act against His bidding. Nothing there is that He knoweth not of their future and past deeds, and they intercede (plead) not save for whom He pleaseth, and for fear of Him they tremble.

And whoever among the angels or creatures, should say : “Surely I am a god besides Allah,” such will We recompense with hell for thus do We recompense the offender who attributeth partners to Allah and claimeth godship for himself.”

(Baidawy's Commentary).

« وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

“The God who meriteth worship is only one having no partner to be worshipped with Him; there is no god worthy of worship but He, He is the Merciful, the Beneficent who is the source of all blessings.”

(Baidawy's Commentary).

In these verses, the Koran has established once for all, that there is no God but Allah and that prophets are definitely excluded from godship. Nay they have no right to intercede or plead for anyone unless it pleases the Lord that they should do so. Could there be then a more conclusive evidence of their exclusion from godship than the very words of the Koran ? Yet, it pleases the missionaries in Europe and America to convey to the simple-minded people that Mohammed called men to worship him and that the Moslems worship Mohammad to the exclusion of God. The reason for this unfounded libel is not hard to find, they wish to portray Islam before the eyes of the world, as a pagan religion and a savage creed; but truth shall prevail some day and the world shall know of True Islam no matter how dark missionaries choose to paint it.

ALL-PERVADING PROVIDENCE.

وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا

(1) Khuzaha, an unbelieving tribe, alleged that angels are the daughters of God.



THE HOLY KORAN (1)

(Continued):

In the preceding chapter, we have discussed the miraculous nature of the Koran and advanced many proofs in testimony of its divine origin. The discussion would not however be complete without a short survey of the subject matter of the Book itself, and we therefore, give in the following pages a few quotations from this Holy Book treating of diverse subjects and leave it to the reader to judge for himself the truth thereof.

UNITY OF GOD.

To begin with we quote what the Koran says concerning the unity of God :

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يُصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البضاوى

"Had there been in heavens and earth other gods besides Allah, they would both have surely fallen into disorder on account of the difference and contrariety between them; so glory be to Allah the Lord of might and power, who holdeth sway over all things and is above what the unbelievers attribute unto Him of having a partner, wife or son.

"He shall not be questioned concerning what He doth for He is mighty, omnipotent, but they shall be called to account being mere servile servants."

(Baidawy's Commentary).

«وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ
بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's book "Messages of Peace."